منهل الورّاد
في
علم الانتقاد

الجزء الاوّل

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عفي عنهُ

مطبعة الاخبار

اهدآء الكتاب

جرت عادةٌ لمتقدمي العلمآء والكتَّاب في هذا اللسان العربي المبين ، أن يهدوا تآليفهم لبعض أمرآء عصرهم وحكام زمانهم ، كما فعل أبو منصور الثعالبي باهدآء كتابهِ نثر النظم وحل العقد الى الملك المؤيد أبي العباس خوارزم شاه ، وكتابيهِ المشهورين فقه اللغة ويتيمة الدهر ، الى الامير عبيد الله أبي الفضل الميكالي . وحذا حذْوَهُ الفتح ابن خاقان باهدآء كتابهِ قلائد العقيان الى أمير المؤمنين أبي اسحق بن يوسف بن تاشفين ، وقفا إثرَهما الفيروزابادي باهدآء القاموس لمجلس الملك الاشرف اسمعيل صاحب اليمن ، وجرى على منهاجهم الفيلسوف ابن خلدون باهدآء تاريخهِ المشهور ، الى أمير المؤمنين أبي عبد الله المرينّي ، ونحا هذا النحو عددٌ

وافر من العلمآء والافاضل . فمنهم مَن كان يؤلّف بأمر الملوك والامرآء ، ومنهم من كان يُهدي الى مجالسهم العالية ما تجود به قريحتهُ ، لا يبالون بما يصرفونهُ من الوقت الطويل ، في هذا السبيل ، فساعات العلمآء قصيرة ، ولا بما يتحملونهُ من المشاق ، ويعانون من الانصاب في المراجعة والتحقيق ، فهم يشعرون معها بلذّاتٍ كثيرة ، ولا بما يحتاجون اليه من النفقة لراحة البال والدَعة ، فان المنح الملوكية ، والعطايا السنية ، كانت تتوالى عليهم من أولئك الملوك والامرآء ، وكان لكتبهم المهداة أرفع منزلةٍ عند أمرآء عصورهم والعظمآء ، لمعرفتهم قدر العلم ، وتقديرهم مقامات الكتَّاب والعلمآء ، وما يعانيه هؤلآء من الانقطاع عن اكثر الملاذّ البشرية في سبيل تلك المؤلفات ، وغرضهم منها تخليد ذكر من أهديت اليه من افاضل بني الانسان ، وتمهيد سبل المعارف البشرية لترقّي العمران .

وكان السلطان سليمان الاول من آل عثمان أعزَّهم الله وخلَّد ملكهم ، مشهوراً بالفضل ، مذكوراً بالنبل ، محباً

للعلمآء ، مشجعاً للشعرآء ، وكان يجالس سليمان شلبي وأحمد الطآئي الشاعرين والطبيب حاجي باشا الآيديني ويجزل لهم الصلات .

وللسلطان سليمان القانوني العظيم الملقّب بالعادل، شهرة تخرّ لها الرؤس ، وتسجد الاقلامُ فوق الطروس ، وكان نصير المتفننّين ، وعضد العلمآء والمتأدبين ، فمواهبهُ السلطانية الجزيلة ، وشغفهُ بالصناعات الجميلة ، وما أسّسهُ من العمران ، وأقامهُ من فخيم البُنيان ، وأشعاره الكثيرة التي كان ينشرها تحت اسم المحّبي وهو اسم مستعار ، ترفع له فوق الارض أعلى منار ، من المجد والفخار ، وتحيي له أشرف تذكار ، ما تعاقب الليل والنهار .

ولما اشرقت انوار الانبعاث العلمي في ايطاليا ، سلك مشاهير البابوات طريقة ملوكنا وأمرآئنا ، في تنشيط العلوم والفنون ، وتكريم العلمآء واسعافهم وتعظيم مقاماتهم ، كما فعل البابا اسكندر السادس ، وضرب على قالبِهِ البابا لاون العاشر من آل ميديسي ، وأُئتمَّ بهَدْيهما البابا بولس الثالث

مما هو مذكور في تواريخهم ، وتبعهم في ذلك آخرون .

ثمَّ لما امتدّت أشعة أنوار الانبعاث العلميّ ، الى سائر أروپّا ، وقام لويس الرابع عشر ملك فرنسا الملقَّب بالكبير ، وبالشمس ، فاق جميع مَن تقدَّمهُ عندهم ، في تعظيم أقدار العلمآء والمتفنّنين ، وتكريم العلم ومساعدة العبقريّين ، وتلا علمآءُ عصرهِ والشعرآء ، يِتلوَ علمآئنا في اهدآء مؤلَّفاتهم تارةً لبعض أمرآء ذلك العصر ، كما فعل كورنيل ، ومولييار ، وراسّين ، وطوراً الى الملك الكبير نفسه ، وكان يستمع مع سائر حاشيته وكبار مملكته ، انشادهم وتمثيلَهم ، ويشجّعهم على تحسين الشعر والكتابة وباقي الفنون ، لبصرهِ فيها وحسن نقده ، وكان يجالسهم ، ويجد في محادثتهم بتلك الفنون لذةً وانبساطاً ، ولم تكن مواهبهُ لهم ، دون عنايتهِ بهم .

وكان فريديريك الكبير ملك بروسيا من أكابر الكتّاب ، وكانت بينهُ وبين ڤولتير المشهور ، صحبةٌ ومراسلة منذ كان وليَّ عهدٍ ، فلما ارتقى عرش الملك ، أرادهُ وعمل على افساد ما كان بينهُ وبين بلاط ملك فرنسا من الصداقة ، ليجمّل به

قصرَهُ ، ودارَ العلمآء في برلين عاصمة ملكهِ ، فتمَّ له ما اراد ، وجعلهُ نديمهُ وجليسهُ ، وعيَّنَ لهُ راتباً سنويًّا قدرهُ عشرون ألف ليرة (من دراهم مملكة بروسيا لذلك العهد) ثمَّ انهُ شرَّفهُ بمنحهِ لقبَ حاجب الملك ، وأنعم عليه بوسامٍ سامٍ . وكان ڤولتير يأكل على مائدة هذا الملك العظيم ، وألَّف كثيراً من كتبهِ في قصره ، وكان الملك ينافس فيه ملكهُ لويس الخامس عشر ملك فرنسا . فانظر عناية هؤلآء السلاطين والملوك برجال العلم .

ولو شئتُ تعداد المؤلفين الذين أهدوا كتبهم ، الى الملوك والامرآء الاعاجم خصوصاً آل ميديسي حُماة المعارف والفنون ، لملأت سفراً ضخماً ، لكني رأيتُ ان أشير الى ذلك ، حسبما استدعاهُ مقام الكلام .

ولما توفَّرت اسباب الحضارة عند الفرنجة ، واتَّسعت مذاهبهم فيها ، كما نراهُ ليومنا هذا ، وبلغت العلوم والفنون عندهم مكاناً عليًّا ، حتى صار يكرَّر طبع الكتاب من كتب الادب ، والشعر ، والقصص ، وغيرها الى المئة مرةٍ في كلِّ

منها يُطبَعُ ألف بل ألوف ، استغنى كبار الكتّاب عن اهدآء كتبهم الى الملوك والامرآء ، واصبحت مؤلفاتهم ، موردَ ثروةٍ يتدفّق معينها عليهم ، وعلى الطبّاعين ، والكتبيين ، والممثلين ، واصحاب الملاعب ، والصحف والمجلات ، وحسبك أن تعلم ، ان كتاب قصّةٍ أو روايةٍ متقَنَةٍ ، يعود على بعضهم ، بخمسين ألف دينار ، كما لا يجهلُ ذلك من وقف على اخبارهم لهذا العهد ، فاعتاضوا عن اهدآء مؤلّفاتهم الى الامرآء ، باهدآئها الى الاقربآء والاصدقآء ، تذكاراً للودّ والولآء ، أو تنويهاً بأهل الفضل من هؤلآء .

ومنذ انبعاث العلوم عندنا في نصف القرن الاخير ، الى يومنا هذا ، لم يتقدم الاّ نفرٌ قليلٌ من العلمآء والادبآء ، على اهدآء كتاب الى احد الامرآء أو الاغنيآء ، ولم نسمع عن أحد من ذوي اليسار ، في سائر اطراف المعمور ، أجاز عالماً من علمائنا على تأليفٍ ، جائزةً يذكرها التاريخ ، كما ذكر أمثال ذلك في القرون الخالية ، الاّ أفراد وقليلٌ ما هم ، مما ظهر عندنا من التآليف الجليلة .

فليتَ شعري أكان ذلك لنقص استحقاق المعاصرين ، عن أن يُعَدُّوا في صفوف مَن سبقهم من العلمآء ، أم لبعد أهل هذا الزمن ، عن مجاراة مَن تقدمهم عصراً في محبة العلم والفضلاء .

أُجيبُ وحسنُ الظنّ بالحرّ أجدر ، لعلَّ لنقص حظ هؤلآء الافاضل حصةً وافرة من هذا الحرمان ، فان بين أيدينا من تصانيفهم الجليلة ، ما يُعلي قدر هذا العصر الجديد ، وما يبلغنا كلَّ يومٍ عن كرم بعض الامرآء والاغنيآء ، — في غير هذا الباب — ما يُنسي كرم البرامكة والرشيد .

على ان بعض العلمآء والكتَّاب عندنا اقتدى بالافرنج ، في اهدآء كتابهِ ، الى أحد من اصحابه ، بيدَ أن الفرق بين صنعهم وصنع الفرنجة ، هو ان جماعتنا أهدوا برًّا بالصداقة لم يكسبهم صنيعهم غيرَ الثنآء ، وألئك لاعاجم ، انصبَّ عليهم المال صبًّا ، فوق وافر الثنآء ، حتى عُدُّوا بين الاغنياء ، فراجت عندهم سوق العلوم ، ونفقتْ فيها بضاعتهم ، حتى بلغوا ما نراهُ لهـم اليوم من الترقي والنجاح ، وحتى وُجد

بينهم أمثالُ روكفلّر الغني الاميركاني الشهير ، يهبُ المائة وخمسين ألف دولارٍ ، لتوسيع مدرسةٍ في بلاد مصر كي يتهذَّب فيها قومٌ ليسوا من أمتهِ في شيء ! ! فلا حولَ ولا قوةَ الاّ بالله .

وجملةُ القول انني لم أجسر على اهداء كتابي هذا لاحد من الامرآء ، ولا استحسنتُ اهدآءهُ لاحد من افاضل العلمآء ، لا لنقص عدد هؤلاء ، فانهم والحمدُ للهِ كثيرون ، ولا لبعدي عنهم ، فانَّ لي منهم جمهوراً أعتزُّ بولائه ، بل لحَيْرَتي في اختيار مَن أختارهُ ، خشيةَ أن يُنسَبَ اليَّ تفضيل أحدهم على سواه ، وهم عندي كأسنان المشط ، لا زالوا مصابيحَ هذه الامَّة .

وحيثُ انَّ الاقتدآء بأهلِ الفضلِ رباح ، والتشبُّهَ بالكرام فلاح ، رأيت ان لا أطلق كتابي هذا دون اهداء ، فجعلتهُ هديَّةً لطلاّب العلم وتلامذةِ المدارس ، لا أقصدُ بالهديَّة اهدآء الثمن ، فانه شيءٌ زهيد ، لا يليق بي اهدآؤه الى أصغر الصعاليك ، وانما أريد بهديتي هذه لهم ، فائدةً أرجو ان

يقعوا عليها ، في تضاعيف سطورٍ ، صرفت على تدوينها ، قسماً من العمر ، وحصةً وافرةً من الزمن في التفتيش والتنقيب ، وساعاتٍ بل أياماً ، بل أشهراً وأعواماً ، في كدّ الفكرة ، واجهاد القريحة ، قصدَ شحذ اذهانهم ، وتوسيع مداركهم ، فأنا بذلك أهدي لهم أعزَّ ما يهديهِ مخلوقٌ الى مخلوق ، فان وقعتْ هديتي هذه لديهم موقعَ القبول ، عددت ذلك من حسنات الأيام ، وشجَّعني اقبالهم ، على تأليف كتابٍ آخر ، مما أحسَبُ اننا في حاجةٍ قُصوى اليه ، وإن خاب الأمل ، ولم يُقدَرْ قدر العمل إنتسيتُ بما قُضي على تآليف أفاضل القرنِ الأَخير ، وقلتُ لطلاَّبِ العلم بل لجمهور الأَدب الكبير ، بلسان الشاعر الأَمير

نقصُ حظي أنالَني منكَ هذا فعلى الحظِّ لا عليكَ العتابُ

وقانا اللهُ معرّةَ الخجل ، وخيبةَ الأَمل ، بمنهِ وجودهِ .

مصر في ١١ كـ ٢ (يناير) سنة ١٩٠٧



المقدمة

الحمد لله الذي ترتوي من منهل حكمته ألسنة الوُرَّاد وتعجز عن استجلآء كنه ذاته أبصار النقاد وبعدُ فلا يجهل احد من العلمآء والكتَّاب والمتفننين الذين لهم في الصناعات الجميلة فصل الخطاب ما للانتقاد من جزيل الفوائد اذا جاءَ من اهله وما ينجم عنه من المفاسد اذا جعله الغبي غرض جهله ومابرحت تحوم حوله خواطر الفلاسفة والعلمآء في كل عصر وتشرئب اليه اعناق المتفننين والادبآء في كل مصر وتنشر به الامالي منظومة كاللآلي في عقود الدر وتنكشف به خوافي المعاني حتى ليُخيَّل انه من علوم السحر الى ان أصبح في أواخر القرن الاخير شغلاً شاغلاً لكل عالم كبير وفيلسوف نحرير وأيقن جميعهم انه قسطاس العلوم والفنون وعروضها الذي يظهر به المختل من الموزون واضحى علماء

النقد في مقدمة الفلاسفة واهل العلم وأُلقيت اليهم مقاليد الرئاسة بين ذوي النظر والفهم فاخذوا في نقد مؤلفات العلمآء والشعرآء النابغين من الماضين والمتأخرين بل ومصنوعات المتفننين من نقاشين ومصورين ونحَّاتي تماثيل وموسيقيين ومهندسين وممثلين فوفوا كلاًّ منهم حقه وذكروه بما استحقه فما كان له من سيئة مستورة أشاعوها وفضحوها ومن حسنة مكتومة أذاعوها ومدحوها ومن غلطة مدفونة أبانوها ونبثوها ومن نكتة مجهولة أعلنوها وبثوها فاقبل الناس على مؤلفاتهم اقبال الجياع على القصاع وأنزلوها منزلة الاعلاق النفيسة التي لا تُعارولا تباع بل رغبوا فيما قرظوه ومدحوه وانصرفوا عما قدحوا فيه وطرحوه فاحيوا بعملهم أسماءً طواها العفآء ونشروا أشياءَ كاد يدركها الفنآء ورفعوا قدر بعض العاديات الى ما يحاكي مقام المعبودات فتزاحم الطباعون على طبع ما ألفوه وتسابق الشارون الى احتكار ما طبعوه حتى لم يعد يظهر عندهم كتاب لعالم مذكور أو كاتب مشهور الا تلته مقالات الانتقاد تنشر في صحف البلاد بل ما زالت

تتعاقب كتب النقد حتى تجاوزت الحصر والعد وانقطع كل واحد من هؤلآء العلمآء لنقد احد العلوم أو فن بالحسن والبراعة موسوم فهذا لكتب التاريخ وذاك لكتب الروايات وغيره لكتب الادب وسواه للشعر وآخر للتصاوير الى ما تضيق عن تفصيله هذه المقدمة لما هو معلوم من تشعّب العلوم والمعارف وتفرع الفنون والطرائف

واني لم أزل منذ ستة عشر عاماً أتتبع سير هذا الفن الجليل مكبّاً على مطالعة كتب ائمته من الفرنسيس اصحاب الباع الطويل حتى صار ذلك هوى النفس لا تنزع الاَّ اليه وشاغل الطرف لا يُحب ان يقع الاَّ عليه وفي خلال ذلك كنت أقلّب القديم والحديث من كتب العرب لعلي أظفر بشيءٍ مترجم عن اليونان أو بكنز فكر في بعض الزوايا احتجب فلم أفز بالضالة المنشودة ولا يجد المرءُ معدوماً وان بذل مجهوده فكاتبت في ذلك بعض الاخوان الادباء وجهابذة العصر وائمة العلمآء في بر الشام والاقطار المصرية وغيرها من البلاد العربية لعلهم يكونون قد عثروا على شيءٍ من ذلك

فكانت أجوبتهم مكذبةً رائد الآمال هنالك بيد انهم أحسنوا بي الظن وهم معدِن الكرَم وتقدموا اليَّ في كتابة شيءٍ في هذا الفن وقداستسمنوا ذا ورَم فاجفلتُ اجفال النعام وقلتُ أين انا من هذا المقام واعتذرت اليهم بالعجز عن ذلك فلم يقبلوا لي عذرا وراسلوني ملُحّين مشجعين حتى رأيتُ مخالفتهم فظاظةً أو نكرا فأجبت طلبهم اجابة من رأى كمال الادب في الطاعة وشمرت عن عزيمة لم يعبها غير نقص البضاعة مع ما تزاحم على كاهلي الضعيف في تلك المدة من عوامل الاشغال وما هاجم الخاطر الفاتر من جيوش البلبال

وهنا لا بد لي من ان أقص على القارئ ما دهاني من الحيَرة والاضطراب عند اخذي القلم لتأليف هذا الكتاب اذ كل ما كنت اطلعت عليهِ من كتب هذا الفن في اللغة الفرنسوية لا ينطبق على ما عقدت على تأليفه النية الاَّ من وجه خفي اجمالي وطرف ذهنيّ خيالي فان جميع ما قرأته لجهابذة هذا الفن المشهورين مثل سنت بوف(١) ورينان(٢)

١ ST. BŒUVE ٢ RENAN

وتين[١] وفرديناند برونتير[٢] واميل فاجه[٣] وجول لوميتر[٤] وادولف بريسّون[٥] وغيرهم من المعاصرين لا يتعدى نقد مؤلفات ومصنوعات ومؤلفين ومتفننين فيما ان الغرض الذي كنت أرمي اليه والمنهل الذي كنت أحوم عليه هو وضع كتاب في قواعد هذا الفن الجليل يبيح للطالبين استيعابها في وقت قليل ولم اكن اشك لحظة في وجود مثل هذا الكتاب عند أمم الفرنجة الذين كشفوا عن أسرار العلوم كل حجاب فباشرت كتابة الفصل الاول من كتابي هذا على ان يكون منهلاً للورّاد بل جنة بها من كل فاكهة زوجان في علم الانتقاد وكتبت الى بعض الاصحاب الافاضل في عاصمة الفرنسيس ان يتحفوني باجل مؤلف في قواعد هذا العلم النفيس رغبة في ترجمة القواعد التي هي الغرض الخطير واتخاذه لي هادياً في هذا المطلب العسير فما كان اعظم دهشتي عند أخذي أجوبة الاصحاب على اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى تفيد ان ذلك شيء لم يؤلف فيه كتاب ولا شيَّد

١ TAINE ٢ F. BRUNETIÈRE ٣ E. FAGUET ٤ JULES LEMAITRE
٥ A. BRISSON

له احد من علمائهم مغنى وانهم يعتبرونه من الفنون الذوقية التي لا تخضع لقواعد علمية فما زادني العجب من هذا الزعم الا استمساكاً بما عقدت عليه العزم لا عناداً قبيحا بل لاني لم اجد زعمهم صحيحا ولا رأيهم هذا قرين الصواب كما سترى ذلك في محله من هذا الكتاب

ومما زادني تشجيعاً على مواصلة التصنيف بعد ان تقوضت حصون آمالي من الفوز بسفر من هذا التأليف تترى الرسائل التي كانت تردني من أفاضل الاخوان واشهر كتَّاب العصر وائمة علماء الزمان في وجوب متابعة العمل خدمة للعلم وطلاّبه واجابةً لحاجة العصر وقد راجت سوق آدابه

على انني لو نظرت الى جرأتي بعين المنصف الحصيف لما ركبت هذا المركب الخشن وانا العاجز الضعيف ولكن طمعي بحلم أهل العلم والفضل قد أوطأني الوعر وجاز بي السهل

وقد قسمت الكتاب الى قسمين كسرت القسم الاول منه على تاريخ النقد وموضوعه والقسم الثاني على قواعده وفروعه وجلّ ما كتبته من تاريخ النقد عند سائر الامم في

الفصلين الثاني والثالث وبعض الرابع استفدته من كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية فهي حجة بلا منازع وما سوى ذلك فهو بضاعة القريحة العديمة ونتيجة الفكرة العقيمة وثمرة البحث والتنقيب كما يتضح ذلك منه للمحقق الاديب فاني لم أظفر بفريدة تليق بموضوعه الا ضممتها بسلكه ولا التبس عليَّ دينار فضل الاَّ اسرعت في نقده وسبكه وقد بذلت ما في الوسع ليكون سهل الفائدة على الطلّاب واكثرت من امثلة النقد لتمرين التلامذة والكتّاب بغية أن يلج الحلقات العالية في المدارس ويكون سمير الشبان في الخلوات والمجالس وما منهم الاَّ من يقرأ أو يسمع فلا يخطر على بالهِ الانتقاد أو من ينتقد بلا آلة فلا يهتدي سبيل الرشاد ومعلوم ما لدرس هذا الفن من الفوائد في شحذ القرائح والاذهان وتوسيع مدارك طلّاب العلم على الخصوص من الشبان وقد تخيرت في نقدي أشهر الشعراء والكتبة الاعلام ليحتذي الطالب اسلوبهم في صوغ الكلام واستفرغت جهدي لجعله مورداً سائغا ومشرعاً

بالغا فان كان فيه شيء من الفائدة أو الصواب فحسبي بها صحيفة أبيّضُ بها وجهي يوم الحساب

فانظرْ الى صنعي بحلمِكَ ثمَّ قلْ   انَّ القليلَ من المقلّ كثيرُ

وان كان فيه مغامز ولا بدَّ ان يكون فايّ كتاب راح سليماً من سهام الظنون وقد تقرر عند الحكمآء والعلمآء انه ليس على واضع العلم الاحاطة والاستقصآء بل حسبه أن يؤسس القواعد او بعضها ويمهّد الاركان وعلى الاجيال التالية ان تكمّل البنيان فتحذف من القواعد ما تراهُ زائدا أو تزيد ناقصاً يكون لصلتها عائدا أو تبدل ترتيبها أو تحكم وضعها وبالجملة فهذا كل ما في طاقتي ولا يكلف الله نفساً الاَّ وسعها

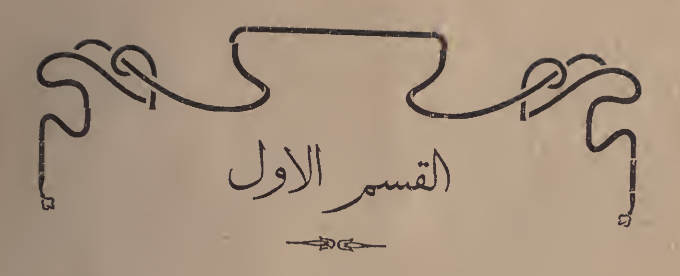
ولعلي اذا راجعت عملي هذا بعد عام او بعض عام ارى فيه ما هو حريٌّ بالحذف أو بزيادة الكلام وقد قرأت شيئاً جديراً بهذا المقام للعماد الاصفهاني كتبه الى القاضي عبد الرحيم البيساني معتذراً عن كلام استدركه عليه بكتاب وجَّههُ اليه قال انه وقع لي شيء وما ادري أوقع لك أم لا وها أنا اخبرك به وذلك اني رأيت انه لا يكتب

انسان كتاباً في يومه الاَّ قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد (كذا) لكان يستحسن ولو قدّم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر

وقال الامام ملاَّ كاتب جلبي لا يخفى عليك ان التعقب على الكتب سيما (كذا) الطويلة سهل بالنسبة الى تأليفها ووضعها وترصيفها كما يشاهد في الابنية العظيمة والهياكل القديمة حيث يعترض على بانيها من عرى في فنه عن القوى والقُدَر بحيث لا يقدر على وضع حجر قال هذا جوابي عما يرد على كتابي

هذا ما قاله ذلك الامام الجليل وما انا منه الاَّ بمنزلة البعوضة من الفيل فاسأل المنصفين من ذوي الفضل الباذخ والمعارف الواسعة والعلم الراسخ أن يقابلوا ما يجدونه في كتابي هذا من الزلات بالصفح وان يسدُّوا خلله بالترقيع لا بالقدح فان العصمة والكمال لمن تفرد بالجلال وهو حسبي وعليه الاتكال **قسطاكي الحمصي**

مصر في ١ (يوليو) تموز سنة ١٩٠٦



القسم الاول

الفصل الاول

في

تاريخ النقد عند العرب

لم يكن النقد من العلوم المعروفة عند العرب في عصر من العصور ومع ان الانتقاد من الغرائز التي عُرفوا بها في كل زمن فلم يحدّدوا له رسماً ولا عرفوا له اسماً ولا اشتقوا من اسمه فنّاً غير ما هو معلوم عندهم من نقد الدراهم أي تمييز جيّدها من زَيفها قال في لسان العرب: النقدُ والتنقاد تمييز الدراهم واخراج الزيف منها. ونَقَد الشيء ينقده نقداً اذا نَقَره باصبعه كما تنقر الجوزة.. وناقدت فلاناً اذا ناقشته في الامر: ومع ان المعنيين الاخيرين يفيدان جل المفهوم من كلمة الانتقاد لهذا العهد فلم يصل الينا شيء يدل على استعمالهم

مغزى هذه اللفظة بمعناها المفهوم منا اليوم الى ما بعد الاسلام بمدةٍ طويلة

بَيْدَ ان ذلك لم يمنعهم من محاولة الاشتغال بهذا الفن جرياً مع ميلهم الطبيعي اليهِ فكان حالهم حال الطفل تدفعه الغريزة الى الوقوف اولاً ثم المشي فلا يقف حتى يقعد ولا يمشي الاَّ ليقع ثم ينهض ليعود الى عمله من السير على غير هدىً فيسقط في حفرة قد تكون سبب هلاكه لانه طلب الشيء قبل أوانه ولا ذنب له بذلك فهو كما تقدم القول مدفوع بميل طبيعي الى غايته وهي المشي على قدميه

فهذه معارضاتهم واستدراكاتهم وتعقيباتهم واعتراضاتهم وجدالاتهم ومشاحناتهم وغير ذلك مما فنَّدوه وذيَّلوه وعلَّقوه وحشُّوه وزيَّفوه وغلَّطوه كلها شاهدة بما طُبعوا عليه من الميل الى الانتقاد الاَّ انه لما لم يكن عندهم علماً مقيداً بقواعد وشروط ولا فنًّا ذا أصول وفروع قد ضلّوا في سبله وتاهوا في بواديه ومالوا مع الاهوآء فزاغوا عن سوآء القصد وابعدوا عنه كل البعد

فمن هذا القبيل معارضات دعبل ومسلم بن الوليد لابي نواس ومعارضاته لهما ولغيرهما .وان ارتقينا بالبحث عن طفولية هذا الفن عند العرب فابو محمد عبد الله بن قتيبة صاحب أدب الكاتب هو من أقدم النُقَّاد ومقدمة كتابه المذكور شاهدة بعلو كعبه في قسم من هذا الفن ولا بأس من ايراد شيء من المقدمة المذكورة قال :

ونحن نستحبُّ لمن قَبلَ عنا وائتمَّ بكتبنا ان يؤدب لسانه ويهذب أخلاقه قبل ان يهذب الفاظه ويصون مروءته عن دنآءة الغِيبة وصناعته عن شَين الكذب ويجانب الوقيعة قبل مجانبته اللحن وخطل القول وشنيع الكلام ورفث المزاح « ما أشرف هذه المبادئ واسمى هذه القواعد » الى ان قال ونستحب لهُ أيضاً ان يترك (كذا) الفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب اليه وان لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام فاني رأيت الكتَّاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيهِ فليس يفرقون بين مَن يكتب اليه — فرأيتُ في هكذا — وبين

من يكتب اليه — فاني رأيتُ كذا — ورأيكَ انما يكتب بها الى الاكفاء والمساوين ولا يجوز ان يكتب بها الى الرؤساء والاساتذة لان فيها معنى الامر ولذلك نُصِبَتْ . ولا يفرقون بين من يكتب اليه — وأنا فعلت ذلك — وبين من يكتب اليه — ونحن فعلنا ذلك — ونحن لا يكتب بها عن نفسه الاَّ امراؤنا لانها من كلام الملوك والعظماء(١) الى ان قال وقال ابرويز لكاتبه في تنزيل الكلام انما الكلام أربعة سؤالك الشيء وسؤالك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عن الشيء فهذه دعائم المقالات ان التمس اليها خامس لم يوجد وان نقص منها رابع لم تتم فاذا طلبت فاسجح واذا سألت فأوضح واذا أمرتَ فاحكم واذا اخبرت فحقّق واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول قال ابن قتيبة وليس هذا بمحمود

(١) مما يحسن نقده هنا ان ابن قتيبة قد افتتح هذا الكلام بقوله ونحن نستحب الخ فكيف ذهل عن ذلك فاما ان يكون قوله ونحن لا يكتب بها عن نفسه الخ خطأ وصحتها ونحن فعلنا لا يكتب بها الخ واما انه اتى مثل ما نهى عنه وهذا من العجب بمكان

في كل موضع ولا مختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال

وعبد الله بن المقفع صاحب الدرة اليتيمة هو من النقّاد السابقين ومن أنعم النظر في كتابهِ المذكور علم منزلته من النقد وحسبك جوابه لمن قال لهُ من أدَّبك قال نفسي اذا رأيتُ من غيري حسناً أتيته وان رأيت قبيحاً ابيته

ومعارضة أبي فِراس الحمداني للمتنبي عند انشادهِ قصيدته التي مطلعها وا حرَّ قلباهُ ممن قلبهُ شَبِمُ هي من هذا القبيل ومن شآء الوقوف عليها فليراجعها في العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب

والخوارزمي صاحب كتاب مفاتيح العلوم كتب في الباب الخامس الفصل الخامس في نقد الشعر وهو على حد ما كتب سائر علمآءِ البديع في عيوب الشعر لم يخرج عن ذلك في شيء

وابن العميد كان يحسن نقد الشعر وحسبك اعتذار المتنبي اليه وكان قد عاب القصيدة الرآئية عليه فقال يخاطبه :

أنا من شدة الحيآء عليلٌ مكرماتُ المُعلّهِ عوّادُهْ

ما كفاني تقصير ماقلت فيه عن عُلاَهُ حتى ثَنَاهُ انتقادُهْ

الى أن يقول :

ماتعوَّدتُ ان أرى كأَبي الفضـ   ـل وهذا الذي أتاهُ اعتيادُهْ

قال الواحدي وهذا يدلّ على تحرُّز ابي الطيب منه وتواضعهُ لهُ ولم يتواضع لاحد في شعرهِ تواضعهُ لابن العميد

والصاحب ابن عبَّاد كان ممن المولعين بفن النقد وكان من المولعين بنقد شعر المتنبي على الخصوص

وأبو القاسم الآمدي كتب شيئاً من النقد في كتابه الموازنة بين ابي تمَّام والبحتري لكن نقده لم يخلص من شائبة التشيّع ولم يخرج عن حدود نقد اكثر الشرَّاح كالواحدي والعكبري وغيرهما اذ يسوقهم الهوى واحياناً الاثَرَة الى ترجيح رأيهم على رأي سواهم حتى لقد يقدمون على ترجيح الباطل على الحق تأييداً لذلك كقول الآمدي ان ابا تمام برَّز على مسلم بن الوليد في معنى اخذه منه وهو قول مسلم

يصيب منك مع الآمال طالبها
حلماً وعلماً ومعروفاً واسلاما

فقال ابو تمام

ترمي[1] باشباحنا الى ملكٍ نأخذ من مالهِ ومن ادبهْ

فهذا الحكم من الآمدي غير سديد اذ قول ابي تمام (نأخذ من ماله ومن أدبه) في مخاطبة ملك أو مدحه لا يليق بمقامه الرفيع بل هو بمخاطبة أحد السوقة أشبه واما قول مسلم (يصيب منك مع الآمال طالبها) فهو من شريف الكلام اللائق بمخاطبة الملوك والعظماء كما يتضح لكل ذي ذوق سليم فاين التبريز وأين كلمة اخذ المال منه من اصابة طالب الامال حلمه ومعروفه عدا آماله

وللامدي في خلال موازنته هذه انتقادات دقيقة كقوله عند تخطئة أبي تمام في قوله

بقاعية تجري علينا كؤوسها فتبدي الذي نخفي وتخفي الذي نبدي

ذهب (الضمير عائد الى ابي تمام) في هذا الى ان الخمر تخفي الذي نبديه في حال الصحو من الحلم والوقار والكف عن الهزل واللعب وتبدي الذي نخفي أي الذي نعتقده

(١) الضمير من ترمي عائد الى الابل

ونكتمه من ضد ذلك كله لانه في الطبيعة والغريزة والذي كنا نظهره انما هو تصنّع وتكلّف ويدخل في هذا ما يبوح به المحب من الحب الذي كان يكتمه في صحوه ويظهر ضده أو يبوح به من بغض زيد وكان يظهر في صحوه مودته ومنافعهُ . وكذلك ما يظهر السكر من بخل البخيل ومنع ما كان يتحمله ببذله في الصحو أو ما يظهر من السماحة التي كان لا يسمح بمثلها في صحوه خوف العاقبة ونحو هذا وما سقط من قول الحكماء ان الشراب يثير كل ما وجد أي يظهر كل ما في النفس من خير وشر وحَسَن وقبيح فكل شيء يظهره الانسان وليس في اعتقاده ولا نيَّته فان الذي يضمره ويكتمه في نفسه فهو ضده فاذا أظهر السكر اعتقاد المعتقد الذي هو الصحيح فان ضدَّه مما كان يتجمل باظهاره يبطل ويتلاشى لان الشراب يخفيه ويطويه في الضمير حتى يكون مكتوماً كما كانت الحقيقة مكتومة هذا محال لان القلب هو محل المعتقدات فلا يجوز ان يجتمع فيه الشيء وضده والاعتقادات لا تكون باللسان لان اللسان يكذب والقلب لا يتضمن الا

الحقيقة وقول ابي تمّام الذي نخفي قول صحيح وقوله وتخفي الذي نبدي اللفظ فاسد لأَن تخفي معناه تكتم وتستر والذي قد أبطلته وازلتهُ لا يجوز ان يعبّر عنه بأنك اخفيته ولا كتمته فان قيل ولمَ لا يكون هذا توسعاً ومجازاً قيل المجاز في مثل هذا لا يكون لان الشيء الذي تكتمه وتطويه انما انت خازن لهُ وحافظ فهو ضد للشيء الذي تزيله وتبطله والاضداد لا يستعمل احدهما في موضع الآخر الا على سبيل المجاز. انتهى المراد منه وهو كلام جدير بالاستبصار .

واكثر ما ترى هؤلاء الشراح تصويباً لسهام النقد نحو بيت اوقصيدة لشاعر غير بخيت معدَم اولميت ومن للميت ان يتكلم وقد حسب بعضهم ان غاية النقد هي تحصيل سرقة للشاعر فيجدّ به الحرص على التفتيش والتنقيب عن ذلك المعنى او التركيب في اقوال الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولدين الى ان يظفر ببيت اوشطر اوببعض المعنى المنقود أو بما يمكن احالته الى ذلك المعنى ولو بالقسر والعنف فيتمحل لهُ الوجوه البعيدة ويتكلف لتأييده الحجج

المملّه الضعيفة والشروح الطويلة العريضة والبراهين الباردة الواهنة فيزعم ان الشاعر سرق المعنى ممن تقدمه وان لافضل لهُ ولا طلاوة لكلامه ولا برهان لديه على ذلك غير هواه وميله لاثبات مزاعمه وبعد ذلك يحسب انه قد اعطى النقد حقه من البحث الدقيق وانه قد خدم العلم الخدمة التي لا ينتهي فخرها ولا ينقضي شكرها .

وقلتُ ان نقدهم على هذا الوجه او ما يشبهه لم يكن يجري الاّ على اشعار الموتى والمعدمين من الشعراء الذين لم يرزقوا السعادة لانك اذا تفقّدت ما كتبوه عن اهل الحظوة من الكتّاب والشعرآء وغيرهم فضلاً عن الوزرآء والامرآء تجدهُ لا يتعدى التقريظ والتمليق حتى انهم ليتمحلون لاغلاط هؤلآء وجوهاً يمجّها الذوق السليم واعذاراً وتخاريج لا يسلّم بها العلم الصحيح وهي تخالف كل المخالفة البليغ من الكلام والفصيح . ولعلّ لهم في كل ذلك عذراً من آداب تلك العصور وأحوالها وأمّا تبجّحهم بتحصيل السرقات الشعرية فما لا يُسامحون فيهِ ولا يُعذرون . اذ

السرقات على نوعين لفظية ومعنوية فاللفظية لا يجسر عليها الاَّ سافل الشعرآء أو المتشاعرين وهذا ما يجدر بالناقد أن يعرض عن ذكر اسمه بعد ان ينبّه الغافلين على مكانه من الشعر بأخصر لفظ . وقولي لفظية أي ان السارق يأخذ البيت أو المصراع منهُ فيدسّه في شعرهِ أو يبدّل منهُ كلمة ليوهم القارئ انهُ من كلامهِ ويكرّر ذلك في اكثر شعرهِ . وأما المعنوية فهذه لم يسلم منها شاعر وهي ليست بسرقة لان شعرآءنا نظموا في أبواب معلومة محدودة من غزل ونسيب وحماسة وهجاء ومدح ورثآء لم تكد تجد لهم في غير هذه الابواب الاّ قصائد نادرة أو أبيات متفرقة والشعر كان لهم صناعة بها يتفاخرون ومنها يرتزقون فلو أراد الشاعر منهم ان يقدح زناد فكرتهِ اعواماً ليبتكر معنىً لم يسبق اليـهِ في جود الممدوح لما وجد الى ذلك سبيلاً وقد قال أحدهم منذ ألف واربعمائة سنة : هل غادر الشعرآء من متردَّم : فمنتهى شاعرية السابق منهم أن يحسن سبك المعنى المقصود منهُ ويجيد التركيب وينتقي الالفاظ الفصيحة في نظر الممدوح أو عشيرته

ويناسب بين البيت والذي قبله باللفظ والمعنى الى غير ذلك .
ولهذا فان ادّعآء اكثر الشراح والعايبين وتسميتها بالسرقات يُعد تعنّتًا وتبجّحاً بالباطل واضاعة وقت لهم ولمن يتلمّس من ورآء اقوالهم نفعاً ولا يُنكر انه وقع لبعض اكابر الشعرآء من توارد الخواطر شيء كثير ومن ذلك ما لا يُعَدُّ الاّ سرقة كقول ابي تمّـام

يقول في قومسٍ صحبي وقد اخذتْ
منا السُرَى وخُطـا المهريّةِ القودِ
أمطلع الشمس تبغي ان تؤمَّ بنا
فقلتُ كلاّ ولـكن مطلعَ الجودِ

فقد سبقهُ مسلم بن الوليد فقال :

يقول صحبي وقد جدّوا على عجلٍ
والخيل تجترُّ بالركبانِ في اللُجُمِ
أمغرب الشمس تبغي ان تؤمَّ بنا
فقلتُ كلاَّ ولـكن مطلع الكرمِ

فهذا لو سُئل عنهُ ابو تمّام لما استطاع ان يحلف انهُ من

توارد الخواطر لان مسلم بن الوليد أقدم منهُ عصراً وأبو تمّام اطلّع على جميع أشعارهِ فلا سبيل لخروج أبي تمّام من هذه السرقة وما شاكلها مما يعدونهُ لهُ سرقات الاّ أن يُقال انه لكثرة ما كان يحفظ من شعر الجاهلية ومَن بعدهم فقد كانت تجري معانيهم وألفاظهم بعينها في أشعارهِ دون ان يراجع ذاكرتهُ أو يتنبّهُ لذلك فعُدَّتْ عليهِ سرقات وهو القول الحق

وما كان أجدر هؤلآء العايبين والشرّاح بقرآءة ما قاله رسطاليس في كتابه في الشعر تلخيص الفيلسوف أبي الوليد ابن رشد ولا بأس من ايراد شيء منه يناسب كلامي هذا قال : والصنف الثالث من الاقاويل الشعرية هو المركب من التخييل والتشبيه وكما ان الناس بالطبع قد يخيّلون ويحاكون بعضهم بعضاً بالافعال مثل محاكاة بعضهم بعضاً بالالوان والاشكال والاصوات وذلك اما بصناعة أو ملكة توجد للمحاكين واما من قِبَل عادة تقدمت لهم في ذلك كذلك توجد لهم المحاكاة بالاقاويل بالطبع والتخييل .

انتهى المقصود من كلامهِ

وهذا ما يسمّيهِ شعراؤنا توارد الخواطر وما أصدق ما قيل قد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر ومما تقدم شرحهُ تعلم ان ما سمّوهُ نقداً في هذا الباب لم تصح فيه التسمية ولا حصلت منهُ احدى فوائد النقد التي ستمر بك بعد هذا ان شآء الله

ومن اكابر العلمآء الذين ألمّوا بقسم من هذا العلم وظهر ميلهم اليه القاضي ابو الحسن علي بن عبد العزيز وهو صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومهِ في الشعر وانا ذاكرٌ لهُ فصلاً من هذا الكتاب ليقف المطالع على مكانهِ من النقد وان كان قولهُ هنا في وصف الكتابة قال:

ومتى سمعتني اختار للمحدث هذا الاختار — أي الكلام السهل اللطيف الرشيق — وابعثهُ على التطبّع واحسّن لهُ في التسهل فلا تظنّن اني أريد بالسهل السمج الضعيف الركيك ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث بل أريد النمط الاوسط وما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن البدوي

الوحشي وما جاوز سفسفة نصر ونظرآئه ولم يبلغ تعجرف همبان بن نحافة واضرابه نعم ولا آمرك باجرآء انواع الشعر كله مجرى واحداً ولا ان تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك ولا هجآؤك كاستبطائك ولا هزلك بمنزلة جدّك ولا تعريضك مثل تصريحك بل ترتّب كلاًّ مرتبته وتوفيه حقه فتتلطف اذا تغزّلت وتتفخم اذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ولكل واحد من الامرين نهجٌ هو به املك وطريق لا يشاركه الآخر فيه وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر بل يجب ان يكون كتابك في الشوق أو التهنئة أو اقتضاء المواصلة وخطابك اذا حذّرت وزجرت افخم منهُ اذا وعدت ومنّيت فاما الهجو فأبلغهُ ماجرى مجرى التهكم والتهافت وما اعترض

بين التعريض والتصريح وما قربت معانيهِ وسهل حفظهُ وسرع علوقه بالقلب ولصوقهُ بالنفس فاما القذف والافحاش فسبَابٌ محض . انتهى كلامه

وحكاية المطرز الشاعر مع الشريف المرتضى هى من هذا القسم ولا بأس من ذكرها . قيل ان المطرّز مرّ يوماً وفي رجليهِ نعل بالية تثير الغبار فرآهُ الشريف فأمر باحضاره وقال لهُ انشدني ابياتك التي تقول فيها

اذا لم تبلّغني اليكم ركائبي فلاوردت مآءً ولا رعت العشبا

فأنشدهُ اياها فلما انتهى الى هذا البيت اشار الشريف الى نعلهِ البالية وقال أهذه كانت من ركائبك فأطرق المطرز ثم قال لما عادت هبات سيدنا الشريف أيدهُ الله تعالى الى مثل قولهِ

وخذِ النومَ من جفوني فاني قدخلعت الكرى على العشاقِ

عادت ركائبي الى مثل ما ترى لانك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل فاستحيا الشريف منه . فانظر لطف هذا الانتقاد . والحريري صاحب المقامات المشهورة ممن ألمَّ بقسم

من هذا الفن وكتابهُ درّة الغواص في اوهام الخواص ادل دليل على ذلك ومن اشتغل بالنقد اي بنقد الشعر ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني قال ابن خلكان هو احد الافاضل البلغاء لهُ التصانيف المليحة منها كتاب العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقد عيوبه كقوله منهُ

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهّال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرونَ المحال معنى صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً ثمينا
يجهلون الصواب منه ولا يد رون للجهل انهم يجهلونا
فهُم عند مَن سوانا يلامو ن وفي الحق عندنا يُعذرونا
انما الشعر ما تناسب في النظ م وان كان في الصفات فنونا
فأتى بعضهُ يُشاكل بعضاً واقامت له الصدور المتونا
كل معنىً أتاك منهُ على ما تتمنى ولم يكن او يكونا
فتناهى من البيان الى ان كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الالفاظ منهُ وجوهٌ والمعاني ركّبنَ فيها عيونا
ان مافي المرام حسب الأماني يتحلى بحسنهِ المنشدونا

فاذا ما مدحت بالشعر حرًّا　　رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً　　وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتعلّيت ما يهجّن في السمـ　　ـع وان كان لفظه موزونا
واذا ما عرّضته بهجاء　　عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلتَ التصريح منهُ دواءً　　وجعلت التعريض داءً دفينا
واذا ما بكيتَ فيهِ على العا　　دين يوماً للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذلّلت ما كا　　ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتباً جئت بالوعـ　　ـدِ وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركتَ الذي عتبتَ عليهِ　　حَذِراً آمناً عزيزاً مهينا
وأصحُّ القريض ما قارب النظـ　　ـمَ وان كان واضحاً مستبينا
فاذا قيل اطمع الناس طرًّا　　واذا ريمَ اعجز المعجزينا

وهذه القصيدة كما ترى من احسن ما قيل في هذا الباب وجل نقده في كتابه هذا من قبيل ما ذكرته لك عن الآمدي وغيره من الشراح والعائبين لا يكاد يتعداه

وحام حول هذا الفن ايضاً ابن الاثير صاحب كتاب المثل السائر لكنه ذهب ذهاب الطائر ولم يسقط على شيء

من فوائده التي هي جل الغرض وان وازناها بما قالوه كانت هي الجوهر وماقيل العَرَض فلم يقل اكثر مما قال سواه وان اطال دعواه ولا بأس من ذكر شيء من كلامه في الفصل الرابع في الترجيح بين المعاني قال:

هذا الفصل هو ميزان الخواطر الذى يوزن بهِ نقد درهمها ودينارها بل المحكّ الذي يعلم منهُ مقدار عيارها ولا يزن به الا ذو فكرة متقدة ولمحة منتقدة فليس كل من حمل ميزاناً سمّيَ صرافاً ولا كل من وزن به سمّيَ عرّافاً والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهي ّ ان هناك يرجح بين دليلي الخصمين في حكم شرعي وهنا يرجح بين جانبي فصاحة وبلاغة في الفاظ ومعانٍ خطابية .. الى آخر ما ذكر مما يتعلق بالفصاحة والبلاغة العربية لاغير أي نقد مايليق من الالفاظ للمعاني وهل هي فصيحة أم بليغة أم انها جمعت الوجهين أم خلت منهما وهو ما خاض فيه الخائضون وتكلم فيه قبله وبعده كثيرون وهو أقل فوائد علم النقد كما ستعلم

وجاء بعدهم ابن خلدون فتقدم الجميع في هذا الباب ومع

ذلك فلم يكن الاّ ملمّاً بهِ بعض الالمام وفي قسم واحد منهُ فقط ولا بدّ من ايراد شيء مما ذكرهُ بهذا المعنى في أول مقدمتهِ المشهورة قال

واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتّبعوها وادّوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأَحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترّهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض وطويل . . . الى ان يقول والناقل انما هو يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل . . والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم أو اعتبارهم فللعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار وتُحمَل عليها الروايات والآثار . . ثم قال بعد ذلك لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرّد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأَحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس

الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلَّة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرَّد النقل غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلُّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . .

وقال بعد ذلك مما يوافق غرض هذا الكتاب :

ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته ولهُ أسباب تقتضيهِ فمنها التشيّعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطتهُ حقهُ من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت مايوافقهُ من الاخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله :

فانظر كيف كان يحوم حول علم النقد ومثله أيضاً

العسكري والآمدي والماوردي وشهاب الدين الحلبي[1] وابن حجه الحموي وكثيرون غيرهم من علماء البديع وكلهم قد حاموا حول رياضه ورامو الارتشاف من سلسبيل حياضه ولكنهم لم يحلوا رموزه ولا أصابوا كنوزه وأنّى لهم ذلك ولم تجتمع لديهم العدة اللازمة ولا أسعدتهم الأحوال الملائمة فاين هم من حال هذا العصر وبسطة عمرانه وامتداد حضارته وتوفر أسباب العلوم وترقيها والتفنن فيها وتولدها وما أحدث ذلك من الاختراعات والاكتشافات وتقريب البلاد الشاسعة وتسهيل تناول العلوم والمعارف دون اضاعة قسم كبير من العمر في طلبها وتحصيلها من افواه العلماء المتفرقين في اقاصي البلاد واستنساخ الكتب الضخمة او شرائها باغلى الاثمان مع رقة حال اكثر العلماء في تلك العصور واين هم من هذه المطابع التي تتحرك بقوة البخار او الكهربائية في اكثر جهات المعمور وهي تبرز لعالم العلم في كل ساعة الوفا من الكتب تتناول البحث عن جميع العلوم والفنون في اكثر لغات الارض يحصل عليها

(١) صاحب كتاب حسن التوسل

الطالب بابخس ثمن دون عناء بل يطالعها ويستفيد منها بلا قيمة اذا شاء وهذه خزائن الكتب العامة والمكاتب الخاصة ودكاكين باعة الكتب كلها — في اوربا واميريكا — مفتوحة الابواب للعلماء والمستفيدين لا يكلفون دفع فلس ولا يُحْجَبون بل اين هم من هذه الصحف والمجلات العلمية التي تنشر كل يوم وفي كل ساعة من ساعات النهار مئآت ألوف من النسخ وهي أيضاً مبسوطة معروضة في جميع المكاتب ودكاكين الكتبيين

وأين هم من هذه الملاعب التي تُردَّدُ في اكثرها اشعار المجيدين والفحول من شعرآئهم واقوال حكمائهم وفصحآئهم المبدعين ملحونة وغير ملحونة يجوّدها الممثلون من رجال ونسآء بأحسن القاء وايماء فتنطبع في صدور السامعين

واين هم من هذه الردهات المشيَّدة لالقاء الخطب والدروس والمناظرات العلمية . بل أين هم من ثروة هؤلاء العلمآء والشعرآء والادبآء وما لهم من المنزلة الرفيعة في تلك البلاد عند الملوك والامرآء بل عند الناس عامة ومثل

ابراهيم النديم حُبِس في المطبق مع الحظوة التي نالها عند الرشيد ومثل ابي اسحق ابراهيم الصابئ أُمِرَ بالقائهِ تحت أيدي الفِيَلة بعد اعتقال وتعذيب لرُشاشة طارت من قلمه فنُقِمت عليهِ واستُصفي مالهُ ودعاهُ الحال الى هذا المقال

يا أيها الرؤوساءُ دعوة خادم ... أوفتْ رسائلهُ على التعديدِ
أيجوزُ في حكم المروءة عندكم ... حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتم كُتباً شحنتُ فصولها ... بفصول درٍّ عندكم منضودِ
ورسائلاً نفذت الى أطرافكم ... عبدُ الحميدِ بهنَّ غيرُ حميدِ
يهتزُّ سامعهنَّ من طربٍ كما ... هزَّ النديمَ سماعُ ضربِ العودِ
أنا بينَ اخوانٍ لنا قد أوثقوا ... بسلاسلٍ وجوامعٍ وقيودِ
وموكَّلينَ بنا نذلُّ لعزِّهم ... فكأَننا لهمُ عبيدُ عبيدِ
واللهِ ما سمعَ الانامُ ولارأوا ... نَقَداً توكَّلَ قبلهم بأسودِ
من كلّ حرٍّ ماجدٍ صنديدِ ... في كلّ وغدٍ عاجزٍ رعديدِ
قصرتْ خُطاهُ خلاخلٌ من قيده ... فتراهُ فيها كالفتاةِ الرودِ

ومثل أبي الفتح بن العيمد سُملت احدى عينيهِ وقُطع أنفه وجُزَّت لحيته وعُذّب ومُثّل به طمعاً في مالهِ ومثل

الرئيس ابن سينا اعتقل ومات في السجن فقيل فيه

رأيت ابن سينا يعادي الرجالَ وفي السجن مات أخسّ المماتِ
فلم يشفِ ما نابهُ بالشفا ولم ينجُ من موتهِ بالنجاةِ

ومثل ابن المعتز مات مخنوقاً ومثل أبي الطيب المتنبي اغتالهُ ليلاً عدوٌّ أحمق غادر لكلمة شطَّ بها قلمه فهدر دمهُ في الصحرآء ومثل ابن هاني وجد قتيلاً في العرآء ومثل شهاب الدين السهروردي الفيلسوف أبيح دمهُ وقتل ادّعاء بضعف عقيدته وهو صاحب القصيدة البديعة المشهورة

أبداً تحنُّ اليكمُ الارواحُ ووصالكم ريحانها والراحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكم والى لذيذِ لقائكم ترتاحُ
وارحمتا للعاشقين تكلّفوا سترَ المحبةِ والهوى فضّاحُ

الى أن يقول منها

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبهَ بالكرام فلاحُ

وألوف غير هؤلاء هلكوا شهدآء الفاقة أو الغدر وضحايا الاستبداد والجهل والشرّ لم يشفع فيهم فضل ولا علم ولا شعر ومما يناسب ذكره في هذا الباب ما رواه ابن خلكان

في ترجمة ابي الحسن العكوَّك الشاعر عن ابن المعتز من كتابه طبقات الشعراء قال ما محصله . لما بلغ المأمون خبر هذه القصيدة — وهي التي مدح العكوك بها أبا دُلَف العجلي وبها يقول

فاذا ولّى أبو دُلَفٍ ولَّتِ الدنيا على أثرِهْ
كلُّ مَن في الارض من عربٍ بين باديهِ الى حضرِهْ
مستعيرٌ منك مكرمةً يكتسيها يوم مفتخرِهْ

غضب غضباً شديداً وقال ائتوني به فلما ظفروا به وكان في الشامات هارباً من وجهه حملوهُ مقيداً الى المأمون فلما صار بين يديه قال لهُ يا ابن اللخناء أنت القائل في قصيدتك للقاسم بن عيسى : كلُّ من في الارض من عرب : (وأنشد البيتين) جعلتنا ممن يستعير المكارم منهُ والافتخار به ؟ قال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يُقاس بكم اذ أنتم فوق الناس وانما ذهبت في قولي الى اقران وأشكال القاسم بن عيسى من هذا الناس فلم يغنِ عنهُ اعتذارهُ والتماسهُ وتوسّله واستحلَّ المأمون دمه . والمأمون مَن تعلم . قال الصلاح الكتبي وكان

من أعظم رجال بني العباس حزماً وعلماً وعزماً وحلماً ورأياً ودهاءً وشجاعةً وسؤدداً وسماحةً . وقال ملاّ كاتب جلبي صاحب كشف الظنون : لما أفضت الخلافة الى السابع من بني العباس عبد الله المأمون بن الرشيد تمّم ما بدأ به جدّه أبو جعفر المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بقوة نفسه الشريفة وعلو همّته المنيفة فداخل ملوك الروم وسألهم وصلة ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم وأحضر لها مهرة المترجمين فترجموا له على غاية ما أمكن : فان كانت هذه معاملة المأمون مع وفور نبله وكثرة فضله فماذا تكون معاملة من هو دونه علماً ومحبة للفضل ؟ وكيف يتأتّى لمن كانت هذه أحوال وآداب عصره ان ينتقد التواريخ وقصائد المديح ورسائل الهجاء وكتب الآداب والعلوم والاخلاق والخطب والعادات واكثرها مفتتح بالثناء الطويل والحمد الجزيل والتدليس والتمليق لامير البلدة أو والي المدينة أو الحاكم أو

الوزير وهؤلآء كلهم كان بين شفاههم موت أقوام وحياة أقوام لايُحاسبون ولا يسأُلون عما يفعلون . وكانت الوشايات والسعايات رأس مال كثيرين من نفايات أهل تلك العصور

واين هذه الاحوال وغيرها من الشؤون التي تقبض عنان القلم وتعقد اللسان عن الجري بكلمة واحدة في هـذا الفن من احوال النقّادين من أُمم الفرنجة لهـذا العهد وما أُبيح لهم من حرية الكتابة والنقد وما أُتيح لهم به من وسائل العلم والتحصيل دون اضاعة طويل العمر ومزيد الجهد فلا عجب بعد هذا ان كان علم النقد لم يكن معلوماً عند العرب بحسب المفهوم منه عند علماء الفرنجة لعهدنا هذا بل لا بدع ان لم يدر في خلَدهم شبهُهُ وحالهم تلك

ووقف عندنا النقد عند الحد الذي ذكرته لم يتعدَّ ما كتبه علمآء البديع ومَن ذكرتُ من علمآء السلف حقبةً طويلة من الدهر وظل كسائر العلوم والفنون العربية في هجعةٍ هي بالموت اشبه منه بالرقاد الى النصف الاخير من القرن الماضي اذ قيض الله لهذه اللغة الشريفة بعض رجال الفضل والاجتهاد الذين

يعدُّ وجودهم للزمان من جلائل النعم وبدائع الاحسان ولا تجود بهم الأيام الا جودها بتحقيق خيور الاحلام كعلاَّمة عصره ونابغة دهره نسيجُ وحدِه وابن جدّه الشيخ نصيف اليازجي ربُّ التصانيف العديدة والتآليف المفيدة وكالفاضل العالم المجتهد ذي الهمة العلية والنفس الابيَّة المعلم بطرس البستاني صاحب محيط المحيط ودائرة المعارف ومجلة الجنان وكالطبيب النطاسي والاستاذ العالم الدكتور كرنيليوس ڤانديك صاحب الكرة الأرضية والنقش في الحجر وغير ذلك من الكتب المفيدة في الديار الشامية وكالفاضل المجتهد الاديب الالمعي الهمام رفاعه بك ابن السيد بدوي رافع الحسيني في الديار المصرية وكالاديب اللوذعي والفاضل الالمعي أحمد فارس الشدياق اللبناني صاحب الجوائب والجاسوس وسرّ الليال فهؤلاء الاعلام على تفاوت رتبهم في العلوم هم الذين رفعوا مصابيح العلم وحملوا لواء المعارف منذ النصف الاخير من القرن التاسع عشر بيد انهم لم يكتبوا في هذا الفن شيئاً أو ان بعضهم كتب فنحا نحو

العلمآء السالفين فلم يكن الاَّ مقلداً من تقدمه غير مبتكر ولا مبتدعٍ ثم كثر طلاَّب الآداب العربية والعلوم العصرية وتعدَّدت المدارس في بيروت ولبنان فكثر متخرجوها من من كتَّاب وأدباء وشعراء وعلماء يفتخر بهم أهل اللسان العربي وانتشرت صحف الاخبار والمجلات العلمية كالجنان والمقتطف وللمقتطف الفضل والتقدم في هذا الباب فان منشئيهِ العاملين الفاضلين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر هما أول من فتح باباً للانتقاد في مجلة عربية وهوّن على الكاتب تحمل انتقاد كلامهِ ولحضرتهما الخدم العلمية النافعة الخالدة الآثار الحميدة التذكار في هذه الديار وكثرت كتب العلوم وتعدَّدت المطابع والسابق بالمدحِ أولى فلمطبعة بولاق القدح المعلىَّ . وكثر المؤلفون بيْدَ ان المجيدين قليلون ولا بدع ان اقتحم ثغور الكتابة والتأليف بعض المغرورين من الضعفآء فاهل التمييز في كل بلد قليلون ولا ناقد يردع بتفنيده ويوضح صواب القول من خطائه وصالح التعبير من فاسده ومعتل الكلام من صحيحه وجواهر المعاني من

اعراضها فاستنسر البغثان وكانوا على حد قول الشاعر

واذا ما خلا الجبان بارضٍ طلب الطعنَ وحده والنزالا

ولذلك سبب بل أسباب فمنها ان الحكومة المصرية لهذا العهد قد منحت حرّية الكتابة في بلادها كما هو الشأن في المملكة الانكليزية فانطلقت الاقلام تجري في ميادين القراطيس سكّيتها يباري المجلّي ولطيمها يسابق المسلّي ولا حاكم يعطي فضل السبق ويقضي على المحقوق للمحق

ومنها ان أغلب أهل فوضى الاقلام هذه هم غرباء في وادي النيل وقد قيل في امثالنا الغربة مضيّعةُ الاصول فهم يطلقون العنان لقرائحهم الجامحة واهوائهم الطامحة غير هيّابين ولا باللوم مبالين كأَن ليس عليهم مسيطر أو رقيب ولا وجه جار يخجلون منه أو قريب

ومنها وهو أهمّها فُتوّة المعارف بعد انقطاع العهد بها عندنا ثم نموّها على حداثة سنّها شأن الطفولية في النبات والحيوان والفنون والصنائع لا تزال تتدرج في مراتب النمو الى ان تبلغ درجات الكمال ثم يسطو عليها بعد ذلك الهرم

وعوادي الشيخوخة . وكلما كانت المخلوقات حديثة السنّ كانت بنقصها أكثر جهلاً وبحال من حولها أقل علماً وبضعفها أشدّ غروراً وباغلاطها أوفر اعتصاماً كما هو معلوم

وأول مَن أعطى النقد حقه من العرب وكتب فيه ما هو حقيق ان يكتب بماء الذهب علاَّمة العصر غير مدافَع وامام الكتَّاب غير منازَع الشيخ ابرهيم ابن الشيخ نصيف اليازجي اللبناني ولو كان الكلام في ترجمةٍ ووصف لاستعرت كلام الثعالبي فقلت فيه ما قاله في الصاحب ابن عبَّاد وهو : ليست تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عن علو محله في العلم والأَدب وتفرّده بغايات المحاسن والمعارف : ولكن الكلام في علم النقد فانا لا أخشى فيما قلتهُ كلام حاسد أو جهول وأردد مع الشاعر وأقول

أَنفوا المؤذّنَ من بلادكمُ ان كان يُنفى كل من صدقا

فالعلاّمة المشار اليهِ كان أَول من كتب في هذا الفن ما يُسمى بحقّ نقداً وذلك أوّلاً في الذيل الذي ذيَّلَ بهِ شرح ديوان المتنبي لعلامة عصره والده الشيخ نصيف اليازجي

المشهور بالعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب وهو أبلغ وأوضح وأفصح شرح لهذا الديوان كما شهد بذلك المنصفون اما الذيل المذكور فهو ذيل يقصر عنه كل ثوب من ثياب التقريظ قال في عرض ذلك حفظه الله

على ان كل واحدة من هذه القصائد لا تخلو عن أبيات قد نكَّب بها عن هذا المذهب (أي مذهب أبي تمَّام) فجآءَ غاية في السهولة والانسجام وهي من مطبوع شعره الذي لا يلمّ به تعمّل ولا تقيّل وبها يُستدَلُّ على سجيَّة المتنبي اذ ذاك وفصاحة لهجته وما رُكّب في طبعهِ من السلاسة وقوة البادرة والنزاهة من التكلف بل ربما رأيت لهُ في خلال هذا الموضع قصائد قد خلت برمّتها عن مثل تلك الشوائب كالقصيدة التي أوَّلها « ضيفٌ ألمَّ برأسي غيرُ مُحتشمِ » فانها من جودة السبك وحسن اختيار الالفاظ والتراكيب بموضع لا ينحطّ عن طبقة الجيّد من شعره وما أحسبها جاءَت كذلك الاّ لأَنه قصرها على اغراض نفسه ولم يخاطب بها أحداً من الممدوحين فلم يدخل ثمّة بين قلبه ولسانه ما يدعو الى

التصنّع وابراز المعاني في غير قوالبها التي تصوغها القريحة وتسوق اليها البديهة . وكالمرثية التي أوّلها « اني لأعلم واللبيب خبيرُ » فانها اشبه بالقصيدة المتقدم ذكرها لان مقام الرثاء ابعد عن مواطن التصنع والتأنق لما انه مقامٌ تخشع فيه حركات النفس ولا يبقى في الخاطر فضلة عن الاصغاء لمناجاة القلب فيأتي الكلام سلساً منقاداً لصدوره عن وحي القريحة وتلقين الطبع بعيداً عن الارتباك والتعقيد الناشئين عن شدة التبحر واعنات الذهن كما قال

أبلغ ما يُطلب النجاحُ به الـ ـطبعُ وعند التعمّق الزَّلَلُ

الى آخر ماذكر في هذا الباب حفظه الله مما دل على بصيرة نقّادة تستشفّ المعاني من وراء سجف الالفاظ مهما كان السجف كثيفاً وعلمٍ واسع وقريحة تتدفق باللؤلؤ المنثور والجوهر المكنون كأنها تغرف من بحر وقلب بمواقع اللفظ عليم . وتوقد ذكاءٍ يحل اعوص المسائل المشكلة فتبدو بعد تحليله صافيةً من اكدار التخليط والتشويش خاليةً من ضعف التركيب وقد فك تعقيد رموزها وحلّ طلاسم كنوزها .

واذا تفقدت ما أتى به في هذا الذيل برَّأت المتنبي من معايب كثيرة نسبها له الشرَّاحُ السالفون ثم وقفت على لمعة من احواله في مقامه وظعنه وما كان له مع كثيرين من ممدوحيه وحاسديه وعلى طرف من اخلاقه وامياله وهذا هو الغرض الأهمُّ الذي يرمي اليه علمُ النقد وقد استفاد ذلك جميعه من شعر المتنبي نفسه

على ان الاستاذ لم يتوخَّ نقد ديوان المتنبي برمتَّه بل انتقد بعضاً من الابيات التي عابها شرَّاح ديوانه كالواحدي وابن جني وغيرهما ولو رام نقد المتنبي وايقافنا على احواله واخلاقه كلها بحسب قواعد فن النقد لاحتاج الى تأليف ذلك في كتاب كبير ولاقتضى مزيد البحث ووافر العناء فان معرفة اخلاق واميال واحوال شاعر كالمتنبي بعد ان مرت على اندراجه عشرة قرون وطمست اكثر آثار اهليها وغابت عنا عوائدهم واخلاقهم وحضارتهم وسائر احوالهم الاجتماعية في معاملاتهم ووقوفهم في حضرة ملوكهم وقعودهم في مجالس عظمائهم وملبوسهم ومفروشهم وتهانيهم وتعازيهم وغير ذلك

من تزاورهم وآداب أُسرهم وعيالهم ليس بالمنال السهل ولا بالمطلب الهين ولا يمكن ان تُستوفى به جميع قواعد النقد وشروطه لقصور الشعر في اكثر الاحيان عن الاغراض التي يرمي اليها علم النقد

ثم ان الاستاذ المشار اليه انتقد اغلاط النسخة التي طبعت من الدرة اليتيمة لمؤلفها ابن المقفّع الكاتب المشهور ونشر النقد المذكور باختصار في مجلتهِ التي أصدرها بعنوان البيان ثم تابع نقد اغلاط اكثر الكتب القديمة التي طبعت حديثاً وقد تحامى بقدر الامكان نقد المؤلفات الجديدة لما يجرُّ ذلك من المشاحنات التي تذهب بفضل الاغراض العلمية اذ لم يعتد علماؤنا وكتّابنا ذلك وظنّاً من الكثيرين منهم ان النقد مما يحطّ من اقدارهم كأَنهم يزعمون العصمة لانفسهم من الخطأ في افعالهم واقوالهم أو على الاقل في مؤلّفاتهم أو كأَنهم يحسبون ان غلطةً او بعض غلطات في كتاب مفيد تذهب بفضل سائر الكتاب ويضيع بها قدر مؤلفه بين اهل العلم

ثم ان الامام المشار اليهِ كتب خمسة شروط من شرائط الانتقاد نشرها في مجلته الضيآء صفحة ٢٤٤ — ٢٤٥ من سنتها الثانية هي غاية في البلاغة وتقرير صناعة هذا الفن قال حفظهُ الله :

لم نجد في العرب من تكلم على هذا الفن ولا من أفرده في كتاب انما جلّ وظيفة الناقد على ما رأينا من صنيع اكثرهم ان يسوّئ على من ينتقد كلامه ما استطاع ويزيّف كل حسنة له حتى تنقلب سيئّة وذلك كما فعل الخفاجي فيما سماهُ شرحاً لدرّة الغوّاص أو ان يكون على عكس ذلك فيحتال في تخريج كل وهم يسقط عليه في كلامه وتسديد كل هفوة تبدر منه كما فعله اكثر شرّاح الكتب العلمية من اقامة انفسهم مقام الخدّام للمتن فيأخذون في التوجيه والتأويل وتمحّل الاصابة فيما هو ظاهر الغلط ولا يخفى ان كلاًّ من هذين الطرفين من دواعي التضليل وستر وجوه الحقائق تحت براقع التمويه وفيه من الاضرار بالمستفيد وافساد قواعد العلم والذوق ما لا يخفى على اللبيب

هذا كل ما وصلَ الينا من فن النقد عند العرب وهو كما رأيت خلا ما كتبه شيخنا العلامة اليازجي ليس من النقد في شيء والله يهدي من يشاء وهو ذو الفضل العظيم

الفصل الثاني

في

تاريخ النقد عند سائر الامم

لا يُعلم اسم الناقد الاول في القِدَم ولا واضع اسم النقد قال بعضهم انه ابولّودُّور (١) النحويُّ اليوناني وظن غيرهم انه ايراتوستين (٢) الجغرافي وكيفما كان الامر فان النقد كان يُعمل به قبل ان يُطلق عليه اسم نقد لاننا اذا ارتقينا بالبحث الى ما قبل زمن هذين العالمين نجد ارسطو (٣) في رأس النقادين وقد اشتغل سقراط (٤) وأفلاطون (٥) قبل عصره بالبحث عن الجمال وبفحصه وتحديدهِ وكان قول سقراط في ذلك قول حكيم وكلام افلاطون كلام

١ APOLLODORE ٢ ERATHOSTHÉNE ٣ ARISTOTE ٤ SOCRATE
٥ PLATON

شاعر ولكن كلاهما كانا مقصّرَين في التدقيق سابقَين في الفصاحة ورشاقة العبارة

وارسطو أول من قال يجب ان تكون أعمال العقل خاضعة لشرائع مقررة كاعمال الطبيعة وهو اول من اكتشف هذه الشرائع وأول من وضع أساسها في كتابه الديداسكاليس (١) ومعناهُ التعريفات وقد تكلم به عن التمثيل والاغاني التي كان يقيمها اليونان في اعياد باخوس (٢) وذكر في كتابه هذا انهم كانوا يعلقون اسماء البارعين الحائزين الفوز عندهم مع شيءٍ من مؤلفاتهم او اشعارهم وحصّةً من تراجمهم والاشارة الى الكتب او الحكايات التي اخذوا عنها ونسجوا على منوالها وهو كما ترى شبيه بسوق عكاظ قال الازهري عُكاظ سوق من اسواق العرب وموسم من مواسم الجاهلية وكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة يتبايعون ويتفاخرون بها ويحضرها الشعراء فيتناشدون ما احدثوا من الشعر ثم يتفرقون انتهى كلامه وتعليقهم أسماء الفائزين منهم مع

١ DIASCALIES ٢ BAKHUS

شيء من مؤلفاتهم أشبه منه بحديث المعلقات للعرب ولا أدري من أخذ عن الآخر اليونان عن العرب أم هؤلاء عن اليونان وهو بحث قد يستحيل تحقيقه

ومما يؤسف له ان اكثر كتب هذا الفيلسوف لم تصل الينا وانما الذي بلغ الينا من التعريفات وقواعد الاختراعات — وهو كتاب آخر له — ومن كتبهِ الثلاثة عن الشعراء (الفصاحة ، والشعر ، والالغاز) بعض جمل والغاز متفرقة في كتب من جاء بعده من علماء اليونان وكفى بها دليلاً على علوّ مقامه في فن الانتقاد وبرهاناً على شدة ميله الى البحث عن كل ما كان يقع تحت حواسّهِ وولوعه بالتنقيب عن دقائق الأَشياء وقد أوتيَ عقلاً سامياً سهّل له حلّ العويص والمُغلَق منها وقريحةً انفرد بها بين الفلاسفة اجمعين

وأنت اذا أنعمت النظر فيما سيمر بك بعد هذا تجد ان مسائل النقد كانت لعهد ارسطو ومن جاء بعده من فلاسفة اليونان وعلمائهم في المنزلة العالية التي هي لهذا العهد عند علماء ونقادين الفرنجة الا ان وجوه التعبير في هذا

الفن قد اختلفت

على ان تبّاع ارسطو وخلفاءهم لم يجروا على سَننهِ فهذا كتاب الاخلاق لتلميذه تاوْفرَاستْ[١] قد حدّد به الاخلاق البشرية ضارباً صفحاً عن كثرة تعدادها ولخّصها تلخيص شاعر فضيّقَ بذلك موضوع النقد وأقام لنفسه حواجز دون ترقي هذا الفن

وممن حذا حذوَ تاوفراست الفيلسوفان اريستوكثين[٢] وهيرميب[٣] وكلاهما من تبّاع ارسطو . ومن مؤلفات اريستوكثين كتابه عن الرقص المحزن ومن كتب هيرميب الكلام عمن برع في فن الانشاء من الارقّاء وهما من الكتب المفقودة . ولا شبهة ان سرد الحوادث التاريخية وغرائبها قد أخذ من هذين الكتابين مكاناً يفوق مكان النقد كشأنهم لذلك العهد وأنت تعلم ان اليونان رجلان رجلٌ عظيمٌ كارِسطو أو ديموستين[٤] ورجلٌ كولدٍ ذي ذهنٍ ثاقب يتلهّى بالموسيقى والاغاني والسِفسطة ويجهل او انه لم يعتد أن ينقد

١ THÉOPHRASTE ٢ ARISTOXÉNE ٣ HERMIPPE DE SMYRNE
٤ DÉMOSTHÈNE .

ببساطة ودقة ، فقد اعرضوا عن النظر الى الصغير من الاشياء وبحثوا فيما سميناه بعدهم بغاية التمام[١]

وكانت مدارس الاسكندرية حسب رواية العالم المحقق اجّار[٢] مشهورة بالتحقيق والتدقيق اكثر منها بالابتكار بَيد انها في تاريخ النقد لها المقام العالي وذلك لسببين **اما الاول** فهو ان علماءَها هم اول من انتقد أصل اللغات **واما الثاني** فلأنّهم أول مَن اتخذا اسميّ زوئيل[٣] وأريستارك[٤] رمزاً واشارةً في اللغة اليونانية لنوعين من النقد فالاول يشير الى النقد المهين أو العدائي ويقال عنهُ نقدٌ زوئيلي والثاني الى النقد المهذَّب الحرّ أو النقد اللطيف ويُقال عنه نقد اريستاركي

واليك شاهداً أو شاهدين تعلم منهما حد النقد الزوئيلي:

ورد في الاغنية الخامسة من ايلياذة هوميروس[٥] ان ديوميد[٦] الجندي معشوق بالآس[٧] قد لبس درعه وسار الى القتال وقال الشاعر عند ذلك « انه ليُخيّل ان الشرر يقدح من خوذته »

١ LE SUBLIME ٢ EGGER ٣ ZOILE ٤ ARISTARQUE ٥ HOMÉRE
٦ DIOMÉDE ٧ PALLAS

فقال زوئيل في انتقاد هذا الشطر « لم يبالِ هوميروس بوضع النار فوق اكتاف ديوميد وقد يحترق بها البَطَل»

وورد بعد ذلك في الاغنيـة المذكورة « ان فيجه[١] البطل الترواديّ سقط ميتاً تحت ضربات ديوميد وان أخاهُ ايدِي[٢] غلبه الخوف والهلع فنزل عن مركبه لينجو بأوفر سرعة » فقال زوئيل هـذا ابتكار بل مزاح مبتكر من هوميروس اترى خيل ايدي لم تكن أضمن لسرعة هربه من رجليه

على ان هذا النوع من النقد لم يعدم منذ زوئيـل وله أمثلة كثيرة فقدفعل فولتير[٣] مثل ذلك عندشرحه كورنيل[٤] وفعل مثله العالم لاهرب[٥] غير ان ذلك لم يغضب الفرنسويين قال أحد كتّابهم ان اليونان يفوقوننا باللطف والتعصب لعلمائهم وشعرائهـم اذ انهم لم يغتفروا لزوئيـل نقدهُ شعر هومـيروس شاعرهم عـلى هـذه الصـورة من الاستهزاء والاستخفاف ولذلك فانك لا تجد في جميع كتب ادبهم

١ PHÉGÉE ٢ IDÉE ٣ VOLTAIRE ٤ CORNEILLE ٥ LA HARPE

اسماً ملعوناً فوق اسم زوئيل

أما نقد اريستارك فهو يختلف عن هذا النقد أشد الاختلاف وقيل انهُ اول من زكن ان قصيدة هوميروس الحماسية وكلّ كتاب أدب يجب ان ينتقد دون التغافل عن عقائد وآداب وعوائد زمن تأليفه . بيد ان اريستارك نفسه لم يتمسّك دائماً بهذه القاعدة بل قد خالفها في بعض انتقاداته كما فعل عند نقدهِ الاغنية الخامسة من قصيدة هوميروس المسمّاة « اوْديسّى »[1] أي « المصادفات » فانه اخذ على هوميروس قلة النزاهة البادية على وجه خطاب أوليس[2] ونوسيكا[3] وحذف البيت الذي قالته الغانية وهو

هل يُريني الله بَعْلاً مثلَهُ فيقيمُ الدهرَ عندي برضاه[4]

واريستاك خدم هوميروس خدمة أمينة بسائر نقدهِ المفيد الدقيق واستخرج بساطة أقواله البديعة من بحار الشروح الرمزية التي طرحهُ بها جمهور الشارحين لذلك العهد . ولكن يؤخذ عليه تجاوزه حد الحقيقة بالدفاع عنه فهو لا يرى

١ L' ODYSSÉE ٢ ULYSSE ٣ NAUSICAA
٤ PLUT A DIEU QU'UN TEL MARI ME VIENT
ET VOLONTIERS AVEC MOI QU'IL SE TIENT

غاية تهذيبية أو أدبية لهوميروس في كل ماذكره من الخرافات المتناهية في القدَم . بَيدَ ان هذه المؤآخذات نفسها تشهد لمكان أريستاك من النقد

ومنذ زمن أريستاك كان قد تقرر كثير من القواعد الكلية لشروح المتون عند اليونان الا ان تلاميذ اريستاك وتبّاعه زادوها كشفاً وتفصيلاً وحددوا قانون العلوم الادبية بعض التحديد

ولبثت تقاليد علمآء الاسكندرية الى زمن القيصر اغسطوس (١) وكان دينيس داليكارناس (٢) آخر علمآئها وكان له مقام جليل عنه علمآء الفرنجة حتى القرن السابع عشر وحسبك ما قاله عنهُ العالم بايّه (٣) « ان دينيس داليكارناس قاعدة لكل من كتب في هذا الباب »

وغير مستنكر ما كان لعلوم الأَدب اليونانية وخصوصا الاسكندرية منها من التأثير الشديد في العلوم اللاتينية فقد بدأت بالنقد تقريباً . وقام قبل المسيح بنحو مئة وخمسين سنة لوسيوس

---

١ AUGUSTE ٢ DENYS D' HALICARNASSE ٣ BAILLET

اليوس ستيلّو الروماني (١) وكان ممن أخذ عن علمآء الاسكندرية فاستلفت انظار مواطنيه الى قِدَم لغتهم ومحاسن أدبيَّاتها . ثم جآء بعده ڤارون (٢) بمؤلفه الكبير عن اللغة اللاتينية ولم يصل الينا منه الا الكتب الخمسة الاولى . ثم جآء قيصر (٣) بكتابه في المماثل والمتشابه وهذا أيضاً من الكتب المفقودة قال موْمسِن (٤) وكان قيصر عازماً على ان يقيّد بسلطان الشريعة لغةً كانت الى ذلك العهد دون لجام أي اللغة اللاتينية ولو تمَّ لهُ ما أراد لبلغ النقد عند الرومان مبلغاً مفيداً جداً

وعلى الجملة فان الرومان قصروا فوائد النقد على تهذيب لغتهم واعداد خطبآء فصحآء للمشاحنات في دار ندوتهم المعروفة بالفوْروم (٥) وقد شذَّ من علمآء رومه هوْراس (٦) بما كتبهُ في أهاجيه ورسائله وفي كتابه « فن الشعر » وما عدا هوراس هذا فانك لو تتبعت كل ما كتبه شيشرون (٧) وتاسيت (٨) وكنتيليان (٩) لا ترى ذكراً أو اشارة للشعر أو الفلسفة أو الأدب أو لفنٍّ من الفنون الا اذا تعلق شيء من

١ LUCIUS AELIUS STILO ٢ VARON ٣ CÉSAR ٤ MOMMSEN
٥ FORUM ٦ HORACE ٧ CICÉRON ٨ TACITE ٩ QUINTILIEN

ذلك بالفصاحة . ومن ذلك يُظن ان الرومان كانوا يرون فن النقد من الفنون البعيدة عن الحسيَّات والحاجيَّات وضرورات العيش الحيوانيَّة وانه من كماليَّات الأَدب التي تعلو بخفتها عن ثِقَلهم ولذلك أعرضوا عنه أو خفضوهُ عن مقام علمي النحو والفصاحة وتركوا الاشتغال بترقّيه لبقية اليونان التي كانت باقيةً لعهدهم

وكان باقياً من هؤلاء بلوتارك[١] صاحب كتاب الوسيلة لتفهّم الشعرآء وكتاب الامالي على هوميروس وغير ذلك من الكتب ثم ديوْن[٢] الملقَّب بفم الذهب وهو أول من كتب في نقد الصناعة يروي به على لسان فيدياس المراد من نقشه تمثال جُوبيتير الاوْليمبي[٣] ثم أريستيد[٤] البليغ وهيرموجين[٥] ولوسيان[٦] النقَّاد الشهير الساموْسي من معاصري مارك أوْريل[٧]

ثم جاء بعد لوسيان لوْنجان[٨] مؤلف قواعد غاية التمام[٩] هو الكتاب الذي اختاره بوالو[١٠] للترجمة من بين جميع الكتب

١ PLUTARQUE ٢ DION ٣ JUPITER L'OLYMPIEN ٤ ARISTIDE ٥ HÉRMOGÈNE ٦ LUCIEN ٧ MARC-AURÈLE ٨ LONGIN ٩ TRAITÉ DU SUBLIME ١٠ BOILEAU

اليونانية وفضَّلهُ فينيلوْن[١] على كتاب الفصاحة لاريسطو وحسبنا القول انه اذا عُدَّ كتاب الفنون الشعرية لاريسطو فاتحة فن النقد في التاريخ القديم فكتاب لونجان قواعد غاية التمام هو الخاتمة

ومما انفرد به الكتاب المذكور هو تمسُّك علماء البلاغة بقواعده دهراً طويلاً . وأهم تلك القواعد معرفة الوسائل التي توسَّل بها هوميروس وايخيلّوس[٢] وافلاطون وديموستين وامثالهم من الفحول المغلقين للبلوغ الى غاية التمام كأَنهم يَرَوْن انه لايحول دون بلوغ غاية التمام من الاجادة في الشعر والكتابة والخطابة والصناعات الجميلة الا جهل هذه الوسائل وانه متى عرفها المرء تمكَّن من بلوغ غاية التمام في فن أو أكثر من هذه الفنون

ويتبع اعتقادهم هذا زعمهم ان موضوع النقد غير قائم في تحديد قانون انواعه أو في درس طرق سيره وذلك بالبحث عنها في صفحات التاريخ ولكن في تحصيل وايجاد وسائل

١ FÉNÉLON ٢ ESCHIL

من شأنها مطابقة الصورة الذهنية كأَن يريد الشاعر وصف سمآء صافية ببدرها ونجومها فعليه ان يقصد بلاد المشرق ويصعد الى جبل من الجبال العالية في ليلة لا يشوبها مطر أو غيم أو زوابع أو اعصار أو كأَن يروم وصف حادثة من الحوادث التاريخية كغرق فرعون في البحر الأَحمر أوعرساً من أعراس عرب البادية فيتحتم عليه ان يذهب الى ساحل من سواحل البحر الاحمر وان يقصد قبيلة من قبائل العرب فينظرَ عاداتهم وخيامهم وهوادجهم ونسآءهم وشبّانهم وغناءهم ورقصهم وسائر أحوالهم . فهذا مايعبّرون عنهُ **بايجاد الوسائل أو الموضوعات** المطابقة للصور الذهنية أو الخيالية

وسوف ترى نتائج هذه الاوهام السقيمة فتعلم انّ فنّ النقد قد عانى في عصرنا هذا جهداً عظيماً للتحرير من رقّ هذا الخطإ الفاحش

الفصل الثالث

في

النقد في القرون المتوسطة*

اعلم انني لو ضربت صفحاً عن احوال النقد في القرون المتوسطة لما خسر طالب هذا العلم كبير أمر . بَيدَ انهُ لا يستغني المستفيد عن معرفة الاسباب التي بعثت تلك الاجيال على اطّراح النقد وسجّلت امحالَهُ حقبةً من الدهر لا تنقص عن سبعة او ثمانية قرون

فاعلم ان الشعراء والنحويين لم يكونوا قليلي العدد في تلك القرون ولا الفلاسفة ولا ارباب الفنون وانَّ قوماً نبغ فيهم مثل توما الاكويني قدّيسهم الملقّب بشرف الكنائس وشمس المدارس لم تكن سوق العلم عندهم كاسدة ولا هم عنها مبعدون

(*) القرون المتوسطة عند الفرنجة هي المبتدئة من أوائل القرن السابع للمسيح الى أوائل القرن الخامس عشر

ولكن اذا سبرت احوال الأُمم في تلك العصور ظهر لك شيء من الاسباب التي قضت بانحطاط فنّ النقد عندهم وما شاكله من الفنون . ذلك ان الرجل منهم كان قبل ان يملك شيئاً من امره يرتبط وهو فتى او يربطهُ اهله بعهد خطيّ أو تقليديّ مع شيعةٍ او عصبةٍ من قومه فان نشأَ في أُسرة نبيلة لم يكن له بد من التطريس على آثارقومه الامراء يحذوحذوهم ويأخذاخذهم . وان ترعرع في شيعة دينيةلم يجد مندوحةً لاعتقادلم يعتقدوه وزعملم يزعموه . وان كان صانعاً او اجيراً فليس لهُ ان يقول الاَّ ما قالهُ استاذه ولا ان يطرّح غير ما نبذه نبّاذه فهو على الجملة نسخةٌ عن والده وصدى مسترقّهِ او مستعبده وقد أَلفوا هذه الحالة حتى صارت لهم ملكة وطبيعة وهذا كلّهُ ثمرة فقدان الآداب الصحيحة وحريَّة التعليم بل نتيجة استبداد الحكام في سائر اقطار المغرب لذلك العهد فلم يكن للكاتب رأْيٌ يرتئيه أَوخاطر يبديه غير ما يراهُ اصحابهُ وعترته وأَولياؤهُ وشيعته ولم يكن لهم ثمّةَ سبيل للنقد لفقدانهم حرية النطق والكتابة وهما من

اعظم اركانه . وبالتالي لا يتأَّتى لنا ان ننقد كتاباتهم للتمييز بين فكر وآخر او كشف مزية مخفيّةٍ طيّ المعاني او ذوق حسن أَو رأْيٍ مصيبٍ او قلبٍ مخلص أَو غير ذلك من الاغراض والخواطر لما انّهم كانوا يلتزمون طريقةً ثابتة في التأليف ليس فيها شيء يدلّ على كاتبها او سنّهِ أَو جنسهِ بل لم يَدُرْ في خَلَدهم ان يصوّروا في كتاباتهم أَو ان يتركوا على قراطيسهم أثراً من عواطفهم أو شيئاً من أحوالهم الشخصية ومكنونات ضمائرهم . وحدّ ما كان يُفهم من كتابتهم انها جنوبية أو شمالية — كما كان يمضي اكثرهم — يريد بذلك ان رأيهُ أو مذهبه مذهب أهل جنوب تلك المملكة أو شمالها . هذا حالهم في العموم والنادر لا حكم له

وقد كانوا يسترون اسماءهم ويلبسون مؤلفاتهم ثوباً واحداً من التعريف والتمييز ذاك ثوب مقامهم في المجتمع المدنيّ فان كان الكاتب أميراً رأيتَ على وجه كتابته مسحة التأمير وان كان من القسيسين عبق من انشائه ريح الدين وان كان من السُوقة بدت على ديباحة لفظه

انفاس طبقته فلا تستطيع ان تميّز أو تحدّد درجة الكاتب او طبقته في عالم الانشآء والكتابة فانشآء الامير الفلاني كانشآء الامير الآخر وتراكيب بل تعبير القس الباريسي ومنزلته من النظم هي بوجه التقريب نفس تراكيب وتعبير القس البرليني أَو الروماوي ولقد صدق من قال انّهم كذّبوا بوفّون[١] بقوله مرآة المرء انشاؤهُ

واعلم انه قد ذهب اكثر النقّادين الى ان النقد لا يصح أو لا يمكن الا على **المؤلفات الشخصية** وهذا النعت أي **المؤلفات الشخصية** اطلقه العالم يعقوب بورخار[٢] في كتابه : «حضارة ايطاليا في زمن الانبعاث[٣] العلمي» والمراد **بالمؤلفات الشخصية** كلّ كتابة يسري في عروق مؤلفها روح يطمح نحو المجد او الجمال وقد اختلف العلماء والشعرآء في وصف هذا الروح وتعريفه فقال بوكاجّه[٤] هو طَمَعُ الخُلودِ وقال دانتي[٥] هو الشغَفُ بالابداع ومحصّل كلام اكثر الفلاسفة انه روحٌ يدفع صاحبه الى ان يعرض نفسه لحسد من يلتمس

١ BUFFON ٢ JACOB BURCHKARDT ٣ LA RENAISSANCE ٤ BOCCACE
٥ DANTE

استحسانهم مصنوعه . وهو تعريف بالغ اقصى غايات الاقناع والصواب وقد شعر بذلك شاعرنا البحتري وألمَّ بهذا المعنى فقال :

وكم لكَ من يدٍ بيضاءَ عندي لها فضلٌ لفضلكَ في الايادي
ومن نعماءَ يحسدني عليها اداني أُسرتي وذووا ودادي

وقال في محل آخر

وألبستني النعمى التي غيّرتْ أَخي عليَّ فأمسى نازحَ الدارِ اجنبا

على ان المشهور ان أُسرة المرء وذوي وداده يفرحون لسعادته ولكن كأَنما هذا الفرح محدود ولهُ شروط لايجب أن يتجاوزها أَو يتعداها فاذا بلغت نعمة المرء غاية التمام — بنسبة منزلته — اصبح محسوداً من اخوته وما بعدهم من الاقارب كأَنه جاء شيئاً فريًّا اذ تجاوز حد النعمة الذي رسموهُ لهُ وتمنَّوهُ عند ما كان غرض شفقتهم ورحمتهم واذا تبصّرتَ في ذلك وجدتهُ شائعاً بين الخلق في كل مكان وزمان سنَّة الله في خلقه

وهذا الروح غير مقصور على الشعرآء والكتاب وسائر

اصحاب الاقلام بل قد سرى في عروق الخطباء قبل ان يسري في عروق هؤلاء ثم انهُ خالط دماء المصورين المشهورين واكابر النقّاشين ونوابغ المغنّين والبارعين في سائر الفنون العقلية والصناعات الجميلة

بيد ان هذا الطموح الى الشرف والمعالي وذاك الظما الى المفاخرة بفوت الاقران وذيّاك الشغف بالابداع أو الطمع بالخلود أوما يُعبَّر عن ذلك كله « بالتعرض والتصدي لحسد المستحسنين » لم ينبض للنزوع اليـهِ عرق من عروق تبّاع هومِيروْس وظلَّ هذا الروح ساكناً أو مجهولاً خمسة قرون الى أن نُشِرَ قبل مولد عيسى عم بخمس مئة عام ودبّ في أجسام اليونان من تبّاع پندروس[1] الشاعر وتوثيديدوس[2] المؤرخ اليونانيين وهذا الروح تمشى في مفاصل الرومان من تبَّاع شيشيرون[3] وفيرجيل[4] قبل المسيح بمئة عام

فقد علمت مما تقدم طرفاً من أحوال العلوم والفنون في القرون المتوسطة وهي التي يدعونها عندهم بالمظلمة ولم

١ PINDARES ٢ THUCIDIDES ٣ CICÉRON ٤ VIRGILE

تُنعت تلك القرون بهذا النعت لنقص العلماء والفلاسفة فقد كانوا كما علمت كثيري العدد ولكن لأَن العلوم كانت مقيّدة محدودة والافكار محصورة بمنطق الاستبداد ولم يزل هذا حالها الى ان جاء زمن الانبعاث العلميّ في ايطاليا فحرر العقول من الاسترقاق لبعض العلوم واطلق الانسان من ظُلَم العبودية وفك قيودهُ من الأُسر لها والخضوع لمناقضات يأباها المنطق وينفر منها الصواب

بيد ان علماء تلك القرون المظلمة بعد ان كتبوا ما ما كتبوه وارتأوا ما ارتأوهُ وحشوا كتبهم من آراء نعدّها اليوم صبيانية ومناظرات وجدالاتٍ لا طائل تحتها قطعوا بها الاوقات جزُافاً . جآء علماء الانبعاث فغيّرُوا مبادئ تلك العلوم وأغاروا على حصون تلك الأَوهام والمناقضات فدكّوها دكاً ومهدوا السبيل لعلوم جديدة جليلة موضوعها ترجمة الافكار والتعبير عن الاخلاق والعواطف وأداب النفس بأوضح اشارة وأفصح بيان

وعلى الجملة فان ظهور العلوم الادبيّة لهذا العهد في مظهرها

الحالي من الترقي والكمال — وهو كما علمت من أثمار اجتهاد علماء الانبعاث — قد أعان فن الانتقاد كل العون وساعده على النمو وبلوغهِ سن الرشاد

على ان القرون المتوسطة وان كانت قد خلت فقد خلّفت اسمين يدوّن احرفهما تاريخ النقد بماء الذهب وحسبك بكتاب الفصاحة العامَّة لدانتي وبكتابات پيترارك[1] في اللغات ما يخلّد لهما أجلّ ذكر بين نقَّادي العصر

الفصل الرابع
في
النقد في القرون الحديثة*

اعلم ان النقد لم ينتشر لعصرنا هذا الانتشار ولم يبلغ هذا المبلغ من الكمال الّا بعد ان انحلَّ من قيود التقليد القديم

---

١ PÉTRARQUE

(*) القرون الحديثة هي في عرف علماء الفرنجة ما ابتدأ من أول القرن السادس عشر وانتهى سنة ١٨١٥

وتحرر من تقليد علمآء الانبعاث وعصى ما رسمهُ علمآء القرن
القرن السادس عشر من تقاليدهم واعتبارهم نقد أصل اللغات
كمال النقد ومنتهى غايته

ومما كان يجب ان يتنبّه لهُ علمآء القرون الحديثة وأولها
السادس عشر التطريس على آثار علمآء البطالسة[1] ونبش
كنوز القرون القديمة التي بعثرها أهل القرون المتوسطة
وألقوا على ما وصل اليهم منها — أي من تلك الكتب والعلوم —
حجاباً كثيفاً من الاهمال الا ان ذلك كان عقبة العقبات

بيد ان قطعها لم يُرع بعض ابطال المحققين مثل بايّه الذي
تقدم ذكره صاحب كتاب محاكمة العلمآء وهو الذي سرد
لنا أسمآء تكاد لاتنتهي من أسمآء النقّادين الذين اشتغلوا
بنقد النحويين أو بأصل اللغات الا ان ذلك كان بعض المطلوب

ولقد ثبت ان أنجح موصل الى هذه الامنية هو تدوين
تاريخ العلوم الأَدبية وفن الانتقاد لعهد الانبعاث العلمى في
ايطاليا وهذا التاريخ يُسمَّى في عرف علماء الفرنجة « بالتاريخ

1 PTOLÉMÉES

الانسانى » غير ان مواد هذا التاريخ مفرّقة مبعثرة في كل مصرٍ لا يهتدى اليها الا بعد نَصَبٍ طويل

ولو لم يكن من فوائد هذا التاريخ سوى الوقوف على آراء علماء الانبعاث العلمي في النقد وغيره من علوم الأَدب لكفى بذلك نفعاً موفوراً وحسبك ان علماء اروْپا منذ أربع أو خمس مئة عام مازالوا يحذون حذو أولئك العلماء في تفهّم العلوم الأَدبية وتقرير ما قروه والخضوع لما قضى به أولئك الباحثون في أصل اللغات دون ان يعلموا بالتفصيل كُنْهَ ما بنوا عليه تلك الاحكام وما الذي يجدر التمسك به منها وما الذي يجب اهماله اذ كلُّ ما وصل اليهم من ذلك اجماليٌّ بلا برهان يعوّل عليه

على ان ايطاليا اليق مَن يُطَالَب بتحقيق هذه الامنية في هذا العصر عصر جِدَّة العلوم وانبعاث النقد . ولقد تقدم الايطاليان بذلك أحد علماء الاسبانيول الاستاذ ما ناندوْز إي پيلاَّيو (١) بكتابه « تاريخ اراء الاسبان في تحديد الحسن »

١ MENENDORZ YPELAYO

فدوّن التاريخ الانساني الاسباني وفعل مثله الكاتب الفرنسوي أميل جُروشير[١] فدوّن في كتابه « تاريخ المذاهب الالمانية في علمي الأَدب والبديع » طبقات النقد الالماني منذ عهد اوپيتز من[٢] أهل القرن السابع عشر الى ليسّينغ[٣] من ذوي القرن الثامن عشر . اما الانكليز وان لم يكن عندهم للنقد تاريخ متتابع فلهم فيه أثر جليل ومن يطالع مؤلف هَلاَّم[٤] « تاريخ الاداب في أوروبا الحديثة من سنة ١٤٥٠ الى سنة ١٧٠٠ وما بعدها » يستدرُّ منه غزير الفوائد ومثل ذلك من كتاب هِتنِر[٥] « تاريخ علوم الأدب الانكليزية » المجلد الأول

واما الفرنسويون فهم أشدُّ الامم اعجاباً بتاريخ النقد الفرنسوي لأَنهُ ان كان الايطاليان والانكليز لم يهملوا اسماءَ نقَّاديهم فانهم لم يذكروهم في بعض الكتب التاريخية الا عرَضاً وعلى سبيل الاستطراد وأين من ذلك تاريخ النقد الفرنسوي فانه تاريخٌ مُطَّرِد متتابع منذ ثلاث مئة سنة . وقد كان روح حياة العلوم الأَدبية في فرنسا : فمنذ رونسار[٦]

١ EMIL GRUCHER ٢ OPTIZ ٣ LESSING ٤ HALLAM
٥ HETTNER ٦ RONSARD

من أهل القرن السادس عشر الى فيكتورهوغو[١] حتى يومنا هذا لم يظهر عندهم أثر آثار من النشاط في علوم الأدب أو مظهرٌ من مظاهر الحسن والترقيّ في الانشآء والشعر والتركيب ودقة الوصف وحسن التعبير وعلى الجملة في جمال الذوق الادبي وكماله الا وكان النقد رائدَهُ وقائدَه

وانت اذا انعمت النظر في تآليف أكابر كُتَّابهم كرونسار ودوبيلاّي[٢] وماليرب[٣] وبوالّو[٤] وفولتير وشاتوبريان[٥] وهوغو علمت انهم لم يصلوا الى المنزلة التي وصلوا اليها ولم تَرُجْ مؤلفاتهم ذلك الرواج الا لعدولهم عن التقليد القديم واطلاقهم العنان لقرائحهم وذوقهم في مذاهب الكتابة . فلم يكن لهم من ثمَّة غير النقد كافل يكفل تخليد مؤلفاتهم وشهرتهم وقدكان صواب النقد لهم سنداً وعضداً

وأول تاريخ للنقد في فرنسا يرتقي الى سنة ١٥٥٠ وذلك منذ نشر دوبيلاّى كتابه « الدفاع عن آداب اللغة الفرنسوية » لعهد ظهور عصبة الشعرآء وهي الملقبة بالكواكب السبعة

١ VICTOR HUGO ٢ DU BELLAY ٣ MALHERBE
٤ BOILEAU ٥ CHATEAUBRIAUD

(لابليَّاد) [١] وفي ذلك العصر ظهرت آثار للناقدين وكتب عديدة عليها سيمياء تهليل أصحابها لعثورهم على كنوز الكتب القديمة وقد أثارت قراءتها فيهم شدة الحماسة ورغبة التشبه بأعاظم علماء الطليان كدانتي وبوكاجه وپترارك واريوسته [٢] وبمبوْ [٣] فطرسوا على آثارهم بل طمعوا في محاكاتهم وقد تركوا في هذه النهضة الاولى من تاريخ النقد في بلادهم كتباً هي بدائع الغرر ونواصع الدرر رتَّبوا فيها كل ما وقفوا عليهِ من مخبآت تلك الكنوز الثمينة بين شرح وتلخيص وتاريخ وتحديد بل لم يقفوا عند هذا الحدّ فاقتدوا بأبلغ بلغاء في نقده وهاموا ببدائع أسرار الانتقاد واستفرغوا مجهودهم في كشف النقاب عن سرّ التأثير الذي يجده القارئ أو السامع من الكتب أَو الخطب أَو الاشعار المنقودة نفسها (*) كأَن تقرأ أَو تسمع هذه الابيات

١ LA PLÉIADE ٢ ARIOSTE ٣ BEMBO

(*) والمراد بالمنقود من الاشعار والكتابات هي تلك التي ينتقدها مؤلفوها أكثر من مرة ويمحصون معانيها وألفاظها ونسجها وتأثيرها في آذان السامعين ثم يعرضونها على اصحابهم ممن يثقون بعلمهم أو بصدق نقدهم حتى تخرج من بين أيديهم كما يخرج الخاتم المجلو من يد الصائغ الماهر بعد ان يكون قد أعاد حكه وصقله المرة بعد المرة حتى لا يبقى فيه عيب لناظر

شكوتُ فقالتْ كلٌّ هـذا تبرّمًا
بحبّي أراحَ الله قلبك من حبي
فلما كتمتُ الحبَّ قالت لَشَدَّ ما
صبرتَ وماهذا بفعلِ شجي القلبِ
وادنو فتقُصيني فأبعـدُ طالبًا
رِضاها فتعتد التباعـدَ من ذنبي
فشكوايَ تؤذيها وصبري يسوؤها
وتجزعُ من بُعدي وتنفرُ من قربي
فيا قومِ هل من حيلةٍ تعلمونَها
أشيروا بها واستوجبوا الشكرَ من ربي

أو تسمع قول الآخر

شكوتُ سهادي للحبيبِ ولوعتي
وقلتُ احمرارُ العينِ ينبئكَ عن وجدي
فقال مُحالاً ما ادَّعيتَ وانما
سرقتَ بعينيكَ التوردَ من خدّي

او كأن تسمع حلّ الابيات الأُولى وهو هذا شكوت

أمري الى من أهوى فقالت هذا كلام من ضجر من العشق فانا اسأل الله لك العافية منهُ فكتمت الجوى فقالت وما كان عهدنا بالمحبين كل هذا الصبر والكتمان وقد توسلتُ بالقرب فابعدتني ونائيتُ التماس رضاها فعدّت ذلك عليَّ من السيئات فان شكوتُ غضبَتْ وان كتمتُ أو صبرتُ استاءَت وان هربتُ أو اختفيتُ قلقتْ وان دنوتُ أو اقتربتُ صدّتْ وتباعدتْ فهل من يرشدني الى حيلة أنالُ بها قربها وأفوز برضاها ولهُ مني مزيد الشكر ومن الله وافر الاجر

فان المعنى في المنظوم والمنثور واحد وانت ترى ان تأثير الابيات الأُولى في قلب السامع هو غير التأثير الذي لحلّها المنثور وغير التأثير الذي للابيات الثانية فما هو السرُّ في ذلك ؟ فان قلتَ انه الوزن والقافية قلتُ قد اجتمع ذلك في الابيات الثانية وان قلتَ انه في استيفاء المعنى بجملتهِ قلتُ قد تمَّ ذلك في المنثور المحلول وان قلتَ في كل ذلك معاً أي المعنى والوزن والقافية واللفظ قلتُ قد يحصل ذلك بجملته في غير هذا التركيب ولا ينال هذا الحظ من

قلوب السامعين . اذاً سرُّ التأثير اعطاء المعاني حقها من الالفاظ وحسن التركيب والوزن والقافية والجمال الطبيعي بحيث انه لو أبدل لفظ بلفظ آخر فَقَدَ تأثير الكلام أو بعضهُ ومثل ذلك لو أبدل تركيب بغيره . وهذا لا يبصر به الا أكابر الناقدين ولا يتهيأَّ الا للمبدعين الذين أوتوا من العلم حظاً كبيراً وبلغوا من النظم والانشاء غاية التمام وقد يعرض لبعضهم شيء منه في بعض الاحايين كرمية من غير رام

والمراد بالجمال الطبيعي الذي ذكرته لك آنفاً البعد عن التكلّف والتصنّع والتعمّل والتقليد ثم مطاوعة القريحة والجري مع الطبع كقول أبي الطيب

ابلغ ما يطلب النجاحُ به الـ ـطبعُ وعند التعمّق الزللُ

ألا ترى كيف ان مسحة البساطة قد زادت في جمال الابيات الاولى اذ حكى العاشق حكايةً لا يشوبها تصنّع أو تكلّف ورونق الصدق ظاهر في كل معنًى من معانيها واين منها الابيات الثانية فان التعمل بادٍ على ديباجتها اذ بدأ الشاعر يكذب على الحبيب بدعوى احمرار العين ولم يكفهِ كذبه

حتى جعل جواب حبيبه اكذب بادعائه عليهِ بسرقة التورّد من خدهِ واين هذا من صدق الخطاب في الابيات الاولى ·

عودٌ على ما تقدّم ومن أحسن ما أُلِّفَ عندهم لذلك العهد كتاب الفنون الشعرية لمؤلفهِ سكاليجه(١) وهو من أهل القرن السادس عشر

وكان علمآء الفرنسويين يومئذٍ قد جروا شوطاً بعيداً في طريق النقد وعرفوا الصفات المحدودة التي يبلغ بها غاية التمام من نال منها حظاً فاخذوا في تقليد كتابات المشاهير ممن كانت كتبهم موضع اعجاب المتقدمين وفخرهم وكان نيل هذه الغاية منتهى اطماع بلزاك(٢) وشابلان(٣) ولم يكن كورنيل أقل طمعاً منهما في ذلك . وقد نتج من اجتهاد هؤلاء الافراد وثقة معاصريهم برسوخ علمهم طريقةٌ علمية هي الثقة الكاملة بقواعد النقد التي اتخذوها وموضوعهِ الذي استخلصوه معها من الكتب القديمة ثم اقتصروا من ذلك كله على مراقبة القواعد. حتى ان المجمع الفرنسوي(٤) نفسه

١ SCALIGER ٢ BALZAC ٣ CHAPELAIN ٤ L'ACADÉMIE

لم يكن مهتمًّا اول أمره بشيءٍ اهتمامه بهذه الغاية ولعلها كانت وحدها غرض مؤسسه

وكانت تلك القواعد — أي تقليد عظمآء الكتّاب باخذ ما استُحسن منهم مع تبديل الموضوعات — كل علم النقد عندهم وكان لِقِدمها اعتبار ما بعدهُ غاية لمتطلع ونصيب مَن يشذّ عنها الخذلان ولو جاءَ بفصاحة سحبان وكانوا يعدُّون من لم يخضع لاحكامها خارجيًّا قد أتى شيئًا فريًّا يضع من كرامة القديم وكلّ ما بهِ من جلالٍ وسرٍّ عظيم

بيدَ انهُ لم ينتهِ ذلك القرن حتى قام ديكارت[١] وبسكال[٢] فخرَقا حجاب ذلك الاحترام للكتب القديمة ومهَّدا بذلك السبيل للاستفهام عن أساس تلك القواعد ومنزلتها من الصواب ، وهل ان مزيتها الوحيدة كونها قد محَّصها القدمآء ولاجل هذه المزية يجب الاعتماد عليها والمغالاة بها ؟ أوَ ليس في الامكان وضع هذه القواعد على أساس أشد ثباتًا أم دعمها بما هو أمتن مما دعموه ؟ تلك المسائل لم يتأخر بوالُّو أحد

١ DESCARTES ٢ PASCAL

مشاهير شعرآئهم عن طرحها على علمآء عصره مع تسهيل سبل حلّها فقال ان كانت القواعد التي جرينا عليها الى اليوم قد اعتُبرت قواعد فذاك لانها مطابقة لما استعمله بيندروس وهوميروس في أشعارهم الاَّ انها ولا ريب اكثر مطابقةً للطبيعة وأوفر قرباً من الصواب الذي هو موضوع تبصرة لكل عاقل

وهذا كان مذهب شاعرهم موليار[١] في روايته : انتقاد مدرسة النساء : كما انه مذهب الشاعر راصين[٢] في اكثر مقدمات كتبه ومثلهما لافونتين[٣] من اكابر شعرآئهم وبوالو وكلهم كانوا يرون ان اجلّ كتب الادب والفنون وأعظمها قدراً ما كانت بها الموصوفات أوفر موافقة للحقيقة واكثر مقاربة للطبيعة وهي أعلق في نفس القارئ تزيده ولوعاً بقرآءَتها وتبعدهُ عن الملل كأَن صفحاتها المراد بهذا القول

يزيدكَ وجههُ حسناً اذا ما زدتَهُ نظرا

وقد عرف القدماء ذلك لان : الصواب والادراك

---

١ MOLIÈRE ٢ RACINE ٣ LA FONTAINE

هما هما في كل العصور : الكلمة لراصّين من مقدمة روايته « ايفيّجيني »

ومما تقدم بسطه تعلم ان القواعد لم ترسل على عواهنها أو دون برهان كما يُظَن لاول وهلةٍ بل ان سلطان هذه القواعد وأحكامها قد أُسّسا على أساس لا يتزعزع ولا يتبدَّل ولا يقبل التغيير في كل زمان وهو عامّ في كل مكان وبهذا امتاز فن النقد على ما سواه من الفنون وتصدّر علماؤهُ للسيطرة على سائر العلوم

وزيادةً في ايضاح هذا الرأي أقول لو رام مصوّرٌ تصوير شجرةٍ لتحتم عليه ان يتخذ قاعدة تصويره احدى الاشجار المعروفة على الارض (*) وله بعد ذلك ان يتفنن في شكلها من الطول أو القصر الاستقامة أو الاعوجاج كثرة الغصون والفروع أو قلتهما زيادة الاوراق أو نقصها كبر الثمر أو صغره الى غير ذلك من تعدد ألوانه واختلاف

(*) ويكفي لذلك ان يتصور شكلها في ذهنه لا ان يذهب الى شجرة يضعها نصب عينيه ويتبع رأي لونجان وجماعته من اهل القرون الاولى القائلين بايجاد الوسائل والموضوعات فقد سبق دحض هذا الرأي

اشكال أزهاره وغيرذلك فان صوَّر شيئاً ليس له غصون ولا أوراق ولا أزهار ولا اثمار وسَّماهُ شجرةً عابهُ المنتقد وفنَّد عمله لانه شذّ عن القاعدة الطبيعية وهي هذه الاشجار المعروفة على الارض . ومثل ذلك اذا اخذ المؤرخ أو الكاتب أو الشاعر في الرواية أو الوصف تعيَّن عليه ان يجتنب الكذب ويبعد عن الايغال في آفاق الخيال بقصد الاغراب كقول القزويني عن صاحب تحفة الغرائب : بارض الجبال بقرب نهاوند عينٌ في شعب جبل من احتاج الى المآء لسقي الارض يمشي اليها ويدخل الشعب وعنده يقول بصوت رفيع اني محتاج الى المآء ثم يمشي نحو زرعه فالمآء يجري نحوه فاذا انقضت حاجته يرجع الى الشعب عند العين ويقول قد كفاني المآء ويضرب برجله على الارض فان المآء ينقطع :

أو كقول الارجَّاني مادحاً

وماكانَ يغشى البدرَلو كنت جارَهُ خسوفٌ يغطّي رسمَهُ وسرارُ

ولكنَّهُ من نور عزّك قابسٌ فلا غروَ ان لوَّى خطاهُ عثارُ

. . . .

وما الدهرُ لولا انهُ لكَ خادمٌ   وما الارضُ لولا انها لكَ دارُ

وكقول الحلّي

لو قابلَ الاعمى غدا بصيرا   ولو رأى ميتاً غدا منشورا

ولو يشا كانَ الظلامُ نورا   ولو أتاهُ الليلُ مستجيرا

آمنهُ من سطوات الفجرِ

قال الشيخ العلامة اليازجي عند ذكر هذه الابيات وامثالها من الهذيان*: وكل هذا مما لا يقبله العقل ولا يحسن في الذوق ومن العجب ان يخترع المرء مثل هذه الخرافات :

قلت واعجب من هذا ان يقبل الممدوح مثل هذا الكلام ويجيز المادح عليه والعجب كل العجب ان يوجد من يقرأ عجائب المخلوقات ويصدق كلَّ مافيه . لان قاعدة الرواية أو الوصف أو المدح هي الصدق كما تقدم وعدم الخروج عن المعقول فأيُّ صدق في رواية القزويني وأمّا من العجب ان ينقل هذا الرجل الحكاية بل الاكذوبة المذكورة وامثالها في كتابه عجائب المخلوقات ؟ وان قلت انهُ مهّدَ لنفسه العذر

(*) مجلة الضيا السنة الثانية مقالة الشعر

بأول كتابه قلتُ بل ما مَهَّدَه أشدُّ من الذنب لان فيه تضليل فأيُّ عقل سليم يتصوَّر ان الماء أو الارض تتكلم او تفهم الكلام ؟

ومثل ذلك قول الارجاني والحليّ فهو خروج عن المشهود والمعقول وحقٌّ هذه الحكايات وامثالها من نثر ونظم ان ان تُجمع في كتاب يُسمَّى خرافات واكاذيب أدبآء العرب لاعجائب المخلوقات وغرائب أهل الأَدب

فقد رأيت كيف ان الصدق هو قاعدة النقد فمن صدق في كلامه وتشبيهِ في كل فنّ وصناعة فقد بلغ غاية التمام في ذلك الفن وتلك الصناعة بشرط استيفآئه كل وجوه الصدق وحقوقه في محاكاة الطبيعة وبراعة اللفظ والبلاغة وحسن النسج والتركيب ودقة الصناعة الى غير ذلك من وجوه المحسَّنات كما سبق القول لبلوغ غاية التمام اما الاغراب والاغراق توسلاً الى بلوغ ذلك فهو على حد قولهِ

تسألني أمُّ الوليد جملا يمشي رويداً ويكون أوَّلا

وذلك رَابع المستحيلات

أما نقد الفنون في فرنسا فقد كان في القرن السابع عشر

وقد بنوا أحكامهم في نقد التصوير والنقش على نفس القواعد العامة في نقدهم الفنون الأدبية ويُنسب ذلك الى ديديروْ[١] قالوا انه أول من عرض الصور والتماثيل لنقدالناقدين في بهوٍ من منزلهِ ثم كتب كتابهُ المترجم بالابهآء[٢] قالوا وحيث ان هذا الكتاب لم يطبع قبل سنة ١٨٤٠ فلهذا لم يطّلع عليه أهل القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وقد فات هؤلآء القائلين ان دار الندوة الملكية عندهم كانت أصدرت حكماً وقراراً منذ السابع من ايار سنة ١٦٦٧ — أي قبل ان يخلق ديدوروبست وأربعين سنة — مفاده البحث والمفاوضة في التصوير والنقش وما يتعلق بهما

ومما يحسن ايراده هنا ما قاله المصور أودري[٣] عن أستاذه لارجيليار[٤] وهو غاية الغايات في تحديد الجمال وهذا مفاده اذا نظرالعاقل الى مكوّنات الطبيعة بالنظر الصادق اباحتهُ أسرارها ومنحتهُ انوارها وبها يمتاز الافراد العقلآء من عامة البشر وقال أيضاً ولم يضع القواعد واضعوها الا

١ DIDEROT ٢ SALONS ٣ OUDRY ٤ LARGILIÉRE .

لنتعلم ان نوازن بين الاشياء ونقابلها بشبهها الطبيعي"

وذكر المصور تيستيلان[1] لفظة الطبيعي" بمعناها المفهوم منا اليوم فقال ان المذهب الذي يدعونهُ مذهب الطبيعيين يفرض وجوب محاكاة صنيع الطبيعة في كل شيء أتم" المحاكاة

ومنذ يومئذ ابتدأ عندهم النقد الحقيقي للصناعات الجميلة واهتم اربابها ببسط البراهين الساطعة على صحة المبادئ القويمة التي يتبعونها وزكنوا ان استحسان الجمهور لمصنوعاتهم ليس غاية المطلوب بل هناك أمرٌ أهم" واعظم ذاك ان يدري العامل بأي وسيلة حاز ذلك الاستحسان . وعندئذٍ بلغ النقَّاشون والمصورون مقاماً من البراعة والاتقان ورسوخاً في معرفة هذين الفنّين لم يبلغهما مَن جآء بعدهم من دُعاة ديدروِ واشياعه

ولو شئت الاتيان على كل ما بذله نقادو القرن السابع عشر من الاجتهاد وما وصلوا اليه من الترقي لطال بي مجال القول الا اني قضاءً لحقوق التاريخ لا أرى بدًّا من ذكر

1 TESTELIN

اسمآء بعض الاعلام الذين شرف وجودهم ذلك القرن ومهد سبل نجاح وتقدم هذا الفن حتي وصل الى ما نراهُ لهُ اليوم من الفوائد التي تفوق الاحصآء

فان ذكرت بيرّوْل[١] وبُوالّوْ ولابرويّار[٢] وفينيلون فلن اتغاضى عن ذكر فونتينيل[٣] الملَقّب بالكتوم فانه معما كان على ظاهره من الكتمان وما كان ينطق به لسان حاله من التحذر قد حل آخر رمز من رموز النقد وقد أعانه في ذلك بأي[٤] وهو أحد الاعلام الذين قضوا عمرهم ورآء نزع الفكر التقليدي من عقول الناس باعتقادهم ان الأقدمين كانوا أسعد منهم حالاً واسمى ذكآءً وهو الذي نشر مذهب الحؤول وتعريفهُ : ان لا شيء ثابت على وجه الغبرآء فالعلوم الادبية وغيرها ومثلها الفنون كلها عُرْضَةَ التغيير والتحويل بصورة نسبية أي خاضعة لحالات الزمان والمكان

وعقَبَ هؤلآء نقّادو القرن الثامن عشر وهؤلآء انقسموا الى فئتين فئة كان ذووها اهل التقليد وفي رأسهم

١ PERRAULT ٢ LA BRUYÉRE ٣ FONTENELLE ٤ BAYLE

ديفونتين وپريفوسْت [١] وفريرون [٢] وڤولتير معما كان عليه من صدق النظر ولطافة الذوق ومارمونتيل [٣] ولاهرپ وفي أثرهم اصحاب هوْفمَن [٤] وجوفروا [٥] وفيليتز [٦] وهؤلاء لم يزل لهم مريدون الى عصرنا هذا وكلهم يقولون قول لابرويار ان الكلام قد ختم من بعد ان مرّ على عالمنا ستة آلاف عام او قول ڤولتير ان موضوعات القول ومحسّناته اللفظية اللائقة به لها وجوهٌ من التعبير اضيق مما يظنون. وفئةٌ هي فئة اهل الاجتهاد وفي رأسهم القس دُوبوز [٧] ثم ماريفوْ [٨] ومونتيسكيو [٩] وديديروْ وميرثيار [١٠] واخيراً روُسّوْ [١١]

وقد يزعم زاعم انني أكرر اسماءً كثيرة واجمع عصوراً عديدة على غير فائدة لاستثقالهِ لفظ كل هذه الاسماء الاعجمية أولجهلهِ مقام أصحابها في عالم العلم وخصوصاً عند أئمة النقد أولنقص تقديرهِ ما يُفرَض على المؤرخ من التدقيق

---

١ PRÉVOST ٢ FRÉRON ٣ MARMONTEL ٤ HOFFMAN ٥ GEOFFORY ٦ FELETZ ٧ DUBOS ٨ MARIVAUX ٩ MONTESQUIEU ١٠ MERCIÉRE ١١ ROUSSEAU

وعلى الخصوص في تاريخ العلوم وشرح ازمنة تقدمها أو تقهقرها . على انني واثق ان العلمآء وأهل الفضل يقدرون خدمتي هذه العلمية حق قدرها

وقبل ان آتي على ختام هذا الفصل أرى ان أنبّه المطالع على أمر هو من الاهمية بمكان ذلك ان العلوم الادبية عند سائر شعوب أوربا كانت مجهولة في اوائل القرن التاسع عشر أو غير معروفة معرفتها عند الفرنسويين بل ان هؤلآء أنفسهم كانوا يجهلون علومهم الادبية لعصر سابق القرن السادس عشر ولهذا السبب اضطر علمآء القرن الاخير عندهم ان يعيدوا البحث عن قواعد فن النقد ويتحققوا قيمتها لانهم كانوا الى اوائل القرن الاخير الماضي لا يحتجّون ولا يستشهدون الاَّ بما كان من مصنوعات اليونان أو الرومان أو الايطاليان أو الاسبان أو الفرنسويين أي مصنوعاتهم وكان لها في نظرهم اعتبار يفوق مصنوعات باقي الامم . ولكنهم منذ سنة ١٨١٠ طفقوا يقولون بقول اهل شمال أوربا وعرفوا ان الهياكل اليونانية وان كانت شيئاً بديعاً فان

للكنائس الغوطيـة[١] حصةً من الحسن واضحةً ونصيباً وافراً من الجمال وان رافائيل[٢] وان كان استاذاً كبيراً فان دوُرير[٣] ورامبران[٤] ليسا دونه

الفصل الخامس

في

ان علم الادب هو لسان حال المجتمع الانساني

ذيل تاريخ النقد عند سائر الامم

اعلم ان القصائد القصصية المشهورة والنوادر المدهشة والحكايات والروايات لا تنحصر فوائدها في فصاحة التعبير وبلاغة السبك فقط بل لها فوائد تاريخية فوق ذلك فان ايلياذة هوميروس الشاعر اليوناني ورواية همليت[٥] للشاعر شكسبير[٦] الانكليزي ومعلَّقة امرؤ القيس وحكايات كليلة

١ GOTIQUES ٢ RAPHAEL ٣ DURER ٤ REMBRAND ٥ HAMLET
٦ SHAKSPEARE

ودمنه وما أشبه ذلك من النظم والنثر كلها تنطق بافصح بيان عن زمن تأليفها وفي كل واحدة منها ايضاح وكشف عن احوال تلك العصور وعوائد واخلاق اهلها ومعتقداتهم وأزيائهم يستشفه طرف الناقد بادنى لمح فهي في الحقيقة تلخيص تاريخ قوم بعينهم ومن محاسن هذا النوع من التأليف وأريد به النوع القصصيّ انه قبل ان يفيد الناقد والقارئ يفيد المؤلف به نفسه فانه قبل ان يأخذ القلم للكتابة يأخذ في التفكر والبحث والتنقيب عن أخلاق وعادات اهل عصره والعصر الذي يكتب عنه اذ لا ينكر احد ان القصة المؤلّفة بقصد القرآءة والتسلّي أو الرواية المنظومة بغية التمثيل والتلهّي لم يكن غرض مؤلفيها وواضعيها الاَّ افهام القرآء أو السامعين مقاصدهم فهي من هذا القبيل يجب نقدها بنسبة موضوعها

وقد رأى النقادون ان يتعمَّقوا في النقد والبحث عن الاسباب التي حملت المؤلف على تأليف روايته أو قصيدته وعن تاريخ وقوع حوادثها وان هم مثلوها للقوم مهَّدوا لها

من مناظر الاماكن والمساكن واشكال الملابس وتقليد العادات والآداب ما يمثّل للعين الحادثة واهلها وزمنها وذلك بدلاً من سلخها عن عصرها كما كانوا يفعلون الى ذلك العهد . فجعلوا فن النقد باجتهادهم هذا معُيناً لفنّ التاريخ وبعد ان كان معدن الجمود والسكون جعلوه عنصر الحركة أو الكهرباء وكان نكرةً فعرّفوه وميتاً فنشروه

فان العالم الفيلسوف كوُزان[1] من اهل القرن التاسع عشر خدم فن النقد الحديث بنقده كتب البلاغة والفصاحة منظومها والمنثور كشعرشاعرهم راصين وكاتبهم پاسكال نقداً دونه تدقيق علماء البحث عن أصل اللغات وكان هذا النوع من النقد أو التشريف مخصصاً لكتب القدماء فقط

ثم جاء بعد كوُزان الكاتب الشهير والنقّاد الكبير سانت بوُڤ فكان لهُ على النقد يدٌ بيضاء يذكرها لهُ التاريخ بالشكر والفخر مدى الدهر فانه قد أمعن في البحث ودقق في شرح ما انتقده من الكتب واصحابها بغاية الاستقصاء

١ COUSIN

فلم يكتفِ بالبحث عما في تضاعيف السطور من الالفاظ وعما وراء ذلك من المعاني بل قد بحث عن الانسان نفسه — أي الكاتب — وعن سرّ اخلاقه بل عن مكنونات افكاره وعندئذ تحوَّل فن النقد من فنّ مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف اسرار النفوس

وانت تعلم ان من الاسرار ما يضنُّ المرءُ بالاعتراف بها أو يغالط بها نفسه كبعض عيوب الاخلاق فقد علَّمنا سانت بوف قراءَة هذه الاسرار وذلك في مواضع لا يدور في خَلَدِ الكاتب انه قد كشفها لنا

ولما وصل فنّ النقد الى هذا الحد البعيد من الاستنباط والاكتشاف واصابة الحدس وحلّ الغوامض ونبش السرائر اتَّسعت معارف الانسان باخلاق البشر حتى رأى بعضهم ان يصنع جدولاً لمراتب العقول كجدول مراتب النبات أو الحيوانات أو طبقات الارض فيعين لكل عقل او لكل قوة من قوى العقل الغالبة على سائرها برجاً او بيتاً في ذلك الجدول فتكون مرتبة العقل الضعيف في البيت الاول مثلاً

والاحمق في الثاني والمتقلّب او الامِّعة في الثالث والمعاشر في الرابع والحازم في الخامس وذي التصور اوالسامي المدارك في السادس والنفور في السابع الى غيرذلك من القوى الكثيرة المختلفة بين من يكتفي بتأليف الكلام وبين من لا يرى قيمة التأليف الاَّ بالمعاني مما لا يسعني الآن حصره ولا هذا محله فان اردتَ تعيين مرتبة مؤلف او شاعر او حاكم انزلته في البيت او في البرج المعين عدده في ذلك الجدول وقلتَ انه من اهل البرج الخامس او السادس او الثاني وهلم جرًّا

بَيْدَ ان سانت بوُف بالرغم من مذهبه هذا قد حصر النقد بما ذكرتهُ لك قُبَيل هذا من صنيعه

ثم جاءَ بعده العالمان رينان[١] وتاين[٢] فسدَّا الثُلمة التي تركها بل خدما النقد خدمةً لم يحلم بها عالمٌ قبلهما. فلم ينظرا عِوَجاً في فرع من فروع النقد الاَّ قوَّماه ولاغادرا باباً من ابوابه الاَّ ولجاه ولا عثرةً في سبيل من سُبُله الاَّ ازالاها ولا عقبةً من عقباته الاَّ مهَّداها وعلى الجملة فانهما وان لم

١ RENAN ٢ TAINE

يحوّلاهُ الى علم ذي قواعد معيَّنة فقد وسمَّاهُ واوضحا حدوده واعلنا رئاسته وسلطانه على جميع العلوم والفنون وذلك فيما فعلاهُ بانتقاداتهما الكتب الكثيرة التي عمدا الى نقدها فحذا علماء النقد حذوهما وبلغ النقد هذه الدرجة العالية من الترقي دون ان تحدد قواعده في كتاب او يُفرَد لتعليمه وتلقينه قانون مخصوص كما ذكرت لك قبل هذا

وقبل ان اختم البحث في تاريخ النقد لا بد لي من كلمةٍ اقولها عما دعاني ان اضرب صفحاً عن ذكر كثيرين من الاعلام الذين كتبوا في فن النقد

ليس من يجهل ان تاريخ ايّ صنفٍ من العلوم لا يوجب على المؤرخ ذكر كل كتاب أُلّفَ فيه اوَ اسم كل من كتب شيئاً عن ذلك العلم فان من لم يخدم عصره برأيٍ جديد او اختراع مفيد لا حق له بذكر اسمه في تاريخ علم كان فيه مكرراً كتابة من تقدمه

بيدَ انه قد يكون ممن نفع وافاد ونبغ واجاد في علم أو فنٍّ آخر فعلى مؤرخ ذلك العلم أو الفن ان يُعلي ذكره

ويعلن فضله فيما كان سابقاً فيه ومبرّزاً

ولما كان الغرض من هذه الفصول تدوين تاريخ للنقد وبيان سيرهِ وترقّيه عصراً فعصراً وكل ذلك بوجه اجماليّ لم يكن بدّ من ذكر اسمآء العلمآء الذين اتيت على ذكرهم منسوقاً بحسب ازمانهم بَيدَ ان جلّ ما ذكرتهُ من ذلك في هذا الفصل وما قبله لم يتعدَّ تاريخ النقد عند الفرنسويين والاَّ فما مثل ليسنغ[١] وكارليل[٢] وماكولاي[٣] وسيدني[٤] سمِث وشارل لامب[٥] ومن في طبقتهم من الانكليز أو هيردير[٦] وكوتي[٧] وهيجيل[٨] من الالمان أو فرنشيسكو صانتي[٩٠] من الايطاليان أو جُوان فاليرا[١] من الاسبان ممن يُضرَب صفحاً عن اسمائهم في هذا الموضع غير انه لما كان تاريخ النقد الفرنسوي كما سبق القول اقدم تاريخ متتابع للنقد في بلاد المغرب كلها اقتصرت على ذكر اشهر علمآء النقد الفرنسويين

---

١ LESSING ٢ CARLYLE ٣ MACAULAY ٤ SYDNEY SMITH
٥ CHARLE LAMBE ٦ HERDER ٧ GOCTHE ٨ HEGEL ٩ FRANCESCO SANIT ١٠ JIVO VALERA

على ان علماء الالمان والانكليز قد اخذوا منذ مئة عام في محاكاة الفرنسويين ومجاراتهم في هذا الفن فبلغوا اليوم فيه شأواً لا ينحطّ عنهم . ومما تقدم بسطهُ تعلم ان تأريخ النقد الفرنسوي يُحسَب تاريخ النقد العام لسائر أمم اوربا

الفصل السادس

في

موضوع النقد

لم اجد لاحد من العرب كلاماً شافياً في لفظة : **الموضوع** : بمعناها المصطلَح عليه اليوم فاحببت ان اذكر ما يعنّ لي بهذا المعنى وما وصل اليه علمي القاصر وارجو ان اكون قد اصبت الغرض والاَّ فما انا اوّل من رمى فأخطأ

اعلم ان موضوع كلّ علم هو الشيء المبحوث عنه وبعبارة أخرى هو أساس ذلك العلم وأصله ومبداؤه وعماده . فموضوع

علم النجوم هي النجوم نفسها والعلم هو البحث عن الوسائل التي تبلّغ المرء معرفة سير النجوم ومواقعها وافلاكها وبروجها وسياراتها وثوابتها الى غير ذلك مما يتعلق بالشمس والقمر والنجوم . وموضوع علم طبقات الارض هو طبقات الارض نفسها فلو سأل رجلٌ ما هو موضوع علم طبقات الارض واجاب المسئول انهُ البحث عن الصخور الارضية وكيفية تكوينها واعمارها والازمان التي قطعتها واسباب ارتفاع الجبال وهبوط الاودية الى غير ذلك فهل يكون الجواب مطابقاً للسؤآل ؟ أقول كلا فان السؤآل والجواب فاسدان لانهُ لا يُسأل عن الموضوع الا في حالة الجهل به أو التعمية مثال ذلك لو ان بيدك كتاب وسألك السائل ما هذا الكتاب فقلتَ كتابُ علمٍ فقال ماهو موضوعه فقلتَ الطبُّ لكان قوله ما هو موضوعه صحيحاً وجوابك سديداً

ثم وجدت بعد كتابة ما تقدم كلاماً في هذا المعنى لصاحب المثل السائر أوردهُ ليتبين للقارئ ما وافق بهِ كلامي كلامَهُ وما اختلف عنه قال موضوع كل علم هو الشيء الذي

يُسئَلُ فيه عن احواله التي تعرض لذاته فموضوع الفقه هو افعال المكلّفين والفقيه يسأل عن احوالها التي تعرض لها من الفرض والنفل والحلال والحرام والندب والمباح وغير ذلك وموضوع الطب بدن الانسان والطبيب يسأل عن احوالهِ التي تعرض لهُ من صحته وسقمه وموضوع الحساب هو الاعداد والحاسب يسأل عن احوالها التي تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة وغير ذلك الخ وعلى هذا فموضوع علم البيان الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن احوالهما اللفظية والمعنوية انتهى المقصود من كلامه في لفظ الموضوع

وقرأت لملاّ كاتب جلبي صاحب كشف الظنون فصلاً في بحث الموضوع اوردُ منه ما يأتي قال : لما كانت الحقائق واحوالها متكاثرة متنوعة تصدى الأَوائل لضبطها وتسهيل تعليمها فافردوا الاحوال الذاتية المتعلقة بشيء واحد أو بأشيآء متناسبة ودونوها على حدة وعدُّوها علماً واحداً وسموا ذلك الشيء أو الاشيآء موضوعاً لذلك العلم لان موضوعات مسائله راجعة اليه فموضوع العلم ما ينحل اليه موضوعات مسآئله :

ثم تكلم طويلاً بعد ذلك مما لا أرى ضرورة لنقله فليراجعهُ من أحبَّ ذلك في الحزء الأَول من كشف الظنون

وقال السيد في التعريفات **الموضوع هو محل العرض المختص به وقيل هو الامر الموجود في الذهن**

واعلم ان تحديد وتعريف الموضوع لم يصل الى اليوم عند الافرنج لرأيٍ مجمع عليه من جمهور علمآئهم والله أعلم

والذي يتحصَّل من تاريخ النقد ان موضوع أو مبدأ النقد كائنٌ لا ريب فيه وحقيقةٌ لا يُختَلف فيها كما سيتضح لك فيما يأتي وانت تعلم ان الجدال في الذوق أمرٌ شائع لاختلاف الاذواق بين جيِّدها والفاسد ولا عبرة بقولهم المشهور **لا جدال في الذوق** وبمثل ذلك توجد حقائق في علوم الأَدب هي موضع جدال العلمآء والشعرآء والادبآء والمراد بالحقائق الادبية هو كل كلام من منثور ومنظوم اذا كان صحيح المعنى فاسد التعبير أو بالعكس أو اذا كان فاسدهما معاً أو صحيحهما فانه في الأَحوال الثلاثة يستدعي الجدال لبيان وجه نقصهِ وفسادهِ وفي الحالة الرابعة لبيان ما هو أحسن

منهُ أو لامكان عمل ذلك وفي كل حالة من هذه الحالات تجد أشياعاً ومريدين لكلٍّ من الوجهين ولا أطيل عليك بأمثلة ذلك وشواهدهِ خوف مللك ولكن لا أرى بدًّا من ذكر بعض ذلك لاتمام الفائدة .

فمن أمثلة احدى الحالات الثلاث الأُولى قول ابن هاني في تغزُّلهِ ونسيبهِ

فعلى الأَيام من بعدكمو ماعلى الظلمآء من لبس الحداد

وهو بأن يكون رثآءً أولى من ان يكون تشوقاً وتغزلاً

أو كقول العباس بن الاحنف

أصادقٌ حبُّكِ أم كاذبٌ يا خُلَّتي حبُّكِ مصنوعُ

الى ان يقول

قامت تثنى وهي مرعوبةٌ تَوَدُّ أن الشملَ مجموعُ

حتى اذا ما حاولتْ خطوةً والصدرُ بالاردافِ مدفوعُ

شكا وشاحاها ولم يشكيا وانما ابكاهما الجوعُ

فقدرأيت كيف انهُ جزم في أول هذه الابيات بتصنّع محبوبتهِ في الود ثم لم يتمالك ان حكى زيارتها وهذا من التناقض بمكان

ثم ان قوله والصدر بالارداف مدفوعُ كلام حسن التركيب فاسد المعنى وقوله شكاوشاحاها هو كلامٌ يقصد بهِ ذكر الوشاح أو هو هَذَيانٌ فما الذي شكاه وشاحاها بل اي جوع ابكاهما وكيف يجوع الوشاح وما الذي يجيعه وكيف يشكوويبكي؟ فان قيل ان هذا من باب المجاز قلتُ للمجاز والاستعارة حدود وتعريفات ذكرها علمآء البيان كقولنا زيدٌ ذئبٌ وعمرٌو أسدٌ فاننا نريد بذلك ان زيداً مكَّارٌ مختلس وان عمراً شجاع وكقولنا روَّتِ السمآء ظمأَ الارض نريد ان السحاب جاد بالمطر فبلَّ الارض اليابسة المحتاجة الى ذلك وكقوله

بدتْ قمراً ومالت خوطَ بانٍ وفاحت عنبراً ورنت غزالا

وكله من ابواب المجاز والتشبيه والاستعارة كما هو ظاهر ولكن بيت العباس بن الاحنف ليس في شيء من ذلك وقد عابوا ابا نواس لقولهِ

بحَّ صوتُ المال ممَّا منكَ يشكو ويصيحُ

وتعييبهم في محله مع انه أبان سبب بحَّ الصوت وهو

لكثرة صياحهِ وأما العباس فقال شكا الوشاحان ثم نقض قوله فقال لم يشكيا وانما ابكاهما الجوع وهو اكثر غموضاً وبعداً في التفسير أو التشبيه فاين الجوع من الوشاح بل لا تشبيه هنا ولا استعارة فأي مجاز يكون بعد ذلك ؟ وعلى الجملة فهذا البيت كلام منظوم بقريحة الوهم يذوقه اهل الهذيان

ومثال الحالة الرابعة وهي ان يكون الكلام والمعنى صحيحين جامعين شروط الفصاحة واركانها ما كتبه لسان الدين ابن الخطيب الى سلطانه ابن الاحمر صاحب الاندلس قال طيَّب الله ثراه

بانوا فمن كان باكياً يبكي ... هذي ركابُ السُّرى بلاشكِّ
فمن ظهورِ الركابِ معملةً ... الى بطونِ الرُّبى الى الفُلكِ
تصدَّعَ الشملُ مثلما انحدرتْ ... الى صبوبٍ جواهرُ السُّلكِ
من النوى قبلُ لم أزل حذِراً ... هذا النوى جعلُ مالكُ الملكِ

مولاي

كان الله لكم وتولى امركم ، أسلم عليكم سلام الوداع

وأدعو الله في تيسير اللقآء والاجتماع من بعد التفرق والانصداع واقرر لديكم ان الانسان أسير الاقدار مسلوب الاختيار متقلب في حكم الخواطر والافكار وان لا بدّ لكلّ أوّل من آخر وان التفرق لمّا لزم كل اثنين بموت أو حياة ولم يكن منه بدٌّ كان خير أنواعه الواقعة بين الاحباب ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل اليكم من المغرب بولدكم ومقامه لديكم بحال قلقٍ لولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم وقطع نواحل الايام حريصاً على استكمال سنّكم ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم وتمكن هدنة وطنكم وما تحمّل في ذلك من ترك غرضهِ لغرضكم وما استقر بيدهِ من عهودكم وان العبد الآن تسبّب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز ونجح السعي وتأتي لسنين كثيرة الصايح (١) ومن بعد ان يبق لكم بالاندلس مشغب من القرابة وتحرّك لمطالعة الثغور الغربية وقرب من فرضة

(١) كذا

المجاز واتصال الارض ببلاد المشرق لطرقتهُ الافكار وزعزعت صبرَهُ رياح الخواطر وتذكّر اشراف العمر على التمام وعواقب الاستغراق وسيرة الفضلاء عند شمول البياض فغلبته حالٌ شديدة هزمت التعشق بالشمل الجميع والوطن المليح والجاه الكبير والسلطان القليل النظير وعمل بمقتضى قوله موتوا قبل ان تموتوا فان صحّت الحال المرجوَّة من امداد الله تنقلت الاقدام الى امام وقوى التعلق بعروة الله الوثقى وان وقع العجز أو افتضح العزم فالله يعاملنا بلطفه وهذا المرتكب مرام صعب لكن سهّلهُ عليَّ أمور منها ان الانصراف لما لم يكن منه بدٌّ لم يتعين على غير هذه الصورة اذ كان عندكم من باب المحال ومنها ان مولاي لو سمح لي بغرض الانصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه لا والله ولكان الموت أسبق اليَّ وكفى بهذه الوسيلة الحسنة التي يعرفها وسيلة . ومنها حرصي على ان يظهر صدق دعواي فيما كنتُ أهتف بهِ وأظن اني لا أُصدَّق ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان والهدنة

الطويلة والاستغناء اذا كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال ومنها وهو أقوى الاعذار اني مهما لم أطق تمام هـذا الامر أو ضاق ذرعي بهِ لعجز أو لمرض أو خوف طريق أو نفاد زاد أو شوق غالب رجعتُ رجوع الأَب الشفيق الى الولد البرّ الرضي اذ لم أُخلّف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قبيح ولا فعل بل خلّفتُ الوسائل المرعية والآثار الخالدة والسيرَ الجميلة وانصرفتُ بقصد شريف فقتُ بهِ أشياخي وكبارَ وطني وأهلَ طوري وتركتكم على أتمّ ما أرضاهُ مثنياً عليكم داعياً لكم، وان فسح اللهُ في الأَمد وقضى الحاجةَ فأملي العودة الى ولدي وتُربتي، وان قطع الأَجل فأرجو ان أكون ممن وقع أجرُهُ على الله . فان كان تصرّفي صواباً وجارياً على السَداد فلا يُلام من أصاب وان كان عن حُمْق وفساد عقـل فلا يُلام من اختلّ عقله وفَسَد مزاجه بل يُعذَر ويُشفق عليهِ ويُرحم وان لم يعطِ مولاي أمري حقّهُ من العدل وجُليت الذنوب ونُشِرتَ بعدي العيوب فحياؤهُ

وتناصفهْ ينكر ذلك ويستحضر الحساب من التربية والتعليم وخدمة السلف وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان والارشاد الى الاعمال الصالحة والمداخلة والملابسة لم يتخلّل ذلك قط خيانةٌ في مال ولا سرّ، ولا غشٌّ في تدبير، ولا تعلق بهِ محار، ولا كدّره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، وان لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والابقاء ففيمَ تكون بين بني آدم؟ وأنا قد رحلتُ فلا أوصيتكم بمال، فهو عندي أهون متروك ولا بولد، فهم رجالكم وخدّامكم ومَن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم ولا بعيال، فهي من مزيّات بيتكم وخواصّ داركم؛ انما أوصيكم بتقوى الله، والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجِدّ، والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها، لينظر كيف تعملون؛ وأطاب منكم عوض ما وفَّرتهُ عليكم من زاد طريق ومكافأةٍ واعانة زاداً سهلاً عليكم وهو ان تقولوا لي، غفر الله لك ما ضيّعتَ من حقّي خطأً أو عمداً واذا فعلتم ذلك فقد رضيت. واعلموا

أيضاً على جهة النصيحة ان ابن الخطيب مشهور في كل قطر وعند كل ملك واعتقادهُ وبرّه والسؤال عنهُ وذكرهُ بالجميل والاذن في زيارته حنانةٌ منكم وسعةُ ذرعٍ ودَهآء فانّما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابةُ رحمةٍ نزلت ثم أقشعت وتركـ الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح ومثالهُ معكم مثال المرضعة أرضعت السياسة والتدبير الميمون ثم رَقدتكم في مهد الصلح والأَمان وغطّتكم بقناع العافيـة وانصرفتْ الى الحمام تغسل اللبن والوضر وتعود فان وجدت الرضيع فحَسنٌ أَو قد انتبه فلم تتركه الا في حد الانفطام . ونختم هذه الغرارة بالحلف الاكيد اني ماتركت لكم وجه نصيحة في دين ولا دنيا الاَّ وقد وفيت لكم ولا فارقتكم الاَّ عن عجز ومن ظنَّ خلاف هـذا فقد ظلمني وظلمكم والله يرشدكم ويتولّى أَمركم ويعول خاطركم في ركوب البحر

صابَ مزنُ الدموع من جفنِ صبّك

عنـد ما استروحَ الصبا من مهبِّكْ

كيفَ يسلو يا جنّتي عنكَ صبٌّ
كانَ قبلَ الوجودِ جُنَّ بحبّكْ
ثمَّ قلْ كيفَ كانَ قبلَ انتشآءِ الـ
ـروحِ من أنسِكَ الشهيّ وقربِكْ
لم يَدعْ بيتَكَ المنيعُ حماهُ
لسواهُ الاَّ الي بيتِ ربّكْ
أولِ عذري الرضى فما جئتُ بدعاً
دمتَ والفضلُ والرضى من دأبِكْ
واذا ما ادّعيتَ كرباً بفقدي
أينَ كربي ووحشتي من كربِكْ
وَلدي في ذُراكَ وكَري في دو
حكَ لحدي وتربتي في تربِكْ
يا زماناً أغرى الفراقَ بشملي
ليتني اهبتي اتخذتُ لحربِكْ
أركبتني صروفُكَ الصعبَ حتى
جئتَ بالبينِ وهو أصعبُ صعبِكْ

وهـذه الرسالة كما تراها قلادة من قلائد الفصاحة العربيـة وعقد نفيس يليق أن يتحلّى به جيِـد الحضارة العصرية ولا أطيلُ بوصفها فمن يذوق أطايب الكلام يعلم قدرها وانما المراد بها الاستشهاد فانها معما جمعت من محاسن اللفظ وفصاحة التعبير وبراعة السبك وأخذها بطرفي المنطق والبيان ودلالتها على وفور عقل منشئها وطول باعهِ في علمي الجدل والبحث وامتداد نَفَسه في علم الأَدب والاقناع فهي من الحقائق الأَدبية التي تحتمل النقد

فمن ذلك انها من وزيرٍ الى سلطان وكان يجب ان يكون عليها من سمات الخضوع والطاعة ما يشعر بذلك . ومنـه استخدامه لفظة **محار** في قوله : ولا غش في تدبير ولا تعلق بهِ محار : قال في لسان العرب « المحار المرجع : وقال قبـل ذلك حار الى الشيء وعنهُ حَوْراً ومحاراً الخ رجع عنهُ واليهِ : فيتحصل من ذلك ومما بعده **ولا تعلق به رجوع** وهي اكثر وضوحاً واستعمالاً من كلمة **محار** وهي مهجورة . ومن ذلك أيضاً انتقاله من ضمير الغيبة الى ضمير المخاطبـة في العبارة

الواحدة واللائق في هذا المقام مخاطبة السلطان بالضمير الغائب دائماً ولا يُردّ على هذا بكون ابن الخطيب مربّي السلطان فحقوق التربية لا تبيح الاخلال بالاداب السلطانية وعلى الجملة فقد يمكن ان توجد بهذه الرسالة مآخذ أخرى كما قد يكون بعض هذا النقد غير سديد وليس القصد نقد هذه الرسالة وبيان ما يؤخذ بها على كاتبها بل هي شاهد على ان الحقائق الادبية مهما كانت منزلتها في عالم الكتابة ومهما كان موضوعها فانها محل نقد الناقدين لاختلاف اذواقهم في بابات استطعام واستحسان الالفاظ والتراكيب والمعاني اختلافها في درجات استطابة الالوان من الطعام.

وقد انكر بعضُهم حقيقةَ النقد ولزومه للعلوم والفنون زاعماً ان بعض مريدي كانتْ(١) الفيلسوف الالماني أرادوا المنافسة به فأعلنوا مذهبه هذا — أي النقد —. وقد فات هؤلآء المنكرين ان مذهب كانتْ في النقد مخالف لحقيقة النقد الذي نحن بصدده ولما عليه اليوم جمهور الناقدين ، فان

---

١ KANT

نتيجة مذهب كانت المنطيقية هي هذه : اننا مهما بحثنا وفحصنا ودقّقنا في كتب الادب والفنون لا نستطيع ان نجد فيها الاَّ ما وضعناه نحن من عندنا : وبعبارة اخرى : اننا عند استخراجنا معنىً من عبارة الكتاب المنقود لا نكشف بالحقيقة معنىً كان في نفس الكاتب بل في نفسنا أي في نفس الناقد :

فهذا المذهب أو الزعم هو السِفسطةُ بعينها اذ لو حاول أحد الناقدين ان يرى الفلسفة أي الحكمة بالابيات الآتية هل يستطيع الى ذلك سبيلا ؟

ألاَ فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ
ولا تسقني سرًّا اذا أمكن الجهرُ
فعيشُ الفتى في سكرةٍ بعد سكرةٍ
فان طال هذا عندهُ قصرَ الدهرُ
وما الغبنُ الاَّ ان تراني صاحياً
وما الغنمُ الاّ ان يُتعتعَنى السكرُ
فُبحْ باسم مَن اهوى ودَعني من الكُنى
فلاخيرَ في اللذاتِ من دونها سترُ

فلو فُرض انك وقفتَ على نقد هـذه الابيات على الصورة الآتية :

ان هذا الشاعر الحكيم يطلب من الساقي ان يقول لهُ عند سقيه الخمر خُذْ فاشرب خمراً يريد بذلك ان يشرك حواسَّهُ الخمس بلذَّتها فسمعهُ بلذَّة كلمة الخمر ، وعينيهِ بلونها الياقوتيّ ، وانفهُ بريحها المعتّق ، ولسانهُ بطعمها ، ويدَه بلمس كأسها ، وقد طلب ان يسقيه جهراً ان امكن ذلك ، لانهُ يرى في السرّ شيئاً من الظلمةِ واللعثمة وهو يفضّل عليهما الوضوح والافصاح بالمرغوب . ثم يُفهَم من بيتهِ الثاني انه يرى ان نوائب الايام دائرة في الانام ، فهي لا تترك للمرء لذّةً الاّ عاجلتها بالحسرات ولا صفواً الاّ اعقبتهُ بالاكدار ، فالزمن يطول عليه وكلّهُ همومٌ وأحزان فالعاقل من حارب جيوش الدهر بسكرٍ موصولٍ بسكر فلا يدنو الحزن من ساحة عقله الاّ يرى سهام الافكار صاعدةً في الفضآء على ابخرة الخمر تدفع بتيّارها جنود المصائب . وأشار في البيت الثالث الى هذ المعنى باكثر وضوح اذ رأى ان صحوَهُ عين

الغبن والخسران لان هموم الدنيا تنقضّ عليه فلا يرى الغبطة والسرور الاّ عند ما يتعتعهُ السكر ويشاهد نفسَهُ كامير قد دانت لهُ الدنيا وأعطته مقاليدها ومن ذا الذي يرضى من سعادته بالشقاوة بديلا ؟ ثم لم يكتف بما رآهُ من لذات السكر ونعيمهِ حتى أراد ان يطرد مِنْ حولهِ كل ما من شأنهِ ان ان ينغّصَ عليه سروره فطلب من مغنّيه أوساقيه الذي كنى باسم محبوبه حذراً من الرقباء والعذال او خوفاً من غيرَتهِ ، ان يبوح باسم من يُحبّ ويصرّح بهِ ، لانه يرى ان لاخيرَ باللذات المستورة وان سرور النفس وانبساطها لا يكملان ما دام الحذر والخوف مخيّمَين وهذا هو مذهبٌ لبعض الفلاسفة يرون كل ما على الارض زائلاً كما هو معلوم وان العاقل مَن لا يترك للهمّ موضعاً في فؤاده ، وخير ما تُطرَد به الهموم وتجتَلب به المسرات الخمرُ ، فان شاربها يجد نفسَهُ في نعيم مقيم .

أتُراك تعتقد طرفةَ عينٍ بصواب هذا النقد ؟ وألاَ تُنزلهُ محلَّهُ من التمويه والسفسطة ؟ فما هذا الشعر الا كلام سكّير

خليع قد جهل الفضائل الانسانية ومزيّة العقل وسلامة الحواسّ وقيمة شرف النفس التي تقضي على الانسان بالاعتدال في جميع احواله ليتسنّى لهُ البلوغ الى الكمالات الانسانية فالخمر وادمان شربها مضيعةٌ للعقل وبالتالي لاحترام المجتمع الانساني بل سبب ازدرآء السكّير بالبشر عموماً ومواصلة السكر نوع من الموت اما الاعتقاد بان اللذة في المكشوف الظاهر من اللذات فاكثر البشر على عكس ذلك وقد قالوا كلّ ممنوع حلوٌ وكلُّ مستورٍ محبوب، وعلى ذلك جرى المحبّون كلهم في كتم اسم مَن يهوون، بل سترحبهم عن الناس ما استطاعوا قال ابو الطيب

كتمتُ حبكِ حتى منكِ تكرمةً
ثم استوى فيه إسراري وإعلاني
كأنهُ زادَ حتى فاضَ عن جسَدي
فصارَ سقمي بهِ في جسمِ كتماني

وقال الآخر

فايّاكَ واُسمَ العامريةِ انني اغارُ عليها من فمِ المتكلّمِ

أغارُ عليها من ابيها وأُمّها اذا كلّماها بالكلام المغمغمِ

وقال شيخ العاشقين السيد عمر بن الفارض

اخفيتُ حبكمُ فأخفاني الاسى

حتى لَعمري كدتُ عني اختفي

وهذا مذهب الجمهور من اهل الحب الصادق والمروءة الكاملة فقول هذا الماجنِ مخالف لما عليهِ اكابر المحبين ولا يتحصل من شعره هذا غير المفهوم من عموم الادباء مهما عاند المعاند او حاول واستنبط الناقد .

وهاك مثالاً آخر . قال المتنبي يذكر قيام شبيب على كافور ملك مصر وقتله بدمشق .

عدوُّكَ مذمومٌ بكلّ لسانِ

ولو كان من أعدآئِك القمرانِ

ولله سرٌّ في علاك وانما

كلامُ العِدى ضربٌ من الهذيانِ

اتلتمس الاعداءَ بعد الذي رأت

قيامَ دليل أو وضوح بيانِ

رأت كلَّ من ينوي لك الغدرَ يبتَلى
بغدر حياةٍ او بغدرِ زمانِ
برغم شبيبٍ فارقَ السيفُ كفَّه
وكانا على العلّاتِ يصطحبانِ
كأنّ رقَاب الناسِ قالت لسيفهِ
رفيقكَ قيسيٌّ وانتَ يمانِ
الى ان قال
نفى وقعَ اطرافِ الرماحِ برمحهِ
ولم يخشَ وقعَ النجمِ والدَبرانِ
ومنها
وقد قتلَ الاقرانَ حتى قتلتَهُ
باضعفِ قرنٍ في اذلّ مكانِ
اتتهُ المنايا في طريقٍ خفيّةٍ
على كلّ سمعٍ حولَه وعِيانِ
ولو سلكتْ طرقَ السلاحِ لردَّها
بطولِ يمينٍ واتّساعِ جنَانِ

ومنها

أتمسكُ ما اوليتَهُ يدُ عاقلٍ
وتمسكُ في كفرانهِ بعَنانِ
ويركبُ ما اركبتهُ من كرامةٍ
ويركب للعِصيانِ ظَهر حصانِ

. . . .

قضى الله ياكافور انك اولٌ
وليس بقاضٍ ان يُرى لك ثانِ
فما لَكَ تختارُ القسيَّ وانما
عن السعدِ يُرمى دونكَ الثقلانِ

الى ان يقول في ختامها

أَرِدْ لي جميلاً جدتَ او لم تُجِد بهِ
فانّكَ ما احببتَ فيَّ اتاني
لو الفلكُ الدوّارُ ابغضتَ سعيَهُ
لعوّقَهُ شيءٌ عن الدَوَرانِ

فقد يسبقُ الى فكر الناقد عند قرآءة هذه القصيدة

ان المتنبي شاعر قصد كافوراً ملك مصر طمعاً بنيل احسانه من مالٍ او توليته ولايةً كما اشار الى ذلك في مدائحهِ لهُ فلا بدع ان يكون قاعداً يتلمّس كلَّ وسيلة ويتحيّن كل فرصة ليداجيه ويمدحه توصلاً الى مرامه حتى زعم ان كافوراً غنيٌّ بحظهِ عن الرماح السمهرية والسيوف الهندية فالفلك خادم سعوده والزمان من بعض جنوده وأنَّ مَن عصاهُ مخذول مُهان ومَن ناوأهُ عتلٌّ خوّان وان المنايا تقصدهُ اينما كان ويقتلهُ اضعف انسان وكأن لم يكفِ المتنبي كل ما جاءَ بهِ من هذا الريآء والثنآء حتى زعم ان الله كتب لكافور بهذا السؤدد والعلآء ثم ختم ذلك بالرضى منه والاكتفآء بارادةِ حسنِ حاله او بفكرٍ جميل يمرُّ بباله ليجعل البخت من حجّابه والتوفيق من اصحابه فيوافيانهِ بما اراد ويؤاتيانهِ بما تمنّى من الاسعاد .

بَيدَ ان هذا الناقد مهما تخيّل المتنبي مصانعاً مخادعاً مداهناً ومهما صوّر لهُ الوهم من المدح البليغ في هذه القصيدة ومن شديد مذمتهِ لشبيب ومهما عظّم لنا تخيلاته

هذه والبسها من ثياب الحقيقة فليست من الواقع في شيء بعين الناقد البصير .

اذ مَن تأمّل بالنظر الصادق ودقّق النقد بالرأي الراجح تبيّن لهُ من وراء هذا المدح لسانُ شاعر بل مؤرخ يروي الوقائع كما هي تحت براقع المجاملة والدهآء واليك حقيقةَ ما يروي.

ان هيبة كافور قد وقعت في قلوب الناس حتى امسى من يعاديه مذموماً من جميع الخلق لا لحبهم كافور بل خشيةً من ظلمه وبرهان ذلك انه يقول ولو ان الشمس والقمر من اعدآئك لذمهما الناس مع ما بهما من الرفعة والجلال ، والنفع والجمال وانْ قيل انَّ هذا الكلام اطلقهُ على سبيل المجاز والمبالغة قلتُ لو كان هذا مراد المتنبي لكان يقول مثلاً

عدوُّكَ مذمومٌ بكل لسانِ فعدلُكَ ما قد سنّهُ العمرَان

أو

عدوكَ مذمومٌ بكل لسانِ فليس يعيبُ الليثَ غيرُ جبانِ

أو

عدوكَ مذموم بكل لسان

فليس يشينُ الفضلَ غيرُ مُشانِ

او ما شاكل ذلك مما المتنبي اعرف بهِ من سواه في مقابلة صدر البيت . ثم انهُ لما لم يرَ في كافور من الصفات الكريمة ما يطلق لهُ عنان القول في المدح اكتفى بقولهِ ولله سرٌّ في علاك الخ كأنه يريد ان يقول قد ضاق بي مجال مدحك وليس بك مايؤهّلك لهذا السؤدد والعلآء وكلّ ما يقولهُ اعاديك من قبح صفاتك ومساويك و يظهرونه من مخبّآت قبائحك ومخزياتك يُحسَبُ ضرباً من الهذيان اذ ان دوام مجدك وعلاك بالرغم من تشنيعهم هذا ، يشعر بأن للهِ سرٌّ في علاك وغاية خفيت عن البصائر . والبرهان على ذلك ان كلَّ من نوى لك الحرب أو عاداك قتل بسيف غدرك،او سُلب ماله ، او سُجن بسلطان مكرك ، ومن جملتهم شبيبٌ هذا وقد كان شجاعاً لم يطق ان يذلَّ لعزّتك وانت الجبان فوكّلتَ به اضعف غادر خوّان

قتله بطرق خفيَّة لم يعلم بها مَن حولَهُ من الاقران والخلان وتلك الطريق الخفيَّة للقتل هي السُمّ وقد وقع منه ميتاً في الكنيف . وانت تعلم انك لو قصدت قتله بالطريق الواضحة وهي الحرب لأعياك امرهُ ، وللاقاك بنفسٍ كبيرة ورماح طويلة يقصر عنها جبنك ، فاحتلت على قتلهِ بهذه الحيلة اتّقاء بطشه وقد ساعدك على ذلك سوء بخته فقد خانَهُ الحظّ معك . ثم رأى الشاعر انهُ قد تمادى في مدح شجاعة المقتول والكشف عن خوافي اسباب قتله وخشى غدر كافور ، فاستدرك كلامه هذا بقولهِ بيدَ انك احسنتَ اليه فلم يُرضهِ احسانك وكفر نعمتك فأنت معذور في قتله بأيّ وسيلة كانت . ثم رأى كأَنهُ اذنب بهذا الكلام الزور وارتكب جريرة ، واراد ان يبوح بما في نفسه من ذلك ، الاّ انهُ خطر ببالهِ مقام كافور الرفيع ، وانبساط ملكه ، وعظمة سلطانه ، فضاق بالامر ذرعاً ونادى بلسان حاله كيف اطيق التصريح بما تأتيهِ يا كافور من الكبائر وقد قدَّر اللهُ ان تكون الحاكم المالك ، وكأَنهُ قضى ان لا يسطو

عليك مقتدر وان لا تصل اليك يد مخلوق بسوء . واذ قد بلغ سعدك هذا المدى القصيّ فأنا اكتفي منك بأن تريدَ لي الخير فيصيبني لانك خسيس لا تسمح يدك بالجميل فأرجوه منك .

فاذا منحتَ هذا النقد نظراً صائباً وبصيرةً نافذة وكنت ممن المّ بشيءٍ من علم اخلاق البشر ونبش ضمائرهم وجدتَ انّ هذه كانت خواطر المتنبي عند نظمه هذه القصيدة لا ما يظهرُ من برقع مديحها لمن كان اعجميّاً في فن النقد .

ومن هذه الامثلة وكثير غيرها تعلم ان منكري حقيقة النقد ليسوا على شيءٍ من الهدى فيه وان المعاني ليست في صدر الناقد كما يزعمون بل في قلب الكلام طبعتها قريحة الكاتب على ألواح الصحف ويشبه هذا فعل المصور يروم تصوير قارورةٍ على صحيفةٍ من البلّور بنور الشمس فترتسم القارورة على الصحيفة مع ما فيها من المآء وما في المآء من سمكة أو غيرها . وبمثله يرى الناقد البصير في قلب الكلام

عواطف الكاتب ويكشف ما وراءَ ذلك من شؤونه واحواله حين كتابة سطوره بل ان انشاآء الكاتب قد يميط لهُ الحجب عن اخلاقه وآدابه واميالهِ . وكما ان المصوّر لم يرد حين التصوير الّا رسم هيئة القارورة ، فكذلك الكاتب حين كتابته قد لا يُريد الّا ابراز المعنى المقصود منه ، ولكن كما ان صحيفة البلور ، قد رُسم عليها بفعل طبيعيّ من نور الشمس ، ما في قلب القارورة ، فهكذا يرتسم على اللفظ وينطبع في قلب الكلام من عواطف نفس الكاتب واميالهِ — اراد ام لم يُرد — ما لا يخفى على الناقدِ الحاذق وان خفيَ على الكاتب نفسه ، وما اصدق قول الشاعر

ومهما تكنْ عندَ امروءٍ من خليقة

وانْ خالَها تخفى على الناسِ تُعلَمِ

فكلام المرء مِرآة اخلاقه وجاءَ في التوراة يتكلم الفم فضلة ما في القلب ولكن لا يبين ذلك في اكثر الاحوال الّا لمن كان ذا بصيرة نقَّادة وعلمٍ واسع ولولا ذلك لما ظهرت فوائد النقد ولا رجحت موازين النقَّادين

وموضوع علم النقد وقواعده اصلية وهي مقررة عند جميع امم الارض كسائر قواعد العلوم العقلية وموضوعاتها ولا تختلف الاَّ في الفروع . مثال ذلك اننا لا نعرف أمةً من الامم قد عدَّت الافراد ازواجاً أو حسبت الزوجين ثلاثة فقواعد علم الحساب أصلية في ذاتها لا تحتمل الاختلاف وموضوع الحساب هو الاعداد المتفرقة وعلم الحساب هو جمع الاعداد وتضعيفها وتقسيمها واسقاط عدد معلوم من عدد آخر الى غير ذلك مما هو معروف ، فلسنا نعلم أمَّةً اتخذت علم الحساب لمعرفة الطب ، بل ذلك ممتنع ، اذ لو أقام الحاسب اعواماً يضرب أخماساً في أسداس ويسقط مئآتٍ من آلاف ويقسم مئين على عشرات لما خفَّف من حمى العليل شيئاً ولا عرف بذلك ما في جوفه من العلة أو ما يجري في عروقه من الدم . اذن من هذا الوجه ، موضوع كل علم غير قابل التحويل . وزيادةً في الايضاح أقول هل يمكن اخذ موضوع الجغرافية السياسية أو الوصفية وجعله موضوع الكيمياء ؟ الجواب ان ذلك محال لان الجغرافيا هي رسم

الممالك والبلاد التي هي على وجه الارض أو وصف ما بها من البحار والجبال وما يكتنفها من الهوآء الى غير ذلك مما هو معلوم . والكيميآء هي التحليل والتركيب ، فلو ظلَّ الكيماويُّ الدهر يحلّلُ الهوآء والمآء ، ويراقب الاحتراق والتنفُّس ، ويميز بين الاجسام الموزونة وغير الموزونة ، ويفرّق الاجسام المركَّبة من الاجسام البسيطة ، لما عرف موقع موسكو ولا ، بُعدَها عن توكيو ، ولا افادته في أي درجة تقع مدينة باريس من العرض الشمالي أو الطول الشرقي . ومن هذه الامثلة تعلم ، ان موضوع النقد كسائر العلوم العقلية لا يتحوَّل . وعلى الجملة فكلُّ محسوسٍ على وجه الارض بل وفي الفضآء هو عرْضةٌ للنقد ، ولذلك قيل موضوع علم النقد وقواعده أصلية ، لا بمعنى ان هذه القواعد تحدَّدت وتقررت . فهذا أول من تجرأ عليه مؤلف هذا الكتاب كما تقدم القول

الفصل السابع

في

النسبة

ومن أركان النقد ان يكون نسبيًّا فاذا رام الكاتب وصف ذكآءَ كلبٍ مثلاً فلا يستعير له ذكاءَ احد اذكيآء البشر واذا اراد وصف بليد من الناس فلا يصور لنا في رأسه دماغ حمار ومثل ذلك اذا انتقدنا صورة فَرَسٍ مطهّم فلا يلزم ان نعيبها لانها دون حسن الغزال أو قصيدة زهرية فلا نؤاخذ ناظمها لخلوها من النسيب أو قرأنا وصف جبل من جبال لبنان فلا ننسب للواصف عجزاً أو تقصيراً لانه لم ينعته بكثرة الرياض ووفرة الادغال والمروج من بعد ان وصفه بشدة الارتفاع ومصادمة الرياح وعذوبة المآء وطيب الهوآء فلكلٍ شأن هو به اليق ، وحال قد تفرَّد بها عن سواه ، وطبيعة مخصوصة عرف بها . فمهما بلغ الكلب من الذكاء

ومهما سفل عقل الفرد من البشر لا يتجاوز الكاب ذكاءَ أرقى الحيوان ولا ينحط عقل الانسان عن درجة أشد الناس جهلاً وأوفرهم بلادةً . وقل مثل ذلك عن الفرس، فمهما بلغ من حسن الخَلق فذلك غير حسن الغزال وان خلو القصيدة الزهرية من الغزل ليس بعيب ولا ينقص شيئاً من حسنها ، اذا كانت جامعة حسن الوصف وبلاغة التعبير وفصاحة اللفظ ورشاقة الكلام ومتانة النسج كما ان وصف الجبل بما فيه ليس مما يُعاب عليه واصفهُ فانهُ وصف لنا الحقيقة لم يزِد ولم ينقِص . بل لو وصفه بغير ما فيه لكان مما يُعاب عليه، اذ حقيقة الوصف أو التصوير أو النقش حتى كأَنك تعاين الموصوف أوالمصوَّر أو المنقوش ، هي الضالة التي ينشدها الشاعر البليغ، والكاتب اللوذعيّ، والمصوّر البارع، والنقَّاش الالمعيّ، والموسيقيّ الحاذق، والخطيب الاصمعيّ في اشعارهم وكتاباتهم وتصاويرهم وتماثيلهم وانغامهم و خطبهم .

فالحقيقة سلاح النقد وكلُّ جمال في الكون هو دون جمال الحقيقة وعماد النقد واساسه هو الصدق ولا يكون

النقد مُصيباً الاَّ عند ما يصيب كَبِدَ الحقيقة . وكلما بعد النقد عن الحقيقة كان فاسداً ومردوداً . اذن موضوع الانتقاد قصد الحقيقة وبعبارةٍ اخرى الانتقاد هو التفتيش عن الحقيقة ، فمن يأخذ كتاباً لينتقدهُ باخلاص يُدعى بعدل ناقداً . ومن يبحث فيه لنشر الهفوات وستر الحسنات يُعَدُّ عائباً وحاقداً وحاسداً ، ومن يستر القبيح وينشر المليح ندعوهُ مداهناً مخادعاً ، واقبح من هذَين من ينصب نفسه للانتقاد أو يتعرَّض لشيءٍ منه ولم يكن ممن آتاهم الله صدق النظر ولا استكمل العدَّة اللازمة لذلك من علوم لم يعلم منها الاَّ الأَسماء فراح يقول هذا خطأٌ وذاك صواب وهو في الحكمين يخبط خبط عشواء

الفصل الثامن

في

صدق الارادة

ومن اركان النقد ايضاً صدق الارادة قال بعض

منكري فوائد الانتقاد لا يكون النقد بالغاً ذلك المقام الرفيع في مجلس العلوم ، أي لا يفوز بكشف الحقيقة ومعرفة الاخلاق، حتى يلجَ الناقد في ضمير المنقود وتختلط روحهُ بروحهِ فيكشف لنا اسرار نفسه ، ومن اين له ذلك ؟

قلتُ ان ما يعبّر عنه في علم الطبيعيات بالجاذبية يليق بنا ان نسميّه في علم الانتقاد **بصدق الارادة** فان كان سرُّ الجاذبية يقرّب كما هو مقرَّر في علم الطبيعيات اصغر جزءٍ من اجزاء الرمل من اقصى اقاصي الارض نحو مثله في ادناها ليتحدا وهما من الجماد(*) أفليس للعاقل من سرّ يقرّب من فهمه عواطف امثاله من البشر ومكنونات ضمائرهم وسائر اسرار نفوسهم ؟ بلى انهم أحق بذلك من الجمادات وسرّ الجاذبية فيهم افعل فصدق الارادة من المتكلم والسامع، والكاتب والقارئ ، والمصور والناظر ، هي قاعدة التفاهم ، فالمتكلم يَنطِقُ ليُفهِم ، والسامعُ ينصت ليَفهَم ، والكاتبُ يكتب ليبلّغ مرامه ، والقارئُ يقرأ ليعلم مقصودهُ . والمصور

(*) اذا لم يعرض لهما في طريقهما ما يحول دون اتصال الجاذبية بينهما

يرسم ليكشف للمشاهد فكرَهُ وغايته . والرائي يتأمَّل ليقرأ ما في نفس المصوّرِ والمصوَّر . والغرض الذي يرمي اليه جميعهم هو التفاهُم ، فصدق الارادة في الفهم والتفهيم ، هو الكاشف لاسرار النفوس ، وكلما عظمَت ارادة المتكلم أو الكاتب في التفهيم وأوتي ذكاء اللبّ وصدقت ارادة السامع أو القارئ في قبولهِ كانت أقرب لنقد عواطفه وادراك اسرار اخلاقه وآدابه.

واعلم ان النقد يختلف باختلاف العلوم أو الاشياء المنقودة . وذلك لانك اذا انتقدت كتاب ادبٍ ، فتنظر اولاً في عبارته لتحله في المحل اللائق به من مقامات الفصاحة ، ثم تنظر في معانيه لتعلم مكان قائلها من الحجى والذوق ، ثم تنظر في الفائدة المتحصلة منه . فاذا أتيت على ذلك كله تعيد النظر لتنقد الصحيح من الفاسد أو الخطأ من الصواب أو ما كان بذاته صحيحاً لكنه بالنسبة الى موضوع الكتاب أو شيءٍ آخر منه فاسداً .

واذا انتقدت صورة صوّرَتْ بها فتاةٌ تقطف زهرةً في حديقةٍ ، فتنظر اولاً في لون النبات والزهر لترى هل هو

مشبه للالوان الطبيعية ام مخالف لها ثم تنظر في قوام الفتاة والظاهر من أعضائها وهل بينهما نسبة ثم تنظر الى اليد التي تقطف الزهرة لترى هل كان وضع اليد في حالة قطف الزهرة شبه الحالة الطبيعية ام خرج عن الوضع الطبيعي وهل الزهرة المقطوفة أو التي باشرت اليد قطفها مع وجه الفتاة وسائر أعضائها وخصوصاً عينيها ونظرها حين القطف وهيئة وقوفها وانحنائها للقطف والوان الحديقة وسمائها ومائها وغير ذلك من أدق ما في الصورة ، الى أظهر ما فيها ، كل ذلك ، مماثل ومشابه اتم المشابهة لما كان من مثله في الحقيقة ام لا .

واذا انتقدتَ خطيباً على مِنبرٍ أو مِرقاةٍ فأوّلُ ما يستوقف بصرك ويسترعي سمعك منظرُهُ ثم صوتُهُ ، ثم القاؤهُ وايماؤهُ ، ثم نبَراتهُ وخفضاته ، ثم مخارجهُ ومقاطعه وما يتخلل ذلك من إرعادٍ في الوعيد وتهويلٍ في التهديد وتعليلٍ في الوعد وتأميل ، وتبشيرٍ في الفوز وتهليل ، وإعوال في الخطب الجليل ، واقناعٍ قويم ، وبرهانٍ مستقيم ،

الى ما يتفرع من ذلك وغيره مما يظهر به تقصير الخطيب أو سبقه .

واذا انتقدتَ تلحينَ أُغنيّةٍ فتنصتُ ان كنتَ ذا سمعٍ سليم وقلبٍ عليم الى وقع النقرات وتخالف النبرات وتناسب الانغام ودرجات الاوتار وصحة وزنها والسلّم المختلّ من السلّم الصحيح واحوال الازمنة المنحلّة وهي الانقطاعات والوقفات بين صوتٍ وآخر ونقرةٍ واخرى وصحة الجواب وعدم تقصيرهِ او خروجه عن الدرجة وسلامة القرار وكل ذلك مما يناسب الغرض الملحونة لهُ تلك الأُغنيّة او ذلك النغَم ثم مراعاة النسبة بين الالفاظ والمعاني والانغام وهو أمرٌ لهُ عند امم اوروبا ارفع مقام وقد استوجب عناية اكابر موسيقيّيهم وشعرائهم وممثّليهم ومثال ذلك ان تعلم انّهُ لا يُغنّى على نغَم العجم بهذا الشعر

ما زلتُ ابغي الحيَّ اتبعُ ظلَّهُم
حتى دُفِعتُ الى ربيبةِ هودجِ

قالت وعيشِ ابي واكبر اخوتي
لأُنبهنَّ الحيَّ انْ لم تخرجِ
فخرجتُ خيفةَ قولِها فتبسَّمتْ
فعلمتُ انَّ يمينها لم تَحْرَجِ
فلثمتُ فاهاً آخذاً بقرونِها
شُرْبَ النزيف بِبردِ ماءِ الحشرجِ

ولا يُغنّى بهذا الشعر على الحجاز بل بالعكس .

وما هجرتكِ النفسُ ياميَّ انها
قَلَتْكِ ولا أنْ قلَّ منكِ نصيبُها
ولكنّهم يا أملحَ الناسِ أُولِعوا
بقولِ اذا ماجئتُ هذا حبيبُها

واذا صُرِفتْ ابصارُكَ تِلقاءَ رفّ او روشن أو مائدة عليها آنيةٌ مختلفة متفرقة وطرآئف مبثوثة وتحفٌ منثورة غير منضودة ، فقد تؤآخذ صاحب البيت او الدكان وتنسبه الى نقص الترتيب والرُعونة لما عاينتَ من ذلك بل قد تستبشع وضعه بعض أوانٍ لا ملاءمة ولا نسبة بينها وبين

سواها . فاذا أحكم صفها وتنضيدها ماهرٌ صَنَاعُ اليدِ سليمُ الذوق عليمٌ بوضع الاشياء في مواضعها انقلب تهجينك الى مدحٍ واستحسان . واذا راقبتَ الرفَّ والروشن والمائدة وما على كلٍّ منها ، وجدتَ الآنية والتحف بعينها ، لم يَزد عليها شيءٌ ولا نقص منها شيء بيدَ انك اذا انتقدت سبب انقلابك من الاستهجان ، الى الاعجاب والاستحسان ، تراهُ نتيجةَ أمرٍ يسير من تبديلٍ وتغيير وتقريبٍ وتبعيد وإحكامٍ وتسديد ومرجع ذلك كله الى النسبة والحاكم فيما ذُكر سلامة الذوق . وتحصل صحة التناسب ايضاً بالتعليم كما هو الشأن في صناعة الهندسة .

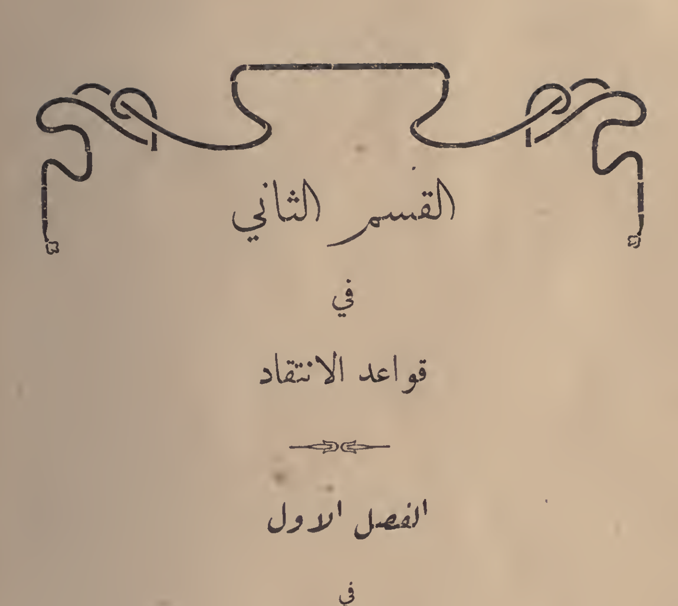
وبصدق الارادة ، قد يحصل التفاهم بالاشارات عن غير تواطوءٍ سابق على ذلك ، بل قد يتجاوز هذا ، حتى يحصل بين الفردين من البشر بالنَظَرات ، ولا أطيل بذلك ، فشواهدهُ كثيرةٌ غير خافية على مَن راقب حركات البشر مراقبة ناقد بصير .

فقد رأيت مما تقدم ما للنسبة وصدق الارادة من

السرّ في كشف العيوب ودفعها،فمن أوتي ذلك ،امكنه ان يدفع عن عمله تعييب الناقدين ،ويكشف بمعرفتهِ مغالط المقصّرين .

وعلى الجملة ،فان النقد يشمل جميع العلوم والفنون، بل هو استاذ المعارف ،فليس على الارض علمٌ او فنٌّ يعصي احكام الانتقاد السديدة ولله غيبُ السموات والارض .





القسم الثاني

في

قواعد الانتقاد

الفصل الاول

في

سلم النقد

اعلم انَّهُ يتحصل مما اجمع عليه علمآء النقد في هذا العصر، انّهُ لا يمكن الوصول الى سديد النقد الاّ بارتقاء درجاته الثلاث، وهي: الشرح، والتبويب، والحكم.

أما الشرح فلا يكون صحيحاً كاملاً حتى يستوفي ثلاثة شروط الاول ايضاح وتحديد العلاقة بين الكتاب المنقود

وبين تأريخ العلوم الادبية بالعموم . والثاني تحديد علاقة التأليف أو غيره من المصنوعات بما كان من نوعه ، وبالمكان والزمان الذي ظهر فيهما . والثالث تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وكتابته والمصنوع وصانعه .

الشرط الاول

ايضاح وتحديد العلاقة بين الكتاب المنقود وبين تأريخ العلوم الادبية بالعموم

اعلم ان الوصول الى معرفة ذلك لايتمّ الاّ بانعام النظر واطالة البحث في تأريخ العلوم الادبية لعهد تأليف أو صنع المنقود ، فيجد الناقد من ذلك معيناً على صحة النقد لا يقدّر ثمنه . فان من يروم نقد شعر المتنبي مثلاً فعليه ان يتقدم عصرَه قليلاً وينظر الى ما كانت عليه حالة الشعر وقيمته ، فيتمثّل لهُ ابو تمّام قبل المتنبي بثمانين عام في حضرة الامير ابي دُلَف يجيزهُ على قصيدةٍ مدحهُ بها بخمسين الف درهم ثم يعتذر اليه فيقول لهُ ان الجائزة دون شعرك ، ثم يترآى لهُ في حضرة

الوزير محمد بن عبدالملك الزيّات ينشدهُ

لوسعتْ بقعةٌ لاعظامِ أُخرى

لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

فيقول لهُ الوزير انك يا أبا تمّام لتحلّي شعرك من جواهر لفظك وبدائع معانيك ما يزيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجيادالكواعب ،ومايُذخَرُ لك شيء من جزيل المكافاة، الاّ ويقصر عن شعرك في الموازاة...

واذا قصر طرفهُ الى ما بعد ذلك لاح لهُ أبو عبادة البحتريّ الشاعر الكبير في خدمة الخليفة العباسيّ المتوكل والفتح بن خاقان وزيره، ينادمهما في الاقامة والظعن وينشدهما مدائحهُ ، فيصف أيام سرورالخليفة،والأماكن المحبوبة لديه،وحضوره مجالس أنسهِ ،تارةً في روضةٍ غنّاء ،وطوراً على ظهر سفينة في الماء وهو يقول

أبى يومُنا بالزوِّ (١) الاّ تحسُّناً لنا بسماعٍ طيّبٍ ومُدامِ
غُنينا على قصرٍ يسيرُ بفتيةٍ قعودٍ على ارجائهِ وقيامِ

١ الزو اسم السفينة التي يصفها

تظلُّ البزاةُ البيضُ تخطفُ حولَنا
جاجيءَ طيرٍ في السمآءِ سوامِ
تَحدَّرُ بالدرّاجِ من كلّ شاهقٍ
مخضّبةٌ أظفارُهنَ دوامِ
فلم أرَ كالقاطولِ (١) يحمل ماؤُهُ
تدفُّقَ بحرٍ بالسماحةِ طامِ
ولا جبلاً كالزوّ يوقَفُ تارةً
وينقادُ إمّا قدتَهُ بزمامِ
لقد جمعَ اللهُ المحاسنَ كلَّها
لأَبيضَ من آلِ النبيِّ همامِ
يطيفُ بطلاقِ الوجه لا متجهّمٍ
علينا ولا نزرِ العطآءِ جهامِ

وكقولهِ

قد رحلنا عنِ العرا ... قِ وعن قطبها النكَدْ
حبذا العيشُ في دمشـ ... ـقَ اذا ليلُها بَرَدْ

١ والقاطول موضع على دجله

حيثُ يستقبَلُ الزما نُ ويُستحسن البَلَدْ
سفرٌ جدَّدَتْ لنا الـ لهوَ أيامُهُ الجدد
عزمَ اللهُ للخليـ ـفةِ فيهِ على الرشَدْ

وكقولهِ في الفتح بن خاقان

ملِكٌ بعاليـة العراق قبابُهُ يقري البدورَ بها ونحنُ ضُيوفهُ
لم أَلقهُ حتى لقيتُ عطـآءَهُ جزلاً وعرّفني الغِنى معروفهُ
فتفتّحتْ بالاذنِ لي أبوابُهُ وترَفعتْ عني اليـهِ سجوفهُ
عطفت عليَّ عنايةٌ من ودّهِ وتتابعت جملاً عليَّ ألوفهُ
عالي المحـلِ أنالني بنوالهِ شرفاً أطلَّ على النجوم منيفهُ
أي اليدين أجلُّ عندي نعمةً إغناؤُهُ إيّايَ أم تشريفهُ

فيرى الناقد ان الشعر في ذلك العصر كان لهُ المقام الاول بين العلوم الادبية ، فقد كان يُنشد في حضرة الخلفآء والملوك والامرآء وتهتزُّ لسماعهِ مجالسهم ، ويجيزون عليـهِ بالأُلوف ويقرّبون منهم الشاعر حتى يكون لهم نديماً وخليلاً ويُتغنَّى به في ساعات أنسهم وتوصَف به وقائع حروبهم وايام أعيادهم وافراحهم الى غير ذلك من الشؤون ، فيتحقق لديه

ان المتنبي قد تحدَّى أسلوب هذين الشاعرين الكبيرين بل قد ترك طريقة أبي تمَّام منذ اتصالهِ بسيف الدولة حسبما ألمع الى ذلك شيخنا علاَّمة العصر الشيخ ابرهيم اليازجي في آخر العرف الطيب ، والتزم في الاكثر من شعرهِ ، طريقة البحتري انْ بالوصف أو بالتعبير أو بالسبك والتركيب والامثلة على ذلك كثيرة وليس هذا محلها ، ولا عجب في ذلك فمن كان ذا نفسٍ كبيرة كالمتنبي واطماعٍ كاطماعهِ وقريحةٍ كقريحته واطلاعٍ واسعٍ على علوم وآداب عصره ، لا بدع ان يتحدَّى في شعرهِ طريقة سابقيه وهما هما وقد تمثّلا لهُ على نحو ما ذكرتُ تارةً يقبضون الالوف وطوراً يصفان مجالدة الصفوف وحيناً يخاطبان بمدآئحهما الخلفآء والامرآء ويجالسان الوزرآء والعظمآء ووقتاً يشتغلان بالنسيب والهجآء وهو لم يكن لهُ همٌّ غير السؤدد والمجد ، ولم يرَ من نفسهِ طريقاً أقرب للوصول الى مبتغاه من ركوب طريقهما ، فطرّس على آثارهما ، ثم فاتهما .

فيستفاد من ذلك انهُ لا بدّ للشارح من النظر والبحث

في تأريخ العلوم الادبية لعهد تأليف الكتاب او الشيء المنقود لتُعلَم منزلة المؤلف عنده وهل انهُ كان مبتدعاً أو مقلّداً أو مجلّياً أو مقصّراً اذ لكل عصر شؤون ومذاهب في العلوم وغيرها من الفنون فما يُعَدُّ عندنا مهملاً وفي عداد الخرافات كالسحر والطلسمات ، قد بقي دهراً طويلاً سائداً على عقول البشر وكانت لهُ صولةٌ عند اكثر الامم البائدة كالمصريين ،والكلدان ، والفرس،وعند العرب أيضاً، وحسبك ان مثل الفيلسوف ابن خلدون قد وسَّع لهُ في مقدّمته المشهورة اثنين وثلاثين صفحة فيما ان كلامه على علوم الارتماطيقي والهندسة والهيئة والمنطق والطبيعيات والطب والفلاحة والالهيات والكيمياء والفلسفة والنحو واللغة والبيان والادب والترسُل والشعر لم يشغل اكثر من اثنين واربعين صفحة فهذا وحده يدلك على ما كان لهم من العناية بهذا العلم بل الخرافة ، فلو قرأنا ما كتبهُ ابن خلدون من ذلك في كتيّبٍ أفردَهُ لهذا العلم ولم يتيسَّر لنا الاطلاع على مقدَّمتهِ ، أو معرفة مقامهِ الرفيع في عالمي العلم

والفلسفة ، وأهملنا البحث في تأريخ العلوم الادبية لعهده ، لضربنا بالكتاب عرض الحائط ، وعددنا هذا الفيلسوف من المشعوذين فاعتبر ما ذكرته لك في هذا الباب والله الهادي .

الشرط الثاني

تحديد علاقة التأليف بما كان من نوعه وبالزمان والمكان اللذين ظهر فيهما

اعلم انهُ لا بدَّ للناقد من انعام النظر في ذلك اذ لكلّ علمٍ علاقة مع علمٍ آخر أو أكثر من سائر العلوم ، ولكلّ شأنٍ وبحثٍ طريقةٌ من الانشآء وأساليب الكلام . فالكتابة في التأريخ وسرد حوادثه من شنّ غارات ، وأخذ ثارات ، وانتصاراتٍ وفتوحات ، وقهراتٍ وكسرات ، وعزلٍ ونصب ، ووهبٍ وغصب ، هو غير الكلام في الطبيعيات من جاذبيةٍ وهيولى ، وحركةٍ وسكون ، وقوةٍ فاعلة وقوةٍ منفعلة ؛ وغير الكلام في التشريح ، من فِقَرٍ وغضروف ، وأعصابٍ وأوتاد ، ومفاصل وعضلات . وشرايين ورباطات . الى غير ذلك مما هو كثير . فاذا كان

الـكلام في علم البديع مثلاً . فلا علاقة بينهُ وبين حوادث تاريخية . اللهمَّ الاَّ اذا كانت مما يقتضيهِ العلم . كقوله : وأول من ذكر شيئاً من العلوم البديعية ، عبدالله بن المعتز ، ثم تلاهُ قدامة الكاتب أو عاصرَهُ الخ : وأما تخطّي ذلك الى القول في محل مشاهدٍ بديعيّ « ومما اتفق لي انني لمّا يسَّر الله لي التبريك بزيارة البيت العتيق في السنة الخامسة والسبعين بعد الثمانمائة ذهبتُ من مدينة فاس يوم الاثنين لخمس من شوال مع رفقة كان بينهم صاحبنا العالم الاجلّ والصدر الاكمل الحاج عبدالله الفاسي ثم شيخنا امام أهل الفضل غير مدافَع جامع علوم الدنيا والدين فخر الاسلام وشرف الموحدين أبوالقاسم عثمان بن الشيخ عزالدين بن الشيخ احمد الششتري الآشي المدغيسيّ المرّاكشي أعلم علماءِ وقته فلما جزنا المهالك وقضينا المناسك وخرجنا من الحرم الى بئر زمزم والبدر في الأُفق ينير وقد أنسانا لفحات الهجير جلسنا والليل يحبّبُ السمر والنوم قاطعَ الاجفان وهجر فأسمعتُ شيخنا أبا القاسم بيتاً في معنى

ظهور البدر في سمآءٍ صافية لم اكن أظن انه مرَّ ببال أحد من الانس » ثم يذكر بيتاً غثيثاً ويتبجَّح بهِ ماشاء ، وهب ان البيت كان متناهياً في الحسن فأيُّ داعٍ لسرد حوادث حجّهِ والشيخ أبي القاسم في تلك الحكاية الطويلة ؟ والمقصود هو البيت الشعري لا غيره ! على ان مثل هذه الحكاية تليق بترجمة ناظم البيت نفسه وقد نسامحه بها لو ذكرها في ترجمة الشيخ أبي القاسم .

وقد وقع لكثير من علمآئنا مثل هذا اذا أغفلوا مراعاة العَلاقة الكائنة بين التأليف وبين ما كان من نوعهِ فاضاعوا فضل كتبهم وأُولعوا بالسفاسف ، والخلط بين الغث والسمين ، والتكثير من قال وقالوا ، وفلان ابن فلان ، وهذا الجاحظ على علو منزلته في فنّ الانشآء وسموّ طبقته في علوم وقته لم يسلم من المؤاخذة على ذلك ، واذا نظرتَ الى كتابهِ البيان والتبيين ، وهو من اجلّ كتب الفصاحة والبلاغة ، حكمت انه بالمؤاخذة جدير فقد حشاهُ من ذلك ، بحيث أنك لو استخلصته من قال وقالوا ، وفلان ابن فلان ، لما بلغ ثلث الكتاب وهاك

مثالاً من احدى صفحاته « وقيل لعبد الرحمن بن ابي بكر أي الامور أمتع ؟ قال مذاكرة العلماء ، وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى بن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعطِ الله ما يحب من العفو وقال هزيم بن عديّ بن ابي طحمة ليزيد بن عبد الملك بعد ظفره بين يدي المهلب ما رأينا أحداً ظلم ظلمك ولا نصر نصرك ولا عفا عفوك » ويا ليت شعري ما كان أغناه عن هذه العنعنة والاسناد وما الكتاب بكتاب حديث فلا يُستغنى عنهما

أما علاقة التأليف بالزمان والمكان الذي ظهر فيهما فهو من الاهمية بمكان عظيم ، اذ لكلّ زمنٍ طريقةٌ مألوفة من الكتابة ان في تركيب العبارات أو ضروب الفصاحة ومثل هذا الاختلاف ناشئ ايضاً بين قطرٍ وقطر والامثلة من ذلك كثيرة فانك اذا تأملت بكتابة الجاحظ والمبرّد وابن قتيبة بعين الناقد البصير ، وجدتَها كلّها في طبقةٍ واحدة من الفصاحة ، وصورة واحدة من طرق التعبير وتركيب الجُمَل ،

ووجه باستعمال الالفاظ لا يختلف ، ومذهب واحد في العلوم ، والسبب في ذلك ، انهم كانوا أهل عصر واحد ، فكلهم عاشوا في القرن الثالث للهجرة والجاحظ أدرك قسماً من القرن الثاني والاولان من أهل البصرة والثالث يُنسب الى الدينور الاَّ انه نشأ وتادب في بغداد وسكنها ومات بها نظيرهما فمستقرُّ جميعهم ومجمع شملهم واحد . واذا انتقدت انشآء ابي بكر الخوارزميّ ، وبديع الزمان الهمذاني ، وابي اسحق الصابئ ، وكلهم من اهل القرن الرابع للهجرة ، وجدت فرقاً ظاهراً بين انشآء الاولَين وبين الثالث ، فان طرق التعبير ، وأساليب الكلام ، ونسج الالفاظ ، ووجوه استعمالها ، وتركيب الجُمَل التي تراها في انشآء الخوارزمي ، تكاد تكون هيَ هيَ في انشآء الهمذاني ، وكانت كتابة الرسائل لعهدهما محل إعجاب الملوك والوزرآء والرؤسآء واهل الادب ، — كما هي عند ادبآء الترك لعهدنا هذا — فانك ترى فيما كتباهُ وهما من امرآء الانشآء ، اعتناءً بالترصيع والتسجيع بانواع البديع وميلاً الى القوافي التي تقرع الاذن وتدخلها باذن وبغير اذن

واكثاراً من الفاظ البيع والشرآء ، والسلعة والشركآء ، والسوق والكساد ، والدَّين والغريم ، مما يدل على اتساع التجارة لعهدهما وشيوعها . ثم انك تجد لهما بسطاً في المقدّمات ، ومراعاةً لها في النتائج ، مما يدلُّ على فشو علم المنطق أو أقلُّهُ تعلّق الكتَّاب به في ذلك العصر . وأظهرُ ما على انشآئهما ، الخشونة بل الوقاحة ، حتى في مخاطبة الرؤسآء ، ولقد تجدها في تضاعيف تسوّلهما من الاكابر والامرآء . واذا أنعمت النظر انعام منتقدٍ بصير ، وجدتهما يلتذَّانِ بالمشاتمة ، ويتباهان بالمهاترة وفحش الكلام ، حتى انهما ليستحسنانِ ذلك في رسائلهما الى الوزرآء ويظهر ان هذه الطريقة كانت غير مرذولة لعهدهم في بلاد فارس والعراق العجمي ، وان الامرآء لم يكونوا يأنفون من استماع الكلام البذيّ في مجالسهم ، بل لم يستنكفوا من التلفظ بهِ والتفكُّه بهِ في بعض كتاباتهم ومحاضراتهم ، كما تدلّ على ذلك آثارهم ، وفيما جرى لابن الحضيريّ مع الصاحب بن عبَّاد حجَّة . حكى الثعالبي ان ابن الحضيريّ كان يحضر مجلس النظر للصاحب بالليالي ، فغلبتهُ

عيناهُ مرَّةً وخرج منهُ ريحٌ لها صوتٌ فخجل وانقطع عن المجلس ، فقال الصاحب لاهل مجلسهِ أبلغوهُ عني .

يا ابنَ الحضيريِّ لا تذهبْ على خجلٍ
لضرطةٍ منكَ مثل النائي والعودِ
فانها الريحُ لا تستطيع تحبسُها
اذ انتَ لستَ سليمانَ بنِ داودِ

قال الثعالبي وحكي ان مثل هذا الامر وقع للهمذاني فخجل وقال صرير التخت ، فقال الصاحب أخشى ان يكون صرير التحت . ومثل هذا الكلام وهذه الاحوال والمخاطبات ، لا يليق صدورها من الصاحب ، أو في حضرته ، وهو وزير خطير قد ملأَ البلاد شهرةً بعلمٍ وفضل ، ورجاحة عقل . وفيما حكاه الثعالبي وغيره عن الصاحب والادباء والشعراء الذين ظهروا في بلاد الفرس ، ما هو أقبح من هذا ، وما لا يُعَدُّ هذا في جنبه شيئاً وهو برهان على ان آداب البلاد كانت تبيح لذلك العهد ، ما يُعَدُّ اليوم عند الفرنجة نهاية الخشونة وقلَّة الادب . فاذا لم يكن عند الناقد علمٌ بتأريخ

آداب المكان ، واطلع على شيء من مثل الذي ذكرته أو أشرتُ اليه ، عدَّ الكاتبَ أو الشاعر المنقود كلامهُ فجوراً ، ساقطاً ، فاحشاً ، خلياً من الفضائل ، ولهذا فعلاقة التأليف بالمكان لها من هذا الوجه عند علماء النقد محلٌّ عليّ

أما أبو اسحق الصابئ ، فهو وان كان لهما معاصراً ، واكبر منهما سناً ، فلم يكن انشاؤه عنيفاً ، ولا يظهر على رسائلهِ شيءٌ من الصلَف البادي على وجوه رسائلهما ، ولا ترنّ في الآذان القعقعةُ التي ترن من الفاظهما ، مع انه كان يستعمل السجع مثلهما ، وفوق ذلك كان يكتب بلسان الخلفاء والملوك وكان انشاؤهُ في غاية اللطف والفصاحة والادب ، وليس السبب في تأدّبهِ برسائله وكتاباتهِ الخصوصية عشرة الخلفاء والوزراء فقط ، بل هو فيما أرى ، مفعول تأثير المكان ، أي الاقليم كما سيجيء معنا ذكره مفصّلاً . فان تأثير الاقليم كما تنفعل منهُ الاجسام ، تنفعل منه العقول حسبما هو مقرَّرٌ ، وأنت تعلم ان اكثر أرض فارس غير معتدلة الهواء ، وأغلبها شديد اليبوسة في الصيف ، شديد البرد في الشتاء ، وهذا

يفعل تأثيرهُ في الامزجة ، وبالتالي في الاخلاق ، فيجعلها يابسةً أو قريبةً من الشراسة ، وناهيك ببرد همذان قول ابن خالويه

همَذَانُ مُتلفةُ النفوس ببردِها
والزمهرير وحرُّها مأمونُ
غلب الشتآءُ مصيفهَا وخريفَها
فكأَنما تموزُها كانونُ

أما اقليم بغداد فهو أصلح منها وأوفر اعتدالاً ، ولهذا تجد من الدماثة في انشآء البغداديين ، ما لا تجدهُ في انشآء العرب الذين نشأوا في أرض فارس وكلما كان اقليم البلاد أقرب الى الاعتدال ، ظهرت على الانشآءِ مسحة الرقة والظرف ، أو كلما وضحت على الكتابة ديباجة اللطف ورواءُ اللين والدماثة ، كان ذلك دليلاً على ان الكاتب من اقاليم معتدل او اكثر ميلاً الى الحرارة . واثر الهوآء في أخلاق البشر ، مما تنبَّهَ لهُ العلماء في كل زمان قال الثعالبي : لم يزل شعرآء عرب الشام وما يقاربها ، أشعر من شعرآء عرب

العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم فأمَّا المحدثون: وذكر عدةً منهم، ثم ذكر جماعة من المولّدين، الاَّ انه علَّل عن ذلك تعليلاً وان كان جزيل الاعتبار، بَيدَ انه ليس السبب وحده فيما ذكرهُ، بل للهوآء المعتدل تأثير في ذلك عظيم كما سيتبيَّن معنا في محله.

واعلم ان لكلّ قطر من الاقطار العربية، نهج انفرد به وغلب على أهله، فان طريقة التعبير والمصطَلح عليه من الالفاظ المقبولة في كتابات أهل مصر، هو غير المصطلَح عليه بتمامهِ عند أهل الحجاز، وطريقة هؤلاء، هي غير طريقة أهل الشام، ونسق هؤلاء، هو غير نسق أهل تونس، وهلمَّ جرًّا. وأنت تعلم ان كلهم يختار الفصيح ويرغب في البليغ، وانما نشأ الاختلاف في درجات حسن مناهجهم، وأساليب تراكيبهم، من اختلاف أذواقهم، ولست تجهل ان اللغة تتبع حالة العصر من الخشونة أو الحضارةِ في أساليب التعبير والتعريب، لا بمعنى انها تفسد أو تستعجم كما جرى لها مع كثير من المعرّبين والمترجمين وأصحاب الجرائد، بل أنت اذا

سرّحت طرفك في روايتي الباريسية الحسناء ، وصلاح الدين ، لفقيدي الأَدب ، أديب اسحق ونجيب الحداد ، وفي بعض مقالات الصحف الشهيرة لبعض نوابغ الكتّاب ، ثم تمتّعت بمحاسن انشاء مجلّة الضياء ، وببعض الفصول التي تُنشَر في غيرها من المجلاَّت المعتبرة لبعض مشاهير الكتّاب ، رأيت هناكَ اللغةَ بارزةً بمحاسنها القشيبة ، وحضارتها اللطيفة العجيبة ، دون ان تستعين بالركيك أو الاعجميّ من اللفظ .

وحاصل الكلام ، ان للزمان والمكان علاقةً شديدة بالانشاء والنظم وسائر الفنون البديعة ، وعلى الناقد ، ان يدقّق البحث في ذلك ، لاننا انما نكتب ما يمليه علينا العصرُ من حوادثه ، وما تتلوهُ علينا العادات من تأثيراتها ، والازياء من أفعالها في الاخلاق ، فلا بدَّ لنا من تتبع تاريخ عصر الشيء المنقود ، ومكانه ، للوقوف على اخلاق أهلهِ وازيائهم ، وارآئهم ، وعلومهم ، وعوآئدهم ، وعقائدهم ، الى غير ذلك ، من الدقيق الى الجليل ، ليكون النقد سليماً من شائبة الغلط ، والعصمة لله وحده .

الشرط الثالث

تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وانشآئه والمصنوع وصانعه

قال الفيلسوف بُوفّونْ مِرءاة المرءِ انشاؤه كما سبق ذكره في غير هذا الموضع ، ولكن قد لا يصدق ذلك دائماً ، فان من يقرأ زهديات أبي العتاهية لا يستطيع ان يصدّق ان الرجل كان من أطمع الناس وأشدهم حرصاً وهو القائل

تعلقَّتَ بآمالٍ طوالٍ أيّ آمالِ
واقبلتَ على الدنيا مُلِحّاً أىَّ اقبال
أيا هذا تجهّزْ لِـ فراقِ الاهلِ والمالِ
فلا بدَّ من الموتِ على حالٍ من الحالِ

ولا يكاد الناقد يحكم أو يصدّق ان قائل

اسقني حتى تراني احسبُ الديكَ حمارا

يقول

صدَّ عن الحقِّ اتبّاعُ الهوى
وزيَّنَ الباطلَ طولُ الاملْ

كأَنَّ ما فاتَ اذا ما مضى
حلمٌ وما كانَ كأَنْ لم يزلْ
بادرْ فقد أصبحتَ في مهلةٍ
بالعملِ الصالحِ قبل الأَجَلْ
وكنْ على علمٍ فانَّ الفتى
يقدمُ يوماً ما على ما عملْ

ولا يكاد يستدلُّ الا بمعجزةٍ ان من يقول

كلُّ ذكرٍ من بعدهِ نسيانُ
وتغيبُ الآثارُ والأَعيانُ
انما هذه الحياةُ عناءٌ
فليخبّركَ عن أذاها العيانُ
ما يُحُسُّ الترابُ ثقلاً اذا ديـ
ـسَ ولا الماءَ يُتعبُ الجرَيانُ
نَفَسٌ بعدَ مثلهِ يتقضَّى
فتمرُّ الدهورُ والأَحيانُ

يقول

ألاَ في سبيل المجدِ ما أنا فاعلُ

عَفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

كأَني اذا طلتُ الزمانَ وأهلَهُ

رَجَعتُ وعندي للأَنام طوائلُ

وانّي وان كنتُ الاخيرَ زمانُهُ

لآتٍ بما لم تستطعهْ الأَوائلُ

ومما يندرج بين هذه الشذوذ ، ما يرويه التأريخ عن المعتضد بن عبَّاد من أشهر ملوك الطوائف بالاندلس ، انهُ جمع بين أسمى الصفات وبين أدناها ، فيقال انهُ كان عالي الهمَّة شديد البأس والاقدام ، كثير الجبن والدهآء والجور والاعتساف ، شارك في العلوم والفنون ، وأحبَّ أهل الأَدب ، وكان مولعاً بالخمر منهمكاً بالملاذ ، مع ضبطهِ زمام الاحكام والاقدام على صعاب الامور ، حريصاً على دولته ، يستبيح الدمآء ، كَلِفاً ببنآء القصور ، شاعراً أديباً ، ذا مكرٍ وحيَل .

وهي كما تراها،صفات متعاكسة شديدة التباين . ويقرب منه ما روي عن الرئيس ابن سينا ، قيل انهُ كان يجتمع كل ليلةٍ في دارهِ طلبة العلم فيقرئهم فاذا فرغوا أحضر المغنّين وهيّأَ مجلس الشراب بآلاتهِ فيشتغلُ بهِ . وانه مع ما كان عليهِ من سعة العلم وقوة العقل وسموّ المدارك وبعد الفهم ، كان خاضعاً لقواهُ الشهوانية،حتى قيل انها كانت سبب هلاكه .

ومما يحسن ايراده بهذا المقام وصيتّهُ لأَبي سعيد الصوفيّ وقد اقترحها عليه أحد أصحابه ، فكتب .

ليكن الله تعالى أوّل فكر له وآخرهُ وباطن كلّ اعتبارٍ وظاهره ، ولتكن عين نفسهِ مكحولةً بالنظر اليه ، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه . . . فاذا صارت هذه الحال لهُ ملَكَة ، وانطبع فيها نقش الملكوت ، وتجلَّى لهُ قدس اللاهوت ، فألِفَ الانسَ الاعلى ، وذاقَ اللذَّةَ القُصوى ، وأخذ عن نفسهِ مَن هو بها أولى ، وفاضت عليه السكينة ، وحُقَّتْ لهُ الطمأنينة . . . وتذكر نفسَـهُ وهي بهِ لَهِجَة ،

وبهجتها بهجة ، فتعجب منها ومنهم تعجبهم منه وقد ودَّعها ، وكان معها ، كأنه ليس معها . وليعلم ، ان أفضل الحركات الصلاة ، وأمثل السكنات الصيام ، وأنفع البرّ الصدقة ، وأذكى السرّ الاحتمال ، وأبطل السعي المراءاة ، وان تخلص النفس من الدرَن ما التفتت الى قيلٍ وقال ، ومنافسة وجدال ، وانفعلت بحالٍ من الاحوال ، وخير العمل ما صدر عن خالص نية ، وخير النيَّة ما ينفرج عن جناب علم ، والحكمة أم الفضائل ، الى ان يقول وأما المشروب فيُهجَرُ شربهُ تلهّياً ، لا تداوياً وتشفّياً .

فاذا عمد الناقد الى كشف أخلاق هؤلاء القائلين فنظر الى أحد القولَين من قولَيهم ثم عرض لهُ القول الآخر لم يشكّ ان القائل الاول هو غير القائل الثاني لما بين القولين من التباين في الاميال . بيدَ ان هذا جميعه وما يكون من مثله هو من الشاذ الذي لن يكون برهاناً لهدم قواعد النقد ، بل أحر بهِ ان يكون حجةً لها اذ لكل قاعدة شذوذ كما هو معلوم . فانَّكَ لو تتبَّعت سائر شعر المعرّي لما وجدت بهِ غير

الزهد ولمَا تمثَّل لديك منه الا الفيلسوف . اما ما نُقِل لنا من زهديات ابي نواس — ان صح انها لهُ — فتكاد تكون كالشعرة البيضآء في لمَّة اليافع فانك لو قلَّبتَ اشعاره الكثيرة مع انهُ لم يصل الينا منها الاَّ القليل ، لما شممت منها غير رائحة الخمر ، حتى ليحسبَ القارئ انهُ يتنقَّلُ من بيت عار ، الى حانة خمَّار ، ومن منزل فُحشٍ وسُخْف ، الى موقف شتمٍ وقذف .

واما رسالة ابن سينا فمن اطَّلع على ما كتبه في الطب ، والفلسفة ، والمنطق ، والطبيعيات ، والكيميآء ، وغير ذلك ، علم ان الرسالة ليست من وحي جَنانه ، بل من طرف لسانه ، ومعلوم ان كل منشئٍ يستطيع ان يكتب ما يُطلب منه دون ان يكون معتقداً بما كتب ، او واقفاً عند حدود ونواهي كتابته ، خصوصاً اذا كان ذا عقلٍ سامٍ كعقل ابن سينا ، وعلم واسع كعلمهِ ، وقريحةٍ سيَّالةٍ كقريحتهِ .

واعلم ان النقد لا يكشف أخلاق المنشئ او الناظم من رسالةٍ كتبها ، او قصيدةٍ نظمها ، او حكمةٍ علقها ، فكل ذلك

مما لا يُعوَّلُ عليه او انهُ يدلُّ على عواطف الكاتب وتأثير الاحداث النفسانية فيه ، حال تأليفهِ ذلك المنقود فقط . ولكن للوصول الى الفائدة المطلوبة لا بدَّ من النظر والتدقيق في اكثر كتابات المؤلف ، وسيأتي معنا بعد هذا مزيد بيان في هذا الشأن وعلى الله قصد السبيل .

الفصل الثاني

في

تعريف العلاقة بين الكاتب وانشائه

اعلم انه لا يتيسر الكشف لمعرفة العلاقة بين الكاتب وانشائه ، الاَّ بالوقوف على الاسباب والمؤثرات التي دعت الكاتب ان يكتب الرسالة أو الكتاب أو القصيدة المنقودة على تلك الصورة ، فيما ان سواهُ يكتبها على وجه آخر . وهذا كله يصدق على الكتابات الادبية ، أو ما في معناها ، وأما الكتب العلمية فلا تدخل في هذا البحث.

واعلم ان الوقوف على هذه الاسباب يقوم بالبحث عن احوال الكاتب فيقتدي الناقد بالطبيب أو الجرَّاح الذي لا يكون نطاسياً ، ولا يكون حكمهُ على العلَّة ومحلها في الجسم مصيباً ، حتى يحسن معرفة تشريح الجسم الانساني ، ووظيفة كل عضوٍ من اعضائه . اذن قاعدة معرفة ذلك هي البحث.

وبحث الناقد ، يجب ان يكون عن سنّ المؤلف لعهد تأليفه المنقود ، وحالة دنياهُ من فرحٍ أو حزن وفقر أو غنى ، وعن صحته ، هل كان سليماً أو سقيماً ، ضعيفاً أو قويًّا ، عصبيًّا أو دمويًّا ، وعن أصلهِ هل كان كريماً أو لئيماً ، أو من اواسط الناس ، وهل تلقَّى في مدرسة أو هو ابن اجتهادهِ ، وعن مسقط رأسه ، وهل المدينة التي نشأ فيها ، من المدن الشمالية او الجنوبية ، شديدة البرد والحرّ اومعتدلتهما ، وهل كان متزوجاً او عزَباً ، وهل كان لهُ اولاد او لا ، وهل عشق او حزن حزناً مفرطاً على فقد عزيز او مال ، وهل كان ممازحاً او وقوراً ، وهل كان يعاقر الخمرة او يقامر ، وهل كان شرهاً او عفيفاً .

وبالجملة فعلى قدر البحث والامعان في التدقيق ، وقوة بصيرة

الناقد ، تظهر العلاقة بين الكاتب وانشآئه للمطالع ،وكلما كانت اكثر خفآءً ، واشد غموضاً ، ضعفت احكام الناقد ، الاَّ مَن أُوتوا الذكآء النادر والعلم الوافر وقليلٌ ما هم .

وانت تعلم ان الراغب في معرفة اخلاق الفرد من البشر ، او في تصويرهِ يتقصَّى في البحث عن ملامحه وسائر احواله الظاهرة من الغضب او الحلم ، السهر او كثرة النوم ، الاستقامة او المكر ، الى غير ذلك مما يدلّ على اخلاقهِ اتم دلالة . فبمثلهِ ناقد اقوالهِ ، اذ هي بنات افكاره ، وترجمان اسرارهِ ،يجب عليه ان يبحث ويدقق ، فمرآة المرء انشآؤهُ .

وكما ان الانشآء يدلُّ على المنشئ ، فكذلك الوقوف على احوال المنشئ تساعد الناقد على كشف اسرار الانشآء . فانك اذا علمت ان الشاعر المأموني مثلاً ، هو من اولاد المأمون الخليفة العباسي ، وانه صاحب تلك النفس الشريفة والنسب الرفيع ، وانه كان يطمح ببصرهِ الى الخلافة ، ويمني نفسه قصد بغداد ، في جيوش تنضم اليهِ من خُراسان لفتحها ، لم تعجب من قوله

أراني اُبن عشرين او دونها   وقد طبّق الارضَ شعري مسيرا
إذا قلتُ قافيـةً لم تزل   تجوبُ السهولَ وتطوي الوعورا
ولو كانَ يفخرُ ميتٌ بحيٍّ   لكانَ ابو هاشمٍ بي فخورا
ولو كنتُ اخطبُ ما استحقُّ   لما كنتُ اخطبُ الاَّ السريرا

ولا من قوله في قصيدة اخرى

انا بين احشآء الليالي نارُ   هي لي دخانٌ والنجومُ شرارُ
فمتى جلا فجرُ القضآء ظلامهَا   صلِيَتْ بيَ الاقطارُ والامصارُ
بي تحلمُ الدنيا وبالخيرِ الذي   لي منهُ بينَ ضلوعها اسرارُ
فبكلّ مملكةٍ عليَّ تلهفٌ   وبكلِّ معركةٍ عليَّ اُوارُ

واذا علمت ان ابا فراس الحمداني هو الامير المجيد والشجاع الوافر الادب والجود والنبل صاحب الكلام الرشيق البليغ الرصين العالي وانه ابن عم سيف الدولة ملك حلب لم تعجب من قوله يعاتبه

قد كنتَ عدّتيَ التي أسطو بها
ويدي اذا اشتدَّ الزمانُ وساعدي

فرُميتُ منك بغير ما أملّتُهُ
والمرءُ يَشرَقُ بالزلال الباردِ
فصبرتُ كالولد التقيّ لبرّهِ
أغضى على ألمٍ لضرب الوالدِ
ولم تعجب من قولهِ وقد كتب بها اليهِ من الاسر
فمثلك من يُدعى لكل عظيمةٍ
ومثليَ من يُفدَى بكل مسوَّدِ
تشبَّثْ بها اكرومةً قبل فوتها
وقم في خلاصي صادق العزم واْقعُدِ
فان تفتدوني تفتدوا شرفَ العلا
واسرعَ عوّادٍ اليهمْ معوَّدِ
يدافعُ عن اعراضكم بلسانهِ
ويضربُ عنكم بالحسامِ المهنَّدِ
متى تُخلِفُ الايامُ مثلي لكم فتىً
طويلَ نجادِ السيفِ رحْبَ المقلّدِ

ولا وأبي ما ساعدانِ كساعدٍ
ولا وأبي ما سيّدانِ كسيّدِ

واذا علمت ان ابن الاثير الجزري صاحب كتاب المثل السائر كان وزير الملك الافضل ابن السلطان صلاح الدين الايوبي ، وانهُ كان ذا نفس الى المناصب طموح وطبعٍ الى الغضب جموح واطماعٍ وكبرياء وقساوةٍ وازدراء أساء العشرة مع أهل الشام حتى كادوا يذوقونهُ كأس الحِمام ، وتعدد منهُ في مصر قبيح الفعل فهرب منها مستتراً خوف القتل ، وخرج من حلب مغاضباً ومن اربِل وسنجار معاتباً اذا علمت ذلك كلهُ ، لم تعجب من خُيَلاء الرجل واعجابهِ بنفسهِ وقولهِ في مقدمة المثل السائر « وهداني الله لابتداع اشياء لم تكن من قبلي مبتدَعه ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعةً وانما هي مُتَّبَعة » . ولا من قولهِ في موضع آخر « وهو مما يدلُّ على حذاقة الكاتب وفطانتهِ وكثيراً ما تجدهُ في مكاتباتي التي أنشأتها » الخ . ولا من قولهِ بعد ذلك « ولقد مارستُ الكتابة ممارسةً

كشفت لي عن أسرارها وأظفرتني بكنوز جواهرها اذ لم يظفر غيري باحجارها » الى ان يقول « فمن وقف على ما ذكرتهُ علم اني لم آتِ شيئاً فريّا وان الله قد جعل تحت خواطري من بنات الافكار سريّا » الى غير ذلك مما حشا بهِ كتابهُ المذكور حتى كدَّر صفا احسانهِ وشوَّه محاسنهُ. وليس هذا موضع نقد الكتاب ، وانما ذكرت لك هذه الامثلة تعزيزاً لمعرفة أسرار العلاقة بين الكاتب وانشآئهِ ، وقد اختصرت ما أمكن خوف الملل ولعلي أعود اليهِ في فصل آخر . والبحث في هذا المعنى يستدعي زيادةً في الافاضة والشرح مما أرجو ان يفيهُ حقَّهُ من يكتب فيهِ بعدي .

على ان هذا الفرع من فروع علم النقد عند الافرنج أسهل منالاً وأوفر ثمرةً مما هو عندنا وذلك لجدَّة حضارتهم وآداب لغاتهم وربما كان لقلة عدد أدبآء كل أمة من أممهم وانحصارهم في بلاد معلومة من كل مملكة ، بالنسبة الى كثرة عدد أدبآء العرب وتنقلهم من مكانٍ الى آخر ومن مملكةٍ الى مملكة على اتساع الممالك التي دوَّخوها بل تنقُّلهم

من الغرب الى الشرق وبالعكس . ولهذا السبب والله أعلم قد ندَّ عنا اكثر أحوالهم وسني مواليدهم ووفياتهم بل ذهبت عنا أسماء كثيرين من اعاظم ادبائهم وشعرائهم ممن أكلت مؤلفاتهم نيران الحروب . هذا فضلاً عن اهمال أكثر مؤرخي العرب ومترجمي أعلامهم ، ذكر الملامح وتفصيل السحنات التي يحتاج الى معرفتها الناقد ، فان المتنبي مثلاً مجهول الملامح عندنا فلا نعلم أقصيرٌ هو أم طويل ، أمهزول أم سمين ، أبيض أم أسمر ، كبير الانف أم صغيرهُ ، أقناهُ أم أخنسهُ ، كبير العينين أم صغيرهما ، غائرهما أم بارزهما ، مخروط الوجه أم مستديرهُ ، الى غير ذلك من وصف مزاجهِ وأخلاقهِ وغرائزهِ كالبخل والكرم واللؤم والحلم وغيرها . ولكنهم كانوا حرَّاصاً على ذكر الانساب والكنى والتعريف ، فقد تروم الوقوف على ترجمة الحافظ أبي حسن القدسي مثلاً وتفتش عنها كثيراً فلا تهتدي اليها الا بمعجزة وذلك لكثرة الكنى قال ابن خلكان « أبو الحسن علي بن الانجب أبي المكارم المفضل بن أبي الحسن علي بن أبي الغيث مفرج

ابن حاتم بن الحسن بن جعفر بن ابراهيم بن الحسن اللخمي المقدسي الاصل الاسكندراني المولد والدار المالكي المذهب»

وليس ذكر الاسماء الكثيرة أو النسب محل المؤاخذة في هذا الموضع، لكن ذكر الاسماء والكنى، معاً وكان يُستغنى بذكر الاشهر من ذلك، تخفيفاً وإراحةً لذهن القارئ

ولو قلَّبت كتاب الاغاني على ضخامتهِ لما وجدت ذكراً للملامح والسحنات أو تفصيلاً لذلك الا لبعض أفراد كالحطيئة الشاعر قال «كان دميم الخلقة هجَّاءً جشعاً سؤولاً مُلحِفاً دني النفس قبيح المنظر رَثّ الهيئة» وهذا اكثر ما فيهِ وصف الاخلاق لا وصف السحنة. ولو فلَّيت ديوان الحماسة ويتيمة الدهر وقلائد العقيان ومطمح الانفس ودمية القصر والوفيات ونفح الطيب وغير ذلك من كتب التراجم والتواريخ لما وجدت وصفاً صحيحاً وافياً بهذا الغرض غير وصف ابن خلكان لابي مسلم الخراساني فانهُ يقول «وصف المدائني أبا مسلم فقال كان قصيراً اسمر جميلاً حلواً نقيّ البَشَرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها

طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق والفخذ خافض الصوت لم يُرَ مازحاً أو ضاحكاً الا في وقته ولا يكاد يقطّب في شيء من أحوالهِ واذا غضب لم يستفزّهُ الغضب تأتيهِ الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يُرَى مكتئباً »

وهذا الوصف البديع وان كان ناقصاً لانهْ لم يذكر هيئة وجههِ هل كان مستديراً أو مخروطاً ولا شكل أنفهِ ولا فمهِ بيد انهُ وصفٌ يمكن تصوير الموصوف في مخيّلة الناقد . ومثل ذلك ماذكرهُ عن أبي حنيفة النعمان قال « كان حسن الوجه حسن المجلس شديد الكرم حسن المؤاساة لاخوانهِ وكان ربعةً من الرجال وقيل كان طُوالاً تعلوهُ سُمرة أحسنهم منطقاً واحلاهم نغمة » ووصف غير هذين العلمين أيضاً بيد ان جل التراجم عُطُل من ذلك .

وقل مثل ذلك في تواريخهم الا ما رُويَ عن ملامح بعض الخلفاء قال ابن الاثير ما محصلهُ « كان المنصور أسمر نحيفاً خفيف العارضين وكان من أفصح الناس وأحسنهم خُلقاً مالم

يخرج الى الناس وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان (كذا) فاذا لبس ثوبهُ اربدَّ لونهُ واحمرَّت عيناهُ وكان حازماً حليماً شجاعاً بصيراً بأمور الحرب والسياسة داهية وقد أجمع الرواة على شدة بخله وحكمتهِ وفضلهِ وعدلهِ » . قال « وكان عبد الرحمن الاموي صاحب الاندلس خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم أعور له ضفيرتان وكان فصيحاً لسناً شاعراً حليماً عالماً حازماً سريع النهضة في طلب الخارجين عليهِ لا يخلد الى راحةٍ ولا يسكن الى دعةٍ ولا يكل الامور الى غيرهِ ولا يتفرد في الامور برأيهِ شجاعاً سخياً شديد الحذر وكان يقاس بالمنصور في حزمهِ وشدة ضبطهِ المملكة »

فاذا أضاف الناقد الى علم الفراسة التي لا بدَّ لهُ منها ، شيئاً من الوقوف على المكان والزمان والاحوال التي كتب فيها الكاتب ذلك الكتاب أو الرسالة أو القصيدة لم يبطئ ان تنجلي لهُ اسرارها فيعلم ان كلمة كذا أو جملة كذا لم تسقط من قلم المنشيء الا لتغلُّب الهم أو الحزن عليهِ أو الفرح الذي استخفهُ أو لخمار الخمر أو لغير ذلك من أسباب الخوف أو

الدعة أو الطيش أو السكون أو لحدّة التصور أو البلادة الى غير ذلك من آثار الاحداث النفسانية وانها لم تسمُ أو تنحط عن سائر كتاباتهِ الا للسبب المكتشَف ومتى تمكنت هذه الملكة من الناقد واطّلع على شيء من انشآء المؤلف ثم عرض لهُ من قلمهِ ما يسفل أو يرتفع عما كان أطلع عليهِ اسرع في كشف السرّ وبيان السبب . وهذه الملكة وان كانت عزيزة المنال الا انها كسائر الملكات تحصل للرجل بادمان المطالعة وتحصيل العلوم اللازمة لها خصوصاً اذا أُوتي ذوقاً سليماً وقلباً عليماً وإرادةً صادقة .

الفصل الثالث

في

التبويب

وهو الدرجة الثانية من سلم النقد

اعلم انه لا بدَّ للناقد من قاعدةٍ يسير بموجبها في تحديد طبقات الناظمين والمنشئين وغيرهم من أهل الصناعات الجميلة

والا فلا يسلم حكمهُ من الخطاء كما وقع الكثيرين من أكابر العلماء وذلك لانهم لم يتخذوا لهم هادياً في تلك البوادي غير الاهوآء أو هي اذواقهم أو التقليد .

والمراد **بالتبويب** هو تعيين بابة الكتاب المنقود أو مؤلفهِ وتحديد مرتبتهِ بين أمثالهِ بالحجج العادلة والبراهين الساطعة المقبولة ، لانك بعد ان تأتي على شرح المنقود . وتستوفي شروط الشرح التي ذكرتها لك من تحديد العلاقة بين الكتاب المنقود ، وتاريخ العلوم الادبية بالعموم ، ثم تحديد علاقته بما كان من نوعه وبالمكان والزمان اللذين ظهر فيهما ، ثم تحديد العلاقة الكائنة بين المؤلف وتأليفه ، يتحتم عليك ان تبيّن في أيّ رتبة رتّبتَ المنقود ، وفي أيّ بابة عددته قبل الحكم ، ليرى ذوو البصائر هل جرتَ في الحكم أو انت من المقسطين .

وكما ان الحكم وتعيين القصاص لايجوز في العدل قبل تحديد الذنب وتبويب الجرم ، فبمثله الحكم في النقد ، لايجوز قبل تحديد مرتبة المنقود أيّ بابته .

واعلم ان هذا التبويب ليس بالمطلب الهين ولا بالمنال السهل ، وقد ظل دهراً موضع حَيْرة النقادين ولغزاً لا يرون الى حلّهِ سبيلا

والذي عليه اليوم إجماع علماء النقد ان الموازنة(*) هي الدليل الناطق ، والفاروق الصادق ، الذي يميّز بين الفاضل والمفضول ، ويرتب بابات القرائح والعقول

وقد اقتدوا في ذلك بعلماء النبات وعلماء الحيوان . وهؤلاء لم يتوصلوا الى معرفة الشكل من النبات والنوع والجنس والرتبة والصف والسرد والمملكة الا بعد نظم أنواع النبات وتنسيقها وموازنتها أي مقابلتها مع غيرها من أنواع النبات ولم يتمكنوا من معرفة رتب الحيوان السافلة والعالية وتمييز الانواع تمييزاً صادقاً الاّ بعد صف ذوات الحافر مع أنواعها وذوات الثدى وذوات الفقَر وذوات الاجنحة كلّ طائفةٍ مع أشكالها ثم أخذوا السكين وشرّحوا النبات والحيوان وردّوا الفروع الى الاصول فعرفوا من ذلك الحقائق التي

(*) الموازنة في اللغة هي المعادلة والمقابلة

هي اليوم قواعد هذين العلمين ، وقد ظلَّتْ أعصراً متطاولةً خافيةً على العلماء وذلك لاغفالهم الموازنة المذكورة .

على ان العرب سبقوا الافرنج — عدا اليونان والرومان — في هذا الباب ، فان الحَسَن الآمدي قد صنف كتاب الموازنة بين الطائيين منذ نحو الف سنة(*) ثم ان ابن الاثير الجزري منذ سبعمائة سنة سلك هذا السبيل في بعض فصول كتابه **المثل السائر** المشهور خصوصاً عند ما رام ان يظهر تفوّقَهُ على أبي اسحق الصابيء ولهذا تُعَدُّ موازنة الآمدي أفضل مما صنعه ابن الاثير ، لان الاول وازن بين شاعرين كان قد مرّ على موت الاخير منهما نحو قرنٍ من زمانهِ ومع ذلك فليست الموازنَة المذكورة مستوفاة شروط موازنة الناقدين من علماء الفرنجة لعهدنا هذا ، فانهم يدققون في الفحص والاستكشاف ، ونبش خفيات المعاني وغوامض العبارات ، وروابط الكلام ، والبحث عن أسرار ذلك جميعه ، الى غايةٍ قُصوى لا تخطر ببال غير الناقدين .

(*) توفي الآمدي سنة ٣٧١ للهجرة

على ان تفصيل ما عانوه من الجِدّ والمثابرة على التفتيش والمواظبة على التنقيب والادمان للبحث والجَلَد على الاستقرآء للوصول الى هذه الامنية مما لا يتسع لهُ هذا الكتاب .

ولكن لا بدّ من الاشارة الى ذلك لاتمام الفائدة . فاعلم أرشدني الله وإياك انه كما ان العالم من علمآء النبات يصف النباتات أولاً ثم يقسمها أقساماً وفصائل فيصف الفطر مع الفطر وأنواع الاعشاب مع الاعشاب والحشائش مع الحشائش والاشجار مع الاشجار فتصح موازنته ويسهل عليه التمييز بين نوع وآخر ، فكذلك كان صنيع علمآء النقد عند الفرنجة ، وانما لا أنكر ان ذلك كان أسهل عليهم مما هو عندنا بكثير .

وقد وقفتَ في القسم الاول من هذا الكتاب على ملخَّص تاريخ علم النقد عندهم وما مهَّدوهُ لهُ من تأريخ علوم الادب وترتيب أبواب كل طائفةٍ منها وذلك قبل ان يصل علم النقد الى ما وصل اليه اليوم بزمن طويل .

واعلم انه يتحتَّم على الناقد عند الموازنة ان لا يخلط في

أبواب الشعر بين المديح والرثآء والنسيب والهجاء والعتاب والزهريات الى غير ذلك من أبوابه ولا بين الكلام المسجَّع والشعر ولا بين أحدهما والترسل ولا بين الخطب ورسائل الملوك ولا بين هذه والرسائل الاخوانية الى غير ذلك مما يطول شرحه واستقصاؤُه ، بل عليه ان يرتب ذلك مع ما كان من نوعهِ فيوازن بين المدح المنقود وما لديه من مدائح الشعرآء المبرّزين ومَن دونهم وبين الترسُّل والترسُّل فيما يناسب الموضوع الموازَن . فان وازن بين كلام ابن خلدون في « الخطط الدينية » وبين كلام شهاب الدين الحلبي «في التوشيح» لم تصح الموازنة ، لان موضوع الكلام مختلف، ولكل موضوع من الكلام الفاظٌ هي بهِ أليق وتعبيرٌ هو به اجدر كما تقدم قبل هذا ، بل موازنة كلام شهاب الدين الحلبي بكلام صاحب المثل السائر اصح واطبق .

ومما تقدم بسطهُ تعلم ان الموازنة تنقسم الى قسمين لا بد للناقد من النظر فيهما فالقسم الاول موازنة المنقود مع سواه من انشآء المؤلف نفسه ليُعلم هل الانشآء انشآؤه

أو انه انتحله لنفسه أو نسبه لهُ غيره لغرضٍ ما وهل يرتفع عن سائر انشآئه أو نظمه أو ينحطُّ عنهما .

والقسم الثانى موازنة المنقود مع غيرهِ من شعر أو نثر أو تصوير أو غير ذلك مما هو من نوعهِ لمتفننٍ آخر أو اكثر ليتضح الفرق للناقد .

على ان الموازنة لا يجب ان تكون مقصورةً على نظم شاعرٍ وشاعرٍ أو كاتبٍ وكاتب بل على الناقد ان يجعل الموازنة بين أبواب الشعر أي موضوعاته في المقام الاول من نقدهِ وهي العقبة الكؤود التي تعترض الناقد العربي ، اذ لم يؤلَّف عندنا الى اليوم تأريخ مطرد للعلوم الادبية ينفسح فيه الكلام بهذا الموضوع وهو أهم ما يرمي اليه التاريخ المذكور.

ومع ما تعلم من عنايتهم بالشعر ، فان العرب لم يأخذوا على انفسهم ضبط أبوابهِ في مؤلَّفٍ مخصوص وترتيبها اتّباعاً لسمو الموضوعات وصعوبة تصويرها ونظمها ؛ بل جل ما وصل الينا من ذلك ، هو ديوان الحماسة لابي تمَّام وقد قصَرَهُ على عشرة ابواب كما تعلم وهي : الحماسة ، والمراثي ، والادب ،

والنسيب ، والهجآء والاضياف ، والمديح والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النسآء وهو اقبح ختام ولم ينظر في ترتيبهِ الى سمو الموضوعات أو صعوبة نظمها او سهولتها او المشقة التي يتحملها المؤلف في الوصف وتصوير الحقائق او غيرها مما هو من فروع تاريخ العلوم الادبية — وهو غرض الناقد والضالّة التي ينشدها كل اديب — وانما غاية واضع ديوان الحماسة لم تتعدَّ جمعَ ابياتٍ رشيقة وقصائد انيقة من كلام العرب وبعض المولّدين وفعل البحتري مثله .

ولست اخفي على القارئ اللبيب ما اعتراني من اليأس والقنوط لدى وصولي الى هذا الموقف المقفر الخالي ووقوفي عند هذا الطلل الموحش البالي وقد قدَّمتُ في مقدمة الكتاب ذكر ماعانيتهُ بعد الاقدام على تأليفهِ وما نصرني بهِ أئمة الفضل من التحمس والتشجيع ، وما لاقيتهُ من النصب ، الاَّ ان ذلك كله لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى مالاقيتهُ في هذا الموضع ، وقد خذلتني قوتي ، واهملني صبري وعدتُ على نفسي باللوم لاقتحامها ما هو فوق طورها وكدتُ اترك

الكتاب بتةً واقولُ لليراعة ليس هذا بعشك فادرجي . .

ثم بدا لي رأيٌ ولست أدري ايقومُ به عند الافاضل عذري ام يُسَجَّلُ بهِ لومي ويُوقَع بذكري فان كان الاول، فيابشراي وياللَجذَل وان كان الثاني ، فواضيعة العمر وواخيبةَ الامل .

أما الرأيُ فهو ان اطابق بين موضوع الكتاب وما يتفرّع عنهُ ، ولما كان هذا الفرع — اي تبويب الشعر بحسب صعوبة تأليفه — هو اهمُّ فرع مِن فروع تأريخ العلوم الادبية ولا يمكن اتمام الكتاب وحصول الفائدة المقصودة منهُ بدونهِ تذكرتُ قول الشاعر

ولم ارَ في عيوبِ الناسِ شيئاً   كنقصِ القادرينَ على التمامِ

واقدمتُ على هذا العمل .

وقد علمتَ زادك الله علماً انهُ لم يوضع بالعربية كتاب لقواعد علم الانتقاد ، بل ولا في غيرها من اللغات الافرنجية، الاَّ ان يكون شيءٌ لم يصل خبره الينا وكذلك قد علمتَ مما تقدم ، انهُ لم يؤلَّف بالعربية كتاب في تبويب رتب الشعر

والانشاء ، فاقتحمتُ هذا السدّ مستنجداً بحلم أهل العلم ، فان كنتُ قد أصبتُ في شيءٍ واخطأتُ في شيءٍ ، فليغتفر لهذا بذاك ، وان كنتُ قد أحسنتُ في الوضعين ، — وما أبعد ذلك — فلا تنكرنَّهُ فمع الخواطئ سهم صائب ، وان كنتُ قد خبطتُ في الفنين — وما أحسبُني الاَّ كذلك — فانظر الى صنيعي بعين الحليم ، لا المتعنّت ولا ذي الطبع اللئيم ، وقل كلمةً طيّبةً يغفرِ لك اللهُ انَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً انهُ هو الغفورُ الرحيم .

الفصل الرابع

في

رتب الشعر او طبقاته

اعلم انهُ قد يتبادر الى ذهن القارئ ان ترتيب ابواب وطبقات الشعر هو امرٌ ذوقيٌّ وقد علمت مما مر بك في الفصل السابق ان موضوعات الشعر لها المقام الاول في

تبويبهِ وانها العقبة الكؤود ، وقد رأيتُ ان ابدأ من أسهلها الى أصعبها ، فقسمتها الى اثني عشر باباً ، ورتبتها الترتيب الآتي.

الباب الاول الحماسة ، الباب الثاني الحِكَم ، الباب الثالث العتاب ، الباب الرابع الزهريات ، الباب الخامس الغزل ، الباب السادس الرثاء ، الباب السابع المدح والشكران ، الباب الثامن الهجو ، الباب التاسع الوصف ، الباب العاشر القَصَص ، الباب الحادي عشر التمثيل ، الباب الثاني عشر التخييل ، وهذا اوان الشروع في تفصيل رتبها أو طبقاتها.

الباب الاول : **الحماسة** . وأراهُ من أسهل أبواب الشعر لضيق موضوعه واقتساره الشاعر على ان لا يخرج فيه عن حدمعلوم من ذكر الفر والكر ، والرماح والسيوف ، والمقارعة والطعان ، فاذا توسع فيه الى الفخر الذي هو شيءٌ من الحماسة ، كان وصف الدفاع عن الحريم والولد والجار والعشيرة ، وكلها احوال لو نظم في وصفها عشرون شاعراً مُجيداً ، لما وقعوا من الكلام الاَّ على متشابهٍ متقارب، ولتلاقوا بالسبك والمعاني تلاقي الصديق والصاحب.

الباب الثاني : **الحكم** . وهو من أشرف موضوعات النظم لكنها من أسهل ابوابه وأقرب رتبه مِ منالاً اذ هي حقائق أدبية وزواجر ونواهٍ يفرغها الشاعر في قالب النظم فلا يحتاج لاجلها الى كدِّ قريحةٍ أو إعمال فكرة في استخراجها أو تأليفها أو ابتكارها ، لان الشاعر لا يصل الى النظم في هذا الباب حتى تكون قد امتلأت ذاكرته من امثال الامم واقوال الحكماء ، والامثال والحكم ، هي هيَ عند جميع الامم ومنذ أقدم العصور ، فلا تجد حكمةً أو مثلاً عند امةٍ ، الا وتجدهُ بعينه أو بمعناه عند غيرها ، وهيهات ان تقوى على استنباط حكمةٍ غير مسبوقة ، فيتحصل من ذلك ان الشاعر مهما أجهد قريحته لابتكار حكمةٍ ، فلا ينظم الاَّ كلاماً سمع معناه وسبق الى محفوظه ، ثم نسي انه طبع في ذاكرته ، فبقي فيها معناه كما يبقى اثر الحروف على الورق وقد زال لون الحبر ، بيدَ ان الحِكَم لشرف غايتها تفعل في النفوس الفعل الذي يتوخاه الشاعر .

الباب الثالث : **العتاب** . هذا الباب أصعب منالاً من

البابين السابقين لانهُ وان كان الشاعر غير مضطر فيه الى تعب فكر وكدّ قريحة ، فهو محتاج الى حسن نظر ، وصدق ذوق ، للتعبير عن وداد اكيد ، واخلاص لا يشوبه تصنع ، وعواطف كريمة دفعته الى العتاب فلا بد له من التلطف في القول والتوسل الى تقريع المعاتب أو لومه أو تهديده بكلامٍ مؤثّر غير خشن ولا فظّ والا انقلب هجاءً صريحاً وهو لدى المنتقد أدلّ على اخلاق المؤلف من البابين السابقين.

الباب الرابع : **الزهريات** . هذا الباب أوسع موضوعاً من الابواب المتقدمة لما فيهِ من تعدّد المرئيات واختلاف المنظورات فالتفنن في وصفها وحسن تصويرها مما يستدعي صدق نظر ورويّةٍ ، واطّلاع وافر على كثير من العلوم أو ذكاء ينوب عن سعة الاطلاع ، فان لم يكن بهِ سوى وصف الاشجار والازهار والمياه والرياض ، كان قسماً من تصوير الرياض المعروف عند المصورين باسم « پاييزاج » — وهي كلمة فرنسوية يراد منها تصوير النبات وما يتبعه من الاطلال والرسوم والمواشي والاطيار — وان أضاف

الشاعر الى الوصف شيئاً من التشبيه كان ذلك اكثر صعوبة ولا يجيد فيه الاَّ كبار الشعرآء .

الباب الخامس : **الغزل والنسيب** . هذا الباب أعزُّ مما تقدمه مطلباً ، وأصعب مرتقىً ، لان موضوعه أوسع من الابواب السابقة وذلك لما فيه من وصف المحبوبة وتصوير ملامحها وحركاتها والاعراب عن وجدانات النفوس وما يتصل بذلك من شكوى السهاد وألم البعاد وحكايات الاجتماع واللقآء وذم الوشاة والرقبآء والغَيرة حتى من النسيم والحَيرة حتى في التسليم الى غير ذلك مما لا يفي بتعبيره الاَّ لسان شاعر ضيغم ذي قلب مستهام متيَّم .

الباب السادس : **التفجع والرثاء والتأبين والعزآء** . هذا الباب لا يحسن الدخول فيه والاجادة بهِ الاَّ المقدّمون من الشعرآء والكتاب وهو وان كان غير واسع الموضوع ، الا انه كثير الفروع ، ضيّق الصِراط ، شديد الوعورة ، اذ المقصود منه ، وصف الميت بأوصافه الحقيقية أو ما يقرب منها ، ودعم ذلك بالحجج البيّنة ، لا الكذب على الميت والناس

بنسبة صفاتٍ لهُ لم يعرفها ومكارم لم يسترعفها أو النوح والبكآء ، وتكرار الندب والتحسّر ، فهذا يسمَّى قائلهُ كذَّاباً نوَّاحةً ، وأنت تعلم انهُ قد يُضطر الشاعر أو الخطيب أو الكاتب الى تأبين رئيسٍ أو كبيرٍ لا فضل بهِ ولا فضيلة ، فان استطاع ارضآء السامعين، دون مداهنةٍ في التعزية والتأبين، فهناك يُعتَرف لهُ بكمال البراعة ، وبلوغ الغاية من الصناعة .

الباب السابع : **المدح والشكران** . هذا بابٌ يظنّهُ الغبيُّ مباح الولوج لمن أراد من جميع العباد وان لا مفتاح لهُ غير الموالسة والمدالسة والكذب وأنت تعلم انهُ بابٌ مستغلَق الاَّ على المجيد الثاقب الذهن الذي لا يبيع الكلام الاَّ بالغالي لان مدح المرء بصفات ليست لهُ هجآء بحت، وذم محض . ولست تجهل ان أفراد الناس الجامعين لأكثر مزيّةٍ محمودة ومنفعة مشهورة قد لا يرى منهم الشاعر في عصره الاَّ الرجلَ الواحد . فالشاعر المتوقد الذهن المبدع، يتفنن بالمدح دون ان ينسب لممدوحهِ ما ليس فيه ، وبهذا يُعرَف فضل الشاعر السابق على السكّيت والمتطفّل وأما جمع كل

مافي معاجم اللغة من الصفات الممدوحة والمناقب المشكورة وجعلها قلادةً في عنق الممدوح وصبّها عليه دفعةً واحدة ، فهو صنيع المدلّسين المرآئين المداجين ممن لا قيمة لكلامهم إنْ عند انفسهم أو عند الناس ، بل لا طلاوة لشعرهم ومدحهم بتةً .

واعلم انه لما كان المدح تصوير الصفات ، فكلما قرب من الصدق كانت به صورة الممدوح أظهر ، ومَن المصوِّر الذي لا يبذل منتهى جهدهِ وغاية وسعهِ في اتقان صورةِ مصوّرِهِ؟ ثم انه كلما كان الشاعر نبيهاً ألمعيًّا تحرّى في ثنيّات مدحهِ تصوير الحَسن من ملامح ممدوحهِ كأَن يكون طويلاً فيذكر طول حمائل سيفه ، أو قوياً فيذكر اقتداره على لبس الدرع وحملها ، او وقوراً ، او مهيباً ، او جميلاً ، وسترى شواهد ذلك كلّهِ فيما يأتي .

اما الشكر او التحدُّث بالنعمة فلا يجب ان يتعدى تصوير عواطف الشاكر ، فان النعمة الكبيرة قد لا تكون جليلةً ، اذا حلَّت على عظيم وبعكسه ، فان اليسير من الاحسان ، قد يُنطق بكثير الشكران ، اذا وقع موقعه وحلَّ على بائسٍ

او مُعدَم ولله دَرُّ ابي الطيب

وتعظُم في عينِ الصغيرِ صغارُها

وتصغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

فلا تنكرنَّ شكراً قليلاً، مقابلَ نعمةٍ جليلة ، ولا تستعظمنَّ حمداً جزيلاً وشكراً طويلاً ، مقابلَ احسان زهيد بل فانظر في ذلك الى قدر المنعِم والمنعَم عليه واحكم بعد ذلك حكمك، فان الف دينار من الامير ابي شجاع فاتك الى المتنبي منذ الف سنة (ولعلَّها تعادل قيمة مئتي الف فرنك ليومنا هذا) انطقتهُ بمثل الابيات الآتية التي تتهادى إباءً وتمايل ترفعاً قال

وما مدحتُ لانَّ المالَ فرَّحني

سيَّانِ عنديَ اكثارٌ وإقلالُ

لكن رأيتُ قبيحاً ان يُجادَ لنا

وانّنا بقضاءِ الحقّ بُخَّالُ

وخاتمُ خنصرٍ من ذهب انطق ظافراً الحدّاد الاسكندري بالشكر الآتي :

قصَّرَ عن أوصافِكَ العالِمُ
وكـثَّر الناثرُ والناظمُ
مَن يكنِ البحرُ له راحةً
يضيقُ عن خنصرهِ الخاتمُ

وما جحد المتنبي النعمة ولا قصَّر في المدح ، ولكن مقامه وترفُّعه في المدح والانشاد ، غير مقام هذا الحداد ، فاحسن ارشدك الله التميز والانتقاد .

ومن احسن ما استشهدهُ في هذا الباب، حكاية لبيد بن ربيعه ينتهي الى كِلاب وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام وقد نذر ان لا تهبَّ الصبا الا نحر وأطعم ، فهبَّت وهو بالكوفة مقتِرٌ مملِق ، فعلم بذلك الوليد بن عُقْبة ينتهي نسبهُ الى عبد مناف ، فبعث اليه بمائة ناقة مع ابياتٍ ، فلما اتتهُ قال جزى الله الامير خيراً وقد عرف اني لا اقول الشعر ولكن اخرجي يا بنيَّتي اجيبي الامير ، فتفكَّرت ساعةً ثم قالت

اذا هبَّتْ رياحُ ابي عقيلٍ دعونا عندَ هبَّتها الوليدا
طويلَ الباعِ ابيضَ عبشميًّا أعانَ على مروءَتهِ لبيدا

بامثالِ الهِضاب كأَن رَكباً عليها من بني حامٍ قعودا
أبا وهبٍ جزاكَ اللهُ خيراً نحرناها واطعمنا الثريدا
فعُدْ إنَّ الكريمَ له معادٌ وظني بابن أروى انْ يعودا

فقال لها لبيد أحسنتِ يا بُنيَّتي لولا انكِ سألتِ فقالت ان الملوك لا يُستحى من مسئلتهم فقال يا بنيتي وانتِ في هذا اشعر.

فانظر كيف ان ابنة لبيد لم تمدح الامير على مائة ناقة في ذلك العصر وهي شيء كثير الا بكلام قليل، ومع ذلك فقد عاتبها ابوها على بعضهِ، اذ كان لبيد شريفاً كما علمت فلكل مقامٍ مقال.

الباب الثامن: *الهجاء*. هذا بابٌ ولجهُ الفحول المتقدمون بالشدَّة والعُنف وسلكوا منه الى طريق الشتم والقذف وانت تعلم ما دار بين جرير والاخطل والفرزدق وامثالهم من البدو المحتضرين، مما لا يرتفع عن سِباب الاجلاف السفلة الوقحين، وقد تبعهم في ذلك كثيرٌ من شعراء المولّدين كابن الحجّاج واضرابه ولهم عند اهل السفاهة والدعارة

منزلة رفيعة . فلا تحسبنَّ الهجو في شيء من ذلك قال ابنُ قتيبّه : فاما السِّباب وشتم السلَف وذكر الاعراض بكبير الفواحش ، فمما لا نرضاهُ لخِساس العبيد : وروى المبرّدُ ما محصلّهُ ان الوضيع كان ينقلب الى الشريف لانهُ يرى مقاولتـه فخراً ، والاجتراء عليه ربحاً ، كما ان مقاولة الشريف للئيم ذُلٌّ وضعَةٌ قال الشاعر

اذا انتَ قاولتَ اللئيمَ فانّما
يكونُ عليكَ العتبُ حين تقاوِلُهْ

وقد امتنع قومٌ من الجواب تنبُّلاً ومواضعهم تنبئ عن ذلك وامتنع قومٌ عِيّاً بلا اعتلالٍ وامتنع قومٌ عجزوا واعتلُّوا بكراهة السَفَه ، وبعضهم كان يَسبُّهُ الرجل الركيك من العشيرة ، فيُعرِض عنـه ويسبُّ سيّد قومه قال وهذا كثيرٌ غير معيب . وهذا رأي المبرِّد او عادات القوم لتلك العصور عصور البداوة ، وعادة القوم لعصرنا ، ان هذا كمال العيب والسَفَه فتنبَّه . وحكى المبرّد ايضاً ، ان رجلاً وقف على الاحنف فجعل لا يألو ان يسبَّهْ سبّاً يُغضبُ ، والاحنف مطرق

صامت ، فلما رآه لا يكلّمه ، اقبل الرجل يعضّ ابهاميه ويقول يا سوأَتاه والله ما يمنعه من جوابي الا هواني عليه .

واعلم ان الهجو كان يُعَدّ نقصاً عند كثيرٍ من البدو اهل الوبَر وخشونة العيش ، قال شاعرهم

ولقد امرُّ على اللئيمِ يسبُّني
فاجوزُ ثُمَّ اقولُ لا يعنيني

وقال الآخر

واغفرُ عوراءَ الكريمِ ادخارَهُ
وأُعرِضُ عن شتمِ اللئيمِ تكرُّما

فكيف به اليوم عند اهل المدن وذوي الحضارة والنعيم واهل اللطف والذوق السليم ممن يبذل الدراهم والدنانير ، ويصرف الوقت الطويل والنصب الكثير ، في شراء ثوبٍ من كَتّان او حرير ، بشرط ان يكون حسب الزِّيّ الاخير ، من ازياء الفرنسيس او الانكليز ، او سواهم من اهل التبريز ، وانت اذا استبصرت في احوال هؤلاء القوم ، علمت انهم يعدّون المهاترة والمقاذعة من افحش المعايب بل

جلّ من ما عندهم من الهجو لا يتعدّى التعريض والتلميح والتورية والتلويح والاشارة والتوهيم والتهكم والتنكيت وهي افعل في نفس المهجوّ وانكى وارقّ في اذن السامع وابقى قال صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه: اما الهجو فابلغهُ ما جرى مجرى التهكم والتهافت وما قربت معانيه وسهل علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس، فاما القذف والافحاش فسِباب محض: (وقد تقدم ذكر ذلك في الفصل الاول من هذا الكتاب). وفي الحديث الشريف: المستَبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان ويتقاولان ويتقابحان في القول. وهذا كله يصدق في الهجو القبيح كما تقدم القول.

وقال الجاحظ وهل اهلك عنزة وجرماً وعكلاً وسلول وباهلة وغناء الا الهجاء وهذه قبائل فيها فضل كثير وبعض النقص فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء وقال ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم وتخوفهم ان يبقى ذكر ذلك في الاعقاب ويُسَبّ به الاحياء والاموات انهم اذا اسروا الشاعر اخذوا عليه

المواثيق وربما شدُّوا لسانه بنسعةٍ كما صنعوا بعبد يغوث المحاربي حين اسرته بنو تميم يوم الكلاب وهو الذي يقول

اقول وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ (١)

أمعشر تَيمٍ اطلقوا من لسانيا

وتضحك مني شيخةٌ عبشميةٌ

كأَنْ لم ترَ قبلي اسيراً يمانيا

وقال صاحب الكليات : ماوُصِفَ بهِ الانسان من أخلاقهِ الذميمة يُسمَّى هجاءً : وفي هذا التعريف تحديد غير شامل لضروب الهجو كلّهِ ، فان بعض المناقص او كلّها تدخل في هذا الباب ، ويدخل فيه ايضاً العجز والتقصير لانها من العيوب التي اذا وصفها الشاعر وصفاً حسناً مستحكماً، جاءت كمن يصوّر ذا أنف كبير بزيادةٍ ولو قليلةٍ عن الحقيقة، فانهُ يكون في غاية الشناعة وسبباً لمزيد ضحك الناظرين واستهزائهم، قال الشاعر وهما مشهوران

لكَ أنفٌ يابنَ حربٍ أنِفَتْ منهُ الانوفُ

---

(١) النسعة سير يضفر على هيئة النعال وقد يجعل زماماً للبعير

أنتَ في القدسِ تصلّي ‏ ‏ وهوَ في البيتِ يطوفُ

وقال ابو الطيب البزّاز يهجو ابن زهر الطبيب

قُلْ للوبا انتَ وابنُ زهرٍ ‏ ‏ جاوزتما الحدَّ في النكايه
ترفقّا بالورى قليـلاً ‏ ‏ في واحدٍ منكما كفايه

وقال ابن عبدل يهجو رجلاً بالبَخَر

فما يدنو الى فيهِ ذُبابٌ ‏ ‏ ولو طُلِيَتْ مشافرُهُ بقندِ
يَرَيْنَ حلاوةً ويخفنَ موتاً ‏ ‏ وشيكاً ان هممنَ لهُ بوردِ

فقد علمت مما تقدم ان عيوب الخلقة ايضاً وهي : **غير الاخلاق الذميمة وغير المناقص** يتصرف بها الشاعر الالمعي قليلاً فيخرجها كاقبح الاوصاف وقد تؤلمْ المهجوّ اكثر مما يؤلمهُ السب والافحاش : قال ابن المقفَّع . لا تتخذ اللعن والشتم على عدوك سلاحاً فانهُ لا يجرح في نفسٍ ولا في مالٍ ولا في دينٍ ولا منزلة : وقال أيضاً . ان خلطتَ بالجِدّ هزلاً هجَّنتَهُ وان خلطتَ بالهزل جدًّا كدَّرتَه غيرَ اني قد علمت موطِناً واحداً، فان قدرت ان تستقبل فيه الجِدَّ بالهزل اصبت الرأي وظهرت على الاقران . وذلك ان يتوردَّك متوردٌ

بالفسه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحبٍ من الذرع ، وطلاقةٍ من الوجه ، وثبات من المنطق .

ومن هذا الباب ما يُحكى عن الفيلسوف الفرنسوي ڤولتير قالوا ، نزل عليه يوماً أحد اصحابه وكان قادماً من سفرٍ ، فسأله ڤولتير من أين القدوم ؟ فاجاب من عند جان جاك روسّو فقال له طوبى لك فقد شاهدت الفيلسوف الشاعر . فسكت الضيف فقال ڤولتير ما بالك سكتَّ فقال انه ليغمّني يا صاح ان رأيه فيك غير رأيك فيه ففهم ڤولتير ان روسّو قد اغتابه فقال أظنُّ كلينا مخطئاً . وهو من أحسن الاجوبة السريعة في استدراك المدح وتحويله الى ذم والدفاع عن نفسه. وقد طوت ڤولتير وروسّو الايام والسنون وعبارة ڤولتير هذه يتناقلها الخلف عن السلف ولو شتم ڤولتير خصمهَ كل الشتم لما نُقل عنه ذلك بل لو نُقل لكان للمؤاخذة والتحميق .

واعلم انك لو نقّبتَ عن أقدم ما يُحكى للامم من الهجو إن شعراً أو نثراً ووضعت ذلك نصب عينيك للتمحيص

والبحث الدقيق ، لوجدته لا يتعدى اعلان حديث النفس واظهارها الكراهة والبغض لعدوّها ، وتصويرها أقبح ماتراه فيه من الاخلاق والمعايب . هذا أصل الهجو بين البشر في أوّل أمرهم ، وإبّان سذاجتهم ، وصفاء فطرتهم ، وطرافة منابتهم ، وطراوة طينتهم ، بل كانوا يَصفون عدوّهم بما يرونه فيه من العيوب ثم يقابلون ويوازنون بينه وبين من يخالفه في ذلك ان كان بحسن الخلق أو بحسن الاخلاق واكثر ما يكون بينه وبين الشاعر الهاجي أو قبيلته فيفاخر المهجوّ بهم ويذكر ما يراه به من العيوب والمناقص كقوله

ولكنني أنفي عن الذمّ والدي
وبعضُهمُ للذمِ في ثوبه دَسْمُ

وكقولهِ

دببتَ للمجدِ والساعونَ قد بلغوا
جهدَ النفوس والقَوا دونَهُ الازُرا
فكابروا المجدَ حتى ملَّ اكثرُهم
وعانقَ المجدَ مَن أوفى ومَن صبرا

لا تحسَبُ المجدَ تمراً أنت آكلهُ
لن تبلُغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبِرا

وكقول الآخر

تَشبّهُ عبسٌ هاشماً إنْ تسربلتْ
سرابيلَ خزٍّ أنكرتها جلودُها
فلا تحسَبنَّ الخيرَ ضربةَ لازبٍ
لعبسٍ اذا ما ماتَ عنها وليدُها
فسادةُ عبسٍ في الحديثِ نسآؤها
وقادةُ عبسٍ في القديمِ عبيدُها

واعلم ان هذا كان شأن الهجو عند العرب في اكثر حال بداوتهم فلما احتضروا أو خالطوا الحضَر ، تحول هجوهم من الوصف وذكر المعايب الى المهاترة والشتم والمقاذعة ولعل اكثر الامم كالعرب في ذلك . والشتم مستقبحٌ في كل عصر قال المبرّد : كان يزيد بن معاوية عتب على قومٍ من الانصار فأمر كعب بن جُعَيل التغلبي بهجائهم فقال له كعب أأهجو الانصار ؟ أراديّ انت الى الكفر بعد

الاسلام؟ ولكني أدلُّك على غلامٍ من الحيّ نصراني كأنَ لسانه لسان ثور يعني الاخطل. فانظر كيف وصف كعبٌ لسان الاخطل وشبهه بلسان الثور لانه كان هجّآءً شتّاماً.

فلما استبحر العمران وتمكنت قواعد الحِضارة واتسعت مناحي أهلِها وذهبوا في التأنق والملاطفة كل مذهب، وأخذوا في ضروب الرقة والمجامله، وتشعّب تداخلهم بعضهم في بعض، وكثرت إلفَتُهم، وتوالى أخذهم وعطآؤهم، واجتماعهم وسائر معاملاتهم، وبعدوا عن خشونة العيش بقربهم من المعارف. ودام ترقيها عصراً فعصراً، أعرضوا عن الهجآء الفظ المقذع، وانصرفوا الى أنواعهِ البديعية كالتهكم، والتنكيت، والتلميح والتورية، والتلويح. هذا مذهب أهل الحجى واللطف ولا عبرة بالارذلين وأهل السخف.

على ان العرب مع ادخالهم انواع البديع هذه في باب الهجآء، فلم يستخدموها فيه الا قليلاً. وهذا مما يؤسف له، فانهم مع صفآء قرائحهم، وثقوب أذهانهم، وما عُرِفوا به

من دقة التخيُّلات ، لو صرفوا أفكارهم الى هذه الوجهة ، لأَتوا بالمذهل المعجب ، والمرقص المطرب ، فهو عند الفرنجة لهذا العهد من أهم فروع الشعر بل من أعظم أبوابه ، بشرط ان لا يخرج عن أقسام البديع ، وسأذكر لك شيئاً من ذلك في محله ان شاء الله

الباب التاسع : **الوصف** . هذا بابٌ تدخل منه الى فسطاط ممتد الاطراف ، بعيد المطاف ، واسع الساحات كثير الشعاب ، متعدد المنازل وافر الرحاب ، فالوقائعُ الحربية ، والمواكب الملوكية ، والمقابلات السلطانية ، والقصور الرفيعة ، والحصون المنيعة ، كلها تدخل في باب الوصف . والشوارع الكبيرة ، والمباني الفخيمة ، والرياش الثمين وسائر آلات الزينة والنعيم ، مع أدق مايقع تحت الابصار ، الى أعظم ما تتصوره الافكار ، من الاختراعات والآلات العجيبة التي تظهر كل يوم في أوربا وأميركا ، هذه وصفها والكلام عنها يدخل في هذا الباب . وقد فرَّع منه الافرنج قسماً من الشعر

التمثيلي [١] وبالحقيقة ان هذا الباب وباب الشعر **القصصي** [٢] لا يفترقان كما ستراه ، الاَّ في العموم والخصوص ، **فالقصصي** يحيط بموضوعات كثيرة وهو ينتهي عندهم في الغالب بما يُضحَكُ منهُ ، بل يشتمل كله على المضحكات . **والتمثيلي** موضوعه أمرٌ خصوصيّ بعينه ، وينتهي بما تتأثر له نفوس السامعين من كشف خيانةٍ مستورةٍ ، او كمينٍ ، أو غدرٍ ، أو سرقةٍ ، الى غير ذلك مما هو من هذا النوع

وليس كل شاعر قادراً على الجولان في هذا المَيدان فانَّ وصفَ شيءٍ بعينه قد يمكن الاجادة به مع بذل غاية الوسع وان لم يكن الشاعر من اهل السبق ومن تصفح دواوين الشعراء أو قراء الاشعار الكثيرة في كتب الادب وقف على أبياتٍ بديعة التركيب ومعانٍ عالية لطيفة لا يحسب

(١) *Dramatique* ويمكن ان يطلق على ما يمثل منه اسم : العبر : جمع عبرة لان التمثيل في هذا النوع يحتم في الغالب بما فيه عبرة وموعظة للناظرين ، فاذا سأل احد مثلاً ماذا يمثل في هذه الليلة في دار التمثيل ؟ واجابه المسئول رواية كذا ، فقال من أي نوع هي ؟ فيقال من (العبر)

(٢) *Comique* أو *Comedie* ويمكن ان يطلق على هذا النوع اسم المضحكات ، كما يمكن ان يطلق على ما يمثل من الشعر المحزن أو النثر *Tragédie* اسم المبكيات ، هذا ان رضي به اهل هذا الفن عندنا.

القارئُ انها لبعض الشعرآء الخاملين غير ان ذلك من الشاذّ الذي لا عِبرة به فليس يقول

تَحفُّ بهِ القوَّادُ والامرُ أمرُهُ
ويقدمهُ رأيُ الخلافةِ أجمعُ
ويسحبُ أذيالَ الخلافةِ رادعاً
بهِ المسكُ من نشرِ الهُدَى يتضوَّعُ
لهُ حُلَلُ الإكرامِ خُصَّ بفضلِها
نسائجُ بالتّبرِ المشهَّرِ تلمعُ
بُرودُ أميرِ المؤمنينَ بُرودُهُ
كساهُ الرّضى منهنَّ ما ليسَ يُخلَعُ
وبينَ يديهِ خيلهُ بسروجهِ
يُقادُ عليهنَّ النضارُ المرصَّعُ
وأعلامهُ منشورةٌ وقبابهُ
وحجَّابهُ تُدعى لامرٍ فتُسرِعُ
مليكٌ ترى الاملاكَ دونَ بساطهِ
وأعناقُهم مِيلٌ الى الارضِ خُضَّعُ

قياماً على أقدامِها قد تنكَّبتْ
صوارمُها كلٌّ يُطيعُ ويخضعُ
تحلُّ بيوتُ المالِ حيثُ محلُّهُ
وجِسْمُ العطايا والرُّواقُ المرفَّعُ
اذا ماجَ أطنابُ السرادقِ بالضحى
وقامتْ حواليهِ القنا تتزعزعُ
وسلَّ سيوفَ الهندِ حولَ سريرهِ
ثمانونَ الفاً دارعٌ ومقنّعُ
رأيتَ مَن الدنيا اليهِ منوطة
فيمضي بما شاءَ القضاءُ ويصدعُ

قلتُ لا يصفُ هذا الوصف الاَّ ابن هاني متنبّي الغرب أو من هو مثله فيأتي على ذكر دقيق الموصوف وجليله ، ويقرب بعيده ويحيط بمجموعه ، حتى يمثّل لديك المشهودات كأَنك تراها وصهيل الخيل أو قعقعة السلاح أو الصوت الحسن حتى كأنها ترنُّ في أذنيك ، وعَرفَ الطيوب كأَنك تشمُّها ، ويصِفُ الناعم أو الخشن حتى كأَنك تلمسها ،

والطيبُ من المأكول أو المشروب حتى تحسب طعمه في فيك ، بل يصف لك الاخلاق من لطيفةٍ وكثيفة حتى تحسب أصحابها أشخاصاً ماثلةً بين يديك .

ولكيلا تعدّ ما أقولهُ في باب المبالغات فهاك شاهداً آخر من النثر رواهُ الجاحظ في المحاسن والاضداد قال : دخل أبو زبيد الطائي على عثمان بن عفَّان في خلافته وكان نصرانياً . فقال لهُ عثمان بلغني انك تجيد وصف الاسد. فقال لهُ لقد رأيت منه منظراً وشهدت منهُ مخبراً لا يزال ذكرهُ يتجدد على قلبي قال هات ما مرَّ على رأسك منهُ قال خرجتُ يا أمير المؤمنين في صُيّابةٍ[١] من افناء[٢] قبائل العرب ذوي شارة حسنة ترتمي بنا المهارى باكسائها القزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عتاق الخيل نريد الحارث ابن ابي شمر الغسَّاني ملك الشام فاخروَّط[٣] بنا المسير في حمّارة القيظ حتى اذا عصبت[٤] الافواه وذبلت الشفاه وشالت[٥] المياه واذكت[٦] الجوزاء

(١) صِيابة القوم لبابهم وخيارهم (٢) افناء أخلاط ولعلها هنا بمعنى الجماعات المختلطة والتقدير في جماعات من خيار قبائل العرب (٣) أي طال (٤) أي جف ريقها (٥) أي قلت (٦) أوقدت

المعزآء(١) وذاب الصيخد(٢) وصر الجندب(٣) وضايق العصفور الضبُّ في وجاره ، قال قائلنا : أيها الركب غوّروا بنا في دوح هذا الوادي فاذا واد كثير الدَغَل دائم الغَلَل شجراؤهُ مُغِنّه وأطيارهُ مُرِنَّه فحططنا رحالنا باصول دوحات كنهبلات فاصبنا من فضلات المزاود وأتبعناها بالماء البارد فانّا لنِصفِ حرّ يومنا ومماطلته ومطاولته إذ صرَّ اقصى الخيل أذنيه وفحص الارض بيديه ثم ما لبثَ ان جال فحمحم وبال فهمهم ثم فعل فعلَهُ الذي يليه ، واحد بعد واحد فتضعضعت الخيل وتكعكعت الابل وتقهقرت البغال فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلمنا ان قد أُتينا وانهُ السبعُ لا شكّ فيه ، ففزع كل امرىءٍ منا الى سيفه واستلَّهُ من جرُبّانه ثم وقفنا لهُ رزدقاً فأقبل يتظالعَ في مشيته كأنهُ مجنوب أو في هجار ، لصدرهِ نحيط ، ولبلاعيمه غطيط ، ولطرفه وميض ، ولارساغهِ نقيض ، كأنما يخبط هشيما ، أو يطأ صريما ، واذا هامة كالمجنّ وخدٌّ كالمسنّ وعينان

(١) الارض الصلبة (٢) عين الشمس (٣) أي وصاح الجراد شديداً

سجراوان ، كأَنهما سراجان يقدان ، وقَصَرة رَبله ، ولهزمة رهله ، وكتد مُغبط ، وزور مفرط ، وساعد مجدول ، وعضد مفتول ، وكف شثنة البراسن ، الى مخالب كالمحاجن ، ثم ضرب بذنَبه فأرهج ، وكشر فأفرج ، عن أنيابٍ كالمعاول مصقولة غير مفلولة وفمٍ أشدق ، كالغار الاخرق ، ثم تمطّى فأسرع بيديه ، وحفز وركيه برجليه ، حتى صار ظلّهُ مثليه ، ثم أقعى فاقشعرّ ، ثم مثل فاكفهرّ ، ثم تجهَّم فازبأرّ ، فلا والذي بيتهُ في السمآء ، ما اتّقيناه بأوّل من أخٍ لنا من بني فزاره ، كان ضخم الجزاره ، فوهصه ، ثم أقعصه ، فقضقض متنه وبقر بطنه فجعل يلغُ في دمه فذمرتُ أُصحابي فبعدَ لأَيّ مااستقدموا ، فكرَّ مقشعرّ الزبره . كأَنَّ بهِ شيهماً حوليًّا فاختاج من دوني رجلاً اعجر ذا حوايا ، فنفضهُ نفضةً فتزايلت أوصاله ، وانقطعت أوداجه ، ثم نهم فقرقر ، ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ، ثم لحظ فواللهِ لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه ، عن شماله ويمينهِ ، فارتعشت الايدي ، واصطكت الارجل ، وأطّت الاضلاع ، وارتجت الاسماع ،

وحملجت العيون ، وانخذلت المتون ، ولحقت الظهورَ البطون ، ثم سآءت الظنون . وانشد . . . فقال عثمان اكفف لا أمَّ لك فلقد أرعبتَ قلوب المسلمين ولقد وصفته حتى كأَني أنظر اليه يريد يواثبني .

أسمعتَ ما قالهُ الخليفة لهذا الواصف ؟ وهو لم يُرِد اطرآءهُ ، ولكن براعةُ وصفهِ ، وحسنُ نسجهِ ، ودقة تصويرهِ ، مثّلت الواقعة للخليفة حتى قال لهُ لقد وصفتَهُ حتى كأَني انظر اليه يُريد يواثبني .

وانتَ اذا انعمت النظر فيما ذكرته لك في هذا الباب والابواب المتقدمة ، واتيت على حفظ قواعد فن النقد كلّها ، وكنتَ ممن رُزقوا شيئاً من الذكآء وحصةً من الذوق ، لا تلبث ان تنجلي لك محاسن دقّة الوصف ، ونقد من أخطأَ من الواصفين باذن الله ، وأنْ ليس للانسان الاّ ماسعى .

الباب العاشر : **القصص** . هذا الباب لم يذكرهُ أحدٌ من كتّاب العرب مع ان الشعر القَصَصيّ كان عند العرب وان لم يسمّوهُ بهذا الاسم ، وربما أدخلهُ بعضُهم في باب الحماسة ،

وسمّاهُ بعضهم بالاراجيز — وكلاهما غير وافٍ بالتعبير عن هذا الغرض. أمّا الحماسة فلأنَّها قد تخلو كثيراً من القَصَص كقولهِ

ذكرتُكِ والخطيُّ يخطرُ بيننا
وقد نهلَتْ منّا المثقَّفةُ السمرُ
فواللهِ ما أدري واني لصادقٌ
أداءٌ عراني من حِبابكِ أم سِحرُ
فانْ كانَ سِحراً فاعذُريني على الهوى
وإن كانَ داءً غيرَهُ فلَكِ العذُرُ

وهو كما تراهُ الى النسيب أقرب. وكقول الآخر

اني على ما قد علمتَ محسَّدٌ
انمى على البَغضاءِ والشنئآنِ
ما تعتريني من خطوب مُلِمة
الاّ تُشرِّفُني وتُعظِمُ شاني
فاذا تزولُ تزولُ عن متخمّطٍ
تُخشى بوادرهُ لدى الاقرانِ

اني اذا خفيَ الرجالُ وجدتَني
كالشمسِ لا تخفى بكلّ مكان

وهو فخرٌ محض . وكقول غيره

وفارقتُ حتّى ما أُبالي منَ النوى
وإنْ بانَ جيرانٌ عليَّ كرامُ
فقد جعلتْ نفسي على النأي تنطوي
وعيني على فقدِ الحبيبِ تنامُ

وهو بحديث الاشواق أولى . وكثيرٌ من شعر الحماسة على هذا النحو

وأما الاراجيز فلم يصل الينا من أراجيزهم ما ينيف على الخمسين بيتاً ، بل اكثرها أقلّ من ذلك بكثير ، قال عبد الله ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء في ترجمة الاغلب الراجز : وكان الاغلبُ جاهليّاً اسلاميّاً وهو أول من أطال الرجز وكان قبلهُ الرجل يقول البيت والبيتين اذا فاخر او شتم وحسبُكَ قولهم عن الاصمعي انهُ كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزة ولعلها من المبالغات المتناهية في الغلوّ ولكنها تؤيد ما ذكرته

لك من ان هذه الاراجيز كانت قصيرة ، وبعضها لا يتجاوز الاربع أو الخمس ابيات أو أقل ، وقد نُظِمتْ لاغراضٍ خصوصية تافهة كقول امرأة أبي حمزة الضبيّ ترقص ابنتها

ما لأَبي حمزةَ لا يأتينا   يظلُّ في البيتِ الذي يلينا
غضبانَ إنْ لم نلدِ البنينا   تاللهِ ما ذلكَ في أيدينا
وانما نأخذُ ما أُعطينا   ونحنُ كالارضِ لزارعينا
نُنبِتُ ما قد زرعوهُ فينا

أو كقول الآخر يصف سهماً صادراً وهو من أبدع الوصف

ألقى على مفطوحِها مفطوحا   غادرَ داءً ونجا صحيحا

وكثير من هذه الاراجيز قد جرت على السنتهم وتناقلتها قبائلهم ودعت البيت أو البيتين أرجوزة كما يتبين لك من مطالعة كتب ادبهم . ومن ذلك تعلم انها لا تنطبق على ماذكرتهُ لكمن الشعر القَصصيّ ووصف الوقائع والحوادث التاريخية بهوصفاً مستوفياً . اللهمَّ الاان يكون الشاعر أتى على حادثة طفيفةٍ ، أو لمعةٍ من واقعة كقول شاعرٍ من بني تميم

نحنُ ضربنا الازْدَ بالعراقِ والحيَّ من ربيعةِ المرَّاقِ
وابنَ سُهَيـلٍ قائدَ النفاقِ بلا مَعونات ولا أرزاقِ
الا بقايا كرم الاعراقِ لشـدَّةِ الخشيةِ والاشفاقِ
من المخازي والحديث الباقي

وكقول الآخر

نحنُ قتلنا مُصعباً وعيسى وابنَ الزبَير البطلَ الرئيسا
عمداً أذقنا مضرَ التيئيسا

وكقول الآخر في وقعة الخندمه

إنْ تُقبلوا اليومَ فما بي علِه هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّه
وذو غرارينِ سريعُ السلَّه

ثم هرب امام خالد فلامته امرأته فقال

إنَّكِ لو شهدتِ يوم الخندمهْ اذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عكرِمَه
ولحقتنا بالسيوفِ المُسلمَه يفلقنَ كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمَه
ضرباً ولا تسمعُ إلاّ غمغمَه لهم نهيتٌ خولنا وحَمْحَمَه
لم تنطقي في اللوم ادنى كَلِمَه

وأحسن ماوقفت عليه من ذلك قصة نوح (عم) أو الطوفان

للقطاميّ ولكنها قصيرة ايضاً وقرأت منها ما يأتي :

ونادى صاحب التَّنورِ نوحٌ ❊ وصُبَّ عليهمُ منهُ البوارُ
وضجّوا عنـدَ جيئتهِ وفرّوا ❊ ولا يُنجي من القدرِ الحذارُ
وجاشَ المآءُ منهمراً اليهمْ ❊ كأَنَّ غُثَاءَهُ خِرَقٌ تسارُ
وعامَتْ وهيَ قاصدةٌ باذنٍ ❊ ولولا اللهُ جارَ بها الجوارُ
الى الجوديّ حتى صار حجراً ❊ وحانَ لتالكَ الغُمَرِ انحسارُ
فهذا فيهِ موعظةٌ وحكمٌ ❊ ولكني امروءٌ فيَّ افتخارُ

وهذا بحرٌ لا ساحل لهُ ، ولم أذكر لك هذه الشواهد ، الاَّ برهاناً على ما قدمته ، من ان الاراجيز عند العرب لم تكن طويلةً أو محيطة بوصف حوادث تأريخية أو وقائع حربية بتفاصيلها ، بل كانت العرب تنطق بالرجز قبل ان نطقت بغيره من أبحر الشعر ، فألمَّ بسائر احوال العرب . قال في التهذيب وزعم الخليل ان الرجز ليس بشعر وانما هو انصاف ابيات واثلاث . فلا عجب بعد هذه الرواية ان يكون الرجز اول بحر نطقت به العرب الشعر ، وليس بيان ذلك من غرض هذا الكتاب وانما ذكرتُ لك تأييداً

لدعواي ان الاراجيز لا تنطبق على سائر ما ذكرتهُ من الشعر القَصصي أو هو المسمى بالملاحم بل بها شيءٌ من هذا النوع .

واعلم ان هذا النوع من الشعر عند الافرنج هو أعظم ابواب الشعر وأدقها وأبعدها مطاباً فلا يطرقهُ منهم الاَّ الفحول وما هم كلهم ببالغين منه المطلوب بل ما أقلَّ المُجيدين . ويزعم علماؤهم انهُ لم تتوفر الاجادة بهِ لشيخ شعراء الدنيا هوميروس اليوناني ثم لفِرجيل ثم لِدانتي وبعدهُ بَرتبةٍ بعيدة لشاكسبير ووالتيرسكوت ولامارتين وفيكتور هوغو وبالجملة ، لكلّ من أجاد بهذا النوع من الشعر ، الاَّ لتوفّر الشروط اللازمة لهُ ، وأوَّلها ان يكون الشاعر في أمةٍ فتيَّه الاعتقاد بدينها ، حديثة الاتحاد بين أفخاذها وبطونها ، وعماراتها وقبائلها وشعوبها ، وان يكون القومُ بما لديهم فرحين ، وبيناهم كذلك ، يفاجئهم عدوٌّ يقتحم ثغور بلادهم ، ويكتسح اموالهم ، فيتأثّرونهُ ويتعقبونهُ ، وتدور بينهم الدوائر ، ويطول العِداء ، ويدافعون مستبسلين عن

أرضهم ، مستقتلين عن حريمهم وأولادهم وأموالهم ، مستغيثين بالآلهتهم ومعبوداتهم ، فيترنم شاعرهم ويتغنى بنصرهم وفتوحاتهم ، ويتفاخر متحمساً بمبارزات أبطالهم وشجعانهم ، ويعول وينوح على قتلاهم وكسراتهم ، وبين ذلك يصف طيب أوطانه ، وأخلاق أهلها وعاداتهم ، وغناءهم وخسائرهم وسائر احوال عيشهم ، على نحو ما صنع هوميروس بقصائده المشهورة **بالالياذة** — وقد ترجمها الى الشعر العربي حضرة صديقنا الكامل غرة بيت العلم ، العالم الالمعي ، والشاعر اللوذعي ، سليمان افندي البستاني — . قالوا فان توفرت هذه الشروط ونبغ بين القوم شاعر — ولا بد من ان ينبغ واحد — يقوى على حسن الوصف ، واجادة السبك ، وبراعة التعبير ، ودقة النسج ، وجمال السرد ، الى غير ذلك من صفات البراعة ، تناقل الركبانُ قصائده أو ملحمته ، وحفظها القوم وتناشدوها ، وتغنّوا بها في ولائمهم وافراحهم ، وأبّنوا بها موتاهم ، وهنّأُوا بها الظافر من قوّادهم ، وأثنوا بها على عظمائهم ، وعددوا بها مآثر آبائهم ، ودرسوا بها تاريخ أسلافهم وبلادهم ، وقراوا

بها غابر عاداتهم ، وهجوا بها الجبان والخائن ، الى غير ذلك ، فثبتت على الحدثان ، وظلّتْ حديثة وان تقادم الزمان ، وهذا هو شأن إلياذة هوميروس أو ملحمته فقد امتدت حياتها وطال عمرها ، وكم ملحمةٍ قُصِفَت في مستهلّ سنّها وريعان أمرها ، وذاك لتوفّر الشروط المطلوبة أو عناصر الحياة في ملحمة هوميروس ونقصها في سواها ، فهي بما توفَّر فيها من عناصر الحماسة والتهييج ، تصلح للانشاد في المبارزات والحروب عند القبائل والعشائر اهل الخيام ، كما تصلح عند الامم البالغة من الحضارة أرفع مقام ، وبما فيها من عناصر أدب النفس ، ومكارم الاخلاق ، وحب الحرية والعدل ، وسائر الفضائل ، تصلح للتعليم والانشاد امام العذارى الفتيَّات وسائر ربَّات الخدور ، من سكان الوبر الى سكان القصور ، في جميع العصور ، وبما فيها من الوصف الدقيق البديع ، وحسن السبك ، وبارع اللفظ ، وجمال النسق ، والانتقال من موقفٍ الى مشهد ، ومن مشهدٍ الى منظر ، ومن منظرٍ الى مظهر ، ومن مظهرٍ الى واد الى غير ذلك مما

يطول شرحه وتعداده ، تصلح لان تكون أغنيَّةَ العاشق الولهان ، ورنمة الوالدة العطوف ، وتعزية الحزين ، وتسلية المكروب ، واستاذ المصوّر ، وإمام النقّاش ، وعَروضَ الشاعر ، وقبلةَ الخطيب ، ومعلمّ المغنّي ، ومُرشد المربّي عند كل امة وفي كل عصر ، وعلى الجملة فهي قوت النفوس ومحيي اشرف العواطف ، فلا بدع ان تطول حياتها ، اذ مكارم الاخلاق والصفات النبيله ، هي نفيسة في كل زمن وقليله ، بل هي ضالة من نال شيئاً من الذكآء عند كل شعبٍ وقبيله

قالوا ويُشترط في الملاحم ان يكون بطل الملحمة او ابطالها أمرآء القوم او رساءهم والمراد بذلك ان لا يكونون غربآء عن قومهم ثم ان يتكلم شاعر الملحمة بعواطف القوم وشعائرهم فان لم ينطبق كلامه على ما يشعرون ، قُضي على ملحمته بالفناء العاجل فلا تُنشر الى يوم يبعثون.

بيد ان الملاحم — وسأطلق عليها هذه التسمية أسوةً بمن تقدمني في ذلك — قد تلبس ثوب الشعر القَصصي وان

خلت من الحماسة بل في الغرب عند الفرنجة كثير من الملاحم الفلسفية ، والهجوية ، والتاريخية وغيرها وكلها قد خلت من الحماسة .

ومن شروط الملاحم ان يكون الشاعر راوياً لا ان يجعل نفسه بطل الملحمة كفعل امرىءالقيس في معلّقته ، فانه لم يخرج عن ثلاثٍ ، ذاتهِ ، وحبيبتهِ ، وفرسهِ ، ومثله طرَفة بن العبد وغيره من اصحاب المعلقات ، خلا زهير بن ابي سلمى ، والحارس بن حلزّة اليشكُريّ ففي معلقتيهما مما ذكر عن الملاحم .

على ان الشاعر العربي قلّ ان يتكلم عن غير نفسه الا في النادر كما تعلم ، حتى انه لو قصّ حديثاً في الشعر ، وأردت ان تدخله في عداد الملاحم لشذّ عن الشرط السابق وهو ان يكون الشاعر راوي الحديث اجنبياً عن القصة او بعبارة أخرى ان يكون غير متعمدٍ جذب الانظار الى حذقه وبراعته ، والدهش من فروسته وشجاعته ، والاعجاب بمكارم اخلاقه ، فكل ذلك مما تأباه النفوس واخيراً ، ان لا يذهل

عن الدنيا ومن فيها بالحديث عن نفسه او عن حبيبته او عن كليهما ، وهذه احوال لم يستنكفها الشاعر العربي ، وكلها كما علمت مخلةٌ بشروط الشعر القصَصي : قال عمر بن ابي ربيعة :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم واُطفئت
مصابيحُ شبّتْ بالعشآء وأنوُرُ
وغابَ قُمَيْرٌ كنتُ أرجو غيوبَهُ
وروَّح رُعيانٌ ونوَّم سُمَّرُ
ونفّضتُ عني العينَ أقبلتُ مشيةَ الـ
حُبابِ وركني خيفةَ القوم أزورُ
فحييتُ اذ فاجأتُها فتولّهت
وكادت بمكنونِ التحيةِ تجهرُ
وقالتْ وعضَّتْ بالبنان فضحتني
وأنتَ امرؤٌ ميسورُ امرك أعسرُ
أريتُك اذ هُنَّا عليك ألم تخَفْ
رقيباً وحولي من عدوّكَ حُضَّرُ

فواللهِ ما ادري أتعجيلُ حاجةٍ
أتى بك أم قد نامَ مَن كنتَ تحذرُ
فقلتُ لها بل قادني الشوقُ والهوى
اليكِ وما عينٌ منَ الناسِ تنظرُ
فقالت وقد لانت وأفرخَ رَوعُها
كلاكَ بحفظٍ ربُّكَ المتكبّرُ
فأنتَ أبا الخطّابِ غيرُ مدافَعٍ
عليّ اميرٌ ما مكثتَ مؤمّرُ
فيالكَ من ليلٍ تقاصرَ طولهُ
وما كانَ ليلي قَبل ذلكَ يقصُرُ
ويا لكَ من ملهىً هناكَ ومجلسٍ
لنا لم يكدّرْهُ علينا مكدِّرُ
يمجُّ ذكيَّ المسكِ منها مُفلَّجٌ
رقيقُ الحواشي ذو غروبٍ مؤشّرُ
يَرِفُّ اذا يفترُّ عنهُ كأنهُ
حصى بَرَدٍ او أُقحُوانٌ منوَّرُ

وترنو بعينيها اليَّ كما رنا
الى ربرب وسطَ الخميلةِ جؤذَرُ
فلما تقضَّى الليلُ الاَّ أقلّهُ
وكادت توالي نجمهِ تتغوّرُ
اشارت بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ
هبوبٌ ولكن موعدٌ لك عذوَرُ
فما راعني الاّ منادٍ برحلةٍ
وقدلاحَ مفتوقٌ من الصبحِ أشقرُ
فلما رأت مَن قد تنبَّه منهمُ
وإيقاظَهم قالت أَشِرْ كيفَ تأمرُ
فقلت أُباديهم فإما أفوتهم
وإما ينالُ السيفُ ثأراً فيثأرُ
فقالت أتحقيقاً لما قالَ كاشحٌ
علينا وتصديقاً لما كانَ يؤثرُ
فانْ كانَ ما لا بدَّ منهُ فغيرهُ
منَ الامرِ أدنى للخفاء وأَسترَُ

أقصُّ على اختيَّ بدءَ حديثنا
وما ليَ من أن تعلما متأخَّرُ
لعلَّهما أن تبغيا لك مخرجاً
وأن تُرحبا[١] سرباً بما كنت أحصَرُ[٢]
فقامت كئيباً ليسَ في وجهها دمٌ
منَ الحزنِ تذري عبرةً تحدَّرُ
فقالت لأُختيها أَعينا على فتى
أتى زائراً والأمرُ للامرِ يقدَرُ
فأقبلتا فارتاعتا ثمَّ قالتا
أَقِلّي عليكِ الهمَّ فالخطبُ أيسرُ
يقومُ فيمشي بيننا متنكراً
فلا سرُّنا يفشو ولا هوَ يظهرُ
فكانَ مجنّي[٣] دونَ من كنتُ أتقي
ثلاثَ شخوصٍ كاعبانِ ومُعصِرُ

(١) اي تتباعدا انت وهنّ (٢) اكتم (٣) المجنّ الترس

فلما أَجزنا ساحةَ الحيِّ قلنَ لي
أَلم تتَّقي الاعداءَ والليلُ مقمرُ
وقلنَ أهذا دأبُكَ الدهرَ سادراً (١)
أما تستحي او ترعوي او تفكّرُ
اذا جئتَ فامنحْ طرفَ عينيك غيرَنا
لكي يَحسبوا انَّ الهوى حيثُ تنظرُ
فآخرُ عهدٍ لي بها حينَ اعرضت
ولاحَ لها خدٌّ نقيٌّ ومحجَرُ

فانظر براعة نظم هذه القصة وسبكها هذا السبك العجيب برقة تأخذ بمجامع القلوب ، وبلاغة ما بعدها لمتطلب غاية . بَيْدَ انها لو طالت لملَّها القارئُ لسببين : الاول منهما وحدة الموضوع وانت تعلم ان الانسان مولع بالتنقُّل من حديث الى آخر ، ومن منظور الى غيرهِ ، ومن حالةٍ الى أخرى فهو يملُّ الحالة الواحدة المستديمة ولو جمعت شروط السعادة كلها ، بل لعل السعادة لا تكون الا في التنقل

(١) اي غير مبال ولا مهتم بشيء

والتحوُّل والتغيير والتبديل . والسبب الثاني تكرار القافية الواحدة وانت تعلم ان اطرب صوتٍ في الدنيا لو ظلَّ على نغمٍ واحد ساعتين او ثلاث لملَّتهُ الأُذن وسئمتهُ النفس ، وهذا هو السرُّ في فضل الملاحم على غيرها من ابواب الشعر ، فانها ليست حديث ساعةٍ ، او زيارة ليلة بل هي قصة حادثة او حوادث متشعبة الوقائع ، او حكاية عظيمة من العظائم ، يسرد فيها الشاعر مجاريها بالتفصيل يوماً فيوماً ، وليلةً فليلة فان تخلل ذلك شيءٌ من الحشو أو الركيك او البارد ، او نقص براعةٍ في النسج والسرد والتركيب ، او قلَّة ذوقٍ في التفصيل والتعبير ، او غير ذلك مما تقتضيه صناعة الملاحم ، فات سهمهُ الغرض بل رُمي بالخطاء بدل الاصابة . فهو يُطلب منه ان ينتقل في حديثه من عجبٍ الى اعجب ومن بارعٍ الى ابرع ، ومن بليغٍ الى ابلغ ، حتى يملك القلوب ويستحوذ على غاية التمام .

وقد أطلت الشرح في هذا الباب ، بل اكون قد كررت به بعض القول ، ولكن قد توخَّيت به الفائدة وارجو ان اكون

وقعتُ على بعض ما توخيته . ومن يهد الله فما له من مضلّ.

الباب الحادي عشر: **الشعر التمثيلي** . هذا بابٌ لم يؤلّف به العرب شيئاً ، بل لم يكتب به الاَّ افراد من المعاصرين ، كالشيخ خليل اليازجي ، وأديب اسحق ، والشيخ نجيب الحداد، والثلاثة كانوا من نوابغ الكتاب المعاصرين رحمهم الله، وقد نسجوا على منوال الافرنج، وبعضهم ترجم عن الافرنسية، وقد يكون لغيرهم من شعراء العصر شيء من هذا الباب لم يصل اليَّ . بَيد ان كل ذلك من باب التقليد ، وليس في شيءٍ من الابتكار أو الاجتهاد ، ولا بدع في ذلك ، فقد بلغ الافرنج في هذا الشوط مبلغاً من البراعة والاتقان ، ما وراءَهُ مطمع لطامع ، وحسبنا ان نكون لهم مقلّدين ، اللهمَّ بما يناسب بِيئَتَنا ، ليحصل بعض النفع من الشعر التمثيليّ.

واعلم ان الشعر التمثيليّ وان كان قسماً من الشعر القصصيّ ، الا انه يختلف عنه في بعض الوجوه . فمن ذلك انك تسرد في الشعر القصصي ما عاينت او تيقنت حدوثه في الحكاية التي ترويها ، من هطل سيلٍ عرم ساعة اشتباك

القتال بين جيشين ، او توارد وحوش ضارية تفترس جثث القتلى ، او تفصيل خيانةٍ او فحشآء ، او تختم الحكاية بما كان من فوز الظالم وهلاك المظلوم ، واعتلآء الجهل على العلم ، وابادة الامين وانتصار الخائن ، وسؤدد اللئيم واضاعة الكريم ، وظهور الباطل على الحق ، وعتو العبد والخادم ، وعقوق الولد وقتل الوالد ، الى غير ذلك من الحوادث والوقائع التاريخية المشهورة ، مما يُرى في كل عصر وقُطر . وهذا غير محمود في الشعر او النثر التمثيليّ بل مما يجب اجتنابه ، والسبب في ذلك ، إنك تعلم ان المراد من الرواية التمثيلية ، افادة السامعين حكايةً او وقعةً تأريخية ، تبعث فيهم الحمية والحماسة والنشاط لتحدّي المحكى عنهم والاقتدآء بهم ، ان في الدفاع عن الوطن والاستبسال للموت في سبيله ، او لصنع المعروف واجتناب المنكر ، والقصد من تمثيلها وتكرار حوادثها في الملاعب والملاهي على هذا الوجه المعلوم عند الامم المستبحرة في الحِضارة ، هو ما تحقَّق من تأثير الصوت الحيّ ، والخطب والمشاهدات ، وكل شيءٍ عياني ، في اخلاق السامعين

والناظرين ،وانطباع ذلك في عقولهم بما يكون لهم عبرةً وموعظة ، وقدوةً يقتدون بها ، وزاجراً به يزدجرون .

فاذا أتيتَ بالصعب أو المستحيل ايجاده وتمثيله ، عسّرت الامر على صاحب الملهى والممثلين ، فان أهملوا شيئاً من الموصوف بالرواية ، كان ذلك عيباً ونقصاً امام الناظرين ، وان أهملوا الرواية بتةً وبدلوها بسواها ضاعت مزية صنيعك بل رُميتَ بالطيش والرعونة . على ان هذا أيسرُ الخطبَين ، لما بلغت اليه المعارف والفنون والصناعات لهذا العهد عند الفرنجة ، بحيث لم يكد يوجد لديهم امر مستحيل تصويره للناظر ، كأنه الطبيعي بعينه ، فلا السيل العرم ، ولا الوحوش الضارية ، ولا الحريق الهائل ، ولا دكّ الحصون ، ولا الزلزلة ولا البحر ولا غير ذلك مما كان يُظَنُّ ويعدُّ مستحيلاً تمثيله للناظرين ، يمتنع اليوم تمثيله لديهم حتى يخاله المشاهدون محسوساً .

بقي الوجه الثاني ، وهو الوجه المعنوي ، بل كل الغاية التي يرمي اليها فنّ التمثيل ، فان ختمت الرواية بظفر العاتي

واستعلآء الباطل ، ومكافأة الخائن وفوز الجاهل ، وربح الغاشّ وسلامة القاتل ، الى غير ذلك من الشؤون القبيحة ، انعكس المقصود الذي تتوخاه والمطلب المرجو حصوله من التمثيل ، وكانت نتيجة روايتك ، تجريء السامعين على الظلم والشر وسائر الكبائر ، لما هو معلوم ، من ميل الطباع في الغالب الى المنكر ، أو سرعة انطباع ذلك في الاذهان ، وما اصدق قول ابي الطيّب في هذا المعنى

والظلمُ من شيم النفوس فان تجد
ذا عفَّةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

ولتلافي ذلك ، يجدر بالشاعر أو الناثر ، ان يعمد لما تضمّنَ حكمةً وعبرةً وموعظة من السير والوقائع ، وان اعترضه في سرد الحكاية خطب من الخطوب التي جرت على عكس ما يُراد الاقتدآء به ، فلينبّه على ان هذا من الشذوذ ، ومما يجب التحذر من الوقوع فيه كقوله في التوراة عند ذكر فرعون : وقسّى الله قلب فرعون : او كما ورد قوله في القرآن عند ذكر فرعون ايضاً : ربَّنا اُطمسْ على اموالهم

واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرَوُا العذابَ الأليم : او كقوله : ولا تَحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عمَّا يَعمَلُ الظَّالِمُونَ إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمُ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَار : او كقول المتنبي في كافور :

ولما رأيتُ العبدَ للحرِّ مالكاً
أَبيتُ إباءَ الحُرِّ مسترزقاً حرًّا
ومصرُ لعمري ارضُ كُلِّ عجيبةٍ
ولا مِثلَ ذا المخصيّ أُعجوبةً بكرا

وكقولهِ ايضاً

قضآءٌ منَ اللهِ العليّ ارادَهُ ألا رُبما كانتْ إرادتُهُ شرًّا

وعلى المؤلف في هذا الفن ان يجتنب التطويل اذ قد يُغتفر ذلك للخطيب والمؤرخ والواصف في بعض المواطن ، وأما الممثِّل فعليهِ ان يكون متناهياً في البلاغة مع حسن البيان ، فان أفهام سامعيه متفاوتة ، والملل يسرع الى الكثير من الناس ، وقد شهدتُ لبعضهم روايةً ختمها بموت عزيزٍ على والديه ، قعدا عند قبره يؤبّنانه ويرثيانه ، وأطالا في ذلك

اطالةً اثارت الاحزان والشجون ، وافاضت دمع العيون ، ثم سئمت منها النفوس ، فظهرت امارات ذلك على وجوه الحضور من نعاسٍ وتمطّي ، وتثاؤبٍ وتلوّي ، وإعراضٍ وتشكّي ، فلا تحسبنَّ اثارةَ الحميَّـة في النفوس أو تحريك العواطف بالنـدب والعويل ، أو بالتحمّس الطويل ، فربَّ كلمة أغنت عن كلمات ، وبيت قام مقام ابيات ، والحاكم في ذلك كلّهِ الذوق الحسن جعلني الله واياك من أهلهِ ، بمنه وفضله.

الباب الثاني عشر : **الشعر التخيلي** . هذا بابٌ مُغلَقٌ في وجوه العامَّة من الشعرآء ، مقفَلٌ برموزٍ مفاتيحها في أيدي افرادٍ بلغوا العزَّة القعسآء ، فالشعر التخييلي ليس من الوصف ولا التشبيه ولا الاستعارة ، ولكن به شيءٌ من ذلك ، وتعريفهُ ، تجسيم التخيلات الفكرية ، والاوهام العقلية، وأنت تعلم انه متى أطلق المرء لفكرهِ العنان وحلهُ من قيود المشهودات التي حولهُ ، جرى في ميَدان ينطبق على قوة جنَانه ، ومدى نفَسه وبيانه ، ونسبة ذكائه وحُجاه ، وسرعة خطوات نُهاه ، ويطير في أفق ضيّقٍ أو فسيح ،

بحسب هُويّ قوادمه وخوافيه في الريح ، فمنَ النـاس مَن يسوم فكرهُ الجري فيتعثر ويسقط ، ويحوم طائره على الطفيف فلا ينقر ولا يلقط ، ومنهم من تسابق اجنحة خواطرهِ السانحَ والبارح ، وتحلّق في أعالي الفضآء فتصطاد الاعزلَ والرامح ، وهذا غرَضٌ بعيد وشأوٌ قصيٌّ ، لم يظفر به الاَّ بعض اكابر اصحاب القرائح العبقرية ولم يفتح بهِ عليهم الاَّ اتفاقاً كقول المتنبي

ولو لم يعلُ الاَّ ذو محلٍّ   تعالى الجيشُ وانحطَّ القتامُ

وكقوله ايضاً

وخصرٍ تثبتُ الابصارُ فيه   كأَن عليهِ من حدقٍ نطاقا

وكقولهِ

فاتيتَ من فوقِ الزمانِ وتحتهِ
متصلصلاً وامامهِ وورائهِ

وكقول ابن خفاجه الاندلسي

والليـلُ وضَّاحُ الجبيـ   نِ قصيرُ أذيالِ الثيابِ

وكقول الحاج ابي عامر بن عيشون

مرضتَ ومرَّضتَ الكلامَ تثاقلاً

اليَّ الى ان خلتُ أنَّكَ عائبُ

وكقول الآخر

قومٌ اذا غسلوا الغداةَ ثيابَهم

لبسوا البيوتَ الى فراغِ الغاسلِ

فاذا منحتَ هذا الكلام حقَّهُ من التمحيص ، وجدته تخيّلات وتصورات ، والفرق بينها وبين التشبيه ، انك تشبه شيئاً بشيءٍ قد عاينتَهُ أو وقع شيءٌ من مثله تحت حواسك ، والتخيّلات تتخيل لك ، ولم يسبق وقوع شيء مثلها تحت حواسك . فمَن مِنَ الناس عاين جيشاً لجِباً يمشي بين الارض والسماء ، أو خصراً متنطّقاً مِنطقةً من عيون الناس ، ومتى كان للزمن جهات ؟ ومتى كان الليل صورة لها جبين أو قواماً له ثياب ؟ وهل الكلام من الاجسام فيمرض ؟ وهل البيوت ثيابٌ فتلُبَس ؟ أما ان ذلك كله تخيلات ؟ ولكنها تتفاضل بتفاضل العقول . قال الشاعر

قرعتُ ظنابيبَ الهوى يومَ عاقلٍ

ويومَ اللوى حتى قشرتُ الهوى قشرا

فانظر تخيّلات هذا البدويّ اراد ان يقول انهُ عرف أسرار الغرام وذاق حلو الهوى ومرّه ، فجآء بهذا التخيّل الخشن البعيد ، فتصوَّر له الهوى كظنبوب بعيرهِ (أي عظم ساقه) وهو يضرب به بالعصا ليتنوَّخ ، الى ان قشر اللحم عن العظم . وهذا يدلُّك كما قدَّمتُ قبيل هذا على قلة حجاه وقصر نظره فلم يبعد عن بعيره ، وظنبوب البعير ، وفظاعة منظر قشر الجلد عن العظم ، واين هذه الاحوال الخشنة المكروهة ، من رقة الهوى ولطافة طباع أهله ، وشؤون العشاق والمحبين ، فهلاَّ قال كما قال البحتري

قد لبستُ الهوى وإنْ كان ضرًّا

وتحمَّلتُهُ وإنْ كانَ ثقلا

أو كما قال المتنبي

جرَّبتُ من نارِ الهوى ما تنطفي

نارُ الغضى وتكلُّ عمَّا يُحرقُ

أو كما قال الارجاني

وصحبتُ ايامَ الوصالِ قصيرةً

ولبستُ ريعانَ الشبابِ جديدا

أو كما قال ايضاً

بلَغ الهوى من سرِّ قلبي موضعاً

لا العـذلُ يبلغهُ ولا التفنيدُ

او كما قال في هذا المعنى كثيرون غير هؤلآء الشعرآء ذوي الذوق السليم ، والتخيلات السامية ، ممن يُطلق جواد فكره في اطراف البرّ الشاسع ، والبحر الخِضمّ الواسع ، فان لم يرَ بهِ ما يرضيه أفلتَ عقابَ خواطره في اعالي الجوّ الفسيح يسيح ، حتى يقنص المعنى البديع والتخيُّل المليح ، وذو النظر القصير لا يستطيع ان يرى الاَّ ما قرب منـه ، ويعجز فكره عن السفر البعيد فلا يرى بعين مخيلَّته الاَّ ما وقع تحت نظره .

وانت اذا اعطيت هذا التعليل حقَّهُ من التدبُّر، كشف لك النقاب عن طبقات التخيلات من أسماها الى ادناها

وبصَّرك بطبقة الشاعر المنقود كلامه في هذا الباب وفوق كل ذي علمٍ عليم

الفصل الخامس

في

الموازنة

قد علمتَ ما ذكرته لك في الفصل الثالث من القسم الثاني انني لم اذكر الشعر بحسب الترتيب والتبويب الذي مرَّ بك الاَّ لأنني لم أجد مَن سبقني اليه ، واعلم انّني قد أكون مخطئاً في تقديم بعض الابواب على غيرها من التي ذكرتها ، فعلى مَن يكتب بعدي من الأئمة في هذا الفن ، أن يصلح ويسدَّ خللي فان الله يجزي المصلحين .

ثم انني اهملتُ بعض الابواب التي ذكرها صاحب الحماسة لاعتباري ايَّاها احد امرين : وذلك اما انها داخلة في باب من الابواب التي رتَّبتها ، واما لانها ضيّقة لا تستحق ان يُبنى لها بابٌ مخصوص في هذا الفن .

موازنة الحماسة

قال سعد بن مالك

والحربُ لا يبقى لجا　محها التخيُّل والمِراحُ
الاَّ الفتى الصبَّارُ في الـ　ـنجدات والفرسُ الوقاحُ
والنثرةُ الحصداءُ والـ　ـبيضُ المُكلَّلُ والرماحُ
والكرُّ بعدَ الفرِّ اذ　كُرِهَ التقدُّمُ والنطاحُ
كشفتْ لهم عن ساقها　وبدا من الشرِّ الصُّراحُ

وقال ابو فِراس الحمداني

ولمّا سارَ سيفُ الدينِ سرنا　كما هيّجتَ آساداً غِضابا
أسنّتُه اذا لاقى طعاناً　صوارمهُ اذا لاقى ضِرابا
دعانا والأسنّةُ مُشرَعاتٍ　فكنّا عند دعوتهِ الجوابا

وقال المتنبي

وقد علمَ الرومُ الشقيُّون أننا
اذا ما تركنا ارضهم خلفنا عدنا
وانَّا اذا ما الموتُ صرَّحَ في الوغى
لبسنا الى حاجاتنا الضربَ والطعنا

قصدنا لهُ قصدَ الحبيبِ لقاؤهُ
اليناَ وقلنا للسيوفِ هلمُّنّا
وخيلٍ حشوناها الأسنَّة بعد ما
تكدَّسنَ من هنَّا علينا ومن هنَّا

فاذا نظر الناقد نظراً صادقاً في شواهد الحماسة المذكورة ، وكان ممن يذوق الفصاحة الشعرية ، بدا له الفرقُ بين هوءلآء الشعرآء الثلاثة من هذا الوجه لأَدنى تأمل ، فرأى في شعر سعد بن مالك الفروسة البدويَّة مصوَّرةً في كل بيت بل في كل كلمة ، حتى يريك الفارس العربي يمرح متخايلاً على ظهر حصانه ابَّان السلم ، وبينا هو يعجب بجمال تكوينه ، اذ تفاجئُ سمعه اصوات نساء الحي وقد باغتتهم قبيلةٌ معادية فيفرُّ مسرعاً للنجدة وقد انقلبت سحنة حصانه ففتح منخريه ونصب أذنيه كأن الحيوان ادرك ما ورآء ذيَّاك الصراخ من الويل والحرب ، وكأنك بفارسه وقد نخَسهُ برجليه في بطنه فانطلق يعدو انطلاق الريح حتى وافى القوم والرمح يهتزّ بيمينه وهو يكرُّ بعد الفرّ ، ويطعن هذا ، ويدفع ذاك

في موقف لا أرخص فيه من النفوس وقد ظهر به غدرُ العدوّ وانكشف حقده ولم يبقَ فيـه لدفع العدآء وردّ الشر ، الاّ الشجاعة والصبر .

واذا وازنتَ بين هذه الصورة وبين تصوير أبي فراس رأيتَ الفرق بين حالةٍ وحالة فذاك يصوّر حال قوم كلّ منهم امير نفسه ، وهم العرب في أبعد حالات البداوة ، وهذا يصور قوماً أدنى الى الحضارة متجهزين للحرب والجلاد ، خاضعين لأميرٍ يرأسهم ويتولى قيادتهم بنفسه وهم يتقلدون السيوف . ويعتقلون الرماح ولا يبرحون طوع أمره . ومعما على الابيـات المذكورة من رونق الفصاحة الحمدانية العالية وحماسة الامير الحمداني الطبيعية المشهورة ، فان بريق المدح او التمليق ، والاقرار بالخضوع والطاعة لسيف الدولة ، ظاهر في كل كلمة من الابيات .

أما ابيات المتنبي فان روآء الصنعة ظاهر على وجه كل لفظةٍ من ألفاظه ، وهو وان كنتُ ممن لا يرتاب في شجاعته ، ولي على ذلك اكثر من حجة ليس هذا محلها ، فاني أراه بهذه

الابيات يصوّر وقعـةً مع الروم وهو يكره ويخشى تكرار وقوعها ، فيحبّب الى نفسه والابطال الذين معه ، الشجاعة والثبات وهو يتهدَّد الروم مرعداً مبرقاً كأنه يرى التهديد من عدَّة الكفاح فيقول لهم لا تحسبوا هربنا منكم وبعدنا عن بلادكم خوفاً من بأسكم او خشيةً من بطشكم، فاننا قوم لا نهاب المنايا وصنعتنا الضرب والطعن وركوب الخيل وهي اذا حان الوقت حشوناها أسنَّةً ونبالاً ولاقيناكم بها خفافاً عجالاً (ولكن نحمد الله الآن على انكم كفيتمونا شرَّكم)

فيتبين للناقد البصير بعد الموازنة بين شعر الثلاثة المتقدمين في المعنى المذكور ان ابيات سعد بن مالك أجمع للوصف والسذاجة البدوية ، وابيات ابي فِراس أقرب الى انس الفصاحة العصرية الحاضرة وفيها شيء من التمليق ، وابيات المتنبي دونها في الفصاحة والسلاسة بادية عليها كلفة الصناعة ، مع ما تحتها من التشاجع والله اعلم .

الفصل السادس

في

موازنة الحكم

قال يزيد بن الحَكَم الثقفيّ

يا بدرُ والامثالُ يضـ ـربُها لذي اللبّ الحكيمُ
دم للخليل بودهِ ما خيرُ ودٍّ لا يدومُ
واعرفْ لجارك حقَّهُ والحقُّ يعرفُهُ الكريمُ
واعلمْ بأنَّ الضيفَ يو مًا سوفَ يحمدُ أو يلومُ
والناسُ مبتنيانِ محـ مودُ البنايةِ أو ذميمُ
واعلمْ بُنيَّ فانّهُ بالعلمِ ينتفعُ العليمُ
انَّ الامورَ دقيقُها مما يهيجُ لهُ العظيمُ
والنبلُ مثلَ الدَّينِ تقـ ضاهُ وقد يُلوى الغريمُ
والبغيُ يصرع اهلهُ والظلمُ مرتعهُ وخيمُ
ولقد يكونُ لكَ البعيـ ـد أخاً ويقطعُكَ الحميمُ

وقال المتنبي.

ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلا أرى
يققاً يميتُ ولا سواداً يعصمُ
والهمُّ يخترمُ النحيفَ جسامةً
ويشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِمُ
ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلهِ
واخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ
والناسُ قد نبذوا الحِفاظَ فمُطلَقٌ
يَنسى الذي يولَى وعافٍ يندمُ
لا يخدعنَّكَ من عدوٍّ دمعهُ
وارحمْ شبابَكَ من عدوٍّ ترحمُ
لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الاذى
حتى يُراقَ على جوانبهِ الدمُ
يؤذى القليلُ من اللئامِ بطبعهِ
من لا يقلُّ كما يقِلُّ ويلؤُمُ

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فان تجد
ذا عفّـةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ
ومن البليَّةِ عذلُ مَن لا يرعوي
عن جهلهِ وخطابُ مَن لا يفهمُ
والذلُّ يُظهرُ في الذليلِ مودةً
وأودُّ منهُ لمن يودُّ الارقمُ
ومنَ العداوةِ ما ينالُكَ نفعهُ
ومنَ الصداقةِ مايضرُّ ويؤلمُ
افعالُ مَن تَلِدُ الكرامُ كريمةٌ
وفعالُ من تلدُ الاعاجمُ أعجمُ

وقال شاعر القرن التاسع عشر الشيخ ناصيف اليازجي

يصيبُ كنوزَ مالٍ كلُّ فدمٍ بقيمةِ بعضِ فلسٍ لايقومُ
فلو يُعطى من الارزاقِ كلٌّ على مقداره انتصفَ الحكيمُ
ولم يعتبْ على الأيامِ شخصٌ يرى عدلَ القضآءِ فلا يلومُ
وبينَ الناسِ ذومالٍ بخيلٌ بفضلتهِ وصعلوكٌ كريمُ
وانَّ تكرُّمَ الفقرآءِ عندي كبخلِ ذوي الغنى عيبٌ ذميمُ

وبعضٌ يدّعي ما ليسَ فيهِ　وبعضٌ يشتري ما لا يسومُ
وفي الشعراءِ مَن في كلّ وادٍ　اذا هَدَرتْ شقاشقهُ يهيمُ
وبعضُ الشعرِ في أذنٍ كلامٌ　يطيبُ وبعضُه فيها كلومُ

فاذا وازنت بين كلام هؤلاء الشعراء، اتضح لك صدق ماذكرتهُ لك في باب الحكم من ان اكثرها امثال ينظمها الشاعر، أو حِكَمٌ يسبكها شعراً، فهذا يزيد الثقفي جهر بذلك من من أول بيت قصيدته، ثم اذا انعمت النظرِ في قولهِ، تبين لك انه بدويٌّ يعظُ ولداً لهُ أو قوماً هو كبيرهم، فيوصي أولاً بالخليل اذ البدويّ أول ما يحتاجُ اليه صديق يدافع عنه في وقت الشدة ويثأرهُ اذا حلّت النكبة، ولا تغنيهِ عنهُ كثرة الرزق، لما هو معلوم من أحوال البادية، ثم انهُ يوصي بالجار، وأنت تعلم ان الحضر المستبحرين في العمران لا يعرفون شيئاً من حقوق الجار، بل قد يجاور المرء منهم جارهُ سنين عديدة ولا يعلم من أيّ قوم هو ولا من أيّ أمة من الناس، اذ لا غارات في المدن، والحكومات تتكفل بتأمين كل فردٍ من النازلين بها وحراستهم ليل نهار. ثم يوصي بالضيف لأن

المسافر في البوادي اذا سقط على قومٍ ولم يضفهُ أحدمنهم ، هلك جوعاً أو عطشاً ، أما الحضر فان لم يضفهُ أحدٌ نزل على خان او فندقٍ ، بل الضيافة عند الامم المتمدنة قد أصبحت لهذا العهد اسماً لغداءٍ أو عشاءٍ يصنعه المرءُ للضيف أو للصديق الغريب ، وقس على هذا سائر ما ذكرهُ يزيد في شعرهِ من النصائح .

واذا قلَّبتَ الطرفَ في كلام المتنبي رأيتهُ كلام رجل في بيئة غير [1] بِيئة يزيد الثقفي ، فهو ينظر الى مَن حولَهُ

(١) لعل هذا اللفظ أحق من غيره بالتعبير عن معرب لفظ *Milieu* اذ المراد به عند الافرنج ليس وسط الشيء كما ظنه جمهور من المعربين عندنا واستعملوا له هذا اللفظ ، بل مرادهم بذلك : ما يحيط بالشيء او بالانسان من مكان وسكان : وبعبارة أخرى ، المكان الذي يعيش فيه الانسان او الحيوان وكل ما في المكان من الهوآء والمآء والسكان وسائر المؤثرات الخارجية ، ولما لم يكن عندنا لفظ يحيط بهذا المعنى ، أفضل من لفظ « بيئة » فيجدر استعمالها واطلاقها على هذا المعنى قال في القاموس : البيئة بالكسر المكان حله وأقام به . . . والبيئة بالكسر الحالة : فقد رأيت كيف ان هذا اللفظ يشمل المكان وكل ما فيه اذهو يعني « الحالة » أيضاً ، قال علامة العصر صاحب مجلة الضيآء في السنة السادسة صفحة ٦٤ (ان النوع كلما ارتقى كانت بيئته أضيق) وقال أيضاً (ويبقى محصوراً في البيئة التي توافقه) وقال في صفحة ٣٥ (أما موضع نشأة الانسان الاولى فلا ريب انه وجد في اكثر البيئات ملآئمة لمزاجه وأفضلها ضمانة لبقائه وتعاقبه والله أعلم .

من الناس ، بعين الحَذِر من صداقتهم ، المرتاب في اخلاصهم ، المعتقد بمكرهم وخداعهم ، بل يراهم عدواً يوصي بمحاربته ، وان لا يُغتَرَ بملاينته ، ويرى قتل العدو كمال الفطنة ، بل لا يسلم الشرف — أي شرفك الذي امتهنَهُ عدوك — من الاحتقار ولا يُطهّر من العار الا بدمهِ اي بقتله ، وهو كما ترى ، كلام رجلٍ أساءت اليه الايام ، وأغضبته صحبة الناس فأوسعها ذماً ، وجرعهم من سخطهِ سُماً . وهو عكس رأي كثير من الفلاسفة قال ابن خلدون الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر باصل فطرتهِ وقوتهِ الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءهُ من قِبَل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله أقرب .

واذا تبصَّرت في كلام الشيخ ناصيف ظهر لك انهُ كلام مَن كان في غير تينك البِئتين ، فهو لا ينصَح ولا يوصي بل يصوّر حالة زمنه ، كأَن النصح والوصية ليس لهما تأثير في البِيئة التي كان بها ، وكأنهُ يتعجب من أحكام القضاء لما يُرى من غنى كثيرٍ من اللئام ، وفقر جمهور الحكماء والكرام ،

وادّعآء الجهلآء ، وتعرض أهل الفضول لما لا يعنيهم ، فليس في كلامه شيءٌ يشير الى محاربة الاعدآء ومناصبة اهل الظلم ، والحكم على أهل الارض طُراً بانطباعهم على الشرّ والفساد ، وهو كلامٌ بعيدٌ عن الاهوآء ، خليّ من المطامع والاغراض .

فيُستفَادُ من هذه الموازنة ان كلام يزيد الثقفيّ ينبئك عن طفولية قومه وحال بداوتهم ، وضيق الحلقة التي كان ينظر اليها ، وقرب الغرض الذي كان يرمي اليه ، فلم يكن في آداب بيئَتهِ ادبٌ فوق اكرام الضيف ، ورعاية حقوق الجار ، وحفظ عهود الصداقة ، والضنّ بالخليل ، فأتى على جميع ذلك بوصيته لبنيه او لقومه ، ولم يذكر شقاوةً ولا همّاً ولا خداعاً ولا ظلماً وهو يحذّرُ من العداوة ، ويحرض على الصداقة ، وعلى الجملة فان شعرهُ وان كان آخذاً بين طرفي البلاغة والفصاحة ، فليس فيه ما يهيج في النفس سروراً او نشاطاً ، او يحبب اليك لو أطال .

وأما كلام المتنبي فيدلّنا على ان البيِئة التي كان فيها قد

انتشرت المساوئ فيها ، وكثر الظلم والغدر والخيانة ، بل كأن الفوضى قد طنبت بها حتى جعلته ان يوصي بقتل العدو كأن لا حاكم هناك ولا رادع ، ويحذّر من الشفقة عليه ورحمته ، فلا ذكر في كلامه هذا للخليل ، ولا للجار ، ولا للضيف ، بل كأنه كان يرى هذه الاسماء في بيئته غريبةً عن لغة أولئك القوم ، بعيدة عن اخلاقهم ، وعلى الجملة فمما في شعرهِ من قساوة القلب ، وما عليه من مسحة التشاؤم ، فان فيه من موسيقى الشعر ، اي جمال تركيب اللفظ ، وبراعة نسجه ، وحسن رنته في الاذن ، وبلاغته وفصاحته ، ما يستوقف الانظار ويسترعي الاسماع ، وخلاصة القول ان مجموعه البديع يحبب اليك ان تقول عند استماعه ، زدني من هذه اللآلي والمثاني ، وأعد على سمعي هذه الاغاني ، فهو السابق المجلّي في هذه الموازنة .

وأما كلام الشيخ ناصيف فيدلّ على ان صولة المال ودولتَه ، كانت في بيئته فوق كل شيء كما هي لعهدنا هذا ، فتراهُ قد كرر من ذكر المال ، والكنوز ، والارزاق ، والغنى

وأشار الى خلط بعض شعرآء عصرهِ وهذرهم ، واسراف بعض الفقرآء وبخل كثير من الاغنيآء ، ولم يتعرض في شيء من كلامهِ لاحوال الحكومة في بيئته ، فلم يذكر عدلاً ولا ظلماً ، وحاصل القول ان شعرَهُ وان كان من النفاسة بمكان ، فهو الثالث في هذه الموازنة . وزِنوا بالقِسطَاسِ المستقيم .

الفصل السابع
في
موازنة العتاب

قال معن بن أوس من شعرآء الحماسة

لعمركَ ما أدري واني لأَوجَلُ
على أيّنا تعدو المنيّةُ أولُ
وانّي أخوكَ الدائمُ العهدِ لم أخُنْ
انِ ابزاكَ خصمٌ أو نبا بكَ منزلِ

أحاربُ مَن حاربتَ من ذي عداوةٍ
واحبسُ مالي ان غُرِمتَ فاعقِلُ
وان سؤتني يوماً صفحتُ الى غدٍ
ليعقبَ يوماً منكَ آخرَ مقبلُ
كأنّك تشفي منكَ داءَ مساءتي
وسُخطي وما في ريبتي ما تعجّلُ
واني على أشيآء منك تُريبني
قديماً لذو صفحٍ على ذاكَ مجملُ
ستقطعُ في الدنيا اذا ما قطعتني
يمينكَ فانظرْ أيَّ كفٍّ تبَدَّلُ
وفي الناسِ ان رثّتْ حبالُكَ واصلٌ
وفي الارض عن دارِ القلى متَحوَّلُ
اذا أنتَ لم تنصف أخاكَ وجدتَهُ
على طرفِ الهجرانِ انْ كانَ يعقِلُ

وقال البحتريّ يعاتب ابرهيم بن الحسن بن سهل

أَبراهيمُ دعوةَ مستعيدِ لرأيٍ منكَ محمودٍ فقيدِ

تجلَّى بشرُكَ الأمسيُّ عني ... تجلّي جانبَ الظلِّ المديدِ
وفي عينيكَ ترجمةٌ أراها ... تدلُّ على الضغائنِ والحقودِ
واخلاقٍ عهدتُ اللينَ منها ... غدتْ وكأنها زُبَرُ الحديدِ
وأظلمَ بيننا ما كانَ أضوا ... على اللحظاتِ من فلقِ العمودِ
أميلُ اليك عن ودٍّ قريبٍ ... فتبعدني على النسبِ البعيدِ
فما ذنبي بأنْ كان ابنُ عمي ... سواكَ وكان عودُكَ غيرَ عودي
فلم تكُ نيتي عنكَ اختياراً ... وكان اللهُ أولى بالعبيدِ
ويصنعُ في معاندتي لقومٍ ... وبعضُ الصنع من سببٍ بعيدِ
أما استحييتَ من مِدحٍ سوارٍ ... بوصفك في التهائمِ والنجودِ
تودُّ بأنها لك فيَّ عجباً ... بجوهرِها المفصَّلِ في النشيدِ
بنتْ لك معقلاً في الشعرِ ثبتاً ... وأبقتْ منك ذكراً في القصيدِ
وتبدهني اذا ما الكأسُ دارتْ ... بنزقاتٍ تجيءُ مع البريدِ
عرابدُ يُطرقُ الجلساءُ منها ... عليَّ كأنها حطبُ الوقودِ
ومعترضينَ إنْ عظَّمتَ أمراً ... بهم شهدوا عليَّ وهمْ شهودي
وما لي قوَّةٌ تنهاكَ عني ... ولا آوِي الى رُكنٍ شديدِ

سوى شعَلٍ يخافُ الحرُّ منها ... لهيباً غيرَ مرجوِّ الخمودِ
ولو أني أشاءُ وأنتَ تربي ... عليَّ لثرتُ ثورةَ مستقيدِ
ظلمتَ أخاً لو التمسَ انتصاراً ... غزاكَ من القوافي في جنودِ
وقد عاقدتني بخلافِ هذا ... وقالَ اللهُ أوفوا بالعهودِ
أتوبُ اليكَ من ثقةٍ بخلٍّ ... طريفٍ في الأُخوَّةِ او تليدِ
وأشكرُ نعمةً لكَ باطلاعي ... على أنَّ الوفاءَ اليومَ مودِ
سأرحلُ عاتباً ويكونُ عتبي ... على غيرِ التهدُّدِ والوعيدِ
سلامٌ كلما قيلتْ سلامٌ ... على سعدِ العفاةِ أبي سعيدِ
فتًى جعلَ التعصُّبَ للمعالي ... ووجهَ ودَّهُ نحوَ الودودِ
وخلَّدَ مجدهُ بين القوافي ... وبعضُ الشعرِ أملى بالخلودِ
وكيفَ يكونُ ذاكَ وكلَّ يومٍ ... يقابلُني بمعروفٍ جديدِ

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة ملك حلب

يا أعدلَ الناسِ الاّ في معاملتي
فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً
أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمهُ ورَمُ

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرهِ
اذا استوتْ عندهُ الانوارُ والظُّلمُ
سيعلمُ الجمعُ ممّن ضمَّ مجلسُنا
بأنَّني خيرُ مَن تسعى بهِ قدمُ

. . . .

يا من يعزُّ علينا أن نُفارقَهم
وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكم عدَمُ
ما كان أَخلقَنا منكم بتَكرِمةٍ
لو أَنَّ أمرَكمُ من أمرِنا أَمَمُ
انْ كان سَرَّكمُ ما قالَ حاسدُنا
فما لجرحٍ اذا أرضاكمُ أَلَمُ
وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفةٌ
انَّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِمَمُ
كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزُكم
ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرمُ

. . . .

شرُّ البـلادِ مكانٌ لا صديقَ بهِ
وشرُّ ما يكسِبُ الانسانُ ما يصِمُ
وشرُّ ما قنصتـهُ راحتي قَنَصٌ
شُهبُ البُزاةِ سوآءٌ فيـهِ والرَخَمُ
بأيِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعنفَـةٌ
تجوزُ عِنـدكَ لا عُربٌ ولا عجمُ
هـذا عِتابُكَ الاَّ انَّهُ مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدُّرَ الاَّ انَّهُ كلِمُ

وقال الامير أبو فِرَاس الحمـداني يعاتب ابن عمه سيف الدوله

أسيفَ الهدى وقريعَ العربْ
الى مَ الجفآءُ وفي مَ الغضب
وما بالُ كتبِكَ قد أُصبَحت
تُبـكِّيني مع هـذي النكبْ
وما غضَّ منّيَ هـذا الاسارُ
ولـكن خلصتُ خلوصَ الذهبْ

ففـــــــيمَ يُقرّفُني بالخمولِ
أميرٌ بهِ نلتُ أعلا الرُّتبْ
وكان عتيداً لديَّ الجوابُ
ولكن لهيبتهِ لم أجبْ
أتنكرُ اني شكوتُ الزمانَ
واني عتبتُكَ فيمن عتبْ
فالآنَ رجعتَ فاعتبتَني
وصيرتَ قوليَ لي والقلبْ
فلا تنسبنّ اليَّ الخمولَ
عليك أقمتُ فلم اغترِبْ
وأصبحتُ منكَ فانْ كان فضلٌ
وانْ كان نقصٌ فأنتَ السببْ
ألستُ وإياكَ من اسرة
وبيني وبينكَ هذا النسبْ
ودادٌ تناسبُ فيهِ الكرامُ
وتربية ومحلٌ أَسِبْ

ونفسٌ تـكبَّرُ الاّ عليكَ

وترغبُ إلاّكَ عمنْ رغبْ

فـلا تعـدلنَّ فداكَ ابنُ عم

كَ لا بل غلامُك عما يجبْ

وأنصِفْ فتاكَ فانصافُهُ

من الفضلِ والشرفِ المكتسبْ

لـكُنْتُ الحبيبَ وكنتُ القريب

ليالي أدعوكَ من عن كثبْ

فلمّا بَعـدتُ بدتْ جفوةٌ

ولاحَ من الامرِ ما لا أحبْ

فلو لم أكنْ بك ذا خـبرةٍ

لقُلتُ صديقُك مَن لم يغبْ

وقال ابن خفاجة الاندلسي يعاتب الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان

خُذْها يرنُّ بها الجوادُ صهيلا

وتسيلُ ماءً في الحسامِ صقيلا

بسَّامةٌ تَسبي الحليمَ وسامةً
لولا المشيبُ لسمتُها تقبيلا
حمَّلتُها شوقاً اليكَ عشيةً
حمَّلتُها عتباً عليك ثقيلا
من كلّ بيتٍ لو تدفَّقَ طبعهُ
ماءً لغَصَّ به الفضاءَ مسيلا
إيهٍ وما بينَ الجوانحِ غُلَّةٌ
لو كنتُ أنقعُ بالعتابِ غليلا
ما للصديقِ وُقيتَ تأكلُ لحمَهُ
حيًّا وتجعلُ عِرضَهُ منديلا
أقبلتَهُ صدرَ الحسامِ وطالما
أضفيتَهُ درعاً عليهِ طويلا
ماذا ثناكَ عن الثناءِ ونشرهِ
بُرداً على الرسمِ الجميلِ جميلا
أَرِجاً كما عثرَ النسيمُ بروضةٍ
رطْباً كما نضحَ الغمامُ مقيلا

أَعِدِ ٱلتفاتك واذكُرَنْها خُلّةً
لا تستقلُّ بهِ علاك مميلا
وأَصِخْ الى سجع القريضِ فربَّما
ندبَ القريضُ من الوفاء هديلا
وعُجِ المطيَّ على الودادِ وحيِّهِ
طَلَلاً على حكمِ الزمانِ محيلا
وابعَثْ بطيفك واعتقِدْها زورةً
وصِلِ ٱلسلامَ على النَّوى تعليلا
ولئن سألتُ بك الغمامةَ وابلاً
يَسِمُ الجديبَ لما سألتُ بخيلا
واذا دعبتَ ولا دعابةَ غيبَـةٍ
فاغضُضْ هناك من العنانِ قليلا
واصحبْ وذكرك من هجيرٍ لافحٍ
ذكراً كما سرَتِ القبولُ بليلا
فلقد حللتَ مع الشبابِ بمنزلٍ
يرتدُّ طرفُ النجمِ عنهُ كليلا

وبدهتَ لا نَزْرَ المحاسنِ مجبلاً
ومضيتَ لا قَصْمَ الغِرارِ فليلا
متدفّقاً أعي العقولَ طريقةً
فكأنما ركبَ المجرَّ سبيلا
يستوقفُ العليا جلالاً كلما
سجدَ اليراعُ بكفّهِ تقبيلا
لا تستنيرُ بك السيادةُ غُرَّةً
حتى يسيلَ بكَ الندى تحجيلا
وسوايَ يُنشدُ في سواكَ ندامةً
يا ليتني لم أَتَّخِذْكَ خليلا

فاذا نقدت القصائد المتقدمة نقد بصير ، ووازنت بينها موازنة ناقد خبير ، ظهر لك من تحت شعر معن بن أوس ، البدويّ العربي بكامل صفاته ، فهو الصديق الصافي النيّة ، الطاهر القلب ، الساذج العيش ، الذي يرى ان يكون وصديقهُ في حالةٍ واحدة ، فيدعوهُ أخي ويقول لهُ ببساطة انني لن أخونك ان قهرْك خصمٌ ، أو أضقت أو رحلت

عن عشيرتك ، فحارب أهل عداوتك ، وان غُرمت دفعت عنك غرامتك ، وان اسأت اليَّ يوماً صفحت عن اساءتك ، عالماً ان صفحي سيعقب لي منك جميلاً ، فأنت وفيٌّ شجاع ، فاذا ما نابتني نائبةٌ كنت عوني وساعدي في دفع الشدة ، وان كنت قد ارتبت مني بشيءٍ ، فلا تعجل بذلك ، فليس ما توهمتهُ بصحيح ، لانك ان قطعتني تكن كمن قطع يده وليس لهُ منها عوض ، ولا تدفعني بظلمك وعنادك ، الى ما لا أحب من هجرانك ، فالعاقل يرمي بنفسهِ الى القتـل ، ولا يركب مطيَّة العار أو الذل .

وما بعد هذا البيان من حاجة لايضاح صفات هـذا القائل ، فلو قرأ قارئٌ هذه الابيات وزعم انها لاحد معاصريك من أهـل الحضارة من شعرآء الاقليم الشامي أو القطر المصري ، لدفعت زعمهُ ذاك بقوة النقد ، وحجتهِ التي لا ترد ، فليس الشأن لعهدنا ان يحارب الانسان عدوَّهُ تلك الحرب الحرَّة ، بل حربنا اليوم حرب المكر والخداع والغدر ، ثم من الذي يعاهده صديقه على معاداة من عادى ؟ وان فُرض

المحال فمتى يبرُّ بعهده ؟ ثم مَن الكريم الذي يقول لخليله ان مالي وقف عليك ، محبوس لوفآء ديونك ، بل نحن في عصر وبلاد نرى بها فاقة الصديق أو اعساره ، حجةً قويمةً وسنّةً متَّبعةً ، للبعد عنه وتجنبه ، ان لم أقل لمعاداته . ومن الصديق الوفيّ الطاهر النيّة السليم الطوية ، يرى جفآء صديقه ، فيخاطبه بهذا الكلام البالغ غاية الود والحلم والاخلاص ؟ بل ما أجدر المنصف منا ان يقابل الجفآء بالصد فيقول **السن بالسن ، والعين بالعين** ان لم يكِل لهُ الصاع صاعين ، ومن الذي يجزي الاسآءة بالجميل واثقاً بوفآء الاحسان ؟ ونحن في عصر يليق بنا ان نقول فيهِ

وصرنا نرى انّ المتاركَ مُحسنٌ وأن خليلاً لا يضيمُ خليلُ

فاذا انعمت النظر بما ذكرته فقط ، ثمَّ تأملت بما يتدفق في ألفاظ هذه الابيات من مآء الفصاحة العربية ، والسلاسة البدوية ، مترقرقاً صافياً لا يشوبه كدر التصنع ولا يتكسر على جلاميد التقعر ، حكمت حكماً صادقاً انه كلام عربيّ بدويّ بحت ، لم يجر على لسانه ، غيرُ وحي جنانه

واذا نظرت في عتاب البحتري ، وجـدت بينه وبين الهجو حداً ضئيلاً يكاد لا يُحَدّ ، وخيطاً ضعيفاً يوشك من ثقل العتب ان ينقدّ ، فهو يقول لممدوحهِ أو معاتَبهِ اني أرى في عينيك ترجمة الضغائن ، والحقد الـكامن ، وقد بدهتني بنزقاتٍ كانت عليّ كحطب الوقود ، وقذفتني بعربدةٍ خجل منها الجلسآء وشمت بي الشهود ، ولم تستحِ من مدحي ولا تذكرتَ ما كان منك من العقود ، وظلمتني وما لي قوةٌ تنهاك ولست آوي الى رُكن شديد ، ولو اني أريد لثرت ثورة مستقيد ، ولغزوتك من القوافي بجند عديد ، الا انه ختم هذا العتاب بل اللوم والتعنيف، بكلام هو كل التهديد ، وادّعى انه سيرحل عاتباً وما في رحيلهِ شيء من الوعيد ، ثم رأى ان يختم القصيدة بالسلام وشيء من المدح ، خشيةً من بطش المعاتَب أو طمعاً بنوالهِ ، فقال لهُ لئن جعلتني اخلد مجدك في شعري ، فقد عودتني ان لا تقابلني الا بالمعروف وكأنه يعتذر الى نفسه والسامعين بعوده الى مدحه .

وهذه القصيدة كما ترى ليست من العتاب في شيء

وان كان قد كرَّر بها لفظ العتاب ، بل هي غيظ وتسخّط وتهديد ووعيد ، وكأنهُ نظمها حال خروجه من عند المعاتَب وهو مقمورٌ مخمور .

واذا انتقدت قصيدة المتنبي وجدت في خلال عتبه من العُجب والتقريع ، ما لا يليق صدورهُ في مجلس ملكٍ بل في عتاب ملك ، فهو طوراً يقول له أعيذ نظرك الصادق ان يرى الورم فيحسبه شحماً ، وطوراً يقول ماذا ينفع الناظر اذا لم يميّز بين الظلمة والنور ، وحيناً يقول سيعلم هذا الجمع وسوف تعلمون ، انني خير الناس وأولاهم بتكرمتكم لو انكم تنصفون ، وكم تطلبون لنا عيباً فتعجزون، ويكره الله ومكارم الاخلاق ما تأتون ، ثم يقول في مخاطبة نفسه ، لا تأسف لرحيلك عن هؤلاء القوم فانهم في الحقيقة هم الراحلون ، فان شرّ البلاد بلاد كهذه لا صديق بها ولا حبيب ، وشر مكاسب الانسان مكسبٌ يشين ويعيب ، وما مزيتي عندكم وقد ساويتموني ، بصعاليك هم في كل شيء دوني ، ثم يختم فيقول وهذا الذي ذكرته لك أو ذكَّرتُكَ به عتابٌ

حشوهُ حُبٌّ وبرّ ، وكلامٌ قد ضُمنَ الدُّرّ .

وهذه القصيدة نسجَ المتنبي برودها بعد ان تمكنت منزلتهُ عند سيف الدولة واُعجِب بنظمه في غيبته وحضوره ، وسارت مدائحه فيهِ مغربةً مشرقة ، وكثر حاسدوه عند سيف الدولة ومزاحموه على مرتبته ، ورأى نفسه فوقهم في العقل والفضل والمنزلة والقريحة ، فصغروا في عينه حتى بات يعدُّ مدحه سيف الدولة تشريفاً لممدوحه المشار اليهِ ، فكان يصور نفسه وحسّاده والممدوح على النحو الذي ذكرته ، وينظم البيت بعد البيت ، حتى جاءت القصيدة على ما ترى من الشدة في العتاب بل التقريع والتفاخر ، ولو لم يضمّنها بعض أبيات تحبيب ومجاملة ، لكانت بأن تسمّى تعنيفاً وفخراً أولى ، وقد فهمها سامعوها منذ ما أنشدها على الوجه الذي ذكرته لك ، ولها قصّة مشهورة فلتراجَع في العرَف الطيب.

واذا انتقدت قصيدة أبي فِراس ، وجدتها عتاباً ممزوجةٌ شدّتهُ باللين ، وفخراً لا يغضّ من قدر المعاتَب بل يزين ، وعلى ديباجتها شيء من انكسار الاسر ، وغضون القهر ، وفي

جملتها استعطاف وتذكير ، واتّضاع الصغير للكبير .

وهذه القصيدة كما تراها تكاد تسيل رقّة وانسجاماً ، ولا يشوبها شيء من التعمّل والتصنّع .

واذا انتقدت عتاب ابن خفاجة حق النقد ، وجدت فيه شيئاً من المداهنة وشدة التقريع ، وقد مُزجت بلطف الالفاظ ، ورقة الكلام ، ورشاقة التعبير ، الى غير ذلك من أحوال عصره وبيئتهِ التي تحاكي أحوالنا لهذا العهد .

فهو يسأل صديقه عما دعاهُ الى أن يفتري عليهِ ويغتابهُ ، ويجعله مضغةً في أفواه الناس ، ويعرضهُ لاحتقار الشامتين ، بعد ان كان يثني عليهِ الثناء الطويل . ثم يناشدهُ لكي يراجع بهِ حسن الظن ، ويذكر ماضي الودّ وان كان قد تقادم عهده ، وتنوسي أمزه ، حتى أمسى كالطلل البالي ، وهو يقول لهُ وان كنت مغضباً أو حاقداً فابعث الينا بكتاب على البعد ، أو بسلامٍ يُعلّلُ برضاك ، وان كان ولا بدَّ لك من التسلّي بذكري في ساعات لهوك ومزاحك ، أو مداعبتي ، فلا تغتَب وتدعو الغيبة مداعبة ، بل فأغمد من عضب لسانك مصقولا ،

وامسك من عنان قلمك ولو قليلا ، فلقد سحرتَ الالباب ببيانك ، ثم يختم فيقول ولو كنت كغيري من هؤلآء الناس جاهلاً أخلاق البشر ، غير عليم بخيانة الخلان ، وقلة الوفآء ، وكثرة الغدر ، لقلت يا ليتني لم أتخذك خليلاً .

وهـذه القصيدة كما تراها من أرق العتاب ، وان كان حشوها ملام وتعنيف ، فهو بعد ان شدّد النكير على صديقه عاد فاستعطفهُ وذكرهُ عهود الود ، وأثنى عليهِ ثنآءً يزري بعرف الند .

فاذا وازنت بين القصائد المتقدمة وجدت أصدقها عتاباً ، آخذاً بين سلامة القصد والاخلاص ، وبين النصح والانذار ، والتحذير والتذكير ، وجميل الوعد والاستعطاف ، معن بن أوس ، وقد جمعت بين الجزالة والفصاحة ، والرقة والبلاغة ، فهو أشعرهم عاتباً ، وأعتبهم شاعراً .

ثم يأتي بعدهُ الامير الحمداني فهو يتكلم بما يوحيهِ اليهِ فؤآده ، لا متعمدٌ اخفآءَ ما في نفسهِ من الكمد ، ولا مظهرٌ غير ما بهِ من الجلد ، ذاهباً في عتب ابن عمهِ ومربيه ،

مذهب الصدق والود والاحترام ، متفاخراً بفضله ومعاليه اذ نسبه الى الخمول ، مباهياً بشرف اصله اذ كان هو والملك المعاتَب من أسرةٍ واحدة ، فهو بعد معن ، أصدقهم عتاباً ، وأحلاهم خطاباً .

ثم يأتي ابن خفاجة وهو يكاد يسيل رقةً وانسجاماً ، ويفوح عنبراً ويدير مداماً .

ثم يأتي المتنبي وهو المعاتب المتكلّف ، عبد الغرض ورق الصنعة ، بيد انَّهُ امير الكلام ، العارف بانزاله في منازله من الشرف والجمال ، والفضل والجلال ، فهو لا يضع لفظاً في غير محلّه ، ولا يرسل كلمةً دون كبير معنى ، حتى جرى كلامه مجرى الامثال فهو دون الشعراء الثلاثة عتاباً ، ولعل السبب في ذلك انه كان سيّئ الظن بالزمن واهله ، لم يركن الى احد من الناس وحسبك قوله .

ولما صارَ ودُّ الناسِ خبًّا جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصرتُ أُشكُّ فيمنْ أصطفيهِ لعلمي أنَّهُ بعضُ الانامِ

وقوله ايضاً

ومَن عرف الايامَ معرفتي بها
وبالناس روَّى رمحَهُ غيرَ راحمِ
فليس بمرحومٍ اذا ظفروا بهِ
ولا في الردى الجاري عليهم بآثمِ

ولو وثق بصفاء الودّ أو ركن الى خليل ، لكان من أشعر العاتبين وأعتب الشعراء.

ثم يأتي البحتريُّ آخر الجميع ، وفي يده للعتب سيف يريع ، فهو بطل محاربة او مقاطعة ، لا فتى مداعبةٍ او موادعة ، فتدبر ما ذكرته لك في هذا الباب والله الملهم الى السداد.

الفصل الثامن

في

موازنة الزهريات

قال ابو تمَّام

يا صاحبيَّ تقصَّيا نظرَيكما
ترَيا وجوهَ الارضِ كيفَ تُصوَّرُ

تَرَيا نهاراً مشمِساً قد شابهُ
زهرُ الرُّبى فكأنما هو مقمرُ
دنيا معاشٍ للورى حتى اذا
حلَّ الربيعُ فانما هي منظرُ
أضحت تصوغُ بطونها لظهورها
نَوْراً تكادُ له القلوبُ تَنَوّرُ
من كل زاهرةٍ تَرقرقُ بالنَّدى
فكأنها عينٌ اليك تحدَّرُ
تبدو ويَحجبُها الجميمُ كأنها
عذراءُ تبدو تارةً وتَخفَّرُ
حتى غدت وهَدَاتُها ونِجادُها
فئتين في حللِ الربيعِ تَبَخترُ
مصفرَّةٌ محمرَّةٌ فكأنها
عصبٌ تَيمّنُ في الوغى وتَمَضَّرُ
من فاقعٍ غضِّ النباتِ كأنهُ
دررٌ تَشقَّقُ قبلَ ثمَّ تَزَعفَرُ

أو ساطعٌ في حمرةٍ فكأنما
يدنو اليهِ من الهوآءِ معصفرُ
صبغُ الذي لولا بدائعُ لطفهِ
ماعاد أصفرَ بعدَ اذ هُو أخضرُ

وقال البحتريُّ

أَبكيا هذه المغاني التي أَخ　لقها بُعدُ عهدِها بالغواني
أسعدَ الغيثُ اذ بكاها وان كا　ن خليًّا من كلّ ما تجدانِ
جادَ فيها بنفسهِ فاستجدَّتْ　حللاً منهُ جمَّةَ الألوانِ
فهي تهتزُّ بين افرندهِ الأَخ　ضرِ حسناً ووشيهِ الارجوانِ
في سمآءٍ من خضرةِ الروضِ فيها　أنجمٌ من شقائقِ النعمانِ
واصفرارٌ من لونهِ وابيضاضٌ　كاجتماع اللجينِ والعقيانِ
ويريكَ الاحبابَ يومَ تلاقٍ　باعتناقِ الحوذانِ والاقحوانِ
صاغ منها الربيعُ شكلاً لأَخلا　قِ حسينٍ ذي الجودِ والاحسانِ
فكأَنَّ الاشجار تعلو رباها　بنثيرِ الياقوتِ والمرجانِ
وكأَنَّ الصبا تَرَدَّدُ فيها　بنسيمِ الكافورِ والزعفرانِ

وقال متنبي الغرب ابن هاني

ألم ترَيا الروضَ الأريضَ كأنما

أسرَّةُ نورِ الشمسِ فيهِ سبائكُ

كأنَّ كؤوساً فيه تسري براحها

اذا عللّتها الساريات الحواشكُ

كأنَّ الشقيقَ الغضَّ يكحلُ أعيناً

ويسفكُ في لبّاتهِ الدَّمَ سافكُ

وقال ذو الرئاستين ابو مروان بن رزين

وروضٍ كساهُ الطلُّ وشياً مجدَّدا

فأضحى مقيماً للنفوسِ ومُقعدا

اذا صافحتهُ الريحُ حلّتْ غصونَهُ

رواقصَ في خضرٍ من العصفِ ميَّدا

اذا ما انسكابَ الماءِ عاينتَ خلتَهُ

وقد كسرتْهُ راحةُ الريحِ مبرَدا

وانْ سكنتْ عنهُ حسبْتَ صفاءَهُ

حساماً صقيلاً صافيَ المتنِ جُرِّدا

وغنّتْ به ورِقُ الحمائم بيننا
غناءً يُنَسّيكَ القريضَ ومَعبدا

اذا وازن الناقد بين الابيات المتقدمات ، تبين له ان أبا تمَّام ليس من السابقين في بَاب الزهريات ، بل يُعدُّ وصافاً ، فهو يصف ما رآهُ في احدى الرياض من الازهار بألوانها ، بيد انَّهُ قصَّر في التشبيه غاية التقصير ، اذ شبَّه كل زهرة قد احتجبت بالنبات ، بغادة تبدو تارةً للناظرين ثم تحتجب دلالاً ، وهذا التشبيه كما تراه بعيدٌ عن الحقيقة غاية البعد ، فان الزهرة اذا احتجبت لا تبدو من نفسها للعين الاّ اذا حركها النسيم ، او حرّك المتأمّلُ رأسهُ ليراها ، وأبو تمَّام لم يشر الى ذلك ادنى اشارة ، ثم ما وجهُ التشبيه بين الزهرة والعذرآء ؟ وكأنّهُ لم يذكر العذرآء الاَّ ليستعين بها في تصوير ظهور الزهرة واحتجابها وقد رأيتَ نقص هذا التصوير . ثم انه في البيت الاخير دلَّنا على جهله اسباب تلوُّن الازهار فاقتصر على قوله : صبغ الذي لولا بدائع لطفه الخ . وهو وصفٌ ضعيف وتصويرٌ ناقص اذ قد ذكر المسبّب ، وفاته

ذكر السبب وهو الشمس كما تعلم.

اما البحتري فقد شبّه احتباك اغصان الروض بسمآء خضرآء، وشقائق النعمان بالنجوم، وألوانها البيضآء والصفرآء بالفضة والذهب، فقد جآء بغاية الاحسان، ثم شبّه اعتناق الحوذان والاقحوان، باعتناق الاحباب والرفاق يوم التلاق، والحوذان بقلٌ طيب الرائحة والاقحوان هو هذا الريحان المعروف، وقيل ان هذين النباتين اذا نبتا في ارض واحدة ائتلفا والتفَّا، ثم شبَّه ما سقط على الارض من نثير ازهار الاشجار العالية بالياقوت والمرجان، ومن هذا يُفهم ان النثير كان احمر اللون، ثم ختم هذه الصورة بوصف رائحة النسيم المتردّد بين تلك الادغال وقد اكتسب من رائحة الازهار ريحاً ذكيَّةً أين منها رائحة الكافور والزعفران، وهاتان الرائحتان كانتا أطيب الروائح التي كان يستعملها اهل عصره.

فقد رأيتَ كيف أتى على تصوير الحقيقة المحسوسة بأصح الاوصاف الشعرية وأوضح الالوان، لم يفتهُ من جمال الوصف دقيقٌ ولا جليل.

وأما ابن هاني فان تشبيهُ في غاية الحسن ، فانَّهُ شبَّه خطوط نور الشمس نازلةً فوق الرياض ، بسبائك الفضة ، وازهار النرجس وقد ملئت بندى الصباح ، بكؤوس الراح عللتها الرياح .

واما وصف ابي مروان ، فهو في غاية الابداع والاحسان ، وتشبيهاته في غاية الدقة ، فشعره هذا يغني المصور عن معاينة الموصوف ، فيحسب أنه قد عاين المكان بالآذان ..

فيتضح من هذه الموازنة ، ان البحتريَّ سابق هذه الحلبة ، اذ جمع بين حسن الوصف ، وجمال التشبيه ، وجزالة اللفظ ، ومتانة التركيب.

ويأتي بعدهُ ابن هاني لحسن التشبيه ، وان قصَّر عنه في براعة التعبير ومتانة التركيب .

وبعدهما يأتي ابو مروان لبراعة وصفه وتشبيهاته ، وان كان في كلامه من ضعف التركيب ، ما لا يوجد في شعر أميري الشعر المتقدمين ، كقوله : اذا ما انسكابَ الماء عاينتَ خلتَهُ : فلو جاء احدهما بهذا المعنى واللفظ لعلهُ كان يقول :

اذا ما رأيتَ المآءَ ينصبُّ خلتَهُ : او ما هو أبرع من هذا التركيب .

وبعد هؤلآء يأتي ابو تمّام كراكب أكرم فرسٍ الاّ انها مقيّدة الرجل ، فلا تستطيع السباق في الحلبة ، اذ براعة لفظه ، وامتلاكهُ متن القريض ، ليسا بكافيين لاعطآئهِ حق السبق في هذا المجال عند المنصفين .

ولم أجعل للخمريات باباً على حدةٍ ، فدخولها في باب الزهريات أولى ، وهي به اجدر وأشبه . رَبِّ هَبْ لي حُكما وأَلحقني بالصالحين .

الفصل التاسع

في

موازنة الغزل والنسيب

قال ابن الطثرية

أليس قليلاً نظرةٌ انْ نظرتُها

اليكِ وكلاَّ ليس منكِ قليلُ

فيا خُلَّةَ النفسِ التي ليسَ دونها
لنا من أخلاّءِ الصفاءِ خليلُ
ويا مَن كتمنا حبَّهُ لم يُطَعْ بهِ
عدوٌّ ولم يُؤمَنْ عليهِ دخيلُ
أَمَا من مقامٍ أشتكي غربةَ النوى
وخوفَ العدى فيهِ اليكِ سبيلُ
فديتُكِ أعدآئي كثيرٌ وشقّتي
بعيدٌ وأشياعي لديكِ قليلُ
وكنتُ اذا ما جئتُ جئتُ بعلَّةٍ
فأفنيتُ علاَّتي فكيفَ أقولُ
فما كلَّ يومٍ لي بأرضكِ حاجةٌ
ولا كلَّ يومٍ لي اليكِ رسولُ
صحائفُ عندي للعتابِ طويتُها
ستُنشَرُ يوماً والعتابُ طويلُ
فلا تحملي ذنبي وأنتِ ضعيفةٌ
فحملُ دمي يومَ الحسابِ ثقيلُ

وقال مسلم بن الوليد

وقد قالت لبيض آنسات ... يصدن قلوب شبان وشيب
أنا الشمس المضيئة حين تبدو ... ولكن لست أعرف بالمغيب
براني الله ربي اذ براني ... مبرّأة سلمت من العيوب
فلو كلّمت انساناً مريضاً ... لما احتاج المريض الى طبيب
وخلقي مسكة عجنت ببان ... فلست أريد طيباً غير طيبي
وأعقد مئزري عقداً ضعيفاً ... على دعص ركام من كثيب
وجلدي لو يدب عليه ذرّ ... لأدمى الذرّ جلدي بالدبيب
وريقي ماء غادية بشهد ... فما أشهى من الشهد المشوب
فقلن لها صدقت فهل عطفتم ... على رجل يهيم بكم كئيب
فقالت قد بدت منه هنات ... وقد تبدو الهنات من المريب
وصلناه فكلّمنا بسحر ... كذلك كل ملاّق خلوب

وقال ابو تمّام

انّ في خيمهم لمفعمة الحجـ ... ـلين والمتن متن خوط وريق
وهي لا عقد ودّها ساعة البيـ ... ـن ولا عقد خصرها بوثيق
وكأنّ الجريال شيب بماء الـ ... ـدرّ في خدّها وماء العقيق

وهي كالظبيةِ النَّوار ِ ولكن ربمّا أمكنتْ جناةَ السحوقِ

وقال البحتري

تُعدي القلوبَ بعينيها اذا نظرتْ

حتى تجدَّ لهـا حبلاً من السَّقمِ

أما وضِحكتِها عن واضحٍ رتِلٍ

تُنْبي عوارضُهُ عن بارد شَبِمِ

لقد كتمتُ هواها لو يطاوعني

شوقٌ لجوجٌ ودمعٌ غيرُ منكتِمِ

وقال أبو الطيّب المتنبي

عَمْرَكَ اللهَ هل رأيتَ بدوراً طلعتْ في براقعٍ وعقودِ

راميات بأسهمٍ ريشُها الهد بُ تشقُّ القلوبَ قبلَ الجلودِ

يترشَّفنَ من فمي رشفات هنَّ فيه حلاوةُ التوحيـدِ

كلُّ خمصانة أرقُّ من الخمْ رِ بقلبٍ أقسى من الجلمودِ

ذاتُ فرعٍ كأنما ضُرب العنْ برُ فيه بمـآءِ وردٍ وعودِ

حالكٍ كالغدافِ جثلٍ دجوجيّ أثيثٍ جعدٍ بلا تجعيـدِ

تحملُ المسكَ عن غدائرها الرّيـ حُ وتفترُّ عن شنيبٍ برودِ

وقال ابن هاني متنبي الغرب

قامتْ تميسُ كما تدافعَ جدولُ
وانسابَ أيمٌ في نقاً يتهيّلُ
وأتت تزجّي ردفَها بقوامها
فتأطّرَ الأعلى وماجَ الأسفلُ
قمرٌ تردّى الحسنَ منهُ مقرطقٌ
ومشى على البرديّ منهُ الخلخلُ
ووراءَ ما يحوي اللثامُ مُقبَّلٌ
رتِلٌ بمسواكِ الأراكِ مُقبَّلُ
ما لي ظمئتُ الى جنى رشفاتهِ
وخلا البشامُ يبُرْدِها والأسحلُ
وهيَ النحيلةُ أو خيالٌ عائدٌ
منها أو الذكرى التي تتخيّلُ
طرقتْ تحيدُ منَ الصباحِ تخفُّراً
فوشى الكباءُ بها ونمَّ المندلُ

قلْ للتي أصمت فؤادَكَ خفّضي
وقْعَ السهامِ فقد أُصيبَ المقتَلُ

وقال أبو بكر بن بقّي من شعراء القلائد

عاطيتُهُ والليلُ يسحبُ ذيلَهُ
صهباءَ كالمسكِ الفتيقِ لناشقِ
حتى اذا مالت بهِ سنةُ الكرى
زحزحتُهُ شيئاً وكانَ معانقي
أبعدتُهُ عن أضلعٍ تشتاقُهُ
كيلا ينامَ على وسادٍ خافقِ

فاذا وازنت بين أقوال هؤلآء الشعرآء ، بل ملوك الشعر ، علمت ان هذا الباب من الشعر ، باب واسع ، لكنَّ ما وراءه محدود ، فالوصف فيه لا يختلف ، والموصوفات هيَ هيَ ، الوجه والقدّ ، والعنق والخصر ، والمعاصم والبنان ، والثغر والشعر ، والمستحسن منها لا يتجاوز عدداً معلوماً مهما اختلفت الاذواق ، فالعيون السود أو الزرق ، وهذه بين نجلٍ وشهل واللون الابيض أو الاسمر ، والعنق الطويل والخصر النحيل ،

والمعصم، العبل والبنان المتناسب مع الكف ، والشعر المسترسل الفاحم أو الأشقر ، والريق البارد المشبه بالشهد ، الى غيرهِ من الوصف المحدود ، ولا تكاد تجد شاعراً اختلف وصفه أو استحسانه عما ذكر ، بل من شذَّ من الشعرآء عُدَّ فاسد الذوق ، وسيأتي معنا بعد هذا زيادة ، ايضاح في هذا المعنى .

بقي انني لم أفتح باباً للتشبيب ، بيد انهُ معدود من الغَزَل ، وداخل في هذا الباب ، غير انهُ أوسع منه اذ يتعدى الى المخاطبات وحكاية الاجتماع والوقائع التي تدخل في باب الشعر القصَصي ، فاذا قصدله الشاعر وكان ممن رُزق الذكآء وحدَّة التصور ، دخل منه الى ميدانٍ فسيح .

أمَّا الفائز بالقدح المعلّى في هذا الرهان فهو ابن الطثرية، غير مدافَع ، فقد أتى بالسهل الممتنَع ، وبلغ الغاية التي ما بعدها لمتغزلٍ مطمع ، فحكى واقعة حاله ، وشكى كثرة عذَّاله ، وتلطّف ما شآء الهوى ، وباح بما كتم من الغرام والجوى، وعاتب فأخجل نسمات الصبا ، وهتك محاسن ازهار الربى ، فعلمنا ان محبوبته من كرائم الغانيات ، وان دون الوصول اليها

خوض المهلكات ، وانه لم يظفر منها بغير نظرةٍ أو نظرات ، وهو يسألها ان لا تحسب انقطاعه عن زيارة أرضها لسلوان أراب ، بل خشيةَ ان يهدر قومُ هادمهُ فتحمل اثمَهُ يوم الحساب.

ولو شآء سواهُ ان يأتي بهذه المعاني والمقاصد الشريفة ، بأيّ كلامٍ وأيّ تعبير أراد . لما كان الآّ سكّيتاً ورآء هذا المجلّي السابق . المالك أعنَّة البلاغة والبيان الفائق .

اما كلام صريع الغواني ابن الوليد . فهو الكلام المبتذل المنحطّ عن أدنى طبقةٍ من طبقات الفصاحة الشعريَّة . وقد تبرأت منهُ البلاغة العربية . فكأنه ارتجله في ماخور مخاطباً به احدى المومسات في حضرة أبي نواس . بين الكأس والطاس . فليس به معنىً شريف أو غرض سامٍ عقليّ . وانما هو كلام لا ينطق به غير الغاويات . وهنّ من الثياب والحيآء عاريات . فهو في هذه القصيدة يُعَدُّ آخراً ولاحقاً . وقد يُعَدُّ في سواها أولاً وسابقاً .

واما قول أبي تمَّام فانه كلام عربي نخيم وهو من أعلى طبقات الشعر العربي فهو يقول ان في خيمتهم ملأى الحجلين

ملأى المتن،متن غصن القوام . فقوله ملأى الحجلين . يريد ان مخلخليها وهما موضع الحجلين،مفعمان من اللحم غير مهزولين، وهو يمدحها بذلك ، وربما عاب اقوام ما استحسنه أبو تمام ، بيد ان ذلك مما يتعلق بالذوق قال الشاعر

من سالكاتٍ دُقِقِ الخلخالِ

وهم يحبون رنة الخلخال وبعضهم يحب خرسَهُ وللناس فيما يعشقون مذاهب . واما ان يكون غض قوامها، غير مهزول فعليه الجمهور .

وقوله : متن غضٍ وريقِ : يريد بذلك ان متن قوامها يحاكي الغصن الوريق ، فهو لَدْنٌ رشيق ، وتشبيههُ خدودها بلون الخمرة الممزوجة بمآء الدرّ ومآء العقيق ، هو في نهاية الحسن وغاية البلاغة ، وقوله انها كالظبية النافرة ولكن ربما وصل اليها من يصل الى الاشجار العالية ، أراد انها على ما بها من النفور ، لايستحيل الوصول اليها على مَن يسعى ورآء ذلك بصبرٍ وثبات ، او على مَن يبذل دون ذلك ما تروم .

وعلى الجملة فقد ملك ابو تمَّام زمام البلاغة والاحسان ،

في هذه الابيات ، وان لم يكن الثاني في هذه الموازنة ، فهو بين الثاني والثالث .

وأما البحتري فهو في سائر شعره مشبّبٌ اكثر منه متغزّلٌ ، بيد انه أحسن الوصف في الابيات المتقدمة ، وذهب في الغرام ألطف مذهب ، وقد يكون الثالث في هذه الموازنة .

اما المتنبي فقد ملك أبعد غايات الغزل والرقة والوصف في قصيدته هذه ، وعرّفنا ان النسآء الحضريات لعهدهِ ، كنَّ يتخذنَ البراقع كما هو الشأن لهذا العهد عند المسلمات في بلاد الشام والعراق ، وكنَّ يضفرن شعورهن ضفائر ، ويجعدنَّها كما هو اليوم في اكثر مدن أوربَّا ، وكان التجعيد مستحسناً لعصرهِ وكنَّ يطيّنَ شعورهن. وقد يعقصنها كما يفعل كثير من النساء ليومنا هذا .

وهذه القصيدة عدا ما اشتملت عليه من الرقَّة والسلاسة ، فقد جمعت الفوائد التي هي في أعين المؤرخ ذات مقام رفيع ، فهي من كل الوجوه الثانية في هذه الموازنة .

واما قصيدة ابن هاني ففيها مآخذ ، بيد ان وصفه أشبه بوصف أبي الطيب المتنبي ، ولا بدع فهو متنبي الغرب وكلامه أيضاً ، يدل على استعمال نسآء الاندلس الطيوب واللثام ، وانهنَّ كنَّ يلبسن الابراد الطويلة وهي الثياب الحريريَّة الموشَّاة حتى يطأنها بأرجلهنَّ . وتشبيههُ ميَسَ الحسنآء بتدافع الجدول حسَنٌ ، واما ما أردفه بعد ذلك من تشبيهها بانسياب الحيَّة التي تدفع عنها التراب ، فهو في غاية القبح ، ولو أتى بهذا التشبيه بدويٌّ جلف ، لما وجدنا له عذراً ، فكيف والقائل رجلٌ تقضَّت أيامهُ في رياض أشبيلية وقصورها البديعة بين قومٍ قد اشتهروا بالخلاعة والظرف ، وامتازوا بالرقة واللطف ، هذا هو المأخذ الأَول الذي يؤخذ عليه ، واما المأخذ الثاني فهو اختياره كثيراً من الالفاظ غير المأنوسة كقوله البشام ، والاسحل ، وهذا في شعره كثير ، فلو خلت هذه الابيات مما ذكر ، لجآء ابن هاني بعد ابن الطثرية فان الرقة والانسجام ، وعواطف الغرام ، تسيل من شعرهِ كالشهد المذاب .

واما ابن بقّي فقد غار على فرائد المعاني فلم يذر ولم يبقِ وجمع بابياته الثلاثة من فائق التشبيه، وبديع الوصف ، ورقيق الكلام ، وبراعة النظم ، وبلاغة القول ، ودقة التصوير ، ولطف الشعور ، ما يخلب الالباب ، ويجدد في نفس القارئ والسامع عهد الشباب ، ولكن مثل هذا لا يتفق وقوعه للشاعر ولو كان من أرفع الطبقات ، الا اتفاقاً وفي أندر الحالات ، ولو كان شعر ابن بقّي كله مثل هذا المثال الساطع ، لكان أوحد شعرآء الدنيا دون منازع .

الفصل العاشر

في

موازنة الرثآء والعزآء

قال محمد بن بشير الخارجي

نعمَ الفتى فَجعتْ به اخوانهُ

يومَ البقيع حوادثُ الأيامِ

سَهْلُ الفِناَءِ اذا حللتَ ببابهِ
طَلْقُ اليدينِ مُؤدَّبُ الخدَّامِ
واذا رأيتَ صديقَهُ وشقيقَهُ
لم تدرِ أيَّهما ذوو الارحامِ
وقالت فاطمة الخزاعية ترثي زوجها
يا عينُ بكّي عندَ كلِّ صباحِ
جودي باربعةٍ على الجرَّاحِ
قد كنتَ لي جبلاً ألوذُ بظلِّهِ
فتركتني أضحى بأجردَ ضاحِ
قد كنتُ ذاتَ حميَّةٍ ما عشتَ لي
أمشي البرازَ وكنتَ أنتَ جنَاحي
فاليومَ أخضعُ للذليلِ وأتَّقي
منهُ وأدفعُ ظالمي بالرَّاحِ
وأغُضُّ من بَصَرِي وأعلمُ انَّهُ
قد بانَ حدُّ فوارسي ورماحي

واذا دعت قُمريّةٌ شجناً لها
يوماً على فَنَنٍ دعوتُ صباحي

وقال ابو تمّام يرثي أخاه

اني أظنُّ البِلى لو كانَ يفهمُهُ
صدَّ البِلى عن بقايا وجههِ الحسَنِ
يا يومَهُ لم تدعْ حسناً ولا أدباً
الاّ حكمتَ به للّحْدِ والكفنِ
للهِ مقلتُهُ والموتُ يكسرُها
كأنَّ أجفانَهُ سكرى منَ الوسنِ
يردُّ أنفاسَهُ كرهاً وتعطفُها
يدُ المنيّةِ عطفَ الريحِ للغصُنِ
ياهولَ ما أبصرتْ عيني وما سمعتْ
أُذْني فلا أبصرتْ عيني ولا أُذُني
لم يبقَ من بدني جزءٌ علمتُ بهِ
الاّ وقد حلّهُ جزءٌ منَ الحَزَنِ

كانَ اللّحاقُ به أهنى وأحسنَ بي
من أنْ أعيش سقيمَ الروحِ والبدنِ

وقال البحتري يعزّي أبا نهشل الطوسيّ عن ابنته

يا أبا القاسمِ المقسَّمِ في المجـ ـدِ وفي الجودِ والندى أجزآءَ

. . . .

أتبكي مَن لا يُنازلُ بالسيـ ـفِ مشيحاً ولا يهزُّ اللوآءَ
والفتى مَن رأى القبورَ لما طا فَ بهِ من بناتهِ أكفاءَ
قد ولدنَ الاعدآءَ قدماً وورثْـ ـنَ التّلادَ الأقاصيَ البعدآءَ
لم يئدْ كثرهنَّ قيسُ تميمٍ عَيْـلَةً بل حميَّـةً وإبآءَ

. . . .

واستزلَّ الشيطانُ آدمَ في الجنـ ـةِ لمـَّا أغرى بهِ حوَّآءَ
ولعمري ما العجزُ عندي الاّ أن تبيتَ الرجالُ تبكي النسآءَ

وقال ايضاً يرثي أبا سعيد الطائي بن محمد الثغري احد قوَّاد جيوش المعتصم :

انظرْ الى العليآءِ كيف تُضـامُ
ومأْتمَ الأحسابِ كيفَ تُقامُ

. . . .

ورزيئــةٌ حملَ الخليفةُ شطرَها

والمسلمون وشطرَها الاســلامُ

مَن يعتني العافي بهمتّــهِ ومَن

يجـدو اليــه المعتمُ المعتامُ

أينَ العبوسُ المشمئزُّ اذا رأى

جنفاً وأينَ الأبلجُ البسامُ

. . . .

بي لا بغـيري تربةٌ مجفوّةٌ

لكَ في ثراهـا رمةٌ وعظامُ

فعليكَ يا حلفَ الندى وعلى الندى

من ذاهبَيْنِ تحيّــةٌ وسلامُ

وقال المتنبي يرثي جدّتهُ

لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبهـا

قتيـلةِ شوقٍ غيرِ ملحقِها وصما

أحنُّ الى الكأسِ التي شربتْ بها
وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمّا

. . . .

أتاها كتابي بعدَ يأسٍ وترحةٍ
فماتتْ سروراً بي فمتُّ بها غمّا
حرامٌ على قلبي السرورُ فانني
أعدُّ الذي ماتتْ بهِ بعدها سمّا

. . . .

وما انسدَّتِ الدنيا عليَّ لضيقها
ولكنَّ طرفاً لا أراكِ به أعمى
فوا أسفا ألاَّ أكبَّ مقبلاً
لرأسكِ والصدرِ الذي مُلِئا حزما

وقال أيضاً يرثي والدة سيف الدولة ملك حلب

نعدُّ المشرفيَّةَ والعوالي وتقتلُنا المنونُ بلا قتالِ

. . . .

وهذا أوَّلُ الناعينَ طرّاً لأوَّلِ ميتةٍ في ذي الجلالِ

صلاةُ اللهِ خالقنا حنوطٌ — على الوجهِ المكفَّنِ بالجمالِ
على المدفونِ قبلَ التربِ صوناً — وقبلَ اللحدِ في كرمِ الخلالِ

. . . .

مشى الامرآءُ حوليها حفاةً — كأنَّ المرو من زفِّ الرئالِ
وابرزت الخدورُ مخبَّآتٍ — يضعنَ النقسَ أمكنةَ الغوالي

. . . .

ولو كان النسآءُ كمن فقدنا — لفضِّلَتِ النسآءُ على الرجالِ

وقال الشريف الرضي يرثي أبا اسحاق الصابيء[1]

أعلمتَ مَن حملوا على الاعوادِ
أرأيتَ كيف خبا ضيآءُ النادي
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحرِ اغتدى
من وقعهِ متتابعَ الأزبادِ

. . . .

(١) قال الثعالبي هو اوحد العراق في البلاغة ومن به تثنى الخناصر في الكتابة وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفآء وخلافة الوزرآء وتقلد الاعمال الجلائل مع ديوان الرسائل .

كيف انمحى ذاكَ الجنابُ وعُطّلتْ
تلكَ الفجاجُ وضلَّ ذاكَ الهادي

. . . .

هذا أبو اسحاق يُغْلَقُ رهنُهُ
هل زائدٌ أو مانعٌ أو فادِ

. . . .

أعزِزْ عليَّ بأن أراكَ وقد خلَتْ
من جانبيكَ مقاعدُ العوّادِ

ومنها

قد كنتُ أهوى ان أُشاطِرَكَ الردى
لكن أرادَ اللهُ غيرَ مرادي

ومنها

مَن للفصاحةِ والبلاغةِ إن هما
ذاكَ الغمامُ وعبَّ ذاكَ الوادي
مَن للملوكِ يحزُّ في أعناقها
بظبىً منَ القولِ البليغِ حِدادِ

مَن للممالكِ لا يزالُ يلمُّها

بِبِسدادِ ثغرٍ ضائعٍ وسَدادِ

ومنها

انْ لم تكنْ من أُسرتي وعشيرتي

فلأَنتَ أعقلهم يداً بودادي

وقال يرثي شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه

هل كانَ يومُكَ الاّ بعدَ أيامِ

سبقْتَ فيها بانعامٍ وارغامِ

. . . .

أينَ السريرُ وقد مدَّ السماطُ لهُ

إجلالَ اروعَ عالي القدرِ بسّامِ

أينَ الجيادُ تنزّي في أعنّتها

يطلبنَ يوماً قطوباً وجهُهُ دامِ

أينَ الفيولُ كأَنَّ المتطينَ لها

على ذوائبِ أطوادٍ واعلامِ

أين المراتبُ والدنيـا على قدمٍ
موقوفةٌ بين ارماحٍ واقـلام
أين الوفودُ على الابوابِ مُذْكرةً
بالفرطِ من مجدِ أخوالٍ وأعمـامِ

فاذا وازنت بين القصائد المتقدمة موازنة ناقدٍ بصير تبيّن لك ان الخارجي وان كان قد جمع أقصى غايةٍ من غايات البلاغة في بيتيه الثاني والثالث ، الاَّ ان ضمهما واضافتهما الى باب المدح أولى لولا بيته الاول الذي صرّح به بموت الرجل فقصره التفجّع على فقيده الكريم بلفظة : نِعمَ الفتى : — وهي ليست من التفجّع في شيء — يُعد لهُ قصوراً يؤخره عن منازل السابقين .

أما الخزاعيةَّ فقد استوفت بشعرها حقوق الرثآء فانها بعد ان استجاشت عيونها للبكآء على الجرّاح زوجها ، بدأت بتأبينـه ووصف صفاته ومخاطبته ليكون الخطاب أشد تأثيراً في النفس ، وأسرع في استدعآء الدمع ، وقد جمعت بكلامها كل ما يليق بحرّةٍ ان تراهُ في بعلها من الشجاعة

والحمية والمساعدة التي تفخر بها على أمثالها : اذا كان ممن صفاتهم لا تنافي هذا الوصف : ثم ختمت ذلك بذكر ما آلت اليه حالها بعدهُ عن المذلة والهوان ، مما ترثي لهُ القلوب ، فأحاطت بصدق الرثآء بكلام فصيح بليغ ، ولها في هذا المجال السهم الفائز .

واما رثآء أبي تمّام فمما لا يُختلَف فيهِ انه من أول السابقين في هذا السباق ، فانظر بأي رقةٍ رثى أخاهُ ،وكيف وصف الحالة التي شاهدهُ فيها عند مفارقة الحياة ، وقد صوّر ساعة النزع صورة يعجز عنها مَهَرَة المصوّرين ، بعد ان ناح على ادبه وشبابه ، فعلمنا منه انه كان جميل الصورة شابًّا ؛ ثم دعا على عينيه لما رأت من انقلاب سحنته بعد ذلك الحسن ، وعلى أذنيه لما سمعت من تلك الحشرجة ، ثم عاد الى نفسه فرأى ان الحزن تملكها الى أقصى غاية ، وانه لا يطيق الحياة بعدهُ على هذه الحال من الحزن والسقم فتمنى لو لحق بهِ .

وجملة ما يراهُ الناقد في رثآئه هذا ، فرط التفجع وشدَّة الغم الطبيعيين ، خالين من أثر الصنع ، بفصاحةٍ وبلاغةٍ هما

غاية الغايات .

اما همزية البحتري فليست في شيء من التعزية أو الرثآء ، بل أحرى بهذا الشعر ان يدخل في باب الهجآء ، وهي زلّة من زلاّت البحتري وهفوةٌ من هفواته ، فأنت تعلم ان الولد عزيزٌ على والديه ذكراً كان أو أُنثى ، اذ المحبة لا تتولد في قلب الانسان من عامل عقليّ ، بل طبيعيّ ، وان من يشاهد حسنآء لا يقع في هواها بعد طويل التبصُّر ومراجعة الفكر ، أو أَمل الوصول الى ربح منها أَو نفع ، بل انما هو يُدفَع الى محبتها بفاعل طبيعي ، ولعله سرٌّ من اسرار الجاذبية الغامضة ، ولما كان الحب مشتركاً فيهِ الحيوان الاعجم والحيوان الناطق ، فانظر الى الكلبة كيف ترضع اجرآءها بالسوآء ، والى الحمامة كيف تزقّ فراخها دون استثنآء ، ايكون الانسان ادنى رتبة من الحيوان ، ويعرى من اشرف مزية يتحلى بها في كلّ زمان ؟ والعجب من البحتري فيما جآء به في هذه القصيده ، وهو يعلم ولا شك ان كثيراً من الحيوان الاعجم ، يبكي لفقد ولده ويتألم ، لا يفرق او لا يميّز بين الذكر

منه والأُنثى ، فكيف يطلب من صاحبهِ ان لا يبكي ابنته ، وان يعدَّ موتها حسنةً من حسنات الايام .

وأين سقطته هذه من رثآئه العالي وهو الذي يرثي أبا سعيد الطائي فيقول : انظرْ الى العلياءِ كيفَ تُضامُ : فبمثل هذا النظام دام فضل البحتري على تراخي الايام فانظر شرف هذا المطلع الذي أزرى بشعر النابغة وحسَّان ، وجمع أبعد غاية من صدق الوصف والاحسان ، فقد نبَّهَ على سمو قدر الميت ، وما كان له في الدولة العباسية ، من المرتبة العالية والاعمال الجلائل المرضية ، وكان ابو سعيد هذا من كرماء زمانه المعدودين ، واذا منحت هذا الشعر حقه من النقد ، وجدت البحتري لم يخرج في رثائهِ هذا البالغ غايةً بعيدةً من التفجع والوصف العالي عن دائرة الصدق ، ولم يذكر له غير الشجاعة والكرم ، لكنَّهُ استخدم اشرف الكلام لوصف المرثيّ ، فبلغ الغاية التي يرجوها من صدق النوح عليه ، وان هو لم يحرز في هذا الميدان سهم المبرّزين ، فهو في هذه القصيدة يُعَدُّ بعدهم في الاولين .

واما المتنبي فلو كان المقام مقام تقريظ ، لقلتُ هذا نبيُّ المعاني ، وأمير أمراء القريض ، وجامع اقصى غايات اللطف ، والمستولي على شتات الذوق ، والمتحلّي بأرق العواطف . ولكن المقام مقام نقد فأسترعي سمع الناقد لهذا النظام ، وأستلفت غاية دقته لهذه الدرر ، فقد جمع بقصيدته في رثاء جدّته ، أحنّ النوح ، وأبلغ التفجع ، وأشدهما وقعاً وتأثيراً في النفوس . وكل ذلك صادر عن القلب ، بعيد عن التكلُّف ، وفي طيّاتهِ حكاية الحال ببلاغة تعبير ، وفصاحة تركيب مولّدين ، بعيدين عن خشونة الاعراب ، والمبتذل من المولّد ، وعلى الجملة ، فهو الذي قصَّر عنه السابقون ، وعجز عنه اللاحقون .

وانظر الى رثائه والدة سيف الدولة ، فقد جاء بالطبقة العالية من الكلام الجزل ، اذ رثاء الملكات ، يستدعي أن تخدمه ملكات الالفاظ ، ومَن أعلم من المتنبي بذلك ؟ وكأنه كان عالماً أن ستأتي عصور بعد عصره ، يتصدر فيها شعرهُ في أعلى المجالس ، ويتوّج به عرش كل خطاب ، وتُدعم بهِ

حجج الفصحاء والمؤرخين . فكان يصوّر في اكثر شعره ، صور الحوادث ، لتبدو لأعين القارئ كما بدت لأعين الرآئي ، وهذا ما فعلهُ بعدهُ مشاهير مصوّري الفرنجة .

فقد افتتح الرثاء بكلام فلسفيّ ، وانت تعلم انّ المصوّر البارع ، اذا عمد الى تصوير مخدع ميت ، يرى ان يتخذ له نوراً ضعيفاً قاتماً ، ليكون المنظر ، أشدّ هولاً وتأثيراً ، ثم يضع شموعاً حول سرير الميت .

وبعد ان تفلسف ، رأى ان يمهد لهول التأبين ، بذكر مصائبه ، ومحاربة الدنيا له كل يوم بفاجعة دهماء ، ومصيبة غشماء ، وهذا يشبه تصوير المصور ، احد أقرباء الميت ، يدنو من فراشهِ منحني الظهر خاشعا ، تتساقط دموعهُ على خدّيه .

ثم جاء بذكر النعيّ ، فكان بمنزلة تصوير السرير ، ثم صوّر الميتة احسن تصوير فقال : صلاةُ الله خالقنا حَنوطٌ على الوجهِ المكفن بالجمالِ : قال شيخنا في العرف الطيّب عند شرح هذا البيت قال ابن وكيع ووصفه أُمّ الملك بوجه

الجميل غير مختار . اه قلتُ لو ذاق ابن وكيع طعم الخواطر السامية ، وما كانت تولدهُ مخيّلة ابي الطيب لهُ من الصور الصادقة ، لما انتقد هذا الانتقاد البارد ، فان المتنبي لمَّا تصورت له الميتة في ساعة النزع ومابعدها ، دعا لها بالرحمة ، فجعل الحنوط صلاة الرحمن ، وخطرت في فكره شناعة منظر الموت ، وما يجرّهُ على أبدع الصور من الانقلاب ، فاستدرك الدعآء بقوله : على الوجه المكفّن بالجمالِ : قال شيخنا وجعل وجهها مكفنّاً بالجمال ، اشارةً الى أن الموت لم يغيّر محاسنها وانما بقي عليها جمالها كالكفن . اه وهو من أبدع ما تصوّرهُ خاطر شاعر في مثل هذا المقام . وكأن المتنبي قد تنبأ بنقد ابن وكيع فشفع ذكر الجمال ، بذكر الصون وكرم الخلال ، ليدفع مثل هذا الاعتراض الفظ ، ولكن لا عجب من ابن وكيع في ذلك ، وهو صاحب كتاب المنصف (كذا) ألَّفه في بيان سرقات المتنبي حسب زعمهِ ، ورُوي ان المتنبي لفحهُ بشيء من الهجو ، وقيل بل قابلهُ — وكان ابن وكيع شابًّا — بالاستخفاف والازدرآء ، فنقم ذلك على المتنبي ، حتى

اذا ما مات ، قام ابن وكيع يسوّئ كلامه ، وهذا شأن بعض الجبناآء من هذا الخلق .

ثم وصف المتنبي ما كانت عليـهِ الميتة من مجد الملك وعزه ، وأشار الى كرمها العظيم ، ثم صورلنا احتفال جنازتها ، وكيف مشى الامرآء حول نعشها حُفاةً فوق الحصى كما لو مشوا على ريش النعام ، وكيف برزت رَبّاتُ الخدور ، وقد سوّدنَ وجوههنَّ والدموع تجري على خـدودهنَّ يمشينَ ورآءَ نعشها خاشعات الابصار ، وجلال الجنازة ومجدها قد عقد الالسنه فلم يُسمع صوت في ذلك الجمع الغفير ، ثم ختم الرثآء بمـا يدلُّ على كمال مجد هذه الفقيدة الجليلة فقال :

ولو كانَ النسآءُ كمَنْ فقدنا　　لفُضِّلتِ النسآءُ على الرجالِ

وهو أبلغ بيتٍ مُدحتْ بهِ أنثى .

على انك اذا تفقّدتَ قصيدتيـه المذكورتين ، تجده أعطى جدّتهُ صدق عواطفـه ، وأمَّ الملك حق الاعزاز والاجلال واستعظـام الخطب .

وأنت ترى بعد هذا الشرح والموازنة ان المتنبي قد فاز

بالقدح المعلّى في هذا الباب .

وأما رثاء الشريف الرضي فقد بلغ به أبعد مدى من التفجّع والندب ، ومع ذلك فاذا نظر الناقد البصير ، الى كلامه في رثاء الصابئ وجدهُ متسلسلاً بماء الفصاحة ، واذا دقق في حل معاني كل بيت من ابيات قصيدته المتقدمة ، لا يرى مبالغةً او اغراقاً مكروهَيْن ، فقد كان الصابئ كاتب الخلفآء ، ورئيس ديوان الرسائل عندهم ، ومكانهُ من العلم والشعر وبراعة الانشآء ، فوق ان يفيه حقهُ مترجم ، وكانت بينه وبين الشريف الرضي مودةٌ اكيدة ، فعدَّد الشريف اوصافه ، وذكر مكانه من الفصاحة والبلاغة ، وقدرهُ الجليل في الدولة العباسية ، وناح عليه ما شآءت الصداقة والمروءة ، نوحاً لا يخامره ريآء . ولم يخرج في كل ذلك عن المشهور من صفات الميت ، فلم ينسب له الشجاعة ولا المواقف في الوقائع الحربية ، ولا الجود ، ولا الخطابة ، ولا جمال الوجه ، ولا غير ذلك مما ليس فيه ، ولكنه اكتفى بوصف صفاته الحقيقة ، وذكر صدق وداده ، وأتى من الرثآء ، بما يعجز فحول

الشعرآء ، ولا عجب في ذلك ، فالشريف في باب الرثآء لا يدانيه مدان .

واذا نظرت بعد هذا في رثآئهِ شرف الدولة بن عضد الدولة ، وعلمت انه كان ملكاً عظيماً ، وكانت له على الشريف يدٌ لا تقابلها يد — اذ كان قد اطلق والدهُ النقيب أبا احمد الموسويّ ، وكان معتقلاً في فارس بأمر والده عضد الدولة — وجدت انهُ لم يذهب في رثائه الى الاغراق ، بل ذكر بسطة ملكه ، وعزَّ سلطانه ، وهيبته وشجاعته ، وحسن تدبيره . ومن راجع تاريخ شرف الدولة تحقق ما قاله فيه الشريف ، فانه لم ينسب اليه شيئاً مما ليس فيه ، كالفضل ، والفصاحة ، واللطف ، والعدل ، والرحمة ، ومحبة العلم والعلماء ، الى غير ذلك من الفضائل بل صوَّر عظمته ، ومواكبه ، وسماطه ، وخيوله ، وافياله وما جرى مجرى ذلك . ومع ذلك كله ، فان هذا الرثآء يُعَدُّ في أعلى طبقة من الشعر ، والشريف والمتنبي في هذا الميدان، يجريان جري سابقي رهان

بقيت في النفس كلمة أختم بها هذا الفصل ، تلك انه

قد يخالج قلوب بعض الادباء ، اعتراضٌ على سردي كثير من الشواهد والامثلة الشعرية التي أتيتُ بها، لزعمهم انهُ كان يُستغنى بذكر بيت او بيتين ، والاشارة بذلك الى القصيدة التي تعمدت موازنتها .

فلدفع هذا الاعتراض اقول : انني لم أجد بُدًّا من ايراد عدة قصائد لكثير من الشعراء بياناً لتفنُّنهم في الباب الواحد من الابواب الواسعة ، كالعتاب وما بعده ، وتصرّفهم في مقامات الكلام ، وايضاح تقصير بعض المجيدين منهم احياناً ، في باب عُرفوا فيه بالسبق ، كصريع الغواني في الغزل والنسيب ، او تخلُّفهم في باب دون آخر ، كالبحتري والمتنبي في العتاب ، او غير ذلك ، واشباع الكلام في ذلك كله ، الى حدّ قدّرت انه غير مملّ ، لحصول الفائدة المرجوَّة ، وعلى الجملة اعطاء الموازنة حقها من البراهين ، في التفضيل والتقصير .

واما الاشارة الى القصيدة بذكر بيتٍ منها واحالة القارئ ، على ديوان الشاعر الموازَن كلامهُ ، فهو مما أنكرَ على كثير من العلماء ، اذ قد يستدعي الامرُ أحياناً، مطالعة

مكتبةٍ كبيرة ، وليس ذلك بميسورٍ على القرَّآء كافّةً ، فضلاً عما في هـذه الاحالة من اضاعة الوقت بطول المطـالعة ، وفوت اللذة والفائدة من قرآءَة هذا الشعر ، أو تكرار قرآءَته ممن اطلع عليهِ وعلق بذهنه ، وقليل ما هم .

وانت لا تجهل ، ما لتنسيق هذه القصائد من الفائدة ، لطلبة العلم والقرَّآء ، مشفوعة بالنقد على الوضع المتقدم ، ليظهر مكان هذه الموازنة من الصحة ، وهـذه وظيفة الناقدين على الخصوص .

وأخيراً فلا يجهل جمهور الافاضل المحققين ، ما يتحتم على المؤلف من تقريب طرق التفهيم ، وتيسير أسباب التعليم ، وتسهيل أسباب تناولهِ ، وحصر ما يتعلق بكل فنّ من الفنون ، في كتابٍ واحد على قدر الجهد والاستطاعة ، وما أنتم بمعجزينَ في الارضِ ولا في السمآء .

تم الجزء الأول من منهل الوراد في علم الانتقاد ويليه الجزء الثاني وفيه جل القواعد وختام الكتاب

فهرس الكتاب

اصلاح غلط

صحيفة	سطر	غلط	صوابهُ
٠٢٠	١٠	ابيات	ابياتاً
٠٢١	٠٣	وتسميتها	وتسمية ذلك
٠٣٩	٠٧	العاملين	العالمين العاملين
٠٤٢	٠٦	فجآء	فجآءت
٠٤٨	٠١	ولكن كلاهما	ولكنهما
٠٤٨		*Diascalies*	*Didascalies*
٠٤٩	١٦	نقادين	نقادي
٠٥٤	٠٥	اريستاك	اريستارك

صحيفة	سطر	غلط	صوابهُ
٠٥٤	١٠	عنه	عند
٠٥٦	١٦	هوو	وهو
٠٥٧	٠٨	المغلقين	المفلقين
٠٦٢		Renaissnce	Renaissance
٠٦٨	٠٧	قروه	قرروه
٠٦٨		Menendarz	Menendoz y Pelayo
٠٧٧	٠٤	اشعارهم	اشعارهما
٠٩٩	٠٦	حدود	حدوداً
١٠٤	٠١	ينكر	ينكران
١٣٩	١٠	يقبضون	يقبضان
١٤٣	٠٨	اذا	اذ
١٤٤	١٤	بكتابة	كتابة
١٤٦	٠٨	ويتباهان	يتباهيان
١٤٦	١١	لعهدهم	لعهدهما
١٦٣	٠٧	يذوقونه	يذيقونه
١٧٠	٠١	الكثيرين	لكثيرين
١٧٢	٠٧	تفوفه	تفوقه
١٩٢	٠٩	بها	فيها
٣٠٩	١٦	لك تأييداً	لك ذلك تأييدا
٢١٣	١١	رساآءهم	رؤساآءهم
٢١٤	٠٨	مما ذكر	شيء مما ذكر
٢٣١	٠٧	أذكر الشعر	أذكر أبواب الشعر
٢٣٩	١٠	ويثاثره	ويثأره
٢٤٠	٠٢	الحضر	الحضري
٢٥٦	١٢	النظر بما	النظر فيما
٢٥٦	١٢	تأملت بما	تأملت ما
٢٧٨	٧ و ٩	غض	غصن
٢٨٦	١٢	الذي	اللذي

ويبقى بعد هذا أغلاط طفيفة لا تخفى على نباهة القارئ الاديب

منهل الورّاد
في
علم الانتقاد

الجزء الثاني

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عفي عنه

مطبعة الاخبار بالفجالة بمصر

منهل الورّاد في علم الانتقاد

الجزء الثاني

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عُفي عنهُ

مطبعة الاخبار بالفجالة بمصر

الفصل الحادى عشر

في

موازنة المدح والشكران

قال العرندس من شعراء الحماسة :

هينونَ لينونَ أيسارٌ ذوو كرمٍ
سُوّاسُ مكرمةٍ ابناءُ أيسارِ

إن يُسألوا الحقَّ يُعطوهُ وان خُبِروا
في الجهدِ أُدرِكَ منهم طيب أخبارِ

وان توددتَهم لانوا وان شهموا
كشَّفتَ أذمار شرٍّ غير أشرارِ

فيهم ومنهم يُعد المجد متلداً
ولا يُعدُّ نثا خزيٍ ولا عارِ

لا ينطقونَ عن الفحشاءِ ان نطقوا
ولا يُمارونَ ان ماروا باكثارِ

من تلقَ منهم تقل لاقيتُ سيّدَهُمْ

مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات وكان وزير المعتصم وابنه الواثق ، قال ابن خلّكان وكان من أهل الادب الظاهر ، والفضل الباهر ،

ردءُ الخلافة في الجلّى اذا نزلت

وقيّم الدينِ لا الواني ولا الوصبُ

جفنٌ يعافُ لذيذَ النوم ناظرُهُ

شجىً عليها وقلبٌ نحوها يجبُ

طائفةٌ رأيهُ من دون بيضتها

كما انتمى رابئٌ في الغزوِ منتصبُ

شعارُها اسمك ان عدّت محاسنها

إذِ اسم حاسدِكَ الادنى لها لقبُ

وزير حقٍ ووالي شرطةٍ ورحا

ديوان ملكٍ وشيعيٌّ ومحتسبُ

. . . .

ثبتُ الخطاب اذا اصطكّت بعظلمةٍ
في رجلهِ ألسنُ الاقوام والركبُ
لا المنطقُ اللغوُ يزكو في مقاومهِ
يوماً ولا حجةُ الملهوفِ تستلبُ

. . . .

لا سورةٌ تتقى منهُ ولا بلهٌ
ولا يحيفُ رضًى منهُ ولا غضبُ
ألقى اليكَ عرى الامر الامامَ فقد
شدَّ العناجُ من السلطانِ والكربُ
ان تمتنعْ منكَ في الاوقاتِ رؤيتهُ
فكل ليثٍ هصورٍ غيلهُ أشبُ
أو تلقَ من دونه حجبٌ مكرمةٌ
يوماً فقد القيتْ من دونكَ الحجبُ

. . . .

أما القوافي فقد حصّنت غرّتها
فما يُصابُ دمٌ منها ولا سلبُ

وقال يمدح الحسن بن وهب . كان كاتب الزيات المتقدم ذكره وولّي ديوان الرسائل ، وهو من اعيان عصره ، وكان كاتباً فصيحاً ، وشاعراً بليغاً :

أبو عليٍّ أخلاقه زهَرٌ
غبَّ سماءٍ وروحهُ قدْسُ

. . . .

للمجدِ مستشرفٌ وللادب الـ
مَجفوِّ تِربٌ وللندى حاسُ

وحومةٍ للخطابِ فرَّجها
والقومُ عجمٌ في مثلها خرسُ

شاكَّ حشاها بخطبةٍ عَنَنٍ
كأَنها منهُ طعنةٌ خَلسُ

أروعُ لا من رياحهِ الحرجفُ الـ
حرُّ ولا من نجومهِ النحسُ

وقال البحتريّ يمدح الفتح بن خاقان ، وكان وزير المتوكل على الله الخليفة العباسي ، وكان عالي الهمة ، سديد

الرأي ، فاضلاً ، كبير النفس ، ذكياً ، كريماً ، شديد الحقد :

أضاءَ لنا أفقَ البلادِ وكشَّفتْ
مشاهدهُ ما لا يكشّفهُ الفجرُ
بوجهٍ هو البدرُ المنيرُ نفى الدجى
سناهُ وأخلاقٌ هيَ الانجمُ الزهرُ

وقال يمدحهُ ايضاً :

ويبتدرُ الراؤونَ منهُ اذا بدا
سنا قمرٍ من سدَّة الملكِ مطلعِ
اذا ما مشى بين الصفوفِ تقاصرتْ
رؤسُ رجالٍ عن طوالٍ سميذع
يقومون من بُعدٍ اذا بصروا به
لأَبلج موفور الجلالة أروعِ
ويدعَوْن بالاسماءِ مثنى وموحداً
اذا حضروا باب الرواقِ المرفعِ
اذا سارَ كفَّ اللّحظُ عن كل منظرٍ
سواهُ وغضَّ الصوت عن كل مسمعِ

فلست ترى الاَّ افاضـةَ شاخص
اليـه بعينٍ أو مشيرٍ باصبعِ
مُراعٍ لاوقاتِ المعالي فان يلح
لهُ شرفٌ يوجفْ اليهِ فيوضعِ

. . . .

حليمٌ فان يبلَ الجهولُ بحقدهِ
يبتْ جارَ رأسِ الحيَّةِ المتقطعِ
وقد آيسَ الأعداءَ محكَ مضاجرٍ
لجوجٍ متى يحرُزْ بكفيَّهِ يقطعِ
طلوبٌ لأقصى الأَمرِ حتى ينالَهُ
ومغرىً بغاياتِ الحقائقِ مولَعِ
وقلتُ لمغرورٍ بهِ حانَ وارتمتْ
بهِ مطمعاتُ الحَيْنِ في غيرِ مطمعِ
تركتَ اقتبالَ العفوِ والعفوُ مُعرضٌ
اذِ السلمُ باقٍ والقوى لم تقطّعِ

أفالآنَ حاولتَ الرضى بعد ما مضتْ
صريمةُ غضبانٍ على الشرّ مُجمعِ
اذا بَدَرَتْ منهُ العزيمةُ لم يقفْ
وان جاز عنهُ الامرُ لم يَتتبَّعِ

وقال أيضاً يمدح ابرهيم بن الحسن بن سهل :

جامعُ الرأي ليس يخفى عليهِ
أينَ وجهُ الصوابِ والتدبيرِ

. . . .

فلهُ كلما أتتهُ أمور
مشكلاتٌ دلائلٌ من أمورِ
كسرويٌّ عليهِ منهُ جلالٌ
يملأُ البهوَ من بهاءٍ ونورِ
وترى في رواقه بهجةَ المل
كِ اذا ما استوفاهُ صدرُ السرير
واذا ما أشار هبَّت صبا المس
كِ وخلتَ الآنَ من كافورِ

يطلقُ الحكمةَ البليغةَ في عر
ضٍ حديثٍ كاللؤلوء المنثورِ

وقال ايضاً يمدح اسماعيل بن بلبل

مضيٌّ وابهى المشرفياتِ ان تُرِي
مؤثرها من جوهر أو صقيلَها

عظيمُ كراديسِ المناكبِ قادرٌ
على الدرع ان يغتال عنهُ فضولها

وقال المتنبي يمدح عليّ بن ابرهيم التنّوخيّ :

بعيدُ الصيتِ منبثُّ السرايا
يشيّبُ ذكرُهُ الطفلَ الرضيعا

يغضُّ الطرفَ من مكر ودهيٍ
كأَنَّ بهِ وليسَ بهِ خشوعا

وقال يمدح الامير بدر بن عمار :

نيطتْ حمائلهُ بعاتقِ محربٍ
ما كرَّ قطُّ وهل يكرُّ وما انثنى

فكأنهُ والطعنُ من قدّامه
متخوّفٌ من خلفهِ ان يُطعنا

. . . .

أقبلتَ تبسمُ والجيادُ عوابسٌ
يخببنَ بالحَلَقِ المضاعفِ والقنا
عقدتْ سنابكها عليها عثيراً
لو تبتغي عَنَقاً عليه لامكنا
والامرُ أمرُكَ والقلوبُ خوافقٌ
في موقفٍ بين المنيةِ والمنى

وقال يمدح أبا سهل سعيد الانطاكي :

وتستحبُ الحِبَرَ القيناتُ رافلةً
من جودهِ وتجرُّ الخيلُ أرسانا

وقال يمدح سيف الدولة :

فلا تبلغاهُ ما أقولُ فانهُ
شجاعٌ متى يذكرْ لهُ الطعنُ يشتقِ

ضَروبٌ باطرافِ السيوفِ بنانُهُ
لعوبٌ باطرافِ الكلامِ المشقَّقِ

. . . .

لقد جدتَ حتى جدتَ في كلِّ ملَّةٍ
وحتى أتاكَ الحمدُ من كلِّ منطقِ
رأى ملكُ الرومِ ارتياحَكَ للندى
فقامَ مقامَ المجتدي المتملِّقِ
وخلّى الرماحَ السمهريَّةَ صاغراً
لِأَدربَ منهُ بالطعانِ وأحذقِ
وكاتبَ من أرضٍ بعيدٍ مرامُها
قريبٍ على خيلٍ حوالَيكَ سبَّقِ
وقد سارَ في مسراكَ منها رسولُهُ
فما سارَ الاّ فوقَ هامٍ مفلَّقِ
فلما دنا أخفى عليهِ مكانَهُ
شعاعُ الحديدِ البارقِ المتألّقِ

وأقبلَ يمشي في البساطِ فما درى
الى البحرِ يسعى أم الى البدر يرتقي
ولم يُثنِكَ الأعداءُ عن مُهَجاتِهم
بمثلِ خضوعٍ في كلامٍ منمَّقِ
وكنتَ اذا كاتبتَهُ قبلَ هذهِ
كتبتَ اليهِ في قذالِ الدمستقِ
فان تُعطهِ منكَ الأمانَ فسائلٌ
وان تُعطهِ حدَّ الحسامِ فأخلقِ

وقال يمدحهُ ايضاً :

سِرْ حلَّ حيثُ تحلُّهُ النوَّارُ
وأرادَ فيكَ مُرادَكَ المقدارُ
واذا ارتحلتَ فشيَّعتكَ سلامةٌ
حيثُ اتجهتَ وديمةٌ مِدْرارُ

قال الوزير الكاتب ابو محمد بن عبد الغفور يمدح الامير يحيي وهو أحد أُمراء زمانه معارضاً قول المتنبي الاخير :

وإذا ارتحلتَ فشيَّعتكَ سلامةٌ
وغمامةٌ لا ديمةٌ مِدرارُ

تنفي الهجيرَ بظلّها وتنيمُ بالـ
ـرشِّ القتامَ وكيف شئتَ تدارُ

قال هذا ما تمنَّاهُ الوليّ، لا ما تمناهُ الجعفيّ، فانه قال حيث ارتحلتَ وديمة، وما تكاد تنفذ معها عزيمة، واذا سفحتْ على ذي سفرَ، فما أحراها بأن تعوقهُ عن الظفر، ونعتها بمدرار، فكان ذلك أبلغ في الاضرار: قلتُ وهو نقدُ بصيرٍ في معاني الكلام، جدير بأن تتنبه لهُ الافهام.

وقال احد شعراء الحماسة: في الشكر:

سأشكرُ عمراً ما تراخت منيتي
أياديَ لم تمنْنْ وانْ هيَ جلَّتِ

رأى خلَّتي من حيثُ يخفى مكانُها
فكانت قذى عينيهِ حتى تولّتِ

وقال البحتري يشكر الفتح بن خاقان:

أَلنتَ ليَ الايامَ من بعد قَسوةٍ
وعاتبتَ لي دهري المسيءَ فأعتبا
وأَلبستني النعمى التي غيَّرت أخي
عليَّ فأمسى نازحَ الدارِ أجنبا
فلا فزتُ من مرِّ الليالي براحةٍ
اذا أنا لم أُصبِح بشكركَ مُتعَبا
على أنَّ افواف القوافي ضوامنٌ
لشكركَ ما أبدى دُجى الليلِ كوكبا
ثناءً تقصَّى الارضَ نجداً وغائراً
وسارت بهِ الركبانُ شرقاً ومغربا

وقال المتنبي يشكر هديةً بعث بها اليه سيف الدولة مع ابنهِ الى الكوفة :

والمسمَّونَ بالأميرِ كثيرٌ
والأميرُ الذي بها المأمولُ
الذي زلتُ عنهُ شرقاً وغرباً
ونداهُ مقابلي ما يزولُ

. . . .

ومُوالٍ تحييهمُ من يديهِ
نِعَمٌ غيرُهم بها مقتولُ
فرسٌ سابحٌ ورمحٌ طويلٌ
ودِلاصٌ زغفٌ وسيفٌ صقيلُ
لستُ أرضى بأن تكونَ جوداً
وزماني بأن أراكَ بخيلُ
نغَّصَ البعدُ عنك قربَ العطايا
مرتعي مخصبٌ وجسمي هزيلُ
ان تبوَّأتُ غيرَ دنيايَ داراً
وأتاني نيلٌ فأنت المنيلُ
من عبيدي ان عشتَ لي الفُ كافو
رٍ ولي من نداكَ ريفٌ ونيلُ
ما أُبالي اذا اتَّقتكَ الرزايا
من دهتهُ حبولها والخيولُ

فاذا وازنتَ بين قصائد المدح المتقدمة ، رأيتَ

العرندس البدويّ قد جآء في كلامهِ بغاية المدح ، مع انهُ كما يتبين للناقد ، لم يذكر غير الحقيقة ، ولم ينفِ عن ممدوحيهِ سوى المذموم من الخصال ، وقد ذكر بعض صفاتهم المحمودة التي دعته الى المدح ، فلم يجعل الزمن خادم أمرهم ، او السعد عبد مجدهم ، او الرياح طوع اشارتهم ، او المكارم فاضت على جميع أهل الارض من بحور اياديهم ، — كما اولع المولدون بعدهُ بذلك حسبما تقدم نقدهُ في الجزء الاوّل — . ومع ما تقدم فلو قُرئت هذه الابيات على ملك لتمنى لو انها فيه . بقي أمرٌ يراهُ الناقد ، هو ن العرندس لم يصف لنا مقامات ممدوحيه ، وبعبارة أخرى ، لم نعلم من كلامه مِهنَهم وصناعاتهم ، فلا يُدرى أكانوا وزرآء ، ام ملوكاً ، ام سوقة ؟ بَيْدَ انَّ هذا مما لا يحار فيهِ الناقد ، الاّ اذا جهل اسم الشاعر وعصره ، ولكن نحن نعلم ان العرندس بدويّ يمدح قوماً من كرام العرب ، وليسوا من الامرآء ، اذ لو كانوا امرآء لما فاته ذكر ذلك .

وبالاجمال فهذه الابيات تعدُّ من الطبقة العالية في

باب المديح ، ويعدُّ قائلُها من السابقين .

واذا نظر الناقد الى قصيدة أبي تمَّام في ابن الزيات ، بدا لهُ منها على قصرها ، حصة من ترجمة الممدوح ، عرفنا منها عنهُ ما فات المؤرخين ذكره ، فقد أعلمنا ابو تمَّام ، ان ابن الزيات لم يكن وزير الخليفة المعتصم فقط ، بل كان أيضاً والي الشرطة ، ومحتسباً ، ومستشار ديوان الملك ، وشيعياً . وهاتان المرتبتان لم يذكرهما ابن خلدون في خطط الدولة العباسية ، ولعل مرتبة الشيعيّ كانت لذلك العهد ، كوزارة المذاهب في كثير من دول هذا الاوان ، وان قيل من اين لك هذا التفسير ؟ قلت من صدق النقد ، لانه لو زعم زاعم ، ان لفظة شيعيّ في بيت ابي تمَّام ، هي بمعناها المفهوم لغةً وعرفاً ، وهو احد الشيعة او المتشيعين للامام عليّ ، لاجبتهُ لم يسبق لاحد من الشعرآء ان يجعل مذهب ممدوحهِ ، او نحلته ، من صفات المدح ، ولو كانت كلمة شيعيّ في ذلك العهد ، من الفاظ المدح ، لمدح بها كثير من الخلفاء العباسيين ، وكانوا من أشد الناس تشيعاً لعهدهم ، وبعد فقد

كان أكثر الناس في ذلك التاريخ ، شيعةً او متشيعين ، وخصوصاً في بغداد ، فلا معنى اذاً لتخصيص الممدوح بكلمة شيعي " الا اذا فسرت بما تقدم ، او بما يشبهه .

ومن هذه القصيدة فهمنا ان الممدوح كان رزيناً ، فصيحاً ، جسوراً ، مهيباً ، غير مسرف بالمسرات في ساعات رضاه ، ولا متسرع في ساعة الغضب ، وان مجلسه مجلس احترام ورصانة ، وفي ذلك كله اشارة الى ان سلفه كان على عكس ذلك ، ولست ارجم بالغيب ، فانني عند انتقادي هذه القصيدة ، قد وقع ذلك عندي موقع الظن لقوله :

لا المنطق اللغوُ يزكو في مقاومهِ
يوماً ولا حجةُ الملهوف تستلبْ
لا سورةٌ تتقى منهُ ولا بلهٌ
ولا يحيف رضى منه ولا غضب

فرمت امتحان نقدي ، ورأيت التاريخ أعدل شاهد ، فرجعت اليه ، قال ابن الاثير : كان الفضل ابن مروان شرس الاخلاق ، ضيق العطن ، كريه اللقآء ، بخيلاً ،

مستطيلاً : والفضل كان وزير المعتصم قبل ابن الزيات ، فصح عندي حكم النقد المتقدم .

وكان ابن الزيات يكرّم الشعرآء ، ومع ما كان لهُ عند الخليفة المعتصم من المنزلة الرفيعة ، لم يكن يتمكن من حضرته في كل وقت ، بل كان يُحجَب أحياناً ، ومن قول ابي تمَّام هذا ، يتحقق الناقد ، ان أبا تمَّام لم يداهن ابن الزيات في هذه القصيدة ، بل كأَنهُ جعلها له كترجمة حاله ، فذكر صفاته واكثر شؤونه ، اذ قول الشاعر للممدوح ، ان الخليفة قد حجبك ، ليس من صفات المدح ، بل أخلق به ان يكون دفعاً لتعبير الحاسدين كما يظهر من سياق تعبيره ، وقد علمنا من قول أبي تمام ايضاً ان ابن الزيات كان يتخذ حجَّاباً لنفسه ايضاً في وزارته .

وقس على ما تقدم مدحه الحسن بن وهب ، فقد صوَّرهُ أحسن تصوير ، فعلمنا منه ، انه كان صبيح الوجه ، لين العريكة ، لطيف العشرة ، أديباً ، خطيباً .

والذي يراه الناقد في مدح أبي تمام ، انه كان يعمد

لتصوير صفات ممدوحيه الغالبة عليهم ، ولا أُريد بذلك انهم كلهم كانوا متخلقين باحسن الخلق ، بل انه كان يأخذ أحسن ما فيهم من صفاتهم المعلومة ، فلا يلجأ الى المغالاة والمبالغات الممتنعة عقلاً ، وكان في ذلك صادق النظر ، بصيراً بوجوه المدح ، وهو في هذا الباب يُعد من السابقين المبرّزين .

أما البحتري فلم يكن دون أبي تمام في هذا القسم ، وكان يدخل المدح من أبوابه ، ويتحذر من السلوك في غير طريقه الواضحة الامينة ، فقد علمنا من مدائحه للفتح بن خاقان ، ان الممدوح كان جميل الصورة ، وان قيل ان الشعرآء ، كثيراً ما يمدحون الملوك والوزرآء بمثل ذلك ، فينسبون للممدوح الجمال ، وقد لا يكون ، قلتُ ان الكلام الآن على الشعرآء ذوي المنزلة الاولى والطبقة العالية ، وهؤلاء لم يكونوا ينطقون في مثل هذه المواضع ، أو بمثل هذه الصفات ، الاّ بعد الامعان في التروّي ، ومثل الفتح بن خاقان ، لو كان قبيح الوجه ، بل لو لم يكن جميلاً ، لما احتمل من البحتري

قولهُ : بوجهٍ هو البدرُ المنيرُ نفى الدجى : وقولهُ

ويبتدرُ الرآؤون منـهُ اذا بدا
سنا قمرٍ من سدَّة الملكِ مطلعِ

بل لكان خذلهُ وأقصاه وعدَّ ذلك احتقاراً لهُ وتهكماً منهُ ، فان للبحتري مندوحةً عن مثل هذه الاكذوبة الفاضحة ، بمدح الفتح بصفاتٍ كثيرةٍ كانت به ، فضلاً عن ان الحسن ليس من الصفات التي لا بد منها للرجال من اكابر الناس ، نعم ان جمال الوجه من الكمالات المستحسنة والمحبوبة ، فان وجدت في الممدوح ، كانت عدَّة للمادح ، يذكرها في تضاعيف كلامه عنه ليجمّل بها صورة الممدوح الحسّية ، مثلما يجمّل صورته المعنوية بذكر الفضائل التي تحلّى بها ، ولم يكتفِ البحتري بالاشارة الى جمال الفتح في هذين الموضعين ، بل كرر ذلك في سائر مدائحهِ لهُ ، وهو برهانٌ على ما ذكرته من جمال الفتح .

ثم علمنا من وصفه لهُ ان الفتح كان طويل القامة ، عظيم الهيبة ، وان الناس كانوا اذا بصروا به قادماً ، يقومون

له اجلالاً ، ولا ينطقون عند مروره ببنت شفة ، كأن على رؤوسهم الطير ، وانه كان له حجابٌ ورواقٌ ؛ والرواق موضعٌ أو بهوٌ يجلس الزائرون فيه منتظرين الى ان يصدر لهم الاذن بالدخول على الملك أو الوزير ، فاذا صدر الاذن ، نادى الحاجب الاول باسم الزائر فيكرر ذلك الحاجب الثاني ، فيعلم ان الوزير يدعوه ، فينهض مسرعاً ويدخل عليه ،

وعلمنا منه ان الفتح بن خاقان ، كان شديد الحقد ، كأكثر الملوك والوزراء ، بل ربما كان أشد في ذلك من سواه لقول البحتري :

حليمٌ فان يبلَ الجهولُ بحقدهِ
يبتْ جارَ رأسِ الحيَّة المتقطّعِ

وان قيل انك تصور الوزير ، ولا برهان لديك غير قول البحتري ، قلتُ وقوله هذا حجةٌ ، يدعمها صدق النقد ، فمثل البحتري لا يمدح وزيراً كالفتح بن خاقان ، عالماً بمقامات الكلام ، علماً بالفهم والذكاء وسعة العلم ، بقولهِ انه حقودٌ ، فليس الحقد من الصفات النبيلة ليمدح عليه صاحبه ، ولكن

لما كان الحقد في الفتح صفة عُرف بها واشتهر عند الناس ، وكان حسّادهُ يعيبون عليه ذلك ، واراد البحتري ان يرد عليهم ، لم يشأ ان ينكره ، لان انكار الظاهر ، ضرب من العجز والحمق ، ولا يفعله الاّ الجهول ، فكأَنه قال ان الوزير حليم ، ما دام الحلم نافعاً ، فان لم ينجع ، فويلٌ للجهول من حقدهِ ، وقد قال في موضع آخر :

خفيُّ مَدَبِّ الكيدِ تثني أناته
تسرّعُ طيشِ الجاهلِ المتوثّبِ
ويبدي الرضى في حالة السخط للعدى
وقورٌ متى يقدح بزنديه يثقبِ

فانظر كيف كان في مدائحه جميعها يصور أخلاقه وعواطفه ، وحركاتهِ وسكناته ، فيصوّر المكر والخداع أحسن تصوير حتى ليودّ القارئ لو كانت فيه تلك الاخلاق .

وعلمنا من البحتري ان الفتح كان فطناً عاقلاً ألمعياً يتحيّن الفرص لبلوغ مقاصده ، وعلى الجملة فان الخليفة المتوكل لم يكن يفعل شيئاً الاّ بعد مشورته ، وانه كانت لهُ المنزلة

العالية الاولى في الدولة بعد الخليفة ، بل كانت لهُ هيبةٌ في قلوب الناس لم تكن للمتوكل نفسه . ومن أنعم النظر في مدائح البحتري للمتوكل والفتح ، وكان ذا بصيرة نقادة ، تحقق لديه هذا القول ، ووقف من سائر مدائحهِ لهما على المنزلة الرفيعة التي كانت للفتح عند المتوكل وفي دولته ، وعلى كثير من احوال الفتح ؛ على انك لو فتشت عن ذلك في أكثر التواريخ ، كتاريخ ابن الاثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، لما وجدت شيئاً منه ، بل لم يذكرهُ بعضهم ، الا عَرَضاً عند ذكر قتل المتوكل .

وأما ممدوحهُ ابرهيم بن الحسن بن سهل ، فهو أخو بوران زوجة الخليفة المأمون ، ولم أقف لهُ على ترجمة في الوفيات ، ولا في فوات الوفيات ، ولا في الكامل لابن الاثير ، ولا في ابن خلدون ، ولكن يظهر للناقد من كلام البحتري فيه ، أن ابرهيم هذا كان اميراً وُلّيَ بعض الاقطاع ، وكان اديباً ، فصيحاً ، عاقلاً ، كريماً ، وكان يتضمخ بالمسك ، وكانت الولاةُ لعهدهِ تُلقَّب بالملوك ، وكان عمهُ الفضل

ذا الرئاستين ، فلا بدع ان سمّاهُ البحتري ملكاً وهو أخو بوران ونسبهُ يصعد الى الملوك الساسانيين .

واذا نظر الناقد في مدحهِ اسمعيل ابن بلبل ، وكان وزيراً ، يراه ذهب الى الاغراق في المدح ، بعد ان وصفه بما كان عليه من عِظَم كراديس المناكب والجسامة والقوة ، وكلها صفات حقيقية ولا ريب ، وقد كانت لذلك العهد ، كأعزّ الخصال واعظم النعم الربانية ، وكان لها المقام الاول في الدول ، لحاجاتهم الى الضرب والطعان ، ومنازلة الاقران ، وفي جميع هذه الاحوال ، كان لا بدَّ للمحارب من لبس الدروع الثقيلة ، وعلى الخصوص الوزراء والقوَّاد ، فانهم كانوا احوج الناس الى الجسامة والقوة ، لان الفنون الحربية ، كانت تقضي على القائد في تلك العصور ، أن يكون في مقدمة الجيش عند النزال او في المبارزة ، كما هو معلوم من مطالعة تواريخهم .

وعلى الجملة فان البحتري كان اصدق الشعراء ، وأعلمهم بأساليب المدح ، فانهُ قلَّما تجاوز الى الغلوّ والاغراق ،

وكان حال نظمهِ يصنع صنيع المصور البارع ، فينظر الى صفات الممدوح من ملامحهِ ، واخلاقهِ ، وحسَبهِ ، فما كان من سحنتهِ ظاهر الحسن ، او من اخلاقهِ واضح الفضل ، او من اصلهِ حريًّا بالثناء ، رقمهُ عليه في قصيدته ، وحلاهُ به ، وأبرز الممدوح للقارئ والسامع ، مصوَّراً أحسن تصوير ، وهي صفة امتاز بها البحتري على جميع الشعراء ، فهو السابق المجلّي في هذه الموازنة .

واذا نظرت الى قول المتنبي في عليّ التنوخيّ ، وجدته قد اصاب شاكلة الصواب ، في البيتين السابقين ، الاّ انهُ لم يقف عند هذا الحدّ ، بل تجاوزهُ الى المبالغة المكروهة ، فقال بعد ذلك :

إن استجرأتَ ترمقهُ بعيداً
فأنتَ استطعتَ شيئاً ما استُطيعا

وان ماريتني فاركبْ حصاناً
ومثّلهُ تخرُّ لهُ صريعا

ثم لم يكفهِ هذا فقال له بعد ذلك :

لو استبدلت ذهنك من حسامٍ
قددتَ بهِ المغافر والدروعا
لو استفرغت جهدك في قتالٍ
أتيت بهِ على الدنيا جميعا

وهذا من اكبر ما يُعاب عليه المتنبي في شعره ، وله سبب سيأتي ذكره .

واذا انتقدت البيت المتقدم في عبد الرحمن بن الانطاكي عجبت من صدور مثل هذا الكلام عن المتنبي ، نعم انه ليُقال ان الزلازل كانت تنتاب انطاكية الحين بعد الحين ، والممدوح من صلحاء انطاكية ، فلا عجب ان يحضر المعنى الذي أتى به ، الى ذهن الشاعر ، ولكن ليت شعري ، ألم يكن من معنى يصل بين صلاح الممدوح ودفع الزلازل ، سوى رشّ المدن بماء رجليه ؟ ومن تصفح هذه القصيدة ، علم انها من أوائل شعره ؛ فانه اعطى ممدوحه الانطاكي من وافر الثناء ، ما ربّما ضنّ بعد هذا بمثله على الملوك والامراء ، وهي من هذا الوجه تدخل لدى الناقد ، في باب المداهنة

والا كاذيب . وما اعظم الفرق بين هذه القصيدة والتي مدح
بها ابا العشائر وبها يقول :

ليس الاّ أبا العشائر خلقٌ
ساد هذا الأنامَ باستحقاقِ

. . . .

ثاقبُ الرأي ثابتُ الحلمِ لا يقـ
ـدِرُ أمرٌ لهُ على إقلاقِ
يا بني الحرث بنِ لقمانَ لا تعـ
ـدَمْكُمُ في الوغى متونُ العتاقِ

. . . .

كرمٌ خشّنَ الجوانبَ منهم
فهو كالماءِ في الشفارِ الرقاقِ

فهو في هذه القصيدة ، قد تحدّى طريقة البحتريّ
بتصوير اخلاق الممدوح ، مثلما يصوّر المصوّر ، ملامح
الشخص المراد تصويره ، وهذا هو المطلوب من المادح ،
والمسنون لهُ في شرع المدح عند الناقدين .

أما قوله في ابن عمار، فهو في غاية الحسن، وذلك، لانه كان يصوّر في هذه الابيات، دخول الامير المذكور على طبرية، والمتنبي، في باب وصف المواقع الحربية، والحفلات الملوكية، والمشاهد الطبيعية، كان سبّاق غايات، بل منزّل آيات، لكنه متى وصل الى طريق المدح، وجد الخطب جليلاً، والسير عسيراً طويلاً، فكأَنهُ كان يرى ان الصفات التي يليق لها المدح، غير مجتمعة في الممدوح، وانهُ ان وصفه بما فيه، كان معتوباً، على انه اختصر أو قصَّر، وان زاد على ذلك كذب، وان كان ولا بد من الكذب لاسترضاء الممدوح، فليكن كذباً يحسن وقعه في أذن العامة من الناس، حتى يَدهشوا لهُ، ويظهر للعقلاء منهم، انه مصانعةٌ، ومجاملة يُراد منهما الوصول الى نوال الممدوح.

والذي كان يبعث المتنبي على ذلك، هو ما كان في نفسه من الميل الى أعلى المراتب في الدول، وما كان يشعر بهِ من الاستحقاق لذلك، وما يراهُ في نفسه من تفردهِ بين البشر بغايات مكارم الاخلاق، ومحاسن الصفات، والبأس،

والاكاذيب . وما اعظم الفرق بين هذه القصيدة والتي مدح
بها ابا العشائر وبها يقول :

ليس الاّ أبا العشائر خلقٌ
ساد هذا الأنامَ باستحقاقِ

. . . .

ثاقبُ الرأي ثابتُ الحلمِ لا يقـ
ـدِرُ أمرٌ لهُ على إقلاقِ
يا بني الحرثِ بنِ لقمانَ لا تعـ
ـدمْـكمُ في الوغى متونُ العتاقِ

. . . .

كرمٌ خشّنَ الجوانبَ منهم
فهو كالمـاء في الشفارِ الرقاقِ

فهو في هذه القصيدة ، قد تحدّى طريقة البحتري
بتصوير اخلاق الممدوح ، مثلما يصوّر المصوّر ، ملامح
الشخص المراد تصويره ، وهذا هو المطلوب من المادح ،
والمسنون له في شرع المدح عند الناقدين .

أما قوله في ابن عمار، فهو في غاية الحسن، وذلك ، لانه كان يصوّر في هذه الابيات ، دخول الامير المذكور على طبرية ، والمتنبي ، في باب وصف المواقع الحربية ، والحفَلات الملوكية ، والمشاهد الطبيعية ، كان سبّاق غايات ، بل منزَل آيات ، لكنه متى وصل الى طريق المدح ، وجد الخطب جليلاً ، والسير عسيراً طويلاً ، فكأَنهُ كان يرى ان الصفات التي يليق لها المدح ، غير مجتمعة في الممدوح ، وانهُ ان وصفه بما فيه ، كان معتوباً ، على انه اختصر أو قصَّر ، وان زاد على ذلك كذب ، وان كان ولا بد من الكذب لاسترضآء الممدوح ، فليكن كذباً يحسن وقعه في أذن العامة من الناس ، حتى يَدهشوا لهُ ، ويظهر للعقلآء منهم ، انه مصانعةً ، ومجاملة يُراد منهما الوصول الى نوال الممدوح .

والذي كان يبعث المتنبي على ذلك ، هو ما كان في نفسه من الميل الى أعلى المراتب في الدول ، وما كان يشعر بهِ من الاستحقاق لذلك ، وما يراهُ في نفسه من تفردهِ بين البشر بغايات مكارم الاخلاق ، ومحاسن الصفات ، والبـأس ،

والعلم، وإعجابهُ بنفسهِ إعجاباً جعله منذ أول عمرهِ يدعي النبوَّة، وهذا الميل والشعور والاعجاب، أنطقه بمثل الكلام الآتي، عن نفسه

ان اكن معجباً فعجبُ عجيب
لم يجدْ فوقَ نفسه من مزيدِ

وكقوله

تغرَّب لا مستعظماً غيرَ نفسهِ ولا قابلاً الاَّ لخالقهِ حكما

وكقوله

ما نالَ أهلُ الجاهليةِ كلّهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

وكقوله

كم تطلبونَ لنا عيباً فيعجزُكم ويكره اللهُ ما تأتون والكرمُ

وكقوله

وفؤادي منَ الملوكِ وان كا نَ لساني يُرى منَ الشعراء

وغير ذلك من مثله وهو شيء كثير، وحجّة لا تدفع على ما كان في نفسهِ من الترفع، والزهو، والاعجاب، ولعله لهذا السبب كان يلجأ الى وصف الحفلَات والمشاهد والمواقع

الحربية ؛ ليخفف بذلك عن نفسهِ كلفة المدح ، ويتخلص منها على قدر الامكان ، وانظر ما أحسن ما وصف به بدر بن عمار لولا انه تجاوز الحقيقة بوصف الغبار المتصاعد عن سير الخيل .

وقوله في مدح أبي سهل الانطاكي «وتسحبُ الحِبَر» البيت . فيه فائدة تاريخية يستفاد منها ان المغنيّات لعهد الممدوح ، كنّ يخرجنَ من لدنهُ ، وهنَّ يسحبنَ الحبر ويرفلنَ به من جوده . كما تسحب النساء لهذا العهد الحبر في مصر وغيرها ، أما جرّ الخيل أرسانها ، فان اهداءهم الخيول ، عادة قديمة معروفة . وأشار بها الى ان الممدوح ، كان من اكابر الناس واجوادهم .

أما قافيته في مدح سيف الدولة ، فهي على عادته من الغلو في المدح ، ولكنه لما انتقل الى حكاية الحال ، وصف ذلك أجمل وصف .

وأما مديحه في كافور ، ففيه موضع آخر للمؤآخذة غير الغلوّ ، وذلك انه قلّما ذكرهُ الاّ ذكر لونهُ الاسود ، وكان

في وسعهِ أن يستغني عن ذلك ، فان كثيراً من مدائح الخلفآء والامرآء ، قد خلت من ذكر لونهم ، وقد ساقهُ ذلك الى تكلف ما يُضحَك منه كقوله :

تفضحُ الشمسَ كلما ذرَّتِ الشمـ
ـسُ بشمسٍ منيرةٍ سودآءِ

فكيف تكون منيرةً اذا كانت سودآء ؟ وقد جرَّ ذلك بعض شرّاح ديوانه أن يتمحلوا له تخاريج كقولهم انه اراد بذلك وضوح مجدهِ وباهر عزه .

وعلى الجملة فالمتنبي يُعدُّ آخراً بين هؤلآء المادحين ، وهو في باب المديح ليس من المجلّين ولا من السابقين .

واذا نظر الناقد في اقوال الشاكرين الثلاثة ، وجد كلاً منهم قد افصح بشكره ، لما نالهُ من نعم المشكور واحسانه ، وان شاعر الحماسة ، لم يظهر أدنى تكلُّف بالشكر ، وشرح حكاية حاله بأبسط مقال ، وهو غاية في الشكر ، تناسب حالة عصره وسذاجته البدوية ، بيد أن البحتري ، هو المبرّز في هذا السباق فانظر في قوله :

ألنتَ ليَ الايامَ من بعد قسوةٍ
وعاتبتَ لي دهري المسيءَ فأعتبا

كم هو كلام سهل بليغ رقيق يشف عن صدق الحكاية وسرور الشاكر بما وجدهُ من رفاهة الحال ، عقب نعمة المشكور ، ولم يكتف بذلك ، بل رأى ان حقوق الوفآء ، وفروض الشكر ، تدعوهُ الى ان ينبئ المنعم بما آلت اليهِ حاله من السعادة ولا شيءَ أبلغ في الشكر من ذلك فقال :

وألبستَني النعمى التي غيرَّتْ أخي
عليَّ فأضحى نازحَ الدارِ أجنبا

وهو كلامٌ متناهٍ في الفصاحة والبلاغة ، دالٌّ على مدى نظر البحتري واطلاعهِ على اخلاق البشر ، وهي حالة غير منكَرة ، يجدها الناقد عريقةً في اخلاق البشر ، في كل زمن وقطر .

أما المتنبي فقد احسن في لاميَّتهِ المذكورة غاية الاحسان ، فذكر فيها الهدية وشكر ، الاّ انهُ كعادتهِ تجاوز حدود الشكر الى المغالاة بقولهِ :

ان تبوَّأتُ غيرَ دنيايَ داراً
وأتاني نَيـلٌ فأنت المنيـلُ

وقد يُقال انهُ قصد بذلك الاشارة الى مواصلة سيف الدولة لهُ بالاحسان والانعـام ، في حالتي القرب والبعد ، ولـكنهُ قد اشتطَّ في القول ، وأين منه قول البحتري :

وألبستَني النعمى التي غيَّرت اخي
عليَّ فأمسى نازحَ الدار أجنبا

وعلى الجملة فهو في باب الشكر ، دون البحتري ، وفوق كل ذي علمٍ عليم .

الفصل الثاني عشر

في

موازنة الهجو

قال البحتري يهجو محمد أبا جعفر بن بسام :

أبا جعفرٍ ليس فضلُ الفتى اذا راح في فرطِ إعجابهِ

ولا في فراهةِ برذَونهِ ولا في نظافةِ أثوابهِ
ولكنَّهُ في الفعالِ الكريـ ـم والخطر الأشرفِ النابهِ
رأيتك تهوى اقتناءَ المديحِ وتجهلُ مقدارَ إيجابهِ
وكيف ترجّي وصولاً اليهِ ولم تتوصَّلْ بأسبابه
لئن كنتُ أمنحهُ الاكرمينَ فما أنتَ أوَّلُ اربابهِ
وإن أتطلَّبْ بهِ نائلاً فلستَ مليئاً بإطلابهِ
وان أتصدَّقْ بهِ حسبةً فانَّ المساكين أولى بهِ

وقال المتنبي يهجو كافوراً :

وأسودَ مشفَرُهُ نصفهُ يقالُ لهُ أنتَ بدرُ الدُّجى

وقال ايضاً في ابن كروُّس :

فيا ابنَ كروّسٍ يا نصفَ أعمى
وإن تفخَرْ فيا نصفَ البصيرِ
تُعادينا لأنَّا غيرُ لُكنٍ
وتبغضُنا لأنَّا غيرُ عورِ
فلو كنتَ امرأً يُهجَى هجوَنا
ولكن ضاقَ فترٌ عن مسيرِ

وقال ابن سكَّرة :

تهتَ علينا ولستَ فينا ولِيَّ عهدٍ ولا خليفه
فَتِهْ وزدْ ما عليَّ جارٍ يُقطعُ عني ولا وظيفه
ولا تقُلْ ليس فيَّ عيبٌ قد تَقْذِفُ الحرَّةُ العفيفه
والشعرُ نارٌ بلا دُخانٍ وللقوافي رقىً لطيفه
كم من ثقيلِ المحلّ سامٍ هوَتْ بهِ أحرفٌ خفيفه
لو هُجِيَ المسكُ وهو أهلٌ لكلّ مدحٍ لصار جيفه

وقال بعضهم في قاضٍ :

يكرهُ أن يشربَ من فضَّةٍ بل يشربُ الفضةَ ان نالها

وقال ابن الشخباء العسقلاني يهجو وزيراً :

حجابٌ وإعجابٌ وفرطُ تصلّفِ
ومدٌّ يدٍ نحو العلا بتكلُّفِ
ولو كانَ هذا من وراءِ كفايةٍ
عذرنا ولكن من وراءِ تخلُّفِ

ولابن الحجاج وكان التمس من رجل أن يذكرهُ عند بعض الكبراء :

يا صنماً يعبدُهُ شعري
بلا ثوابٍ وبلا أجرِ
انطقْ بلفظٍ قبل أن يحسبوا
أنكَ من طينٍ وآجرِّ

ولهبة الله بن الفضل القطان :

نَسبٌ الى العبّاسِ ليس شبيهَهُ
في الضعفِ غيرُ الباقلاّء الاخضرِ

ولأبي شجاع الروزراوي في وزيرٍ عزل عن الوزارة :

تولاَّها وليس لهُ عدوٌّ　　وخلاّها وليس لهُ صديق

ولأبي الحسن الرقاقي في الخوارزمي :

مات ابو بكرٍ وكان امرأً　　أدهمَ في آدابهِ الغُرِّ
ولم يكنْ حرًّا ولكنّهُ　　كان أميرَ المنطقِ الحرِّ

وقلتُ فيه لاجل الموازنة :

مات أبو بكرٍ ويا طالما　　قد ملأ الاسماع أخفاشا
وكان ذا لؤمٍ وذا خسَّةٍ　　وكان مثلَ الصلّ نهّاشا

ولمحمد بن بقية :

أقام على الاهواز خمسين ليلةً
يُدبّرُ أمرَ الملكِ حتى تدمّرا

ولبعضهم :

ولو أني بُليتُ بهاشميٍّ خؤولتُهُ بنو عبد المَدانِ
لهانَ عليَّ ما القى ولكن تعالَوا فانظروا بمن ابتلاني

ولزنكي ابن آق سنقر :

قامَ الحمامُ الى البازي يهدّدهُ
واستيقظتْ لأُسودِ البرِّ أضبُعهُ

ولبعضهم :

خلتِ الرقاعُ من الرخا خِ ففرْزنَتْ فيها البيادقْ

على ان ما ذكرتهُ ليس فيهِ شيءٌ من النكات المضحكة . وهو أصعب ما في هذا الباب وأنكى ، ولم أقف في جميع ما فتشته من الكتب على أزيد مما يأتي ، فمن ذلك قول أبي الطيب الطبري :

يا ابنَ المرخَّم صرت فينا قاضياً
خَرِفَ الزمانُ تراهُ أم جُنَّ الفلكْ

إنْ كنتَ تحكمُ بالنجومُ فربما
أما بشرع محمدٍ من أين لكْ

ومن ذلك قول بعضهم في رجل يدعي الصلاح :

خرجنا لنستسقي بيمنِ دعآئه
وقدكادَ هدبُ الغيم ان يبلغَ الارضا
فلما ابتدا يدعو تقشّعت السما
فما تمَّ الاَّ والغمامُ قد انفضَّا

ولاسمعيل الحمدوني :

يا اُبنَ حربٍ كسوتني طيلساناً
أنحلتهُ الازمانُ وهو سقيمُ
فاذا ما رَفوتُهُ قال سبحا
نكَ محيي العظامِ وهي رميمُ

ولهُ :

يا اُبن حربٍ كسوتني طيلساناً
ملَّ من صحبةِ الزمانِ فصدّا

طالَ تردادهُ الى الرفوِ حتى
لو بعثناهُ وحدهُ لتهدَّا

وله ايضاً :

طيلسانٌ لو كان لفظاً اذن ما
شكَّ خلقٌ في انَّهُ بهتانُ
فهو كالطورِ اذ تجلَّى لهُ اللَّـ
ـهُ فدكَّتْ قواهُ والاركانُ
كم رفوناهُ اذ تمزَّقَ حتى
بقيَ الرفوُ وانقضى الطيلسانُ

ولبعضهم :

ولي ثيابٌ رثاثٌ لستُ أغسلُها
أخافُ أعصرُها تجري مع المآء

ولفقيد اللغة علامة العصر الشيخ ابراهيم اليازجي :

تعجَّبَ قومٌ من تأخّرِ حالنا
ولا عجبٌ من حالنا ان تأخَّرا

فمذ أصبحت أذنابنا وهي أرؤسٌ
غدونا بحمدِ اللهِ نمشي الى ورا

وقلتُ :

انَّ هذا الفتى المباهي بطهرِ الـ
نفسِ برهانهُ صريحٌ لدينا
بقعٌ فوقَ ثوبهِ صارخاتٌ
انَّ آثارنا تدلُّ علينا

فاذا أردتُ الموازنة بين الشعراء أصحاب هذه الابيات المتفرقات ، طال بي مجال القول الى ما أخاف معه ملل القارئ ، بَيْدَ أنك اذا نظرتَ نظر ناقدٍ بصير ، في جميع شعر البحتري ، لا تجد له من الهجاء اللطيف شيئاً مذكوراً ، ولعل الابيات التي ذكرتها لهُ هنا ، هي من ألطف ما قالهُ في هذا الباب ، وما هي في شيءٍ من الحسن ، وأما سائر أهاجيه ، فهي من الطبقة الرذلة .

أما المتنبي فخلا قصائدهِ في ضبَّة وكافور وابن كغيلغ ، كان اكثر أدباً من البحتري ، وأصون لساناً ، وكان يتعمد

النكات بهجوهِ ، وهذا مما يدلُّ على معرفته مزيتها ، فان كلامه في ابن كرّوس ، بالغ غاية النكاية وأقصى الاحتقار والاهانة ، وليس به شيءٌ من الفحش ، ومثله بيته في كافور .

وأنتَ تعلم انه قد يتفق للشاعر الخامل ان يأتي ببيتٍ بديع المعنى والتركيب ، الاَّ انه اذا استكدَّ قريحته بنظم قصيدة في أي معنى من المعاني ، ظهر تخلّفه عن الاجادة ، وتقصيرهُ عن مجاراة سواهُ من المُجيدين ، والحكم في هذا الموازنة ، على ما وازنتُ من الابيات ، وبين مَنْ ذكرت من الشعرآء .

والذي يظهر للناقد مما ذُكر ، ان الشاعر الحمدوي ، قد تقصّى في التهكّم والسخرية بابن حرب ، وقد جعل ذلك ديدناً له حتى بلغ غاية البراعة ، وجمع بل ابتكر كل ما يمكن ان يقال في هجاء الطيلسان ، اذ له أبيات كثيرة في ذلك ، ولكن من أمعن في البحث في سائر شعره ، لا يرى له مثل هذا النوع في شيء غيرهِ ، وهو دليل على ان الرجل ، لم يكن متفنناً ، ولا بعيد النظر ، فهو كان ينام على ذكر الطيلسان ويستيقظ على ذلك ، ومن المعلوم ، ان تكرار

الكلام في معنى أو موضوع واحد ، مما تملّهُ الاسماع .

والتفنن أو بعبارة أخرى ، التنقُّل في الموضوعات المهجوّة ، ضروري كما لا تجهل ذلك ، فلو فرضنا ان المهجو رجلٌ وكَلٌّ ، متعجرف ، قليل الخير ، يدعى كافوراً ، وسمعنا فيه أبيات المتنبي ، والعسقلاني ، والبحتري وغيرهم كابن الحجّاج وابن سكره ، لحكمنا بعد النظر ، ان الشيخ العسقلاني قد برّز على الجميع ، اذ انه صوّر لنا في بيتين ، جلّ عيوب المهجو المستكرهة ، فلو كان القارئُ مصوراً لما احتاج الى عناءٍ كثير في تصويرهِ هذا الرجل ، ولبرز لنا المهجو المصوّر لفظاً ، مصوراً رسماً ، ولعاينّا منه رجلاً متعجرفاً على وجهه ملامح الجهل والصلَف والوقاحة ، مادّاً يدهُ على صورة الآمر ، وهو جالس في صدر مخدع مزين بالفرش الثمين ، وقد أُرخيت السجوف على باب المخدع ، ووقف وراء الباب حاجب يمنع رجالاً يريدون الدخول .

وهذا التصوير لا يتمُّ في غير بيتي العسقلاني ، وقد تقرر أن المراد من الهجاء عند الادباء واهل الفضل المتجملين

بأحاسن الشيم ، والمتحلين بمحاسن آداب الحضارة العصرية بل البشرية ، ليس هو القذف والسِّباب ، بل تنبيه الناس الى الصفات القبيحة المتصف بها المهجو ، وتصويرها لهم كما هي او بزيادة قليلة يُسامح فيها الشاعر او الكاتب او الخطيب ، ما لم يخرج به الغرض او حبُّ الانتقام والتشفّي ، الى المبالغة ، كأن يجمع في المهجوّ صفاتٍ ليست فيه ، فيخيب أمله ويخطئ سهمه ، اذ يكون حالهُ حال من اراد تصوير فرس قبيح فصوّرهُ حماراً وقال انظروا ما أقبح هذا الفرس ، فيقول الناس ما أشدَّ حمق هذا الرجل ، ينظر الحمار فيحسبه فرساً ؛ فيكون بهجائهِ ذاك ، قد دعا الناس الى هجاء نفسه ؛ لانه لم يصور المقصود منه ولا شبههُ ، فضلَّ الحقيقة وهي ضالّةُ الجميع .

وهاك مثالاً آخر : لو فرضنا ان المتنبي هجا العبد المسمى زيتوناً بهذين البيتين :

سمُّوك زيتوناً وما أنصفوا   لو أنصفوا سمُّوك خنزيرا
فانَّ في الخنزيرِ نفعاً لنا   وأنت لا نفعاً ولا خيْرا

وأردنا انتقادهما ، لوجدناهما فاسدَي المعنى ، لان العبد وان كان من حيث الانسانية اقرب الى الحيوان من النبات ، بل هو المميَّز على سائر انواعه بالنطق وسعة الادراك ، الا ان المتنبي اراد المشاكلة بين اسمهِ وهو الزيتون ولونه ، وما بينه وبين الزعرور من النسبة في اللون والشكل ، وكلاهما من صنف النبات فقال :

سمُّوك زيتوناً وما أنصفوا لو أنصفوا سمُّوك زعرورا
فانّ في الزيتونِ نوراً يضيْ وأنتَ لا زيتاً ولا نورا

فقد أوضح ما في الزيتون من النفع وهو الزيت والنور ، وكلاهما غير موجود في الزعرور ، وفي هذا المعنى اشارة الى ان ذاك العبد لا حسن له ، ولا رجاحة عقل فيه ، وبذلك تظهر صحة النسبة باللون بين العبد ، والزيتون ، والزعرور ، ثم وجه تفضيل الزيتون والزعرور ، لما فيه من الزيت والنور ، وخلوّ الزعرور منهما ، كخلوّ العبد من الحسن والذكآء .

أما النسبة بين الزيتون والخنزير ، فهي معدومة ، اذ لا نفع يرجى من الخنزير ، اللهمَّ الا بأكل لحمه ، وأنت تعلم

انه عند العرب وبعدهم في الاسلام ، قد كان شرَّ اللحوم ، فلا وجه للمقابلة بين النفع الذي يحصل من خدمة العبد ، وبين لحم الخنزير ، وهو لحم محرَّم مضرٌّ ، ومن ذلك كله ينتج ، ان الفائدة المقصودة بالهجاء ، لا تحصل الا بالتزام الحقائق على قدر الامكان ، واجتناب الغلوّ والاغراق .

ومثل ذلك اذا وازنتَ بين قولي في ابي بكر الخوارزمي ، وقول ابي الحسن الرقاقي ، تجد في بيتيَّ من اللفظ الفظّ البالغ غاية الاحتقار والشتم ، ما يجعلك تنفر من قائله وتظن فيهما غرض الانتقام ونتيجة الحقد ، اذ الخوارزمي كان ذا حسنات كدنَ يذهبنَ سيئاته ، فلا يليق فيه مثل هذا الهجاء ، بل يضيع به قصد الهاجي ويخطئ سهمه الغرض . وبالخلاف منه قول الرقاقي ، فانك ترى عليه حرمة الانصاف ، ومسحة النزاهة ، ورونق العدالة ، لانهُ ذكر محاسنهُ وعيوبه ، وهب انك لا تعلم شيئاً من أمر الخوارزمي ، فاذا ما أجلت النظر الصادق ، ووضعت القولين تحت مجهر النقد ، ظهر لك فضل هجاء الرقاقي ، وعلمت ان الخوارزمي كان حقاً ذا قدم

راسخة في الفضل وبراعة الانشآء ، ولكنَّهُ كان ذا حقد خائناً ، ولا تحصل لك ريبةٌ في القائل ، وما ذاك الاّ لانه التزم جادة الصدق واجتنب المغالاة ، فعلمنا من قوله أثر الحقيقة وقد نشرها لنا صدق النقد ، بعد أن غابت عنا الاعيان ، وطوتها عاديات الازمان .

ولولا الخشية من ملل القارئ ، لوازنتُ بين باقي الابيات التي أوردتها في هذا الفصل ، ولعل فيما ذكرته غنى.

الفصل الثالث عشر

في

موازنة الوصف

قال البحتري يصف بركةً بناها الخليفة المتوكل في روضة سماها المتوكليّة :

يا مَن رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنساتِ اذا لاحت مغانيها

بحسبها أنها في فضلِ رتبتها
تعدُّ واحدةً والبحرُ ثانيها

. . . .

تنصبُّ فيها وفودُ المآء معجلةً
كالخيلِ خارجةً من حبلِ مجريها
كأنَّما الفضَّة البيضآء سائلةً
من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها حبكاً
مثلَ الجواشنِ مصقولاً حواشيها
فحاجبُ الشمسِ احياناً يضاحكها
وريّقُ الغيثِ أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءَتْ في جوانبها
ليلاً حسبتَ سمآءً رُكّبتْ فيها
لا يبلغُ السمكُ المحصورُ غايتَها
لبعدِ ما بينَ قاصيها ودانيها

يعمنَ فيها بأوساطٍ مجنَّحةٍ

كالطيرِ تنقضُّ في جوٍّ خوافيها

لهنَّ صحنٌ رحيبٌ في أسافلها

اذا انحططنَ وبهوٌ في أعاليها

صورٌ الى صورةِ الدلفينِ يؤنسُها

منهُ انزواءٌ بعينيهِ يوازيها

وقال يصف القصر الكامل الذي بناهُ المعتز بالله :

ذُعِرَ الحَمامُ وقد تغنَّى فوقَهُ

من منظرٍ خطرِ المزلَّةِ هائلِ

رُفعتْ لمخترقِ الرياحِ سموكُهُ

وزهتْ عجائبُ حسنهِ المتخايلِ

وكأنَّ حيطانَ الزجاجِ بجوِّهِ

لججٌ يمجنَ على جنوبِ سواحلِ

وكأنَّ تفويفَ الرخامِ اذا التقى

تأليفُهُ بالمنظرِ المتقابلِ

حُبُكُ الغمامِ رُصِفنَ بين منمَّرٍ
ومسيَّرٍ ومقاربٍ ومشاكلِ
لبستْ من الذهبِ الصقيلِ سقوفهُ
نوراً يُضيءُ على الظلامِ الحافلِ

وقال يصف وقعةً :

ضاقتْ بأسعدَ أرضُها لمَّا رمى
ساحاتِها بالخيلِ والفرسانِ
بفوارسٍ مثلِ الصقورِ وضمَّرٍ
مجدولةٍ ككواسرِ العقبانِ
لما رأَوْا رَهَجَ الكتائبِ ساطعاً
قالوا الأَمانَ ولاتَ حينَ أمانِ
يَئِلونَ من حدِّ الحديدِ وخلفهُم
شُعَلُ الظُّبى وشواجرُ المرّانِ
يومٌ من الأيامِ طالَ عليهمُ
فكأَنّهُ زمنٌ من الأزمانِ

أُيِّدتَ بالنصرِ الوشيكِ وأُتبعوا
في ساعةِ الهيجآء بالخذلانِ
راموا النجاةَ وكيفَ تنجو عصبةٌ
مطلوبةٌ باللهِ والسلطانِ
جاءَتكَ أسرى في الحديدِ أذلَّةً
مجموعةَ الأيدي الى الأذقانِ
فأفككْ جوامعهم بمَنّكَ إنها
سمرت على أيدي ندًى وطعانِ

وقال المتنبي يهنئ كافوراً بقصرٍ بناه :

مستقلٌّ لكَ الديار ولو كا
نَ نجوماً آجرُّ هذا البناء
ولو أنَّ الذي يخرُّ من الأمْـ
واهِ فيها من فضةٍ بيضاء

وقال يصف وقعة حربٍ جرت لسيف الدولة مع البطريق :

فلم تتمَّ سَرُوجٌ فتحَ ناظرها
الاَّ وجيشُكَ في جفنيهِ مزدحمُ

والنقعُ يأخذُ حرّاناً وبقعتها
والشمسُ تسفرُ أحياناً وتلتثمُ
سحبٌ تمرُّ بحصنِ الرانِ ممسكةٌ
وما بها البخلُ لولا أنها نِقمُ
جيشٌ كأنّكَ في أرضٍ تطاولُهُ
فالارضُ لاأَمَمٌ والجيشُ لاأَمَمُ
اذا مضى عَلَمٌ منها بدا عَلَمٌ
وان مضى عَلَمٌ منهُ بدا عَلَمُ

. . . .

صدمتَهم بخميسٍ أنتَ غرّتُهُ
وسمهريّتُهُ في وجهِهِ غَمَمُ
فكان أثبتُ ما فيهم جسومُهُمُ
يسقطنَ حولكَ والارواحُ تنهزمُ
والأعوجيّةُ ملءُ الطرقِ خلفَهُمُ
والمشرفيّةُ ملءُ اليومِ فوقَهُمُ

اذا توافقتِ الضرباتُ صاعدةً
توافقتْ قُلَلٌ في الجوِّ تصطدمُ
وأسلمَ ابنُ شُمُشقيقٍ أَلِيَّتَهُ
ألاَّ انثنى فهو ينأى وهي تبتسمُ
لا يأملُ النفسَ الأقصى لمهجتهِ
فيَسرِقُ النفَسَ الأدنى ويغتنمُ
تردُّ عنهُ قنا الفُرسانِ سابغةٌ
صوبُ الأسنَّةِ في أثنآئها ديَمُ
تخُطُّ فيها العوالي ليسَ تنفذُها
كأنَّ كلَّ سنانٍ فوقَها قَلَمُ

وقال ابن هاني يصف وقعة حربٍ للمعز مع الروم :

قد حاكمتهُ ملوكُ الرومِ في لَجَبٍ
وكان للهِ حكمٌ غيرَ مردودِ
اذ لا ترى هبرزياً غيرَ منعفرٍ
منهمْ ولا جاثليقاً غيرَ مصفودِ

قضيتَ نحْبَ العواتي من بطارقهم
وللدماسقِ يومٌ جدٌّ مشهودِ
ذمّوا قناكَ وقد ثارتْ أسنّتُها
فما تركنَ وريداً غيرَ مورودِ
طعنٌ يُكوِّرُ هذا في فريسةِ ذا
كأنَّ في كلِّ شلوٍ بطنَ ملحودِ
حويتَ اسلابَهم من كلّ ذي شطَبٍ
ماضٍ ومطّردِ الكعبينِ أملودِ
وكلِّ درعٍ دلاصِ المتنِ سابغةٍ
تُطوى على كل ضافي النسجِ مورودِ
لم يعلموا أنَّ ذاكَ العزمَ منصلتٌ
وأنَّ تلك المنايا بالمراصيدِ
حتى أتوكَ على الأقتابِ من بُهُمٍ
خزرِ العيونِ ومن شوسٍ مزاويدِ
وفوقَ كلِّ قتودٍ بزٌّ مُستلَبٍ
وفوقَ كلِّ قناةٍ رأسُ صنديدِ

تَوَّجتَ منها القنا تيجانَ ملحمةٍ
من كل محلولِ سلكِ النظمِ معقودِ
كأنها في الذرى سحقٌ مُكَمَّمَةٌ
من كل مخضودِ أعلى الضلعِ منضودِ
سودِ الغدائرِ في بيضِ الأسنَّةِ في
حمرِ الانابيبِ في ردعٍ وتجسيدِ
أشهدتَهم كلَّ فضفاضِ القميصِ ضحًى
في كلِّ سرجٍ تحلَّى ظهرَ قيدودِ
كأنَّ أرماحَهم تتلو اذا هزجتْ
زبورَ داود في محرابِ داودِ

. . . .

وشاغبوا اليمَّ ألفيْ حجةٍ كَمَلاً
وهمْ فوارسُ قارياَّتهِ السودِ
فاليومَ قد طَمَستْ فيهِ مسالِكُهم
من كلِّ لاحبِ نهجِ الفلكِ مقصودِ

لو كنتَ ساآءَلتهم في اليمّ ما عرَفوا
سفعَ السفائنِ من غيرِ الملاحيدِ

وقال المأموني يصف قصراً بناهُ الصاحب :

فهنيئاً منها بدارٍ حوتْ منْـ
ـكَ جبالاً من الحلومِ رجاحا
ذاتِ صدرٍ كرحبِ صدركَ قد زا
دَ على ظنِّ آمليكَ انفساحا
يغرسُ الصيدُ في ذُراها من التقْـ
ـبيلِ غرساً فيجتنيهِ نجاحا
بِفِناءٍ نطيلُ فيهِ خُطى اللحـ
ـظِ ونلقى للفكر فيهِ انسراحا
بهوُها يملأُ العيونَ بهاءً
صحنُها يملأُ الصدورَ انشراحا
شِيدُها فضةٌ وقرمدُها تبْـ
ـرٌ قد امتيحَ من نداكَ امتياحا

وثراها من عنبرٍ شيبَ بالمسـ
ـكِ فانْ هبّتِ الصَّبا فيهِ فاحا
مقنعاتٌ فيها الاساطينُ من فو
قِ صخورٍ قد انبطحنَ انبطاحا
كلُّ نادٍ منها قد أُتّشح الفر
شُ بثوبِ الربيع فيـهِ أُتّشاحا
وأرى بينَ كلِّ نحيينِ كالرو
ضِ خليجاً منَ البساطِ مساحا
وسقتْ مآؤهُ حدائقَ غربيـ
ـهِ الى أن غدتْ بهِ ضحضاحا
صبغةٌ من دمِ القلوبِ فمن أبْـ
ـصَرَهُ أُهتزَّ صبوةً وارتيـاحا
شـابَهَ النقشَ فرشُها مثلما شا
بَهَ ولدانُها دماهـا الصباحا
وكأنَّ الابوابَ صحبٌ تلاقيـ
نَ أُنغلاقاً ثمَّ افترقنَ انفتاحا

وكأنَّ الستورَ قد نشرَ الطـا
وُوسُ منها في كلِّ بابٍ جناحا
وكأنَّ الجاماتِ فيها شموسٌ
أطلعتْها ذُرى القبابِ صباحا
والسواري مثلُ السواعدِ كبتٌ
تحتهـا من أساسها أقداحا
وبيوتٌ كأنهنَّ قلاعٌ
مزمعاتٌ للنيّراتِ نطاحا
ورواقٌ كأنما بَسطتْ فيـ
ـهِ دعاءً آيُ الاساطينِ راحا
وجنانٌ لو كنتُ في جنةِ الفر
دوسِ لم أَبغِ غيرَهنَّ اقتراحا

وقال القاضي الارَّجاني :

أقسمتُ لا قصرَ الزمامَ يدي
حتى ترى همَذانَ والقصرا

. . . .

بحرٌ يموجُ اذا رآهُ فتًى
أقسمتُ لم يرَ قبلهُ بحرا
فِرَقٌ تعود وتبتدي فِرَقٌ
كالبحرِ يُبدي المدَّ والجزرا
وحكى القبابُ بها الحبابَ ضحًى
يلمعنَ من صغرى ومن كبرى

. . . .

وانبثَّ يشبعُ عينَهُ نظراً
منهُ ويخبرُ أمرهُ خبرا
فترى الورى أمماً كأنهمُ
حشروا ليومِ حسابهم حشرا
وحكت خيامُ الجندِ نازلةً
صدفاً يضمُّ بطونُها درّا
وتُجيلُ طرفاً لا ترى خللاً
مما يسدّ القُطر والقَطرا

حيث التفتَّ ملئتَ من فرَقٍ
عيناً ومن فرحٍ بهم صدرا
ورأيت أنديةً وأغنيـةً
فيها الصهيلُ يجاوبُ الهدرا
وترى على الابوابِ مقربةً
مطويَّةً اقرابها ضمْرا
مشمولةً أمناً ومن كرمٍ
قد حذَّرت آذانَها حذرا
ومراكزَ الارماحِ قد نشرتْ
كفُّ الصبا عذباتها الحمرا
وعلى جيادِ الخيلِ اغلمةٌ
غرٌّ تصرّفُ تحتها غرّا
من ضارب كرةً يُنزّقُها
في ملعبٍ أو رائضٍ مهرا
أو مردفٍ فهداً ليقنصهُ
أدمَ الفلا أو ممسكٍ صقرا

وخلالَ أطنابِ الخيام ترى
رشقَ الرُماة سِهامَها تترى

. . . .

والسوقُ تبصرُ من عجائبها
في كل مرمى نظرةٍ مِصرا

. . . .

حتى اذا ما الصبحُ لاحَ وقد
نُشِرَتْ لنا راياتهُ نشرا
وسمعتَ صيحاتِ الاذانِ من الـ
ـجنباتِ تنعرُ بالدجى نعرا
وتخالُ أصواتَ الطبول اذا
أصغيتَ إنْ ظُهراً وإنْ عصرا
رعداً تقطعَ بالعروضِ فما
تاقى لهُ زحفاً ولا كسرا
فنفوا بقايا غمضِهم وقضوا
فرضَ الصلاةِ واخلصوا السرّا

وتناظرَ الغلمانِ راكضةً
للخيلِ تابعةً لهُ الاثرا
المحكمينَ عقود اقبية
فيها يرونَكَ اوجهاً زُهرا
وكأنما أضحت قلانسهم
من عكس ضوء خدودهم حمرا

. . . . . .

وبنو الرجاء بكلّ ملتفتٍ
منهم تشاهدَ عسكراً بحرا
وذوو العمائم في مناصبهم
والتركُ ترمقُ نحوهم شزرا
ميلاً قلانسُهُم كأنَّهم
قِطعُ الرياضِ تكللت زهرا

. . . . . .

وتصايحُ المتظلّمين حكى
لفظَ القطا أوسعتها زجرا

رفعوا على قَصَباتهم قصصاً
ويناشدونَ اللهَ ان تقرا

. . . .

وقد أطلت هنا من ايراد الشواهد ، لان حسن الوصف من أدق الامور وأصعبها على الشاعر ، فاذا وازنت بين القصائد الثلاث التي وُصِفَتْ بها القصور ، وجدت المأموني قد أبر على البحتري والمتنبي بدقة الوصف ، وبراعة التشبيه ، وحسن التنسيق ، وإحكام الترتيب ، فذكر أولاً فِناء الدار ، ثم بهوها ثم صحنها ثم حيطانها وما طُليت به من الشيد المفضّض وجُصّصت به من القرميد المذهب ، ثم ارضها المفروشة بالفسيفساء التي تحاكي حبوب المسك والعنبر ، ثم الاساطين المرفوعة على صخور محدّبة ثم أندية القصر — ولم يقل غُرَفَهُ أو مخادعه تعظيماً للقصر واجلالاً لصاحبه — ثم أتى على ذكر الفرش والستور والنقوش الى غير ذلك من وصف الابواب والخلجان والحدائق والرياض والمياه والسواري والبيوت والقباب والجامات والتماثيل

والاروقة وغيرها ، مما يحار فيه الفكر وصفاً وتشبيهاً .

أما البحتري فقد وصف وصفاً اجمالياً فلم يذكر مدخل القصر ولا ما حولَهُ ولا أنديتــهُ ولا أروقتهُ ولا مفروشهُ ولا غير ذلك من تحفه ولا عجائبه ، مما ينضب معه ماء القرائح ، ويجف عنده معين الاذهان . فذكر حيطانه الزجاجية ورخامَهُ وذهب سقوفه فقط ، ولو أجهد قريحته وعلم ما وراء الوصف المفصل وتفصيل مشهوده من الفائدة والجمال . لما اقتصر على ما قال ، فاما ان يكون اقتصارهُ عجزاً عن بلوغ شأو الموصوف ، أو جهـلاً بمزية دقيق الوصف وحسن التفصيل ، وفي الحالين يُعدُّ مقصّراً ، بيد ان قصوره ذاك ، كان في وصف المصنوعات ، لانك اذا نظرت الى وصفه البركة ، رأيته وصفاً بالغاً غاية البلاغة والبراعة ، فهو في وصف الطبيعي ، أقدر منه في وصف الصناعي ، وذلك لقرب عهده من البداوة ورسوخ أحوالها في أخلاقه ، بخلاف المأموني فانه أجاد في الوصف بل كأَنه كان يود الاطالة في ذلك لولا خشية املال الممدوح المهنّأ بالدار ، وذلك لاعتياده

احوال الرفاهية والنعيم ، وتقلبه على مهادهما ، وطول مراقبته نظائر ما كان يصف من المسكن والفرش ، ولا بدع فهو من نسل الخليفة المأمون .

أما المتنبي فلم تكن تغنيهِ القصور والمباني ، او تشغل فكره عن الغرض الوحيد الذي ظل يرمي اليه حياته كلها ، وهو المجد وبلوغ المناصب العالية في الدول، فرأيناه مقصراً في هذا الباب ، وهو فيه دون البحتري ، وبعكس ذلك في وصف المواقع الحربية ، فانه كان المجلّي المبرّز على جميع الشعراء ، ولعل السبب في هذا ، انه كان يرى بلوغ امانيه ، من وراء الحروب ، فكان يتفنن في وصف وقائعها بما كانت توحيه اليه افكاره السامية فتنفثها قريحته السيالة ، فتبرز في كل معنى بديع وشكل انيق ؛ ثم يأتي بعدهُ ابن هاني وهو متنبي الغرب ، حتى ليكاد يحاكيه في جمال الوصف ، ودقة التشبيه ، وكثرة المعاني ، وغزارة المادة ، وقوة العارضة .

وأما البحتري فهو دونهما في ذلك ، كما يُتحقق من موازنة قصيدته مع قصيدتيهما ، فان الناقد يرى ان البحتري ،

كان يتخذ وصف الواقعة ، وسيلة الى المدح والشكر ، واما المتنبي ، فكان يتخذ المدح ويجعله وسيلةً الى وصف الحروب وذكر أخلاق البشر ومعرفته بهما ، لان ذلك كان مطمح ابصاره ، في ليلهِ ونهاره ، ومقاماته واسفاره ، ومعلوم ان الانسان لا يبرع في فنٍ أو علم ، حتى يكون ميله الغريزي اليه ، فانك اذا تفقدت احوال مشاهير الكتّاب والشعرآء ، تجد أنَّهم كانوا مولعين بكلام من تقدمهم من الفصحآء والبلغآء ، ومثل ذلك تجد البارعين من المصورين ، لم يبلغوا ما بلغوهُ من الاتقان ، الاّ بعد ان أطالوا النظر الى تصاوير من تقدمهم من اساتذة هذا الفن ، ومثلهم علمآء النجوم ، فانهم لم يصلوا الى معرفة مواقعها وسيرها واكتشاف العدد العظيم منها ، الا بعد طويل الرصد وجزيل الصبر ، وشديد البحث ، ولا يكون ذلك من هؤلآء كلهم في هذه الفنون وغيرها ، الا عن ميلٍ غريزيّ ، وهوًى فطريّ ، واذا استقريت احوال المقلّدين المقصرين من طلاّب العلوم والفنون جميعاً ، تجد العكس ، فتراهم قليلي الجَلَد على القرآءة

ناقصي الصبر عنـد البحث ، قصيري النظر في مواضع الخطاء بل يرون الصواب محل الغلط ، فاقدي الذوق في طعم الكلام ، ضعيفي الحجة عنـد الجدال ، فاسدي الأحكام في القضآء ، وما ذاك الا لضعف ميلهـم الفطري الى ما قصدوا اليه .

وأما قصيدة الأرّجاني فقد أغرب فيها واعجب ، ولم أجد لهـا بين كل ما قرأتهُ في اللغة العربية مثيلاً ، وانا لم أذكر منها الا القليل ، والناقد يرى ان الشاعر لم يأتِ على تفصيل تلك الحفلة أو الموكب السطاني اتفاقاً ، ولا جرّتهُ الى ذلك القافية ، بل قصد لهُ قصداً وتعمَّدهُ ، واستنزف فيه مآء قريحته ، فلو ترجمت الى اليونانية ترجمةً حسنةً وأضيفت الى الايلياذة ، لـكانت تُعَدُّ من أحسن ما نظم هوميروس ، ولو رام مصور بارع تصوير ما فصّل فيها ، لقضى في ذلك سنينَ طوالاً ، ولا يفقهُ ذلك الا أهل العلم الراسخ .

والوصف كما تعلم غرضٌ بعيد وبابٌ واسعٌ ، فمنهُ وصف الحوادث الجويّة وهو الغاية التي لا ينالهـا الاّ مَن صرف

ذهنه عن الارضيات ، وشغف بمحاسن السماويات ، فلا يهتز لهزّ الاعوجية ، ولا يتحمس لصليل الهندية ، ولا يترنح لرنين القدح وطنين الكؤوس ، ولا تثنيه المنح فيرضى بعطر بعد عروس ، ولا يتبجح بالمناصب وينتفخ بالألقاب ، ولا تتصباهُ أو تُلهيه ذوات الحجاب ؛ على انه لا يستحيل حسن وصف الجويّات او اجادة تشبيهها بعض الاحيان على الشاعر المجيد ، وان لم يصدق عليه كل هذا الوصف ، كقول السري في البَرَد :

يومٌ خلعتُ بهِ عذاري   فعريتُ من حللِ الوقارِ
فهواؤهُ سَكبُ الردا   ءِ وغيمهُ جافي الازارِ
يبكي فيجمدُ دمعُهُ   والبرقُ يكحلهُ بنارِ

وكقول الكندي يصف الندى على البحر :

كأنَّ الندى في البحرِ بحرانِ مائعٌ
على مائعٍ هذا على ذاكَ مطبقُ
فهذا لُجَيْنٌ سابقٌ مترقرقٌ
وذاكَ لُجَيْنٌ في السماءِ معلقُ

اذا أبصرتهُ الشمسُ بعد احتجابها

لهُ ساعةً أبصرتَهُ يتمزّقُ

وكقول علاَّمة العصر غير مدافَع ، وقطب دائرتي المنثور والمنظوم غير منازَع ، الاستاذ الجليل بل الأخ الحبيب الأَبرّ ، الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب الضيآء الأَغر(١) يصف الزُّهرة :

قفْ بي نحيّي رُباها أيها الحادي

فتلكَ أبياتُها في عدوةِ الوادي

قد خيَّمتْ باللّوى الغربيّ ضاربةً

عليهِ أطنابَهـا من غيرِ أوتادِ

مقيمةٌ لم تُقِمْ الاَّ على سفرٍ

ما ينقضي بينَ تأويبٍ وإسآدِ

تمشي الهوينا كما مرَّ النسيمُ ضحىً

في هودجٍ من شعاعِ النورِ وقّادِ

(١) كُتب هذا قبل وفاته وا أسفاه عليه .

يحجّبُ البعدُ سيماها فان قرُبتْ
صدّتْ دلالاً فزادت غلّةَ الصادي
يسارقُ الطرفُ عينَ الشمسِ منظرها
فالشمسُ من دونها حلّتْ بمرصادِ
حتى اذا هجعتْ في ليلها ظفرتْ
منها العيونُ بلمحِ الميسمِ البادي
فنبئينا رعاكِ اللهُ جارتَنا
بل أنتِ سوغُ لنا من عهدِ ميلادِ
قد انقطعنا فما أن بيننا صلةٌ
ولا سبيلٌ لملاّحٍ ولا حادِ
ولم يكنْ بيننا سدٌّ وقد ضربتْ
أيدي الفضا دونَ لقيانا بأسدادِ
ما أن ينالكمُ للبرقِ منطلقٌ
ولا يقرّبُ منكم سيرُ منطادِ
وانما رُسلنا الانوارُ حاكيةً
نارَ الصليبِ تبدّتْ فوقَ أنجادِ

. . . .

رأوكِ للحسنِ معبوداً وما وهموا

فالحسنُ معبودُ عشّاقٍ وزهّادِ

ويدخل في هذا الباب ايضاً ، وصف الشؤون الطبيعية ، والتخييل الفلسفي ، مما لم يطرقهُ العرب ، او انهم طرقوا الفلسفة ولم يمزجوها بشيء من التخييل ، فلم يكن لما نظموه من ذلك ، حظ سائر ابواب الشعر في النفوس ، بل كانت أشبه بألفيـة ابن مالك ، أي علماً منظوماً شعراً ، واليك مثالين من الطريقة الانيقة التي يجدر بشعراء العصر أن لا يتهاونوا بها :

فالمثال الاوّل الآتي هو موشح من نظم هذا العاجز نشر في مجلة الضياء[1] وهذا عنوانه :

---

(١) قالت بعد كلام . . وردنا من صديقنا (مؤلف هذا الكتاب) الموشح الاتي في معنى ميلاد الربيع سلك فيه طريقة الشعر الافرنجي في وصف الشؤون الطبيعية ، واودعه من الاشارات اللطيفة والتخيلات المبتكرة ما لم تجرِ عليه قافية عربية ، وفي مأمولنا ان

« ميلادُ الربيع »

أنتَ مَنْ يا مَنْ على تلكَ الدِّمَنْ يذرفُ الدمعَ ويستبكي الطلولْ
كم تناديها ولو أصغتْ لِمَنْ جاءَها مستنطقاً كانت تقولْ
عدِّ عن جهلِكَ يا هذا الغبي
كُنْ سواراً او قريطاً او جريرْ او زُهَيراً او إياساً او هلال
او أبا النشناشِ والجمعَ الغفيرْ من ملوكِ الشعرِ أربابِ المقال
كلُّكم يفعلُ أفعالَ صبي
تندبونَ الربعَ او بيتَ الشَّعَرْ او خيالاً زارَ ليلاً ورَحلْ
او حصاناً او بعيراً قد نفَرْ تضعونَ الدرَّ في عنقِ الجملْ
وخسيسَ التربِ فوقَ الذهبِ
منذُ ألفي سنةٍ بل ضعفِها دأبُكم ترديدَ هذا النَّغَمِ
تلك حالٌ حسبُنا في وصفِها حالُ قومٍ سلكوا في الظُّلَمِ
وأضاعوا وقتهم في اللعِبِ

يكون منبهاً لخواطر شعرآءنا الألباء الى احتذاء مثاله ، وابراز الشعر العربي في حلة من الحضارة العصرية تتجلى صورة الحسن بين رونقها وجماله . (السنة الثانية من الضيآء)

ذاكَ او يقربُ منهُ ما رواهْ عنكمُ التأريخُ في فنّ القريض
قدجريتمْ كلّ شوطٍ في مداهْ ولكم في نظمهِ جاهٌ عريض
من نسيبٍ او مديحٍ كذبِ

وعن التنقيبِ اعرضتم سوى ما أتى من مثلٍ أو قافيه
وعظيمَ الكونِ مع ماقد حوى من أعاجيبِ شؤونٍ خافيه
لم يكن فيـهِ لكم من سببِ

فكفى التشبيبُ والفخرُ المملّ ودعاوٍ عابها اهلُ الحلومْ
واسمحوا أن يقتدي هذا المقلّ ببنى الافرنج أربابِ العلومْ
واسمعوا ما قالهُ في حلبِ

***

عزَّ بين الارض والجوِ الوئام لاختلافِ الرأيِ في وضعِ الربيعْ
حين رامت أمهُ قبلَ التمام وضعهُ اذ جآءها الطلقُ السريع
فبدا في الجوّ فرطُ الصخبِ

زعمَ الوالدُ أنّ الأمَّ قد مسها العجزُ علي مرّ السنينْ
ولفقدِ الصبرِ منها والرَّشَد قدسعتْ عمداً باسقاطِ الجنين
فقضى حالاً بشجبِ المذنبِ

قالَ هذا الطلقُ زورٌ ولذا أرشقُ الحبلى بثلجٍ وبَرَدْ
فيعوقُ الوضعَ منها واذا ما أصرَّتْ هلكتْ قبلَ الولد
قتلُ مَن يقتُلُ شرعُ الكتبِ

قالتِ الأمُّ الى كم تفتري أيُّها الظالمُ والحقُّ صريحْ
وبدتْ تروي صحيحَ الخبرِ بلسانٍ ينطقُ القولَ الفصيح
معربٍ عن أصلِ هذا اللَّجبِ

حدَّثتْ قد كنتُ من عهدٍ عهيدْ طفلةً أسرحُ حولَ الوالده
ظاهري كالقلبِ في وقدٍ شديد جذوةٌ من قبلِ أُلفى جامده
كُرَةٌ تسبحُ بينَ الشُّهُبِ

فتصبَّانيَ ذا الجوُّ الكَنُود وبأحكامِ الهوى جارَ عليّ
فهوَ طوراً نافرٌ عني شَرُود وهوَ طوراً هائمٌ يصبو إليّ
وهوَ أحياناً شديدُ الغضبِ

منهُ لي بعلٌ كثيرُ النَّزَقِ سيّئُ الخلْقِ شديدُ الفرعنه
ولهُ منّيَ ذاتُ الملَقِ تلدُ الغزّانَ في كلِّ سنه
مرضعٌ لم تشْكُ مضَّ النصبِ

والصبي ما زالَ لي نِعمَ الرفيقْ   وجمالي زائدٌ عاماً فعامْ
وعفافي منهُ بالحبِّ خليق   لو على عهدِ الوفا حقاً أقام
أو وعى ما سنَّ شرعُ الادبِ

وفؤادي ما لهُ غيرُ الأنينْ   كلما أومضَ برقٌ من بعيدْ
وعيوني يُطلقُ الدمعَ السخين   بعضُها والبعضُ يجري كالجليد
لدواعي حزَنٍ أو طرَبِ

وأنا أحملُ منهُ ذي الفعالْ   برضًى شأنَ كرامِ الانفسِ
ولئن خالفَ في هذا الدّلال   ما قضى شرعُ الغرامِ الأقدسِ
باحتكام الغيدِ عندَ النُّجُبِ

لم أبحْ يوماً بتبريحِ هواهْ   لا ولم أشكو الضنى الاَّ اليه
وهو ما زالَ مجداً في جفاه   حاسباً أنَّ حياتي في يديه
ساءَ ما ظنَّ وربِّ الغلَبِ

ثمَّ صاحت بلغَ السيلُ الزُّبى   وغدتْ ترجفُ من زلزالِها
وبدت ترا على تلكَ الرُّبى   تقذفُ النيرانَ من أجبالِها
فهيَ تجري مثلَ جري السُّحُبِ

* * *

عندَ هذا برزتْ اترابُها   والدُّجى تخبرُ عن أسرارِها
سبعةٌ قد شوهدتْ أسرابُها   من بناتِ الشمسِ مع أقمارِها
وفريقٌ من ذواتِ الذَّنَبِ
دُرْنَ حولَ الأمّ لكنْ بانكسارْ   قلنَ يا أُمّاهُ ما هذ المصابْ
أُختُنا الارضُ عليها الجوُّ جار   فانصحيهِ وانذريهِ بالعقاب
وأسعفيها ببلوغِ الأَربِ

* * *

فاستوتْ ذاتُ الجمالِ المُسفرِ   فوقَ عرشِ النورِ في برجِ الحَمَلْ
ثمَّ خطَّتْ بالشعاعِ الأنورِ   للّتي قد سئمتْ طولَ الجبَلْ
أنْ ضمي الطفّلَ قُبيْلَ العطبِ
واعلمي أنَّ التردّي بالسَّخَطْ   صفةٌ يُرغَبُ عنها في الحسانْ
وهي عند الكلِّ عيبٌ وشطَطْ   ليسَ في الطاعةِ للبعل هوانْ
وهيَ زينٌ لذواتِ الحسَبِ
ثمَّ قالتْ أيُّها الجوُّ الجهولْ   أنتَ بالهجرانِ ايضاً مُسرفُ
فقويٌّ النوعِ مطْواعٌ حمول   للنّسا إذ هُنَّ طبعاً أضعفْ
ذاكَ فضلاً عن حقوقِ النسبِ

قُمْ فعانقْ عرْسَكَ المكتئبه فلقد أودى بها طولُ الشَّجَنْ
وتدارَكْ مهجةً ملتهبه منكَ ذاقتْ كلَّ انواعِ المحن
وأسعِدَنْها ببلوغِ الأَربِ

***

فحباها بنسيماتِ الصبَّا وأتاها نادماً عمَّا مضى
وتدنَّى خاشعاً منتحبا يستميحُ العفوَ منها والرضى
بمجاري دمعهِ المنسكبِ

***

عند هذا برزَ المولودُ في حللٍ تزري بأبهى سُندسِ
وبديعٍ سرُّهُ لم يختفِ صُبِغَتْ حتى غدت كالأَطلسِ
بضياءِ الشمسِ أُمِّ العجَبِ

وغدا يبسمُ عن نورٍ بدا مثلَ درٍّ فُتَّ فيهِ الذهبُ
مذ رآهُ بلبلُ الحيّ شدا بأغانٍ ما شداها مُطربُ
فجَلا من غُمَّةِ المكتئبِ

ولهنا عمَّ جميعَ الكائناتْ فدعتْ للشمسِ بالعمرِ المديد

بمعانٍ ولغًى مختلفاتْ لا يفيها وصفها الا مُجيد
ينظمُ الشعرَ بلفظٍ عربي

والمثال الثاني قصيدة لاحد نوابغ شعراء الفرنسيس سولّي پرودوم المشهور ، كان طلب اليَّ بعض الادباء ان أترجمها الى الشعر العربي ، فأجبت طلبه ، وقد كانت نشرتها مجلة أنيس الجليس في أحد أعداد سنتها الثامنة وعنوانها

« الاناء المكسور »

ان إناءَ الوردةِ الَّتي برَتها الغيَرُ
لقد غدا منصدعاً وصدعهُ لا يجبرُ
أصيبَ من مِروحة بلكمة لا تُذْكرُ
ففصمتهُ دونَ أنْ تُحدِثَ صوتاً يُنذِرُ

***

وذلك الفصمُ وإن قد خيلَ لا يؤثّرُ
عضَّ على البلورِ يفريهِ وليس يُنظرُ
ولم يزلْ على ازديادٍ كلَّ يومٍ ينشرُ
حتى استدار حولهُ وحالهُ مستترُ

٭٭٭

فغاضَ ماؤهُ الذي		قد ظلَّ حيناً يقطرُ
وكانَ يحوي جوهرًا		بهِ الحياةُ تظهرُ
وليسَ مَن يدري بما		أصابهُ أو يشعرُ
إياكمُ ولمسَهُ		فانهُ منكسرُ

٭٭٭

كم من يدٍ محبوبةٍ		تفعلُ ما لا يُشكرُ
تجرحُ قلبَ عاشقٍ		بكلمةٍ تكدّرُ
فينثني وقلبُهُ		من فعلها منفطرُ
قد ذبلتْ زهرةُ حبّـ		ـهِ فليسَ تنضرُ

٭٭٭

وهو لأعينِ الملا		مثلَ سليمٍ يظهرُ
يشعرُ بالنزع وسرّ		اً عينهُ تستعبرُ
الجرحُ يا قوم عميـ		ـقٌ ودقيقٌ فاحذروا
إياكمُ ولمسَهُ		فانهُ ينفجرُ

وأقف عند هذا الحدّ من باب الموازنة التي هي عماد التبويب ، وهو كما علمت الدرجة الثانية من درجات النقد ، واثقاً ان فيما رتبتهُ من أبواب الشعر ، وما ذكرته من طبقات الشعرآء بعد الموازنة ، فائدة للطالب ، وامثولة للمسترشد .

وفي هذا المقام لا بدَّ لي من كلمةٍ أقولها في الشعر العربي فهو لهذا العهد عهد انبعاث العلوم عندنا ، لم يزل بعيداً عن المقام السامي الذي كان عليه لعهد الجاهلية ، وعما هو عليهِ اليوم عند أمم الفرنجة ؛ وقد تكلم في ذلك بعض فلاسفة الفرنج المستشرقين ، فزعم انَّ الاسلام سبب ذلك ، اذ ورد في القرآن ما يحرض على ترك الشعر ، وقال مثل ذلك جماعة من كبار كتّاب العرب ، وردَّ عليهم جماعةٌ من أكابر العلمآء بحجج لا محل لسردها هنا ، ينفون ذلك ، على أن القول الذي لا يُختَلَفُ فيه ، ان مقام الشاعر عند العرب هو دون مقام الكاتب والعالم ، منذ عهد بعيد ، وان من أعظم الأسباب التي قضت بذلك ، هو تهافت الشعرآء منذ انغماس

الدول العربية في الترف ، واستبداد الخلفآء ووزرآئهم في الملك ، على مدحهم بكل ما تصوره لهم مخيلاتهم من الاوصاف التي تفوق طوق البشر ، وتجاوز الحقيقة بمراحل ، مجاملةً وخداعاً ، للوصول الى اعطياتهم ، ثم انقطاع كثير من هؤلاء المادحين ، الى معاقرة الخمر ، وجلوسهم في الحانات ، وصرف اوقاتهم جزافاً ، الى ان حُسِبوا آخر الامر في عداد المتسولين ، وهذا ما دعا الامير ابا فراس الحمداني ، ان يأبى لقب شاعر فقال :

نطقت بفضلي وامتدحتُ عشيرتي
وما أنا مدَّاحٌ وما انا شاعرُ

وهذه الحالة بعينها دعت الامام الشافعي الى ان يقول

ولولا الشعرَ بالعلمآء يزري
لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيدِ

فاستعمال الشعر في الغنآء على الوجه الذي اتخذوه ، وجعله آلةً للاستجدآء ، افقد الشعرآء مرتبتهم العاليـة ، وأنزلهم من المقام السامي الذي كان لهم عند العرب ، يوم كان

الشاعر مؤرخ مفاخرهم ، ومعدد انسابهم ومؤبن قتلى حروبهم وخطيب انديتهم ، ومشجع ابطالهم ، ومعلن مكارمهم ، وصدى حكمتهم ، وترجمان عواطفهم . قال ابن رشيق كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبنَ بالمزاهر كما يصنعنَ في الاعراس ، وتتباشر الرجالُ والولدانُ لانه حماية لاعراضهم ، وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، واشادة لذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج . انتهى كلامه . فانظر أي مقام كان لنوابغ الشعراء عندهم ، ومثله شاعر الغرب من الافرنج ، فان له عندهم المقام الاول لهذا العهد .

ولو كانت الموازنة مقصورة على ما تقدم ، أي تحديد مراتب الشعراء والكتاب ، وبيان فضل احدهم على الآخر لما استحقت ان تكون ركناً من اركان علم النقد ، ولكنها للصناعات الجميلة عماد ، ولسائر العلوم ركن ، بل هي لكل الصناعات خير مرشد ومعلم وفاروق .

وقد عرف الانسان منذ تدرجه في سلم الحضارة، منافع الموازنة في المعادن، والنبات، والحيوان، ووازن بين المعادن فعرف من ذلك الأثقل من الاخف، والصُلب من الهش، وبين النبات فعرف النافع من الضار، والمفيد من من الاقل فائدة، وبين الحيوان فعرف ما بين طوائفه المتعددة من الاختلاف في الطباع والتكوين والافعال الى غير ذلك، فكانت الموازنة عوناً ومرشداً للانسان في جميع احواله، ومن ذلك تعلم انها لاتقصر على الكماليات، بل فائدتها في الحاجيات أعظم. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون.

الفصل الرابع عشر

في

القواعد الخمس لتمهيد قاعدة الحكم

قد علمت مما ذكرته لك في الفصل الاول من القسم الثاني انه لايمكن الوصول الى النقد السديد، الا بارتقاء درجات

ثلاث وهي الشرح ، والتبويب ، والحكم

واذ قد اوضحت لك الشرح وشروطه ، والتبويب وما هو متعلق به من طريقة الموازنة ، فكان يتحتم عليّ ان ارتقي بك الآن الى الدرجة الثالثة وهي الحكم .

ولكن لما كان الحكم ، هو الدرجة الاخيرة العالية من درجات النقد ، وجب على الصاعد اليها ، ان يكون مزوداً بكل ما يؤهله اليها ، كيما يكون حكمه سديداً ، ولبلوغ ذلك ، رأيت ان افرع مما تقدم بيانه ، خمس قواعد ، تمهد لك سبيل الحكم وهي هذه :

القاعدة الاولى : نقد القول والمصنوع

القاعدة الثانية : نقد القائل والصانع

القاعدة الثالثة : نقد المقول فيه والمحكي عنه

القاعدة الرابعة : نقد الزمان

القاعدة الخامسة : نقد المكان .

الفصل الخامس عشر

في

نقد القول والمصنوع

هذه القاعدة تنقسم الى ثلاثة أقسام وهي : الغاية ، والفائدة ، والمحاكاة .

فالقسم الاول وهو الغاية يبحث فيه الناقد عن غاية المنقود عمله من الكتّاب والشعرآء وسائر المتفننين ،[1] اذ انك لا

(١) والمتفننون جمع متفنن وهذا اللفظ هوتعريب كلمة Artirtes الفرنسوية والمتفننون هم اهل الفنون الجميلة أو الصناعات الجميله وهي بالفرنسوية Bean Arts وهذه الصناعات هي الهندسة والتصوير والنقش والحفر .والموسيقى .والتمثيل في الملاعب.اما الشعر ،والكتابة ، والخطابة فهي في رأس الصناعات الجميلة . وللبارع من هذه الفنون يقال عبقريٌ فاذا رمت تعريب Artiste de grand genie قلت متفنن عبقري. قال في فقه اللغة اذا كان حاذقاً جيد الصنعة في صناعته فهو عبقري . وهذا الاصطلاح كنت شاورت به شيخنا المأسوف عليه اليازجي فاستحسنهونشر شيئاً منه في احد اجزآء الضياء من السنة الثامنة

تجهل ، ان لكل عمل غاية ، وتختلف غايات العاملين والناظمين ، بقدر اختلاف مصنوعاتهم ، وتتفاوت رتب المصنوعات ، بقدر تفاوت قرائح الصانعين والمصنوع لهم ، فعلى الناقد ان يضع نصب عينيه عند النقد ، مبدأ اولياً اساسياً ذاك ، انه لا عمل بلا غاية ، ويعلم ان بحثه عن الغاية يكشف له كثيراً من اسرار النقد ، ويمهد له طائفة من العقبات ، فان فاته النظر في ذلك ، كان كمن يريد ان يتقن صناعة الطب ، دون ان ينظر في علم التشريح .

والقسم الثاني وهو الفائدة يبحث فيه الناقد عن الفائدة المقصودة من عامل الشيء المنقود ، وقد يظن بعضهم ان الغاية والفائدة واحدة ، وهو وهم محض ، فالغاية هي المقدمة والفائدة هي النتيجة ، وبعبارة اخرى ، ترى زيداً يزرع ارضه أو يأمر بزرعها ، وغايته الحصول على القمح أو القطن أو غير ذلك ، فاذا اثمرت الارض ، اكل الثمر أو باعه فاستفاد من ثمنه ، أو اكله ، وترى عمراً ينشئ معملاً ويجلب له معداته ، وغايته من ذلك عمل الاواني الخزفية أو البلورية ، وفائدته

من ذلك العمل بيعها والربح منها ، وتجد خالداً يؤلف كتاباً يصف به مساوىء الاخلاق الدنية ، وغايته من التأليف حض القوم على اجتنابها والابتعاد عن اهلها ، وفائدته من ذلك خدمة وطنه أو الانسانيـة كلها بالارشاد والهداية . وهذه فائدة ادبية ، وقد تقترن بفائدة مالية كأن يقبل الناس على كتابه فينفق ويربح من اعادة طبعه .

القسم الثالث وهو المحاكاة يبحث فيه الناقد عن المحاكى الذي قصد صانع الشيء المنقود محاكاته والتشبه به ، اذ سلسلة المحاكاة في البشر طويلة ، وقدمها يصعد الى الانسان الاول ، ويدوم على الارض بدوام الانسان ، كما سترى ذلك مفصلاً في الامثلة الآتية ؛ ينتج من ذلك ، ان كل من صنع شيئاً ، من الصناعات الجميلة اوسواها ، فقد نسج على منوال من تقدمه في تلك الصناعة ، او اتخذ منوال غيره قاعدةً ، رسم عليها منوالاً آخر ، وفي جميع الاحوال يكون المنقود محاكيا من وجهٍ او اكثر مصنوعاً آخر ، فعلى الناقد ان ينظر ان كان المنقود قصّرَ عن المحاكى او فضلهُ .

وهاك لزيادة البيان امثلة الاقسام الثلاثة :

فمثال القسم الاول وهو الغاية اذا مررنا على مأذنة ، او حصن ، او قصر ، ولم تكن وقعت ابصارنا على شيء من مثله ، فأول ما نسأل أو نقول ، ما هذا ؟ ولمَ هذا ؟ اي اننا نروم الوقوف على غاية صانعه ، ومثل ذلك لو رأينا ابريقاً ، او مائدةً ، او سريراً ، او بندقية او غير ذلك من كل ما يقع تحت الابصار ولم يكن لنا به ، أو بوجه استعماله سابق معرفة : وعليه ، فمتى اتضحت للناقد غاية الصانع أو الكاتب ، انحل لديه بعدها كثير من العقد العسيرة .

فلو انك تصورت ان المأذنة ، او الحصن ، لم تكن الغاية من بنايتهما على تلك الصورة من الهندسة ، إلا سكنى احد الناس ، لحكمت بفساد رأيه . ولو قيل لك ان الابريق المصنوع بشكل هندسيّ موزون ، من الخزف الدقيق ، المعجونة طينته عجناً بالغاً غاية الاتقان ، والمدهون بالالوان الزاهية وقد صورت عليه رسوم الازهار والطيور بغاية البراعة ، وشوي في النار في حرارة موزونة بغاية التدقيق ، كيلا يتكسر الخزف

ولا يسيل الدهان ، ولا يمس التصوير اقل عيب أو تغيير ، الى غير ذلك مما يستدعيه صنعه من العناآء والبراعة ؛ لم تكن غاية صانعه الا تمضية الوقت أو لا غاية له من صنعه البتة ، لجزمت باختلال عقل الصانع . ومثل ذلك ايضاً لو توهمت ان ابن الاثير في تاريخه ، وابن خلدون في مقدمته ، وصاحب كليله ودمنه في حكاياته ؛ والشيخ ناصيف اليازجي في مقاماته والمتنبي والمعري في قصائدهما ومقطعاتهما ، وغير هؤلاء من كل من كتب أو ألف شيئاً، ان تآليفهم وما كتبوه مطاوعة القلم لايديهم، أوخطرات خطرت في بالهم فقطعوا بكتابتها الاوقات لاخذك العجب من ذلك ؛ ولكن متى بحثت عن الغاية ، ووقفت عليها ، عرفت ان صانعي تلك الصنائع ، وكاتبي تلك البدائع ، كانوا على بينةٍ من امرهم وكانوا من الراشدين .

فان غاية صانع المأذنة ، هي ايصال الصوت الى مكان بعيد ، وغاية صانع الحصن الدفاع عمن في الحصن أو حوله ، من الجنـد وغيرهم ، وغاية صانع الابريق هي حفظ المآء به وغيره من السائلات ثم صبها منه بصورة محدودة دون وافر

عناء، مع توفر الحظ من النظر اليه، وغاية المؤرخين والحكماء والكتاب والشعراء، تدوين الماضي في بطون الكتب تخليداً لذكر الاولين والذاهبين، وعبرة للمعاصرين والآتين، وارسال الحكم النواصع والتحذير من الضار والتحريض على النافع، ووضع اساسات علوم وفنون وصناعات لاعدد لها، وشرحها وتمهيد سبلها، والترنم بمكارم الاخلاق والحث عليها، الى ما يندرج بين ذلك مما يفوق الاحصاء.

ومثال القسم الثاني وهو الفائدة كأَن تجد ان الصوت لم يصل من المأذنة الى البعد المروم، أولم يدفع الحصن غارات المحاربين ولم يصد هجماتهم، أوانه سقط على من به، أو ان الابريق لم يفِ بالمطلوب فاندفق الماء منه دفعة واحدة، أو انصبَّ على غير استقامة، أو كان غير مستقيم الوضع، او رشح ماؤه، أو ان ابن الاثير لم يكن في بعض ماروواه عن غيره في تاريخه اميناً، أو كأَن تجد عبارة ابن خلدون في مقدمته غير صريحة، أو ليست بليغة فصيحة، أو كأن تجد

حكايات كليله ودمنه غير مفيدة أو عرية من المعنى ، أوكأَن ترى مقامات الشيخ ناصيف خالية من الفوائد العلمية ، والبراعة الادبية ، أوكأَن يبدو لك شعر المتنبي خلياًّ من الانسجام بعيداً من الاتقان عرياً من الحكم والامثال ، لا فائدة منه .

قلتُ لو انك عند نقدك ووصولك الى هذا القسم رأيتَ بعد بحثك عن الفائدة ، انها لم تحصل ، أو وجدتها دون غرض أصحاب تلك المصنوعات ، فانظر أولاً لنفسك لتتحقق هل لديك العدة اللازمة لمعرفة النقص المزعوم ، أم كان ذلك عن قصورٍ منك في معرفة وتمييز الفائدة ولله در القائل :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتهُ من الفهم السقيمِ

فلو كنت على المام من فن الهندسة ، لعلمتَ ان الصوت لم يصل إلى البعد المقدَّر اما لأن موضع المأذنة لم يكن صالحاً لذلك ، أو لأنه لم يكن وراءها جبل أو هضبة تردّ الصوت بفعل الهواء من ناحية لأخرى ، أو لأَن لا سقف فوق رأس المؤذن يحفظ الصوت من كل الضياع ، أو لغير ذلك

من الاسباب الكثيرة؛ وقل مثل ذلك عن الحصن فاما لاتساع مراميه وطاقاته، أو لانفتاح مداخله، أو اضعف في أساس البناء أو لغير ذلك.

أما الابريق فلا بدّ لك من المام بالهندسة أيضاً، ومعرفة ولو قليلة بصناعة الخزف، لتعلم هل كان ذلك عن اعوجاج في الابريق، ام عن نقص آخر في شكله الهندسي؟ أم لقصور في نخل ترابه وعجنه أم لنقص شرط من شروط شيّه؛ وان كنتَ أنكرتَ فوائد هذه الأشياء المذكورة لجهلك أسباب عيوبها، فقد ألبست اسمك من العار ثوباً طويلاً، وخيّبتَ بك ظنون الاولياء، فان فوائدها لاتتوقف على معرفتك أو جهلك، ولا وهمك أو زعمك، بل عليك ان تحيط علماً بالمعارف اللازمة لحسن النقد، وايضاح النقص الذي أضاع الفائدة المرجوّة ان كان ثمت شيء من ذلك.

وأما أصحاب التآليف من الكتاب والشعراء، فاذا نظرت في الفائدة المتحصّلة من تآليف من ذكرتهم لك على سبيل المثل وكنتَ من البصيرين، تجد ان ابن الأثير صاحب

تاريخ الكامل ، كان أصدق روايةً ، وأكثر تثبتاً فيما نقل ، من كل مَن تقدّمهُ من المؤرخين ، وان الطريقة التي سلكها في تاريخه هي المثلى ، وان فائدة التاريخ لا يفي شرحها فصل من فصول هذا الكتاب بل إخالك لا تجهلها وقد وقفتَ على شيء منها قبل درس هذا الكلام .

واما مقدمة ابن خلدون فقد اجمع اهل الارض من كل مَن نُقلتْ الى لغتهم على انها كتاب فلسفةٍ على المجتمع الانساني ، بل مجموعة علومٍ وفنونٍ ، بل كنز معارف لذلك العهد لا يفي ثمنه كنزُ مال ، وأما ما أودعها من براعة التعبير والفصاحة والبلاغة ، فما يقصر عنه كل وصف ، وحسبك ان تعلم انها اجلّ كتاب وضع في اللغة العربية ، واسمى سفر أصبح قاعدةً يجري عليها الكتّاب الاعلام ، في الفصاحة والبلاغة ورشاقة التعبير ، واذا قيل ان فلاناً ينهج في الكتابة سبيل ابن خلدون ، فقد حاز من المدح والثناء ، ماتسجد لعزتهِ اقلام الشعراء ، فهل بعد هذه الفائدة من فائدة ؟

واما الفائدة التي تحصلت من كتاب كليله ودمنه ، فقد

فاقت غاية مؤلفهِ ، وبلغت اضعاف ما قصدهُ ، بل انهُ ولا ريبَ لم يحلم بها ، فانهُ كما تعلم ، قد وضعهُ لتعليم وارشاد ابناء بعض ملوك الهند ، أو انهُ وضعهُ للملوك والامرآء انفسهم على لسان الطيور والبهائم ، وكله حكمةٌ ، وارشاد ، وتعليم . لكف الجور عن الرعية ، ونصرة المظلوم ، وايضاح عواقب البغي والبطر ، والحذر من اهل المداهنة والخداع ، وذوي الخيانة من المتقربين ، واعطاء الناس حقوقهم ، وعلى الجملة فهو درس الحقوق والواجبات بين الملوك والرعية ، وبين رب البيت وعياله ، وبين الفرد من الناس واصحابه ، وحسبك ان تقدر عظم فائدته اذا كنت ذا لب ، وقد ترجم الى كثير من اللغات ، وهو ليس كتاب صناعةً ولا علم .

واما كتاب مقامات الشيخ ناصيف ، فهو آيةٌ من آيات الفصاحة ، واذا نظرت بعين الناقد المنصف ، الى ما فيه من الفوائد العلمية ، وجدته من اكمل الكتب الادبية ، فقدجمع فيه مؤلفه . متفرقات وشوارد . يحتاج الاديب الى التفتيش عنها في مئة كتاب من كتب الادب ، والفائدة التي تحصلت

من كتابه هذا ، فاقت حدود امله ، وقد فعل في تصنيفها ، ما فعله العالم جول فرن بعده ، من تضمينه الحقائق العلمية في قوالب الحكايات ، ومقامات الشيخ جزيلة الفوائد ، لا يعلم قدرها الا الراسخون في العلم ، المتقدمون في الكتابة والنظم.

واما شعر المتنبي فقد كان يتطلع منه الى ثلاث فوائد الاولى المال ، والشهرة ، والجاه ؛ والثانية تصوير الوقائع الحربية بالوصف البليغ ، وتدوينها لتظلّ عبرةً وأثراً تأريخياً ، ثم تحميس الجنود ، واطرآء الممدوح اطرآءً يلذّ له ؛ حتى ينال ما يرجوه من مال وجاه ؛ والثالثة التعبير عن وجدانات نفسه ، من غرام وافتخار ، ونثر حكم استفادها بسمو ذكائه من عبر الايام ، ومراقبته أخلاق البشر ، الى أن سار كلامه مسير الامثال كما أشار الى ذلك بقوله :

وما الدهر الاَّ من رواة قصائدي

اذا قلتُ شعراً أصبحَ الدهر مُنشدا

وأنت اذا نظرت في شعره وأعطيته حقه من صدق النقد ، تبيّنت ان الفوائد التي قصد لها قد تحصلت . ولا

تفهم من ذلك ، ان كل قول أو مصنوع ، تحصل منهُ الفائدة التي يتوخاها صانعهُ ، بل على الناقد ان ينظر في ذلك بتثبت ، فان وقع بعد التمحيص على الفائدة المرومة ، أوضح ذلك في نقده وان وجدها متقاصرة عن المقصود بسط للقارئ والسامع مواضع القصور والنقد وأسبابه ، وان زادت على أمل المخترع ، أتى بالبيان على ذلك جميعه ودعمهُ بالبرهان المبين .

ومثال القسم الثالث وهو المحاكاة اذا نظرت في كتاب مقامات الحريري وانتقدته من هذا القسم رأيتهُ في صنيعه هذا ، قد قصد محاكاة بديع الزمان الهمذاني والتشبه به . واذا انتقدت تصاوير سيلّيني من هذا الوجه تجده قصد محاكاة ڤينجي ، واذا انتقدت منحوتات ميكيلّوا انجيلو رأيته احتذى أمثلة مشاهير النحاتين من اليونان ورام محاكاتهم ، واذا انتقدت نابوليون الكبير رأيته انه كان يروم بأعماله العظيمة محاكاة انيبال والاسكندر ، وابرهيم الموصلي قصد محاكاة معبد أو جريح بالغناء

واعلم ان المحاكاة تعرض للبشر في اكثر أفعالهم كما صرّح بذلك ارسطو ، فأول ما عرضت لهم ، في ألفاظهم ، فانهم في اكثر اللغات قد سموا طائفةً من الافعال بأصواتها كقول العرب ، حفيف الشجر ، خشخشة الثوب الجديد ، صرير القلم ، خرير المآء ، هرير الكلب ، دق الباب ، قعقعة السلاح ، وغير ذلك مما هو كثير ، وقد أفرد له العلمآء باباً مخصوصاً في ابحاثهم عن أصل اللغات وفلسفتها ، فلا أطيل عليك منه ، بل حسبك ما ذكرته لك ، شاهداً على محاكاتهم في ألفاظهم ، أصوات الافعال ، من الجماد والنبات ، والحيوان .

ثم نظروا الى ما احكمت صنعه يد الطبيعة من المغاور في الجبال وغيرها من الارض الجبلية ، فحاكوها ببنائهم بيوتاً تشبهها في أوّل أمرهم ، وحداثة شأنهم ، ثم رأوا كيف يصطاد الباشق العصفور ، وكيف يقع الذئب في الغنم ، فاصطادوا الاسماك وقنصوا الظبآء فأكلوها واكتسوا بجلودها فحاكوا الحيوان في أفعاله .

ثم لما تقدم الانسان في المعارف لم يألُ جهداً في تقليد

الطبيعة ومحاكاتها ، في جميع صناعاته ، فكأني به قد راقب الزنبور والهدهد وغيره من الطير تطلي عِشَشَها بالجصّ ، فطلى بناءهُ وتفرس نسج الليف وما شاكله في النبات ؛ فنسج الشباك والخيام وغيرها ، وشاهد حبة الخردل تسقط على الارض فاذا هي شجرة بعد حين ، فنقل في ظعنه حبوب الحنطة ، والشعير ، وغيرهما ، فزرعها الى غير ذلك من الصناعات الاولية .

ثم لما تمت له الحاجيات ، ووصل الى دور الكماليات ؛ لم يجد بداً من محاكاة الطبيعة في أعماله ، فحفر ونقش وصوّر على الخشب والحجر والآجرّ صور النبات والحيوان والانسان والماعون بل السمآء وأقمارها ونجومها ، ثم ان هو نظر زهرة أو ثمراً أو ورقة نبات أعجبته ، صنع مثلها من الخزف والفضار ، وان نسج طنفسة أو غيرها ، طرّز عليها صورة أرض بستان ، أو حوض مآء ، أو أشجاراً ، أو طيوراً وأسماكاً ، لكنه لم يجعل السمك على الاغصان ؛ ولا البركة فوق الشجر ، بل حاكى الطبيعة في نظامها .

وغرّد البلبل فغنى الانسان طرباً محاكياً له، وأنشد الشاعر الشعر، فأطرب، فحاكاه شاعر آخر في النظم، على اختلاف في اللفظ أو المعنى أو القافية، وخطب الخطيب في القبيلة، يحثهم على أخذ الثار، فخطب خطيب آخر يحاكيه.
وروى الراوي أخبار من تقدمه، من أهل قبيلته أو امته وكتبها، فسمي مؤرخاً، وحاكاه آخر فكتب أخبار أمة أخرى، وكتب العالم بعض قواعد علم من العلوم، أومباديه، فنسج عالم آخر على منواله فكان له محاكياً.

ولبست الحسناء ثوباً طويل الذيل، فاستحسن على قدها الممشوق فحاكتها جارتها ولبست مثله، وعقصت شعرها البديع أو سبلته على ظهرها، فحاكتها بذلك جاراتها.

ورأى الملك العظيم آثار الهياكل الفخيمة التي رفعها من تقدمه من الملوك، فأمر ببناء امثالها أو افخم منها، ونظر الامير الى القصر البديع الذي بناه ابن عمه، فاوصى ببناء مثله، فكانوا بذلك محاكين سواهم.

وقد يعترض معترض فيقول، انك بهذا الرأي جحدت

الابتداع والابتكار ، وجعلت المتفننين كلهم محاكين بعضهم بعضاً ومقلّدين .

فاجيب ان كان المراد بالابتداع والابتكار ، الخواطر العقلية ، او المعاني المجازية التي تعرض للشعراء وسائر المتفننين ، فهذه لا محاكاة فيها ، لانها ليست من الافعال البشرية ، بل هي نتيجة البنية أو الفطرة الطبيعية ، والتربية ، والتعليم ، وثمرة المؤثرات الخارجية من طبيعية وغيرها ، كاعتدال الهواء أو عكسه ، والشبوبية أو الكهولية ، وحالات الصحو أو ما يدنو من السكر ، وانبساط النفس أو انقباضها الى شيء كثير من مثله ، وان كان المراد بالابتداع والابتكار ، الاتقان والاحكام والبراعة وبلوغ غاية التمام في الصناعات الجميلة وغيرها ، فهذا لا ارى فيه سوى المحاكاة مع زيادة الاتقان والترقي في العمل ، اذ لم ينبغ رافائيل سانزيو في تصاويره ، وميخائيل انجيلو في منحوتاته ، واسحق النديم في غنائه ، وايفيل في هندسة برجه الشهير ، وساره برنار في براعة التمثيل ، وابن معتوق في تشبيهاته ، وابو فراس الحمداني في شرف اللفظ وعذوبته ،

وكثيرون امثال هؤلآء الاكابر ، الا لانهم قصدوا محاكاة من سبقهم في فنهم ، بل راموا سبقهم ، فتم لهم ذلك بفضل اتقانهم ، واصابة نظرهم ، وحسن ذوقهم .

والمحاكاة من اعسر ما يتجشمهُ المتفنن ، وقد زعم بعض النقادين انهُ لا يجوز للواصف ، ان يتجاوز حقيقة الموصوف إن لفظاً ، أو تصويراً أو نقشاً أو غير ذلك ، فان تعدّى حقيقة المحاكاة بسائر اجزآئها ولو بالتحسين ، كان عمله حرياً بالتعقيب والتغليط .

بيد ان العالم تاين ، اشهر نقادي القرن المنصرم قال في كتابه «فلسفة الصناعة» بجواز ذلك ، بل بوجوبه في كثير من الاحوال . زاعماً انه مهما توفرت شروط الدقة والاتقان ، والبراعة في الوصف والتصوير ، فقد تقصر في كثير من الاحيان ؛ بل ربما كان ذلك عاماً ؛ عن التأثير الذي تؤثره الحقيقة في السمع والعيان ، وهذا بالحقيقة كلام ناقد بصير . ألا ترى انك لو عاينت صورة من تحب مصورةً ببراعة هي الغاية ، لما تمالكت بعد التفرس فيها من الاعتراض على

نقص في صناعة تصويرها ، كأن يكون من نقص شَمَمٍ في الانف ، أو من سعة في الشدقين ، أو استرخاء في الاذنين ، أو أثر خمش في الخد ، أو غضونٍ في الوجه الى غير ذلك من نقص محاسن كنت تحسبها على ذلك الوجه بادية ، او عيوب كانت عليك خافية .

ومثال ذلك فيما لو سمعتَ خطيباً على منبر ، أو شاعراً تنشد قصيدة في محضر ، لاستحسنت قوليهما فوق استحسانك ما تقرأهُ لهما من خطبة أو قصيدة قد تكون ارفع طبقة مما اسمعاك ، ومن ذلك المثل ، اسمعهُ ممن قاله تزدد به عجباً ، وقس على ذلك ما تشاهدهُ من الآنية الذهبية أو الفضية أو الغضار الصيني ، فان لم يزد المصور في تميقها ، ويذهب في تزويقها ، لابصرت الصورة دون المصوّر في الحسن والاتقان ، ولعل السبب في ذلك كله ، ما يسميه المصوّرون « الظل » أو « ظل النور » ، أو « الاشعة » ، وانت اذا انعمت النظر في فعل الاشعة وابريقها ، رأيت مكان الحكمة من هذا القول ، واذا وازنت بين آنية جديدة وآنية قديمة

من شكل واحد، أو بعبارة اخرى بين آنية مستعملة سليمة من كل عطب، وبين جديدة من شكلها، وجدتَ انَّ الذي يرغبك في الجديدة ويحسنها في عينيك، ليس غير بريق اشعتها، وقد سمّى بعضهم هذه الاشعة، أو هذا البريق، أو ما يجمع ذلك كله؛ وهو الحسّنُ المرغّبُ الذي يدفعك الى تفضيل هذا على ذاك؛ روح حياة؛ ويعجبني هذا التعريف اذ ان أصوات الخطيب والشاعر، ونبراتهما، واشاراتهما، وانسان عين المعشوقة، أوكل مخاطَبٍ اذ يقع بريقهُ على انسان عينك، بل أشعة الآنية نفسها وحركتها، كل ذلك فيه روح حياة لا يوجد فيما خلا منه، وهو يخفي كثيراً من عيوب الشخص، او الشيء، وبعبارة أخرى، يشغل الفكر حيناً، أو يلهيه هنيهةً عن نقد عيوبه، وبالجملة، فللعيان سرٌّ دقيق، ولله در الشاعر:

اذا ما غابَ شخصُكَ عن عيوني
فانّكَ في الحشا أبداً مقيمُ
ولكن للعيانِ لطيفُ معنىً
لهُ سألَ المعاينةَ الكليمُ

فينتج مما تقدم بسطه ، انه لايجاد هذا الروح الحى أو ما يقوم مقامهُ في المصنوعات العقلية [1] واليدوية ، كيما تحصل في الذهن الصورة الاصلية ، وتتجدد في النفس الاحداث التي شعر بها الناظر أو السامع الى الأصل المحاكَى ، لا بد للكاتب ، أو الناظم ، أو المصور ، وعلى الجملة لكل متفنن ، من المبالغة المقبولة ، كأن يزيد عما في الاصل المسموع ، والمنظورات الحية ، شيئاً من التحسين اللفظي وهو معروف في علمي البيان والبديع ، ومن التزويق والتنميق والبريق . في الكتابة والتصوير والنقش . الى حد يخيل للقارئ والمعاين انه نفس المحاكَى . وقد أشبعت القول في هذا الباب قصد تمام الفائدة والله ولي الهداية .

(١) قد يقال ان الاعمال العقلية محتاجة الى العمل اليدوي كالشعر والانشاء . الى الكتابة ، وان المصنوعات اليدوية محتاجة الى العقل . كالتصوير والنقش . فاذاً هذا التعريف غير كاف . فأجيب هذا التعريف قد اصطلح عليهِ أكثر الأدباء والكتاب . واصطلاحهم ينفي الجهالة .

الفصل السادس عشر

في

القاعدة الثانية

نقد القائل والصانع

لا بدّ للناقد من أن ينظر ان كان المنقود عمله رجلاً هو أو امرأة ؟ وهل هو شاب أو كهل أو شيخ ؟ وهل هو بدويّ أو قرويّ أو حضريّ ؟ وهل هو غنيّ أو فقير ؟ حزين أو مسرور ؟ الى غير ذلك من الاحوال التي تقدم وصفها فيما سبق من الفصول ، فليست خواطر الفتى اليافع والآمالُ تبسمُ لديه ، والصحة وقفٌ عليه ، كافكار الشيخ وقد جانبهُ الاطيبان ، وعركهُ الزمان ؛ ولا تصورات البدوي ولا منزل له غير بيتٍ من الشعر ولا مطية غير البعير ، ولا بستان غير القفر ولا ظلة تقيه الهجير ، ولا زهر غير الشيح ، ولا كسوة غير القميص ، ولا طعام غير السخينة ، أو العصيدة

أو التليينة ، كتخيلات القرويّ الذي أمن اعراض الطبيعة من حرّ وبرد في بيته المبني بالطين ، وقد لبس العباءة واحتذى النعل ، واكل اللحم المطبوخ وشاهد أزهار البساتين ، وذاق طعم قرار العيش في قريته آمناً على سربه : ولا هذه كابتكارات الشاب الحضريّ وقد لبس الحرير والطيلسان ، أو طالت ملابسته لها ، وتختّم بالياقوت والمرجان ، أو عاشر من ملكها ، وجالس الظرفاء والندمان ، وتنقل بين الآسّ والريحان ، وسمع مطربات الالحان ، وظل يخطر بين الكأس والوتر ، ويرى رقص العندليب على الاغصان ، بل رقص القَينات الحسان .

الفاتنات القاتلات المحييا ت المبديات من الدلال غرائبا

وهو يداعبهنّ بمحاسن الكلام وظراف المعاني ، ويتشمم من معاطف أثوابهنّ الحريرية نسيم طيب يزري بعرف الند والعنبر والماء يجري أمامه كاللجين الذائب في أحواض من المرمر ، ويسيل على حصباآتٍ كأنهار الدرّ والزبرجد ، وقد مُدّت بين يديه مائدة رفعت عليها أطايب المشموم ، ولذائذ

المطعوم ، في صحافٍ من الفضة ، بين أكواب موضوعة ، من بدائع البلور ، كأنها مطالع نور ، وأوانٍ مبثوثةٍ مرفوعة ، فيها رحيق مختوم ، معتّقٌ من عهدٍ غير معلوم ، والى جانبه غانية كأنها من حور الجنان قد قامت

فالقتْ قناعاً دونهُ الشمسْ واتَّقتْ

بأحسنَ موصولينِ كفٍّ ومعصمِ

وراحت تعاطيهِ من خمرة غنجها ودلالها أطيب كأس ، وتشغف قلبه بحديث هو السحر الحلال فيحسب انه في نعيم مقيم . وتالله ان ما يوحى اليه من الخواطر لا يحلم بهِ ذلك البدويّ المضيم . ولا ينزل على قلب ذلك الشيخ السقيم .

واعلم ان قاعدة نقد القائل هذه ، هي الموصلة الى معرفة ما تقدم بسطه ، وبعبارة أخرى الى معرفة قائل أو صانع الشيء المنقود ، وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام التكرار ، والاميال ، « أو العواطف » والغرض ، وقد تجتمع كلها في عبقريّ واحد ، وقد لا يجتمع فيه سوى قسمين أو علامتين ، وقد لا يظهر للناقد غير قسم واحد ، يكفي في استقراء مقام

الكاتب ، ومعرفة المتفنن أتمّ المعرفة ، واليك تفصيل ذلك :

القسم الاول التكرار جاء في الامثال العامة ان الرجل لا تدب الا الى من تحب ؛ وأنت اذا أعطيت هذا المثل حقه من التبصر وجدته سديداً ، وقل في مثل ذلك عن كل ما يميل اليه المرء من أحوال العيش ، فمن أحبّ لوناً من الطعام كرّر أكله ، أو شكلاً من الملبوس كرّر لبسه . أو أغنيـة كرّر انشادها أو استنشادها ، أو كلمةً أو عبارةً أو بيت شعر ، ومنه المثل من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره ، فالناقد الذي يودّ معرفة صانع الشيء المنقود ، أي المتفنن . معرفة صادقة لا يشوبها شيء من الغرض ، ولا يخفيها حجاب ، يتحتم عليه ان ينظر الى الشيء المتعدد من مصنوعاته . اذ كما تقدم القول في فصل سابق ، لا يمكن الحكم بذلك من النظر الى مصنوع واحد ، فانه ان أصاب مرةً أخطأ مرّات ، فاذا ما زاول ذلك طالب هذا العلم ، وثابر عليه المرة بعد المرّة ، لا تلبث ان تستحكم منـه ملكة النقد ، ويسرع في كشف الغطاء عن أسرار المتفننين وعيوب الصناعات

ومحاسنها . ان كان ممن أوتوا ذوقاً سليماً وقلباً عليماً .

وهاك مثالاً يدعم هذه الحجة ويهديك سوآء هذه الحجة ، لو قلت لك ان ناظم الابيات الآتية ليس بالعاشق الولهان وانما هو شاعرٌ معجبٌ بنفسهِ تيّاه ، مُدِلٌّ بحسنه ونهاه . وقد يكون غير جميل الوجه ولكنهُ يحسب انه الجميل ، لعجبتَ من قولي هذا ورميتني بالافترآء ، بل لو لم تكن من أهل الادب ، لاستفزّكَ الغضب ، وأوجبت عليّ سخط السمآء ، وغيظ أهل الرقاعة والسخافة وسائر الحمقآء . ولكن متى كشفت لك سرّ حجتي كنت لي من الناصرين .

أما هذا الشاعر فهو عمر بن ابي ربيعة الذي سحر العقول برقته ، وأسكر الارواح برشاقته ، وتصرّف بالشعر غزلاً ونسيباً ، وعتباً وتشبيباً ، تصرّفاً لم يأتِ به قبله شاعر بل أتعب من جآء بعده من خاصّة الشعرآء قال :

ولقد قلتُ اذا تطاولَ هجري

ربّ ِ لا صبرَ لي على هجرِ هندِ

ربِّ قد شفَّني وأوهنَ عظمي
وبراني وزادني فوقَ جهدي
ربِّ حملتني من الحبّ ثقلاً
ربِّ لا صبرَ لي ولا عزم عندي
رب علِّقتُها تُجدِّدُ هجري
ذاك واللهِ من شقاوة جدّي
ليسَ حبي لها ببدعةِ أمرٍ
قد أحبَّ الرجالُ قبلي وبعدي

فاذ قد سمعت هذا الغزل الرقيق ، وشممت هذا المسك الفتيق ، بل ذقت طعم هذا الرحيق ، فتعالَ أريك سرَّ هذا المتصابي ، لتعلم اني لا افتري ولا أحابي .

اعلم ان الشاعر المذكور من قريش . وقريش كما تعلم هي اشرف قبائل العرب ، ولما كان اسمه عمراً ، كانت كنيته ابا الخطاب على ما هو معلوم من امر الكُنى عندهم ؛ وحنتمة ام عمر بن الخطاب هي بنت عم ابيه . فكان فخوراً بحسبه لا يُحب ان يُدعى الا بكنيته تقليداً أو تشبهاً بعمر بن

الخطاب رضي الله عنه وهذا خلاف ما نراه لسائر الشعراء وخصوصاً في الخطاب مع المحبوبة ، وانت تعلم ان العرب أجرت الكنَى للتعظيم ، ولم تكن لهم عادةً ان يسمُّوا انفسهم بها الا عند المفاخرة ، ولقد فليت تراجم مئتي شاعر أو يزيدون من الجاهلية والاسلام ، فلم أقع على غير ذلك ، ومعلوم ان المحبوبة ، تودُّ بالطبع ان يكون محبها فتىً يترقرق في عطفيه ماء الشباب ، ذا خفّةٍ ، يكادُ يعصرُ الظرفُ من شمائله ، وتودّ ان تدعوهُ باسمهِ وتناديهِ ان استطاعت بالتصغير للتحبيب قال الشاعر :

ما قلتُ حُبيّبي للتحقيرِ
بل يعذبُ اسمُ الشخصِ بالتصغيرِ

والعاشقون حقيقةً ، يرون الاتضاع بل التذلل لمن يهوون ، شرفاً وعزّاً قال الشاعر :

لا تدعني الاّ بيا عبدَها فانه أشرفُ أسمآئي

فلو كان عمرُ هذا عاشقاً حقاً لما قال :

فقالت لِأَترابٍ لها ابرزنَ انني اظنُّ ابا الخطّابِ منا بمحضرِ

قريباً على سمت من القوم نتّقي
عيونَهمُ من طائفينَ وسمّرِ

ولا كان قائلاً :

فأنتَ أبا الخطاب غيرَ مدافعٍ
عليّ أميرٌ ما مكثت مؤمَّرُ

ولا كان يقول :

قالتْ لتربٍ لهُ ملاطفةً | لتفسدنَّ الطوافَ في عمرَ
قالت تصدّى له ليبصرنا | ثمَّ اغمزيه يا أختِ في خفر
قالت لها قد غمزتهُ فأبى | ثم اسبطرّتْ تسعى على أثري

ولا جهر بهذا الشعر

لم يَرُعني بعدَ أخذي هجعةً
غيرُ ريحِ المسكِ منها والقطرْ
قلتُ من هذا فقالت هكذا
انا من جشّمتَهُ طولَ السهَرْ
ليتَ اني لم اكنْ علّقتُكُمْ
كلّ يومٍ انا منكمْ في عِبَرْ

كلما توعدني تخلفني
ثمَّ تأتي حين تأتي بعذر
عمركَ اللهَ أما ترحمني
ام لنا قلبك اقسى من حجر
قلتُ لما فرغت من قولها

. . . .

ولا أزيد على ما اوردتهُ من شعره فكلُّهُ على هـذا النسق ، وأنت ترى مما ذكرتهُ لك من شواهد التكرار ، صدق ما صوَّرته لك من اخلاق هذا الشاعر ، وهي حقيقةٌ لا يشوبها ريب ، وتكرارهُ هذه المعاني والمناداة بكنيته ، أدلُّ دليل على مباهاته بجماله ، وتدلُّلهِ بأصلهِ ومنزلته ، فان ما يقولهُ المحبُّون لمعشوقاتهم . قد جعلهُ هذا الشاعر في افواه معشوقاتهِ خطاباً لهُ ، فصدق بهِ المثل ، قد استنوق الجمَل .

وقال ابن خلدون ما محصَّلهُ : حكى ابن رضوان قال أنشدت أبا العباس بن شعيب مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها لهُ وهو هذا

لم أدر حينَ وقفتُ بالاطلالِ

ما الفرقُ بينَ جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيهٍ فقلتُ ومن أين لك ذلك ؟ قال من قولهِ ما الفرقُ اذ هي من عبارات الفقهآءِ وليست من اساليب كلام العرب فقلتُ للهِ أبوك فانهُ ابن النحويّ .

أرأيتَ كيف كان حكم هذا الناقد سديداً ؟ الاّ ان هذا من النادر اذ كما قدَّمتُ لك لا يكون الحكم صحيحاً في الغالب ، ما لم يرَ الناقد تكرار اللفظ او المعنى او الرمز او الشكل وما جرى مجرى ذلك ، وخصوصاً لكثير من شعرآء وكتّاب هذا العصر ، الذين يقع اللفظ او المعنى تحت اقلامهم ، لا عن ملكةٍ او سليقة ، بل لقلة التثبت او للتقليد .

القسمُ الثاني **الاميال** أو **العواطف** أو هي الاحداث النفسانية حال كتابة الكاتب ، ومصنوع الصانع .

اعلم أن نقد الاميال — في الكاتب وسائر المتفننين — وإيضاحها من كتابته ومصنوعاتهم ، قد يكون أيسر مطلباً

واقرب تحصيلاً ، اذا كان المكتوب او المصنوع من وحي القريحة ، فلو أنّا قرأنا قصيدةً كاحدى المعلقات ، او شيئاً من شعر شكسبير الانكليزي أو لامارتين الفرنسوي أو دانتي الطلياني ، او رواية تخييلية من روايات زولا أو دَانيّنسيو وامثالهم ، لتمكنّا من وصف اخلاق الناظم او الكاتب ، اكثر مما لو قرأنا كتاب تأريخ ، ولو أنّا قرأنا شيئاً من اقوال الجاهلية لتيسر لنا تحديد عواطف الكاتب او الناظم ووصف اخلاقه ، اكثر مما لو قرأنا شيئاً لكاتب من عهد عمر بن عبدالعزيز الاموي ، ولو نظرنا في كتابات معاصري الخلفاء العباسيين لكان نقد العواطف والاميال ، اظهر لدينا في كتاباتهم ، واوضح مما هو فيما كُتِبَ لعهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، والسبب في ذلك أبسطهُ لديك ، وان كان قد سبق لي بسط شيء من مثله .

انت تعلم ان الشاعر عندنا في زمن الجاهلية ، كان مالكاً مدى حريّة فكرهِ وفعله ، فاذا نظم شيئاً فهو مدفوع اليه بطبعه غير مقيَّد بسلطان من الغاب والاستبداد ، ومثله

او يقرب من حالته شأن شعرآء الافرنج وكتّابهم المذكورين، وليس الامر كذلك لعهد عمر بن عبد العزيز الاموي ، والخلفآء العباسيين ، والسلطان صلاح الدين بن ايوب ، فان الاستبداد كان بالغاً حدّه لعهد الدول المذكورة ، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز متشدداً في دينه ، فلم يكن للكاتب ان يكتب الا ما يعلم أن لا حرج عليه فيه ؛ وأما كتّاب العصور العباسية ، فقد كانوا أوفر اطلاعاً وعلماً ، ولم يبلغ احد من الخلفآء العباسيين ، مبلغ الخليفة عمر الاموي من التشدد في دينه ، واما عهد صلاح الدين فقد كان اشبه بالقرون المظلمة عند الفرنج ، بل عصرهُ من تلك القرون نفسها ، وما نقص من التحمُّس والتشدد الدينيّ عند العرب في بلاد الشام — وهو المعروف لهذا العهد بالتعصب — استفادوهُ من غوغآء الفرنجة الذين دخلوها في الحروب الصليبية ، ولهذا فلم يكن سبيل للناقد الى معرفة عواطف المؤلف ، فقد يكون فيلسوفاً وهو يظهر الجهالة ، اوشفيقاً يكره سفك الدمآء ، فيتجلد ويظهر العُنف والقساوة ولله درّ الشاعر

وقد يتزيّا بالهوى غيرُ اهـله

ويستصحب الانسانُ من لا يلائمُهُ

وعلى الجملة فقد كانت حالهم خال من ذكرتهم لك في القسم الأَول من أمم الغرب في القرون المتوسطة ، اذ كانت كتاباتهم ملازمةً طريقةً واحدةً من التقليد ، ولهذا السبب عينهِ ، تجد أكثر التآليف عندنا وأوسعها ، تآليف العلوم الدينية ، ثم يأتي بعدها الصرف والنحو ، لانهما يتعلقان بعلوم الدين أيضاً ، ثم اللغة لانها تتعلق أيضاً بعلوم الدين ، ثم المعاني والبيان فالطب فالتاريخ ، وقلَّ ان تجد كتاباً في علم من هذه العلوم ، لم يتشفّع مؤلفهُ الى القرآء فيـه بمقـدمة ، يوضح فيها ما لذلك العلم من العلاقة بالدين ، وكل ذلك كما ترى ليس فيه شيء يدل على عواطف الكاتب واميالهِ ، ولعل الخوف من جور المستبدين ، كان سبب تقييد الأَقلام عن الجري مع الطبع ، في ميدان الكتابات الأَدبية ، وهي التي منها تنقدَ اميال الكاتب وعواطفهِ ، أكثر من سواها ، بَيد انها أشد خطراً عليه في تلك العصور من سائر العلوم.

على انه لا يستحيل الوصول الى هذا الفرض أي نقد عواطف الكاتب في غير كتاباته الأَدبية على من شدد التنقيب ، وأكثر التنقير ، وصدقت ارادته في تفهم مراده ، كما سبق القول في صدق الارادة « في الجزء الأول » وهاك مثالاً لذلك .

لقد تحققت بهآء الدين المعروف بابن شدّاد المتوفى سنة ٦٣٢ كان قليل البصر بالسياسة ، قصير النظر في معرفة محاسن أهل الرئاسة ، لا يعرف شيئاً من أحوال تدبير الملك وشؤون الحرب ، مع انه كان متقرباً من السلطان صلاح الدين بن أيوب ، بل لم يكن يفارقهُ كما يفهمُ من كلامهِ ، ولكنهُ كان ورعاً ، شفيقاً ، سليم الطويّة ، طيب السريرة ؛ فان قلت كيف استيقنت ذلك ؟ أجيب

أخذت كتاب النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية ، تأليف القاضي المذكور ، وهو تاريخ السلطان صلاح الدين ألّفه بعد وفاته ، فرأيته يقول فيه ما محصله

واما صدقة النفل فانها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال ، ولم يخلف في خزانته الا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ،

وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا شيئاً من أنواع الاملاك . »

وقال في موضع آخر من التاريخ المذكور « ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس وقد عزم على التوجه الى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبهُ في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد . وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم مهمٌّ لعلمهم بأنه متى علم به اخرجه . »

وقال في موضع آخر « فركب على مضض ورتّب العسكر وأول ما نزل من التل أُحضر بين يديه افرنجي قد أُسر من القوم فأمر بضرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الاسلام عليه وابائه عنه وكلما سار العدو . . »

وقال في موضع آخر « ولقد رأيته وقد جاءه خبرُ وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من

ذلك سوى انهُ لما قرأ الكتاب دمعت عينه . »

وقال في موضع آخر « ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الافرنج وبيننا وبينهم شوط فرس فاحضر الملك العادل وغيره ثم أظهر الكتاب وبكى بكاء شديداً حتى ابكانا من غير ان نعلم السبب . »

وقال في موضع آخر « ثم ضرب عنق البرنس ارناط بيدهِ وفاءً بنذرهِ . » وقال قبل ذلك « وكان رحمهُ الله خاشع القلب رقيقهُ غزير الدمعة اذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاتهِ »

فلدى نقدي عواطف الكاتب وأمياله ، أيقنتُ انهُ كان محباً للسلطان رحمهما الله شديد الحب ، وانهُ لما لم تكن فيهِ حصافة المؤرخ البصير ، ولا خبرة السياسي الباقعة ، وقع في مناقضة القول ، وذم السلطان من حيث ظن انهُ يمدحهُ ، فان سلطاناً عظيماً وفاتحاً كبيراً كصلاح الدين ، كان لا بدّ لهُ من ان يدّخر دائماً في خزانته مالاً وافراً يستعين بهِ على تعبئة الجيوش ، وتوزيع الهبات والانعام على

حاشيته وذويه وغيرهم ، فضلاً عن الاحسان الى الجواسيس لتأتيهِ بأخبار العدوّ ، وهذا كلهُ عدا ما يلزمهُ من أعطيات ذوي الرتب والوظائف والنفقات التي يقتضيها بيت السلطان نفسهِ وذوي رحمه وحاشيتهِ وعيالهم في الحلّ والترحال ، وعلى الجملة فانهُ مهما كان حال دولة صلاح الدين من الفتوّة والبداوة والقناعة ، كان لا بدّ لهُ من ان يذخر في خزانة الدولة مالاً يكفيهِ شهراً على اقلّ تقدير ، فانك اذا نظرت الى ما كانت تفعلهُ الملوك من قبلهِ من تجهيز الجيش بالاموال قبل كل شيء ، كما فعل المعز لدين الله عند ما بعث القائد جوهراً لفتح مصر ، وكما فعل سائر الفاتحين ، لعلمهم انهُ لا يتم لهم أمرٌ بغير المال ، اذا علمت هذا كلهُ ، وتحقق لديك ان صلاح الدين كان من عظماء الفاتحين ، وأقطاب السياسة ، وكان واقفاً على جلائل شؤون الدول التي تقدمتهُ ودقائقها ، رأيت ما حكاهُ القاضي عن اضطرار السلطان الى بيع أشياء من بيت المال ليوزع ثمنها على بعض الوفود ، واخفاء نوابه عنهُ شيئاً من المال ، لعلمهم انهُ متى علم بهِ

أخرجهُ ، كل ذلك ضرباً من التبذير والاسراف وقلة الحزم وضعف الرأي ، وهذه الصفات يستحيل اجتماعها في صلاح الدين ، وهو ابن والي تكريت ربي في حجره وترعرع وشبَّ على دهاء السياسة والتدبير « حتى اذا بدت مخائل نجابته للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، عوّل عليه ، ونظر اليهِ ، وقربهُ وخصصّهُ » كما روى القاضي نفسهُ الى آخر ما ذكر عنهُ من عزم نور الدين على انفاذه لفتح مصر مع أخيه أسد الدين شيركوه وهذا جعله مقدّم عسكره ، وصاحب رأيهِ .

اذن اتضح لي من نقد هذا القول كلهُ ، ان عواطف الكاتب وأميالهِ ، جرّته الى الوقوع في مناقضة القول ، وانهُ لسذاجته أراد ان يحلي مولاه بالكرم ، فتجاوز حدّ الحقيقة ، بل ركب غاية الشطط ، اذ حسن التدبير ليس بمانع صفة الكرم عن السلطان .

أما وصفهُ السلطان بكثرة الشفقة وغزارة الدمع ، فهذا ايضاً قد نمَّ على عواطفه ، فعلمتُ انه كان يودّ أن تكون

هاتان الصفتان في مولاه نخلعهما عليه مع استحالة وجودهما به ، اللهمَّ الاّ الى شيء قليل من ذلك ، فكيف يكون كثير الشفقة وكل يوم يقتّل من جنوده وجنود اعدآئه — وهم ايضاً من مخلوقات الله — ألوفاً او مئات ؟ وكيف يكون وافر الشفقة وهو يقدّم بين يدي مسيرهِ اسيراً فيأمر بقتله ؟ — على بركات الله — ! (وكان على القاضي ان يقول انهُ فعل ذلك تشجيعاً للجند التي كان امرها بالزحف على العدوّ كما هو الواقع ، ولكن لم يفقه القاضي المراد من ذلك ، لجهله سياسة الحرب ، فلم يذكر شيئاً من هذا .) وكيف يكون كثير الشفقة غزير الدمعة ؛ وهو وفآء لنذرهِ يضرب عنق البرنس ارناط بيده ؟ ويأتيـهِ خبر وفاة ابنهِ البالغ اسمعيل فلا يظهر عليه شيء من التأثر ؟

ثم كأنهُ لسلامة نيته وحسن طويتـه ، توهم ان غزارة الدمع والشفقة وكثرة البكآء ، من الصفات التي يجدر أن يتحلى بها الملوك والسلاطين ، اوكأن صلاح الدين رحمه الله كان قاسي القلب ، لا يعرف للشفقة معنًى ، وكان يعيبهُ

حسادهُ بذلك ، فأراد صاحبنا ان يستر هذا الخرق ، فألبسه حلةً لا تليق بهِ بوجهٍ من الوجوه ، فكلما رأى السلطان في أمرٍ ملتبَس ، او ادجنت سمآؤه وكان احوج ما يكون الى ثبات جنانٍ ، واصابة رأيٍ ، ورحابة صدر يندك لها طود الشدائد ، مثّلهُ لنا كجندحٍ البكيّ ، وجعله كأضعف النسآء وأجبنهنّ ، لا يستعين على امرٍ من أمورهِ بغير البكآء ، فبينا هو ذاهبٌ لحرب العدوّ وقد اشرف عليه ، يقول صاحبنا ما محصّلهُ : عاد وأمرني بالاشارة الى اخيه بأن يحضر معه علم الدين وفلاناً وفلاناً وأخرج كتاباً من قباه وفضّه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبهُ البكآء والنحيب : وبينا وقع الاختلاف بينه وبين جماعة أمرآئهِ في الهجوم على العدوّ وهو خائف على الملك من الضياع وعلى البلاد ان تذهب من يد الاسلام ، نرى صاحبنا يقول (فلما جآء وقت الجمعة صليتُ الى جانبهِ في الاقصى فصلى ركعتين ورأيتهُ ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعهُ تتقاطر على مصلاه) وقال في موضع آخر (والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه

وينادي يا للاسلام وعيناه تذرفان الدموع) وقال عند قدوم الملك المنصور عليه (وضمهُ الى صدره ثم غشيه البكاء فصبَّر نفسه حتى غلبهُ الامر وغشيهُ من البكاء ما لم يُرَ مثله فبكى الناس لبكائه) وغير ذلك في تاريخهِ كثير .

فقد رأيت كيف جعله يبكي سريعاً للحزن على ابن اخ لهُ ، ثم هو لا يظهر عليه شيء من التأثر لفقد ابنه اسمعيل ، ثم انه يبكي قبيل الهجوم على العدوّ ، ثم يبكي عند اشتداد الخطب والحاجة الى رحب الذرع وشدة العزم ، ثم يبكي في وقت حمى الوطيس — وبذلك يريد ان يشجع العسكر — ثم يبكي لملاقاة غائب ولا يستطيع ان يصبّر نفسهُ حتى يغلبه البكاء ويغشى . .

ثم وجدته كلما استشارهُ السلطان في امر مُعضل او ملتمس وعر ، او وجد هو محلاً للرأي والتدبير والاسعاف بالمشورة ، لم يكن يقول للسلطان الاّ اخشع ، وصلّ ، وتصدق ؛ وهذه كلها لا محل لها في تلك المواقف المحفوفة بالمخاطر ، خصوصاً والسلطان — كما ذكر هو نفسهُ عنه —

لم يكن يقطع صلاةً او صدقةً ، وكان كثير الخشوع .

فهذا كلّه دلني على ما ذكرته لك من ضعف رأيهِ . وبعده عن فنون التدبير والسياسة ، وجهله الصفات التي التي تغلب في كبار رجال الحرب ، والتي كانت ولا ريب تامةً في ذلك الفاتح العظيم ، وتيقنت ان ما حسبه محاسن في ممدوحه ليست الا امياله وعواطفه

وهاك مثالاً آخر . قرأت الدرة اليتيمة لعبد الله ابن المقفع ، وانتقدت عواطفه وامياله ، فتحققتُ ان الرجل كان شديد الحذر من الناس ، سيء الظن بهم ، يتوهم ان كلهم اعداؤهُ ، وكان حقوداً جداً مع وفور علمه ، ذا مكر وغدر ، قاسي القلب .

وان شئت برهان قولي فاسمع ما يقول : انهُ ليس أحد الا فيه من كل طبيعة سوء غريزة . . . وهي في ذلك كله كامنة كمون النار في العود . . اعلم ان اعظم خطرك ، ان ترى عدوك انك لا تتخذه عدواً ، فان ذلك غرة له وسبيل لك الى القدرة عليه . . . واياك ان تكافئ عداوة السرّ ، بعداوة

العلانية . . . ان أردت ان تكون داهياً ، فلا تحبن ان تسمى داهياً . . . ان عدوك من تعمل في هلاكه ، ومنهم من تعمل في البعد عنه فاعرفهم على منازلهم . . . اذا كنت لا تضبط أمرك ولا تصول على عدوك الا بقوم لست منهم على ثقة من رأي ، ولا حفاظ من نية فلا تنفعك نفعة حتى . . . وألبس لهؤلاء القوم الذين هم أعدآؤك سلاح الصحة والاستقامة .. انهم ان سخطوا عليك اهلكوك ، وان رضوا عنك تكلفت من رضاهم مالا تطيق . . فان الانسان طبع على ضرائب لؤم فمن شأنه ان يرحل عمن لصق به ، ويلصق بمن رحل عنه . . فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعيي . . .

وهكذا سائر كلامه في هذا الكتاب . ومما تقدم تجد ان هذين الكاتبين ، قد أُخذا من حيث لا يشعران . فان ابن شدَّاد وكان وفياً تقياً سليم القلب صافي النية ، رأى من البرّ ان يخلّد في بطون الكتب ذكراً حميداً لمولاه الجليل ، فكتب وقائع حروبه وشيئاً مما ظن انه يعلمه من أخلاق واحوال ذلك السلطان العظيم ، ولعله قد ركب في هذا متن

الغلو ، — كما بينته لك — واكثر من الدعآء له بالرحمة والغفران ، واما ابن المقفع فألف كتابه وهو يرى به الارشاد الى المخالقة ، والتحذير من شرور الخلق وفسادهم ، تهذيباً للصغير ، وتنبيهاً للغافل الكبير ، ولم يدر في خلدهما انا سنأتي فنحلل عباراتهما وجملها والفاظهما وصورة التراكيب التي رسماها ، كما يحلل الكيماويُّ العناصرَ بعضها من بعض ، ونستخلص من ذلك ما تظهر به عواطفهما واميالهما حق الظهور . حتى لو عُرض عليهما تحليلنا أو بالحري نقدنا ، لما نبسا حرفاً .

القسم الثالث **الغرض** اعلم ان الغرض في القاعدة الثانية ، كالغاية في القاعدة الاولى ، الا ان الغاية اعم ، والغرض اخص ، فالغاية هي ما تقدمها باعث او دافع ؛ يدفعك الى العمل بحكم الضرورة ، وهذه الضرورة قد تكون صحيحة واقعيَّة ، وقد تكون عن وهم في الخاطر ، **والغرض** شوق يحدث لك لعمل الشيء **فغرض** ابن شداد في تأليفه النوادر السلطانية لا يتعدى عواطفه التي ذكرتها لك ، وهي البرُّ بمخدومه الجليل . وأما غرض ابن المقفع فهو التشبُّهُ بالفلاسفة

في الموعظة والارشاد وبسط ما يعرض للخلق في مجتمعهم الانساني ، من الملوك الى السوقة وتحديد ما يجب على كل منهم ويفرض ، وما يليق بهم عمله ، ولكنه قد فاته من ذلك الشيء الكثير — وليس هذا محل نقد الكتاب — فاذا بعين الناقد العبقري ، وجدت غرضهُ تحدي بيدبا الفيلسوف الهندي صاحب كتاب كليله ودمنه ، وهو الكتاب الذي عرَّبه ابن المقفع نفسه فانطبعت في ذهنهِ موضوعاته ، واستحسن ما به من الارشاد والتحذير والنصائح والحكمة غاية الاستحسان ، فجال في فكره خاطرٌ هو أن يكون بيدبا العرب ، فاقتطف من كليله ودمنه عيون حكاياته التي يرويها ذلك الفيلسوف على لسان الحيوان ، واختصرها ولخصها على هذه الصورة ، واذا ما قابلت بين كليله ودمنه وبين الدرة اليتيمة ببصيرة ناقدة ، تبين لك غرضه الذي أشرت اليه ، ومكان هذا النقد الصواب والله يعلمُ ما تُسرُّون وما تُعلنون.

الفصل السابع عشر
في
القاعدة الثالثة

نقد المقول فيه

قلت المقول فيه لانه يشمل كل شيء يُنتَقد ، فقد يكون خطاباً ، وقد يكون رواية عن الغير ، وقد يكون عاقلاً او غير عاقل ، وقد يكون شيئاً .

والمراد **بالعاقل** أن يكون الكلام عن انسان ، فيتعين حينئذ على الناقد ، ان ينظر أولاً ان كان المقول فيه رجلا أو امرأةً ، ثم أن يبحث عن سنهِ وصناعتهِ ومقامهِ في بيئته ، وكل ذلك من نفس الرسالة المكتوبة عنه او الكتاب المكتوب اليه ، وان تمكن الناقد من الوصول الى كتاب آخر ، أو راوٍ ثانٍ يروي عن المنقود ، كان ذلك عوناً عظيماً على سهولة النقد واصابة الحكم .

والمراد **بغير العاقل** أن يكون وصفاً لحيوان . **وأما المراد بالشيء** كأن يكون كلام الكاتب وصفاً لشيء ، من مدينة ، أو قصر ، او واقعة حربية ، او إناء ، او آلة زينة ، او طعام او ملبوس او غيره .

وهذه القاعدة تنحصر في **المقايسة** والمقايسة تنقسم الى نوعين **لفظي** ، **ونظرى** . فالمقايسة **اللفظية** تقع على الشعر والانشاء ، والخطابة والغناء ، وما الى ذلك . والمقايسة **النظرية** تقع على المنظورات كلها .

واعلم ان اللفظ للمعنى ، كالثوب للجسم ، فالثوب الطويل للقوام الطويل ، والثوب العريض للجسم السمين ، والمتفنن العبقريّ يعطي كلاًّ ما يخصهُ من الصورة او الالفاظ اللائقة به ، فاذا نظرتَ الى صورة يدٍ وكنت ذا بصر بفنّ التصوير ، حكمت من النظر الى تفصيل تركيبها واجزائها وجملة تقاطيعها ، انها يد رجل شاب او شيخ ، او امرأة فتية او هرمة ، او غير ذلك ، وهذا الحكم لا يتيسر لك ولا ينطبق على واقع الحال ، الاّ اذا كان المصوّر بارعاً ، ومثل

ذلك لو سمعت موسيقياً مجيداً يوقّع صوتاً او أغنيةً على آلة من آلات الموسيقى ، فلا تستطيع تحديد جمال الاغنية او الصوت والحكم على اللحن بالاجمال ، الاّ اذا كانت الآلة صحيحةً ، محكمة الأوتار ، متقنة الصنع ، وكنت على علم بفنّ الألحان .

واست تجهل ان الكتابة الى الشيخ الهرم ، لا تكون كالكتابة الى الفتى الحَدَث او الشاب ، وليست الى المُشاكل والمماثل ، كالكتابة الى المسوَّد الآمر ، ولا الى المنعم المتفضل كالصديق الحميم ، ولا دخل للالفاظ المنطقية من المقدمات والنتائج والماهيات والقضايا والكليات والجزئيات في الغزل والنسيب ، ولا موقع للمدارك الجسمانية والذوات الروحانية والاحكام الذهنية مما هو من استعمال الفلاسفة ، في رسائل الاستعطاف للكبرآء ، ولا محل للفضلات والنبض والامزجة والادوية مما هو من ألفاظ الاطباآء في رسائل العتاب والمدح ، الى غير ذلك مما يطول شرحه من مصطلحات سائر اهل العلوم والفنون ، فان هذه الالفاظ اذا وضعت في

غير مواضعها ذهبت برونق الكتاب او الشعر ، واتضح منها ضعف المؤلف فيما قصد لهُ ، وهذا مما ألمّ بهِ علمآء البيان ، الاّ انه لم يكن لي بدٌّ من ذكره لعلاقتهِ بهذه القاعدة .

وقد تزل أقلام بعض الكتّاب والمتفننين فيتيه حكم الناقد على مصنوعهم ، في بيداء الوهم أوالظن ؛ وذلك لوقوع التناقض في قولهم أو عملهم ، الا انه لا يخفى عليه خطأهم ذلك ، فيرشد القارىء او الناظر اليه ، ويكون في تلك الحالة قد جمع بين المجهول والمعلوم ، غيرَ انه قد جهل ما كان يجب الوقوف عليه ، ووقف على ما كان يجهله

مثال ذلك كأن تحب الوقوف على حقيقة حال الخليفة هرون الرشيد مما رواهُ عنه ابنْ خلدون في مقدمته فتقرأ ما يأتي قال واما ماتموّهُ به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشَ لله ما علمناعليهِ من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامهِ بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلمآء والاوليآء . . ودعآئه بمكة في طوافه وما كان عليه من

العبادة . . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرّماً من اكبر الكبائر . . ثم تقرأ لهُ بعد ذلك في نسب ادريس ما كان من أمر الرشيد والتحيّل في اهلاكه بالسموم ، وادريس هذا من العلوية لم يأت محرماً ولا اثماً .

فتقايس بين القولين لتعلم منهما حال الرشيد ، فلا تهتدي وجه الصواب ؛ وانما يصح عندك وقوع ابن خلدون في المناقضة ؛ وهذه هي المقايسة اللفظية .

وكأن تشاهد برنية من الغضار النفيس من صنع معمل سيفر المشهور ، وعليه صورة جبال الالب وقد كسي جانب منها بشجيرات القطن أو باشجار البن ، فتقايس بين الصورة والحقيقة ، وأنت تعلم موضع جبال الالب ، واستحالة نبت القطن والبن في منطقةٍ باردة وارَضين صخرية ، فتتضح لديك مناقضة المصور ؛ وهذه هي المقايسة النظرية ،

وقد لا يهتدي الناقد الى حقيقة المقول فيه أو المصنوع ، لزيغ بصر الصانع حال صنعه ، والسرُّ في ذلك انه عند ما يأخذ المتفنن القلم ليكتب أو ليصور ، وبعبارة أخرى ليصنع ثوباً

من اللفظ أو الدهان للمكتوب اليه ، أو المكتوب عنهُ ، أو للشيء ، لا بدَّ له من ان يُحضر الى مرآة ذهنه صورته واخلاقه أو شيئاً منها وسائر أحواله ، ثم انه يباشر تفصيل ذلك الثوب لهُ . فلا يمكن ان يصنع لهُ ثوباً عريضاً ، اذا كان الرجل ضعيفاً ، ولا ثوباً طويلاً اذا كان قصيراً ، فان ظهر للناقد شيء من هذا القبيل ، لزيغ بصر المتفنن حال عمله ، كأن يكون مضطرب الفكر أو غير ذلك .

فاذا علمت هذا ، لم تعجب من وقوع النقَّاد البصيرين على الحقيقة ، اذ انهم يرون على صحيفة الكاتب ، تلك الصورة التي تخيلها أو شبهها .

وهاك مثالاً لذلك ، اعتبر انه طلب اليك ان توضح سن المكتوب اليه الكتاب الآتي ، من لفظ الكتاب :

وانت حرسك الله قد وافت اليك سوابق النعم ، من صميم المجد ومعدن الكرم ، تبشر بسعد قادم ، واقبال ملازم وهي تتلو فواتح الاماني البواسم .

فلا ريب انك تحكم ان الكاتب ، أكبر سنّاً من

المكتوب اليه ، وان لم تجزم بذلك ، فلا شك انك تجزم بان المكتوب اليه شاب يبشَّر بالسعود والاقبال ، وتُتلى لتهنئته فواتح الآمال ، وهذا يستفيده ذهن الناقد البصير من المقايسة عند قرآءته لفظ حرسك الله ، ثم موافاة النعم وقدوم السعود ، فلا يُكتَب الى الشيخ حرسك الله ، بل أعزك الله ، أو ابقاك الله أو امثال ذلك ، ثم لا يبشَّر بالسعود والاقبال وفواتح الاماني ، وهو في ختام العمر ، يودّع الدنيا وما فيها ، واذا كتب اليه في هذا المعنى فيقال مثلاً وانت أطال الله بقاءك بلغت من النعم والسعادة ، ما ليس بعدهُ لمستزيد زيادة ، وكلها تنطق بقديم مجدك وجديده ، ووافر فضلك ومديده.

واذا وقفت على رسالة بهذا النص : وصلتني يا سيدي وحبيبي هديتك اللطيفة ، فجدّدت مالك عندي من قديم الود ، واذكرتني ولم أكن ناسياً وفآءك وكرم العهد ، وحققتْ لديّ منك صدق الولآء ، واوجبت لك مني عاطر الثناء:

قلت لو انك وقفت على رسالة بهذا النص لحكمت بالاستناد الى قاعدة المقايسة هذه ، انها رسالة صديق الى كفوء

من اصدقائه لا رسالة شكرٍ الى منعمٍ محسن ، اذ لو كانت من هذا الباب لوجب ان تكون بهذا النص : وصلتني يا سيدي وملاذي الهبة التي طوقت عنقي بالامتنان ، فردّدت معها اعجاز الحمد على صدور الشكران ، وقد عقدت مني اللسان ، ومثل مولاي من يمنح الكثير ، ويصفح عن التقصير ، لا زال المحسن المتفضل ، والمنعم المجزل ، بمن الله وفضله :

فاذا قايست بين الرسالتين بالنظر الصادق وجدت لفظة هبة ، هي اللائقة في مقام شكر النعمة ، وكلمة هدية ، يحسن ايرادها في شكر الصديق ، وادكار الود والولاء ، وعاطر الثناء ، واقعة محلها في كتاب كفوءٍ الى كفوءٍ ، كما ان ذكر الحمد والشكران ، والتفضل والاحسان ، والتماس الصفح عن التقصير ، الى آخر ما ورد في الرسالة الثانية ، هي الالفاظ الجديرة بالتحدث بالنعمة .

ومما تقدم شرحهُ تعلم انك لو أردت ان تعكس شرح هذه الرسائل ، أو شرحتها خلاف ما شرحته لك ، عن جهلٍ منك بفن النقد ، لاظهر الناقد عيب شرحك ، واتى على

صحة شرحه وتفسيره ، بالحجة التي لا تُرَدّ .

وهذا كله يصدق كما ذكرت لك قبيل هذا على صنيع المنشئين وسائر المتفننين العبقريين ، واما اذا عمد الناقد الى صنع سواهم من قليلي البصر في الانشاء وسائر الصناعات الجميلة ، أضاع وقته وصرف جهده سدًى ، وكان كمن يحاول ان يستوضح خيالات بعض الصور في نور الحباحِب ، والسبب في ذلك ، ان هؤلاء ليسوا ممن رسخت قدمهم في الصناعات وشغفوا بها لتمنحهم اسرارها ، بل اكثرهم متطفلون أو مقلدون ، يكتبون ويعملون بلا ترو ٍ ولا بصر ٍ في مواقع اللفظ واماكنه من المعاني ، ولا اطلاع على فروع المسائل في أي فن من الفنون ، وقد يفوتهم حسن الذوق في صناعة التعبير والتصوير ، وهو عماد كل صناعة ، كما قد تفوتهم الآلة الاولى وهي مادة العقل واتساع المدارك ، أو تنقصهم من ذلك حصة وافرة الى امثال ما ذكرته مما لا بد منه لبلوغ العبقرية .

وقد يتوهم بعض المغرورين المتحذلقين ، ان منتهى العلوم كلها ، حفظ قواعد النحو والصرف ، فاذا ما نال شيئًا منها ،

تناول اليراعة وخط بها على القرطاس كلاماً لا يتعدى الخبط والخلط ، وهو يحسب انه اذا سوَّد وجوه الصحائف ، عُدَّ بين أهل المعارف ، وانت تعلم ان الفنون ضنينة بأسرارها ، لا يصل اليها الا نفر من عشاقها ولله در القائل :

كم أتاها قومٌ على غرةٍ منـ
ـها وراموا قرًى فعزَّ الوصولُ
منتهى الحظ ما تزوَّد منهُ الـ
لحظُ والمدركون منهُ قليلُ

الفصل الثامن عشر

في

القاعدة الرابعة

نقد الزمان

المراد بنقد الزمان ، هو أن ينظر الناقد الى العصر الذي ظهر فيه التأليف او غيره مما يجعله غرض نقده ، وهذا النظر

لا يجب ان يكون مقصوراً على معرفة او تعيين السنة ، بل يجب ان يشمل اربعة اقسام .

أولها التنقيب عن تأريخ الزمن الذي صُنع فيهِ المنقود . وتعيين السنة ان امكن ، وان لم يمكن الوصول الى تحقيق ذلك ، فلا أقلّ من تحديد المدة على وجه التقريب ، كقولنا وُلد جنكيز خان سنة ١١٥٥ أو ١١٦٠ وقيل سنة ١١٦٢ للمسيح ، او كقولنا ان صناعة الزجاج قديمة جداً ، وأقدم تأريخ لها يرتقي الى اكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، لانهم وجدوا في مدافن بني حسن في مصر رسوماً تمثل أناساً من اهل طيوة ينفخون الزجاج ، ويُظَنّ أنها رُسمت لعهد الملك « أوزورتوزن الاول » أي منذ ثلاثة آلاف سنة .

والثاني الوقوف على علوم وصناعات عصر الشيء المنقود ، او الالمام بأكثرها ، والتنقيب عما كان اكثر شيوعاً وأوفر دقةً ، عند الامة التي صنعت ذلك المنقود ، كما لو كان النقد واقعاً على مؤلف بزنطيٍّ ، او آنية او غيرها من

المصنوعات البزنطية ، فيجدر بك بعد أن تقف على تأريخ تأليف الكتاب ، او عمل الآنيـة ، أن تلقي نظرةً على علوم الأمة البزنطيـة في ذلك العصر ، بل ان نهج التأليف ، واغراضه ، وسبكه ، وشكل الاناء ، واتقان عمله او وضوح القصور فيه ، مما يدلك على الزمن ويعين لك مكان صنع الاناء وعصره على وجه التقريب ، فلو عاينت في القسطنطينية أو فيما يجاورها من البلاد قبةً يحاكي شكلها قبة جامع اياصوفيا لحكمت أنها من عهد الامبراطور يوستينيانس ، خصوصاً اذا كان عليها من علامات القدم ، ما يحقق ظنك ، ويثبت زعمك ، مما هو معروف عند علماء الآثار والعاديات ، واذا نقبت عن علوم عصره وصناعات اهليه ، وهو القرن السادس للمسيح وجدت اكثرها شيوعاً واعتباراً واتقاناً ، الهندسة ، فالصياغة ، فالتصوير ، فالمينآء بالالوان ، فالفسيفساء ، فنسج الملابس الفاخرة الموشاة بالذهب والفضة .

ولو عاينَّا صورةً مما صوره رامبران[١] وجعلناها غرض

١ Rambrand

نقدنا ، وعلمنا — بحسب القسم الاول من هذه القاعدة — أنها من مصنوعات القرن السابع عشر ، لسار بنا الفكر وان شئت فقل النقد ، نحو عصور الانبعاث العلمي ، وأوَّلها القرن الخامس عشر ، وهو نهاية عهد القرون المظلمة ، وأرانا الهبَّة التي هبتَّها أروپا وأخصهُ أمة الطليان ، نحو العلوم والصناعات الجميلة في القرون الاخيرة ، بعد ذلك السبات الطويل ، وبعد خروج آخر نسمة من حياة الحضارة اليونانية ، ولأطلعنا على شيوع الصناعات الجميلة وترقيها ، وما ظهر للبارعين فيها من الآثار الجليلة ، ولتمثَّل لدينا دانتي امير شعراء الطليان وهو من اهل القرن الرابع عشر ، ثم پترارك وهو من أول القرن الخامس عشر ، ثم ميكيلّو انجيلو(١) نحَّات التماثيل ، ثم رافائلّو(٢) المهندس والمصور العظيم ، وپاليسترينا(٣) الموسيقي وغيرهم

وكأنهم نُسقوا لنا وكأنما
ردَّ الالهُ نفوسهم والأعصرا

١ Michel Ange Bouonarotti ٢ Raphael Sanzio
٣ Palestrina

والثالث البحث عن الدولة وحكامها ، وأحكامها ، وحالها ، من الفتوّة أو الهرم ، ومن القوّة أو الضعف ، ومن الغنى أو الفقر ، ومن عزّ النصر أو ذلّ القهر ، الى غير ذلك مما يتبع هذه الاحوال ويتفرّغ عنها .

مثالُ ذلك كأن يمرّ بك قتل المتوكل على الله الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين ومائتين ، وان ذلك حسب رأي المؤرخين ، كان نتيجة مؤامرة بين ابنه المنتصر ووصيف وبغا وغيرهما من قوّاد الاتراك ، فتنظر ناظر ناقد منصف في استبداد المتوكل ، وعيثهِ في الاحكام والشريعة ، ثم في ظلمهِ وبطشهِ واستصفائهِ الاموال ، من العمال والحكام والقضاة ، ثم تمعن النظر في أسباب غنى هؤلآء ، وان الفرد منهم كنجاح بن سلمة وكان منصبه كمفتش على العمال لهذا العهد ، قد استصفى منهُ المتوكل مئتين وعشرة آلاف دينار ، وهو مبلغ يعادل ثمانية عشر مليوناً وتسعمائة ألف غرش أو ثلاثة ملايين واربعمائة الف فرنك عدا غرسه وضياعه — ولا بد لك من اسقاط شيء كثير من هذا العدد لتنقيته

من مبالغة المؤرخين في تلك العصور أو مخبريهم — وتتبع تلك الشؤون وأحوال الجند ، فتجد فراغ خزينة الدولة من المال ، وانهماك الخليفة ووزرآئه بالملاذ ، وجور العمال وعسفهم وتطاولهم على حقوق العباد ، الى غير ذلك من الشؤون المضطربة الكثيرة ، والفساد الفاشي في جميع أركان الدولة ، فتتحقق من ذلك كلهِ ان ذاك التأريخ هو ابتدآء هرم الدولة العباسية .

وكأن تمرّ باهرام مصر فتستوقفك عظمة ذلك البنآء الجسيم ، أو تروم نقدها فلا تقف على تأريخ بنآئها المتناهي في القدم ، بل يوصلك البحث الى أسمآء خينوس أو (خوّو) وخوراح ومنكاراح الفراعنة الثلاثة الذين ابتنوها ، ثم لاتنطلق خواطرك في نقد هندستها واحكام بنآئها العجيب ، وما احتوت عليهِ من الهياكل والمخادع والغرف والدهات والحواجز والزوايا والمعارج والخبايا ، حتى يسوقك الفكر الى نقد العلوم والصنائع التي كانت لذلك العهد السحيق ، بالغة من الاتقان غاية بعيدة ، واكثرها مرسوم على الحيطان

بالالوان الزاهيـة ، كالتصوير ، وصناعة الزجاج ، وصناعـة المراكب ، وصناعة الاصباغ وغير ذلك شيء كثير ، ثم بينما انت تعبر من مخدع الى معبر ، وتنزل من مصعدٍ الى خلوة ، ومن منعطف الى بئر ، يتدرج بك الفكر الى البحث عن تلك الـكنوز التي خبأتها يد الانسان منـذ أقدم العصور ، حباً بالبقآء على هذه الارض أو طمعاً بالخلود ، ثم انك لا تصعد من تلك الحصون والسجون العيمقـة ، بل القبور ، وتمتع باشتمام الهوآء النقيّ ، حتى يحلّق بك التصوّر الى أعالي تلك الاهرام ، فتنظر صغر من تحتك من البشر ، بل ترى صغرك وضعفك أمام فخامة ذلك البنآء ، بل تلك الجبال ، ويحرّك ذلك الى التفتيش عن عظمة رافعيها وما كلفتهم ، بل عما كلفت البلاد من الاموال الطائلة ، وعن المدة التي اقتضت هذا العمل الشاق الفخيم وعدد الفعلة الذين اشتغلوا بهِ [1]

(١) قد قدّر المهندسون انهُ لا يتم بناء هرم كالهرم الاكبر في مدة تنقص عن العشرين سنة اذا اشتغل بالبنآء مائة ألف فاعل كل يوم فتأمل .

فينتقل بك الفكر الى حالة الدولة لذلك العهد ، وأحكامها ، وهي كانت ولا شك مطلقة ، يستبد بها الفرعون المتألّه ، وكيف ان تلك العصور السحيقة قد جمعت بين الاستبداد وعزّ تلك الدول وغناها ، الى ما يتفرع عن ذلك ، فان للعلوم والفنون ، علاقة شديدة بسياسة الدولة ، فكلما كان المالك أو وزرآؤه ، من أهل العلم ، نفقت في سوق دولته بضاعة العلمآء كما هو الشأن لهذا العهد في ممالك الغرب . عند أمم الفرنجة كالفرنسويين والالمان والانكليز والطليان وغيرهم ، فقل ان تجد لهم مالكاً أو وزيراً أو حاكماً ، غير مضطلع لعلوم السياسة والخطابة والجغرافية والطبيعيات والتأريخ والادب ، وهي العلوم التي لا بدّ لهم منها ، فضلاً عن ان كثيراً منهم معدود في طبقة اكابر علمآء الفلسفة أو الهيئة أو غير ذلك ، فلا بدع ان ينفق العلم في أسواقهم ، والناس على دين ملوكهم . وقد أخذت دولتنا العثمانية حرسها الله أخذهم في هذا السبيل ، عملاً بارادة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد الثاني سلطاننا المعظم

ناصر العلوم والمعارف ومشيد أركان الحضارة والعمران نصره الله

والرابع آداب ذلك العصر وأخلاق أهله ومعتقداتهم وعاداتهم وملبوسهم وأزيائهم وسائر أحوالهم في اجتماعاتهم ، ومجالس سرورهم ، وأعراسهم ومآتمهم وغير ذلك .

فاذا مرّ بك ان ذا الوزارتين احمد بن شهيد وزير عبد الرحمن الناصر الخليفة الاندلسي ، كتب الى شريكهِ في تدبير الملك ، ومتولي الامر معهُ الوزير ابن جهور وقد زاره يوماً في منزله ، فابطأ بالاذن اليه ، في الدخول ، وكان ابن جهور يلقب بالحمار هذين البيتين :

أتيناكَ لا عن حاجة عرضَتْ لنا
اليكَ ولا قلبٍ لديكَ مشوقِ
ولكننا زرنا بفضل حلومنا
فكيف تلاقي برّنا بعقوقِ

فأجابهُ ابن جهور وكان يشيع ان جدّ ابن شهيد كان بيطاراً بالشام .

حجبناكَ لمَّا زرتَنا غيرَ تائقٍ
بقلبِ عدوٍّ في ثيابِ صديقِ
وما كانَ بيطارُ الشآمِ بموضعٍ
يباشرُ فيهِ برَّنا بخليقِ

عجبتَ لهذه المهاترة من هذين الوزيرين.

واذا قيل لك ان أمةً حملت مصباحَ العلوم والفنون، وكانت أولَّ قائد لهذه الحضارة العصرية، وقد دوَّخت البلاد، ودكت امنع الحصون، وفاقت سائر أمم البسيطة بشجاعتها ومروءتها وكرم اخلاقها وقناعتها وآدابها كالأمة اليونانية كان الرجل منهم اذا أراد ان يوثق عروة الصداقة بينه وبين رجل آخر، يعيره زوجته، واذا كانا كلاهما متزوجين استعار كل منهما زوجة الآخر. وان من أحسن صفات الجندي الباسل، السرقة، وان كان لا يعرف ان يسرق، أو انه لا يسرق، فلا يليق به ان يعد نفسه في عداد العساكر الشجعان، لا ريب انك تقضي عجباً من ذلك.

واذا قيل لك ان شعرآء هذه الامة وابطالها وفلاسفتها

أنفسهم، كانوا يرقصون وهم عراة في حفلات مواسمهم واعيادهم امام خاصة أمتهم والعامة من نسآء ورجال ، شيوخ وشباب واطفال ، وان الاسكندر الفاتح العظيم ، خلع ثيابه عند عمود اشيل في مدينة تراوده ، وظل يركض حوله مع رفاقه والكل عراة ، احتراماً للصنم اشيل ، لعلك لا تتماسك من الضحك لجهل هذه الامة وغرابة معتقداتها .

واذا قيل لك ان لاوناردودي ڤينجي(١) كان مصوراً عبقرياً ، وموسيقياً بارعاً قادراً على عمل أي آلة من الآلات الموسيقى ، وكان جميل الوجه ، حسن الصوت ، رشيق القوام ، فصيح الكلام ، كاتباً عالماً رياضياً مهندساً نقاشاً ماهراً وصائغاً حاذقاً ، ونحات تماثيل ، وسكّاب معادن ، ومخترع آلات ، وصانع سفن ، ومن أعظم رماة البنادق ، واشهر ضرّابي السيوف ، وفارساً مغواراً ، وعلى الجملة فان قريحته السامية ، كانت معدن الاختراع وملكة الاقتدار على بدائع الصنائع ، وانه مع ذلك كله ، كانت له خواطر كخواطر الاولاد ، وكان

١ Leonardo di Vinci.

شجاعاً ، قوياً ، جلداً على الاعمال ، وقد قتل غير واحد من الناس ، وسُجِن اكثر من مرة ، وهرب من السجن متسلقاً من علو شاهق ، وأعيدالى السجن ، الى غير ذلك من الاحوال والصفات التي تكاد تعد من المعجزات ؛ فضلاً عن تباينها واجتماعها في شخص واحد ، فقد يأخذك العجب العجاب من ذلك كله ؛ بل قد تعده من الاكاذيب .

واذاقيل لك ان رجلاً رومانياً واحداً قد سفك دم مئات ألوف من أمته ، وهي أشجع الامم ، ظلماً وعتواً ، وفعل الفعلات التي تخاف منها الوحوش الضارية ، ولم يجسر أحد منهم على قتله ، فانك تحكم على البديهة بنذالة تلك الامة .

واذا قرأت على شعراء الفرنجة لهذا العهد قول القاضي السعيد ابن سناء الملك .

وفرطُ احتقاري للانام لانني
أرى كلَّ عارٍ من حلى سؤددي سُدى
ويأبى إبائي ان يرانيَ قاعداً
واني أرى كلَّ البريةِ مقعدا

وانَّكَ عبـــدي يازمانُ وانني
على الرغمِ مني أن أرى لكَ سيّدا
وما أنا راضٍ انني واطئٌ الثرى
ولي همةٌ لاترتضي الافقَ مقعدا
ولو علمتْ زهرُ النجومِ مكانتي
لخرّتْ جميعاً نحوَ وجهيَ سجَّدا
أرى الخلقَ دوني اذ أرانيَ فوقهم
ذكاءً وعلماً واعتـلاءً وسؤددا
ولومدَّنحوي حادثُ الدهرِ كفهُ
لحدَّثتُ نفسي ان أمدّ لهُ يدا

لقالوا ان الرجل به جنة أو هو أحمق متغطرس.

واذا حكيت لغير الناقد، ان بعض الناس في بلادنا، لا يكتفون بوضع العرقة (أوهي العرقيـة) من منسوج الغزل أو الكتان على رؤوسهم؛ حتى يضيفوا اليها عرَقةً من اللباد، ثم سندارةً ثم يلبسون فوقهـا ذلك الطربوش ثم يلفون فوقهُ عصابةً عـدة أذرع من الشاش، أو مهرّاةً

ثقيلةً من عمل كشمير ، وقد يستخفون كل ذلك ، اذا كانت العرقة اللبادية ، أخف من التي كانوا يلبسونها قبلها ، فيخيطون قطعة من الرصاص ، ليكمل ثقل العمامة على ما اعتادوه ، اذا حكيت هذا لمن لا عهد لهُ بمثل هذا الزيّ ، ألا يعدّهُ فناً من المزاح أو ضرباً من الجنون ؟

واذا وقفت على رسالةٍ لاحد الرؤساء المتقدمين كالصابئ وابن خلدون وابن الخطيب وأمثالهم ، عجبت من اسرافهم في اطالتها مع ما كانوا عليهِ من صدق البصر في ضروب البلاغة والانشاء ، وحسن الذوق وسلامته في فني التعبير والتفهيم .

على انك متى رجعت في ذلك كله الى قاعدة نقد الزمان ، ونظرت في أقسامها الاربعة المتقدمات ، اتضح لديك ان الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وان كان قد بسط ملكه ، وفتح الفتوحات العظام ، وجبى الاموال الطائلة ، ورفع أعلام العدل بين الناس ، وبنى القصور الرفيعة وفرشها بالاثاث الثمين الفاخر ، وأحب العلم ، واحترم العلماء ، وكرّم الشعراء ،

ونشّط الى الزراعة ، ومهّد أسباب الصناعة وسائر موفرات العمران ، واتسعت لعهده مذاهب الحضارة في الاقطار الاندلسية ، فانهُ كان مع هذا جميعهِ ، قريب عهدٍ بالبداوة ، عريقاً بأخلاق أسلافهِ عرب البادية ، سريعاً مثلهم الى الشر ، ميالاً نظيرهم الى الهجاء ، مستحكمة من نفسه ملكة المساواة والحرية ، لم ترسخ فيه طبيعة الترف والكبرياء وعزة الملك وأبهة الدولة ، والناس كما قيل على دين ملوكهم ، فلا عجب ان يحذو وزيراهُ حذو جدّ الخليفة المذكور الامير عبدالله ، وقد كتب الى وزيره النضر بن سلمة قبلهما ببضع سنين هذين البيتين

أنتَ يا نضرُ أبدهْ لستَ تُرجى لفائدهْ
انما انتَ عدّةٌ لكنيفٍ ومائدهْ

واذا تفقدت أحوال أولئك اليونان القدماء ، وما كانوا عليه من سذاجة الفطرة ، وبساطة العيش ، وسلامة الضمائر ، ووقوفهم على الدوام عرضةً لهجمات الاعداء من مجاوريهم المتوحشين ، وحاجتهم العظيمة ، الى أجسام قوية ، وسواعد

شديدة تحسن المصارعة وحمل التراس الثقيلة ، ورمي النبال ، والصبر والجلد في تلك الحروب الطويلة بل المتوالية ، وعلمت انهم كانوا يعيشون في مدنهم عيش القبائل المتنقلة ، وكلهم يتجندون ان قامت سوق الحرب للمدافعة عن أوطانهم وحريتهم ، فلا دولة لهم ، ولا خزينة مال عندهم لهذا الغرض أو لغيرهِ ، مما تدعو الحاجة اليهِ ، فكل واحد ينفق من كسبه ، ويعيش وقت الحرب ، مما تصل اليهِ يده ، وتفقدت غير ذلك من شؤون تلك القرون الخالية ، زال تعجبك من أخلاقهم وعاداتهم .

واذا تبصّرت فيما كانت عليه أمة الطليان، بل أمم الفرنجة كلهم لعهد الانبعاث العلمي من الخشونة والجفاء ، وما كان يجري في عروق الطليان على الخصوص — وهم أبناء الرومان — من حب سفك الدماء والميل الى الملاذ الحيوانية ، والحكومة المطلقة بل الفوضى ، وبقية الذوق الذي ورثوه من اليونان ، أو انهم اكتسبوه من محبة العلوم والصناعات الجميلة ، لم تعجب من رجل عالم متفنن ، ذي قريحة متوقدة ،

وبنية قوية ، وجلد على الاعمال ، وشجاعة غريبة كلاوناردو دي ڤينجي ، تجتمع فيهِ الاخلاق الساميـة أخلاق العلماء ، مع الاخلاق السافلة أخلاق القتلة الاغبياء .

واذا نظرت الى ما كانت عليه الحكومة الرومانيـة لعهد سيلا من الفوضى — والاستبداد كل الاستبـداد في الفوضى — وما كانت عليـه أخلاق سكان رومة خاصة من الفساد ، وما في دمهم من البربرية ، ووفرة عبيدهم وأرقآئهم وسائر أحوالهم في مجتمعهم ، لم تعجب من تمكن سيلا بمساعدة أشياعه ، من فعـله أشنع الفعلات التي يرويهـا التأريخ البشري .

واذا وقفت على آداب العرب لعهد ابن سنآء الملك ، وعلمت ان الفخر كان عندهم باباً من أبواب الشعر ، يتباهون باختراع المبالغات فيهِ على سبيـل الالغاز والاحاجي ، لم تعجب من قول ابن سناء الملك ، والا فما صاحبنا بمجنون ليعتقد من نفسه تلك الخلائق ، وقد كان وزيراً ، فلو أخـذ كلامه علي ظاهره ، فما عسى ان يقول سلطـانه ، ثم ماذا

يبقيان بعدهما للخليفــة ؟ ولعمري ان ما قالهُ عن نفسه ، لم ينطق به أحدٌ من الخلفاء ، فلو لم يكن المقصود منهُ صورة المبالغة والتفنن في ابتكار منتهاها ، لقضى سلطانه بقتله أو بوضعه في دار المجانين .

واذا انعمت النظر في رسوخ ملـكة التقليد في البشر على العموم ، وفي أهـل المشرق الخصوص ، ووقفت على استحكام العادات فيهـم وتأصلها ، لم تعجب من بقاء كثير من الازياء المضرّة ، والعادات المؤذية ، منتشرة بينهـم خلفاً عن سلف .

واذا امعنت في البحث عما كانت عليه طرق المواصلات ، ومسافة بريد الرسائل من البعد الشاسع ، وقلة السبل لمبادلة الرسائل بين الأخ وأخيه ، والصديق وصديقه ، لم تعجب من تطويلهم في رسائلهم ، وقد كان يمرّ العام والعامان ، ولا يحظى الرجل منهم بكتاب أو جواب ، هـذا عدا ما كان يسطو على كثير من تلك الرسائل ، من عوادي الضياع في البرّ والبحر .

وعلى الجملة فان قاعدة نقد الزمان التي ذكرتها لك بأقسامها الاربعة ، تزيل كثيراً من العقبات التي تعترض الناقد في طريقه ، وتدفع كثيراً من الاوهام ، وتحل طائفة من رموز المؤرخين وعقد الكتاب ، التي يحسبها كثيرون من الاكاذيب أو الخرافات فتفهم ذلك .

الفصل التاسع عشر

في

القاعدة الخامسة نقد المكان

السرّ بالمكان ليس السرّ بالسكان

هذا السرّ انكره بعض الباحثين من علماء الفرنجة ، ولم يذكرهُ من علمائنا فيما نعلم غير ابن خلدون ، وانت اذا تدبرت ما يأتي علمتَ ما لسرّ المكان من التأثير في نفس المؤلف ، والمخترع ، بل والاشياء المخترعة ؛ وقد عرف نقادو الفرنجة

موضع هذا السرّ من الاعتبار ، فجعلوه غرض بحثهم الاول في انتقادهم .

قال الفيلسوف ابن خلدون من فصول عقدها في أثر الهوآء في أخلاق البشر والكثير من أحوالهم ما محصله : انه لما كانت الاقاليم الثلاثة وهي الثالث والرابع والخامس اقرب الى الاعتدال فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكوّن في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً . قال وكذلك يلحق بهم أى بالسودان قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هوآءها متضاعف الحرارة بما ينعكس من اضوآء بسيط البحر واشعته ، كانت حصتهم من توابع الفرح والخفة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة ، واعتبر أيضاً بأهل مصر كيف غلب عليهم الفرح والخفة . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف

افرطوا في نظر العواقب . وتتبع ذلك في الاقاليم تجد في الاخلاق أثراً من كيفيات الهوآء

وقد ألمّ بذلك بعض من علمآء الفرنجة وفلاسفتهم كمونتيسكيو ولامارك ، وداروين وتاين ، والذي عليه اليوم اجماع أهل النظر ، ان للهوآء تأثيراً في اخلاق البشر غير مستنكر ، تبعاً لاحكام العناصر على كل ماهو طبيعيٌّ على هذه الأرض

فاذا نظرنا الى تأثير الهوآء في النبات أو بعبارة أخرى تناسب بحثنا هذا تأثير النبات في المكان نجدهُ عظيماً ، مثال ذلك اننا لو أخذنا حفنةً من الحنطة من نوع معلوم أي نبات أرض بعينها ، وزرعنا قسماً منهُ في أرض شديدة يابسة ، وقسماً الحرّ ، في أرض لينة كثيرة المياه ، وقسماً في أرض رميلة شديدة لحصدنا من جميع هذه الارضين حنطةً ، الا انها متنوعة ، وهذا التنوع نتيجة التأثير الذي أثرهُ فيها المكان ، فان الارض الشديدة اليابسة لا تنبت الا حنطة صلبة ، وبعكس ذلك الارض الغَمِقة فانها لا تنبت الا حبّاً طريّاً وقس على ذلك غيره .

وهـذا التأثير في النبات ، وان كان يحصل من طبيعة الارض كما يقول النباتيون ، الا ان طبيعـة الارض نفسها ، قد انفعلت من تأثير الهوآء والمـآء ، واذا زرعنا في السنـة التالية كل نوع من هذه الانواع في الارض التي خرج منها ، وداومنا ذلك عدة سنين ، زاد التغير في أنواع هذه الحنطة ، لوناً وحجماً وطعماً وقوّةً ، واتخذ كل واحد من هذه الانواع خاصةً يُعرف بها ، ويتميزُ عن سواه ، فلا تستطيع ان تحصد حنطة صلبة ، من أرض طرية غمِقة ، ولا ذرةً رخوة من أرض صلبة .

واذا نظرنا الى الحيوان رأينا أشدَّهُ شراسة ، وأقواهُ ضرراً وأذىً ، وأعظمهُ نفوراً وبعداً عن الائتـلاف ، واكثرهُ فتكاً بالانسان وغيرهِ ، حيوان الاقاليم البعيدة عن الاعتدال ، كبعض أقاليم أفريقيا ، فهناك تجد الـكركدنّ ، والفيـل النفور ، والاسد الضاري ، والجـاموس الشديد الشراسة ، والمعزى النافرة ، والتمساح المفترس ، والثعبان ، والحيّة السامة أشد السُمّ ، والذباب السامّ ، وغير ذلك كثيراً

مثله ، وتجد مثله أو أقل منه ، في الاقاليم البعيدة عن الاعتدال ، من أمريكا وآسيا ، كصحاري الهند ، وبلاد البنغال .

على انك اذا تفقدت الاقاليم المعتدلة الهواء كآسيا الصغرى ، فلا تجد شيئاً من هذه الوحوش والحشرات والحيوانات النافرة ، بل بالعكس من ذلك فان ثيرانها وجواميسها من أطوع الحيوان وأشده انقياداً للانسان ، ومثله المعزى ، حتى ان بعض الدببة التي توجد فيها ، تحاكي الغنم ، بطاعتها للانسان وبعدها عن الوحشية ، اما حيّاتها وغيرها من الحشرات والهوام فليست بسامّة ، وان قلت ان طباع هذه الحيوانات قد تغيرت ، لاعتيادها الألفة مع البشر ، قلتُ وعلى مَ ثيران قسطيلة (من الاندلس) لم يزل منها الخُلق الشرس وحب الفتك ؛ ولِمَ لم يتمكن الفرنسويون من تربية الجاموس في بلادهم الاَّ في بعض الكور من جنوب البلاد ؛ وعلى مَ لم يزل الخلق الشرس من جواميس الهند المدعوة بالاهلية ، ولم تعتد الالفة والطاعة للانسان ؛ ثم أيّ علاقة للحشرات والهوام مع الألفة والعادة ؛ فوجوه

عيشها في تلك الاقاليم ، هيَ هيَ في هذه ، ومع ذلك ، فهي في هذه الاقاليم غير مؤذية أو سليمة الخطر .

وبالاجمال فعالم الحيوان كعالم النبات ، ينفعل بطبيعة المكان ، ويؤثر في لونه وطباعه وأخلاقه أشد التأثير ، كما أثبت ذلك علماء طبائع الكائنات ، وهذا العلم معروف عند الافرنج باسم : انتروپولوجي : وهو علم يبحث عن أحوال الانسان ومنشأ وجودهِ واجتماعهِ وتربيتهِ وترقيه وأخلاقه ، وأسباب ذلك جميعه .

واذ قد بسطت لك فعل المكان في السكان ، من نبات وحيوان ، لم تبقَ حاجة الى شرح تأثيرهِ في الانسان ، لانه نوعٌ من أنواع الحيوان كما هو مقرر ، فهو بالطبع خاضع لهذا الفعل قال ابن سينا

في الزنجِ حرٌّ غيَّر الاجسادا حتى كسى جلودها السودا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

وقال تاين (١) وهو من اكابر كتاب القرن الاخير

١ Taine

وأحد فلاسفة الفرنسويين : الجسم الانساني كالنبات وافعاله كالزهرة من النبات :

وأنت اذا تدبرت هذا القول وجدته من الاصابة بالمكان الاعلى ، ومن حسن التشبيه بالمحل الارفع ، فما كان من النبات في الارض الغَمِقة والمستنقعات ، كان رخواً ، رديء الثمر ، قليل النفع او عديمه ، وما كان منه في الارض العذاة او الاريضة ، فهو اللّين القويُّ الوافر الثمر ، الجزيل النفع للانسان والحيوان ، وما كان منه في الهضاب والجبال ، فهو الشديد الذي اذا لويته انقصف ، وهذه الاشجار تكون كبار بواسق ، لكنها قليلة الثمر أو عديمته ، بل الطيبة الثمر منها يكون ثمرها عسر الهضم كالزيتون والفستق ، ولعل هذه ليست من اشجار الجبال والهضاب بل دون ذلك كما هو معلوم . فاذا قست النبات الانساني ، على النبات الارضي ، وجدت وجوه الشبه بينهما كثيرة ، اذ اكثر ما يعرض لهذا من فعل المكان ، يعرض لذاك ، فان البشر العائشين في جوار الارض الغَمِقة ، اكثر ما تراهم ، نحاف الابدان ،

مهزولين ، صفر الوجوه ، حليفي العلل والاسقام ، كسالى قليلي العزم ، فاقدي النشاط ، ليس فيهم ميل الى المعارف والصنائع ، مغلوبين على امرهم ، وبالعكس منهم اهل الجبال ، فانهم اقوياء ذوو شراسة وخشونة وهمة ، الا انهم في الاكثر بعيدون عن حب العلوم والصنائع كالاولين .

أما سكان الاقاليم المعتدلة والريف ، فهم ألطف اخلاقاً ، وأظرف تكويناً ، وأوفر حصافةً ، واكثر ميلاً الى الصنائع ، وأشد انصباباً على العلوم ، وعلى الجملة فهم اهل الاختراع والاكتشاف ، والحضارة الواسعة ، والذوق الحسن ، والمعارف المفيدة ، ذللوا البحار ، وقيّدوا البخار ، وحلّقوا في الجوّ وقد ركبوا الهوآء ، وقاسوا أبعاد كواكب السمآء ، وقاموا أخيراً فضبطوا بل استخدموا الكهربآء ، فجآءت بما ينسي افعال السَّحَرة ، ولهم في كل يوم فتوحات في العلوم جديدة ، واختراعات عديدة مفيدة ، وهم ذوو القرائح التي يتفاخر بها سكان الارض ، بل يكاد يطأطئ لابداعها سكان النجوم ، فكم هوميروس عند اليونان ، وكم ڤيرجيليوس عند

الرومان ، وكم زهير عند العرب وكم أبي العلاء ، واذا أجلت نظرك في سائر البلاد ، فلا تجد نظيراً لاهل هذه الاقاليم في العبقرية ، وكثرة القرائح السامية ، فهذه الهند والصين ومصر ، ذوات الحضارة القديمة والعمران الواسع ، بل هذه فرنسا والمانيا وانكلترة والنمسا وبلاد الروس واميريكا نفسها ، المعدودة لعهدنا من أسبق الامم في الفنون ، فكم بوالو وكم هوجو عند الفرنسويين ؟ وكم كوت وكم شيلر عند الالمان ؟ وكم شاكسبير وكم بيرون عند الانكليز ؟ وكم اونو وكم جروئن عند النمساويين ؟ وكم پوشكين وكم تولوستوي عند الروسيين ، وكم فرانكلان وكم اديسن عند الاميريكيين ؟ ان أمثال هؤلاء في كل زمن وفي كل أمة قليلون . ولكن هلمَّ نفتش بقعةً صغيرةً من حدود أروپا وآسيا الصغرى واقعة عند الجنوب الشرقي من أروپا ، ونبحث عن أمة صغيرة يقال لها الامة اليونانية ، لنرى كم كان عندها من امثال هؤلاء العلماء والحكماء ؟ فهناك يرتد الطرف حاسراً ، ويقف الفكر حائراً ، وتسقط دعوى

المكابر ، وتعلو بينة المناظر ، ويصدق قولنا السرُّ بالمكان ليس السرُّ بالسكّان ، فمن تلك البقعة الصغيرة نبت أثقب العقول البشرية والأفهام النيّرة ، فكم هوميروس وكم رسطاليس ، وكم افلاطون وكم ديموستين وكم فيدياس وكم أبقراط ؟ وفي تلك الآجام والغاب ، كم خطبة فصيحة القيت ، وكم مقالة بليغة تليت في الفلسفة والمنطق والطب والهيئة والرياضيات والادب والطبيعيات والتأريخ وغير ذلك ؟ وكم غردت هناك بلابل الشعر على اغصان الفصاحة والبيان ؟ ورسمت علوم الهندسة ونحت التماثيل والنقش والتصوير والصياغة وغيرها من الصناعات الجميلة ؛ ما اضبح نموذجاً ومثالاً ، بل مصباحاً يهتدي بنوره سائر أُمم الارض منذ خمسة وعشرين من القرون ، فشعرآؤها وخطبآؤها وفلاسفتها وأطبآؤها ومهندسوها ونقاشوها وعلمآؤها ، هم أساتذة كل الاجيال في سائر الامصار ، وهم العدد الوافر وكأنهم المراد بقول الشاعر

نجومُ سماءٍ كلما غاب كوكبٌ
بدا كوكبٌ تأوي اليهِ كواكبُهْ

واذ قد انتهينا من هذه اللمحة التي ارسلناها ، او اللحظة التي ألقيناها على هذه البقعة من الارض ، فسرِ بنا نحو بقعة أخرى قريبة منها ، سماها بعضهم جنان أروپا ، وهي المدعوة إيطاليا ، وسرّح معي طرفك بين تلك المعاهد والمغاني لنستقري تلك الآثار البديعة ونرى كم دانتي هناك وكم بيتراك ، وكم ميكيلو انجلو وكم رفائيلّو ، وكم ڤينجي وكم سيلّيني ؛ وهم وتبّاعهم ورثاء العلوم اليونانيـة وباعثوهـا ، والداعون الى مطويّ حضارتهم وناشروها ، بل هم مؤسسو أوّل ركن عظيم لهـذه الحضارة العصرية ، والنهضة التي لم يأت مثلها على هذه الكرة الارضية .

ثم تعالَ معي الآن نحو بلاد الشام ، بل ديار الشعرآء والعلمآء الاعلام ، وهي أعدل الاقاليم التي دوّخها العرب ، واستمرت فيها لغتهم على تراخي الحِقَب ، وابحث معي عن أسمآءٍ طبّقت الآفاق ، وكادت تخترق السبع الطباق ، فهل

كأبي تمام الطائي وهو من اهل جاسم من قرى دمشق وهو القائل في السياسة

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ
في حدّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ

والقائل في الشيب

لو رأى اللهُ أنَّ في الشيبِ خيراً
جاورتهُ الابرارُ في الخلدِ شيبا

والقائل في الحكمة

وضياءُ الآمالِ أفسحُ في الطر
ف وفي القلبِ من ضياءِ البلادِ

والقائل

واذا أراد اللهُ نشرَ فضيلةٍ
طويَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ
ما كان يُعرفُ طيبُ عَرفِ العودِ

والقائل في الغزل

عطفوا الخدودَ على البدورِ ووكَّلوا
ظُلَمَ الستورِ بنورِ حورٍ نُهَّدِ
وثنوا على وشي الخدودِ صيانةً
وشيَ البرودِ بمعجفٍ ومهنَّدِ

ودرره اكثر من أن تحصى في هذا المقام.

وهل كأبي عبادة البحتري — وهو من حلب أو منبج وهي على ساعات من حلب — من قائل

أنَّ في السربِ لو يُساعدنا السر
بُ شموساً يمشين مشياً وئيدا
يتـدافعنَ بالأكفِّ ويعرضـ
نَ علينا عوارضاً وخدودا
يتبسَّمنَ عن شتيتٍ أراهُ
اقحواناً مفصَّلاً أو فريدا
رحنَ والليلُ قد أقامَ رواقاً
فأقمنَ الصباحَ فيهِ عمودا

سائلَ الدهرَ مذ عرفناهُ هلْ يع
رِفُ منا الاّ الفعال الحميدا
قد لعمري رزناهُ كهلاً وشيخاً
ورأيناهُ ناشئاً ووليدا
وطوينا أيامهُ ولياليـ
ـهِ على المكرمات بيضاً وسودا
نحنُ أبناءُ يعربٍ أعربُ النا
سِ لساناً وأنضرُ الناسِ عودا
وكأنّ الالهَ قالَ لنا في الـ
ـحربِ كونوا حجارةً أو حديدا

وهو القائل

اذا محاسنيَ اللاتي أدلُّ بها
كانت ذنوبي فقل لي كيفَ اعتذرُ
أهزُّ بالشعرِ اقواماً ذوي وسنٍ
في الجهلِ لو ضُربوا بالسيفِ ماشعروا

عليّ نحتُ القوافي من معادنِها

وما عليّ لهم أن تفهم البقرُ

وهـل كالمتنبي وحسبك به علماً تطأطئ لهُ الاعلام ، وشاعراً بلغ بالشعر العربي غاية التمام ، وهووان لم يكن شامي المنبت والمولد ، فهو شامي الذوق والمحتد ، فقد ترعرع في حلب ، وفيها نشأ وتأدب وفي ذلك يقول :

أحبّ حمصاً الى خناصرةٍ وكلّ نفس تُحبّ محياها

وخناصرة من أعمال حلب وكانت تحاذي قنسرين ، وقوله محياها أي موضع حياتها ، وهو يقول في موضع آخر

كلمـا رحبّت بنا الروضُ قولنا

حلبٌ قصدنا وانتِ السبيلُ

وهو القائل بعد فراقه حلب .

بم متعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ . فقد سماها وطنه .

وهل كأَبي فِراس الحمـداني وهو في منزلة المتنبي في لادب ويفوقه في رفعة المقام والحسب وهو القائل :

فلما خلونا يعلم اللهُ وحدهُ
لقد كرمتْ نجوي وعفّت سرائرُ
وبتُّ يظنُّ الناسُ فيَّ ظنونهمْ
وثوبيَ مما يرجمُ الناسُ طاهرُ
اقولُ وقد ضجَّ الحليُّ واشرقتْ
ولم ادرِ منها للصباحِ بشائرُ
أيا ربِّ حتى الحليَ مما نخافهُ
وحتى بياضَ الفجرِ مما نحاذرُ

وهو القائل :

ففينا لدينِ اللهِ عزٌّ ورفعةٌ
ومنا لدينِ اللهِ سيفٌ وناصر
هما واميرُ المؤمنين تسرَّدا
اجاراهُ لمَّا لم يجدْ مَن يجاورْ
وردَّاهُ حتى ملَّكاهُ سريرهُ
بعشرينَ ألفاً بينها الموتُ سافرُ

وحق هذه القصيدة ان تُسمَّى ايلياذة العرب الاَّ

قصرها على مفاخر أسرته . وهو القائل :

زماني كلهُ غضبٌ وعتبُ
وأنتَ عليَّ والايامُ إلبُ
وعيشُ العالمينَ لديكَ سهلٌ
وعيشي وحدهُ بفناكَ صعبُ

والقائل :

وما هذه في الحب أولُ نظرةٍ
اسأتْ الى قلبي الظنونُ الكواذبُ
ومن مذهبي حبُّ الديارِ لاهلها
وللناسِ فيما يعشقونَ مذاهبُ
رمتني عيونُ الناسِ حتى اظنها
ستحسدني في الحاسدينَ الكواكبُ
ولستُ أرى الاَّ عدواً محارباً
وآخرَ خيرٌ منهُ عندي المحاربُ
فهم يطفئونَ المجدَ واللهُ موقدٌ
وهم ينقصونَ الفضلَ واللهُ واهبُ

ويرجون ادراك العلا بنفوسهم
ولم يعلموا أنَّ المعالي مواهبُ
وهل يدفعُ الانسانُ ما هو واقعٌ
وهل يعلمُ الانسانُ ما هو كاسبُ
عليَّ طلابُ العزّ من مُستقرّهِ
ولا ذنبَ لي ان حاربتني المطالبُ

وهو القائل:

سيذكرني قومي اذا جَدَّ جَدُّهم
وفي الليلة الظلماء يُفتَقدُ البدرُ
ونحن اناسٌ لا توسُّطَ عندنا
لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا
ومن يخطبِ الحسناء لم يغلهُ المهرُ

ولعلي ذكرت من كلام الامير أبي فراس اكثر مما يستدعيه المقام، بيد انني كنت منقاداً الى ذلك بجاذب من شعره الرفيع الطبقة وكلامهِ العالي، ومعانيهِ الشريفة،

وعواطف نفسهِ الأبيَّة ، وهمتهِ الصاعدة في آفاق المجد ، وطريقتهِ التي هي خلوص الكلام من التقعر والتعقيد ، وانحدارهِ كالسلسبيل من قريحةٍ هي العين الفوارة ، واشتمالهِ على اكثر شؤون الحياة ، من تأريخ وحماسة ، ووصف حروب وقنصٍ وصيد ، وغزلٍ واستعطافٍ وعتابٍ ورثآءٍ ومديح وحِكَم ، وغير ذلك من احوال عصره ، ومستعمل كلام قطره ، وإعرابه عن أخفى حركات نفسه ، مما اصبح به نسيج وحده ، كل هذا على قلة الواصل الينا من شعره ، ولو لم تنبت منبج غيره ، ولم تنجب حلب والشام شاعراً سواه ، لكفى هذا الاقليم به شرفاً ينطح النجوم بِرَوْقيهِ وعزّاً يقلقل الاجبالا .

وهل كأبي العلآء المعري من فيلسوف أعمى قائل

وإني وان كنتُ الأخيرَ زمانهُ

لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

وهو القائل

فلا تحسبِ الاقمارَ خلقاً كثيرةً

فجملتها من نيّرٍ متردّدِ

والقائل

فان كنتَ تبغي العيشَ فابغِ توسطا

فعنـدَ التنـاهي يقصرُ المتطـاولُ

والقائل :

فظنَّ بسائر الاخوان شراً

ولا تأمن على سرّ فؤادا

فلو خبرتهـم الجوزآء خبري

لمـا طلعتْ مخافة ان تُـكادا

والقائل .

خففِ الوطءَ ما أظنّ اديم الـ

أرضِ الاّ من هذه الاجساد

والقائل

العالمُ العالي برأي معاشرٍ

كالعالمِ الهاوي يحسُّ ويعلمُ

زعمتْ رجالٌ انَّ سياراته

تسِقُ العقول وانهـا تتكلمُ

والنونُ في حكم الخواطرِ مُحدثٌ
والاوليُّ هو الزمانُ المظلِمُ

والقائل

سبحان خالقِنَا وطِـاءٌ أغبرٌ
من تحتِنا وله غطـاءٌ أزرقُ
والشهبُ في بحر السماءِ سوابحٌ
تطفو لناظرةِ العيون وتغرقُ

ولو شئت احصاء من تقدم هؤلاء الشعرآء من أهل الاقليم الشامي كالاشجع السلمي ومنصور النمري وأبي الفتح كشاجم والصنوبري ومن هم في طبقتهم ، وكذلك من تأخر عنهم كالوأواء والببغاء وابن عنين وابن منير الطرابلسي وابن الخياط الدمشقي ومئات من أمثـال هؤلاء الافراد ، الذين رفعوا ألوية الشعر على سائر البـلاد ، لملأتُ من ذلك صحفاً تدخل في عداد الـكتب الـكبيرة ، ولم يقتصر هـذا الاقليم الشامي على تفردهِ بأشعر شعرآء المولدين ، بل قد انبت أذكى الافهام وأنبه الفطن في سائر العلوم والفنون ، فاذا نظرت

الى فن التأريخ ، رأيتَ في رأس المؤرخين ابن عساكر الدمشقي صاحب التاريخ الكبير الذي قال فيه المنذري ان العمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب ، ثم ابن العديم الحلبي وغيرهما كابن خطيب الناصرية وكأبي ذرّ الشهير بسبط ابن العجمي الحلبي وكالشيخ طاهر بن حبيب الحلبي ، ويحيي بن حميدة الحلبي صاحب تأريخ معادن الذهب ، وكثيرين غيرهم . واذا قلّبت الطرف في علم الجغرافيا رأيت اسم السلطان العالم المؤيد ابي الفدآء صاحب حماة المولود في دمشق سنة ٦٧٢ في رأس الجغرافيين والمؤرخين الذين استعان بهم الافرنج وبنوا على تآليفهم .

واذا سرّحت النظر في الطب رأيت اسم نجم الدين المعروف بابن الدمشقي ، والشيخ مجد الدين بن سحنون شيخ الاطباآء الدمشقي ، وداود البصير الانطاكي وهو من أفراد البشر الذين امتازوا بالذكاء وسعة العلم .

ولو رمت الاتيان على أسمآء غيرهم في سائر الفنون ، لوجب ان افرد لذلك سفراً برأسه وحسبك ان عبد الحميد

الكاتب الذي قيل فيه ، بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد ، كان حلبياً ، ولم تحوِ بلد من البلاد في نحو المئة الرابعة للهجرة ، ما حوته حلبَ من المدارس ، فقد كان بها أربعة وأربعون مدرسة ، منها ثلاث لدرس الطب ، هذا كله ، ولم تكن دارخلافة ، وكان يقصدها العلماء والفضلاء من أقصى البلاد ، لطلب العلم والفوائد ، كالفيروزابادي صاحب القاموس ، وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان.

وعلى الجملة فقد برز أهل هذا الاقليم بالحذق ، وصفاء الذهن ، والالمعية والبراعة ، وفاقوا سائر من نطق بالعربية ، بأشعارهم ورسائلهم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد اكتُشف في هذه الايام عن كثير من مصنوعاتهم البلورية والخزفية ، ظهر منها لاهل أوروبا ان العرب من أهل هذا الاقليم ، قد بلغوا في هذه الصناعات ، مقاماً عظيماً من المعرفة والاضطلاع ، ولولم يكن التصوير محرماً في الاسلام ، لكان بين أيادينا من تصاويرهم وتماثيلهم ما نفاخر به كثيراً من الامم ، ومع هذا فانهم لم يهملوا هذا الفن الجميل ، كما تشهد

لذلك آثارهم على الخزف والبلور، وقد رأيت منها وعليها صور طير وأرانب وغزلان وكلاب وغيرها، وكلها غاية في الاتقان ودقة التصوير، ويظهر انهم أخذوا هذا الفن عن الفرس أو اليونان.

أما النقش فقد بلغوا منه الغاية، وحسبك ما يرويه التأريخ عن المقصورة الاموية، والمنبر في الجامع الاموي في دمشق وعما وجد من مثل هذه الآثار في حلب وبغداد وغيرها من البلاد، وقد كانوا يتفننون في اكثر الصناعات، فمن ذلك ما ذكر في ديوان المتنبي[١] من ان الامير بدر بن عمّار أراد ان يمتحن سرعة خاطر المتنبي فأخرج لعبةً قد اعدها، لها شعر في طولها تدور على لولب، واحدى رجليها مرفوعة، وفي يدها باقة ريحان، وهي تُدار على الجلاّس، فاذا وقفت حذاء الانسان نقرها فدارت.

أما صناعة الموسيقى فلم يذكر المؤرخون حذق الفارابي ومهارته فيها، في غير مجلس سيف الدولة، وحسبك ان

(١) راجع صفحة ١٦٠ من العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب.

صاحب كتاب الاغاني الذي لم يكتَب في الاغاني كتاب أضخم منه في جميع اللغات ، لم يرَ ان يهديه الى غير سيف الدولة ملك حلب. المشار اليه ، وقد أجازه عليـه بألف دينار كما هو معلوم .

ومما أثبتهُ التأريخ ان اليونان بعد فتح الاسكندر هذا الاقليم بقرنٍ واحد ، بدأوا يدرسون فصاحتهم ، على علماء انطاكية ، ويحذون حذوهم في نسق كتابة لغتهم اليونانية ، وما بعد ذلك من برهان على رجحان عقول أهـل هذا الصُقع .

وقد كانت الشهباء مبعث حياة العلوم العربية ، بعد ذاك الممات ، ومنشأ هذه اليقظة العصرية ، بعد طول السُّبات ، إذ بعد أن كانت أواخر القرن السابع عشر فترة انحطاط وجهل قد خيَّم ظلامها على كل البلاد التي تنطق بالعربية ، ظهر في فجر القرن الثامن عشر نيّران عظيمان في سماء الشهباء هما المطران جرمانوس فرحات والشماس عبـد الله زاخر وتلاهما نيّرٌ ثالث هو الخوري نيقولاوس الصائغ ، أما الاول

فكان عالمًا كبيراً وجهبذاً نحريراً وشاعراً وكاتباً ، بل هو الشعلة الاولى التي أنارت حلب ثم الاقليم الشامي جميعه ثم جازت البحار وانتقلت انوارها الى الديار المصرية ، فأمريكا ، فغيرها من البلاد القاصية ، وله المعجم المشهور باسمه في اللغة ، وكتاب بحث المطالب في النحو والصرف وديوان شعر كبير وغير ذلك كثيراً من المؤلفات العلمية المفيدة الكثيرة[١] التي نشرها بين الناس ، بعد أن كانت كتب علوم العربية أعزّ من بيض الانوق ، خصوصاً عند نصارى هذا الاقليم .

وأما الشماس عبد الله زاخر فكان ثاقب الذهن ، ماضي العزم ، واسع العلم ، وهو روح هذه النشأة وناشرها اذ كان القائم بالمطبعة الاولى العربيـة في هذه البلاد ، وهي مطبعة الشوير من قرى لبنان ، وقيل انه كان يحفر أحرفها الكبيرة بيدهِ على الخشب ، ولما رأى ان الطباعة في لبنان اسهل عليه من حلب ، اتفق مع صديقهِ الخوري نقولاوس المذكور

(١) ومن أحب الوقوف على ذلك فليراجع ترجمتـهُ لحضرة صديقنا الجهبذ الفاضل الخوري جرجس منش الحلبي .

ونقلا المطبعة الى الشوير ، ولهُ في الفلسفة والمنطق وغير ذلك من العلوم تآليف غاية في الدقة والفصاحة .

وأما الخوري نيقولاوس فكان من الشعرآء المجيدين كما يشهد لهُ بذلك ديوانه وقد كانت لهُ يد بيضآء في أمر المطبعة المذكورة وطبع الكتب الكثيرة المفيدة فيها .

واذا نظرنا الى الصنائع فانها لم تفقد في حلب مع ما طرأ عليها من الحروب والزلازل والاوبئة والمجاعات وغير ذلك من الكوارث ، فان صناعة نسج الحرير المنقوش صناعة قديمة فيها ، وصناعة الزجاج كذلك ، وفي حلب سوق تُعرف اليوم بسوق الزجاج ، (ويحرفها العامة فيقولون سوق الجاج) وصناعة دبغ الجلود ، وصناعة البنآء وصناعة النجارة من الصنائع التي لم تزل فيها الى اليوم بالغة اقصى الاتقان ، وكذلك صناعة سكب النحاس ، أما الموسيقى فهي وان كانت قد فقدت من هذه البلاد للاسباب العديدة المشار اليها آنفاً ، الاّ ان آثارها في حلب اكثر منها في سواها من سائر البلاد التي تنطق بالعربية ، وحسبك ان الموسيقيّ العصري العبقري

المرحوم عبده الحمولي المصري ، قد أخذ عن اهل هذا الفن في حلب الشيء الكثير من الاشغال والقدود وانواع الاكرك والثقيل والسماعى وغيرها . وفي حلب كثير من الصناعات القديمة غير ما تقدم .

ولما انقضى القرن الثامن عشر ، ظهر فيها في القرن التاسع عشر علماء اعلام وشعراء مجيدون ، كالعالم الشاعر المفلق الحسيب النسيب الشيخ وفا الرفاعي ومن موشحاته البديعة قوله :

يا مهاةَ البانِ يا ذاتَ الدلالْ
جلَّ مَنْ أبدعَ ذا الوجهَ الجميلْ
غلبَ الوجدُ وليلُ الهجرِ طالْ
وأنا المغرمُ بالفرعِ الطويلْ
قدُّكِ المياسُ لولا الازرُ سالْ
فاكشفي عن صفحةِ الخدِّ الاسيلْ
لأرى طرساً عليهِ رُسما
ناعمُ الوشيِ طريُّ الملمسِ

وكل شعره من الطبقة العالية ، وكالعالم الشاعر محمد افندي الجابري من أسرةٍ عريقةٍ في الوجاهة ، وكالعالم الكبير والشاعر الشهير الشيخ حسين الغزّي ، والشاعر الشهير نصر الله الطرابلسي الحلبي ، ورزق الله حسون الذي لو قصر نفسه على العلم ، ولم يتعرّض لمفاسد السياسة ، لكان اليوم من أئمة علماء القرن الماضي ، ثم عبد الله المراش العالم الكاتب البليغ ، ثم اخوه فرنسيس المراش الشاعر العالم المشهور الطائر الصيت ، ثم الشاعر الاديب المتفنن انطون الصقال ، ثم الشاعر البارع الاديب جبرائيل الدلال ، رحمهم الله .

ولم اقصد بذكر هذه الاسماء ، وبما ذكرته عن الشبا‌ء تبجحاً بالوطن ، بل هي الحقيقة ابسطها لفائدة التأريخ ، ولعلّ العلماء والفضلاء لا يرون فيما ذكرته شططاً وكفى بشهادة علامة العصر فقيد اللغة الشيخ ابرهيم اليازجي حجة ، وذلك من قصيدة كان بعث بها اليّ فقال عند ذكره حلب .

بلدةٌ مجدُها تواصلَ في الأعـ
ـصارِ مثـلَ الأعصارِ في مجراها
كلما استدبرتْ من الدهرِ يوماً
زادَ سطراً على حديثِ علاها

وان كنت قد اطلت القول في حلب وعلمآئها وشعرآئها وصناعاتها ، فذاك لاني اعلم عنها ما لا اعلمه عن سواها ، والا فما الشام وشهرتها البعيدة ، لتقصر عنها ، ولا حماة مما يُغَضُّ منها ، ولا حمص مما يُجهل قدرها وهي مسقط رأس ديك الجن الشاعر المشهور ، ووطن المعلم بطرس كرامة ، احد اكابر شعرآء القرن الماضي ، بل هي منبت الاثلة اليازجية الكريمة واليها يشير علامة العصر المتقدم ذكره في القصيدة نفسها بقوله

وسقى اللهُ ارضَ حمصٍ وحيّتْ
نسماتُ الصبا خصيبَ ثراها
هيَ فردوسيَ القديمُ ومنهـا
ثمراتُ الحياةِ كانَ جناها

اما طرابلس فناهيك من مدينة قال في اهلها المتنبي .

اكارمُ حسدَ الارضَ السمآءُ بهم
وقصَّرتْ كلُّ مصرٍ عن طرابُلُسِ

وكم نشأ باللاذقية وعسقلان وصور وصيدا ويافا والقدس وغيرها من هذه البلاد ، علماء وشعرآء اعلام ، ومتفننون ذهبت بصناعاتهم الجميلة واسمائهم حادثات الدهر؛ وعلى الجملة فان الاقليم الشامي . مثلما خُصَّ بجودة التربة واعتدال الهوآء ، فانه خُصَّ بجودة القرائح والعبقرية وكثرة المتفننين في كل عصر .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، ظهرت النهضة العلمية العربية في بيروت اتمَّ الظهور على ايدي علامة عصره ونسيج وحده الشيخ ناصيف اليازجي ، والفاضل المجتهد الالمعي المقدام المعلم بطرس البستاني ، والعالم المتبحر الدكتور كرنيليوس ڤان ديك الاميريكي وتبعهم إمام المحققين فقيد اللغة علامة العصر الشيخ ابرهيم اليازجي والعالم الفقيه الشاعر الكبير الشيخ ابرهيم الاحدب والعالم الشاعر

الشيخ يوسف الاسير رحمهم الله ثم عدد وافرهم اليوم من شيوخ العلم والادب في الديار الشامية حفظهم الله .

وكان من آثار هذه النهضة ، ما يرى من ترقي وتسهيل العلوم والآداب العربيـة ، وشيوعها في اطراف الدنيا ، والاقبال عليها ، وَجِدَّتها والحمد لله بعد العفاء ، وشبابها بعد ان ظُنَّ بها الهرم أو الفناء ، وظهورها في مظهرها الحالي من النشاط والاجتهاد ، والفصاحة التي كادت تلحق بعصر الصابئ وابن عبَّاد ، كل ذلك في مدة لم تجاوز الستين من السنين ، مع ما هو مشاهد من نقص المسعفين وقلة المساعدين ، من اغنياء البلاد كما هو الشأن في بلاد الفرنجة .

ولا يُدفع هذا القول بما هو مشاهد من عناية مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان الثاني المعظم بالمعارف ، وتمهيد سبل العلوم ، وانشاء المكاتب التي تعدّ بالمئات لعهد خلافته أعزه الله ، وما يُنفق بأمر جلالته من نظارة المعارف في سبيل العلم ، فضلاً عن الهبات الوافرة التي تتفضل بها عظمته على المدارس في كل عام ، لان تلك العناية السلطانية

وهاتيك الهبات الملوكانية ، تشمل سائر بلاد مملكته الواسعة حرسها الله ، فعلى مَ لم تظهر هذه النهضة العلمية ، في غير البلاد الشامية ؟ أما ان ذلك سرّ المكان الذي نحن بصدده ؟ وقد أوضحتُ فيما تقدم ان أول هذه النهضة كان منذ النصف الاخير من القرن الماضي ، الاّ انها لم تنتشر هذا الانتشار السريع الاّ منذ ثلاثين سنةً أي منذ جلوس جلالتـه على عرش اجداده المعظمين .

على انك اذا دققتَ النظر في هذه الهبّة العلمية وسرعة تقدمها وانتشارها ، تكاد تعدّها عديلة الحضارة العباسية ثم الاندلسية التي حيّرتا العالم بتقدمهما السريع ، بل لعلك ترى لهذا الانبعاث فضلاً على ذاك .

ثم انك اذا أنعمتَ النظر في هذا الانبعاث العلمي رأيت مراكش أولى بأن تكون موطن ظهوره وموضع نشأتهِ من تونس وان لم تكن تونس فمصر ، وذلك لان اهل مراكش وحكومتهم لا ينطقون بغير اللغة العربية ، وهي ذات الحضارة القديمة والصناعات البديعة المعروفة عند الافرنج باسم : سبانو

ماروك : وهي لهذه الاسباب أحرى من يقوم بهذا الانبعاث وتعضيده ، ولكن يا بُعدَ ما بينها وبين ذاك ، وقد كادت تُعد في عداد الدول البائدة لما استولى على اهلها من الجهل ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

وأما تونس فقد كانت في ذلك العهد ، أي في نصف القرن الماضي ، الحكومة الثانية العربية بعد الحكومة المراكشية ، وكان لاهلها اختلاط كثير مع أُمم الفرنج اهل العلوم والصنائع ، فكان من ثمرة ذلك كله ، انهم دانوا للامة الفرنسوية صاغرين ، وأعطوهم صفقة ايديهم طائعين ، وما خلا ما ظهر من آثار شاعرها الكبير الشيخ محمود قبادو ، لم يأتنا خبر عن عالمٍ من تلك البلاد ، برّز في شيء من العلوم ، فضلاً عن أن تكون له يدٌ في هذا الانبعاث العلمي .

واما مصر فانها بعد هذين القُطرين كانت احق البلاد واجدرها بهذا الانبعاث العلمي ، وهي لم تزل منذ عهد بعيد ، مقصد العلماء من كل أدب ، ومحط رحالهم ومنتجع آمالهم ، وبها الجامع الازهر ، واهلها كلهم لا ينطقون بغير اللسان

العربي ، ودواوين حكومتها ومحاكمها عربية ، ولا سيما وقد مهّد محمد علي باشا رحمه الله من سبل المعارف والحضارة ما مهّد ، وبدا بدأ آت كان من حقها ان تُختم بخير الخاتمات ، غير ان مصر بالرغم من ذلك كلهِ ، كانت مقصّرةً في بكرة هذه الهبّة وعُدّت مع المتخلفين .

بيد انها كانت أوفر حظاً من ذينك الصُقعين اذ اصبحت لعهد كتابة هذه السطور ، مجمع علماء العرب وموطن الادباء ، وقد كثرت فيها المطابع العربية ، ونفقت فيها سوق الكتب والمجلات العلمية ، وصحف الاخبار السياسية اليومية ، لما أُبيح لاصحابها من حرية القول في كل فن ، وتوالى فيها طبع الكتب العلمية المفيدة ، من قديمة وحديثة ، وانشئت فيها المكتبة العظيمة المصرية ، وقد جمع فيها أنفس الكتب العربية الخطية والمطبوعة فبشرتنا بمستقبل سعيد ، على ان معظم القائمين بهذه المجلات والصحف والمطابع من علماء وشعراء وكتّاب واصحاب مكاتب هم من أهل الاقليم الشامي .

بل انك لو امعنت في البحث عن الحضارة الاندلسية

وأصل فاتحي الاندلس والنازلين به واعمالهم الباهرة ، لرأيت انهم اهل الاقليم الشامي ، وقد كتب في هذا المعنى المقريّ الاندلسي صاحب نفح الطيب ، ما لا أرى بداً من نقله هنا ، قال في ذكر الاسباب الداعية لتأليف كتابه ما نصه :

أولها ان الداعي لتأليفه أهل الشام أبقى الله مآثرهم وجعلها على مرّ الازمان مديدة ، **ثانيها** ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام ذوو النجدة والشوكة الحديدية ، **ثالثها** ان غالب أهل الاندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة ، **ورابعها** ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها وشبهوها بها في القصر والنهر ، والدوح والزهر .

بقي القول ان الارض التي انبتت ذلك النبات وأثمرت تلك الثمار ، أو المكان الذي انبت تلك الافهام النيّرة ، والعقول الوافرة ، والاحلام الراجحة ، على م ضنّ بذلك قروناً متطاولة ؟ فهل تغيرت طبيعة الارض ، أم اختلف سرّ المكان ؟ أجيب انه قد تقرر عند علماء طبقات الارض (الجيولوجيا) والنبات

والطب وعلماء طبائع الكائنات، وفي جملتهم اكثر المتكلمين بالتولد الذاتي ، انه لا بدَّ من وقوع أمور طبيعية موافقة يكون وقوعها مساعداً في تحول الطبقات في القشرة الارضية ، ونمو النبات وتنوعه وتميره ، وانتقال المرض والعدوى به ، وحصول التولد الذاتي الذي قالوا به ، الى غير ذلك ، وانه اذا لم تقع تلك الامور ، أو تصادف تلك الاحوال ، امتنع حصول هذا التحوُّل والانتقال ، كأن تزرع حنطةً أو شعيراً دون حرث الارض ، أو تغرس نخلة دون ان تحفر لها ، أو ترجو غزير اللبن من بقرة أصيلة ، دون ان تطعمها وترعاها في أرض خصيبة الى غير ذلك مما كان من أمثاله . لان التربة مهما بلغت من الجودة ، لا تجود بالغلة ، ولا تأتي بالثمر الجيد ، ما لم تحرث وتفلح ، والنخلة لا تقوى وتثمر ما لم يحفر لها وتغرس غرساً صالحاً ، والبقرة لا تظهر اصالتها ويغزر لبنها ، الا اذا عُلِفت علفاً موافقاً ، وحبّة الحنطة مهما كان أصلها طيباً ، لا تأتي بالمئة من الحب ، ما لم تحرث لها الارض الجيدة حرثاً حسناً كما هو بديهي .

وعلى هذا النحو يجب ان تُقاس العقول والقرائح في البشر ، فاذا نظرت الى ما اعتور البلاد اليونانية والرومانية والاقليم الشامي ، من توالي الخراب والحريق والنهب في الحروب التي تكررت في كثير من تلك القرون ، والزلازل والاوبئة والمجاعات والثورات والمهاجرات وانتقال الغرباء وتوطنهم بديل أهلها الاولين ، وما تعاقب عليها من الظلم والاستبداد ، اتباعاً لاحوال تلك الازمنة ، اذا علمت ذلك كله ، لم تعجب من فقد أمثال تلك العقول الثاقبة وهاتيك القرائح العبقرية ، التي يجب ان تتعاهد بالصون والتكريم ، والعناية في التربية والتعليم ، وقد رأيت كيف انه لما ساد عدل الحكومة في الإقطار الشامية ، ظهر في اثرهِ الانبعاث العلمي ، وبالتالي عادت أرضهُ الى طبيعتها فأنبتت ذوي العقول الراجحة ، والاذهان الصافية ، والهمم العالية ، شأن التربة الجيدة متى أُحسِنت فلاحتها اخصبت بالجيد من الغلة ، ودونك إيطاليا وما كان لها في الفنون من الشأن المبين ، في هذه السنين .

وقد أطلت الشرح في هذا الباب ، لاني لم أجد مَن تكلم به من كتّاب العرب غير ابن خلدون ، وكلامُهُ كما رأيتَهُ في صدر هذا الفصل ، قد لا يقنع المعاند ، بل ان كتّاب الافرنج انفسهم ، لم يفَصّلوا في هذا المعنى التفصيل الشافي ، وانما جلّ كلامهم فيه ، يرجع الى فعل الهوآء وما ينجم عنهُ في صحة المستعمرين منهم في الاقاليم المختلفة ، وهو بعيد عما نحن بصددهِ ، وقد بحثت كثيراً فلم أهتدِ الى مؤلف شافٍ بهذا المعنى .

ويتحصل مما تقدم بسطهُ ان قاعدة نقد المكان هذه تنقسم الى قسمين ، الاول البحث عن مسقط رأس المتفنن وبيئَتِهِ . والثانى عن طبيعة هوآء ذلك الاقليم ، وموقعه الجغرافي وسائر مايتعلق بتلك البيئة .

واذ قد عرفت الآن سرَّ المكان ، فقد علمت ولا شك قيمة نقد هذه القاعدة من فنّ النقد ، وما لها من جزيل الفائدة فتنبه لذلك . واللهُ أنبتكم من الارضِ نباتاً .

الفصل العشرون

في

قاعدة بت الحكم

هذه القاعدة تنقسم الى قسمين : الاول الترجيح : والثانى التنزيل .

أما الترجيح فهو التميز بين فاضل ومفضول ، او حسَنٍ وأحسن ، وهو الغالب ، اذ قلَّ أن تجد بين البشر من انفرد بفنٍّ ، بحيث لا تستطيع أن توازنه مع سواه ، فبعد أن يعرض الناقدُ المنقود على القواعد المتقدمة ، ينظر فيما كان من نتيجة موازنته ، فان ترجَّح عنده ان المنقود فضل مَن وازنهُ به في مزيَّةٍ او اكثر ، ورآهُ بالجملة راجحاً ، بتَّ حكمه في ذلك ، ولهذا السبب يُسمى هذا القسم من الحكم بالترجيح .

وأما التنزيل فهو ترتيب الشيء ، وتحديد درجته ،

وتعيين طبقة المتفنن ، وهذا التنزيل قد لا يكون في الاكثر الاّ على وجه التقريب وصيغة التشبيه ، كقولنا زيد شاعر من الطبقة الاولى في الرثآء ؛ فان قلت ما هي طبقات الشعرآء ، ومَن حدّدها ، ومن بوّب الشعر لأبواب ؟ كان جواب سؤآلك هذا سلبياً ، اذ فيما نعلم لم تُحدّد طبقات الشعرآء باجماعٍ ، قال السيوطي في المزهر : وكان الحذاق يقولون الفحول في الجاهليـة ثلاثة متشابهون زهير والفرزدق والنابغة ، والاخطل والاعشى وجرير ؛ وقال قتيبة بن مسلم أشعر الجاهلية امرؤ القيس وأضربهم مثلاً طرَفة ، وأما شعرآء وقته فالفرزدقــ أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والاخطل أوصفهم ، وقال ابن رشيق : طبقـات الشعرآء اربع جاهليّ قديم ، ومخضرم ، — وهو الذي أدرك الجاهلية — واسلامي ، ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات ، أُولى وثانية على التدريج : وقالت طائفةٌ ، الشعرآء ثلاثة ، جاهلي ، واسلامي ومولّد ، فالجـاهلي امرؤ القيس ، والاسلامي ذو الرمة ؛ والمولد ابن المعتزّ ، وهذا قول من يفضّل البديع وخاصّـة

التشبيه على جميع فنون الشعر . وطائفة أخرى تقول بل الثلاثة الاعشى والاخطل وأبو نواس ، وهذا مذهب اصحاب الخمر وما ناسبها ، قال ابن رشيق ولما كان المشاهير من الشعرآء كما قدّمت اكثر من أن يحصوا ، ذكرت من المقلّين ، من وسع ذكرهُ في هذا الموضع ، وعدّ جماعة منهم طرفة وعبيد بن الابرص وغيرهم .

وقال عمر بن شبّة في طبقات الشعرآء للشعر والشعرآء أوّلٌ لا يوقف عليه ، واختلف في ذلك العلمآء وادّعت القبائل كلٌّ قبيلة لشاعرها انهُ الاول .

وقال ابو محمد عبد الله بن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعرآء : وأخبرت فيه — أي في كتابه المذكور — عن اقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسنُ لها الى غير ذلك : الا انه لم يذكر من ذلك الا قليلاً ، وعلى سبيل العَرض كما يُرى من مطالعة كتابه ، وقال أيضاً وهو قول في غاية الاحسان : ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلّد ، أو استحسن

باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيتُ كلاً حقَّه ، ووفرت عليه حظه ، فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم زمن قائله ، ويضعه موضع متخيّره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب لهُ عنده ، الا انه قيل في زمانه ورأى قائلَهُ ، ولم يقصر اللهُ الشعر والعلم والبلاغة ، على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده . انتهى كلامه ، ولم يذكر شيئاً عن الشعرآء وطبقاتهم ليكون حجة في هذا البحث .

فقد رأيت كيف انهم لم يتفقوا على طبقات الشعرآء ، ولا وقع اجماعهم على طائفة منهم ، ولا رتبوا ابواب الشعر ، فقولنا زيد شاعر من الطبقة الاولى في الرثاء ، يُفهم منهُ انه من طبقة الخنسآء أو الشريف الرضي او المتنبي وأمثال هؤلآء ، اذ في الحقيقة لا يمكن تحديد طبقات الشعرآء لكثرتهم ، ولأنهُ نبغ في كل عصر عند العرب ، شعرآء

مفلقون ، وهذا موافقٌ لما قاله عبد الله بن قتيبة المتقدم ذكره ، ومخالف لما يراهُ كثيرٌ من علمائنا اهل التقليد ، وبعض علماء الفرنجة من المستشرقين ، الذين تمادى بعضهم أو اكثرهم ، فزعم ان الشعر العربي ، فقد رونقهُ وطلاوته بعد الجاهلية ، وان العبقرية الشعرية ، قد ذهبت بذهابها . ولا ادري ماذا يُريدون بالعبقرية الشعرية ، فان كان ذلك في المعاني ، فلا ريب أن معاني المخضرمين ومَن بعدهم من المحدَثين ، الذين ذاقوا طعم الحضارتين الاموية والعباسية ، هيّ أرفع من تلك المعاني البدوية الخشنة ، وقد قصرت على العيس والطلل الداثر ، والحدوج والصحراء والخدروف والسباع ، والجلمود والاعصار وأمثال ذلك ، وان زعموا انها في الاوزان ، فان اشعار هؤلاء المحدثين أصح وزناً وقد اخترعوا بعد الجاهلية أوزاناً لطيفة جداً ، كما يشهد بذلك كل ذي ذوق سليم ، وان كانوا يرون العبقرية باللفظ الوحشي ، واسماء الاماكن المهجورة في الصحاري والفلوات ، فامثال حومِل وتوضِح والمقراة وحومانة الدرَّاج وخولة وعقنقل

وسجنجل وقميص مقدّد ورضام وطلخام ، ليست مما يُفاخر بها أو يؤسف لفقدها من شعر المحدثين والعصريين ، وان كانوا يريدون بالعبقرية الشعرية ، تراكيب جملهم بمعانيها البدوية فليس في قولهِ .

ويوم عقرتُ للعذارى مطيتي
فيا عجباً من كورِها المتحمَّلِ
فظلَّ العذارى يرتمينَ بلحمها
وشحمٍ كهُدّابِ الدمقسِ المفتّلِ

من كبير أمر ، فضلاً عما يحظر على الشاعر العصري من ارتكاب الضرورات التي في مثل قوله : ويوم عقرتُ :

وليس في قوله

ترى بعَرَ الارامِ في عرصاتها
وقيعانها كأنه حبُّ فلفلِ

من العبقرية الشعرية ما يعلو عن قرائح المحدثين أو المعاصرين ، ولا في قوله

لها فَخَذانِ أَكملَ النحضُ فيهما
كأنهما بابا منيفٍ مُمرَّدِ

من التشبيه البديع الذي لا تصل اليه مدارك المحدثين ، وقس على ذلك سائر أشعارهم الاَّ القليل النادر ، وأين هم من قول هذا المحدث .

نرى عِظماً بالبينِ والصدُّ أعظمُ
ونتِّهمُ الواشينَ والدمعُ منهمُ
ومَن لبُّهُ مع غيرهِ كيف حالهُ
ومَن سِرُّهُ في جَفنهِ كيفَ يكتمُ

وقوله

املَّتْ ساعةَ ساروا كشفَ مِعصمِها
ليلبثَ الحيُّ دونَ السيرِ حيرانا

وقول المحدث الآخر .

ما لمن وكَّل الهوى مقلتيهِ
بانسكابٍ وقلبَهُ بزفيرِ

فهو ما بينَ عمر يوم ٍ طويلٍ
يتلظى وعمرِ يوم ٍ قصيرِ
لا أقولُ المسيرُ أرّق عيني
قد تناهى البلاءُ قبلَ المسيرِ

وقول المحدث الآخر

يسألُ الربعَ عن ظباء المُصلَّى
ما على الربع لو أجابَ سؤالَه
ومحالٌ من المحيل جوابٌ
غيرَ انَّ الوقوفَ فيهِ علالَه
هذه سنَّةُ المحبّينَ من قبـ
ـلُ على كُلّ منزلٍ لا محالَه

وقول الآخر

مددتُ الى الوداعِ يداً وأُخرى
حَبستُ بها الحياةَ على فؤادي

وألوف من أمثال هذه الابيات التي لو صوّرَ اللطف لكان اياها ، ولو تجسم الشعر لما كان غير معناها ، وأيَّ فريدة لم

يغوصوا عليها ، ونفيسة لم يصلوا اليها ، فكأن هؤلاء المغرمين بالشيح والقيصوم والاباعر من أدبائنا المقلدين ، وعلماء الفرنجة المستشرقين ، لا يرون الاحسان ، الا فيما اخلقته يد الازمان ، ولا يستجيدون الكلام ، الا اذا تعبت في تحصيله الافهام ، وبات القارئ يقلّب معاجم اللغة ليفهم معنى كلمة أو بيت كهذا : للشنفري :

دعستُ على غطش وبغشٍ وصحبتي
سعارٌ وإرزيزٌ ووجرٌ وافكلُ

فلعمري لقد ساء فهمهم ، وضلوا عن الذوق الحسن . فان مثل هذه المعاني الغثيثة والالفاظ التي تنفر منها المسامع وتشمأز النفوس ، لو جاز لاصحاب الذوق من العرب أن ينكروها ويعدوها لغة أخرى بربرية ، لما تأخروا عن ذلك ، وقد طال بي الكلام في هذا المعنى حتى كاد يحيد بنا عن المقصود .

اذاً لا يمكن الحكم على طبقة الشاعر وتنزيله في طبقة معينة ، الاَّ بعد النظر في شعره جميعه او اكثره ، ونقده حق

النقد ، ولعلّ هذا أحد الاسباب التي وقفت في سبيل تعيين طبقات الشعرآء ، لما يحول دون ذلك من العقبات .

واعلم أن طائفة من العلمآء ينكرون بت الحكم على المنقود ، لمزاعم سأذكرها لك ، بيد أن مزاعمهم هذه منقوضة بما سأقدمهُ لك من البراهين الواضحة .

لا إخالك تجهل أن الانسان ما برح منذ وجوده في هذا الكون ، خاضعاً لنواميس الطبيعة يحتذي مثالها ، وهي كانت ولم تزل ولن تزال ، المدرسة العليا لهُ ، تلقي عليه كل يوم من الفوائد ، ما يزيدهُ دربةً وعلماً وفهماً ، وكما انه يستفيد من الكليات ، لهُ فوائد من الجزئيات ، ومثلما يتمنى محاكاتها بالاصول ، يجتهد أن يحاكيها بالفروع ، ومعاكسة الطبيعة في اعمالها ممتنع ، بل الساعي ورآء ذلك يُعدّ أحمق ، ألا ترى أن المصور الذي يصور لنا بستاناً أرضهُ زرقآء ، وسمآؤهُ خضرآء ، وأصول اشجاره وجذورها من فوق ، ورؤس أغصانها في التراب ، نحسبهُ مجنوناً ، وما ذاك الاّ لاننا نرى الحسن هو فيما أحكمت يدُ الخالق ترتيبه ووضعه ، أو لان

في غريزة الانسان حب التقليد ، فهو يحب أن يقلد اعمال الطبيعة أو الخالق ، وقد رأى بعض العلماء بعد المراقبة ، أن حب التقليد غريزي في بعض الحيوان ايضاً ، وقد تمادوا فقالوا انه موجود في بعض أصناف النبات .

ولما كان هذا حال الانسان ، فكان ميله الى تقليد أبناء جنسه اعمّ ، وحبه تقليد من يستحسنه من معارفه أو أقاربه أخص ، وبالتالي فان العلماء العقلاء لا تضلهم الانانية فتزيغهم عن اتباع الهدى ، ولذلك تراهم يقلدون بعضهم بعضاً فيما يرونه مفيداً ، وقد رأينا من صنع بعض النقادين بل اكثرهم ، انهم بتّوا أحكامهم على المنقود ، كما يبت سائر العلماء أحكامهم فيما يعرض لهم من المسائل العلمية ، ألا ترى كيف يبت الطبيب حكمه في فائدة العلاج كذا وأفضليته على سواه من العلاجات الموصوفة لاحدى العلل ؟ ومثله النباتي كيف يحكم بأفضلية نبات على نبات وتربة على تربة .

الا انه يعترض على هذا الشاهد فيقال ان بتّ الحكم في افضلية علاج على علاج ، متوقف على نتيجته ، أي الفائدة

الحاصلة منه للعليل، وكذلك أفضلية النبات متوقفة على الثمرة المتحصلة منه ، وأفضلية التربة ، على جودة محصول زرعها ، بل قد ينكر المعترض الافضلية بتةً ، فيقول ان الفائدة التي حصلت من العلاج هي نسبية ، أي بالنسبة الى نوع العلة ومعارف الطبيب ، ومثل ذلك ثمرة النبات وافضلية التربة ، ولهذا نعوا على العالم الشهير بوُفّون حكمه على رتب الحيوان قياساً منه على كثرة انتفاع الانسان منها أو اقليته ، اذ قد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة الى الانسان وانتفاعه من تلك الحيوانات ، ولكنه ليس بصحيح بالنظر الى الحقيقة التي هي غرض العلماء ، فالغزال ليس أجمل من الحمار، والجرذ غير أقبح من الارنب، وانما هذه الحيوانات في نظر علماء الحيوان، هي ما هي ، فلكل منها رتبة وخاصية ليست للآخر ، ولا يحق للانسان ان يرفع ويخفض ويعين منزلة هذه فوق منزلة تلك .

ثم يقول المعترض وهب ان بتّ الحكم عند علماء سائر العلوم واجب ، فلا نسبة بين العلوم الطبيعية والعلوم الادبية ،

وانه وان كان نيوتون قد بت الحكم في شرع الجاذبية على النظام الشمسي، فهل يلزم من ذلك ان نحكم بترجيح البحتري على أبي تمام ؟ ويتقدم ابن خلدون على الماوردي ؟ ويقول اننا اذا تبعنا مذهب التقليد هوى بنا الى دركات اغلاط فاضحة ورجع بنا القهقرى . فصدنا عن الرقي الذي هو ضالة الحضارة العصرية

فأجيب عن ذلك . ان قول المعترض ان أحكام علماء الطب والنبات وسواهم ، ليست في محلها ، غير صحيح ، بل لو كانت نسبية كما يزعم ، لما وجب ان نمنع الحكم على ما حكموا به ، وذلك لان أحكامهم هي نتيجة شاهدي الحسّ والعقل . وهما أعدل الشهود عند العاقل .

فالحكم بأن الكينا اقطع للحميات من البن مثلاً . وان الارض العذاة أو الاريضة سيرٌ من الارض الغمقة أو السبخة ، وان تغريد البلبل اطرب في الاذن من نهيق الحمار ، هو حكم يؤيده الحس ، ولا يقدح فيه انه نسبيّ ، اذ كل أحكام الانسان نسبية ، لعلاقة بعضها

بالزمان ، وبعضها بالمكان ، وبعضها بالحاكم .

واذا كان يحق لنا أن نبتَّ الحكم بالتفضيل والترجيح على الكائنات العالية وغيرها ، مما ليس فيه يدٌ للانسان . كالاجرام السموية وحركاتها ، والمعادن الارضية ومنافعها ، وعلى بعض ما فيه للانسان يدٌ بالتحسين والتكثير كالنبات ، فلمَ لا يجوز للمرء أن يحكم بترجيح وتفضيل عمل مخلوق نظيره ، ونتيجة خاطر بشرٍ مثله ، على ما كان من نوعه من الاعمال العقلية أو الصناعات الجميلة ؟ أوَليس ان هذا الزعم في نهاية الغرابة ؛ وان كان كما يزعم المعترض ليس للعاقل أن يقول باستحسان ما رآهُ جميلاً ، وكراهة ما مجَّهُ ذوقه من الاطعمة ، وتفضيل ما استطابهُ من الروائح على ما سواه ، والانبساط الى ما يطربه من الاصوات ، وتفضيله قرآءة البحتري على جرير . ولبس الناعم على الخشن ، وبالجملة أن يحكم بطول ما يراهُ طويلاً ، وقصر ما يراهُ قصيراً ، فما الفائدة من هذه الحواس المخلوقة ؟ وما هو انتفاعهُ منها ؟ وهل في قدرة العاقل أن يعطّل حواسهُ ويكذّب مخيَّلته ؟ وان قيل انه

يحكم في استبداد العادة ، أي انهُ يُدفع الى تلك الاحكام باستحكام العادة من نفسه ، قلتُ وما فعلُ العادة في بدويّ القفر ، عند استطابتهِ رائحة الورد أو غيره من الروائح الذكية التي لم يعتدها ، وكرههِ بعض الروائح الخبيثة التي لم يكن شمها ؟ ومن أين أتت العادة للطفل ، أن يفرح ويبتهج عند وقوع نظرهِ على بعض الالوان اللطيفة ، وأن تظهر عليه علائم الانقباض والكدر عند النظر الى اللون الاسود ، او ما يقرب منه من الألوان القاتمة ، وأن يستطيب الحلو ويستكره البشع من المشروب ؟ الى غير ذلك من الاحوال والشؤون الكثيرة التي لا حكم فيها للعادة وانما هي غريزية في الانسان .

بقي الجواب عن مذهب التقليد ، اذ يزعم المعترض انه مما يصدّ عن الترقي في سلم الحضارة ، فاعلم انه بزعمهِ هذا حصر المعنى وعكس الموضوع ، لان مرادنا بالتقليد ، ليس هو تقييدنا بتقليد العلماء في كل ما قالوه وحددوه ، بل هو التطريس على آثارهم في استنباط الوسائل التي تقرب المطلوب

من فهم الطالب ، وتزيح النقاب عن وجه الحقيقة ، وتقصر الطريق على الباحث ، وهذه الوسائل ، هي في اكثر العلوم متشابهة ، كالترتيب ، والتبويب ، والمقابلة ، والحكم ، وقد كان هذا التقليد من اعظم اسباب نجاح العلوم والمعارف ، وبلوغها أعلى مراتب الترقي ، وبين التقييد والتقليد بونٌ بعيد ، فاذا تُرك العنان للاذهان الصافية والقرائح السيّالة في ميدان التقليد على الوجه المشروح ، وكان اصحابها من ذوي القدم الراسخة والذوق السليم والمدارك الواسعة في العلوم ، كان الصواب وقف أحكامهم والنفع قرين كلامهم .

واذ قد تقرر ان مذهب التقليد في المباذئ ، والتوسع فيه بما يناسب كل علم وفنٍ ، هو محمود ، فبتُّ الحكم في علم الانتقاد لابدّ منه ، بل هو في هذا العلم اكثر لزوماً ، وأشد ضرورةً من سائر العلوم ، لانَّ الغاية التي يرمي اليها علم النقد ، هي كما علمت ، تمييز الطيّب من الخبيث ، والصالح من الفاسد ، والجيّد من الزيف ، والأحسن من الحسن ، وعلى الجملة تفضيل شيء على شيء آخر من نوعهِ ، فلو جرّدنا علم

الانتقاد من بتّ الحكم فيه ، لكان عملنا ناقصاً ، بل لم يكن معنى للانتقاد .

وقد يقول معترضٌ هب انه يسوغ لنا أن ننتقد ، فاننا لا نسلّم بوجوب بت الحكم في الصناعات الجميلة ، اذ ان الشعر والنثر والتصوير والنقش وسائر هذه الصنائع هي ذوقية ، ولا جدال في الذوق ، وهل من الصواب أن ننتقد ذوق زيد لانه يحب لبس اللون الاحمر فوق الاصفر ، أو لانه يفضل أكل لحم الفرس على البقر ، ثم نحكم بفساد ذوقهِ لهذه الاميال ؟

فالجواب عن ذلك ان الانتقاد واقع منا في جميع الاحوال ، فبقي علينا أن ننظر ، هل يحق لنا أن نبت الحكم في الامور الذوقية أم لا .

أنت تعلم أن الجدال في الاذواق مسئلةٌ عسيرة ، ولكنها ليست من المسائل التي تعصي صحة احكام الناقد ، لانه متى كان سليم الذوق ، نافذ البصيرة ، وحكم أن اللون كذا لا يناسب هذه الامرأة ، وبعبارة أخرى لا يظهر عند لبسه

رونق حسنها كما يظهر بلبس اللون الآخر ، واستشارت المرأة في ذلك خمسين رجلاً من الناقدين البصيرين ، لما خالف عشرة منهم رأي صاحبنا ، وقل في مثل ذلك عن ألوان الطعام . وان رأياً يكون ثمانون في المئة من انصاره ، لهو الرأي الذي يُعوّل عليه ، واحرِ بهِ أن يُجعَل قاعدةً تبنى عليها الاحكام . فاذا صح لنا بعد الذي قدّمته لك ، أن ننتقد ما يتعلق بحاستي النظر والطعم ، ونصدر احكامنا عليهما بموجب القاعدة المتقدمة ، أفما من العجب أن ندافعَ في بت الحكم عند نقد الاعمال العقلية وسائر الصناعات الجميلة ، وكلها كما تعلم خاضعة لاحكام العقل والمقايسة والبرهان .

فقد رأيت مما تقدم بسطه ، أن لا بدّ للناقد من بت الحكم ، ولا تكون الاحكام صحيحة نافذة ، الا اذا صدرت عن اربابها ، أي الحكّام المشهود لهم بالعدل والعلم ، فاذا خالفت قواعد او قوانين ذلك العلم كانت باطلة ، وبعبارة أخرى حيث لا قانون فلا حكم ، فيترتب عن ذلك بطلان زعم القائلين بامتناع وضع قواعد للنقد ، لجعله فنًّا ذا أصول

كسائر العلوم ، وصدق رأينا في وجوب وضع هذه القواعد لتكون هدايةً للطالب والناقد ، وان القول بأن النقد من الفنون الذوقية والوقوف عند هذه الحجة ، قولٌ لا يدعمهُ برهان ولا هو بالبلاغ .

الفصل الحادى والعشرون

في

وظيفة الحاكم في الانتقاد

من المقرر ان الانسان مهما ترقى في درجات الكمال ، وبلغ من مراتب الاعتدال ، لا يتسنى له ان يجرد الانانيـة من نفسه ، فاذا مال به الهوى الى ما لا يستحسنه ، لم يكد يجد به عيباً ، وبالعكس فقد يرى عيوباً في المنقود لنقص في ذوقه ، أو لحقدٍ في نفسه على مؤلف الكتاب أو صانع الشيء ولله در القائل .

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلةٌ
كما ان عينَ السخط تبدي المساويا

فكيف يتأتى لنا والحالة هذه ان نصدر الاحكام، فنقول هذا أخطأ وذاك أصاب، وهذا حسن وذاك أحسن، وكيف يصح الاعتماد على أحكام هؤلاء الحكام من علماء النقد، وهم من هذا الخلق، وفي طباعهم من النقص ما في طباع سواهم؟ وهل لنا سننٌ جدد، أو مقياس مستقيم يعصم أنفسنا من الزيغ، ويرشدنا الى عدالة الاحكام؟

الجواب قال علامة العصر شيخنا اليازجي رحمه الله(١)

ان أول شروط المنتقد ان يكون خبيراً فيما ينتقدهُ، بصيراً بحسناته وعيوبه لئلا يرسل الكلام عن مجازفة وخبط، ويخلط بين الحسنات والسيئات، متمكناً من اقامة البرهان على ما يحكم به، أو عرضه على قياس العقل والذوق الصحيح، كما فعل ابن خلدون في انتقاد بعض أقوال المؤرخين، وكما

(١) مجلة الضياء السنة الثانية صفحة ٢٤٤

فعل الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، وصاحب المثل السائر في المفاضلة بين كل من هذين وابي الطيب المتنبي والاَّ رُدَّ انتقادهُ عليه وعُدَّ جاهلاً او متحاملاً

والشرط الثاني أن يكون بعد علمهِ بحقيقة ما ينتقده ، منصفاً فيما يقولهُ لا يغمط احساناً ولا يموّهُ إساءَةً ، فلا يدّعي للمنتقَد عليه اكثر مما لهُ ، ولا يبخس المحسن أشياءَهُ ، فان ذلك من اعظم مفاسد العلم ، بما يبعث عليه من الاستخفاف بالعلميات ، واهمال التحرّي والتحرز ، او من الانقباض عن العمل ، والاستسلام للقعود والقنوط ، وبما يؤدي اليه من خلط الحقائق على مَن لا اداة عنده للحكم ، فيضيع الحق وراء حجب الهوى وشبهِ الاغراض .

والشرط الثالث أن يتجافى المنتقد عن الغلوّ في المدح والاطراء عند إيراد الحسنة ، او القدح والازراء عند إيراد السيئة ، فان ذلك يؤدي الى الريب في شهادته ويبعث على اتهامهِ بشبهة التشيع او التحامل ، فيُنبَذ كلامه وتسقط الفائدة المقصودة من نقده .

والرابع ان لا يخلط بين ما يرى من صنيع الشخص الذي جعله محلاً لانتقاده ، وما يعلم او يظن من حالهِ في خاصة نفسه ، فان وظيفته في تلك الحال ، ان ينتقد الكلام من حيث هو كلام ، لا من حيث قائلهُ فلان ، فكم من الناس من تظنهم عند الذكر والسمعة شيئاً ، وتراهم عند ما تبلو أقوالهم وعقولهم ، شيئاً آخر .

والخامس ان لا ينظر الى ما بينه وبين من ينتقد كلامه ، من السوابق الشخصية ، من مودة او موجدة ، لان انفعال النفس بالشخص يحول دون ادراك البصيرة واصابة حكمها بحيث يصير الانتقاد تعصباً او تعنتاً ، وهو احد عيوب النقد عندنا ، بل اعظمها وأشيعها واكثرها اضراراً بالعلم والآداب ، حتى ترى المنتقد بينا يتكلم في العبارة مثلاً اذ يخرج الى ذكر العيوب الشخصية ، مما لا دخل لهُ في تلك الحال ، فيعود الانتقاد ضرباً من الشتم والانتقاص ، وتضيع الحقيقة المقصودة من هذا الفن الجليل والله اعلم

وقد جمع الاستاذ رحمه الله جُلَّ ما يليق ان يتحلى به الناقد عند الحكم، ولكن يعترض المعترض فيقول هب ان الحاكم كان جامعاً هذه الشروط، فمن لهُ بأن يجرّد نفسه من ميلها الغريزيّ، كأن يكون ممن يميلون الى الاسجاع ويقرأ الرسالتين الآتيتين وهما في معنى واحد، والاولى للبديع الهمذاني كتبها الى رجل ارفع منه قدراً كما يتبين من نصها قال :

ويا عزُّ إن واشٍ وشى بيَ عندكم
فلا تمهليهِ أنْ تقولي لهُ مهلا
كما لو وشى واشٍ بعزَّةَ عندنا
لقلنا تزحزحْ لا قريباً ولا أهلا

بلغني اطال الله بقاء الشيخ أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره، ولا الصدق ظهوره، وأنهُ أدام الله عزه، أذن لها على مجال أُذنه، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله ان اقولها، وأستجيز معقولها، بل قد كان بيني وبين الشيخ الفاضل عتاب لا يُنزل كنفه ولا يُحذَف،

وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ولا يُعرف ، الشفةُ وسميرها ، وعربدة كعربدة اهل الفضل لا تتجاوز الدلال والادلال ، ووحشة لا يكشفها عتاب لحظة ، كعتاب جحظة ، فسبحان من ربّى هذا الامر حتى صار امرا ، وتأبط شرا ، واوجب عذرا ، واوحش حرّا ، سبحان من جعلني في جنب العدوّ أشيم بارقته ، وأستجلي صاعقته ، وأنا المُسآء اليه ، والمُجنى عليه ، لكن مَنْ بُلِيَ من الاعدآء بمثل ما بليت ، ورُمي من الحسد بما رُميت ، ووقف من التوحد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، اعتذر مظلوماً ، وضحك مشتوماً ، ولو علم الشيخ عدد أولاد الجدد ، وابناء العدد بهذا البلد ، ممن ليس لهم همٌّ الاّ في سعاية او شكاية ، او حكاية او نكاية ، لضنّ بعشرة غريب اذا بدر ، وبعيد اذا حضر ، ولصانَ مجلسه عمن لا يصونه عما رقى اليه ، فهبني قد قلت ما حُكي ، أليس الشاتم من اسمع ، والجاني من بلّغ ، فلقد بلغ من كيد هؤلآء القوم ، انهم حين صادفوا من الاستاذ نفساً لا تُستفز ، وجبلاً لا يُهزّ ، وشوا الى

خدمهِ بما ارسوا نارهم ، وورد عليّ ما قالوه ، فما لبثتْ أن قلت :

وان تكُ حربٌ بين قومي وقومها

فاني لها في كل نائبةٍ سَلْمُ

وليعلم الاستاذ انّ في كبد الاعدآء مني جمرة ، وان في اولاد الزنا عندنا كثرة ، وقصاراهم نار يشبُّونها ، وعقرب يدبونها ، ومكيدة يطلبونها ، ولولا ان العذر اقرار بما قيل ، واكره أن أستقيل ، لبسطت في الاعتذار شاذروانا ، ودخلت في الاستقالة ميدانا ، لكنهُ أمر لم أضع اوّله ، فلم أتدارك آخره ، وقد أبى فلان ايّدهُ الله الا ان يوصل هذا النثر الفاتر ، بنظم مثله ، فهاكهُ يلعن بعضه بعضاً :

مولايَ ان عدتُ ولم ترضَ لي

أن أَشربَ البـاردَ لم أشربِ

امتطّ خدّي وانتعلْ ناظري

وصِدْ بكفّي حمةَ العقربِ

فالصفوُ بعد الكدرِ المفترَى
كالصحوِ عقبَ المطرِ الصيّبِ
إن أجتنِ الغلطةَ من سيّدٍ
فالشوكُ عند الثمرِ الطيّبِ
أو يفسدُ الزورُ على ناقلٍ
فالخمرُ قد تُعصَبُ بالثيّبِ

ولعل الشيخ فلان أيّده الله يقوم من الاعتذار بما قعد عنهُ القلم والبيان فنعم رائد الفضل هو والسلام .

والرسالة الثانية للعلامة ابن خلدون جاوب بها الوزير ابن الخطيب وهو من اقرانهِ علماً ومنزلةً وهذا نصها :

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي والعروة الوثقى التي اعتلقتها يدي .

أُسلّمُ عليك سلام القدوم على المخدوم ، والخضوع للملك المتبوع ، لا بل أُحييكم تحية المشوق للمعشوق ، والمدلج للصباح المتبلّج ، وأُقرر ما انتم اعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم ومعرفتي بمقداركم وذهابي الى أبعد

الغايات في تعظيمكم والثناء عليكم والاشارة في الآفاق بمناقبكم ديدناً معروفاً وسجيةً راسخة يعلم اللهُ وكفى بالله شهيدا ، وهذا كما في علمي أسنى ، ما اختلف أوّلاً ولا آخرا ، ولا شاهداً ولا غائباً ، وأنتم اعلم بما تعني نفسي واكبر شهادة في خفايا ضميري ، ولو كنت[1] ذلك ، فقد سلف من حقوقكم وجميل اخذكم واجتلاب الحظ لو هيأهُ القدر لمساعيكم ، وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم ، ما يستلين معاطف القلوب ويستلّ سخائم الهواجس ، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة ، او إخفار وطن ، ولو تعلَّقَ معلقَ ساقِ حُرٍّ زرٌّ زور ، فحاشَ للهِ أن يقدح في الخلوص لكم ، او يرجح سوابكم ، انما هي خبيئةُ الفؤاد ، الى الحشر واللقاء ، ووالله وجميع ما يُقسَم بهِ ، ما اطَّلع على مستكنّهِ مني ، غير صديقي وصديقكم الملابس كان لي ولكم ، الحكيم الفاضل

(١) نُقل الى ابن الخطيب ان ابن خلدون واجدٌ عليه لما سبق من سعي ابن الخطيب في تحويل رأي سلطانهِ عنهُ ، فكأنهُ يريد ان يقول ولو كنت ذلك العاتب او الحاقد فقد الخ

فلان أعزَّهُ الله ، نفثة مصدور ومثابة خلوص ، اذ أنا اعلم الناس بمكانه منكم ، وقد علم ما كان مني حين مفارقة تلمسان واضمحلال امره ، من اجماع الامر على الرحلة اليكم ، والخفوق الى حاضرة البحر للاجازة الى عدوتكم ، تعرضتُ فيهم للتهم ووقفتُ بمجال الظنون ، حتى تورطت في الهلكة ، ولولا حسن رأيه فيَّ وثبات بصيرته ، لكنتُ في الهالكين الاوَّلين ، كلُّ ذلك شوقاً الى لقائكم وتمثُّلاً لأُنسكم ، فلا تظنوا بي الظنون ولا تصدقوا التوهمات ، فأنا من قد علمتم صداقةً وسذاجةً وخلوصاً ، واتفاق ظاهرٍ وباطن ، أثبت الناس عهداً ، وأحفظهم غيباً ، وأعرفهم بوزان الاخوان ومزايا الفضلآء . . . الى ان يقول وافدتُ من كتابكم العزيز الجاري على سنن الفضل ، ومذاهب المجد ما كيَّفهُ القدر من بديع الحال لديكم . . . بعد أن رضتم جموح الايام وتوقَّلتم قلل العز ، وقُدتم الدنيا بحذافيرها ، واخذتم بآفاق السمآء على اهلها ، . . .

والله يلحفكم رداء العافية والستر ويمهد لكم محل الغبطة

والامن ويحفظ عليكم ما اسبغ من نعمته ويجريكم على عوائد لطفهِ وعنايته والسلامُ الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم عبد الرحمن بن خلدون .

فقد يحكم الناقد المائل الى السجع أن رسالة الهمذاني لها السبق بما احكم من اسجاعها ، بيد أن هذا الحكم من شذوذ القواعد ، وانت تعلم ان لكل قاعدة شاذاً ، وهذه الشذوذ لا تكون حجةً لتقويض القواعد ، بل هي تأييدٌ لها كما هو معلوم .

وانت اذا انعمت النظر في الرسالتين المتقدمتين ، وكنت ممن ألمَّ بعلم النقد ، وممن رُزق ذوقاً سليماً ونظراً صادقاً ، رأيت الفرق الكائن بينهما ، ومنحتَ ابن خلدون غايات السبق والتبريز ؛ فانه أتى بالكلام الفصيح الجزل ، والتركيب المعجز السهل ، بغير كلفة ولا تقعُّر ، صادراً عن القلب ، معرباً عن الصدق والاخلاص ، دالاًّ على سلامة القصد والنية ، هابطاً من معالي مكارم الاخلاق ؛ مرتدياً

سذاجة الاكابر من الفلاسفة ، مشتملاً على اقصى الكمالات الانسانيـة ، جارياً مع هوى القريحة ، فان قال الغاشية ، لم يفتش عن قافيتها فيقول الآنية ، وان ذكر نعجه ، لا يضطره السجع ليقفي لهـا بعجه ، الي غير ذلك مما يأسرُ لهُ الساجع قلمه ، فلم ينكر ما عُوتب عليه ، ولا رمى الناقل بسهام اللعن والشتم ، بل اكدَّ عتبهُ الاول بألطف منه ، ودعمه بوداد اوكد ، وثبّت اخلاصه بقواعد قويه ، وحقق وفآءه ومحبته واحترامه لابن الخطيب حتى لم يدع ريبةً في نفس مستريب.

وأين منهُ الهمذاني وقد وخزهُ صدق العتاب ، فلم يرَ درعاً يتّقي بها اللوم ، ولا سلاحاً يدفع به عن نفسه تلك السعاية ، غير السب واللعن ، فتقلد بتّار اليراعة ، واندفع يوسع الناقل ضروباً من الشتم والسب

فافتتح كتابه بقيضة كلب ، ثم عاذ بأشد الانكار لما نقل عنه ، ثم لاذ بلوم المعاتب ، ثم لم يلبث ان نسب الى معاتبه الجليل ، الاسآءة ، وانه الظالم وهو المظلوم ، ثم لم يكفه ذلك حتى تأفَّف من موقف دعاهُ الى المدافعةِ عن نفسه ،

ثم لم يرض للناقل ، الاّ ان يضمهُ في عداد اولاد الزنا ، وختم كتابه متثاقلاً مستعظماً على نفسهِ بسط الاعتذار ، فرأى ان يوسع لذلك ميدانا ، ويتخذ له شاذروانا ، — وبالله هل رأيت أبرد من هذا الشاذروان في هذا الموضع ؟ — ثم لم يقف عند هذا الحد ، كأنه خشي أن تبقى رسالته هذه بتراء من مسك الختام فضمّخها باللعن والنعل والعقرب وجمع في آخر بيت من شعره فيها ، الفساد والزور ، ووكّل بعد ذلك ، الشيخ أبا محمد ، ان يقوم بالعذر عن قلمهِ الذي قعد ، فتأمل

ثم انك تعلم ان الناقدين هم من أفراد هـذا الخلق ، الاّ ان كثيراً منهم ، لم تجتمع لهُ كل الاخلاق الفاضلة ، اذ النقص من الصفات البشرية ، فاذا كان الناقد حقوداً وقرأ الرسالة الآتية

علمت انك انتقصتني وهل في الناس كامل ، واغتبتني ولا يتعمد الغيبة عاقل ، والبست رسالتي من العيوب ثوباً طويلا ، وتمحلتَ لها من الزلاّت والذنوب عبئاً ثقيلا ، وانا لا ادفعك فيما قلت ، ولا أخاصمك فيما عبت ، فقد

يكون فيّ بعض الذي وصفت او كله ، وفي رسالتي ضعف ما ذكرت أو جلّه ، ولكن أسألك أن تنظر أولاً الى نفسك ، وتحاسبها بما تحاسب به أبناء جنسك ، فان وجدت فيها بعض ما فيهم من المساوي ، فما أحراك بالكف عن ثلبهم والاقصار عن تلك الدعاوي ، ولعلك ترى في بعضهم من المزايا الشريفة ، ما تتمنى لو تحلّت بمثلها نفسك العفيفة ، وان رأيت انك منزّه عن العيوب وفي ذلك صوابك قضى ، فما أجدرك بان تتّهم عينك بكونها عين الرضى ، وترجع عند ذلك الى حكم لا يحابي ، فلعله يعرّفك انك كنت المغرور المتغابي ، وانك لو أنصفت نفسك لاشتغلت باصلاح ما فيك ، ولم تترك مجالاً لغيظ محبّيك وشماتة أعاديك ، ورحم الله امرأً عرف حدّه ، ولم يتعدّه ، والسلام على من اتبع الهدى.

ثم قرأ لابي بكر الخوارزمي من رسالته الى البديهي الشاعر وقد زعم انه عبث به ما يأتي

لست أعاتبك عافاك الله لان العتاب يصلح منك أو يعمل فيك أو لأن جهلك جهل يعالج بالعذل ، أو يداوى

داؤهُ بالقول ، كلا عافاك الله تعالى جهل الناس عرض وجهلك جسم لا يزول الاّ بالفعل ، ولا يقع دواؤهُ الاّ من الكف والنعل ، ولكني انما أردت بهذه الرسالة ان تتوجه عليك الحجة ، وان تنقطع عنك العلاقة والعلة ، وان كانت تردمنك على عين عمياء ، واذن صماء ، وقلب لا يعرف النقصان الاّ في ما له ، ولا يحسّ بالالم الاّ في جسمه ، ولا يجد للنقص مِساً ، ولا للعيب وقعاً ، ولقد عفقتُ هذا الكلام بك وضيعته فيك ، ووجهته منك الى من نُزّهَ عنهُ العتب لغباوته والشتم لحقارته . . . ياغداة الفراق ، وكتاب الطلاق ، يا موت الحبيب ، وطلعة الرقيب ، . . . يا كنيف السجن في الصيف ، يا شرب الخمر على الحشف ، يا جشاء من أكل فجليه ، وفساء من أكل قنبيطيه ، . . يا شماتة الاعداء ، وحسد الاقرباء ، وطوارق الارض والسماء ، وخيانة الشركاء ، وغش الاصدقاء ، ومشاتمة السفهاء ، (وهل بعد هذا الكلام من سفاهة) . . . هذه رحمك الله هدية أهديتها اليك ، بل هدى من العرأس جلوتها عليك . وما

مهرها الا فقدك ، ولا ثمنها الا بعدك ... وأنت خطبت هذه الكريمة بلؤم نجرك ، وصغرك قدرك .. فخذها مباركاً لك فيها فبئست العروس وزوجها شرٌّ منها.

قلت لو قرأ هاتين الرسالتين ناقد بُلي برذيلة الحسد ، كان للرسالة الاخيرة في صدرهِ رقصة طرب يكاد يطير لها فرحاً ، ولرأى لها كمال الفضل على الرسالة الاولى . وقل مثل ذلك عمن كان متعجرفاً ، أو حزين الطبع ، أو ممن يميل الى اللهو واللذات ، أو غير ذلك من الرذائل والاميال ، فانه اذا انتقد شيئاً مما له في نفسه هوًى ، فقد يرى لهُ الفضل على نقيضه ، بل قد يستنبط لهُ بقوة ذكائه بعض المزايا ، أو أنه يرى بعض عيوبه حسنات ، وان لم يجدها حسنات ، فقد يمر عليها دون ان تتنبه لها بصيرته النقَّادة .

فاذا كنت ممن آتاهم الله صدق النظر في النقد ، ووقفت على كلام ناقد من هذه الطائفة كشفت الامرين ، أي قصور المتفنن وقصور الناقد ، وهذا من أبعد مرامي النقد وأعظم أسراره فتفهم ذلك .

ينتج مما تقدم ان النـاقد ، اذا كان مقلداً ، أو خاضعاً لهوى النفس ، أو غير خبير بما ينتقده ، ولم يوازن بين ما ينتقده ، وما هو من نوعه ، كأن يكون ممن يعترف بالفضل لمن تقدم زمنـه ، لا لمن تقدم فضله ، فيرى السبق لشعراء الجاهليـة جميعاً على المتنبي ، ويصم أذنه عن سحره في شعره وقوله .

ما نالَ أهلُ الجاهليـة كلُّهم
شعري ولا سمعت بسحري بابلُ

أو كأن يكون ممن يرى الحسن بالمباسم الفلج وان لم يزنها حسن النطق ، أو بحمرة الخدود وان لم تكن من صنعة الخلّاق ، وان الفصاحة بالصوت الشديد ولو كان طبلاً أو بوقاً ، فلا يرى مزية للدرة اليتيمة لابن المقفَّع ، ولا لمقدمة ابن خلدون لخلوهما من السجع ، وقد يجد طُلاوة وأدباً لمقامات البديع ، وفيها أمثـال الرصافيـة والدينارية ، وذلك لشغفه بالسجع . ونقص خبرته بما ينتقد ، أو لجهله الموازنة التي هي من دعائم هذا الفن ، أو لغروره بنفسه ، وانتفاخه بالتـافه

الذي حصلّه .

فوظيفة الحاكم في النقد اذن ، ان يكون على بيّنة من أمره ، مشهوداً له بالعلم الصحيح والملكة الراسخة ، لكيلا يُعَدَّ نقده شططاً ، وحكمه اعتسافاً وخلطاً .

الفصل الثاني والعشرون

في

بعض شروط الناقد ايضاً

ومن شروط الناقد ان يمضي الفصل أو المقالة التي يكتب فيها انتقاده ، لان المساجلة لا تكون الاَّ بين الاقران ، فاذا تعرَّض لك بالانتقاد ، مَن هو دونك علماً وأدباً تركته وشأنه ، وبعكس ذلك اذا كان الناقد من أندادك أو ممن يفوقك معرفةً وفضلاً ، وكان عندك ما تدفع به استدراكه تحتم عليك الجواب ، والاَّ عُدَّ سكوتك اعترافاً بصواب تعقبه .

وقد جرت عادة لبعض حديثي النقاد من الانكليز والالمان ، ان ينشروا فصول نقدهم خالية من امضاءاتهم ، زاعمين ان شهرة الكاتب ، تؤثر في رأي القارئ ، فان كان من الخاملين ، لم يُعبأ بقوله وان وقع على الصواب ، وان كان من النابهين ، عُدَّ خطأهُ فصل الخطاب ، وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة ، اذا كان القصد من الرأي رأي عامة الناس ، واما ان يكون ذلك صحيحاً ينطبق على الفضلآء والخاصة من القرآء ، فهو زعم باطل ، يلزم منه ان جمهور العلمآء وغيرهم من الخاصة يجرون على مذهب التقليد بل انهم مقلّدون ، وهذا مردود .

ولهذا فانك قل ان تجد فصلاً في النقد للكتاب من الفرنسيس ، خلواً من الامضآء ويحسن بنا التشبه بهم لاسباب . منها ان الناقد اذا علم ان احكام هذا الفن تقضي عليه باظهار اسمه ، اضطره ذلك الى التثبت فيما ينتقد ، فلا يطلق العنان لقلمه في التهكم ، أو الطعن ، أو السب ، كما جرت عادة في ذلك لبعض المغرورين من مدعي هذا الفن عندنا .

ومنها وقوف هؤلاء المنتفخين عند حدهم ، فلا يجسرون على التعرض لمن كان أوسع منهم علماً ، وأرفع منزلة في الفضل ، بل اذا دفعهم الغرور الى مثل ذلك ، تمويهاً على القرآء ، فضحهم اسمهم ، لمعرفة الناس ما بين هذا الناقد وذاك المنقود كلامه ، من تفاوت الرتبة في عالم الفضل ، وكان نصيب تصديهم الخذلان ، والاعراض عن مجاوبتهم صوناً للعرض ، ورحم الله شيخنا وهو القائل

ليسَ الوقيعةُ من شأني فان عَرَضتْ
أعرضتُ عنها بوجهٍ بالحياءِ ندي
اني أضنُّ بعرضي ان يلمَّ به
غيري . فهل أتولَّى خرقَهُ بيدي

ومن شروط الناقد ان لا يخرج في نقده عن موضوع الكلام عن الشيء المنقود ، كأن يأخذ في انتقاد كتاب في الهندسة ، فيتعرض لطبقة عبارته من حيث الفصاحة ، أو كأن يكون في نقد كتاب تأريخٍ أو علمٍ آخر كالهيئة أو الطبيعيات ، فيتصدى لجملةٍ منه غير بليغة أو لهفوة نحوية ،

أو لغلطة طبع ، وهذا كله خارج عن وظيفته في تلك الحال ، بل هو دليلٌ على تعنّتهِ وتحذلقهِ ، فليست البلاغة من شروط كتب العلوم والفنون ، بل هي كما تعلم من لوازم كتب الادب والخطابة ، والرسائل ، ويُرجع في تعلمها الى كتب البيان ، وأما الزلات النحوية فلستَ تجهل كثرة اختلاف النحويين ، نعم انه يُصار الى الافصح والمُجمَع عليه ، ونقد ذلك يجب ان يكون فيما يكتب لتعليم النحو أو ما يشا كله من الكتب التي تُدرَّس بها تلامذة المدارس ، وأما التنقيبَ عن هفوةٍ نحوية في كتاب من كتب الطب أو الجغرافيا فهو من التعنت بمكان .

وأم الشروط في هذا الباب ان لا يقدم الناقد على الانتقاد ، الاَّ بعد ان يطلب من نفسه ما يطلبهُ من الناس ، فيسومها تأليف كتيّبٍ أو رسالة في الفن الذي يتصدى لنقده ، ثم يعرض ما الَّفهُ على جهابذة ذلك الفن ، فان حكموا له بالاجادة ولم يخطئوه ، وهيهات ! أخذ بالوثيقة في أمره ، واتَّأَد في نقده ، ولزم جادة الانصاف ، لمعاناته شيئاً مما قصد

انتقاده . ولله در القائل

لا يعلم الشوقَ الاَّ من يكابدُه
ولا الصبابةَ الاَّ مَن يعانيها

وان قلتَ ان العارفين حدودهم من الناس ، العالمين بقصورهم ، المنصفين باحكامهم قليل ماهم ، فمن يردع الناقدين المغرورين ، عن الزيغ والعيث في هذا المطلب الجليل ؟

قلتُ ان قناعة المرء بما عنده ، من علمٍ أو مال ، أو فصاحة أو جمالٍ أو جاه ، أو غير ذلك ، لمما يعصمَ نفسه عن المعاصي ، فلا يطمح بصره نحو ملك سواه ، وبالتالي فلا يتولد في قلبه حسد له من جرى ذلك الطموح فيدفعه الى النقد الخاسر ، والحكم الجائر ، فان كان جاهلاً ، أو مغروراً ، أو لم تكن عنده قناعةٌ ، فلا أقل من خوفه ذم الناس له ، وتصديهم للقدح والطعن فيه ، لشططه وسوء نيته ، فان عدم الحياء ، فسجّله في عداد الضالّين القاسطين ، واعلم ان ذلك لا يضير علم الانتقاد مثقال ذرة ، فليس على العلم أو واضعه ، ان يقيدا الاهوآء الطامحة ، أو يلجما الانفس الجامحة ، بل من أين لهما

ذلك ، والغرور فاشٍ في كثير من هذا الخلق ، والحسد لا تخلو منه بقعةٌ من الارض ، وحسبك ان تتيقن ، ان الدنيا لا تعدم من وقت لآخر ، ناقداً منصفاً ، وحاكماً عادلاً ، ينصب ميزان النصَفَة بين الظالم والمظلوم ، والعالم والمدعي بالعلم غروراً ، فيأخذ كلٌّ منهما نصيبه ولو بعد حين ، فما ضاع حقٌّ على طالبه .

⁂

الفصل الثالث والعشرون

في

بعض فوائد هذا الفن الجليل

قد عرفنا مما تقدم ، اننا اذا دققنا النظر تدقيق ناقد بصير في كلام الكاتب ، مكننا ذلك من كشف أسراره ، أي من الوقوف على أخلاقه وأمياله ، والاطلاع على المستور من أحواله ، وبهذه الوسيلة ، ملك النقد زمام الاهواء وتسلط على الافكار.

ولما تصدر الانتقاد في مجلس العلوم ، وأُلقيَت اليهِ مقاليد الاحكام ، طفق بالسلطان المنزَل اليه من جماعات المعارف والفنون ، يفصل الخصومات ، ويقضي بتقدّم هذا على ذاك ، وبانكار قولٍ ، ورذل غيره ، وقبول رأيٍ ورفض آخر ، وكشف غامضٍ ، واظهار غلط ، ونقض وهمٍ ، ونشر فضلٍ مطويّ ، واذاعة عيبٍ مستور ؛ وفي كل ذلك كان نافذ الحكم مُطاعاً لا يُعصى لهُ أمرٌ ، ولا تخفى عليه خافية ، ولا يداهن ، ولا يخشى في الحق لومة لائم ، سيبويه النحو وخليل العروض ، ارسطو الحكمة وغاليلاي الهيئة ، جالينوس الطب ورافائيل التصوير ، وعلى الجملة ، فانهُ الجاسوس والعسس ، والشُرْطة والمشتكي ، والشاهدان والقاضي ، يحكم برفع من يريد ، واذلال من أراد.

فهاب سلطانهُ وسطوة أحكامه ، الحاكم الجائر ، والصحافيّ المخرق ، والكاتب الطائش ، والمؤلف الهاذر ، والشاعر الماجن ، والعالم المضلل ، والمادح المداهن ، والخطيب الغاوي وسائر المتفننين وأهل المعارف ، وذلك

لما للناقدين البصيرين المنصفين ، من شدة التأثير في العقول ، بصدق الحكم والاصابة في اظهار أخفى السرائر ، ولا عجب في ذلك فان السهم اذا توجه باستقامة ورُمي بقوةٍ أصاب الغرض ونفذهُ .

ولما قام النقد خصماً شديد الشكيمة في وجه فوضى الاقلام ، بل في وجه الفوضى بالعموم ، لجم الالسنة عن الهذيان ، وقيد الاقلام عن الجري في ميادين الغلط ، ووضع حدوداً للمُجون والخلاعة لا تتجاوز معاهد الحشمة وثغور الآداب ، وسن شرعاً قويماً لكل كاتب ، عماده احترام القارئ ، ذلك بان يضع نصب عينيه حال كتابته ، ان تأليفه قد يقع في أيدي ذوات الصون والعفاف من ربات الخدور ، وقد يقرأهُ فتيان المدارس ، ويطلع عليه ذوو العلم الراسخ والنقادون ، فيضربون بهِ عُرْضَ الحائط ، أو يجعلون كلامه هدَفاً لسهام نقدهم ، فلا ينصرفون عنه حتى يمسي ممزّقاً كل ممزّق .

ولما كان هوى عامة الناس في جميع الامم ، تابعاً لهوى

أفرادهم من الاكابر والعقلآء ، يستحسنون ما استحسنوه ، ويغضبون لغضبهم ، لا يتفلسفون، ولا يبحثون عن الاسباب، لم يكن عسراً على بعض المشعوذين من باعة الكلام ، ان يروّجوا بضاعتهم المزجاة في سوق المغفّلين والجهلآء ، وهي أوسع أسواق الدنيا وأكثرها مستامين ، فكثر الزور ونفق المحال ، وبيع الحرام بسعر الحلال ، وقام كثير من أصحاب الصحف دلاّلين في تلك السوق ينادون بأعلا أصواتهم ، مطنطنين مموّهين ، مرغّبين مضالّين ، وكثر التقليد، وتجاوز الناس حدودهم لما كثر لديهم من المال ، فرام الجزّار تقليد الجوهريّ ، والحائك تقليد التاجر ، بالملبوس والمفروش وغير ذلك ، وعلى الجملة فقد رام الادنى محاكاة الاعلى ، ولا آلة لديهم من الذوق والفهم والعادة ، بل لا آلة لديهم من آلات أكابر الناس وأشرافهم وعلمائهم ، سوى المال ؛ فبذلوا في صورةٍ من تصوير صغار المصورين ، ما يفي ثمن احدى تصاوير لاوناردو دي ڤينجي، لتوهمهم انها اياها، وفي طنفسة معتقة ، اقنعهم بائعها انها قطعة من خيمة عرس

الاسكندر ، او انها الخيمة المذكورة بعينها ، أو هي مظلّة سيف الدولة ملك حلب ، وان لم تكن هذه ولا تلك ، فهو يزعم انها الطنفسة التي صنعت في القيروان بأمر المعزّ لدين الله الفاطمي ، فجاز عليهم ذلك ودفعوا فيها مالاً جزيلاً ، وهم لا يعلمون من كم سِلك فتلت خيوط نسجها ، ولا بايّ صبغٍ صُبغت . وبذلوا اكثر من ذلك في في برنيّةٍ من الخزف الصيني ، اكّد لهم بائعها انها احدى القطع الثمان التي وجدت في نواويس فراعنة الدولة الثامنة عشرة في ثيبة (منذ ٣٤٠٠ سنة) وهؤلاء المشترون الجهّال المقلّدون ، لا يعلمون شيئاً من طين هذا الخزف ، ولا نوع العجينة الطرية من الشديدة ، ولا كيف تُكبَس وتُطرَق وتُنشَّف وتُصنَع وتُدهَن وتُشوَى ، بل هم لا يعلمون شيئاً من الدهان الذي تُدهن به ، ولا كيف يُصوّر على الاواني الخزفية ، ولا مزية الغضار الشفّاف البلوريّ من سواه ، وبالجملة لا يعلمون بماذا يتم حسنه ، ولا الاصلي من المقلّد .

ثم انهم قد يجادلونك في مسئلة من مسائل العلم والسياسة ،

ولا برهان عندهم لتأييد زعمهم ، سوى قول الصحيفة كذا ، أو الكاتب الفلاني .

ولا يخفى ما وراء ذلك من اضاعة المال ، وبخس الحقوق ، والتدرج الى اضمحلال كثير من الفوائد العصرية وحسنات الحضارة .

ولا كالنقد علم يفي بهذا القصد الشريف ، ويقوم بهذه الخدمة النافعة ، فبينا صاحبنا مفتون بصورته يحسب انه قد حاز أعز الكنوز ، اذا بالناقد يصوّب حدة بصره نحو تلك الصورة ، ويجيل فيها أشعة نظره ، ثم لا يتمالك ان يقول له ، ليس في آدمك هذا من النشاط ، والقوة ، والحركة ، وتناسب الاعضاء الصحيحة ، وصفوة الذكاء ، والجلال ، والحياة التي تأخذ بابصار الناظر الى صورة آدم ڤينجي ، وتسترق لبَّهُ بما أودعت فيها قريحته السامية من محاسن الصناعة ، ودقة التخيّلات ، واشتمالها على أدق الدقائق ، بحيث انه لم يذهل عن أخفى حركةٍ من حركات العضلات في الجسم كله ، مما قد يعزب عن فطنة أمهر علماء التشريح ،

فاعطى كل عضوٍ حقَّه ، وأتم خلقه وتصويره ، واستوفى صنعه بما يقتضيه الوضع الطبيعي الذي صوَّره به . ثم أين حوَّآؤهُ من حوَّآئك ، وسمآؤهُ من سمآئك ، وارض فردوسه ونباتها وحيوانها التي يخالها الرآئي حقيقة لا صورة ، واجساماً لا أوهاماً ، فلم يغفل عن طفيف أو دقيق من أعضآء الحيوان وحركاتها وتنوع ألوان النبات والازهار ، الا أبرزه باتقانٍ هو الاعجاز . ومَن يدانيه في سمو التخيلات ، وشرف التصورات ؛ وهو يريك ان لا جمال في الكون يفوق جمال الجسم الانساني !

ومَن ترى ينظر الى صورته تلك ، ولا يشهد ان أجمل واكمل ثوب يليق بآدمه وحوآئه هو العُرية ، وان لا حسن لثوب في الكون فوق حسن هذا العري ، وأما آدمك هذا وحوَّآؤهُ فما أحراهما بثوبين يستران عريهما ، وباحسان يريش فقرهما .

وقد يعرض عليه صاحب الطّنفسة طِنفستَه ، فيقول له بغير خجل ، لستُ ممن يحسن النقد في هذا الباب ، فعليك

بفلان ، وكأني به وقد عرضها على ابن بجدة هذا الفن من النقادين ، فلا يلبث ان يقول له ، لقد خدعك البائع ، فليس في طنفستك مزية تحقق أوهامك ، فان خيمة الاسكندر كانت كما هو معلوم ، تُرفع على خمسين عموداً مذهبّاً ، وكانت مطرّزة أو موشّاة بالذهب وكانت تظلل مئة فراش ، وطنفستك هذه لا تظلل خمسة فرش ، ولا أثر فيها للذهب المطرّز ، اذن لا يمكن ان يكون بينها وبين الخيمة المذكورة شَبَهٌ . وأما مظلّة سيف الدولة فلم تكن من هذه الطنافس ، وقد وصفها لنا شاعره المتنبي أحسن وصف فقال

عليها رياضٌ لم تحُكها سحابةٌ
وأغصانُ دوحٍ لم تُغَنّ حمائِمُهْ
وفوقَ حواشي كلّ ثوبٍ موجّهٍ
من الدرّ سِمطٌ لم يثقّبهُ ناظمُه
ترى حَيَوَانَ البرّ مصطلحاً به
يحاربُ ضِدٌ ضِدَّهُ ويسالمُهْ

اذا ضرَبَتْهُ الريحُ ماج كأَنهُ
تجولُ مذاكيه وتدأى ضراغِمهْ
وفي صورة الروميّ ذي التاج ذِلَّةٌ
لِأَبلَجَ لا تيجان الاّ عمائِمُهْ

نعم ان في طنفستك هذه رياضاً وأغصاناً وحمائم ، ولكن أين أنواع الحيوان التي وصفها لنا الشاعر وصف معاينٍ ، كالخيل والاسود ، ثم حروب هذه الاخيرة مع أضدادها ، وأين صورة ملك الروم بتاجه المشار اليه في الابيات ؟ وبعدُ فقد شرح لنا المتنبي كيف كانت تلك المظلة ، فعرفنا انها كانت من الديباج المصور حال نسجه وحياكته ، وكانت مؤلَّفةً من عدة أثواب حيكت ونُسجت لتكون مظلّةً ، ولما جُمعت وخيطت ، رقموا فوق حواشي الأثواب الموصول بعضها ببعض حبَّاتٍ من الابريسم الابيض كالدرر ، بدل السفيفة التي يرقمونها لعهدنا هذا فوق حواشي الأثواب ، لأَمثال هذه الخيمات .

أما طنفسة المعز لدين الله الفاطمي ، فان البائع الماكر

يجهل ولا زيب صفاتها ، والاّ لما تجاسر ان يخدعك بقوله قد تكون هذه تلك ، فقد بلغت نفقتها كما حقّق المؤرخون أثنين وعشرين الف دينار ، وكان مرسوماً عليها صورة الكرة الارضية بجبالها ، وبحارها ، وأنهارها ، وبلادها ، وبشكل أوضح مكة والمدينة ؛ وكان مكتوباً بجانب كل موقع ، اسمه باحرف عربية ، من خيوطٍ مؤلفة من الحرير والفضة والذهب .

فقد رأيت ولا شك الفرق العظيم الكائن بين طنفستك هذه ، وما ذكره لك البائع الخادع ، فان طنفستك ، ليس بها غير الحرير ، وصورها غير متقنة ، وألوانها ليست بمتناسبة ، وهي دون ريب قريبة العهد ، ولعلها لا تتجاوز القرن السادس عشر ، وهي من عمل مدينة أصفهان .

أما صاحب البرنية ، فلو عرض برنيته على ناقد من نقّاد هذا النوع ، لأوقفهُ على الخدعة التي خدعوه بها ، فان صناعة الخزف لا يمكن أن تتجاوز ، الالفي ومئة سنة من هذا العهد ، وقال بعض المحققين ، ان هذا الاختراع كان في السنة الثامنة

والثمانين للمسيح .

ولو أردت عدّ الفوائد التي حصلت لسائر العلوم من النقد ، لما وجدت الى ذلك سبيلا ، بل لو شئت ايراد بعض الشواهد على ذلك ، لوقعت في حيرة ما بعدها حيرة . أأبدأ بعلم الهيئة وقد ظل الناس ألوفاً من السنين ، يظنون ان الشمس والقمر لخدمة الارض يدوران ؟ أم بعلم الجغرافية وقد كانوا يتوهمون ان الارض ثابتة مسطحة أو اسطوانية الشكل مستقرة على قواعد ؟ أم بعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) وقد كانوا يعتقدون عمر الارض لا يزيد على بعض ألوف من السنين ؟ أم بعلم التأريخ وكانوا يخلطون الحقائق بالاكاذيب والخرافات ويخبطون فيه أي خبط ؟ أم بعلم الكيمياء وقد ظلوا يشتغلون احقاباً متطاولة بخلط القصدير والنحاس والفضة والذهب ، وتذويب هذه المعادن ، لتحويلها الى ذهب أو فضة ؟ أم بعلم الطبيعيات وقد بقي علماء الارض دهراً طويلاً ، يزعمون ان لا حد لسرعة النور ، ولا يعلمون شيئاً من شرائع الجاذبية ، سوى انجذاب الاشياء الخفيفة نحو

الكهرباء المفروكة ، ولا من اشعاع الحرارة ، ولا من ثقل الهواء ، ولا من تمدّدهِ ، ولا من تحليلهِ ولا غير ذلك من ألوف من الاكتشافات والفوائد ، التي كانت وستكون من أثمار الانتقاد .

وقد يزعم جاهل ، ان لا دخل للنقد ، في بعض هذه العلوم ، أو في علم الطبيعيات ، وانت اذا دققت النظر في هذا الزعم ، علمت بطلانه مما حققه علماء الطبيعيات بالاجماع ، بل ان هذا العلم الواسع ، الكثير الفروع ، الشديد النفع والضرورة لحضارة العصر وامتداد العمران ، ليس هو بالحصر الاّ ثمرة النقد . قال أحد أكابر علماء هذا العصر اسكندر جوهانيس(١) : ان علم الطبيعيات هو علم مراقبةٍ ، ومراقبةُ حادث من حوادث الطبيعه ، يقوم بقيد وضبط جميع الشؤون والاوقات التي جرى فيها ذلك الحادث بدقة ، ثم بمعرفة فصل ما كان جوهرياً من تلك الشؤون لحصولً الحادث ، مما كان عَرَضياً ، أو مما لم تكن لهُ عَلاَقة بهِ : فاذا

(١) Alexandre Jhoanues

تدبرت هذا القول وضح لك ان المراقبة المذكورة ، وقيد وضبط الاحوال التي ترافق تلك الحوادث الطبيعية ، ثم فصل الجوهر من العَرَض ، لا يكون الا الانتقاد بعينه .

وليس نقد السياسة ، دون نقد الفنون والعلوم في المنزلة ، فعلى محور سياسة الحاكم ، تدور رحى أعمال الامّة ، ولما كان الظلم كامناً في طبيعة الانسان ، كمون النار في الحجر ، الاّ مَن عصمهم الله وقليل ما هم ، كان نقد سياسة الحاكم والوازع ، من افيد الامور وأعظم الاسباب في انتشار العدل وتأييد العمران ، وتشييد أركان الحضارة في جميع الممالك ، والنقد من اعظم الوسائل التي يتُوسل بها في دفع الظلم ، ولله در أبي الطيب

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فانْ تجدْ
ذا عفـة فلعـلة لا يظـلمُ

فاذا ما نشر الناقد مطويّ عيوب الحاكم من جهله الشريعة أو تجاوزه حدودها ، أو ميله مع هوى النفس ، أو غير ذلك من الاسباب العديدة التي قد لا يتوصل الى معرفتها

ونبش مستوراتها ، الاَّ الناقد البصير ، كان في ذلك نفع لقوم وتبصرة لآخرين . وقس على ما ذُكر سائر ما يتعلق بالسياسة من تنظيم القوانين ، وتعيين الضرائب ، وتقسيم الخراج ، ووضع المعاهدات الدولية ، وتحديد المكافئات والانعامات ، وكثير غير ذلك من الامور التي يأخذ فيها الحيف مأخذه لما ذكر من تنازع أغراض البشر وميل النفوس الى الظلم ؛ بل قد يتخذ بعض الناس بعض الصحف الجوّابة آلةً للتوصل الى اغراضهم بدراهم معدودات ؛ فتنشر عن فضلهم وكمالاتهم وبراعتهم في الفنون السياسية والمناصب التي يرومون بلوغها ، ما يحمّس الجهلة الاغبياء ، على انتخابهم في اغراضهم هذه ، والاستسلام اليهم ، وما لا يكشفهُ من قصورهم وعيوبهم الاَّ نقد الناقد النزيه .

فقد رأيت مما تقدم بعض فوائد النقد ، وما ذكرته هنا ليس الا غيض من فيض .

الفصل الرابع والعشرون

في

الامثولة الجامعة

أو

خاتمة الكتاب

من المعلوم عند أهل العلم والمتفننين ، بل عند سائر أرباب الصناعات ، انه لا بد لمن طلب علماً ، أو مارس فنـاً ، أو زاول صناعةً ، ان يحتذي على مثال واحدٍ او اكثر ، من ارباب ذلك الفن او تلك الصناعة ، وبعبارة اخرى ، ان يقلّد مصنوع احدهم ، كأن يكون شاعراً ، فأول شعر تتمخّض بهِ قريحته ، يكون على مثال القصيدة التي كان لها في عينهِ الحظ الاوفر ومن بحرها وقافيتها ، وقل ان يحيد عن معناها ، اذ اكثر ما يكون غزلاً ، او كأن يكون مصوراً ، فأول صورة

يصورها بعد تعلمهِ قواعد الفن ، او بعبارة اصح،اول صورة ينتسخها، هي احدى الصور التي حازت استحسانه اكثر من سواها ، او كأن يكون صائغاً او نقاشاً ، فأول سوار يصوغه او ينقشه، يكون على شكل السوار الذي استظرفه ، فيضع المحاكَى نصب عينيه ، ويعمل على مثاله ، لا توقفهم عن هذا الاحتذآء، صعوبة القافيـة ، أو اتساع الموضوع وتفرعه وبراعته ، أو دقة الصناعة ، بل هم مدفوعون الى ذلك بطبيعة المحاكاة والتقليد ، وبالجملة ، فلا بد للمبتدئين من أهل العلوم والفنون قاطبةً ، من التقليد ، واتخاذ مثال يحذون عليـه ، ونموذج يكون لهم هادياً يسترشدون بهِ ويرجعون في صناعتهم اليه ، ومن المثال الذي اختاروه ، والنموذج الذي آثروه تعلم طبقة ذوقهم ، ودرجة لبّهم ، فمن آثر من الشعر الزجل أو الدوبيت أو المواليا فقد قعد عند عتبة الباب وكان من المنظَرين ، ومن اعتنق طريقة الركيك من شعر المتأخرين ، كان وان عُدَّ شاعراً من المُدخلين ، ومن سلك مسلك كبار الشعرآء المتقدمين واستنهج سبيلهم كان من طائفة الذائقين

المهتدين ، ومَن تبع الساقط أو المبتذَل من الانشآء نزل عن طبقة المجيدين ، ومَن أكبَّ على قراءة الكلام العالي واللفظ الانيق أطاعه القلم في احتذآء الكتّاب السابقين ، ومَن جعل غرضَهُ صورةً لاحد العبقريين من المصورين ، وأعاد انتساخها ، فلا بدّ وان يأخذ شيئاً من اصابة نظر مصورها ، وان قصّر عن مجاراتهِ في سائرها ، وللتعليم في هذا الباب تأثير شديد في تحسين الذوق وترفيعهِ ، ولهذا تجد البارعين من الاساتذة لا يرضون للتلاميذ غير درس الكتب العالية الطبقة في أبواب الفصاحة والبلاغة من جميع العلوم والفنون ، ولا يسمحون لهم أن يتخذوا من النموذجات ، الاَّ تصاوير أعاظم المصورين ، وتماثيل أكابر النحاتين ، وألحان مشاهير المغنين ، وغير ذلك من أحاسن سائر الفنون .

فاقتداء بهم ، رأيت ان اكسر هذا الفصل على أمثولة جامعة ما تقدم بسطه في هذا الكتاب ، من قواعد الانتقاد وشروطه ، ليجعلها طالب هذا العلم نموذجاً يسترشد بهِ ، وقد اخترت لذلك كلام : مَن تتفق الشهادات لهُ بلوغ

الغاية من البراعة والصناعة [1] : أعني به أبا اسحاق الصابىء ، وهي رسالة كتبها الى الصاحب أبي القاسم ابن عباد قال :

أنا أعتذر الى سيدي أطال الله بقاءه من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة ، بعذرٍ اذا تأمله حق تأمله ، وعرضه على نقده وتمييزه ، وعرف صدق منطقه وخلوص مصدره ، علم انني مواصل بباطن مرادي وان صرمت بظاهر فعلي وملازم بخافي مقصدي وان أخللت ببادي مسلكي ، وهو أنني جرَّبت مكاتبته أيده الله مواظباً عليها مكباً ، ومراخياً بين أوقاتها مغباً ، لاتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه ، فلما لاح لي ان الاجمام أنفق ، والترفيه أوفق ، ووثقت بان رأيه عليّ في الحالين محروس النواحي والجوانب ، محمي الشرائع والمشارب ، اقتصرت على ان أتعرف أخباره وأسرّ باستقامتها وانتظامها ، وأتنسم احوالها وأسكن الى اطرادها والتئامها ، وأبتهج أيده الله (كذا) من ذروة مرتبة يعتليها ، وغارب مرقبة يمتطيها ، وان ادل المتحدثين عنها ، والسامعين

(١) يتيمة الدهر الثعالبي

بهما ، على انه لم يستوفِ بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فان للدنيا مواعيد فيه ، لا بد ان ينجزها بمساعيه ، وما أخاف في هذا القول والحمد لله من غلط الفراسة وكذب المخيلة ، ولا بمعارضة المعارض ، ومناقضة المناقض ، ولا اعدم صحة الشهادة ، وقيام الدلالة ، وقبول المستمع ، وتشيع المتبع ، وكفى بعلم الله انني أغتبط بنعمه جلّ وعزّ عنده ، اغتباطي بها اذا كانت عندي ، وأعتقد انها في فنآئه عمره الله مستقرة الوطن قاطنة ، وفي كثير من الافنية قلقة الركاب ظاعنة ، لبعد فضلآء الزمان عن مساواته في استحقاقها ، ومداناته في استيجابها ، واستبداده عليهم بحيازة ما يتفرق فيهم ، واستكمال ما يتقسم بينهم من أصل راسخ ، وفرع شامخ ، وحلم راجح ، وقدر طامح ، وأدب جزل ، ومنطق فصل ، وقريحة ثاقبة ، ودراية صائبة ، ونفس سامية وكف هامية ، وأوصاف لا تعبّر عنها بلاغة الفصحآء ، ولا يحيط بها استحفاز الخطبآء ، ولا تجاريه فيها اقدام النظرآء ، ولا تزاحمه عليها مناكب الاكفآء ، بل هي مسلّمةٌ اليه اذا توزع مدعوها ،

ومُقرٌّ له بها اذا دوفع منتحلوها ، فالحمد لله على ان أعطى
قوس السيادة منه باريها ، وأضافها الى كفؤها وكافيها ،
وفسخ به شرط الدنيا الفاسد في اهدآء حظوظها الى اوغادها
ونقض له حكمها الجائر في العدول بها عن نجبآء اولادها ،
واياه اسأل سؤال الضارع اليه ، الطالب لديه ، ان يطيل بقاء
سيدي الاطالة المترامية ، ويوفيه اقصى المدد المتمادية ، ولا
يعدمه التوغل في هضباته على رفاغةٍ من معاشه ، والارتقآء
الى درجاته ، في سكونٍ من جاشه ، ولا يبتليه في شيءٍ منها
بعثرة ولا هفوة ، وان يبلغه مدى همته العالية المشتطة ،
وامنيتي له المنبسطة ، فلا مزيد عليه ايده الله لمفرط مسرف ،
ولا عليَّ في هذا لمتطلع متشوف .

واما بعدُ ايد الله سيدي الصاحب فان نوب الدهر
تتردد منذ سنين عليّ وعلى اهل صناعتنا المنحوسة بالعراق ،
منيخةً بنوازلها ، ملقيةً بكلاكلها ، كالحةً بوجوهها ، كاشرة
عن انيابها ، لتعاقب الايدي الوالية علينا ، وتدرجها في
الاساءة الينا ، وتزايدها في الفظاظة بنا ، وتجاوزها المنزلة الى

المنزلة في الاستئصال لاحوالنا، وقد توفر قسطي في تأثيرها، بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي وبذلي دونها مالي، ووقايتي اياهما بما ملكت يدي، حيث لم اسئل المعونة احداً، ولا سمحت ان استميح مسوَّداً ولا سيّداً، راجعاً الى شيء مما يرجع اليه الناس من موروث تالد ومكتَسَب طارف حتى انتهت مغارمي الى نحو خمس مائة الف درهم، لم يبق لي بعدها ضيعةٌ ولا منزلة، ولا باطن ولا ظاهر فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطرف، وتَجحفُ بعد التحيّف، وصادف ما تجدد عليّ منها في الوقت أشلاَء منهوكة، واعظماً مبريّة، وحشاشة مشفيّة، وبقيّة مودية، فارقتُ الايثار وأطعت دواعي الاضطرار، وجعلت اختار الجهات، واعتام الجنبات، لا نحو منها ما لا يُعاب سائله اذا سأل، ولا يخيب آمله اذا أمّل، فكان سيدي أدام الله عزّه أولها اذا عدّدت، وأولاها اذا اعتمدت.

وكتبت كتابي هذا بيد يكاد وجهي يتظلم منها اذ تخطهُ، اشفاقاً على مائهِ مما يهريقهُ، لولا الثقة بانهُ أيّدهُ الله يحقن

مياه الوجوه ويحميها ، ويجمّها ولا يقذيها ، وخاصةً من كانت لهُ في نفسهِ المزيّة التي لي على غيري ممن شحطت داره من أوليائهِ وأودّائه بمشاهدتي شخصهِ الشريف ، واعتلاقي حبله الحصيف ، وكوني تحت ظل الدولة والجملة وعصمتهما ، وفي ذمام المماحلة والمراضعة وحُرمتهما والاسباب التي هو لها بكرم عهده حافظ ، وبعين رعايته ملاحظ ، وأنفذت درجهُ كتاباً الى مولانا الامير مؤيد الدولة سلكت فيه سبيل العبد اللائذ بمولاه ، والخادم المحتاج الى نداه ، وأشرت الى ما كان سيدي أيّدهُ الله قدّمهُ قبل هذا الوقت من ذكري ، وما تفضل ومهّده من أمري ، ورجوت استثمار تلك المقدّمة على يده وبركته ، واستنجاحها بيمن طائره ونقيبته ، وكل ما يتأتى من الجميع محسوب من جماله ، ومعدود في إفضاله ، وزائد في أياديه البيض الزهر ، وعوارفهِ المحجّلة الغرّ ، وسيدي الصاحب أطال الله بقآءه وليّ ما يراه فيما سألت واقترحت ، واشتططت واحتكمت ، جامعاً لي من جاههِ وماله فان تضاعف هذه المحن ، يقتضي مضاعفة ما يطوقنيه

من المنن ، لاكون ما عشتُ طليقةً من حبائلها وأسارها ، وعتيقةً من مخالبها وأظفارها ، والايعاز باجابتي بما ابتهج لهُ من طيب خبره وحاله ، وامتثلهُ من عالي أمره ونهيه ان شاء الله .

فاذا قرأ هذه الرسالة مَن لا نظر لهُ في فن النقد ، حكم انها من صغيرٍ الى كبير ، أو من صعلوكٍ الى امير ، وذلك لما تضمنته من جمل التعظيم والفاظ التفخيم وعبارات الاستماحة ؛ بيد ان الناقد البصير ، اذا تأملها حق التأمل ، حكم انها من كفؤ الى كفؤ ، وهاك ايضاح ذلك بحسب القواعد الثمان التي وضعتها لك وهي نقد العلاقة الكائنة بين الكاتب وانشائه ، الموازنه ، نقد القائل ، نقد القول ، نقد المقول فيه والمصنوع ، نقد الزمان ، نقد المكان ، بتّ الحكم .

القاعدة الاولى : نقد العلاقة الكائنة بين الكاتب وانشائه ، قد علمنا من الفصل الثاني من القسم الثاني من هذا الكتاب [1] ان مرآة المرء انشاؤه فلننظر اذاً هذه المرآة

(١) الجزء الاول

لنرى صورة ابي اسحاق الصابيء ونتحقق صحة هذه القاعدة .

وانت اذا قلبت في هذه الرسالة طرفك واطلت النظر فيما فصّلتهُ منها بحسب القواعد المتقدمة ، ظهر لك في هذه المرآة رجل هو آية الفصاحة وسحبانها ، وعلم البلاغة وعنوانها بل التواضع بجملته ، والاباء بحليته ، والاخلاص مصوّراً ، واللطف مجسّماً ، وقور النفس ، راجح حصاة العقل ، موزون الكلام ، حرُّ الخلال ، متأنق الالفاظ منطيقيّ ، كهل مصون العرض ، وافر الحياء ، قد اعتم بالهيبة وارتدى بالجلال ، وبرز بالطلاقة ورحابة الصدر ، ذاك ابو اسحاق الصابيء رئيس ديوان الرسائل في الدولة العباسية ، وكاتب الخلفاء ، وامين اسرارهم ، وهذه صورة اخلاقه قد انتسختها من رسالته هذه ونشرتها بعد ان طواها العدم ، وابلت محاسنها القِدَم ، وبقي عليّ ان اضيف اليها شيئاً من غضون الوجه ، لحزن النفس وانقباضها بعد توالي النكبات التي تساقطت عليه ، وخاصةً النكبة العظمى التي حلت به بامر عضد الدولة بن بويه سنة ٣٧٢ او ٣٧٣ هجرية

القاعدة الثانية : الموازنة : قسمها الاول ، موازنة المنقود مع سواه من انشاء المؤلف نفسه ؛ كما مرّ بك في الفصل الثالث من الجزء الاول .

مَن طالع كتابات الصابيء تحقق ان هذه الرسالة لا تكون الاَّ لهُ ، فطبقتهُ العالية في فنّ الانشاء وهو امير الكلام ، ظاهرة في كل جملةٍ من جملِ هذه الرسالة ، وتمكنها وتوثقها بعضها في بعض ، وتدفق الكلام وانصبابه كانهُ جَود السحاب ، وخلوصه من التعقيد ، وبعدهُ من اللفظ النافر والوحشي ، وخلوّهُ على كثرته من الحشو ، كل ذلك مما يؤيد للناقد العارف بكلام الصابيء ، ان الرسالة رسالته ، وحسبك ما فيها من الالفاظ المنتخبة المناسبة للمعاني ، بحيث انك لو شئت استبدال لفظ واحد بغيره لما وقعت على احسن منه .

والقسم الثاني من الموازنة : موازنة المنقود مع غيره مما هو من نوعه لمؤلفٍ آخر :

دونك رسالة لابي القاسم عبد العزيز بن يوسف[1] وهو

(١) احد كتاب الدنيا الاربعة الذين سماهم الصاحب .

من معاصري الصابيء واصحابه ومن كتاب آل بويه والرسالة الى الصاحب ابن عبّاد نفسه وفي بعض المعنى قال :

كتابي ادام الله عزّ مولانا وحالي فيما اعانيه من تمثل حضرته ، وتذكر خدمته ، والمواقف التي سُعدت فيها برؤيته ، وأفدتُ حظها من مشاهدته ، ومقابلة نعم الله عليه وعلى الادب وحزبه بهِ ، والكرم واهله فيه ، حال امرءٍ وقد اوردته الاحلام مناهل امله ، فهو يتلهف تذكراً ، ويتلذذ تحيّرا ، ويناجي النفس تمثلا ، ويراقب المُنى تعللا ، واحمد الله على الاحوال كلها ، واسالهُ قرب الادالة والعقبى السارة واقول

اقولُ وقلبي في ذُراك مخيّمٌ
وجسمي جنيبٌ للصبا والجنائب
يجاذبُ نحو الصاحبِ الشوقُ مِقودي
وقد جاذبتني عنهُ ايدي الشوذابِ
سقى اللهُ ذاكَ العهدَ عهداً من الحيا
وتلكَ السجايا الغرَّ غرَّ السحائبِ

تذكرتُ ايامي بقربكَ والمُنى
يقابلني بالعزّ من كل جانبِ
وفي ربعكَ الدنيا تزفُّ محاسناً
وتفترُّ منكَ عن ثنايا مناقبِ
وقد لحظتْ عينايَ من شخصكَ العلا
ومن فرعكَ الفتيانِ اعلى المناسبِ
ومن لفظك الدرَّ المصونَ ومن حيا
محيَّاكَ ما لم تحوه كفُّ خاطبِ
واخلاقك الغرَّ التي لو تجسَّمت
لكانت نجوماً للنجومِ الثواقبِ
ففاضت على خدي سوابقُ عبرة
كما اسلمت عقداً انامل كاعبِ
سلامٌ على تلك المكارمِ والعلا
تحيَّةَ خلٍّ عن جنابكَ غائبِ
يكابدُ ما لو كانَ بالسيفِ ما مَضى
وبالمزنِ لم تبللْ لهاةً لشاربِ

واني وان رُوّعتُ بالبين شائمٌ
طوالعَ عتبى من طلاعِ العواقبِ
وما انا بالناسي صنائعك التي
كتبنَ عليّ الرقّ ضربةَ لازبِ

ابتدأت أطال الله مولاي بكتابي هذا وفي نفسي اتمامه نثراً فمال طبعي الى النظم واملى خاطري على يدي منه ما كتبت ، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض ، وقد اقتصرت عليه من الكتاب ناطقاً عني ، واثقاً بما عنده لي ، وانا استرعيهِ غيبه ، واستغطيه عيبه ، وكنت كتبت الى حضرته من أول منزل أو ثانيه ، بذكر ما أودعه حرُّ الفراق قلبي ، وازالتهُ أيدي الاشواق من عزائم صبري ، وتوقعت الجواب عنه ، فابطأ هذا الركابي خالياً من كتابه ، وكانت عادة كرمهِ جارية عندي بخلافه ، ولولا الثقة بهِ ، وبما استفدته من اللقآء والخدمة ، وحرمة الوفادة والهجرة من أزمة عهده ، لابديت ما أخفيت من قلق وانزعاج ، لاختلاف العادة عليّ ، ومولاي وليّ صوني عن موقف الظن والرجم

بالغيب فانيّ متّهم في خدمته على حسب الضن بها ، ومناقشة كل أحدٍ عليها ان شاء الله تعالى .

فبموازنة هذه الرسالة مع التي قبلها ، يظهر تقصير كاتبها عن بلوغ شأو الصابئ ، ويبدو فضل الصابئ كالشمس في رائعة النهار ، وسأجتهد في ايضاح وجوه التقصير التي هي في هذه الرسالة ، بحد ما يمكن من الايجاز .

اذا انعم الناقد النظر في فاتحة هذه الرسالة رأى ان قوله : وحالي فيما أعانيه من تمثل حضرته : ليس من فحل الكلام ، بل هو بمطلع رسالة ، الى محبوب أشبه منه بمطلع كتاب من فاضل كبير ، الى وزير أو نظير . وقوله بعد ذلك : سَعِدتُ فيها برؤيته ، وأُفِدت حظها من مشاهدته ، : تكرار فان السعد والحظ واحد ، والرؤية والمشاهدة واحدة ، وليس وراء هذا التكرار تمكين للمعنى ، أو ايضاح لهُ كما يحسن ذلك في بعض المواضع ، ثم كأن النثر ضاق عليه برحبه فما كتب سطرين حتى لاذ بالشعر علَّهُ يجد بهِ ميداناً لاطالة الكتاب ، فلم يأت أيضاً بما يناسب

قدره وقدر المرسل اليه ، من الكلام العالي والنظم الانيق ، والمعنى المبتكر ، ولا جانب الحشو ، أو حاذر التكرار ، فافتتح قصيدته « بأقول » وعلّق النتيجة التي يفتح السامع لها أذنيه ، بالبيت الثالث ، وهذا من الضعف بمكان ، فان البلاغة والبيان يقضيان أن يكون مقول القول وضيحاً قريباً كقول الشاعر

أقول لها وقد طارتْ شعاعاً
من الابطالِ ويحكِ لا تُراعي

وكقول الآخر

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً
احدى يدىَّ أصابتني ولم تُرِدِ

وكقول الآخر

أقولُ لنفسي في الخلاءِ ألومُها
لكِ الويلُ ماهذا التجلدُ والصبرُ

وعدا ذلك فانهُ لم يأتِ في البيت الثالث بشيء ينتظره السامع بعد ما انصت كل هذا الانصات ، سوى الدعاء للعهود والسجايا بالمطر ، وانظر ان كان في ذلك كبير معنى .

أما محاسن الابيات الاربعة التي بعد الثالث فغير خافية، وفيها من رشاقة اللفظ ، ولطف المعنى ، ما هو اهل أن يكون من نظم ابي القاسم بن يوسف ، واما قوله : ففاضت على خدي : الى آخرهِ فلا محل للدموع في هذا المقام ، بل لا يليق صدوره من المادح النبيل ، ولا ان يخاطَب بمثله ممدوحهُ الجليل ، اذ هو ضعف وعجز ، وبمثل هذه المعاني الدقيقة يُعَرف فضل السابق وينجلي تقصير المسبوق ، فانظر الى قول المتنبي في وداع ابن العميد

فَجُدْ لي بقلبٍ ان رحلتُ فانني
مخلِّفُ قلبي عندَ مَن فضلُه عندي
ولو فارقتْ نفسي اليكَ حياتَها
لقلتُ اصابت غَيرمذمومةِ العهدِ

وقوله في وداع عضد الدولة .

ومَن اعتاضُ منكَ اذا افترقنا
وكلُّ الناسِ زورٌ ما خلا كا

حييٌّ من الهي أن يراني

وقد فارقتُ داركَ واصطفاكا

فبمثل هذه الآيات يُودَّع الملوك والامرآء، لا بسوابق العبرات والتكلف في الانشآء.

ولما عاد الى اتمام الرسالة كتبها بقلم قد ملّ، وخاطر قد كلّ، فيرى فيها الناقد، كلمات متكلّف متجمّل، واعتذار متصنع في الود او متعمّل، وعتاباً اشبه بوعيد كما في قوله: ولولا الثقة به وبما استفدته: وتكاد تحسب انه سيقول بعد قوله «لابديت ما اخفيت» **من سوء افعالك وعيوبك.**

وليس القصد مما ذكرته تفنيد كلام ابي القاسم بن يوسف وهو من افراد كتّاب الدنيا، بل موازنته بكلام الصابئ ونقده، ليظهر للمطالع ما قَصَّر بهِ ابو القاسم وما يُعاب عليهِ. باعتبارهِ انهُ احد ملوك الانشآء وامرآء الكلام؛ وقد لا يكون لهُ بين رسائلهِ كلها رسالة هي موضع استدراك كهذه، ولو وقعت الينا من قلم غير ابي القاسم عبد العزيز، لعددناها من القلائد، ولكننا لسنا نقنع من

ابي القاسم بغير الفرائد .

القاعدة الثالثة : **نقد القول** : هذه القاعدة كما علمتَ تنقسم الى ثلاثة اقسامٍ وهي **الغاية**، **والفائدة** ، **والمحاكاة** ، اما **غاية** الصابئ من كتابهِ هذا فهي ظاهرة يريد ان يواقف الصاحب على ما آلت اليه حالهُ من الفقر والهوان وتوالي النكبات عليه ، بعد الغنى والجلالة والنعيم .

واما **الفائدة** فهي الوصول الى رفد الصاحب ليستعين بهِ على معاشه ، ويستر به خلّتَه ، ويرقّع ما تخرق من ثوب منزلته في اعين الناس . وقد حصل عليها ولا شك ، فمثل الصاحب من يقدر قدر هذا الكلام .

واما **المحاكاة** فاعلم ان ابا اسحاق الصابئ لم يكن مقلّداً ، بل مبتدعاً ، بل هو امير الانشآء ، والمراد هنا بالابتداع . لا انه ابتدع السجع ، فهو فيه مطرّس على آثار من سبقه من الجم الغفير ، ولكن تصريفه الكلام ، وتصرّفه في معانيه . ونسق تعبيره ، كل ذلك اوجد طريقة من الانشآء عرفت بهِ ، وحسبك اعتراف صاحب المثل السائر له بذلك ، ومع

هذا كله فانَّهُ اراد محاكاة مَن تقدمه فيما يشبه طريقتَهُ هذه، فتمَّ لهُ السبق بالادمان والاتقان وصدق الارادة ، فالمحاكاة اذن حاصلة ، ولعله قصد محاكاة بن المقفع او ابن قتيبة ، او الجاحظ ، او عبد الحميد الكاتب ، ولم أتقصَّ في البحث عن ذلك اذ المراد من هذا الفصل ايراد امثولة للمستفيد ، لا نقد كتابات الصابيء حق نقدها .

بقي الكلام في جملة نقد القول وقد عرفنا مما سبق بسطه ، انا اذا رمنا الوصول الى نقد القول بامانٍ ، وجب علينا ان ننزّه النفس عن الغرض ، ونحو شرف الغاية ، وسلامة الطبع والقصد . فاذا نظرنا في كلام الصابيء ، وجدناه من الفصاحة في المقام الارفع ، ومن الجزالة والسلاسة في الطبقة العالية ، ومن الرزانة ورصانة التراكيب ، في ميدان قد امتاز به وانفرد ، ورايناهُ في انتخاب الالفاظ اللائقة بالمعاني ، في مضمار لا يُجارى فيه ، وفي تنسيق الكلام ورصفه ، وبراعة المطالع وحسن الدخول باستخدامه المعاني التي تناسب الاغراض ، وفي رد اعجاز المعاني على صدورها واعطائها حقها

من طول الجمل او قِصَرها ، عند سدرة المنتهى من جنة الانشآء وروضة الترسل ، الى غير ذلك من قوة العارضة . واستقامة الحجة ، وامتلاكه زمام الكلام ، وحيازتهِ شتيت اللفظ ، واختياره الفصيح من اللغة ، وتصرفه في وجوه القول والتعبير نثراً ونظماً ، بحيث انه لم يزل منذ الف سنة الى اليوم ، عَلَماً تُضرب بهِ الامثال ، عندَ كل من نال حظاً من اللغة العربية .

ولولا ضرورة دعم القاعدة بالحجة ، وشرح الكلام لتأييد القاعدة ، لما احتاج كلام الصابيء الى بيان فضلٍ ومحاسن ، فقد اشتملت عليهِ البدائع كلها .

فانظر كيف افتتح رسالته بالاعتذار من صديقه الجليل لتاخّرهِ عن مكاتبته ، وذلك خير ما اتّخذهُ المنشيء رائداً في سبيل دوام الود ونجح المقاصد ، وانك لتجدنّ الفرنجة لعهدنا هذا ، لا يعملون عملاً ، الا ويبدأونهُ بطلب العفو والاعتذار .

ثم بسط عذره بافصح لفظ واتمّ اخلاص والطف تعبير ، واشار في خلالهِ ، الى انقطاع كتب صديقهِ عنه ،

وانها السبب في تأخر كتبه اليه ، وتلطف ما شاء اللطف واتضع ، والتواضع من خلق العقلاء ومن اشرف مزايا الاكابر من الناس ، واستحسن ان يُري صديقه انه لا يروم مقابلة فعله بمثله ، بل انه لا يقف معه في موقف عتاب لاجلاله مقامه فقال : فلما لاح لي ان الاجمام انفق والترفيه اوفق : اي راحتك من الاضطرار الى مكاتبتي وازاحة تعبك من ذلك ، ولكن بأي لفظ بليغ أنيق قال هذا الكلام . وهو كما علمت لم يقل : من الاضطرار الى مكاتبتي : ولكن فهم ذلك المكتوب اليه ، مثلما فهمهُ الناقد البصير . وعطف على ذلك لسلامة قصده وصدق وده بقوله : ووثقت بأن رأيه عليّ في الحالين محروس النواحي والجوانب ، محمي المشارع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره وأسرّ باستقامتها وانتظامها : فانظر على أي نسيم من نسمات الصبا حمّل الصابئ هذا العتاب ، ومن أيّ فُراتٍ قد استخرج هذه الدرر بل من أيّ بحر من البحور العذابً ، ثم انظر كيف انه جرى بعد ذلك مع الطبع دون تكلّفٍ ولا تصنع وحسبما يستدعيه

مقام الكلام ، فبشر الصاحب بالنعم المستقبلة مستدلاً على ذلك بصدق فراسته . ثم انهُ تعويذاً لتلك السعادة العتيدة التي يتمتع بها الموصوف، وللغبطة المقبلة التي يبشرهُ بها، وتأكيداً لاخلاصه لهُ ، أخذ يبرهن على استحقاق الصاحب بوصف قد بلغ الاغراق ، وهذا مما يتَعقَّب بهِ على الصابئ في هذه الرسالة ، ولعل لهُ عذراً بل عذرين أما الاول فان الموصوف كان في الحقيقة عند وصف الصابئ الى قوله : وكفٍ هامية : وحسبك بعض ما قال فيه الثعالبي بعد وفاته بسنين « انهُ تأريخ المجد وغرة الزمان ، ويذبوع العدل والاحسان ، ومَن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح بهِ مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق » بيد ان ذلك لا يكون عذراً للصابئ ليتمادى في المبالغة ، الاَّ اذا رجع الناقد الى زمن تلك الكتابة مما سننظر فيه . واما الثانى فهو ان الرسالة رسالة طلب رفد ، ولا ينكر على المستميح ان يطنب في مدح المسئول ، وخاصةً اذا كان ذلك المسئول الصاحب بن عبَّاد .

ثم اخذ يمهد لطلبه بذكر غدر الايام باهل الفضل ،

مستثنياً من ذلك الصاحب لانه من اهل صناعته ؛ ثم جهر بالضَراعة الى الله باطالة بقآئه شأن طالب الرفد واشار بلطفٍ الى الغرض الذي دعاه الى كتابة رسالته واستمداده للتصريح بهِ بقولهِ : ولا يبتليهِ في شيء منها بعثرةٍ ولا هفوة :

اما باقي كتابه فكلّهُ فرائد . ومن كان لهُ ذوق في طبقات الكلام ، عرف قيمة هذا النظام ، وعجب كيف اجتمع في حافظة ذلك المنشئ هذا القدر العظيم من اللاآلي الكبار ، بل لا يعجب متى علم ان الصابئ صاحب ذلك النثار ، وانت اذا تأملت بعين الناقد العبقري ، ظهر لك ان القسم الاخير من هذه الرسالة ، اي من قوله : وكتبتُ كتابي هذا : الى آخرها ، اقل تراكماً ، وتزاحماً واكثر وضوحاً ، واخف محملاً على النفس ، واوفر طلاقةً ، واقل انقباضاً والسبب في ذلك ، ما سيظهر لنا في نقد القائل .

القاعدة الرابعة : نقد القائل : واقسامها ثلاثة كما علمت وهي التكرار والاميال والغرض .

القسم الاول التكرار ومنه يمكن استقرآء منزلة المؤلف .

فاذا نظرت نظر ناقدٍ ألمعيّ ِالى ما تكرر في هذه الرسالة من اللفظ المتشابه بالمعنى الواحد ، علمت ان الكلام ليس كلام فقيهٍ أو عالم ، ولا كلام صعلوك . بل كلام امير او وزير او من ربي بين الامراء والوزراء ، وغلبت على لسانهِ الفاظهم كقوله : استقامة الاخبار وانتظامها ، واطراد الاحوال والتئامها ، والذروة ، والمرتبة ، وغارب المرقبة ، والمساواة والاستحقاق والمداناة والاستبداد ومجاراة اقدام النظراء ، ومزاحمة مناكب الاكفاء ، وتعاقب الايدي وتجاوز المنزلة ، واستئصال الاحوال ، وتوفر القسط ، الى شيء كثير من مثله قد اجتمع في رسالة واحدة كهذه .

ثم ان تعتب الكاتب على المكتوب اليه وغير ذلك من العبارات التي وردت في رسالته يدلّ على ان الكاتب من اقران المكتوب اليه كقولهِ : جربت مكاتبته ايده الله ، فان المكاتبة مفاعلة ولا تكون في الغالب الا اذا كان كل من الرجلين يكتب للآخر ثم قوله : جربت : لا يكتبها الصغير الى الكبير بل بالعكس او النظير الى نظيره . وكقوله : وان

ادلّ المتحدثين عنهما والسامعين بهما — الى قوله — وما اخاف في هذا القول والحمد لله من غلط الفراسة ولا كذب المخيلة الخ : يكاد يكون حديث والدٍ يحدث بهِ عن ولده او كلام امير عن مولاه وكقولهِ : مَن كانت لهُ في نفسه المزية التي لي على غيري . . وفي ذمام المالحة والمراضعة وحرمتهما ، . والاسباب التي هو لها بكرم عهدهِ حافظ : كل ذلك يدلك على سمو مقام المنشئ ، وانهُ قد اعتاد ان يقول عندي ، واغتباطي ، وامنيتي ، ومَن لهُ في نفسهِ المزية التي لي على غيري ، وما شاكل ذلك من الالفاظ الدالَّة على علو المنزلة ، وهو ما زال في الكلام متدرجاً ، الى ان ذكَّرهُ بما كان بينهما من حقوق المؤاكلة ، وحرمة المراضعة ، وذمام الالفة والعشرة ، التي تكون بين الاخوان والاقران . وكقولهِ فيما سألت واقترحت ، واشتطت واحتكمت .

واذا تبصّرت بعض عبارات هذه الرسالة ، وقفت على سن الكاتب والمكاتَب كقوله : انهُ بعد لم يستوفِ حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فان للدنيا مواعيد فيه ، لا بدَّ

من ان يجزها بمساعيه ، فانه يُستشف من هذا الكلام ، ان الصاحب كان في الكهولة ، مالكاً تمام قوّته ونشاطه ، وان قيل لما لا يكون شاباً أجبت لقول الصابئ : انه لم يستوفِ بعد حظه : الى آخر الكلام ؛ ولو ان الصاحب كان شاباً لقال الصابئ « انه في تباشير أمره ، ومستهل عمره ، وهذه فواتح سعوده ، وغرر جدوده ، » أو ما كان بمعناه . فاذا عرفت ذلك ونظرت الى قول الصابئ : وفي ذمام المماحكة والمراضعة : وتبين لك عمر الكاتب وانه كان كهلاً في حدود الخمسين من سنيه ، حال كتابته هذه . [1]

(١) يقول ابن خلكان ان مولد الصابئ سنة نيف وعشرين وثلثمائة نقلاً عن كتاب الفهرست للنديم البغدادي ، وان مولدالصاحب كان سنة ست وعشرين وثلثمائة ويقول ان الصابئ توفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة وعمره احدى وسبعون سنة . أما الثعالبي فيقول كانت وفاته سنة أربع وثمانين أيضاً وكانت سنوه احدى وتسعين سنة قمرية ، فان قيل ان تسعين هنا مصحفة عن سبعين ، قلت لا وجه لذلك لانه يقول في أول ترجمته ما نصه : وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفآء والوزرآء : ومع ان الثعالبي يكاد يكون من معاصري

فلننظر في القسم الثاني من القاعدة الرابعة وهي الاميال أو العواطف أو الاحداث النفسانية .

يظهر لمن أنعم النظر في هذه الرسالة ، ان كاتبها كان في غاية القلق ونهاية الغم عند كتابتها ، فانظر كيف ابتدأ كتابه بالاعتذار والتلطف في العتاب ، ثم كيف انتقل الى الثناء

الصابئ . ويلزم من ذلك ان تكون روايتهُ أصح من ابن خلكان . فان رواية صاحب الوفيات هي الصحيحة من وجهين وهما سنة وفاته . وعمره . اما ولادته فقد غلط فيها ابن خلكان ليس فقط لوقوعها قبل ذلك ، بل لانهُ لو كان مولده سنة ٣٢٠ كما ذكر ووفاته سنة ٣٨٤ لكان عمره ٦٤ سنة لا ٧١ كما ذكر . وقول الصابئ : في ذمام المالحة والمراضعة : برهان صريح على انه كان سنّ الصاحب أو قريباً منهُ اذ من الممكن ان تكون أم الصابئ أرضعت الصاحب مع أحد أولادها غير ابي اسحق المترجم . ولا أدري أين حصلت المراضعة فمولد الصاحب باصطخر والصابئ في حران ولعلّ والديه كانا في اصطخر اذ كان طفلاً . وقال ياقوت في معجم الادباء مات ابو اسحق يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٣٨٤ عن احدى وسبعين سنة ومولده في سنة ٣١٣ كذا ذكره حفيده هلال بن المحسن بن ابراهيم في تاريخه .

والدعآء ، وكيف انه كلما اقترب من غايته ، تبين على انشآئه بعض الانقباض كقوله : ونسخ به شرط الدنيا الفاسد في اهدآء حظوظها الى أوغادها : فتأمل سجعة هذه الجملة ، وانظر كم في لفظة **أوغادها** في هذا الموضع من الحنق والحقد على أحكام الدهر ، وانظر بعد ذلك في قوله : على رفاغة من معاشه ، والارتقآء الى درجاته في سكون من جاشه : تجد كم تحت هذا السكون من اضطراب في نفس الكاتب ، وكم ورآء هذا الجاش من التضعضع والتجلد . ولما وصل الى هذه الجملة كأني به وقد أوقف القلم ليستحث قريحته على قول يرقع به ثقوب خذلان نفسهِ لهُ ، وضعفها عن البوح بما كلفتها الضرورة ودفعتها الحاجة اليه ، وكأنه شعر بضربات قلبه ، ثم استجمع قواه وقال : ولا يبتليه في شيء منها بعثرة ولا هفوة : فاذا محّصت هذه الجملة ، وجدتها غير متناسبة المعنى مع ذلك الوصف الى المكتوبة اليه ، وانت تعلم ان من كان في منزلة رفيعة ومقام عال ، لا يُدعى له بمثل هذا الدعآء بعد ان قال له : وأضرع الى الله ان يطيل بقآء سيدي

الاطالة المترامية الخ : ومثل الصابئ لاتفوته معرفة مذاهب الـكلام ووضع الشيء في محله ، الا انه لما نظر الى حالته ، والضرورات التي ألجأته الى أن يسترفد كفؤه وقرينه ، وان يقوم هذا المقام الضنك ، (بعد ان كان يخاطبه بالـكاف ولا يرفعه عن رتبة الا كفاء) [١] خطر في باله مجد الدنيا فرآه غروراً وتمثل غناها فوجده خداعاً ، فقابل بين يومه وأمسه ، وتذكر مكاتبات الصاحب لهُ ، فخشي عليه ان يبتلى بمثل ما ابتلي هو فقال باخلاص : ولا يبتليه في شيء منها بعثرة ولا هفوة [٢]

وكان على الصابئ بعد دعائه وثنائه ووصوله الى هذه الجملة ان يقول اما بعد وينطلق في حديثه وبيان قصده كما

(١) يتيمة الدهر للثعالبي

(٢) هذا يؤكد ما قاله المؤرخون من ان نكبته كانت لعثرة عثر بها قلمه في كتاب أنشأه عن الخليفة في شأن بختيار عز الدولة، ولهفوة بدرت من لسانه في حق عضد الدولة فحقد عليه الاولى ، وأفرغ نقمته عليه عند ما وُشيَ به في الثانية اليه

يظهر للناقد بأدنى تأمل ، لكنه أغص بريقه ثانية ، وخجل من نفسه واظلمت الدنيا في عينيه فماطل نفسه وخادعها وعاد الى تكرار الدعاء بقوله : وان يبلغه مدى همتهِ العالية المشتطة الخ : ولا محل لهذا التكرار والتطويل ، الاما ذكرته لك ، من مدافعته نفسه الوصول الى الاستجداء خجلاً من نفسه ، وحياء من الصاحب .

على انهُ لما قال بعد ذلك : واما بعد : كأَنهُ تذرع بكل قواه ، لبذل ماء محياهُ وقال : أيد الله سيدي الصاحب ، وكأَنه لم تبق فيه قوة للتلميح والتعريض ، فرام التخلص من ذلك الموقف الحَرَج ، والمقام الذي انقبضت له نفسهُ وكادت تزهق بهِ روحه ، اذ تصور ذاته بحضرة الصاحب يستمطر وابل نعمائه ، بعد ان كان من نظرائه ، وكأَنه أغمض عينيه وانحلت عقدة لسانه ، فجرى في ميدان قصده ناطقاً كعادته فصيحاً ، مبلغاً غرضهُ صريحاً وقال : فان نوب الدهر تتردد عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق : وهنا يجد الناقد حجة جديدة تثبت عدم تزحزح الصابئ عن مقامهِ في عين

نفسهِ ، ومخاطبتهِ الصاحب مخاطبة النظير نظيره ، فانهُ منذ أول رسالتهِ الى هذه الجملة ، كان يتكلم عن نفسهِ بالضمير المفرد فكان ، من حقهِ ان يقول : عليَّ وعلى أهل صناعتي ، ولكنهُ قال **صناعتنا** يريد بذلك ان يقول للصاحب «صناعتي وصناعتك » — وهي الانشاء ورئاسة ديوان الرسائل — فكأَنهُ مع ما بهِ من الكمد والخور ، لم يفقد انفة الرئاسة وحميّة العزّ ، ولم يرضَ ان يرفع الصاحب عن مساواتهِ في المنزلة.

ثم انظر الى قوله « وقد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي وبذلي دونها مالي ووقايتي اياهما بما ملكت يدي حيث لم أسأل المعونة أحداً ، ولا سمحت ان استميح مسوَّداً ولا سيداً » . تجدكم في هذه الجملة من الاباء وعزة النفس ؟ وكم في لفظة **ولا سمحتُ** من الترفع والرئاسة ؟ .

وكأنهُ لما شفى نفسه باخباره صاحبهُ بما كان من أمرهِ ، وشكى اليهِ تأثير هذه النوائب في جسمهِ ، كان كمن يمسح دموعهُ ويكتب هذه الجملة . وصادف ما تجدّد عليَّ

منها في الوقت اشلاءً منهوكة واعظماً مبرية الخ . بل كأن كل جوارحه ، كانت تلطم وتتلهف حال كتابته هذا الكلام ، الجامع اقصى غايات النم والسقام .

وكأنهُ لما ذكرَ دواعي الاضطرار الى قولهِ : فكان سيدي ادام الله عزه : القى القلم وعاود قرآءة ما كتب ، فكادت تتصبب دموعه دماً ، وكاد يتفطر خجلاً وألماً فقال « وكتبتُ كتابي هذا بيدٍ يكاد وجهي يتظلم منها اذ تخطّهُ اشفاقاً على مائهِ مما يُهرَيقه » فهو كان في كل كلمةٍ من هذا الكتاب ، كمن يكتب بدم قلبه ، وبين كل جملةٍ واخرى ' يعود الى نفسه فيتماسك ببقيتها الضعيفة متجلداً كأن يقول : وخاصةً من كانت لهُ في نفسهِ المزية التي لي على غيري : او كقوله : وكوني معه تحت ظل الدولة الخ : وبعد ان قال : وكل ما يتأتى من الجميع محسوب من جماله ومعدود في إفضاله الخ : كأني به كان يراجع ذاكرته فيقول أتراني امسيت سائلاً شحاذاً مستعطياً بكفهِ ؟ فيزجر نفسه ويكتب : وسيدي الصاحب اطال الله بقآءه وليّ ما يراه فيما سالتُ واقترحت ،

واشتططت واحتكمت ، كانما يروم ان يخدع نفسه ويقول أليس ان هذا الرجل هو كفؤي ونظيري وصديقي ؟ فما هذا من باب الاستماحة او الاستجداآء ، ولكن من باب الصداقة والاخآء ، ومَن كان في منزلتي عنده يحق له ان يشتط ويحتكم . . . . تعلةٌ كاذبة ، ومخادعة باطلة ، وتمنٍّ لا يغني فتيلا

تغرُّ حلاواتُ النفوسِ قلوبَها

فتختارُ بعضَ العيشِ وهو حِمامُ

القاعدة الخامسة نقد المقول فيه وتنحصرُ هنا في المقايسة اللفظية ، فاذا نظرنا في قول الصابئ له : واستكمال ما يتقسم بينهم من اصل راسخ ، وفرع شامخ . . وادبٍ جزل ، ومنطق فصل ، وقريحة ثاقبة ، ودراية صائبة : تبين لنا ان المكتوب اليه « أو المقول فيه » كان من افراد الدهر جامعاً الى كرم الاصل ، شرف الفضل ، وان قيل قد يكون ذلك مجاملةً أو تزلفاً الى المقول فيهِ قلتُ لكل عصرٍ اصول وعوائد متَّبعة عند اهلهِ ، فاذا نظرت الى مكاتبات اهل ذلك العصر ، وجدت مَن كان دون مقام الصابئ في العلم والرئاسة ، لم يكن

يتسامح بذلك ، وهذه رسائل الخوارزمي فاذا قلبتها رأيتَـهُ لم يكتب بشيء من هذهِ النعوت الى صاحب الديوان في جرجان ، ولا الى رئيس طوس ، ولا الى رئيس هراة ، ولا الى وزير خوارزم شاه ، ولا الى حاجب ركن الدولة ، ولا الى غيرهم ممن هم في طبقتهم ؛ ولـكنَّهُ لما كتب الى الرئيس ابي نصر الميكالي قال « ولم اتعجب من ولدٍ تقبل قبلة الوالد ، ومن طريفٍ نازع التالد ، ومن غصن من اغصان الشرف ، نما على عرقهِ في السلف ، ومن نفس رضعت ثدي المكارم ، وربيت في حجر الاكارم » واذا تتبعت رسائل بديع الزمان الهمذاني رأيتَ انه لم يمنّ بمثل هـذا النعت على الوزير ابي نصر ابن ابي برده ، ولا على رئيس هراة ، ولا على صاحب ديوان بست واضرابهم ، ولـكنه على صَلَفه لما كتب الى الامير ابي الحارث محمد قال : وما زلت ايد اللهُ الامير اسمع بهذا البيت القديم بناؤه ، الرحب اناؤه ، الـكريم ابناؤه : واذا امعنت في التفتيش والتنقيب عن كتابات القوم لذلك العهد ، لم تجد شذوذاً لهذه القاعدة .

واذا نظرت الى قولهِ : وانفذت درجه كتاباً الى مولانا الامير مؤيد الدولة : لم يبقَ لديك شك في ذلك ، لِما انَّ من يكتب الى ملكٍ ، لا يرسل كتابهُ اليهِ ، الا عن يد امير أو وزير ، وخصوصاً في مثل الغرض الذي يتوخاه الصابئ .

وهذا وما سبق ذكره يدلك على ان الاستنتاج بكرم اصل الصاحب من نفس الرسالة المنقودة ، هو استنتاج صحيح ، فان لم يقنعك ذلك ، أو لم يكفِك ، فعليك بالتأريخ ، تؤيد بهِ برهانك وتدعم حجة نقدك ، فتعلم منه ان ابا الصاحب هو ابن الحسن عبَّاد وكان وزير ركن الدولة ابن بويه .

القاعدة السادسة **نقد الزمان** اذا نظر الناقد الى قولهِ : فان نوب الدهر تتردد منذ سنون عليَّ الخ : ثم الى قولهِ : لتعاقب الايدي الوالية علينا الخ : علم ان المحنة التي يشير اليها الكاتب لم يكن قد طال عليها العهد لقولهِ **منذ سنون** ثم علم ان اسباب هذه المحن ، هي كثرة العزل والنصب ، او تغلّب الحكام بعضهم على بعض ، وتبدّلهم بسرعةٍ لقولهِ **لتعاقب الايدي الوالية علينا** ، ثم استنتج من ذلك حالَ فوضى في

الدولة ، أو حال هَرَمٍ ، اذ لا تحدث كثرة العزل والنصب في ولاة الدول ، ولا يَقع تعاقب التبديل فيهم ، الا عند اشتداد الخطوب أو حصول أزمةٍ في الدولة ، أو حلول الضعف والعجز بمتولي امورها ، كما كان الشأن لعهد كتابة هذه الرسالة . ثم ان الناقد يعلم من هذه الرسالة ، اذا جرى على حكم قاعدة نقد الزمان باحثاً منقبّاً ، ان اولئك الوزراء او الولاة ، كانوا لدن نصبهم ، يتعهدون للخليفة او للمالك ، بمالٍ وافرٍ يؤدّونه لهُ بعد استلامهم زمام الاحكام في الولايات التي كان يقطعهم اياها ، وهذا المال يجمعونهُ من المغارم التي كانوا يغرمون بها العمَّال والكتَّاب وغيرهم وذلك لقولهِ : حتى انتهت مغارمي الى نحو خمس مئة الف درهم : ويرى الناقد من هذا ان ارتكاب الرشوة ، امر شائع لذلك العهد ، عند اكثر عمَّال الدولة حتى الكتَّاب ، وان الظلم كان بالغاً منتهاه ، لان الصابئ على غلو منزلته وما كان لهُ في تلك الدولة من المرتبة العالية ، لم ينسب ظلماً لمن اغرمهُ ، ولا شدد عليه النكير لجوره ، ولا استنصر احداً عليهِ ، بل هو

يخبر بغرامته ، كامرٍ لا يُستغرب وقوعهُ ، وكل ذلك يدلُّ الناقد اوضح دلالة على عجز الخليفة عن القيام بامر الدولة ، او على تهاونه بمصلحة الرعية وانهماكه في الملاذ ، واعتياد العمَّال والكتَّاب وغيرهم من اغنياء الناس ، تحمُّل مثل تلك المغارم بل المظالم ، وترقبهم وقوعها عند كل عزل ونصب .

واذا تبصرت طريقة انشاء هذه الرسالة ، علمت منها ان هذا كان مذهبهم في الكتابة لذلك العهد ، وخصوصاً في العراق ، اذ كما ذكرت لك فيما سبق ، لكل عصر بل لكل قطر ، طريقة في الانشاء يألفها أهله حقبة من الدهر .

القاعدة السابعة في نقد المطالب قسمه الاول البحث عن مسقط رأسه وبيئته والثاني موقع بلده الجغرافي وهواء اقليمه .

قد علمنا من قول صاحب الرسالة « عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق » انها كتبت من العراق ، فاذا رمنا البحث عن وطن الصابئ لنعلم بحكم هذه القاعدة منبت أثلتهِ ، ومَهبَّ قريحتهِ ، فحرّان مسقط رأسه ، ومنشأ انفاسه ،

ولسنا نعلم شيئاً من أول أمرهِ ، ولا عن أصل أسرته في حران ، وهو لا يذكرها في شيء من كتاباته التي بين أيدينا .

أما بيئتـه فقد شبَّ في بغداد ، ودرس وتأدب على العلمآء الـكثيرين الذين كانوا بهـا لعهدهِ ، وبرع حتى تقلد كتابة عهود الخلفاء ، وتقاليدهم الى الملوك والوزرآء وغيرهم ثم سمي رئيس ديوان الرسائل ، دون سائر علماء عصره وكتابه وهم مَن تعلم .

وقال أبو منصور البريدي ان أبا اسحق ابراهـيم الصابئ كان من نساك أهل دينـه والمتشددين في ديانته وتصونه عمـا يدعو اليه الهوى ومن قوله .

حمتني لذتي رتبُ المعالي وضني بالمروءةَ والوقارِ
ودينٌ ضاق فيه مجال فتكي لخوف عقوبة وحذار نار

بيد انه اذا أمعن الناقد في البحث عن كل ما كتبـه ، وجد له ما يخالف هذا القول ، ولعله لم يرَ بدًّا من مجاراة اهل قطره ، والعدوى من اخلاقهم ، والتأدب بآداب البيئة التي كان فيها ، ونهج طريق معاصريهِ من الامرآء والوزرآء ،

في كثير من خلاعاتهم ومجونهم ، فصدرت من قلمهِ اهاجٍ واقوال ، تناقض ما قالهُ في هذين البيتين .

ولم ينفرد الصابئ بمزية الانشآء فقط ، بل كان من الشعرآء المبرّزين ، الاّ انهُ اشتهر بالكتابة ، لانهُ اتخذها صناعة وبلغ بها منزلة رفيعة لم يشاركهُ فيها احد .

أما موقع حرّان هذه فبين سروج والرقة وهي من بلاد الجزيرة . وقد عدَّها صاحب نزهة المشتاق من البلاد الشامية ، وقال في موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية : حران كانت مدينة واقعة فيما بين النهرين وكانت في القرون المتوسطة محط ديانة الصابئة التي عطّلها الخلفآء العبّاسيون لاعتقادهم انها كفر : . وهوآء اكثر بلاد الجزيرة طيبٌ معتدل وتربتها جيدة جداً .

القاعدة الثامنة بثّ الحكم .

ان منزلة الصابئ بين ملوك الكلام ، وامرآء الكتابة والترسل ، وفرسان القرائح والشعر ، فوق ان يُبَثَّ فيها حكم وقد قال فيه الثعالبي « انهُ اوحد العراق » وعدَّهُ الصاحب

ابن عبَّاد احد كتاب الدنيا الاربعة وأجلسه في جانبه واحلَّهُ محلَّه، بل ان الثعالبي قدَّمهُ على الصاحب بقولهِ «اما الترجيح بين هذين الصدرين في الكتابة، فقد خاض فيه الخائضون، وأخبَّ المخبُّون، ومن اشفّ ما سمعته في ذلك، ان الصاحب كان يكتب كما يريد، وابو اسحاق كان يكتبُ كما يؤمَر، وبين الحالين بون بعيد.» فقد رأيت كيف رجَّحه الثعالبي على الصاحب.

ولما كان القصد من نقد هذه الرسالة ان تكون مثالاً ونموذجاً لطالب هذا الفن، كان لا بدَّ لي من اتبَّاع قسمي بث الحكم.

اما الاول وهو الترجيح فهو مرجَّح على ابي القاسم عبد العزيز بن يوسف، وعلى الصاحب بن عبَّاد بحكم الموازنة التي مرَّت بك بين الرسالتين، وبحكم الثعالبي وغيره من اكابر الكتاب وحسبك قول ابن الاثير فيه «وكيف اضع من الصابئ وعلم الكتابة قد رفعه وهو امام هذا الفن والواحد فيهِ» ولو فُسِحَ لي مجال القول، ولم اكن اخشى الخروج

عن موضوع الكتاب ، لعزت شواهد الترجيح ، بما لا يبقي ريبة من ذلك في نفس مستريب .

واما الثاني وهو التنزيل فانهُ نازلٌ بين امرآء الحجا والكلام ، وملوك الانشآء والنظام ، في منزلة لم يشركه فيها الاّ افراد معدودون ، واعلام متفرّدون ، كابن المقفع وعبد الحميد ، والجاحظ وابن العميد ، وابن الاثير والحلبي ابن حبيب ، وابن خلدون والوزير ابن الخطيب ، وان شئتَ تمحيص هذا الحكم فعليك بمطالعة كتابات هؤلآء الصدور ، بل انصح لك ان تفعل ذلك فهو تمام الفضل والكمال الموفور .

تم الكتاب

الجزء الثاني

صفحة	سطر	غلط	صوابه
٤	١٣	دوك	دونك
٥	٨	مجفوٌّ	مجفوٍّ
٨	١٦	الآدن	الأيوانَ
١٥	٦	جوداً	جواداً
١٦	٩	هون	هوَان
١٨	٩	عند	عندي
٢١	٦	به	فيهِ
١٤٤	٣	باللاذ	في اللاذ
١٥٦	٦	المشرق	المشرق على
١٥٩	٩	النبات في المكان	المكان في النبات
١٥٩	١٢	الحر في أرض	في أرض
١٥٩	١٣	لحصدنا	الحرّ لحصدنا
١٦٢	١٤	السودا	السوادا
١٧١	١٠	قوانا	قلنا

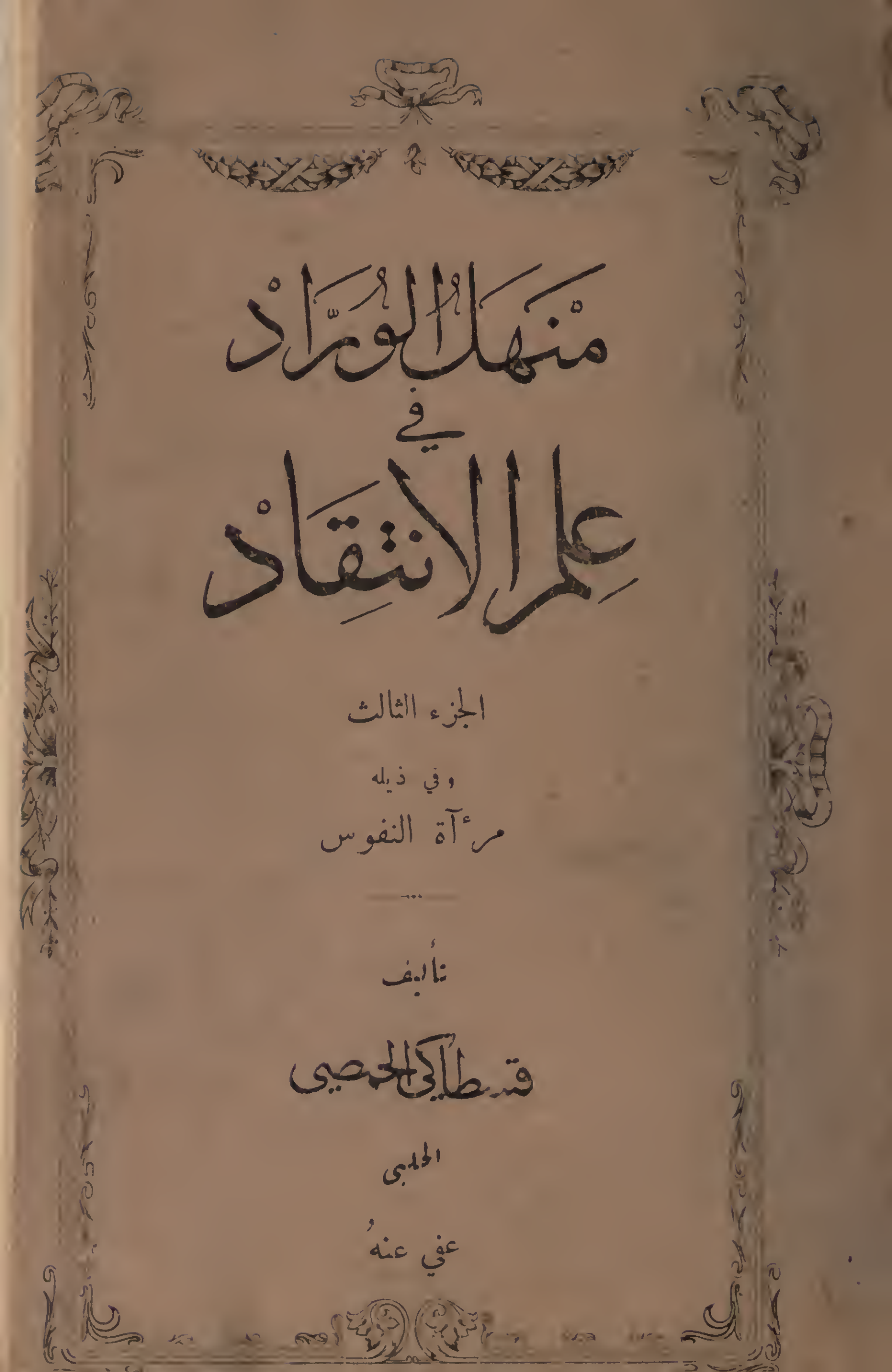
صفحة	سطر	غلط	صوابه
١٧٦	١٤	يَحُسّ	يَحِسُّ
١٩٠	١٥	ادب	أَوَب
١٩٢	٧	الحديدية	الحديدة
٢٠٨	١	وان	إن
٢٠٨	٣	ويَتَقَدم	وبتقدم
٢٠٨	١٣	سيرُ	خيرَهُ
٢١٤	١٠	ما لا	ما يستحسنهُ
٢٢٨	٧	عفقت	عققتُ
٣١	١٥	للمؤاخذة	للتفنيد
٣٤	٨	محمد	محمداً
٤٥	١٥	نوراً	زيتاً
٧٣	١٥	باسقاط	لاسقاط
١٠٢	٧	تنشد	ينشد
١٠٦	١٥	كانهار	كأنها
١٠٩	١٥	اذا	اذ

الجزء الثاني

صفحة	سطر	غلط	صوابه
٤	١٣	دوك	دونك
٥	٨	مجفوٌّ	مجفوِّ
٨	١٦	الآدن	الأيوانَ
١٥	٦	جوداً	جواداً
١٦	٩	هون	هوَ ان
١٨	٩	عند	عندي
٢١	٦	به	فيه
١٤٤	٣	بالملاذ	في الملاذ
١٥٦	٦	المشرق	المشرق على
١٥٩	٩	النبات في المكان	المكان في النبات
١٥٩	١٢	الحر في أرض	في أرض
١٥٩	١٣	لحصدنا	الحرّ لحصدنا
١٦٢	١٤	السودا	السوادا
١٧١	١٠	قولنا	قلنا

صفحة	سطر	غلط	صوابه
١٧٦	١٤	يحَسُّ	يُحِسّ
١٩٠	١٥	ادب	أُوب
١٩٢	٧	الحديدية	الحديدة
٢٠٨	١	وان	إن
٢٠٨	٣	ويَتَقَدم	وبتقدم
٢٠٨	١٣	سيرُ	خيرٌ
٢١٤	١٠	ما لا	ما يستحسنه
٢٢٨	٧	عفقت	عققتُ
٣١	١٥	للمؤاخذة	للتفنيد
٣٤	٨	محمد	محمداً
٤٥	١٥	نوراً	زيتاً
٧٣	١٥	باسقاط	لاسقاط
١٠٢	٧	تنشد	ينشد
١٠٦	١٥	كانهار	كأنها
١٠٩	١٥	اذا	اذ

صفحه	سطر	غلط	صوابه
١١١	٣	عادةً	عادةٌ
١١٦	٥	لخليفة	الخليفة
١١٨	٥	تحققت	تحققت انَّ
١٢٩	٤	فاذا	فاذا نظرت
١٢٩	١٤	النقد	النقد من
١٣٤	٩	وعليه	وعليها
١٣٥	٦	لزيغ	فذلك لزيغ
١٤٣	٤	ويتقرغ	ويتفرع
٢٢٩	٥	ـكان	لـكان
٢٥٣	١٤	وابتهج أيدهُ	وابتهج بما يصير أيدهُ
٢٥٤	١٦	توزع	تُوزِع
٢٥٩	٧	متانق الالفاظ منطيق	منطيقيٌّ متانق الالفاظ
٢٦٤	١	ومناقشة	ومنافسة
٢٧١	٦	راحتك	اراحتك



منهل الوراد في علم الانتقاد

الجزء الثالث

وفي ذيله

مرآة النفوس

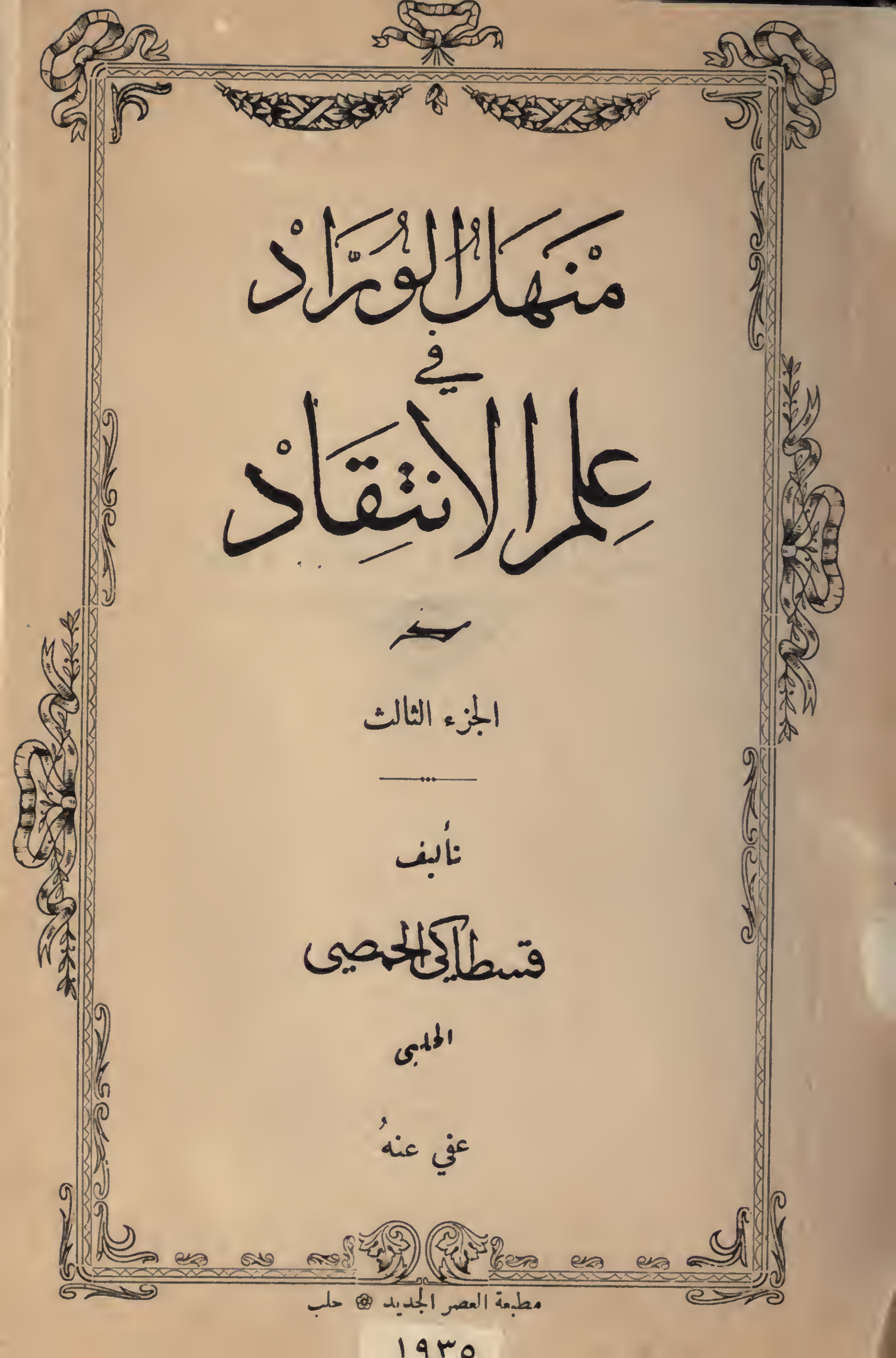
تأليف

قسطاكي الحمصي

الحلبي

عفي عنه





مَنْهَلُ الوُرَّادْ في عِلمِ الانتِقادْ

الجزء الثالث

تأليف

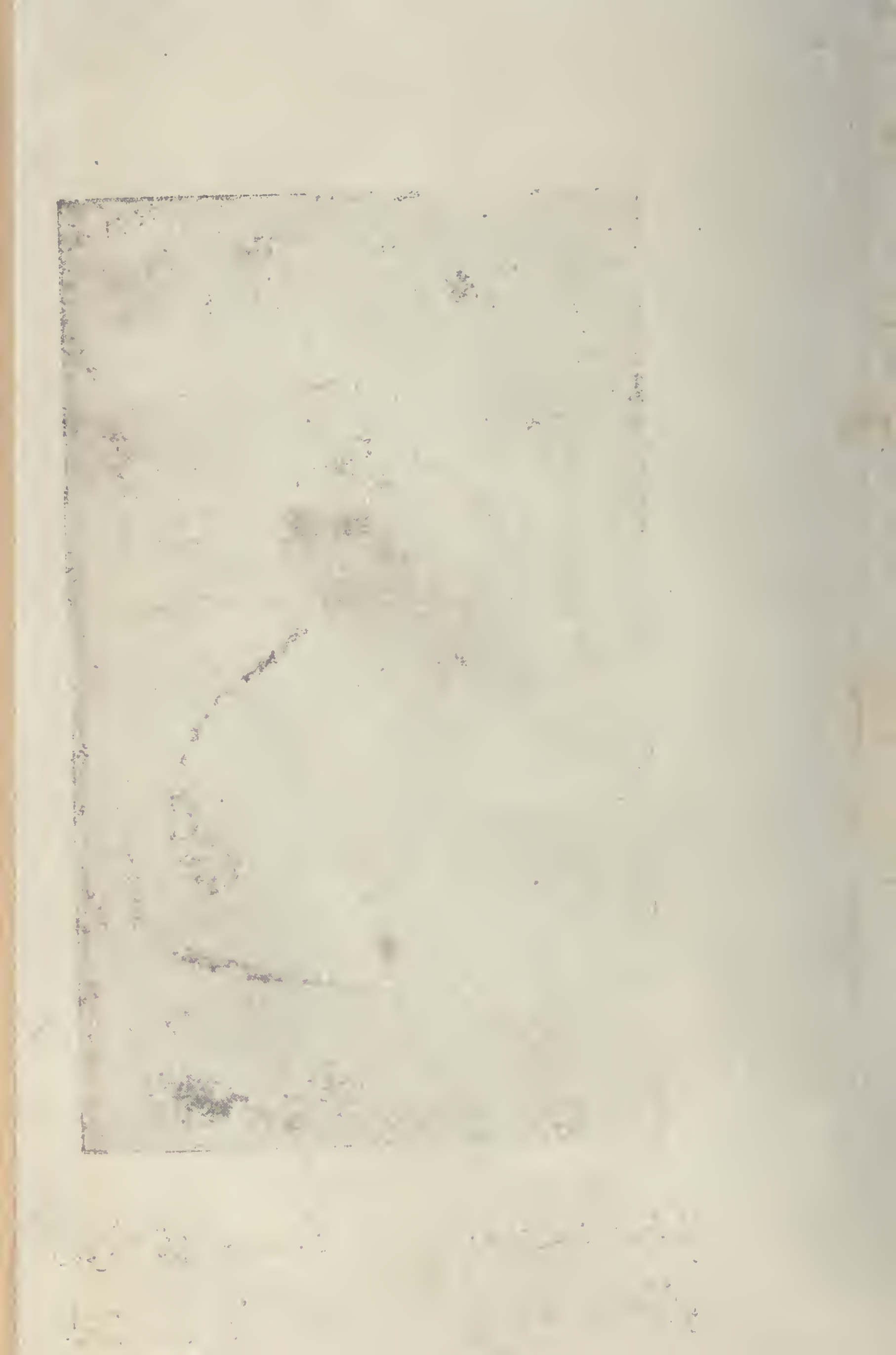
قسطاكي الحمصي

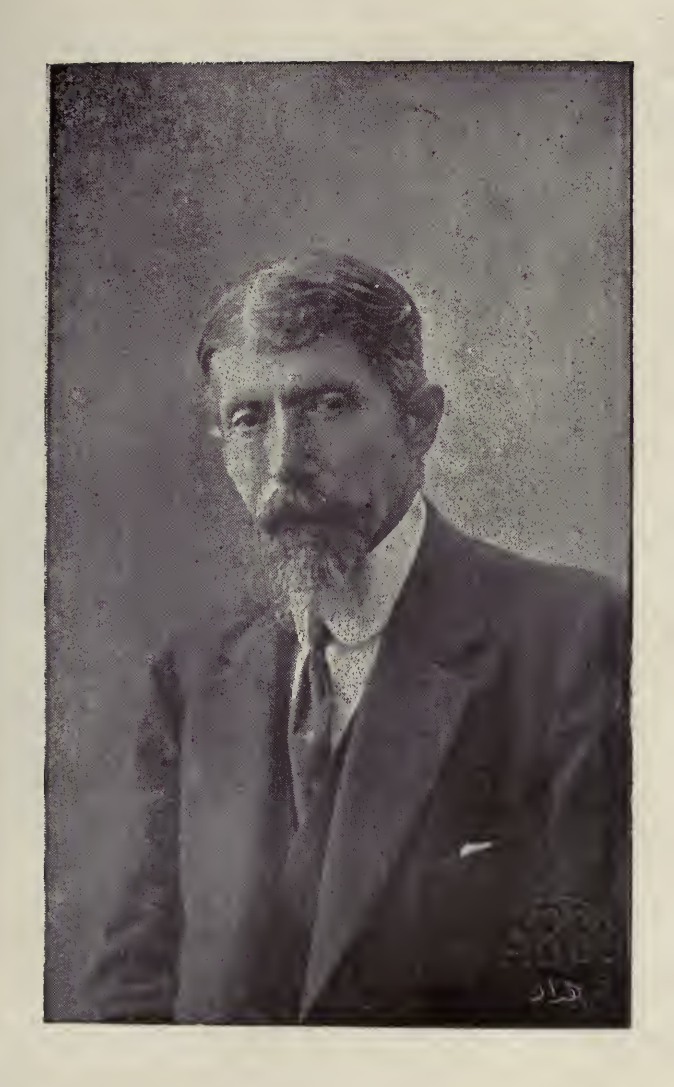
الحلبي

عفي عنه

مطبعة العصر الجديد ❀ حلب

١٩٣٥





رُسومُنا تفنى واجسامُنا　　تبلى وهذي سنّةُ الكونِ
وليسَ يبقى غيرُ آثارِنا　　مَن لي بآثارٍ بها صَوْني

يطلب من مكتبة العصر الجديد
لاصحابها السادات قسطون اخوان

ومن

مكتبة حامد افندى عجان الحديد
بحلب

فهرست

الجزء الثالث من منهل الوراد في النقد الادبي



المقدَّمة

اما بعد فلاريب في ان احدى الصفات الغريزية في هذا المخلوق العاقل هي طلب الاحسن ، فان فاتهُ فلا يبرح يتمناه ، وهي الصفة التي يسميها الفلاسفة ، التماس الكمال ، غير انهُ كلما ازداد توغلاً في طلب المعارف ازداد علماً بمدى جهله الفسيح اي معرفةً بنقصه واستحالة مطلبه ، وهذه المعرفة تزيده شوقاً الى استكشاف المجهولات وحضّاً على ادمان البحث والطلب .

ولا نطيل باكثر من هذا بل نروي للمطالع او نتذكر ما دعانا اليوم الى تأليف هذا الجزء الثالث من كتابنا « منهل الوراد في علم الانتقاد » بعد ان مرَّ على طبع الجزئين الاول والثاني نحو من ثلاثين سنة ؛ ذلك انه لما تم طبع الجزئين المذكورين كنا يومئذٍ في مصر ، فلما عدنا الى الوطن اجتمع الينا كثيرون من اهل الفضل فاثنوا ما هم به اولى ، وكان منهم بين الخلان صديق لنا لم نشكّ يوماً في صدقه واخلاصه ، وكان رحمهُ الله ينظر الينا دائماً بعين الرضى ،

وكنا نرى له انتقادات في غاية الاصابة، فلما خلونا واخذنا باطراف الاحاديث بلغنا الى ان بسط لسانهُ في تقريظ الكتاب ثم قال الا انني لا اكتمكم ما كنت اتمنَّاه ذاك ان تتعرضوا للكلام عن النقد الادبي ، قلت لا ريب في انكم طالعتم الفصل الثالث من الجزء الاول عن النقد في القرون المتوسطة ؟ قال نعم بكل تبصر وانعام نظر ، قلت أترونَ ان الناطقين بالعربية اليوم هم ارقى حالاً واوفر رغبة في المعارف والفنون من فرنجة القرون المتوسطة ؟ قال لا فالى اين تريد ؟ قلت اريد ان كان شأنهم كشأن اولئك فما فائدة النقد الادبي ؟ قال صدقتم ورحم الله القائل

ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمامِ

وكنت احب لكم ان تختموه بالنقد الادبي وهي خدمة للغة ، فلا تجعلوا هذا الغرض بعيداً عن مراميكم وادعو لكم بتحقيقه .

وتوالت السنون ومات الصديق ولم يزل صوت رجائهِ مستقراً في اذنيَّ ، والايام تماطل بهِ الهمة وتعاجزني عن القيام بهذه المهمة ، حتى نبَّهت شمس المغيب الى قرب الرحيل ونادت بالتعجيل فاجبتُ بالطاعة وعلى الله قصد السبيل .

ولما كان النقد الصحيح عماده الصدق كما تقدم لنا في الجزء

الاول، توجّب علينا ان لا نكتم عن المطالع تفصيل ما دعانا يومئذٍ الى الأكتفاء بالجزئين المتقدمين في وضع قواعد النقد والاقتصار على بعض ما يشير الى النقد الادبي، وقد اعتذرنا عن العرب عند بحثنا في تاريخ النقد لجنوحهم عن فن الانتقاد، وذلك لما كانت عليه الدولة العباسية في احسن ايامها من الاستبداد والظلم، وقل مثل ذلك في الدولة الأموية ومن تلاها في افريقيا والاندلس في ازهى قرنٍ للمعارف العربية، واحوالهم تلك كانت تشبه في بعضها ما ذكرناه اجمالاً عن احوال الأفرنج في القرون المتوسطة، وقلنا هناك انه لم يكن عندهم سبيل للنقد لاسباب اولها الاستبداد والظلم.

ولا بد من زيادة في هذا البحث اذ قد عزمنا على الخوض في بحار النقد الادبي، وذلك لان المشهور عندنا الى اليوم في جميع كتب العلم، ان علوم الادب هي ما ذكرها السلف ورتبها علماء العرب، اثنا عشر قسماً او نوعاً اولها علم اللغة ثم الصرف ثم الاشتقاق فالنحو فالمعاني فالبيان فالخط فالعروض فالانشاء فالمحاضرات (اي الخطَب) فعلم القوافي فالبديع، واختصرها بعضهم فجعلها ثمانية علوم وهي اللغة فالصرف فالنحو فالعروض فالخطب

فالانشاء فالمعاني فالبيان وان الاربعة المذكورة قبلاً مندمجة فيها .

وهذه العلوم كلها لا تدخل في بحث النقد الادبي وان سماها علماؤنا بالعلوم الادبية وانما نقدها يسمى النقد العلمي في عرف الافرنج وهو الصحيح .

وفي مطلع هذه المقدمة روينا حديثاً قديماً جرى مع احد اصحابنا الادباء في السبب الذي دعانا يومئذٍ للانصراف عن تأليف قواعد النقد الادبي ، ويُلَخَّص السبب المذكور في نقص استعداد البلاد العربية ، وبعد الأمة يومئذٍ عن سلم العلوم الادبية ولا نحب ان ننتقل عن هذا البيان قبل ان نؤيدهُ بالبرهان .

يجب ان يعلم الباحث عن العلوم الادبية - في عرف الامم الافرنجية اليوم - (وسيأتي تفصيلها) انها لا تنمو ولا تخصب الا في ظلال الحرية وتحت حماية قانون المساواة واحكام العدل وسلطان الوطنية وشريعة الامان ، فاذا عُلم هذا فلننظر في اي عصر بلغت الامة العربية شيئاً مما ذكرناه ، أفي خلافة معاوية أم في مَن بعده من الخلفاء الامويين ؟ وقد كانت الامة كلها بدويةً او قريبة عهد بالبداوة ، وكل ما اقتبسوهُ من غير علوم اللغة والدين - وهو شيءٌ قليل جداً - كان عن الفرس ، وكان حكم الفرس في

تلك العصور حكماً استبدادياً كأكثر معاصريهم من الشعوب .

ولما انتقلت الخلافة الى العباسيين كانت اشد استبداداً من الامويين لاسباب ليس هذا موضع ذكرها ، وجميع العلوم التي اشتغلت فيها الامة لم تخرج عن علوم اللغة والدين ، حتى ان العلوم الفلسفية التي عرّبها المعرّبون عن اليونان واكثرهم من غير المسلمين ـ اذ انكرها طائفة كبيرة منهم ـ لو لم يكن الآمر بتعريب تلك العلوم هو الخليفة المأمون نفسه ، لما عرف العرب منها حرفاً ، وجملة القول ان الامة العربية في عهد الخلافة العباسية كلها ، كانت مقيدة باغلالٍ من الاستبدادِ والجور شأن ممالك الارض كلها لذلك العهد .

ثم تلا الحكم العباسي استبداد بني بويه الديلميين وعقبه حكم السلجوقيين ثم الأكراد الايوبيين وكانوا لعهد القرون المتوسطة في اوربا ، وقد ذكرنا حالة العلوم الادبية عندهم في تلك القرون كما تقدم في الجزء الاول ، فلم تكن حالة الامة العربية لعهد الاكراد الايوبيين اسعد حالاً من امم اوربا ، ولم تكن العلوم عندهم اكثر انتشاراً مما كانت في الغرب ، وقل مثل ذلك عن علوم العرب في الاندلس ، ولم يكن حظ ابن باجه وابن الطفيل وابن زهر وسواهم من المشتغلين بالعلوم الفلسفية خيراً من اولئك فقد كفَّر مشائخ

الدين ومعهم العامة كلٌّ من اشتغل بالعلوم الفلسفية ، ونُكِبَ بسببها اكبر فلاسفة المسلمين ابو الوليد ابن رشد ، وعُزِل عن القضاء وأحرقت كتبه في كل بلد من الاندلس بامر قضاة وموالي الملوك والخلفاء لتألب الغوغاء كما تقدم من جماعة التحمس الديني وتحذر الملوك من عواقب ثورتهم .

ولما فتحت البلاد العربية الجيوش التركية في حكم آل عثمان ، لم يكن لعلماء الترك شيء من العلوم سوى ما اخذه بعض علمائهم عن العرب وهي معرفة اللغة العربية وقواعدها لتفهم علوم الدين الاسلامي ، ثم اقبلوا على شرح تلك الكتب حسبما فهموها ليعلموها سواهم من طلاب العلم الاتراك ، وكانت حالة العلم عند عامة الأمة العربية قد انحطت الى الدرك الاسفل ، وظلت تسير نزولاً وانحطاطاً بعوامل كثيرة اهمها استبداد الولاة والحكام الى آخر يوم من ايام الحكم التركي .

ومَن يراجع مكاتبات محمد علي باشا والي مصر الى ابنه ابرهيم باشا وغيره من وزرائه وعماله في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، يأخذه العجب من حالة الجهل يومئذٍ في ذلك القطر وهو موطن الأزهر ومجمع الازهريين ، بل من يطالع الرسائل

والقوانين والأوامر التي كانت تنشرها الحكومة المصرية وهي حكومة عربية الى عهد قريب ، يكاد لا يصدّق نظره لما يراه فيها من الركاكة والغلط واللغة العامية المستركة واغلاط الخط ، واليك انموذجاً منها بحروفه .

صورة امر عال صادر للمحافظة فى ١٨ ذى الحجة سنة ٩٠ نمرة ١٧

« وكيل بطرخانه الاقباط قدم لدينا انهاء رقيم ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٩٠ علمنا منه لمناسبة ان مصالح الطائفة القبطية المختصة باوقافها وفقرائها وكنائسها ومدارسها ومطبعتها آخذة في التقدم والعمارية قد ترآى لهُ انهُ اذا تشكل مجلس من ابنا الطائفة للاتحاد معه في نظر وادارة خصوصياتها المعتاد نظرها بالبطرخانة ليكون ذلك داعياً لزيادة ترقية تلك الامور ونجاحها فلهذا صار انتخاب اثنى عشر عضواً لذلك المجلس واثنى عشر نائباً لهم بمعرفة من لزم من الطائفة وتم الانتخاب بمحضر عُمل بالبطرخانة ويلتمس صدور امرنا للمحافظة بمعرفة المجلس المحكي عنه واختصاصه برؤية الامور المثنى عنها وحيث انه ما حصل من انتخاب اولئك الاعضاء والنواب لتشكيل ذلك المجلس بالكيفية التي توضحت قد استحسن لدينا وقورن بمساعدتنا اجابة التماس وكيل البطرخانه الموما اليه

فبذلك لزم اصدار امرنا هذا لكم للمعلومية بما ذكر وهذا كما اقتضت ارادتنـا . »

فاذا تبصرت بهذا الامر الصادر من لدن حاكم البلاد المصرية يومئذٍ ، ايقنت ان حالة العلم كانت فيها كالغول والعنقاء ، اذ أنّ الناس على دين ملوكهم ، فان كان حاكم البلاد وهو شبه ملك يصدر عنه امثال هذا الانشاء ، واذا كان هذا منتهى علم وفصاحة اعظم كتَّاب الملك ، فما عسى ان يكون مبلغ علم سائر الكتاب ، بل متوسطي الحال والعامة من الأمة ؟ وهذه الحالة كانت قبل طبع الجزئين من كتابنا هذا بنحو ثلاثين او خمسٍ وثلاثين سنة فقط ، ولما كنا في مصر اي حين طبع الكتاب ،كانت المعارف قد خطت خطىً واسعة ولا سيما في كثرة المطابع والصحف والمجلات والورّاقين (باعة الكتب) ولا بد لنا في هذا المقام من الثناء الوافر على مواطنينا الكرام السوريين اذ كان لهم في هذه الحلبة النصيب الأكمل ، فمن اوائل المطابع التي ظهرت هناك ولم تزل عامرة كثيرة النشاط والفوائد الى اليوم ، مطبعة عيسى البـابي الحلبي بقرب الازهر ، ومطبعة امين افندي هنديه ووراقته (مكتبته) ثم مثل ذلك للفاضل الكاتب المشهور جرجي زيدان رحمه الله ومجلته

المشهورة «الهلال» ومن اول الجرائد ولم تزل الى اليوم جريدة «الاهرام» لمؤسسيها سليم وبشارة تقلا رحمهما الله ومثلها جريدة «المقطم» ومجلة «المقتطف» لاصحابنا الدكتور نمر والدكتور صروف وشاهين بك مكاريوس رحمهما الله، وغير من ذكرنا كثيرون وفي شهرة جميعهم وغيرتهم على الفضل ونشاطهم في سبل المعارف غنى عن التفصيل.

اما سوريا فلم تكن دون مصر بل هي السابقة الاّ في حرية الكتابة عن السياسة والحكام وكل ما يمسّ حرمة الاديان ولاسيما الدين الاسلامي.

وهذان هما القُطران العربيان اللذانِ ابتدأا ارتياد المعارف منذ ستين سنة، الاّ انهما كانا بعيدين عن ان يكون فيهما شيء من شبه النقد الادبي، ولم يزالا كذلك الى اليوم وذلك لما تقدم بيانهُ اجمالاً وسيأتي تفصيلهُ مع عللٍ أُخَر.

الباب الاول

فى تعريف الادب عند العرب
وفى تعريف العلوم الادبية المعرّفة فى الفرنساوية بلفظ
Sciences Morales

قال في لسان العرب الادب ادب النفس والدرس، والادب الظرف وحسن التناول، وقال السيد في تعريفاته الادب عبارة عن معرفة ما يحترَز به عن جميع انواع الخطأ، وقال: اداب البحث صناعة نظرية يستفيد منها الانسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانةً عن الخبط في البحث والزاماً للخصم وافحامه.

وقال ابو الخير في مفتاح السعادة ما محّصله: ان فائدة علم الادب هو التخاطب والمحاورات في افادة العلوم واستفادتها وان العلمآء اعتنوا به فاستخرجوا من ذلك علوماً قسموا انواعها الى اثني عشر قسماً وسموها **بالعلوم الادبية** لتوقف ادب الدرس عليها بالذات وادب النفس بالواسطة، وبالعلوم العربية ايضاً لبحثهم عن الالفاظ الخ.

هذا تعريف علمآء اللغة وقد الّفوا كتباً كثيرة وعنونوها

كلها بادب او اداب كقولهم كتاب اداب البحث ، واداب العلم ، واداب السياسة ، واداب النفس ، وادب الكاتب ، وادب الغربآء ، واداب الطعام ، واداب الوزرآء ، واداب الملوك ، وغير ذلك كثير جداً .

قال الماوردي الادب ادبان ، ادب مواضعة واصطلاح ، وادب رياضة واستصلاح ، قال فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيؤخَذ تقليداً على ما استقر عليهِ اصطلاح العقلاء ، واتفق عليهِ استحسان الادبآء ، وليس لاصطلاحهم على وضعهِ تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب ، كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الان اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانباً للادب مستوجباً للذم ، لان فراق المألوف في العادة ومجانبة ما صار متفقاً عليه بالمواضعة ، مفضٍ الى استحقاق الذم بالعقل ما لم تكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث ، وقد كان جائزاً في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه ـ والاولى ان يقال اعتادوه ـ فيرونهُ حسناً ويرون ما سواه قبيحاً ، فصار هذا مشاركاً لما وجب بالعقل من حيث توجّه الذم على تركهِ ، ومخالفاً لهُ من حيث انهُ كان جائزاً في

العقل ان يوضع خلافه ، اما ادب الرياضة فهو ما كان محمولاً على حال لا يجوز في العقل ان يكون بخلافها الخ . وهو كلامٌ جدير بالاستبصار ومزيد الاعتبار .

والادب في عرف الفلاسفة هو مجموع قواعد او قوانين يجب على الانسان ان يسير بموجبها ، وبتعريف آخر انها سنَن ادبية ترشد حرية الانسان في جميع احواله الى خطوات او واجبات عليه ومبادلات مع امثاله من البشر ، وغاية هذه السنن ادراك السعادة الدنيوية واخصها تعديل شهوات النفس وزجرها عن المطامع .

وعلى الجملة فالعلوم الأدبية سنن اداب كثيرة تجمعها سنّة ادب النفس .

قال بسكال ان عماد ادب النفس تعويدها على التفكر دائماً بالخير والصلاح ، وقال ايضاً ان علوم الاشياء الكونية لا تشفع عندي في جهلي العلوم الأدبية ، لكن العلوم الأدبية تشفع عندي دائماً في جهلي ما ليس منها . وقال ايضاً ان المبدأ القويم لأدب النفس حبسها عن شهوات الحس" . ومن اقواله ِ ان الأداب التي موضوعها تحديد العادات وتقويم الأخلاق هي في الحقيقة علم الانسان او العلم الانساني .

وقال دَالَمبير (ت) اداب النفس او اداب الاخلاق يُعَدُّ العلم الأكمل، او هو علم العلوم، لما فيه من الحقائق التي هي مبادئه ولما في تلك الحقائق مما يسحر الألباب. وقال ايضاً ان الاقدمين اجمعوا على ان اداب رسطاليس (مقالاته في الادب) هي اكمل جميع كتبهِ.

وقال ديديروْ ان اداب الاخلاق (او) اداب النفس هي علم الشرائع الطبيعية والمادح والمقابح في المجتمع الانساني.

وقال كمباثيريس ان ادب النفس هو الشعور بالعدل والظلم والخير والشر والصالح والشرّير.

ولا نطيل باكثر من هذا، ومما تقدم ومن مراجعة كتب فلاسفة العرب كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن الصائغ المشهور بابن باجه وابن مسكويه وابن رشد، يُفهم ان لفظ ادب النفس وعلى الخصوص لفظ الادب قد عمّموه عندهم وتوسعوا فيهِ حتى ضارع لفظ morale الفرنسوي بجميع معانيه، مع المجازات التي وضعوها لهُ كما يُفهم من عنوانات الكتب التي تقدم ذكرها الى مئات لم نذكرها، فكل هذه الاداب فروع من علم ادب النفس، لانه هو في الحقيقة العلم الانساني كما قال بسكال، او العلم الأكمل

او علم العلوم كما قال دالمبير(ت).

فقد رأينا من مجمل ما تقدم بيانه في اراء فلاسفة العرب وفلاسفة الأفرنج انهم متقاربون في تعريف ادب النفس، ولا عجب في ذلك فهو مبني على مقالات المعلم الاول في اكثر ما اوردوه، الاّ ان تحديد ذلك ـ اي العلوم الادبية ـ عند الافرنج هو اوضح واكمل واتقن، شأنهم في جميع العلوم التي مارسوها، ولاسيما ما تعلق بالنفس وعواطفها وشعورها ونفورها وانجذابها وولوعها وبغضها واستيحاشها واستئناسها وانقيادها وعصيانها واسترسالها واحساسها وعلى الجملة ادق حركاتها واخفى نَزَعاتها مما لا يُحيط بهِ الا التعمق وطول الدراسة في علم النفس او الاحداث النفسانية وهو المسمى عندهم أبسيكولوجي ولهُ شأن عظيم في العلوم الفلسفية كما هو معلوم، وهذا العلم لم ينظر فيه فلاسفة العرب الاّ من الوجه الطبي بصورةٍ عرَضية، ومن الوجه الدَيني اي علاقة النفس بالدين كما كان شأنهم في جميع العلوم ولاسيما علوم الفلسفة، ومع ذلك كلهِ لم يرضَ عنهم جمهور العلماء وعامّة الأمة وسمّوهم زنادقة وملاحدة وكفّاراً في كل عصر من عصورهم.

وبالاجمال فان كل ما كتبه العرب في العلوم الادبية بالمعنى الحقيقي الذي ذكرناه آنفاً لا يتعدى نصائح وارشادات في التزام الفضائل ومدحها ، وقدحاً في الرذائل ونهياً عنها ، وهذا لا يمكن نقده البتة لانها حقائق اجمع عليها العقلاء من جميع الامم في سائر العصور للانسان المتمدن اي ساكن المدن ، وما خلا ذلك من كتاباتهم لم يخرج عن طريقة الافرنج في القرون المتوسطة ، وتلك الطريقة تضل الناقد مهما حلّق وانعم وتبحّر في نقده كما ذكرنا في الجزء الاول عن النقد في القرون المتوسطة .

واين من هذه كلها ما كتبه الافرنج في فنٍ بُدىءَ بهِ عندهم منذ القرن السادس عشر لكنهُ لم يصل الى كمالهِ الحقيقي ولم يبلغ مرتبة فوائدهِ السامية ، الا بعد دخولهم القرن التاسع عشر اريد بهِ الفن المعروف عندنا اليوم بفن الروايات كما سيأتي بيانه .

على ان العرب بعد ان قطعوا القرن التاسع عشر كلّه وثلث القرن العشرين ، ظلوا مكانهم من الغربة عن مملكة العلوم الادبية العصرية .

لانهُ لما كان المجتمع الانساني قائماً على ركنين هما الرجل والمرأة ، وظل العرب ـ اهل المدن ـ ممتنعين عن السماح للنساء

بمجالستهنَّ في مجتمعاتهم حتى بين الاقارب ، لم يكن لهم هناك مجتمع متمدن في العرف المشهور العصري . قال احد علماء ادب النفس ان الانسان لا يُعدّ انساناً تاماً الا اذا اتخذ لهُ زوجة ، فاذا كان لا زوجة لهُ عُدَّ نصف انسان .

ومن المعلوم ان المرأة التي هي النصف القائم بحياة النوع الانساني اذا جُعِلَتْ سجينة البيت ، سجينة الحجاب ، سجينة الوحدة او الانزواء ، بعيدة عن كل مجلس يجمع اتمام النوع الانساني - في البدءِ خلقهما ذكراً وانثى - آلةً للايلاد فقط ، فهي لا تصلح بعد ذلك لمجتمع متمدن ، بل هي لا تصلح للتربية ، واذا فسدت تربية الاولاد او لم تكن صالحةً ، فهل تستطيع الاسرة التي ذاك حالها ان تدّعي المدنية الراقية التي تتمتع بها الامم الافرنجية ، بل اقلها علماً وتهذيباً ؟ وعلى الجملة هل يستطيع العرب ان يكذّبوا من يدّعي تخَلّفهم عن الامم الغربية مراحل طويلة في طرق الحضارة ومحاسنها ؟ قال اكبر فلاسفة المسلمين القاضي ابو الوليد ابن رشد : ان حالتنا الاجتماعية لا يمكن ان تترك سبيلاً لرؤية او معرفة القوى الطبيعية التي في النساء ويظهر من هذا الحال انهنَّ لا يصلحن الا للولادة والارضاع ، وهذه الحالة الاستعبادية قد سلبت منهنَّ

تفهم الاشياء العظيمة ، ولهذا السبب لا يُرى بيننا امرأة واحدة تحلّت بفضائل ادبية ومزايا علمية ، فان حياتهن تتقضى كحياة النبات ، وهنَّ انفسهنَّ عيال على ازواجهن ، ولهذا السبب تجد الشقاء يبتلع بلادنا ، لان النساء فيها ضعف الرجال عدداً ولا يستطعنَ ان يحصلنَ بعملهنَ على مطلب حياتهن .

هذا ما يقولهُ ذلك الفيلسوف في الاندلس وكانوا جيران النصارى منذ سبعمائة وخمسين سنة وفيه عبرة وذكرى لمن كان لهُ قلبٌ او القى السمع وهو شهيد .

فان كان لم يزل هذا شأنهم في هذا القرن العشرين قرن النور ، قرن الكهرباء ، فهل يستطيعون ان يجاروا معاصريهم الافرنج في اكثر المعارف ولا سيما في العلوم الادبية اي ادب النفس ؟ وهل يستطيعون وهم في حالة تفرّد الرجال بالاجتماعات والمخالطة والمعاشرة ، ان يبلغوا من هذا العلم مهما كان المتفرّغ لهُ نبيهاً ذكياً عاقلاً ، الا نصف العلم ، اذ انهُ يجهل كل شيء من ادب نفس الانثى ، وقد يعترض المستعجل فيقول أليس عند الرجل منا امرأته او امه او اخواته ؟ والجواب هين ، فهل يجهل عاقل ان المرأة التي تتقضى حياتها على ما اسلفنا بيانه من السجون والتربية ُيمتنع عليها ان

تشعر بما تشعر بهِ المرأة التي هي واثقة من حريتها الادبية ، والتي تعلم انها نصف الاسرة ونصف المجتمع وربّة البيت وامّ الاولاد القائمة بالتربية الادبية الحقيقية فضلاً عن التربية البدنية ؟ وهب انها بعد كل تلك الحياة الاستعبادية ، لم يزل فيها شعور لكثير من الاشياء ، فهل يصدّق عاقل ان من كان ذاك شأنها تبوح بشيء من قوى نفسها لزوجها او لاخيها او انها تبدي لهما ما يشفّ عنها ؟ وهل يستطيع افرس العقلاء ان يبني من مراقبتهِ عواطفها حكماً صادقاً او شبه حكم ؟ وجملة القول كيف يمكن مَن لا يملك سوى نصف العلم ان يكتب شيئاً في ذلك العلم ؟ وللاسباب المتقدمة نرى ان العلوم الادبية بالمعنى المفهوم في الفرنسوية لا يستطيع ان يكتب فيها او يتقدم لانتقادها عربي من ابناء هذا العصر ، وانما اذا توفق المجتهدون في باب الاجتهاد الى ازالة العراقيل التي تصدهم عن بلوغ سبل المدنية العصرية ، فيومئذٍ يمهّدون لانفسهم طريق الوصول الى هذه الغاية السامية التي تُطلَب منهم قبل مطالبتهم بالوظائف في الحكومات ، وهي احوال عرضية افرادية لا تخدم الامة الخدمة الصحيحة ، فلا ملك ولا حكومة ولا حرية ولا وطنية صادقة ، دون علم متين وتربية خالية من الشوائب تنتشر بين العامة وادب نفس قويم .

وقد يعنّ لغرّ جاهل او حسود متجاهل ان ينسب اليّ الطعن على القوم كأنهُ يزعم ان قولنا الشمس يعتريها الكسوف والقمر يصحبه الخسوف قدح فيهما ، والعاقل يعلم ان ليس على قائل الصدق من حرج ، وان الامة التي ادركت تلك المنزلة السامية من المجد والعلم لم تعد اليوم تلك الامة - وكم تقلبتِ الايامُ والدولُ - وليس صديقك من كذبك بالمدح بل صديقك من اخلص لك النصح ، ونحن في عصر يطير اهلهُ في الغرب - بل اربابه - على متن الريح فلا يليق بنا ان نعود القهقرى الى الفي سنةٍ ونفاخر بالابل والنجائب ، وهم في كل يوم يُروننا عجيبة بل عجائب ، فمن تأخر في السباق جوزي بالاهمال ، والاهمال هلاك ودثور ولله در القائل

انفوا المؤذّن من بلادكمو ان كان يُنفى كلُّ مَن صدقا

الباب الثانى

في النقد الادبي

ان المادة الحقيقية التي يأخذ منها النقد الادبي عناصر حياتهِ ويشتمل تركيبه ونموه ، هي اداب النفس ، وحرية البحث ، فحيثما وجدت هذه المادة مصورة بقلم اديب او متفننٍ اطلع على كنوز

البحر الزاخر بهذا الفن عند الامم الاروبية، ولا سيما عند الفرنسويين، وغاص على اصناف لآلئه حتى يستطيع ان يتبين الاحسن من الحسن، وامكنهُ بعد ذلك ان يؤلف في العربية ما يحقق للناقد ان ملكة هذا الفن متمكنة منهُ، فحينئذٍ يفسح للناقد البصير مجال قولٍ وصول، اما الفنون المعبّر عنها في الغرب: بالفنون الادبية: فأكثر ما نراها مجموعة ومفصّلة في فن الروايات[١].

ويجد فن النقد مادة غزيرة ايضاً في المباحث الاجتماعية والمقالات الفنية التي ينشرها كبار الكتّاب في فن التصوير وفن الموسيقى وسائر الفنون الجميلة على صفحات مجلاتهم، ولهذا السبب تجرّد للنقد عند كل امة من الامم الغربية ولاسيما عند الفرنسويين طائفة من اكابر كتابهم وعلمائهم وفي رأسهم سانت بوف وتاين وبرونتيير واناتول فرانس وسواهم كثيرون من اهل القرن التاسع عشر، حتى انه قلما خلت صحيفة من صحفهم من مقالة انتقادية في كل اسبوع، واما المجلات الشهرية والاسبوعية فلا يخلو عدد منها من الابحاث الانتقادية، ويتوقف رواج او كساد اكثر الروايات والكتب وما تُمثّل على المسارح في الملاعب ودور التمثيل، على

(١) اما ما وقع الينا من الروايات المؤلفة في سوريا ومصر منذ نصف قرن الى اليوم فليست في شيء من الفن الذي نحن في صدده.

نتيجة نقد ناقد الكتاب والتمثيل ، ومقامه في عالم الادب والنقد .

ولست تجهل ان الشرط الاول من قانون كل علمٍ ان لا يتعرض الاديب او الناقد للكتابة ما لم يكن على تبصرةٍ من ذلك العلم .

ولكي نقرب الطريق على المستفيد نأتي بمثال لما يتوجب على الناقد توخِيه واستخلاصه واستنتاجه مما انتقد ، ونرجو ان يقف منهُ على روح النقد الادبي وعلى ما فيه من مزيد الفائدة وجزيل اللذة .

من المعلوم ان الحبّ اعمّ شيء اشترك فيه هذا المخلوق الناطق بل وغير الناطق في كل بقعة من بقاع الارض على اختلاف الالوان واللغات والحضارة وانواع الخشونة الجاهلية والبربرية والهمجية منذ اوائل الاجتماع البشري ، ولذلك فقلما تخلو رواية من حكاية حب او غرام وان كان موضوعها بعيداً كل البعد عن ذلك .

اورد احدهم في روايته علاقة حبٍ بين فتىً وفتاة زعم ان احدهما شغف بالثاني وان هذا تظاهر بالحب وفي باطنهِ نفور ، وظلا كذلك مدة غير قصيرة ، وذلك مما يخالف احكام المحبة وسننها في الطبيعة ، ومن المعلوم ان المحبة ضرب من ضروب الجاذبية ، اذ علاقة الحب la sympathie تقتضي ايجاباً من الشخصين ، لان تقرّباً وائتلافاً من احد القلبين ، ونفوراً وتراجعاً من ثانيهما مخالف للمعلوم والمعقول ، وانت تعلم ان علاقة الحب

هي شعورٌ او ميل قلبي او احساسٌ غريزي يدفع المرءَ الى حب شخص آخر، وهذا الميل نتيجة استحسان المحبوب، وهذا الاستحسان يراهُ بعض الفلاسفة منبعثاً من حب التشبّه او التقليد ولا يكون ذلك الا لما يراهُ المحب في شخص المحبوب مما يشبههُ او انهُ يحسبهُ كذلك، ويُستَخلَصُ من ذلك اننا بميلنا الى انسان نحسبهُ يشبهنا في شيء من الخلَق او الاخلاق انما نحب انفسنا، وتلك هي الانانيّة، وقال آخرون ان العشرة واتفاق الطباع، عامل قويّ سريع لايجاد هذه العلاقة، الّا انهُ وان كان غير مُستَنكَر هذا السبب فقد تحدث كثيراً علاقة الحب la sympathie دون عشرة ولا علم سابق بطباع الشخص المحبوب بل لاول نظرةٍ ولله درُّ فيلسوف الشعراء

لهوى النفوسِ سريرةٌ لا تُعلَمُ عَرَضاً نظرتُ وخلتُ اني اسلمُ

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فلا بأس من ايراد ابيات بالمعنى المتقدم من قصيدة لنا على طريقة المتصوفة كنا بعثنا بها الى احد اكابرهم.

. . . .

ما كلُّ حسنٍ جاذبٍ اهل النُهى فالخلفُ فيه لم يزل متجدّدا

اذ لا يُخَصّ بصورة محدودةٍ بل بالصفاتِ وجودهُ لن يُجحَدا

فالبعضُ قال الحسنُ سِرٌّ غامضٌ والحبُّ في الاجمال لن يتحدّدا
والبعضُ قد عشق الجمالَ مجرّداً ويراهُ بعضٌ ان يكون مقيّدا
وراهُ قومٌ إِلفةً تدعو الى استحسانِ ما عاينتَهُ متردّدا
والبعض قد زعم الزمان قضيةً عَرَضيةً وعلى المقال استشهدا
فلقد يكون عقيب سهمٍ صائبٍ من مقلةٍ قد كان فيها مُغمَدا
ولقد يكون لِكلمَةٍ وقعت بإِذ نِكَ فاغتدى منها الفوأدُ مصفَّدا
ولقد يكون بغير ذلك هكذا قد قال بعضُ أُلي الرجاحةِ والهُدى

وعلى الجملة فانا نرى كل يوم عكس ما تقدم ايضاً وهو ان يقع النفور l'antipathie بين الشخصين لاول وهلةٍ في الغالب بل لنظرةٍ في الطريق لم تسبقها معرفة بينهما وهذا ما يُرى في كثير من الحيوان والجوامد كتنافر الملح والمغنيسيا، والكبريت والحجر، والزيت والماء والذئب والغنم والهر والفأرة والحية والارنب وغيره كثير.

اما القائلون بالانانية فانهم يؤسسون رأيهم هذا على أنَّ الانانيّ يحب ان يجذب الى شخصهِ حمد الناس ومحبتهم والتحدث بمزاياه ـ وفي الحقيقة ان هذا الحب او التمني غير محصور في ذوي الانانية، بل هو عامّ في الانسان، الا ان الانانيّ يتخذ لهذا الميل

او التخلق عناية ظاهرة متوالية في اكثر شؤونه ، بل يهون عليه الوصول الى بغيته هذه او امنيته ، ما لا يهون على سواه من غير الانانيين . وان هذه المحبة او الرغبة هي الميل الى التقرب والاستئناس بالشخص المحبوب لان علاقة الحب هي ، في الجملة ، الفة واستئناس وسرور ، اما النفور l'antipathie فهو كراهة واستيحاش واشمئزاز ، فهما ضدان لا يجتمعان .

ومع كل ما تقدم بسطه من امتناع الجمع بين قلبين متضادين ، تجد راوي الرواية يدعم ما يرويه عن بطلي روايته ، بحجج طبيعية ، وبرهانات طبية ، وشواهد فلسفية ، وعلل لا يأباها المنطق ، وكل ذلك ليقنع القارىء ان هذا العطف وهو العامل الايجابي من احد الشخصين ، وذاك النفور وهو العامل السلبي من الشخص الثاني ، يجتمعان برغم القاعدة العامة المشهورة وهي ان الضدين لا يجتمعان او لا يمتزجان .

وفي هذا البحث وامثاله مجال لنقد الناقد الادبي ، فاما ان يفنّد براهين الكاتب او ان يفسد بعض ما يحسبه السبب او العلة في ذلك السر ، او ان يدل على ما خفي عليه من الاسباب الطبيعية او العارضة كالالفة والجوار ، او الموانع الخلقية الى غير ذلك مما يطول تعداده من براعة البحث والنقد وشواهد الفطنة والتدقيق وسعة الاطلاع

وكثرة المعارف التي يستعين بها الناقد الالمعي على استخراج ما في الصدور من وراء السطور، حتى تحسبه يفكك الطلاسم ويستقصي في حل الرموز العويصة وايضاح المعمّيات، ولقد تحسب نفسك وانت تقرأ انتقاده كأنك سائراً مع نديم اديبٍ المعيّ في جنّاتٍ تعبق بها الازهار، وهو يعرّضك لنفحاتٍ من العطور تحت ظلال الاشجار، وينقّلك فيمرّ بك على جسور عُقدت فوق الانهار، ليسمعك غناء البلابل والعنادل، او خرير سَكورٍ وحياض وجداول، ويستوقفك حيناً لتتمتع من اعطر شميم، وحيناً لتتنسّم الطف واطيب نسيم، وآونةً لمشاهدة ابدع منظر وسيم، حتى لتخال انك معهُ في عالم آخر بل في نعيم مقيم.

وهو لا يتعرض في الغالب لمنزلة انشاء الكاتب من البلاغة ولاسيما اذا كان من ذوي الشهرة في علم الادب، ولا لاطالة الجمل او اختصارها ولا لاغلاطه ان كان ثمت اغلاط، فهذه كلها من باب النقد العلمي والبياني، وقد يجمل ذلك كله ببضعة اسطر ينبّه المطالع على ما كان يليق ان يُكتب في ذلك الباب، وعلى انهُ - اي الناقد - لم يفتهُ ذلك، لان الغرض الاول من النقد الادبي هو البحث عن المعاني وحقائق الرواية، او ما يلبسها ثوب الحقيقة، وهي افعال النفس واثار الحس في الانسان كما تقدم القول خدمةً

لعلم النفس .

وانت ترى من هذه اللمحة الاجمالية ما للناقد البصير من المجال الواسع في تحليل كلام المؤلف وبيان ما اجاد فيه او قصّر من وصف افعال الحواس ودقائق الشعور واخفى حركات النفوس في حالاتها المتباينة من سرور وحزن او صحة ومرض ، وهناء وشقاء وعداوة وصدق ، وغضبٍ وحلم الى شيء كثير مما يعرض لعموم الانسان وفي سائر ادوار الحياة ، من ارقى البشر مدنيةً وعلماً الى احطهم بربريةً وجهلاً ، وذلك ببرهانات ودلائل وحجج وشهادات للفلاسفة والعلماء والنقاد والاطباء وغيرهم ، ومن قرائن العادات القومية ، او الحوادث الطبيعية ، لما يمكن ان يخالف بهِ الناقد ما رواهُ المؤلف او قصّر فيهِ ، او تفصيل دقته واصابته الغرض او براعته في التعبير ، اذ لكل حالة من حالات الانسان اليومية شؤون تستدعي اقصى التبصر في الوصف والشرح .

ومن المعلوم انهُ لا يُقبل عند علمائهم في الغرب قول أُلقي على عواهنه ، ولا يُحتَفَل بتقريظ غير مصحوب بحجة واضحة ادبية ، وعلى الجملة فلا رشوة عندهم في سبيل حقائق الادب . ولا تُقبل في ديوان احكامه شفاعة صداقةٍ او شهرةٍ او علو مرتبةٍ او وحدة وطن او غير ذلك مهما بلغت منزلة الناقد او المنقود .

على ان النقد الادبي لم يتسع لهُ المجال ولم يحسن الناقدون التبسط في القول الا منذ بداية القرن التاسع عشر وذلك بانتشار فن الروايات وفن المجلات ، اذ اتخذ الفن الادبي فن ادب النفس مستقراً لهُ ، بل مسارح في هاتين المملكتين بل العالمين عالم الروايات وعالم المجلات ، لكنهُ لم يصل الى هذه الدرجة من التدقيق والتفنن والاتقان الا في النصف الثاني من القرن الاخير ، حتى ليستطيع الاديب ان يقول اليوم ان فن الروايات او فن ادب النفس قد بلغ عندهم ولاسيما في فرنسا حد الكمال، ان كان للعلم حدٌّ كمال .

الباب الثالث

في فن الروايات

هذا الفن لم يعرفهُ العرب ولكنهم عرفوا شيئاً من الفن القصصي ، واقدم كتاب ظهر عندهم منهُ هو كتاب كليلة ودمنة تعريب ابن المقفع وهو مشهور وكلهُ حكايات على ألسنة الحيوان، الا ان مراد مؤلفهِ منهُ وعظ ونصح احد ملوك الهند من عهد اسكندر المكدوني وهو في موضوعه وغرضه وبلاغته فوق ان يحيط به تقريظٌ وكفى بهِ تعريفاً انهُ من افصح ما وجدنا لابن المقفع وهو امير كتّاب العرب . ومن هذا الباب حكاية تليماك

تأليف فينيلون الاسقف المشهو لتهذيب تلميذهِ وهو الذي رقي الى عرش الملك في فرنسا باسم لويس الخامس عشر ، وعندنا من هذا الباب مقامات الحريري لكنهُ ينطوي على حكايات مُلهية في ظاهرها وتتضمن شيئاً كثيراً من اداب الفصاحة والبيان ، ولكنها لا تنطوي على بيان شيء من ادب النفس او الالمام بعادات القوم لعصره الا شيئاً ضئيلاً جداً ، ثم عندنا كتاب الف ليلة وليلة وهو اشهر من الصبح لكنهُ ليس في شيء من فن الروايات الآتي تعريفه وانما هو حكايات ألّفها مجهول او رجل يسمى الشيخ يوسف بامر احد حكام مصر — وقد يكون من الايوبيين(١) — في حَدَث معيب ظهر في بيته وتناقله الناس ، فاوعز الى الشيخ يوسف ان يلهي الناس عن الخوض فيهِ ، واذا كان في كتاب الف ليلة وليلة شيء من فن الروايات او من ادب النفس ، فهو ان الاداب في ذلك العهد كانت في احط الدرجات ، اذ في الكتاب من الفحش والاقدام على الرذيلة ما يجب ان يُمحى خياله من كل بيتٍ يحصّنه اهله بادب النفس .

وفن الروايات لم يكن معروفاً عند اليونان ولم يُعرف في اروبا الا في القرن السابع عشر وقيل بل السادس عشر ، على انهُ

(١) اذ في بعض الحوادث التي يذكرها ما يدلُّ على انهُ لم يتقدم ازمانهم .

لم يظهر عندهم بمظهر استرعى اسماع الادباء، واستدعى انتباه الحذّاق من اهل الفضل والحكماء، الا في اوائل القرن التاسع عشر، ومنذ يومئذٍ شمّر لهذا الفن جماعة من بلغاء كتّابهم، وعرفوا ما فيهِ من فسيح المجال لسوابق الافكار ومن بعيد المدى لتصوير الاحداث النفسانية والاهوآء الانسانية وما يتبطن ذلك من البحث عن العلل والاسباب، وما ينبعث عنها من دِراسة الطباع البشرية، وفي كل بحث من هذه الابحاث العديدة، شغلٌ بعيد الغور للكاتب الالمعي والطبيب النطاسي والمؤرخ الفطِن والمربّي البصير والحكيم المدقق والمتجسس المهذب والرقيب المتأدب الى غيرهم من رؤساء الجماعات وعرفاء الطوائف من ذوي الفطانة والذكاء وممن اوتوا حظاً من العلم ونصيباً من صناعة الانشاء، وعند ذلك رأى البارعون من كتَّاب القرن الاخير ان يختار كل كاتب منهم الفنَّ الذي يرى نفسه اليه اميل وتحرّيه فيه اوفر فيؤلف روايته ويجعل نتيجة بحثه فيها، الموضوع الذي توجه اليه تفتيشهُ وعلمهُ وخصص لهُ اجتهاده، لا يقف في سبيل ذلك تعدد اشخاص الرواية او قلّتهم، او اختلاف الحكاية التي يبني عليها الموضوع او غير ذلك اذ على المؤلف ان يرتق الفتق وان يصل المقطوع.

ومن المعلوم ان من يغني للذّته، ليس كمن يغني لاجرته، ومن

يكتب كما يشتهي ويحب ، ليس كمن يكتب مأموراً او مأجوراً ، فان من القرائح ما لا يجيد الا بضرب واحدٍ من الفنون ، كأن لا يحسن الكاتب الا تصوير الوقائع المخيفة او المحزنة ، فاذا كتب في حوادث الغرام ساقه ميلهُ وذوقه الى ان لا يذكر فراقاً غير مصحوب بالنوح والبكاء ، ولا لقاء الا والدمع يرافقهُ خشية البين او الموت ، واذا ذكر حادثة سرور لا يحسن سردها ولا تفصيلها ، وقد لا تصدّق انه نفس كاتب الرسالة الفلانية او الكاتب الفلاني الذي صوّر به غرق السفينة الفلانية او الحريق اذ اتى بهِ على ادق واخفى ما يظن او يُقال في ذلك الحدَث ووصف هول تلك المواقف ، وما عَرَض للشيوخ والاطفال والنساء من الجزع واليأس او شجاعة بعض الرجال ، او تغلب الرجاء او التقلب بين هذه الحالات والنزاع والفزع والمغالبة بين الموت والحياة واصوات المستغيثين وشهقات اليائسين وزفير النزع ومشهد الغرق والتطام الامواج واحتراق ذلك الجمع ، حتى تكاد تزهق روح القاريء من هول ذلك التفصيل والتصوير ، وبعكس هذا كاتب لا يحسن غير الزهريات والمسرات ، وسواه لا يُبارى في وصف احساس النساء ودقة شعورهن ، وغيره في قراءة خواطرهن ، وآخر في وصف بعض النفوس الشريرة ومدى ميلها الى الرذيلة ، وسواه

في ادب بعض النفوس السامية وما تشعر بهِ من الالم اذ ترى عجزها عن كشف مظلمة او دفع جور او انقيادها لخداع مكّار احسنت بهِ الظن ، بل تجد من هولاء الكتاب مَن يصوّر تأثير الخشونة وحدها في بعض النفوس المهذبة كألم لسع عقرب او طعنة خنجر ، الى الوف من حالات دقائق الحس وانواعهِ بين الألم واللذة او الفرح والحزن الى غير ذلك فتعددت ابواب فن الروايات بتعدد الاغراض التي اتخذها كتّابها البارعون ، فمنهم من رأى ان يقصر تحقيقه على حذق الفِراسة او الحدس في بعض الناس ، فجعل بطل روايته متجسساً او رقيباً ، وآخر رأى ان يجمع في تدقيقهِ تأثير عشير السوء وعدواه ولا سيما في نفوس الصغار والفتيان ، وتفرّع من هذه الابواب فروع كثيرة ، فمنها ما قصروه على الجرائم بانواعها ورتبها من افظعها الى اخفها شراً ، ومنها ما قصروه على غرائب الخبث في بعض النفوس ، ومنها ما وصفوا فيها وصوّروا ابدع المزايا والفضائل البشرية ، ومنها ما خصوا بهِ بعض الرجال ببعض الصفات من حسنة او قبيحة او انها اغلب فيهم من النساء ، ومنها بالعكس ما غلبوها على النساء ، ومنها ما غلب في احد النوعين وندر في الثاني ، ومنها ما نسبوه لخبث الاصول ، ومنها ما اثبتوه في زكاء الاصول مع ندورة شذوذه ، ومنها ما اثبتوا بهِ عكس

المشهور من لزوم تجنبهِ او تعلّمه ، الى ما لا يحصى من حالات ادب النفس واختلاف عواطفها ، وغرائب الشذوذ فيها ، واثرها باختلاف الاصول والتربية والتعليم والقدوة والصحبة والبيئة والصحة والضعف والظروف حتى اختلاف ساعات النهار والليل ، وتأثير الحر والبرد والجوع والشبع والشمس او المطر او الغيوم المتلبدة ، في الاشخاص المحكي عنهم في الرواية ، ويتخلل ذلك كله اشياء من دقة الوصف والحذر وحسن التعبير وسهولة التفهيم وتصوير حالات النفس في سائر مظاهرها مما لا يفيهِ حقه الا الراسخون في هذا الفن .

ولما تخصص لكل فرع من هذه الفروع طائفة من اكابر كتّاب كل امة من اممهم ، فاتخذه لهُ صناعةً لا يعاني سواه ، ورأى ان يتعهده مدارسةً ومراقبةً وتفتيشاً خدمةً للعلم والتذاذاً بالتحصيل ليأتي على غاية ما تشعر بهِ النفوس باختلاف الاشخاص من النوعين ، من الحزن او الفرح ، والبغض او الود ، والجسارة او الجبن ، والحقد او سلامة الصدر ، والانجذاب او النفور الى كثير سوى ما ذكر ، وعلى التأثير الذي يحدثه كل عارض من هذه الاعراض على اختلاف مراتب اصحاب تلك النفوس من الاصل والتربية والصحة والمزاج والسن والعلم والبيئة والعشرة ، فكان

من ثمرة هذا التخصص شهرة الكاتب بالفرع الذي اجاد فيه .

وقد يرى المؤلف ان يدمج القصة في رواية واقعة تاريخية او بعض تلك الواقعة يعلل بها الاسباب النفسية التي كانت السبب لوقوعها مما قد لم يكن تنبّه له مؤرّخ قبله، او انهُ يكون مما استنبطهُ المؤلف وفيه من شبه ما يحدث في العالم على تقادم الدهر، ما يجعله قرين التصديق، غير بعيد عن الحقائق المعروفة .

وقس على ما وصفناهُ من فن الروايات، فن الكتابة في مجلاتهم في هذه وتلك يتكلم الكاتب بلسانه او بلسان من صورتهم قريحته بما توحيه اليهم افكارهم فينطقون بما يشعرون غير هيّابين، ولا مترددين، فان قضت احكام ضمائرهم بجور الحاكم، او خور القائد او جبن الجندي او فساد التدبير او رعونة السياسة او تخطئة عالم او كاتب الى غير ذلك من حسنات المدنية وسيئآتها، اطلقوا لاقلامهم اعنّتها وبسطوا ألسنة المقال انتقاداً وتفنيداً او تغليطاً لا يمتنعون الا عن الشتم والطعن المعيب .

اما فوائد هذا الفن بعد الذي عدّدناه، فانها لعموم الناس تسلية تلهو بها الخواطر، وللعقلاء لذة تتغذى بها العقول، ولاهل الظرف والادب فكاهة، وللعلماء مجال للاستبصار والاعتبار في دقائق الحس واختلاف تأثيراتها في النفوس البشرية، وما يمكن

الوصول الى جلائهِ من الغوامض الطبيعية الى غير ذلك من شتى التحقيقات، وفيها ما يلهو بهِ الكبار، ويهذب الصغار، ويرشد الى الطريق القويم من ادب النفس للنوعين، اذ قلما تجد عند الورّاقين - باعة الكتب - كتاباً من هذا الفن لا يليق ان يوجد في خدر العذراء . وعلى الجملة فقد جعلوا فن الروايات خزانة العلم الانساني .

الباب الرابع

في مادة فن الروايات

ذكرنا في الباب المتقدم ما كان لفن الروايات عند الامم الافرنجية من التأثير العظيم في تشعب العلوم الادبية، وقلنا ان فن الروايات لم يبلغ مستواهُ الرفيع الا منذ اول القرن التاسع عشر وانهُ لم يُعرف عندهم قبل القرن السابع عشر او السادس عشر .

ومن المعلوم ان الفنون الجميلة ومثلها سائر المعارف، هي كجميع الصناعات البشرية، لا تنتقل في مراتب النمو ما لم تتهيأ لها البيئة الصالحة، ولا ترتقي في درجات الاحسان وتبلغ مقامات الكمال ما لم تتعهدها ايدي الجد والاتقان وتحوطها عناية الرجل النبيه الحاذق بتسهيل الوسائل الموصلة الى النجاح المطلوب .

واساس فن الروايات وعماده هو المراقبة ، اي مراقبة المؤلف اخلاق البشر ، لينبش عواطفهم واسرار نفوسهم في حالات الرضى والغضب ، او الحب والبغض ، او الحزن والسرور ، او سعة الصدر وضيقه ، الى غير ذلك من كثير الحالات التي تختلف باختلافها الاحداث النفسانية في الجنسين من النوع الانساني ، ولاسبيل لادراك هذا الغرض الا بالمصاحبة والاجتماع والمعاشرة مع مختلف الطبقات المتمدنة ، ولايتيسر ذلك الا في الامصار التي استبحر فيها العمران والترف والغنى وسائر اسباب اللهو والسرور ، وتوفرت فيها الاجتماعات والمحافل ومجامع العلم والشعر وسائر الفنون البديعة ، وهذا كله يندران يجتمع في غير العواصم العظيمة التي هي دور الممالك والجمهوريات . واكثر ما كان يُرى من ذلك لدى مشاهير الملوك الذين غلب في طباعهم حب العلوم فجادوا على العلماء ونشّطوا القائمين باسباب المعارف وساعدوا اهل التعليم ، ولم يقم في الممالك الاوروبية كلها من عظماء الملوك الى القرن السابع عشر ، مَن حاكى لويس الرابع عشر ملك فرنسا في ذلك ، فاجتمع حول عرشه عصابة من الشعراء والعلماء والمؤرخين والفلاسفة والنقادين والمتفننين النوابغ ما لم يجتمع مثله في عصر من العصور ، فرتب لاكثرهم وظائف يقبضونها من خزانة الدولة في كل شهر ،

عدا المَنح والانعام التي كانت تسبغها عليهم الملكة والاميرات والامرآء من آل البيت الملكي ، ودانت لصولته البلاد ، وامنت السبل ، واخصبت الزراعات وراجت التجارات لوفور عنايته بهما وكثرت الاموال بين ايدي الخلق لتوالي الفتوح في حروبه وقامت الافراح وتوالت الزينات والاعياد والمواسم والمهرجانات ولاسيما الاحتفالات التي كانت تنظم في قصور الملك في باريس وكانت تجمع ربّات الملاحة والحسن واميرات العقل والدلال ، وكل امرآء فرنسا ونبلائها والشعرآء والعلمآء والفلاسفة والنقادين واعيان باريس وكل ذي مقام سامٍ ولاسيما سفرآء الدول ، وكان يقصد باريس لتلك المهرجانات الملوكية كثير من الامرآء والاشراف من الامم المجاورة فرنسا ، اذ كان يعقب ما ينتظم في القصور الملكية كثير من الاحتفالات الانيقة في قصور الامرآء والوزرآء والاشراف في باريس يُدعى اليها كثيرون ممن يُدعَون الى المهرجانات الملكية ، واذ ظلت باريس في تلك الحقبة من الدهر - ١٦٥٨ الى ١٦٧٠ اي في اوائل شباب لويس الرابع عشر الملقب بالشمس - جنّة الدنيا وعرس الزمان ، وكان زائر تلك القصور في تلك الليالي البهيجة اذا تقدم في ساحاتها وتنقّل في باحاتها ثم ارسل رائد طرفه في مجال تلك الابهآء المترامية الاطراف ، وتأمل في بدائع تلك التصاوير وترقيش

ذلك الاثاث الانيق وتطريزه، ونقوش تلك السقوف وتصاويرها وألوانها وما يخالطها من بريق الذهب الابريز السكب، والانوار المتألقة من الوف الشموع المعلقة حيثما توجه البصر، تتضاعف احادها بانعكاسها على الواح هاتيك المرآئي النقية العظيمة، ثم خفض الطرف بعد الدهشة البالغة فعاين حلقات الرقص تدور، كما تدور في افلاكها البدور، فمن اشمُلٍ مسَكَت بالايمُن ومن سواعد أُلِفَّت على الخصور، وقامات تتوارى حياءً منهن غصون البان، وتسجد لتمايل اعطافهن قُضُب الخيزران، تردّين بغلائل كانها نُسجت من بخار الماء، فشفّتْ عن اجسام كانها كُوِّنَتْ من عنصر الهواء،

حِسانُ التثني يَنقشُ الوشيُ مثلَهُ   اذا مِسنَ في اجسامِهنَّ النواعمِ
ويبسمنَّ عن درٍّ تقلدن مثلَهُ   كأنَّ التراقي وُشّحت بالمباسمِ

ينقلن ارجلهن على وقع الالحان وضرب الاوتار وكأنهنَّ المراد بقول الشاعر

وراقصٍ مِثلِ غصنِ البانِ قامتُهُ   تَكادُ تذهبُ روحي في تنقّلهِ
لا تستقرُّ لهُ فوقَ الثرى قدمٌ   كأنَّ نيرانَ قلبي تحتَ ارجلهِ

ولا تكاد تنتهي نوبة الرقص حتى ينهض احد الشعراء كموليير او راصين او كورنيل او بوالو، فينشد قصيدة من شعره، ولا يكاد

يفرغ هذا حتى يجول المدعوون حول موائد الشراب والفواكه والابازير والانواع العديدة من الوان الحلاوى الملوكية، يدورون ازواجاً وقد تأبط ساعد كل غانية رجل من ذوي قرباها او معارفها ثم يروحون ويجيئون في تلك الرحاب والابهاء، وكل زوج يتكلم بحديث، اما حديث وداد او عتاب، او حديث انتقاد او اغتياب، وهم يُعَدّون بالمئات، ومنهم وقوف ومنهم قعود، من مكتهلات وكهول وعجائز وشيوخ، وكلهم يتطايبون ويتباسطون، او يتمازحون ويتفاكهون، ويتناظرون حسب اهوآئهم واذواقهم، وفي مثل هذه الليالي الحافلة بالزينات، المزدحمة فيها اقدام اكابر الناس ولُبابهم، وبين الرقص والموسيقى والاغاني والشعر وانواع الاحاديث والتسارر، مجال تسترق فيه اذان الناقدين واعينهم ضروباً من الالفاظ وانصاف الالفاظ والاشارات والملامح التي تفضحها الاحداث النفسانية في اصحابها، ما قد يَمرّ عمر الانسان ولا تتيسر فرصة يختبر فيها المراقبون طباع المنقودين مثلها، باختلاسهم الاشارات والنظرات والكلمات لعجز بعض النفوس عن كتمان حسدها او غيرتها او ألمها او غرورها او انخداعها او غير ذلك من عواطفها، فتبوح لمن بجانبها من صواحباتها او معارفها او اصدقآئها، او يفشي ذلك اسارير وجوه اصحابها بما ينبىء عن غيظ

او عبوس ، او قنوط او سرور او انقباض او تقلّص او رَجَفان او رعدة تعتري بعضهم لمفاجأة شخص يكرهون ان يراهم او يخشون ان يقف على امرٍ يكتمونه او عدوٍّ او حاسد الى غير ذلك مما لا يمكن انتقاده او مراقبته ، الا في مثل هذه الحفلات ، ولعل موليير ولافونتين وبوالو وغيرهم من شعرآء الملك والنقادين كانوا يتخذون من هذه المحافل وغيرها ـ مما كان ينتظم عند الامرآء والاشراف ـ وسائل المراقبة واستراق السمع لما يدور بين بعض النسآء والرجال من الاشراف الذين لم ينالوا حظ الهضم في ذوق الملك ، فألفوا الروايات والقصائد البديعة الانتقادية وانشدوها او مثلوها بحضرة الملك لمسرّته وتسليته ، كالتي عنوانها : المتصنعات المضحكات ، والنسآء العالمات ، ومدرسة الازواج ـ وغير ذلك الى لافونتين وبوالوْ وسواهم ، ثم لما راقت في اعين اهل الذوق والادب ، جرى من بعد هولآء مَن تبعهم من الشعراء والكتّاب على اثارهم ، ولم يزل هذا الفن يزداد تحسيناً وكمالاً ، حتى وصل الى ما وصل اليه اليوم من تنوع المعارف وشرف الغاية في البحث عن ادب النفس ، وتعليل اسباب احداثها وعواطفها واهوآئها ، اما لطبيعة البلاد او لآثار الوراثة ، او لعوامل البيئة او التربية او العشرة ، او احوال الترف والنعيم ، او الفقر والجهل او الاختلال في

الشعور او غير ذلك مما توسعت به المعارف في متعدد الاخلاق البشرية.

ولم يكن هولآء الشعرآء والكتّاب ومن على شاكلتهم ممن طرق هذا الباب من الانتقاد، الا من الذين في غريزتهم حب الانتقاد، غير انهم لو لم تتيسر لهم اسباب البحث والتفتيش والمراقبة، وهي تلك المهرجانات الملكية، والمجالس المتعددة، التي كانت تضم مختلف اكابر الهيئة الاجتماعية في باريس قاعدة العمران البشري في القرن السابع عشر، ومحط رجال العظمة والترف والبذخ، ومعدن الازيآء بل مجمع العلم والفن والجمال، ولو لم يكن لهم ذلك الملك الملقب بالشمس ذو النفس السامية والهمة العالية سنداً وعوناً، شملهم بعطفه واقباله واستحسانه واحسانه، واحتذى مثاله سائر آل بيته واشراف المملكة، لما بلغ فن النقد هذه المنزلة التي نراها اليوم من البراعة والاتقان، واضف الى كل ما ذكرناه من البواعث والعوامل التي اعلت مقام هذين الفنين، المجامع العلمية والمجالس الادبية التي كان لها حظ رفيع في اكثر قصور الامرآء ومنازل الاشراف، اذ كانوا يتسابقون الى دعوة الادباء والشعرآء والمتفننين، يوماً في الاسبوع وبعضهم مرة في نصف الشهر وغيرهم مرة في كل شهر، لتمضية ساعات طويلة مع اقربآء صاحب الدعوة واصدقائه، في مساجلات ادبية ومفاكهات شعرية وانتقادية وابحاث في الفنون

المختلفة والمعارف المستحدثة، الى ممازحات لطيفة ومعاشرة مهذبة رقيقة بين الجنسين، وكان في خلالها يتبادل اولئك الشعراء والمتفننون الارآء فيما كانوا يؤلفونه، فيتذوق احدهم طعم رفيقه فيما يعرض عليه، بل كان بعضهم لا ينشر شيئاً من نظمه او نثره دون عرضه على صاحبه وتصحيحه طبق انتقاده، كما كان يفعل بوالو وراسين حتى فرقت بينهما المنون.

وانت تعلم ان قيمة المصنوع تتبع قيمة مادته الاولى، بل هي سُنّةٌ في جميع المواد وسائر المصنوعات، اذ ان حسن الصناعة يقتضي جودة المادة التي يتركب منها المصنوع، والصائغ الماهر لا يرضى الفضة بديل الذهب لصياغة الحجارة الكريمة.

فمادة الزوايات التي ظهرت في القرن السابع عشر، هي من هذه المادة الجليلة، من معدن العز وموطن الابداع والذوق الفائق المثال، فلا بدع بعد هذا ان يسمو فنٌّ مادته الاولى من هذا المعدن العزيز.

فاذا نظرت بعين الناقد الحصيف الى الظروف والاحوال والبلاد والامة ودار ملك تلك الامة والى موقعها الجغرافي من اوربا وفصاحة لغتها ووضوحها بين جميع لغات الامم الاروبية يومئذٍ، ولا سيما الى ملكها الشاب ومحبته المعارف وسائر الفنون

البديعة ولاسيما الفصاحة والشعر ، لم ترْتب في هذا الاساس الذي بنى عليهِ ادبآء وشعرآء القرنين اللذين عَقبَاهُ ثم هذا الاول من القرن العشرين هذين الفنين .

ومن اين للغة العربية من مثل ما تقدم وصفه ، بل شيء من وصفه ؟ فان خير عصور علومها ورواج سوق ادابها هو العصر الاول العباسي ولم يطل اكثر من حكم الخليفة المأمون ، الا ان المادة الاولى الجوهرية لتقدم الفنون كلها ولنبوغ اصحابها ، لم يكن يحلم احد بامكان حصولها ، وهي اجتماع الرجال والنسآء ، والمادة الثانية هي البحث في جميع الاداب والعلوم ، وهذا ايضاً لم يكن مباحاً الا لمن عرّب بعض كتب الفلسفة اليونانية بامر الخليفة وجلهم من النصارى ـ واكثرهم من اهل سوريا ـ كما هو معلوم ، ووقفت المعارف عند هذا الحد بل بدأت تتراجع القهقرى .

ولم تكن دولة هذه اللغة في الحكم الاموي وما تبعهُ في الغرب خيراً مما عانت في الحكم العباسي الى ان قام في القرن الثاني عشر امير المؤمنين ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن(١) فراجت لعهده سوق الاداب والعلوم وكثرت الاموال بين ايدي الناس لكثرة فتوحه ، وعم الامن وتوالى الخصب ، وكان عالماً شاعراً محباً

(١) تولى سنة ٥٥٨ للهجرة وتوفي سنة ٥٧٩ .

للفلسفة فذاق محبو العلم شيئاً من حرية الكتابة لعهده واجتمع حوله الفلاسفة كأبي بكر بن الطفيل وابن الصائغ وابن رشد وسواهم . وكان جل اشتغالهم في العلوم الفلسفية عن كتب رسطاليس وسواه من فلاسفة اليونان ، ومع ان اختلاطهم باليهود والنصارى بلغ حداً لم يُعرف مثله في حكم الاسلام (١) فلم يكن

(١) قال صاحب كتاب (ابن رشد والرشديون) لم يسبق في التاريخ لفاتح من الفاتحين تسامح كتسامح العرب الاسبانيين فوق ما ظهر منهم من لين الجانب مع المغلوبين ، ومنذ القرن العاشر المسيحي اصبحت اللغة العربية هي اللغة العامة للمسلمين واليهود والنصارى ، وكثر الزواج المتبادل بينهم ، بالرغم من معارضات رؤساء الاديان .

وسقطت الدروس اللاتينية والكنيسية الى درجة قصوى من الاهمال *] الى ان اصبح الاساقفة يتعاطون نظم القصائد بمراعاة غاية الاصابة في الوزن والاجادة في قوانين البيان في اللغة «العربية» حتى ان الفار القرطبي (لعلهُ رئيس اساقفة قرطبه) كان يؤنب مواطنيه بشدة لتفضيلهم الحروف العربية على الحروف المسيحية (اي اللاتينية) ولجهلهم دينهم ولغتهم ، ولاقبالهم بتعطش (متعطشين) على تحصيل النثر وبديع البلاغة العربية .

اما اليهود فقد استقبلوا غزوة اللغة العربية بسرور اوفر ، لان هذه السلالة المسكينة وجدت اخيراً بعض الراحة عقب سفرها الطويل ، وشبه تذكار لبيت المقدس (اورشليم) وكانت اسبانيا منذ عهد بعيد وطناً ثانياً لليهود ، فقد التجأ اليها منذ السنة الخامسة والعشرين بعد المائة على عهد ادريانس (ادريان) عدد كثير من الاسر التي نجت مما نزل بامتهم من توالي المهالك ، ولما كان الغوطيون الغربيون les Wisigoths يضطهدونهم فقد استقبلوا العرب كمعتقين ، ثم ان العلم ومذاق نفس العلوم اتمت مزج السلالتين ، حتى شوهد يهودٌ ترأسوا مجمع قرطبة **] . ان وحدة العلوم العقلية كانت في كل زمن احسن وسبط في تأسيس المسامحة والمساهلة .

*] يوجد مخطوطات في اللغة لاسبانية مكتوبة باحرف عربية وبالعكس . (عن مجلة العلماء Journal des Savants السنة الخامسة ٧ فى ١٦ جيرمينال للعلامة ده ساسي شارح مقامات الحريري .

**] كما روى البحاثة ميديلدورف .

اجتماع الرجال والنسآء مباحاً او مألوفاً في مجلس واحد ، ولم يصل الينا شيء من اثارهم الادبية ، وقد وقفنا على بعض ابيات لابي بكر ابن الطفيل هي الغاية في فن القريض وان كانت في باب التصوف لما تضمنت من البلاغة وبراعة التصرف قال .

وجرّتْ على تربِ المحصّبِ ذيلَها فما زالَ ذاكَ التربُ نهباً مقسّما
تناولُهُ ايدي التجار لطيمةً ويحمله الذاريُّ إيانَ يمّما
ولما رأت ألّا ظلامَ يجنُّها وأنَّ سراها فيه لن يتكتّما
نضتْ عَذَباتِ الريطِ عن حُرِّ وجهها فابدتْ محيّاً يُدهشُ المتوسّما
فكان تجلّيها حجاب جمالها كشمسِ الضُحى يعشى بها الطُرفُ كلما
ولما التقينا بعد طولِ تهاجرٍ وقد كان حبلُ الودِّ انْ يتصرّما
جلتْ عن ثناياها واومضَ بارقٌ فلم ادرِ مَن شقَّ الدجنّةَ منهما
وساعدني جفنُ الغمامِ على البكا فلم ادرِ دمعا اينّا كان اسجما
فقالت وقد رقَّ الحديثُ وابصرتْ قرائنَ احوالٍ اذعنَ المكتّما
نشدتُكَ لا يذهبْ بكَ الشوقُ مذهباً يهوّنُ صعباً او يرخّصُ مأثما
فامسكتُ لا مستغنياً عن نوالِها ولكن رأيتُ الصبرَ اوفى واكرما

ولم يطل عمر هذه اليقظة العلمية الا بمقدار حياة يوسف ابي

يعقوب المذكور ولما توفي وتولى ابنه يعقوب ابو يوسف انقلبت الحال ولم يمت الا بعد ان كان أمر بحرق كتب الفلسفة وسائر العلوم ونكب اصحابها وشتتهم كل شتيت حتى

كأنْ لم يكن بينَ الحجونِ الى الصفا انيسٌ ولم يسمُر بمكةَ سامرُ

الباب الخامس

في التأليف ومراتب المؤلفين

التأليف في اللغة هو الجمع او وصل بعض الكلام ببعضه ، والمراد بالجمع جمع كلام من تقدم ، او قواعد اي علم من العلوم ، فالمؤلف يجمع ما يختارهُ من اقوال علماء ذلك العلم ويزيدها ايضاحاً ، فيفكّ معقَّدها ويفتّح مُغلَقها ، وقد يزيدها تعقيداً واغلاقاً ، او يُفتَح عليهِ باشياء لم يتقدمهُ احد فيها فيضيف الى ذلك العلم فوائد لم يُسبق اليها ، وذلك كله يتوقف على مرتبة المؤلف .

وليس من يجهل كثرة الفروق بين الناس في الفهم والذكاء والنباهة والادراك وسرعة الخاطر والحفظ وقبول التعليم ، ولذلك فنقص هذه الصفات او بعضها في بعض المؤلفين بل العلماء ، يعترض في سبيل الاعراب عما في ضمائرهم فيبدو انشاؤهم بعيداً عن منازل الفصاحة ، غريباً عن مواطن البلاغة ، او معقّداً او غامضاً او كثير

الحشو او وافر فضلات اللفظ ، مثال ذلك ما يُرى في تأليف ابي يعقوب السكاكي وهو من العلمآء المشهورين ، فانك اذا نظرت في ما قالهُ في كتابهِ مفتاح العلوم تجده في كل باب من ابواب الصرف والنحو كثير التعقيد والتطويل والحشو على غير فائدة ، واذا راجعت الباب نفسه في النحو للزمخشري في المفصّل وهو متقدم عنهُ بدهر طويل ، او اتمام الدراية للسيوطي وهو متأخر عنه كثيراً ، تجد فيهما من الاختصار والوضوح ما يشرح الصدر ، وينقل الى السهل من الوعر ، وحسبك ان تطالع تلخيص المفتاح للقزويني مع انه اختصار وتلخيص المعاني والبيان ، لتعلم كم يُستغنى بهِ عن المطوّل للسكاكي .

ومن العلمآء طائفةٌ افظاظٌ غلاظ فحاشو المنطق تهّاشون ، كجرير والفرزدق والبُعيث من الشعرآء ويتلوهم الاخطل ولكنه لم يكن فحّاشاً بل شتّاماً عياباً ، ومن العلمآء كابن حزم فظّاً سبّاباً وقحاً في التفكير واللعن متلبساً بثياب الجدل والتعليم والدفاع عن الدين ، ويحذو حذوه السكاكي في اللعن والشتم ، فهولآء ومن على شاكلتهم من الشعرآء والعلمآء ، إمّا انهم نشأوا في بيئةٍ يكتنفها التوحش او الفساد او الفحش او كل ذلك فألِفوا شراسة الاخلاق والتفحّش او غيرهما من الرذائل ، او ان تكون غرائزهم رديئةً فهم

الى الشر اميل ، وهذا كله ليس بمانع قبول العلم في سائر الفنون لان منشأهُ العقل الانساني ، وهو يكون في الطيب والخبيث ، ومثله الصوت الحسن لانهُ صادر عن الحنجرة كما هو معلوم ، فقد تكون شريرة وصاحبها في ارفع دارات الذكاء ، وقد تكون فاضلة وصاحبها في اقصى دركات الخمول والبَلَه ، ولله درّ الحديث : اكثر اهل الجنة البُلْهْ .

ومن هولآء جماعة يُسَمّوَن في عرفنا مقيّدي العقول مستحجري الفطنة ، لكنهم بما لهم من الجلادة والصبر والمثابرة على المطالعة وتكرار المدارسة وشيء اوتوهُ من مَلَكة الحفظ وتفرّغ البال، وتخصصهم لعلم واحد كالنحو او الصرف او الفقه او الجدل وما يتعلق بهذه العلوم ايضاً ، قد يبلغون مرتبة التدريس اي التعليم بل التأليف كمؤلفات السكاكي وامثاله من العلماء المشهورين الذين يُقال عنهم ما قالهُ القزويني في مقدمة تلخيص عن مفتاح العلوم « ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، مفتقراً الى الايضاح والتجريد » واكثرهم يقف عند علم واحد (وذلك دون ارتياب لحسن طالع اهل العلم) ولو قصد الى علم آخر لعجز عن تفهمه ولا سيما الفلسفة وسائر العلوم العقلية ، وذلك لان القوة المدركة في امثاله محدودة او قاصرة ، وتأليفاتهم لا تتجاوز

التعريف اللغوي للفظ التأليف كما سبق القول في اول هذا الباب .

وفي الحقيقة ان تأليف الكتب في قواعد علوم اللغة عند جميع الامم هذا شأنها بعد ان اسَّس قواعدها الواضعون الاولون ثم اتمَّ تحسينها وضبطها وتبويبها وجمع شواردها من جاء بعدهم من العلمآء ، فكان منتهى علم العالم المؤلف ان يفتش ويبحث في طيات الكتب القديمة والاوراق المتفرقة المدفونة . او ان يباحث الاعراب في بواديها او مَن خالط الامم المتقدمة في قبائلها ونواديها ، ولهُ بذلك فضل الجامع والمؤلف والمحقق والمفيد والمعلم ، وكفى بذلك اشادةً بفضلهِ ، وكل ذلك يصدق فيمن جمع ووصل بترتيب ـ يقرّبُ الاقصى بلفظٍ موجزٍ ـ وبيانٍ يترفع عن الغموض والتعقيد والحشو والتكرار ، ليحل كلامه في ذهن طالب العلم حلول الكرى في الاجفان ، والماء البارد في فم الظمآن .

وينتج مما تقدم ان ليس كلّ مَن ألّف يُدعى بحقٍّ عالماً ، ولا كلّ متقدم في ذلك دهراً تتوجب علينا حرمة كلامه ، ففي كل عصرٍ زاحم ادعيآء العلم العلمآء ، وتطاول العرّيضون على اهل الفضل ، والادب منهم بَرآء .

الباب السادس

في التجديد والتقليد

نريد بالتجديد ما يدّعيه جماعة انتحلوا لانفسهم نعت المجددين او اصحاب التجديد وقام على اثرهم مَن هم دونهم سناً او اقرب عهداً بالمدارس فقالوا مدرسة المجددين، القاب ونعوت اول ما ظهرت في مصر في اوائل هذا القرن على ألسنة واقلام بعض طلاب العلم من الذين طلبوا العلوم في اوربا، ونالوا من تلك المدارس خرّيجات (ديبلومات) وراحوا يكتبون فوق امضاواتهم ليسانسيه او دكتور او ماجستر، وتعريب (ليسانسيه) خرّيج او متخرج يقال خريج المدرسة الفلانية او العلم كذا واما دكتور فهو العالم المتخصص لعلم بعينه كالنحو فيقال النحوي او اللغوي او المؤرخ او الجرّاح وكلها استعملها العرب الا ان الدكتور جرت كثيراً على الالسن حتى صارت لفظاً الفته الاسماع وانما المشهور المعلوم عند العموم وكثير من الخاصة انه لا يُقال لغير الطبيب، واما ماجستر فهو لفظ ونعت انكليزي وفي الفرنسوي maître او professeur ولكن لفظ ماجستر اضخم واملأ في الفم وافخم في السمع وهو في العربية معلم او استاذ، وما ضرهم نفع الله بفضلهم

اللغة لو اصطلحوا على هذا التعريب الواضح في هذه النعوت والالقاب وافادوا العربية من تجديدهم لفظاً يفهمهُ الخاص والعام ولاسيما بعد دوارنهِ على الانس وعلى اقلام الكتّاب ؟ اجابنا على هذا السؤال بعض من يظن انهُ يترجم عن خواطرهم ، ان كثيراً من المجددين يتوهمون ان اللفظ الفرنسوي او الانكليزي يوقع في اذن العربي من اهل البلاد حرمةً ورهبةً ليستا للفظ خريج او استاذ او معلم ، ولاسيما اذ يفهمون معنى اللفظ ، لان البراعةَ كلّ البراعة عندهم في ان يُحال بين فهم السامع العربي وبين اللفظ ، فتغشاه الرهبة وتغمره الحرمة ؛ تيّارُ اوهام تُحسَب صبيانية ، ولا يدفع التيّار ، الاّ تبدّل الليل والنهار .

ولنعد الى موضوعنا قالت فئةٌ منهم يقوم التجديد بطمس ما خَلُق من الفاظ اللغة والاعتياض عنها بالجديد ، فقلنا ما مَثَلُ ما طمستم واهملتم ومَثَلُ ما عمّرتم وجدّدتم ؟ فقالوا اننا اهملنا الاستحسان وما في معناه كالاستصواب والاستحباب والامتداح والارتغاب الخ وجدّدنا بدل ذلك كله لفظ التحبيذ فقلنا حبذناه وحبذوه الخ ثم اهملنا لفظ فقط واتخذنا بدلاً منهُ فحسب ثم قلنا للمدة القصيرة فترة ، ثم قلنا طيلة بدل طول او طُوال ثم قلنا الناحية بدل الوجه او الجهة كقولك اذا نظرنا اليه من الناحية

الشعرية فكذا ومن الناحية الادبية فكذا وهلم جراً ثم اوجدنا لفظاً جديداً وهو الفنّان artiste ثم صرنا نفصل بين جملة وجملة بقولنا «والواقع» فهذا مع لفظ الناحية والاحاسيس واللمس كقولنا ان ما تلمسه من سهولة التعبير والتقدم العصري والثقافة هو نتيجة كذا وقد اكثرنا ايضاً من الثقافة وهذه الالفاظ التي ملأت وزينت اكثر كتابات العصريين قد ملأت الصحف والمجلات وزادت في تُراث اللغة ، ولا تنس لفظ تُراث اللغة وتراثنا القومي فانهما محط كلام استعان كثيراً بهما الكتّاب فاستفادوا وافادوا . قلت ماذا افادوا ، انك تريد انهم افادوا املاء الفارغ من الصفحات ، قال نعم فما قولكم في هذا التجديد والتعمير ؟ قلنا اما التعمير فانهُ لا يذكر في هذا الذي قلتموه الا اذا بدلتم لفظ التعمير الى معنى التخريب ، واما التجديد فكل جديد يُستحب ويستحسن الا في اشياء ، فالخمر الجديدة والخبز الفطير (وهو الجديد) ليسا بمحمودين ولا مستحسنين ، واما في اللغة فغير مكروه ولا منكر الا من الباب الذي دخلتموه ، فان التحبيذ لا وجود لهُ في اللغة وحبذا لفظ جرى مجرى المثل والامثال لا تُغير في اللغة ، والتحبيذ ومشتقاته لفظ يثقل على سمع من منحهُ الله شيئاً من الذوق ، والاستحسان والاستصواب وما بمعناهما في اللغة لا يُعوّض عنها بامثال هذه

الاغلاط والركاكات ، واما حسب فليس لفظاً مستحدثاً وهو اقدم من قفانبك ، ولكنكم زدتم عليه الفآء تقليداً وجهلاً باصله قياساً على فقط ، ولا يقوم حسب مقامه وليس هذا موضع بيان ذلك وقد يطول ولكن هب انهُ ناب عن فقط فلماذا اتخذتموه واهملتم فقط ؟ وما هو ذنبه ؟ وما هي محاسن حُـب وفوائده ؟ أَلَا تعلمون ان الفصيح هو ما تكرر على ألسنة الفصحاء ، وهذا لفظ فقط تكرر منذ الف ومائتي سنة على ألسن العلمآء والفصحآء وفي رأسهم سيبويه ، ولم نجد احداً من علماء البيان جاء بحسب بدل فقط كالعسكري والجرجاني صاحب دلائل الاعجاز وابن الاثير وابن سليمان الحلبي صاحب صناعة الترسل وغيرهم من امرآء البلاغة والفصاحة كالمبرد والثعالبي والخوارزمي والزمخشري وامثالهم . واما لفظ فنّان فهو ايضاً قديم في اللغة وهو الحمار الوحشي ، اما تعريب Artiste فيكون لفظ متفنن في العربية قال الفارابي منذ الف سنة او نحوها في مقدمة احصآء العلوم « وينتفع به المتأدب والمتفنن » ومن اغرب والطف ما رأينا من تهافت المجددين ان الشاب الذي نشر هذه الرسالة « احصآء العلوم » لم يفرغ من ترجمة الفارابي في اولها حتى ختمها بتعريبه هذه الجملة « وثبات كوثبات الفنّان » ولم يستفد من قول الفارابي اعلاه فتأمل ! وقال التميمي صاحب تأريخ

الاندلس : الامام المتقن المتفنن ابو القاسم .. وممن صحبه من العلماء المتفننين ابو بكر محمد بن طفيل احد فلاسفة المسلمين .. هذا وكثير مثله عدا ما ذكر صريحاً في كتب اللغة فمنحتم متفننيكم لقب الحمار - وهو الفنّان كما صرحت بهِ معاجم اللغة - واعرضتم عن لفظ فصيح ليس عليه غبار ، اما فترة فهي عامية مبتذلة ، والفترة في اللغة هي مدة تبلغ مئات من السنين فبأي معجزة جعلتموها دقائق ، ولم تبالوا بقلب الحقائق ؟ ويقال للمدة القصيرة في فصيح اللغة ُهنيهة َ او لمحة او قليلاً او دقائق او لحظة َ كما يقول عندنا عامة الناس في حلب ، وما تجديدكم الا احد اثنين ، فإمّا عجز وكسل عن البحث في كتب اللغة ومراجعة اسفار الادب ، ومطالعة كنوز فصحائنا وتراكيبهم واستعمالاتهم ، او ولع في الانتفاخ وحب الشهرة ونقص في صدق البصر للتمييز بين الفصيح وبين الركيك المبتذل وافتقار الذوق الحسن ، واما تعميركم المزعوم فهو التخريب الذي يعجز عنهُ اعدى اعدآء العربية واهلها .

وقالت فئة ثانية اننا نسعى في تجديد ما اندرس من تراكيب الفصحاء وننحو اثارهم ونسير على طريقتهم ، قلنا نعم السعي هذا لو شفعتم القول بالعمل ، ولكننا لم نرَ شيئاً مما ذكرتموه ، واولى ما نحتاج اليه من التجديد هو الوضع والتعريب ، اما الوضع فلم نجد

لكم لفظاً من الوف الاسماء الأعجمية التي نحن في اشد الحاجة الى تسميتها باوضاع عربية ، واما التعريب فلم نعثر لكم الا على تعريب مشوّه او محرّف او حرفيٍ وكل ذلك غريب عن وطن التعريب ، وهجنةٌ في وجنة اللغة .

اما التجديد في عرف الانتقاد ، فينحصر في اهمال كل ما كان لعصر مضى نافعاً وعزيزاً ولم يبقَ لهُ شيء من النفع في هذا العصر بل فقد قيمته المادية والمعنوية اللتين كانتا لهُ في العصور الجاهلية وما قرب منها بل ما كان يُفاخَر به منذ قرن واحد ، مثال ذلك ما قيل في الإبِل والقوس والرمح والسيف والعصا والدلو والخيل وكثير من امثالها وما يتعلق بها وبفوائدها واضرارها مما كان لا يستغني عنه اقوامنا الماضين وفي كتب اللغة منهُ شيء يعادل نصف ما فيها بل ما يزيد كثيراً على النصف ، فترديد هذا كله اليوم تقليدٌ جامد إنْ في الشعر وان في النثر ، بل ما احرانا بحذفهِ بتاتاً من معاجم اللغة التي تطبع جديداً لخدمة طلاب العلم واولاد المدارس على ان تبقى المعاجم الكبيرة لخدمة العلمآء واكابر الادبآء ، واما محاكات فحول الكتّاب . ونوابغ الشعرآء فيجب ان يقصر على تراكيبهم الفصيحة وجملهم البليغة الواضحة لا تكرير الفاظهم ولاسيما ما كان خشناً قبيحاً قذراً وحشيا كالبعر ولو بعر الارام ولو نطق

به جد امريء القيس وكالعقر والغبيط والتمطي والعير وامثالها ولا معانيها البدوية الصبيانية في كثير منها ولا كالتفصيل والتطويل في النثر كقوله «وما بيننا وبينك من التشاجر والتنازع والتحاكم والتنافر فان الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد» وكقوله فاصبحت لا محتجاً ولا محجوجاً ولا غفلاً ولا موسوماً ولا معذوراً ولا فيك اختلاف ولا بك حاجة الى ائتلاف، وكقوله «الا فيك اوعندك او لك او معك خالصة لك ومقصورة عليك لاتليق الا بك ولا تحسن الا فيك» وشيء كثير من امثاله فهذا كله يجب تركه لاصحابه امرىء القيس واهل زمنه والجاحظ وابي حيّان التوحيدي ومن حذا حذوهم من اهل تلك القرون، قرون الوبر والاباعر والكلب النابح والليل الكافر، لاسيما وكثير منه وارد في معرض الهزل او التهكم، على انهُ وان عُرض اليوم في قرن النور في مثل ذلك المعرض، فليس من بضاعة هذا الاوان ولا من زيّ اهله، واوقاتهم اضيق من ان تنفسح لمثله، بل اين مثل الجاحظ وهو اعجوبة الدنيا ونادرة العلمآء والكتّاب، وقف على اكثر علوم عصره وصناعات اهليه وكتب فيها، واذا تبصرت فيما كتب وفي فصاحة لهجته وطريقة انشآئه وتدفق الالفاظ من فم قلمه يزاحم بعضها بعضاً حتى

تَتألّفَ جمَلاً ، ثم في انسجام عبارته واتّساق جمله و بنيانها جملةً جملة الى ان تبلغ تمام المعنى الذي ارادهُ لها ، تراهُ قد شيد من ذلك البناء قصراً فخماً على امنع اساس ، فهو بحر عجّاج والالفاظ كالجبال المتلاطمة امواجه ، و بركان يقذف بالمعاني فتشتعل بالفاظه كانها شهب او نيازك تتساقط من قلب الاسد ، وهو يغور وينجد في كل علم بل هو استاذ الكتّاب والعلمآء حتى جرى المثل في اللغة باسمه كما قال الزمخشري في مقدمة اساس البلاغة (حتى يُقال هو من علم البيان حظي ، وفهمهُ فيهِ جاحظي ،) ومع ذلك وبعد كل الذي ذكرناه فهو لا يسلم من تكرار الكثير مما قاله في غير كتاب من كتبه ، وقد نبّه هو نفسه على ذلك ، ولا يخلو انشاؤه في غير موضوع من الموضوعات التي طرقها من فضلات القول ؛ ومما يجب ان لا يذهب عن الكاتب الناقد ، ان بعض المتكلمين والمتفلسفين كانوا يطيلون القول ويكثرون الالفاظ ويكررونها لاسبابٍ ، منها ضعف الحجة او فقد البرهان او المغالطة حيث لا غلط ، حتى اعتادوا ذلك لذلاقة ألسنتهم وتوقد قرائحهم وتبحرهم في الفاظ اللغة وجسارتهم على الجدَل والخصام ، واستخفافهم في كثير من المقامات بمجادليهم او خصومهم ، وذلك ليشدهوا سامعيهم او مجادلهم ويدهشوه بل ليغمروه بسيول الالفاظ المتدفقة من افواههم

كالسحب الهطّالة فيُشتهر في القوم انهم فلجوه في الجدل وافحموه بالحجة ، واليك مثالاً من كلام ابي حيان التوحيدي وكان ممن يُرمى بضعف العقيدة كالجاحظ ويقتفي اثره في انشائه ، وكان اكثر صراحة منهُ في مذاهب المتفلسفين والمتصوفة ، واكثر اقواله على سبيل السوأل والجواب بينهُ وبين من يسميهم من مشاهير حكماء ذلك العصر قال في مراتب الاضافة :

« قلت لابي سليمان احب ان اسمع كلاماً في مراتب الاضافة التي هي مستولية في جمل حالاتها مثل قولي هذا ، وهذا لي ، وهذا مني وفيّ وعليّ واليّ ولديّ وعندي ، وما ضارع ذلك (انظر بعد كل هذا التكرار يقول وما ضارع ذلك) . . . فاذا اضاف الانسان شيئاً الى نفسه فانما يضيفه الى الآلة التي تستحق الاضافة كلها بالاطلاق ، لان مراتب الاضافة مختلفة من مرتبتين ، الحائط ، وماء النهر ، وسرج الدابة ، الى يد الانسان ، الى فضل زيد ، الى ما لعمرو ، الى كوكب الفلك الى العلّة الاولى . . . وكيف كان ذاك فقد بان ووضح ان اضافة الانسان انما هي الى شيء مستحق للاضافة وليست على باب التحريف والاضافة .

ثم قال ان مبدأ المضيف الى المضاف الى المضاف اليه ومبدأ المضاف الى المضاف اليه هو مبدأ المضيف ومبدأ المضيف هو

مبدأ الاضافة . »

انتهى المراد من هذا المثال وان اشكل عليك شيء من كلامه فلا ترجو ان اوضحه لك اذ انني اعترف بمنتهى الاخلاص انني لم افطن الا الى القليل مما تقدم ولعلك اذا عرضته على احد المنطيقيين او أئمة المتصوفة ترتوي من معانيه .

واليك مثالاً آخر من كثرة الالفاظ المشتركة في المعنى ...

« تَقَسَّمَهُ امران متباينان احدهما عسر ذلك واباؤه وتعذّره والتوآؤه فيظن لذلك ان الامر الذي يُحاولهُ معجوز عنه وانه غير مقدور عليه وان الوصول اليه محال ، والاخر استجابة ذلك وانقياده ومطاوعته وامكانه فيظن لذلك ان الغاية التي يؤمها باجتهاده وقصده ورأيه وعزمه دانية معرضة سهلة قريبة . »

فلو قال احد الامرين اللذين قسمهما لتم به معنى الكلام كقوله عسر ذلك او اباؤه ، والوصول اليه محال ، ومطاوعته ، وهلم جرّاً ، ولا يمكن الاعتذار عن هذا وامثاله بان السجع قد اقتضاه ذلك لانه لو لم يذهب الى الحذلقة والتقعير لكان له في غير ذلك من المعاني مندوحة عن هذا التكرير الممل البارد ، ولكنهم كانوا يعدّون هذا من حسنات الانشآء والاقتدار في صناعة الكتابة والتبحر في معاني كل لفظ من الفاظ اللغة ، توصلاً الى كتابة الرسائل في دواوين

الحكومة او عند الوزرآء والامرآء ولا جديد تحت الشمس .

وكل نفس الى الاموال تائقة ٍ وليس الا لطيب العيش ما جمعتْ

ومما يحسن ايضاحه في هذا الباب وان يَتَنبَّهَ له كل اديب ، ان مَن تواتيهم قرائحهم على اجادة التعبير عما في ضمائرهم وعن مشهوداتهم انفسها ، هم قليلون بين الـكتّاب في كل امة ، ولاسيما البلغآ والفصحآء ، وان اكثر الناس يعسر عليهم ذلك وبينهم جمهور من اكابر العلمآء والـكتّاب ، وكلما توغل المرء في تأريخ حياة الامم يراهم في هذا متشابهين ، ولذلك سببان الاول تبسّط الحضارة والثاني تعدد العلوم اما تبسط الحضارة فقد دفع الامم الى الاستبحار في ابواب العمران وما يتفرع عنها من احوال المدنية وكمالاتها وكثرة اختلاط الناس لتقارب المسافات بين البلاد البعيدة من تعبيد الطرق واستخدام البخار والكهرباء ووقوف كل امة على لغات غيرها من الامم وتعلم كثير منهم غير لغة من تلك اللغات ، كُل ذلك مهدّ سبل المخاطبة والمعاشرة وتبادل الخواطر وتصوير المشهودات ووصفها ، بعكس ما كان الحال يوم كانت الامة حديثة النشأة بسيطة العيش بعيدة عن العلوم ، لا كماليات عندها ، شديدة الاقتصاد في حاجيّاتها بعيدة عن التعامل مع سواها من الامم ، قليلة التعاشر مع جيرانها ، ومن المقرر انهُ كلما توالى التعاشر كثرت المحادثات وكلما توفرت

الكماليات تعددت الموضوعات ، وكلما كثرت موضوعات الكلام توافر التشبيه والاستعارة والاشتقاق والمجاز ، واتسع مجال القول وانطلق لسان المنطيق والخطيب .

فاذا بدا لك التعقيد او عاينت ظهور المعاياة في كلام بعض المتقدمين ، ورأيت ان الجملة كذا كان في الامكان ان تكون اوجز مما هي واكثر فصاحةً واسهل تعبيراً ، فلا تظنّنَّ بكاتبها الاقتدار على ذلك واهمال السهل عمداً الى هذا الوعر ، اوكأن تسطو على حسن ذوقك نخامة شهرة المؤلف فتجهرك فترد فيما بدالك ، بل كن مستوثقاً من انهُ لم يستطع ان يأتي بغير ما عاينت وقرأت ، لان صناعة الكتابة هي غير العالِمية ، والتبحر في علم واحد او اكثر ، هو غير حسن التعبير وغير جمال الوصف والتنسيق وسهولة التفهيم ، إن مخاطبةً او كتابةً ، قال الاصمعي سألتُ خلفاً الاحمر ما معنى المقزحرّ (او المقذعر) فلم يتهيأ له ان يخرج تفسيره بلفظ واحد فقال أما رأيت سنّوراً متوحشاً في اصل راقود ؟ . اه

وهذا خلف الاحمر وما ادراك مَن هو قال صاحب البغية وقيل هو معلم الاصمعي ، ولعلهُ لو قال كالهر المنتفخ اوالهر الوحشي الخائف لوفى المعنى حقهُ . واليك مثالاً من دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني الامام العلم المشهور من اهل القرن الخامس قال :

« واعلم اني لست اقول ان الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة اصلاً ، ولكني اقول انهُ لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو ومنطوقاً بها على وجهٍ لا يتأتى معهُ تقدير معاني النحو وتوخيها فيها كالذي اريتك . والاّ فانك اذا فكرت في الفعلين او الاسمين تريد ان تخبر باحدهما عن الشيء ايهما أولى ان تخبر عنهُ واشبه بغرضك مثل ان تنظر ايهما امدح واذمّ وفكرت في الشيئين تريد ان تشبه الشيء باحدهما ايهما اشبه بهِ كنت قد فكّرت في معاني انفس الكلم الا ان فكرك ذلك لم يكن الا من بعد ان توخيت فيها معنى من معاني النحو وهو ان اردت جعل الاسم الذي فكرت فيهِ خبراً عن شيء اردت فيه مدحاً او ذمّاً او تشبيهاً او غير ذلك من الاغراض ولم تجيء الى فعلٍ او اسمٍ ففكرت فيهِ فرداً ومن غير ان كان لك قصد ان تجعله خبراً او غير خبرٍ فاعرف ذلك . »

وهذا الكلام جميعه بعد ان يتدبره المطالع مراراً ليفهمَهُ يلَخَّص بما يأتي لا اقول ان الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة اصلاً ، ولكني اقول لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو كما ذكرت ، مثال ذلك لو فكرت في اسمين او فعلين تريد ان تخبر عن احدهما فلا شك انك تنتقي لذلك انفس الكلم في الموضوع الذي انتقيتهُ ولا يتم لك ذلك الا بعد توخيك معنى من معاني النحو كأن يكون

تشبيهاً او مدحا او ذما او غيره فاعرف ذلك .

وكلام الامام الجرجاني لم يتهيأ له الا بما طالعت اعلاه ، اي بما امكن اختصارهُ بنحو ثلث كلامهِ ولعله اوضح مما قال .

وهذا يبرهن لك ما ذكرناه في هذا الباب من ان العلم غير صناعتي الكتابة والخطاب فقد يكون الرجل الثغ او فأفاً او عيياً في المنطق ويعيا عن الكتابة ، وهو عالم ، او يتكلف التأليف والانشآء ولا يجيد فيهما ، ولعل اكثر ذلك ناشيء عن نقص المعاشرة والتخاطب والاجتماع بالناس واستماع احاديثهم ونوادرهم وضعف الهمة في ركوب الاسفار وقناعة الرجل بديل ذلك كله بان يظل حِلس بيته راضياً بجلسآء من العامة او صغار الطلبة يوقرونه وهو يظن انه يفيدهم ويجهل جسامة خسارتهِ العقلية والعلمية من ورآء هذه القناعة ، قال في بغية الوعاة في ترجمة عبد القاهر الجرجاني «اخذ النحو عن ابن اخت الفارسي ولم يأخذ عن غيرهِ لانهُ لم يخرج من بلده» .

فاذا تبصر الناقد الاريب فيما يعرض له من مثل هذا وتوغل في البحث ، فقد تهديهِ فطنتهُ الى كثير مما تقدم بيانه من العلل والاسباب .

الباب السابع

في الملامح والعلامات

كلٌّ من شدا شيئاً من علم النفس La Psycologie يعلم ما للملامح والعلامات من الدلالة الصريحة بل الوحي الناطق عما تكنّهُ نفس المتكلم من الرضى او الغضب ، ومن السرور او الغم او الخوف او الامن او القلق او الاطمئنان او الصدق او الكذب في كلامه الى كثير من الاحداث النفسانية التي يشاهدها الناقد البصير على وجوه اهله ومعارفه واصحابه وغيرهم ممن يخالطهم ، بل قد يُرى شيء صريح من ذلك على وجوه كثير من الناس لدى اول نظرة تقع فيها عليهم من اعين الناظر ، حتى كأن الملامح والعلامات هي عواذل تنم عليها وتفشي اسرارها للناظرين .

اما الملامح فهي ما يبدو على الوجه من قطوبٍ - وهو جمع ما بين العينين - او عبوس او تشنّج او تقلص وانقباض في طرفي الفم - الشِدْقين - او الانف وغير ذلك من رَجفان في حالتي الخوف والغضب وتلاشٍ واسترخآء في حالات الحزن والغم ، وبعكس ذلك في احوال السرور من انبساطٍ في سائر اعضآء الوجه وابتسام او ما يقرب منه ، وصفآء وبريق في العينين كانها تتكلم بغبطتها .

واما العلامات فتنقسم الى ناطقة وصامتة ، فاما الناطقة فهي حركات اليدين والرجلين والرأس ، فان بعض الناس يستعينون - لا بارادة مخصوصة بل بعادةٍ تملكتهم حتى كادت تكون طبيعية - بحركات اصابعهم او سواعدهم او احدى ارجلهم او رأسهم ، حركات ظاهرات واشارات ناطقات تعرب للناظر الناقد عما يختلجهم من سرور او غم او قلق او غضب او خوف الى غير ذلك من الاحداث النفسانية وكثيراً ما تكون هذه العلامات مصاحبة مختلقي الاكاذيب والمفترين .

واما العلامات الصامتة فهي اصفرار الوجه وشحوبه او بالعكس احمراره وتهلّله .

على ان كل ما ذكرناه هنا من الملامح والعلامات لا يتعدى المشاهدة فكيف يتسنى للناقد ان يحكم على صورة المنقود ساعة كتابته من كتبه نفسها ؟

والجواب على ذلك ان الملامح والعلامات التى ذكرناها ليست للدلالة على احوال المنقود نفسه ، بل هي للدلالة على صدق الوصف او قصور الكاتب في التصوير ، كأن يقول في كلامهِ «وكان الرجل منذ سماعهِ ذلك الخبر او الكلام لا تستقر لهُ قدم على الارض وهو يروح ويجيء في الغرفة من شرق الى غرب اوطولاً وعرضاً

لشدة فرحهِ » وهذه الحالة لا ترافق السرور بل احرى بان تكون علامة الغضب او ضيق الصدر او فقد الصبر ، فالناقد ينبّه في نقده الى ما قصّر فيه الكاتب الواصف او اجاد ، ولا ننكر انه مطلب عسر وقد لا يُوفق الوصول اليهِ دائماً .

قال احد الفلاسفة المعاصرين ما تحصيله ان النطق وحده هو الفاصل بين الانسان والحيوان وهو قول قالت به طوائف الفلاسفة من اقدم العصور ولكنه زاد عليه ان الصوت من صراخ وهمس وولولة وعوآء ونباح وهرير وزئير وغيره مشترك بين الانسان والحيوان ، اذ ان الحيوان يعبر عن احساسهِ من غضب او سرور او خوف او ألم بالصوت وهذا جميعه يشاركه فيه الانسان ، الا ان الحيوان لا يتعدى هذا ، لان الصوت فعل حيواني ، اما الانسان فبالنطق يعبر اي يصوّر ما شعرت بهِ النفس من ذلك الحادث ، فالصوت للانسان عامل من اظهر العلامات عما في نفسه ، على انه وان شاركهُ فيه الحيوان كما تقدم - لان عوآء الكلب في حالة الغضب هو غير عوآئه في حالة الألم وغيرهُ في حالتي الجوع والفرح - الا انّ هذا كله في الحيوان نتيجة احساس محدود يشترك معه فيه عامة الحيوان على اختلاف في الاصوات ، واما الصوت في الانسان فهو في اقل ظواهرهِ نتيجة الاحداث النفسانية ، واما في سائرهِ

فهو التعبير عما يجول في الخاطر ، وهذه الخواطر هي آية الآيات في هذا المخلوق العجيب ، بل ما لا ينتهي الفكر الى ما يمكن ان يصل اليه بعد اليوم من معجزات خواطره وعجائب اعماله .

وتعريف الخاطر انه ما يتحرك في الذهن من رأي او معنى ، وعرّفوا الذهن بانهُ القوة المدركة ، قال في شرح الاشارات ان استعداد النفس لاكتساب العلوم يسمى ذهناً .

فالتعبير عما يجول في الخاطر يكون بالنطق ويكون بالخط ويكون بالاشارات ، والنقد يقع على النطق والخط والمراد بالخط الكتابة ، الا ان الناقد يعاين في ملامح المتكلم دليلاً اميناً يساعده على الكشف عن خفيات نفسه من غضب او حقد او رضى او رياء او شجاعة او تشاجع الى كثير من مثل هذه الاحداث النفسانية اذ لا يقوى على كتمان الملامح في الاحوال المذكورة الا افراد قليلون.

والصوت وحده لا يكفي الناقد لقرآءة ما تطويه النفس ، لانه اسرع سلاح في البشر استعمالاً وظهوراً ، وايسر العلامات افشاءً وكتماناً ، واسهلها تدليساً وخدعةً ، ففطنة الناقد يجب ان تبعد الى ما ورآء الصوت من الملامح ، وهذا كله مما لا يعرض للناقد الا في نقد الخطب ، ولاسيما المرتجلة في الاحوال العامة والخطوب الجسيمة او في احوال خاصة نادرة تخرج عن موضوعنا هذا .

الباب الثامن

في الاحساس والشعور

ان الحسّ او الاحساس هو قوة من قوى الجسم يشعر بواسطتها بما يصطدم به او يلمسهُ من جامد او سائل، ورخوٍ او صلب، وناعمٍ او خشن، الى غير ذلك من الاجسام وهو في عموم الحيوان؛ وفي بعض النبات شيء من ذلك وليس هذا موضع تفصيله.

ثم توسعوا بلفظ الاحساس فقالوا احساسٌ مؤلم او محزن او مفرح او ملذّ، وقد يعبّرون عن ذلك بلفظ شعور، فيقولون شعر بألم الجوع او بلذة الشبع او بتعب السهر او بنشاط الراحة.

ثم هو احساسٌ بحقيقة الشيء كأن يشعر المرء بحريته او باسره او بحدٍّ من حدود الواجبات التي تتقاضاهُ بها اداب المخالقة.

ومن الاحساس احساسٌ بالمعرفة، فاننا نشعر باننا نعرف كذا وكذا معرفةً عقلية اي انها صادرة عن رأي إستصوبهُ عقلنا او عن حسّ باطني.

والاحساس من القوى التي تخلق مع الانسان وتتكامل بالتربية حتى ان هذه القوة تكون في بعض الحيوان عكس ما هي في سواه من نوعهِ، ومثل ذلك في بعض البشر، فان بعض الهرر تأكل

اولادها عقب الولادة او بعد ايام، وقد تحقق وان كان نادر الحدوث، ان بعض النسآء يخنقنَ اولادهن او يقتلنَهمْ او يعذبنهم حتى يهلكوا ومثل ذلك بعض الأبآء والمشهور غير مختَلَف فيه، ان الأم تحب ولدها بالحسّ الفطري لا بالتعليم حتى ضُرب المثل بحنان الأم عند جميع الامم، فما شذ عن ذلك فهو من فاحش الخوارق ومن ادنى طبقات الطبيعة الحيوانية الوحشية.

ويشترك الذوق مع الاحساس في كثير من الحالات، فقد تجد في زيد من الحس بالتذاذهِ انغام الموسيقى، ما لا يوجد نصفه في عمرو، وترى في خالد من الحس بالتذاذهِ النظر الى تصاوير الرياض والغابات والانهار وغيرها من مناظر الطبيعة، ما لا يكون عشرهُ في حسَن وكلهم ابناء مدرسة واحدة ومدينةٍ واحدة ومحلةٍ واحدة.

ويمتاز بعض الناس برقة الاحساس ولطف العواطف الى غاية بعيدة، واكثر ما يُرى من ذلك في افراد من النسآء المهذبات الذكيات، فقد تتجهُ كل عواطفهنَّ نحو الشفقة والخير والمحبة.

ومما لا ريب فيه ان الحسّ سابق العقل، ولكن لا يُعلم على التحقيق ان كان في الامكان اصلاح العقل باصلاح الحسّ، على ان مَن ينظر الى ذلك بارشاد المنطق والتدقيق في درس التاريخ

البشري ، لا يرى في الامر ممتنعاً حسبما يراهُ بعضهم ، لانه لما كان الحسّ يتكامل بالتربية وما يستخدم فيها من الوسائل الموصلة الى التكامل المطلوب كما تقدم ، وكان العقل متعلقاً بالحسّ ، اذ اننا نعلم بوجود الحسّ حيث لا عقل ، ولكن لا نعلم وجود العقل دون وجود الحسّ ، ولما كان الحسّ والعقل متلازمين فلماذا يُمتَنع اصلاح العقل بالتربية اذا استُخدمت لهُ الوسائل التي نجحت في تكامل الحسّ ؟

بل نحن نرى ان الوسائل التي تيسرت لاصلاح العقل البشري في العموم بطبيعة العمران الانساني ، قد قطعت شوطاً بعيداً منذ زمن مديد على هذه الارض ، اذ ليس من عاقل مفكّر او باحث متبحر في تاريخ البشر ، يجهل ما كان عليه اسلاف هذا المخلوق الاقدمون ممن طمستهم الاف القرون ، من طفولية العقول وسذاجة الحال وهمجية العيش ، وذلك مما وجد من اثارهم الضئيلة ، ثم بما ظهر لمن بعدهم بالافٍ أُخَر من اثار الرقي البطيء في سائر اسباب العيش ، ومثل ذلك لمن تلاهم ، ولعل من سبقوهم وغابت عنا اثارهم في ظلمات الدهور المتغلغلة قد كانوا على حالة اقرب الى الطفولية بل الحيوانية ، والذي نحن عليه اليوم لم يكن الا نتيجةً طبيعية في اصلاح العقل وقد هذبته دهراً فدهراً محاكاة الماضين

من نوعه والاجتهاد في سبيل التحسين وغير ذلك من العبر ، الى ان وصل الى التفلسف على ما تقع عليه ابصاره من الشؤون العلوية والارضية ثم الى الكتابة فالعلوم اذ سارت المعارف من ارض الى ارض ، ولا يشك عاقل متبصر في ان عقول اولئك القدموسين من البشر ، لم تكن لتمتد الى ما وراء عقل ابن الثمان سنين من ابناء هذا العصر .

قال ديدرو ان العقل الانساني كانت لهُ طفوليته وشبابه ثم تكامله اي كهولته وعسى ان لا تعقبها شيخوخته اي تقهقره .

والشعور نوع من الاحساس الا انهُ عقلي اكثر منه ماديّ ، والشعور في اللغة هو العلم والفطنة والدراية ، يُقال شعر بهِ اي علمه وعقله ، وشعر لهُ اي فطن وزعموا ان لفظ الشاعر من انه يشعر ما لا يشعر غيره ، وعرّف بعضهم الشعور بانه ادراكٌ متزلزل ، وهو تعريف فلسفي في غاية الحسن والاصابة ، اي كما لو كنت متردداً فيهِ او على غير ثقة من الامر ، واكثر ما يُستعمل بهذا المعنى ، تقول شعرت بوقع اقدامٍ او شعرت بفتح الباب ، كأنك تقول وقع في اذني صوت كذا ولكني لست على يقين من ذلك ، ولهذا عرّفوا الشعور بالادراك المتزلزل ، واذا قالوا فلان لا شعورَ لهُ او انه فاقد الشعور ، فانهم يريدون بذلك احطّ

نعوت الاحتقار ، اي عادم الفهم ، لانهم اكثر ما يطلقون لفظ الشعور على حاسة اللمس ، وذلك لان اللمس ابعد الحواس عن الغش والخديعة ، فقد يخدع البصر ومثله السمع ، وقد يكذبك الطعم والشم ، واما اللمس فقلما يكذب ، فقولهم فلان فاقد الشعور يريدون به عادم الحواس الخمس ، ومن عدم الحواس الخمس فهو دون الحيوان شعوراً اذ هو والميت سوآء .

والاحداث الفجائية تنبه الاحساس وهي مهماز لظهوره في اصحابه ، كما ان الشقاء وارتقاب البلايا يزيدان في قوة الحس اي شدته .

وتظهر قوة الحس في محبة الشعر والتصوير والنقش والخطابة وفي ممارستها اتم الظهور ، وان من الشعر لفظاً يفعل في الالباب ما لا تفعله الصور ، ذلك لانه كله احساسٌ ، فان اردت ان يؤثر خطابك في السامعين ، او نثرك او نظمك في نفوس المطالعين ، فاجعل لكلامك تأثيراً في احساسهم وانتقِ لذلك خيار اللفظ وانفذَهُ في المسامع والقلوب بابلغ تعبير واوضح مقال وما احسن قول البحتري

اهزُّ بالشعر اقواماً ذوي وسنٍ
في الجهل لو ضُربوا بالسيف ما شعروا
عليَّ نحتُ القوافي من مقاطعها
ومـــا عليَّ اذا لم تفهمِ البقرُ

وعادم الحسّ وان كان سعيداً في نفسهِ ، او انه يحسَب ذلك ، فهو بلاءٌ شديد على اهله ومعارفه بل على سائر ابناء جنسه ، وعلى الجملة فمن عدم الحس فقد عدم كنزاً عظيماً .

والناقد الذي يفوته التدقيق في بيان احساس الكاتب او الموصوفين في روايته ، لا يُختَم على نقده بطابع الاصابة والاحسان ولا يُعدُّ مجلّياً وان اصاب الغرض في بعض الاحيان .

الباب التاسع

في الوحي والاستلهام

ذكرنا في الباب الخامس تعريف لفظ التأليف لغةً ، وهو الجمع او وصل بعض الكلام ببعضهِ ويتحصل من هذا التعريف والتحديد انهُ لا يُطلق لفظ التأليف على قصيدة منظومة بعينها وعلى شعر كشعر المتنبي او البحتري او الطائي وامثالهم من الشعرآء النوابغ ، لانهُ غير مجموع بل منظوم ، واطلاق العرب لفظ النظم على الشعر يدلّ على انهم فرّقوا بين التأليف والنظم فلم يقولوا ألّف القصيدة او البيت من الشعر ، بل قالوا نظمهُ وعرفوا النظم لغةً انه التأليف اي جمع اللؤلؤ فاذا كان في السلك اي انضم في الخيط وانتظم فهو النظيم والعقد من الجوهر ، ولا ريب في ان النظم هو جمع الفاظ

بمعان يتركب منها بيت او ابيات من الشعر ، لكنهم بوصفهم هذا انزلوا الالفاظ الشعرية منزلة الدر المنظوم ، غير انه بهذا التعريف والتحديد يكون الفارق بين نظم الشعر وبين التأليف ، هو وزن الشعر فقط ، وهذا غير الحقيقة ، فان تعريف التأليف كما بينا قبل هذا لا ينطبق على نظم الشعر ، لان هذا من الفنون البديعة بل هو اولها ورأسها ، والفرق بينهُ وبين التأليف ، ان هذا الاخير تنقيب وتفتيش وجمع ، اما النظم فهو وحي القريحة واستلهامها فهو فوق التأليف وفوق العلم ، اذ كل مَن اكبّ على تحصيل العلم وكان غير جامد الذهن وأوتي شيئاً من الذكاء قد يبلغ مرتبة العلماء ويؤلف كما سبق القول ، ولكن ليس كل من بلغ مرتبة العلمآء ونال قسطاً من الفصاحة والبلاغة والذكاء ، يقتدر على نظم الشعر ، وليس المراد بذلك نظم بيت او اكثر في علم من العلوم او نظم مثَل من الامثال او ارجوزة علمية ، فهذا جميعه يدخل في باب التأليف ، وانما المراد من النظم هو شعر الذين يُدعون بحق شعرآء وذلك لانهم ملهمون ، والملهمون هم في طبيعتهم كذوي الاصوات الحسنة الرخيمة ، تستدعي نفس احدهم الغنآء فيصوّت فتجيبهُ الحنجرة مطيعة . فان كان مكتئباً فاين منهُ شجن الحمام المحزون ، وتلهف المتألم المطعون ، وان كان مسروراً ازرى بالبلابل والاوتار ، ويكاد

يطرب النبات والاحجار، والحنجرة وان كانت عامة في المخلوقات، فالقوة الصوتية تختلف جداً في كل فرد من النوع الانساني بل وبين انواع الحيوان والنبات، فان التصويت بكل نوع من القصب لهُ رنين يختلف عن سواه بل يختلف الرنين في النوع الواحد بين قصبةٍ وقصبة كما يختلف الصوت في الانسان بين الاخ واخيهِ، وقل مثل ذلك بين شاعر وشاعر فهذا يستلهم القريحة فتجيبهُ مطيعةً، فان كان غضبان اراك الرعد ينشق والصواعق تنقض وتندق، وان كان طرباً اسكر ولا خمر وشرح كل صدر، وترى سواهُ يستلهم قريحته فتعصيه وان كان في طبيعته نظم الشعر، الا ان قريحته لا ترتاح الى النظم والاجادة الا في احوال معينة، كأن يكون على الشراب او في مجالس الطرب او غير ذلك، وليس كل ناظم شاعراً كما ان ليس كل مصوت مغرّداً او مرنماً او مطرباً، والفرق بين الناظم والشاعر، ان الناظم غير محتاج الى الاستلهام ولا يستطيعهُ وانما هو ذو اذن وزّانة او انه تعلم العروض وبعض علوم اللغة ليتصرف في نظم الارجوزة العلمية او القصة او الامثال، فهو في الحقيقة وزّان كلام وقوافٍ ورجّاز قواعد وحكايات، واكثر ما يكون هولآء من العلمآء، اما الشاعر فهو ذو القريحة والالهام، وسيأتي بعد هذا بيان القريحة، وكل ما ذكرناه عن وحي الشاعر

واستلهامه ، يصدق على الاديب العبقري وهو الذي يستوحي القريحة فيكتب في موضوع لم يُسبَق اليه، او يروي حكايةً يبتدعها فيرسم على القرطاس الفاظاً تصور اشخاصاً وقصوراً وانهاراً وبحوراً بل بلاداً وممالك وعوالم واشكالاً واشياء مألوفة وغير مألوفة تحسبها حقائق لا ريب فيها ، وكلها من مولّدات مخيّلته يودعها من بدائع اللفظ والحكمة والفطنة ما توحيه اليه رسل الألهام ويعينه عليه استبحاره في تفنن الكلام مما ذكرنا منه شيئاً في كلامنا عن فن الروايات ، فان هذا الاديب العبقري ، بل هذا المتفنن لا يختلف في الرتبة عن الشاعر في سائر مزاياه واخصها الوحي والاستلهام .

ومما يحسن ايراده ما حدثني بهِ احد الخلان ممن لا ارتاب في صدق كلامه قال :

زارتني يوماً في منزلي سيدة نبيلة من اشراف باريس (واسماها لي) وقد هبطت الشرق غير مرة ، فلما دخلت الى غرفة كتابتي وادارت فيها النظر قالت لي أفي هذه الغرفة وتحت سمائها تنظم اشعارك ؟ ـ وكانت عرفتني شاعراً وطلبت اليّ ان اترجم لها شيئاً منها ففعلت ـ فقلت نعم ، فاستشرفت من احد شبابيكها ورأت ارضاً فسيحة امامها ، فقالت ولمَ لا تجعل من هذه الارض جنينة ذات احواض وتجري اليها المآء ؟ فقلت الارض ليست لي وثمنها

كثير في هذه المحلة ، فقالت حقاً ان الشعرآء مثلك في الشرق يفوقون جداً شعرآءنا وادبآءنا في اوروبا ولاسيما الكبار المشاهير كادمون روستان واناتول فرانس ودانونزيو وامثالهم ، ولعلهم لا يقتدرون على منظوماتهم والاجادة فيها ، الا لأقامتهم بالقصور الفسيحة الانيقة ، او في الجنّات العَبِقة الطليقة ، والشعرآء الذين لا يملكون مثلها لا يعجزون عن قضآء بعض اشهر في المصايف او في المشاتي ، وهناك ، بين جنانها الزاهرة ، وبدائع الطبيعة الساحرة ، وعلى نغمات الموسيقى التي تسكر الالباب ، وغنآء الغانيات مطلِّقات الحجابْ ، ورقص المبديات من الدلال فتن العجائب ، وجر اللابسات من الحرير بدائع الجلابب ، يطلقون لقرائحهم العنان ، فلا عجب اذا جادت بالدر وأنفت من المرجان ، قال المحدث بهذه الحكاية فشكرتُ لزائرتي حسن ظنها بنا شكراً جزيلاً وشفعته بشكر على زيارتها لما نثرته عليّ من الفوائد بل الفرائد . انتهى كلامه.

وفيما تقدم عبرة للقول بان الشاعر الذي يستلهم القريحة بين الكأس والطاس ، لا ينتشر من شعره غير رائحة الخمور فقصائده هي الخمريات ، ومن يستوحي قريحته بين خرير الماء وغديره وهبوب النسيم وتمايل الاغصان ونغم الالحان فلا بدع ان يعبق منها نشر الازهار فهي الزهريات ، ومن يستوحيها على وقع السيوف والرماح

فهي الحماسيات ، ومن يستلهمها في حال رفاهيته وصباه فهي الغزليات والارغديات ، ومن يستوحيها في البؤس والشقآء او الحزن والبلاء ، فهي النوّاحات او المناحات او النائحات ، اعاذنا الله واياك من نوائب الدهر .

ومما تقدم يُعلم ان الوحيَ لا يتنزل على الشاعر النابغة ، الا لاختيارهِ الساعة التي تناسب الموضوع الذي قصد اليه ، وانتقائهِ المكان الذي يسعفه بكل ما فيه وبما يحيط بهِ على ابراز مخدرات قريحته ، وما احسن قول الحريري ـ فما كلُّ قاضٍ قاضي تبريز ، ولا كل وقت تُسمع الاراجيز ـ فاذا مررت بالشعر العامي او السوقي او التجاري فاعلم ان اصحابه لم يُرزقوا حظاً من الشاعرية ولا نصيباً من الوحي والتخييل وانما هم وزّانو كلام ، وان كرعوا البواطي في دور القهوة والحانات او تزيوا بزي اهل الصبابة والرفاهات .

وكما ان الشاعر هو غير الوزّان والرجّاز ، فكذلك الاديب العبقري هو غير المؤلف العلمي وغير المؤرخ ، واعلم ان العباقرة من المتفننين كلهم في منزلة نوابغ الشعرآء كما سبق القول او سيأتي الكلام عن ذلك في باب المتفننين .

الباب العاشر

في القريحة

كلُّ من عانى الوضع لقواعد فنٍ او علم، او عمد الى ابتداع صورةٍ فكرية مُلهمة على غير مثال سابق، يعلم مقدار النَصَب والجُهد الذي يلقاه الباحث في تعريف وتحديد كثير من اللفظ، اذ يبدو لهُ ما في كتب اللغة من فرط التقصير في هذا الباب، فقد تروم الوقوف على تعريفهم لفظ الادراك، اي القوة العقلية التي تدرك اي تُفهَم بها المنظورات، فلا تجد لذلك شيئاً في الصحاح ولا اللسان ولا الاساس ولا القاموس ولا المصباح ولا في سواها من كتب اللغة، وقد تجد للفظ العدل مثلاً تعريفاً شافياً بل زائداً عن الحد، واصحاب المعاجم في ذلك بين تفريطٍ مخلّ وافراط ممل، اما فيما يعود الى العقليات فهم في غاية التفريط، واما في ما تعاق بالعلوم الشرعية او ما لهُ ذكر فيها، فهم في اقصى الافراط، فكانما كتب اللغة ومعاجمها لم تكتب الا لخدمة الدين، وكأن لم يكن للعلوم وسائر المعارف البشرية عند اولئك العلماء منزلة تستدعي عنايتهم بما يتعلق بها، وقد يُقال ان اللغة العربية لغة بدوية بسيطة ولم تصل اليهم علوم غير علوم اللغة والشريعة، ولكن هذا قول مردود متى عُلم ان جميع

اصحاب المعاجم وُجدوا بعد القرن الثالث للهجرة وان كل ما عُرّب من فلسفة اليونان كان بامر المأمون اي قبل دخول القرن الثالث او في اوائلهِ ، ولكن التعليل الاقرب الى الحقيقة هو ان اكثرهم اخذ متأخرهم زمناً عن سابقهِ ، ولعل الاول وسواه كانوا يخشون ان يُرموا بضعف الدين اذا تعرضوا لشيء مما يتعلق بالمباحث الفلسفية والعقلية ، ولذلك امثال كثيرة في كتب التأريخ والادب وغيرها نخسر المتأخر خسارة يصعب تعويضها ، وحالة الامم العربية على ما هو مشهود من تأخر بعضها وتقلقل بعضٍ واشتغال آخرين بغير ذلك مما هو بعيد عن هذا الغرض .

ولا نعلم فيما وصل الينا من كتب التعريفات سوى تعريفات الجرجاني ، وكلّيات ابي البقآء وان كان اوسع منه فهو جدير بان يقال في مؤلفه ما قلناه اعلاه عن اصحاب المعاجم كما يتضح لمن تبصر في بحر هذه اللغة ، ولاسيما لمن يتصفح كتب العلوم العقلية والادبية عند امم اوربا في هذا الربع الثاني من القرن العشرين ، على ان لأبي البقآء فضلاً يقدرهُ قدرهُ كل من ذاق شيئاً من فلسفة اللغة والمنطق ، ولسنا في معرض التقريظ وانما ذكرنا هذا اعترافاً بفضل أُلي الفضل .

وقد جئنا بهذه المقدمة تمهيداً لما يأتي . قال في لسان العرب

وقريحة الانسان طبيعته التي ُجبل عليها .. وقيل قريحةُ كل شيءٍ اوله .. وقال قبل ذلك والاقتراح الكلام والاقتراح ابتداع الشيء تبتدعه وتقترحه من ذات نفسك من غير ان تسمعه . ومثله ما ورد في القاموس وكلاهما من الضعف كما ترى مما ذكرناه ، وقال في الصحاح .. والمآء القراح الذي لا يشوبه شيء والقريحة اول ما ُيستنبط من البئر ومنه قولهم لفلان قريحة جيدة يراد استنباط العلم بجودة الطبع ، واقترحت عليه شيئاً اذا سألته اياهُ من غير رويةٍ واقتراح الكلام ارتجاله . انتهى المراد منهُ وهو وان لم يفِ بالتعريف الصحيح ، فهو احسن ما جآء في المعاجم في تفسير لفظي الاقتراح والقريحة ، اذ ُيفهم من قولهم كلهم ان اقتراح الكلام هو ارتجاله ، واما قولهم من غير رويةٍ فهو مخالف لقولهم ابتداعه ، لان الابتداع والاختراع والاستنباط والاستخراج كل ذلك لا يكون ارتجالاً ومن غير رويةٍ ، بل يحتاج الى مريد رويّةٍ وتعمُّق كما ُيتعمّق في استنباط المآء من قعر البئر حسب تعريفهم ، وكما ينتج من وصفهم المآء القراح بانهُ الذي لم يخالطه شيء من ثفَلٍ وهو الخالص كالقريح وهذا لا يكون الا بعد ان ُيتعمق في البئر ويتجمع الماء فيها ويركد ويصفو وهذا كله يحتاج الى وقتٍ طويل ، اما الاقتراح وهو الارتجال من غير رويةٍ فهو كما قال الشاعر

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخَهُ   قلتُ اطبخوا لي جبّةً وقميصا

فهذا فقير عريان هبط على قوم فظنوه جائعاً وانما هو كان مبروداً فبادروه بقولهم اقترح اي قل سريعاً ما تحب من الطعام فنحسن لك طبخهُ حالاً فاجابهم فوراً جبةً وقميصاً وقولهُ اطبخوا لي، على سبيل المجاز اي اكرموني بجبة وقميص كما هو ظاهر، ولا يعني كلامهُ انهُ ابتدع طعاماً جديداً، ولا قولهم لهُ اقترح اي ابتدع واخترع لوناً من الطعام فنطبخه لك، فمثل هذا التفسير تعسف محض وتحميق للقائل والمجاوب.

ولنعد الى ما قالوه في تعريف القريحة، اما السيد الجرجاني فلم يذكر هذا اللفظ بتةً، واما ابو الضيآء فقد قال في كلياته والقريحة البئر. واطلاقها على الطبيعة بطريق الاستعارة وهو كما ترى غير مفهوم وأين الطبيعة من البئر؟ نعم انهم قالوا اي فسروا القريحة بالطبيعة وسكتوا، فقد يمكن التفسير لهذا التعريف الناقص بغير ما قالهُ ابو الضيآء كأن يقول يريدون انها احدى طباع الانسان او ما شاكل ذلك ولعل تعريف اصحاب المعاجم اوضح واوسع على ما فيه من القصور.

فيتحصل مما تقدم ان الاقتراح هو الطلب والسوأل ارتجالاً وبدون روية، وهو غير القريحة، كما ان الاعتماد غير العمود،

والاقتضاب غير القضيب وقس على ذلك .

واما حقيقة تعريف القريحة فانها مزّية فطرية او استعداد طبيعي ، او هي قوة من القوى العقلية لقبول تصورات ووهميات متعددة متنوعة ، والقدرة على ابتداعها وتركيبها وتصويرها باليد واللفظ ، وعلى الجملة فان في القريحة استعداداً خاصاً يتجاوز حدود الفهم والتلقين والرواية والترتيب إنْ في الاداب والفنون من توليد وتوضيح وابتداع وسهولة تعبير وبلاغة ، وإنْ في العلوم والفلسفة من اختراع واستنتاج ، وتعريف وتحديد ، ومباينة واقتران .

والقريحة لا تُعرَّف بكونها مزّية سامية دون تحديد ، وانما هي المزية الفطرية للابتكار والاختراع والاستنباط ، فاذا لم يكن ابتكار او اختراع فليس ثمت قريحة او هي قريحة عقيم ، وانما هناك علم وممارسة وجَلَد وجمع وتحقيق وانتقاد وفطنة وحفظ ورواية .

على ان التعلم والمِران والدربة تزيد القريحة جمالاً وكمالاً ، ولكن ذلك كلهُ لا ينشىء قريحةً ، اذ هي موهبةٌ غريزية لا اكتسابية .

ولكل قريحة استعداد خاص لقبول احد الفنون والابتكار فيهِ والمراد بالابتكار الابتداع ، وقل من يستطيع ان يثني عنان قريحته عما طُبعت على حبهِ ، وتعويدها على الاجادة في فنّ سواه .

والقريحة السامية التي تستطيع ان تُجيد في فنّين هي نادرة ،

واندر منها تلك التي تجيد فيما هو فوق الفنَّين ، وقد روى لنا تاريخ الفنون والمتفننين شيئاً من ذلك وهو في غاية الندور .

والقريحة تصدأ بالاهمال ونقص المراس وتضعف في الشيخوخة كسائر القوى الانسانية .

والقريحة لا تجود بالاكراه ، ولا تجيد ولا تجود حقاً الا اذا كانت نفس صاحبها مطمئنةً مسرورة فحينئذٍ تنبسط الى الجود بما دعيت اليه .

والقريحة مهما سمت لا تطيع صاحبها في كل وقت ، ولا تجيد على وتيرةٍ واحدة .

ومن محاسن القريحة السامية انها تنوّع الموضوع المفرد بلباقة سحرية فتكسبهُ لذةً وفكاهةً حتى تشرأبَّ الى سماعهِ الاعناق ، ويستطيب تكراره اولو الاذواق .

ومن مزاياها انها تسكب على الموضوعات القاحلة سحائب خصبٍ يقف عندها ذو اللب مخموراً بنشوة الاعجاب وتلبسها حللاً زاهية الالوان ، يقال عندها ليس في الامكان ابدع مما كان .

وفي الختام نقول ان القريحة السامية ليست من خواص الشاعر فقط بل هي فطرية في عامة المتفننين كما سبق القول .

الباب الحادى عشر

في المتفننين

قال الجوهري في تاج اللغة الفن واحد الفنون وهي الانواع والافانين والاساليب وهي اجناس الكلام وطرق ، ورجل متفنن اي ذو فنون ، وافتن الرجل في حديثه وخطبته اذا جاء بالافانين ، ورجل مفن يأتي بالعجائب .. والفنّان في شعر الاعشى ، الحمار الوحشي انتهى المراد منه ومثله في سائر كتب اللغة ، فاذا رأيت للمجددين بل قل للمقلدين لفظ فنّان فلا تحسبه من العربية في شيء .

والفن هو الصناعة العقلية السامية فالخطابة والشعر والكتابة والغناء كلها صناعات ويقال في فصيح اللغة صناعة الكتابة وصناعة الشعر وصناعة الانشاء ويطلق عليها لفظ فن ايضاً وقد تقدم ذكر الفنون البديعة (ويقال ايضاً الصناعات الجميلة) في الجزئين المتقدمين من هذا الكتاب ، والمراد بلفظ متفنن هو صاحب فن من الفنون البديعة ، وكلها بنات القريحة فلا متفنن حيث لا قريحة والمتفنن هو المعرَّف عند الفرنسويين بلفظ Artiste .

لا شك ان واضع لفظ ـ القريحة ـ في اللغة العربية ، او المواطأة على هذا اللفظ قد كانت يوم لم يكن عند العرب شيء من

الصناعات الجميلة او بعبارة اخرى شيء من الفنون البديعة سوى الشعر والخطابة فاطلقوا القريحة على الشاعر والخطيب ، لتعريفهم لفظ الاقتراح بالارتجال وعرّفوا الارتجال بانه القآء الخطبة او الشعر من غير تهيئةٍ ، كل ذلك كان ولا شكّ يوم كان العرب في تيه بداوتهم الاولى ، يوم لم يكن عندهم علم بشيء من فلسفة اللغة بل ولا بمعنى او اسم فلسفة ، وكانوا يرتجلون الخطبة والشعر ارتجالاً ، ولو علموا ان سيأتي على الشعرآء والخطبآء ازمان يقضي فيها الشاعر حولاً كاملاً لنظم قصيدة واحدة وتهذيبها كزهير بن ابي سُلمى المُزني ومروان بن ابي حفصة وامثالهما وان الفرزدق يقول تمرّ عليّ الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون عليّ من نظم بيت من الشعر - هذا وهو فحل مُضَر فما بالك بمن هو دونه - نقول لو علم العرب الاولون هذا ، لما كان تعريفهم الاقتراح كما ذكرناه ، فالقول في اقتراح الشعر هو ارتجال بعض ابيات او هي حكايـة حال او خطبة قصيرة كدعوة الى دفع غارة وقد تطول بتكرار الفاظ تهييج وتحميس وما شاكل ذلك ، وكل هذا يمكن حصوله للشاعر والخطيب ويحسن وقعهُ في اذان سامعيه في ساعته ، واما ان يكون في ذلك ابتكارات وتنوع معانٍ او تحقيقات تأريخية وتشبيهات او وصف واستعاراتٍ تملك القلب وتسحر اللب وكلما كررتها

زادتك استحساناً لها ، فلا ، اللهمّ الا ان يقع ذلك في بيت واحد كما يُروى عن ابي تمّام في قصيدته السينية ، والامر مشكوك فيه ، على انهُ ان صح الخبر فهو من الخوارق التي لا يروى مثلها الا في مدى مئات من السنين (١) وحسبك ما ورد بالتحقيق عن فيرجيل ثاني شعرآء الدنيا انه لم ينته ِ من نظم وتنقيح ملحمته المسمّاة بالـ[إيلينيئد] الا بعد اربع عشرة سنة واظب فيها على ذلك .

ويجدر بنا بعد ان اتينا على لفظ الارتجال بما تقدم ان نعود الى البيان عن خاصة المتفننين وهم اصحاب القرائح ، فان المهندس الذي رسم شكل هيكل الألهة اثينهْ في اتينا قد ابتدعت قريحته طائفةَ جمالٍ وظرافة تكوين في كل عضوٍ من اعضآء ذلك الهيكل وفي كل جملة من جملهِ ، وكأن قريحته اقتادت لطاعتها كل ما تستحسنهُ الاعين وتُسَرُّ بهِ النفوس من ايات الحسن والذوق وغايات الملاحة في دقة الفن الهندسي ، وهذا لا يتأتى لكل من درس صناعة الهندسة وعرف رسم الخطوط والابعاد والبسائط والمجسّمات ، فهذا شيء ، وابتداع وتكوين مثل هذا الهيكل شيء آخر ، وهذا لا تجود بهِ الا قريحة كقريحة فيدياس ومعاونيه واضرابهم

(١) عند تبييض ما تقدم وقفنا على كلام بهذا المعنى للناقد الشهير سانت بوف يؤيد ما ذكرناه هنا من الشك في مثل هذه النقول والروايات .

وقس عليهم سائر المتفننين ، واما الخاصة من الشعرآء عندنا فقد اوردنا شواهد من بدائع القرائح في الجزئين المتقدمين من كتابنا هذا وفيهما ايضاح وتذكرة للناقد البصير . على ان اجود الشعر ليس في طول القصيدة ولا في ضرب مثل او اقتباس ، وانما هو في ابتكار المعنى وابتداع التركيب والترتيب ودقة الوصف وجزالة اللفظ والبعد عن التعقيد والمناسبة بين القول وقائله ، والاصل في ذلك كله اختيار الموضوع ، ولعل تفوق هوميرس وفيرجيل على من جاءَ بعدهما من شعرآء الارض لم يكن الا لاختيارهما موضوعيهما ، وهو سرد ملحمة الابطال من اعاظم الدنيا ، وليست حكاية يوم وليلة ، ولا مفاخرة يفاخر بها الشاعر بنفسه او بقومه ولا قصة عشقية ، ولا مدح ملك عظيم او وزير كريم ، ولا وصف مجلس شراب وطرب او غير ذلك كسيف او فرس ، ولا ندب طلل ولا رثاء مفقود ولا شكوى زمن جائر ، وانما الملحمة هي جميع ذلك وزيادة ، فهي تأريخ امة بوصف بلادها وما اشتملت عليه وخلقها وطباعهم وعاداتهم وملابسهم ومآكلهم ودعواتهم وحروبهم وافراحهم الى ما يطول وصفه مما تجده في شعر هوميرس وفيرجيل فتتنقل فيهِ من حسن الى احسن وتقف حائراً دَهِشاً من سمو وعظمة تلك القرائح . وعندنا ان ابا الطيب المتنبي لم يتفوق

شعرآءنا من جاهلي ومولّد (برغم حساده ومزاعمهم الكاذبة) الا لاصابة نظره وبراعته في وصف الجليل والدقيق مما يقصدهُ واختيارهِ احسن الالفاظ لمعانيها ومواقعها وتنقله في الوصف خلافاً لسواه من نوابغ الشعرآء انفسهم اذ يملاؤن القرطاس واذان السامع واعين القاريء بتكرار موصوف واحد وتشبيهات متعددة وقد يكون الموصوف تافهاً، حتى يغطي ذلك على غيرهِ من احسان الشاعر في اعين الناقد الذائق، اما المتنبي فخذ اياً شئت من قصائده العامرة، فلا تكاد تنتهي من قرآءتها حتى تعجب مما استفدتَهُ منها ومما تركتْ في نفسك من سرورٍ او نشاط او إعجاب او حماسة او رغبة في محاكاة شيء منها او تمني معرفة قائلها ـ المتنبي ـ او مشاهدة صورته، فطالع مثلاً رثآءه والدة سيف الدولة فلن تجد لهذا الرثاء الملوكي مثيلاً في كل ما قرأت من الشعر، قد جمع بين التفجع الرزين والرثآء العلي المقام والثنآء اللائق وتفصيل سير الجنازة وتشييعها ثم تعزية الامير ابنها بابلغ لفظ، واذا نظرت في قصيدته التي مطلعها «اعلى الممالكِ ما يُبنى على الأسلِ» وقد سار سيف الدولة لنصرة اخيهِ ناصر الدولة في الموصل، تجد في كل بيت منها حكاية حالٍ تنبيء عن علو همة الممدوح وبأسهِ واستخفاف الشاعر بالاعدآء الذين ذهب الممدوح للبطش بهم وتفاؤل الشاعر بالنصر والسعادة

في ذلك السفر ، فلا تحب ان تنصت الى استماع بيت حتى يرد على سمعك بعدهُ ما هو ابدع واروع ثم لا تنتهي من مطالعة القصيدة او استماعها الا وقد امتلأتَ بشراً وسرورا ، كأنك من جماعة سيف الدولة وكأنهُ عاد سالماً منصورا ، واذا طالعت قصيدته التي اولها « اذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ » ترى منها عزة سيف الدولة يومئذٍ وهو بين عسكره والشاعر يصف مسيرهُ لزيارة قبر والدته تحت وابلٍ منهمر وسيف الدولة يستعرض الجيش ويريك اولئك الابطال تحت ملابسهم الحربية وعلى خيولهم حتى تحسب نفسكَ واقفاً بينهم تسمع مديحه، واذا طالعت قولهُ « تذكرتُ ما بين العذيبِ وبارقِ » تنقَّلتَ من قصةِ تنزّهٍ وسباق ، الى طعام مع صعاليك الرفاق ، الى ذكرى ليلة مرّت في مُنتزّهٍ بين راح وحسان ، وغناء وعيدان ، الى حِكَمٍ وفلسفة ، الى رواية واقعةٍ حربية جرت لسيف الدولة وراء تدمر فهزم بها قبيلتين شديدتي الشكيمة من قبائل العرب بتفصيل لا يترك للمؤرخ الدقيق وجه ابهامٍ او اشكال ، ولم يكن يصف صراعاً او حرباً بين اثنين على ما نرى مثله كثيراً في شعر الجاهلية ، بل كان يصف حروباً على عادة ايامه الا ان تصويره الوقائع ومحاربته مع عسكر سيف الدولة في كثير من تلك المعارك كقولهِ :

وما حمدُتك في هولٍ ثبتَّ بهِ حتى بلوتكَ والابطال تمتصعُ

وكقوله

وانّا اذا ما الموت صرّح في الوغى

لبسنا الى حاجاتنا الضرب والطعنا

قصدنا لهُ قصدَ الحبيبِ لقـاؤه

اليـنـا وقلنـا للسيوفِ هلمنا

ويقول من أخرى

واوردُ نفسي والمهنّدُ في يدي مواردَ لا يَصدرنَ مَن لا يُجالدُ

ويقول من اخرى قبل مفارقتهِ سيف الدولة وهي المشهورة واولها

وآحرَّ قلبـاهُ يمن قلبه شَبمُ

قد زرتهُ وسيوفُ الهندِ مغْمَدَةٌ وقد نظرتُ اليهِ والسيوفُ دمُ

ومنهـا

ومُرهفٍ سرتُ بينَ الجحفلينِ بهِ

حتى ضربتُ ومَوجُ الموتِ يلتطمُ

كل ذلك هوّن عليه وصفها بصورة لم يُسبق اليها ولم يُلحق بها بين شعرآء العرب ولو أُنتُسِقَتْ قصائده في سيف الدولة بعضها الى بعض على نحو ايلياذة هوميرس لكانت بحق ملحمة (ايلياذة) العرب ، الا انها مقصورة علـى زمن قصير ومُلْك مَلِك واحد ،

ولو وجد لها مثيل للدولة الاموية او العباسية لكانت دون شك فوق ايلياذة شيخ الشعرآء هوميرس ، ولكن ما لم نفز بكله لم يفتنا بعضه ، والعجب من حمق حسّاد المتنبي فيما رووهُ عن جبنهِ وانهُ عثر او عثرت يده بعقاله فخاف وولى هارباً ، ايقول بل يخاطب سيف الدولة بمثل الابيات المتقدمة ويتغاضى عنه ، بل أيجسر ان يقول ما تقدم بعضه من قصيدته الميمية بحضرة ابي فراس الحمداني وهو الذي كان يتسقطهُ في كل بيت من قصيدته بحضور الشعرآء ويعدّها عليه سرقاتٍ شعرية ، أيُعقَل انهُ يسمع منهُ كل هذا التفاخر بالشجاعة والفروسة ولا ينبس بحرف ، وهو اعظم بطل في دولة بني حمدان بعد سيف الدولة ؟ ومن هذا وامثالهِ تعلم كم اكذوبةٍ بل لا تستطيع ان تحصي عدد الاكاذيب التي تناقلها الرواة وحشا المؤرخون بها كتبهم حتى تعسّر علينا بعد مرور القرون على كثير من الحوادث ان نستخلص الصحيح من السقيم وقد امتزج كثير من الكذب بكثير من الحقيقة ، نعم ان الناقد قد يستطيع تصحيح كثير من الاوهام الفاشية في كتب التراجم والتواريخ اذا تيسرت له الوسائل ، مثال ذلك انك تجد في ترجمة ابي الفتح عثمان بن جني في اول كتابه - الخصائص - عن معجم الادبآء لياقوت ما يفيد ان مولده سنة ثلاثين وثلاث مئة ثم يقول

في اوائل الترجمة انهُ كان يدرّس في حلقةٍ بالموصل وانه تبع ابا علي الفارسي بعد ذلك وصحبه اربعين سنة ، وابن جني يقول في كتابهِ المذكور صـ ٧٦ انشدنا ابو علي هذا بالموصل سنة احدى واربعين ، فهل كان عمر ابن جني احدى عشرة سنة عندما سمعهُ الفارسي يقرّىء بالجامع النحو ؟ بل دون ذلك لانه كان يقرىء النحو قبل ان يعرف ابا علي في حلقةٍ بالموصل ثم تبع الفارسي تلميذاً ومتعلماً . فتأمل . ولعل مولد ابن جني كان سنة عشرين وثلثماية لانهُ يقول في كتابه « سرّ الصناعة » في ـ باب زيادة الالف ـ ودار بيني وبين المتنبي في قوله : وقلنا للسيوف هَلُمِّنا كلام فيه طول وانكرتُ ضمة الميم هنا من طريق القياس الى ان قال لي فكيف كان ينبغي ان يكون اذا اكّدتَهُ هنا بالنون فقلت كان قياسُهُ ان يقول هلمُمّنا فقال هذا طويل فقلت هذا جواب مسألتك فاما طوله وقصرهُ فشيء غير ما نحن فيه .

هذا كلام ابن جني بحروفه وهو ممن لا يُرتاب في صدقه ومن اعظم محبي المتنبي واشدهم بهِ اعجاباً وكان يثني عليه امام استاذهِ ابي علي الفارسي وهو الذي دعاه لزيارة ابي علي ونقلت لنا التواريخ شهادة الفارسي بعلو كعب المتنبي في علوم اللغة ، فاذا افترضنا ان حكاية ابن جني المتقدمة جرت لهما في آخر سفرة وقعت للمتنبي الى

بغداد وهي سنة ٣٥٣ اي قبل وفاته بسنة فقد كان عمر ابن جني يومئذ ثلثاً وعشرين سنة وكانت سن المتنبي واحداً وخمسين سنة وكان قد ملأ الدنيا شهرة وقد نُقل عنه انه كان شديد الاعجاب بنفسه والاعتداد بعلمه، فتعرّض ابن جني له وهو في نواحي العشرين وتخطئته وصبر المتنبي وطول آناته به محل تدبّر، وهذا لا يعني اننا نشك في رواية ابن جني بل في رواية المؤرخين لمولده. وكدنا نحيد عن موضوعنا في هذا الباب.

وزعم كثير من المؤرخين ان المتنبي ممن رُزق السعادة في شعره وهذا كلام يكرره متأخرهم عن متقدمهم وفيه دلالة على نقص البصر في صناعة النقد، ومن نظر بعين الناقد المنصف تحقق ان المتنبي كان من افراد البشر عقلاً والمعية وشجاعة وعلماً بما فيه من الفضائل التي يفوق بها اكثر مشاهير عصره، وان شعره لم يبلغ هذه المنزلة السامية الا لاختياره وصف حروب سيف الدولة واختصاصه به، فقد كان سيف الدولة من مشاهير الابطال وكان شاعراً عالماً عارفاً باليونانية والفارسية كريماً نقاداً لجيّد الشعر نزوعاً الى المعالي، ولكن كان كثير من الشعرآء حول الرشيد والمأمون وهما ارفع قدراً واوسع ملكاً بما لا يذكر عندهما سيف الدولة الا كالظل للشمس، وكان حول سيف الدولة نفسه كثير

من الشعرآء النوابغ ، ولكن لم يكن احد بين شعرآء العرب على الاطلاق يماثل المتنبي قريحةً وبداهةً وعلماً وذوقاً وعقلاً وبعد نظر وحسن تصرف بالكلام، فامثال فيرجيل وهوراس والمتنبي لا يوجد الا في فترات متطاولة من الزمان ولا يتأتى ما ورد لهم الا لأمثالهم من المتفننين النوابغ ، وليست حصافة الموسيقاريين الملهمين دون ذلك ، فمن اين للموسيقار غير المُلهَم ومَن ليس ذا قريحة سامية ان يبتكر ويؤلف بين تغريد البلابل وهدير الحمام وشقشقة العصافير وهزيم الرعد وهطل السحاب وغير ذلك من الاصوات المطربة والاحداث الطبيعية فيخرجها بتناسب وتطريب يكاد يطيش لبّ الشيخ الحليم ويدعو سامعها الى ان يقول هي نسمات السحر وارواح النعيم ، واما مَن يحسن النقر على الاوتار والصفير بالقصب او النحاس وغيره فهو الموسيقار المجيد لا المتفنن ، ولا عجب ان يُعَد الموسيقار المتفنن في رتبة الشاعر ، ففي اساطير شعرآء اليونان ان امفيون وهو احد مشاهير الموسيقاريين عندهم بنى مدينة طيبة (اليونانية) على نَغمات عوده اذ كانت تتأثر الحجارة من حلاوة ذلك النغم فتندفع من ذاتها وترتكز بعضها فوق بعض ؛ وان السباع كانت تدنو على نغم عود اورفاى الالهية ، وان الاشجار تحرك اغصانها على ايقاع ذلك العود ، ومثله او دونه ما روي عن الفارابي

من انه بنغمات قانونهِ او نايهِ ابكى واضحك في مجلس سيف الدولة بحلب ثم انام السامعين وانصرف دون ان يشعروا بذهابه ، فمن هذا وغيرهِ يُعلم ما كان من المنزلة الرفيعة للمتفننين من الموسيقاريين ايضاً عند جميع الامم القديمة .

ولا يُستَغرَب حسبانهم الرقص في جملة الفنون البديعة او فرعاً منها ، وهو مذكور في اقدم تواريخ الامم ، وقد ورد ذكره في التوراة ولعل الشعب الاسرائيلي كان اقتبسه من المصريين قبل خروجه من مصر ، وورد ذكر الرقص في التواريخ اليونانية فانهم كانوا يرقصون في حروبهم ويرقصون امام معبوداتهم وفي اوقات سرورهم ، وكان الرقص معروفاً عند العرب الاولين .

واما التصوير فلا يحسنهُ الا المتفنن الماهر ذو القريحة الوقّادة يستوحيها ما ترسمه يده من المناظر الطبيعية والتحولات الجوية واشخاص البشر وعامة الحيوان من سابح وطائر وذي اربع وغيره في سائر حالاتها ، بل كل ما تقع عليه انظارهُ في هذا الكون الفسيح ، فتفتق له قريحتهُ الابعاد والالوان والرسوم والظل والخيال وانوار الليل وانوار الصبح والظهر وقبل المسآء والمسآء وغير ذلك مما لا يُدرك دقة صناعته الا اهل الفن ومثل ذلك ملامح الانسان في حالات سروره وغضبه ويقظته ومنامه وسخطه ورضاه ويأسه

وحزنه الى ما لا يحصى من الملامح والحركات التي يعجز عن ايفاء حقها من الوصف، افصح الشعرآء والخطبآء، حتى تحسب المصوَّر بارزاً تكاد تلمسه والشخص ناطقاً تكاد تقول لهُ واما بنعمةِ ربك فحدث، وقل مثل ذلك فيما يتفرع عن التصوير كالنقش والحفر.

ومثل ما تقدم ذكره عن هذه الفنون ينطبق على فن الخطابة، فانه يحتاج الى الفصاحة والبلاغة وذلاقة اللسان والشجاعة، والخطيب المتفنن هو الذكي الفؤاد الذي تدعوه فراسته الى استلهام القريحة الفاظاً وحركات تسترعي الاسماع وتستوقف الانظار في مواقف معلومة كما لو قصد الى نفث روح النخوة والشجاعة في روع السامعين او الاقدام والاستماتة في سبيل الوطن، او الحلم والصبر في الخطوب والمكاره، الى غير ذلك من الاحوال التي يفعل فيها المتفننون في سامعيهم فعل المعجزات المروية اذ انهم يأتون بالفاظ وجملٍ لم ينطق بها احد امامهم ولا سُمِعَت قبلهم.

وكل اصحاب هذه الفنون الجميلة، هم اصحاب قرائح سامية كاعظم نوابغ الشعرآء ولولا القريحة ووحيها لكانت الفنون البديعة كباقي الصناعات لا كبير تأثير لها في النفس ومما يقتدر عليها اكثر الناس، وفي الحقيقة لولا القريحة لم يكن صناعات جميلة على الارض ولم يكن يُسمع لمخلوقٍ بيت شعر معجب، وعلى الجملة فالمتفننون

هم عماد المدنية وبهجة هذه الحضارة ونخر الانسانية .

الباب الثانى عشر

في الذوق الحَسَن

الذوق هو احد الحواس الخمس وبه يشعر الانسان والحيوان بالطعوم ، واللسان هو العضو الرئيسي لايصال الطعم ، والذوق هو قوةٌ مفاجئةٌ تسبق الفكر ، وهي عامة في النوع الانساني ولكنها مختلفة في كل واحد من البشر .

والذوق الحسن هو الحاكم المقدِّر ـ في العقليات ـ حسنات الصناعة وسائر نتائج الفنون ، وهو الذي يعيّن مراتبها وينزلها منازلها ويميّز بين حسناتها وعيوبها ، مثلما يدركُ بهِ صاحبهُ فيقدّر الحلو من الحامض وما بينهما والطعم الجيد من الرديء ،

والذوق شعورُ تقويمٍ يملكهُ اكثر الناس ، ولكن اصحاب الذوق الحسن قليلون جداً .

ومما تقدم يعلم المطالع اللبيب ان الناقد بل كل كاتب اذا لم يُرزق حُسن الذوق فيجدر بهِ ان يكرّر امثولة الخليل للاصمعي

اذا لم تستطعْ شيئاً فدعهُ   وجاوزْهُ الى ما تستطيعُ

وخيرٌ للعاقل ان يظل مسكوتاً عنهُ من ان يُسمّى سِكّيتاً يأتي في

اخريات الحلبة ، ولكن اهل القناعة الذين يشعرون من انفسهم بمثل ذلك قليل ما هم .

والذوق الحسن موهبة بل نعمة طبيعية ينشأ مع الانسان وينمى كسائر القوى العقلية وهو مثلها يقبل التربية والتهذيب ، ومن المستطاع تحسين الذوق بالتربية والعناية ، ولكن لا يمكن تكوينهُ في مَن ُخلق بغير ذوق .

وصاحب الذوق الحسن ُمضطرٌّ الى العناية بذوقهِ على الدوام لحفظه سليماً من الآفات فالعادة غلاَّبة والصحبة معدية ، وخليق بهِ ان يتجنب ما استطاع كل منظر شنيع من الانسان والحيوان والجماد ، وان يباعد بين سمعهِ وبين كل لفظٍ قبيح ، وكلامٍ فظٍّ ، وصوت مُنكَر ، وان يعادي كل اكلٍ بَشِعٍ يفشّي رائحة مكروهة وان يهجر كل مجلس يضم فظّاً غليظاً ، وان يهرب من كل منتفخٍ فدم ثقيل الدم ، وان يضع سدّاً بينه وبين مطالعة الفحش من منثور ومنظوم ، فانهُ مفسدة للذوق الحسن ، والحسن والقبح لا يستويان والخبيث والطيب لا يصطحبان .

وان ُيكثر من مطالعة ما نمقتهُ يراع حُذّاق المنشئين ، ونبهاء الكتّاب المبرّزين ومصاقع الخطباء ونوابغ الشعراء من عرب واعاجم ، وليحذر شعر الجاهلية فالفحش فاشٍ فيه ووحشيّهُ كثير

تنبو عنه المسامع، والمأنوس الرقيق كشعر عنترة وابن الدمينة قليل، فان وقع على امثالهما فنعم الوقوع، والا في شعر ادبآء المولدين ما يغني اتمّ الغنآء.

وكما ان تجنب الخطأ لا يؤدي وحده الى حسن الانشآء، والبعد عن العدوى لا يكفي لدوام الصحة، فنستحب لذي الذوق الحسن ان يطيل التأمل في مختلف التصاوير البديعة والتماثيل الجميلة لمشاهير المصورين والمثّالين وفي عامة النقوش والتزاويق البالغة من الدقة والحسن غايةً بعيدة، وان ينقّل طرفه في الغياض والرياض بين مخضر النبات ومختلف الورد والازهار تحت ظل الاشجار يستمع نَغم الاطيار وخرير المياه وتدفق العيون، او ينظر الى محاسن السماء في الليلة القمرآء وسير بدرها ونجومها وصحوها وغيومها الى غير ذلك من محاسن الطبيعة.

ونستحبُّ لهُ ان يكثر من استماع الموسيقى الرفيعة التي وصل بها الافرنج الى غاية متناهية في الاحسان والتطريب، فهو الفن الذي تتعشقهُ قلوب ذوي الالباب ولا يستغني عنه ذو ذوق من بني الانسان، بل هو الفن الذي يسبح المتفنن في امواج نَغمه ليقتنص السانح من عجائب الاختراعات، في عوالم بدائع التخيلات.

ويجدر به ان يعاشر الاذكيآء والنبهآء المهذبين ولا سيما خفاف

الروح الظرفآء المتأدبين وكل اديبٍ لطيف ، فان في مفاكهتهم ومحادثتهم انتعاشاً للقلب وجلاء للذكر وطيباً للقريحة ، وانساً وارتياحاً للنفس .

وقد يُبتلى ذو الذوق الحسن بأناس لهم نصيب من العلم وفيهم خشونة الاجلاف الجُفاة ، وقحة الاوباش ، ودناءة التحتوت ، يفتقرون الى الشيء الكثير من التهذيب للتعبير عما في ضمائرهم باداب اكارم الناس ، فاذا استفهموا حسبت الجلاميد تنقض ، واذا افهموا حسدت ذوي الصمم وتمنّيتَ لهم البكمَ ، لا عن بغض بل عن كراهةٍ ، وقد يرومون المداعبة فينطقون بكلام فيه من الفظاظة والجفوة ما يُستنكر مثلهُ على رعاع البدو اكَلَةَ الخنافس وهم لا يشعرون بخشونة ما نطقوا ، شنشنةٌ هي ثمرة ما ورثوه عن ابائهم او سوء تربيتهم او بيئتهم او خلطتهم ، فانهم لم يتذقوا طعم اداب النفوس العالية ، ورقة التربية النقية ، وجمال التهذيب القويم ومحاسن المعاشرة الشريفة ليتخلقوا بالاخلاق الفاضلة .

وخليقٌ بالناقد الحصيف ان يستدعي واسع حلمه عند نقد ما يقع امامه من اقلام هولآء بان يُنزل كلامهم منزلته من خشونة فطرتهم وغلاظة تربيتهم السقيمة ، وجدير بذي الذوق الحسن اذا تعرض له احد من هذه الطينة المُشتَبِهَة ، مشافهة او كتابةً ، ان

ينظر اليهم بعين المعذرة وان يكرر فيهم الاية « خذِ العفوَ وامرْ بالعرفِ واعرض عن الجاهلين » .

الباب الثالث عشر

في التيار الجارف

ان التيار الجارف مما يجب ان يتنبه لهُ الناقد وان يحذره اشد الحذَر ، وقبل الافاضة فيهِ ، يحسن ان نوضح المراد من هذه التسمية فالتيار هو موج البحر يجرف كل ما يعترضه ، فاذا عُلم هذا وعُلم ان المراد من هذه التسمية هو المجاز فقط نقول .

من المعلوم المشهود ان للناس في عصر من عصور حضارتهم احوالاً وعادات ، ان اختلف بعض منها عن بعض في متفاوت بيئآتهم ، فان الطبائع الغريزية في الانسان لا تزول ، وهي اذا لبست عند امة ثوباً غير ثوبها عند الامة الاخرى ، فما على الناقد الا ان يعرّي الامتين من ثوبيهما فتبرز له الفطرة الاصلية مجرّدة من افعال التصنع .

ومن الغرائز البشرية التقليد كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، فكما يتشبه المرء بجاره ، فهو يحاكيه في طريقة بذخه وسرفه او ببخله وتقتيره ، ثم هو يقلده ـ ولاسيما اذا اعجبته بعض

صفاته ـ في لبس اللون كذا وشكل اللباس كذا ولون الفرش كذا الى ما لا ينتهي من ضروب التقليد في اكثر احواله ، وكلما اتسع شكل من اشكال التقليد فانه يصبح تياراً يجرف عموم المدينة او الامة ، وهذا غير مقصور على بلدٍ من البلاد ، بل قد يعم المملكة اي الامة كلها ، وشاهده ميسورٌ لمن تتبع النقد بعينٍ بصيرة ، فهذه الامة الفرنسوية قد اشتهر عنها حب الاقتصاد وحسن الذوق في المفروش والملبوس والمأكول وان ضاق المسكن او الملبوس ، او تقترّ المأكول ، واشتهر عن الامة الانكليزية حب السعة في العيش والرفاهية والراحة في المسكن والملبس وان لم يكن في ظاهرهما كمال الحسن والذوق ، واشتهر الكرم عن العرب ، فهذه الاخلاق في الامم ـ وان كانت دون ارتياب في اول امرها محاكاة المرء بما استحسنه من سواه ـ فقد امتدت من جارٍ الى جار حتى عمّت المدينة ثم امتدت فعمّت المملكة كلها ، ولم تزل تتمكن من الامة على مرّ القرون حتى صارت سجية لتلك الامة ، وهنا قد يعترض المعترض فيقول ولمَ لا تأخذ الامة الفلانية من جارتها حسن الذوق او حب سعة العيش او غير ذلك بما هو محمود ، فالجواب عن ذلك بقول الشاعر

نحنُ بما عندنا وانت بما عندكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ

وكما في التنزيل كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون ، على ان عقلاء كل امةٍ وان اعترفوا بمحمود العادات التي في سواهم من الامم ، فانهم شديدو التعلق بما ورثوه عن اجدادهم من الاخلاق والعادات المستحسنة ، وهي فضائل وسجايا ليست دون سواها تُحبّبُ الى مجموع الامة التمسك بها والجري عليها ، بل قد يكون في اخلاق بعض الامم وعاداتهم شيء من النبوّ عن الذوق الحسن ، او بالعكس عما ليس بالحسن ، الا ان التيار الجارف ، ونريد بهِ هنا التقليد والتشبُّه ، يدفع اهل المدينة او الامة الى استحسان ما ليس بالحسن وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ، وقد اشرنا الى هذا الموضع في رسالتنا المعنونة بالموازنة بين الألعوبة الالهية ورسالة الغفران ، او بين ابي العلاء المعري وداتي شاعر الطليان ، ولعلنا ننشرها في آخر هذا الجزء اذ موضوعها وموضوعهُ واحد .

وعلى الجملة ان تيار الارآء كتيار العلوم ، وهذا كتيار الاداب وتيار العادات كتيار الازياء وهلم جراً ، وكل تيار يجرف ما امامه ، فلا يصده اعتراض ، ولا تقف في وجههِ حجةٌ ، ولا تستعطفه استغاثة ، ولا تثني اصحابه عظة او نصح ، ولا يُقنعهم برهان ، فكم من رأي فائل فشا بين قوم فجرف تيارهُ احزم الناس رأياً واوفرهم حصافةً ، وهل من رأيٍ اشد طيشاً وخطأً واقبح عاقبة

من الحرب ؟ وهي تُحسَب الى اليوم سنّةً بين الامم ، وانت لا تجهل ان القتل طعام لا تستلذه الاذواق ولا تهضمه المَعِدة ولا تستحي النفوس من الاحجام عنه والهرب منه ، ومع هذا كله فان خبر اعلان الحرب بين امتين وان وقع ساعة اذاعته وقوع الصاعقة على ارؤس الناس ، فهو في نفس الساعة يخلق فيهم تياراً هو تيار الحقد والبغض والغضب ، تيار اخذ الثأر وكشف العار ، تياراً يتصارع فيهِ الطيش والفطنة والحمق والحلم والخطأ والصواب ، وينفخ في تهييجهِ دُهاة السياسة من الامتين تحت ستار الوطنية فيصرع الطيش الفطنة ويتغلب الحمق على الحلم ويسدل الخطآء على الصواب اسدال الظلام ، ويتغنى ذوو الشرّ باناشيد الشعرآء ويزَمرون بمزامير الاغاني الحماسية وتجري اقلام الكتاب وتنطلق السن الفصحآء بخطب الحماسة حتى ترى الجبنآء ، مندفعين الى الهيجآء ، واصحاب الحزم ، واهل النهى والحلم ، والنافخين في التهييج كلهم بين من اجترفهم التيار .

ومن التيار الجارف ان تزعم الامة التي اوقدت النار وسلّت البتّار انها هي المظلومة وانها هي المُعتدى عليها ، ويجرف هذا الرأي جلّ عقلاء وعلمآء تلك الامة برغم ما بلغوه من رفاهة العمران وبسطة المدنية وما ادركوه من سعة المعارف والعلوم واختراعاتها

العجيبة ، ولا ادلّ دليل على ذلك من شهادة علماء الالمان آخر الحرب العالمية .

ومثل ذلك تيار علوم السحر والتنجيم وغيرها فقد جرف اناساً من الفلاسفة غير ابي العلاء ومن اكابر العقلاء ومنهم من من كتب وملأ الصحائف بما ظنه علماً راسخاً كالجبر او الهندسة ، حتى كان الملوك لا يُصدرون اوامرهم باعتلان الحرب او بهجوم الجيش ، الا بعد ان يستخرج منجم الملك الطالع للنهار والساعة التي يُسعَد فيها الملك ، وكان يؤتى لكل مولود في بلاط الملك بالمنجم يستخرج لهُ طالعه وينظر في مستقبله ، بل كان بعض الملوك والامرآء لا ينتقل من قصر الى آخر ولا يحتجم ولا يستحم دون ان يستخرج المنجمون لهم طالع ما ينوون عمله ، حتى ان كِپلر الفلكي العظيم صاحب القواعد المشهورة وكاسّيني قيّم مرصد پاريس وكوْردان الطبيب الرياضي المشهور ممن جرفهم تيار هذا العلم الذي نعده اليوم من الخرافات .

ومن اعظم البرهانات الناصعة والحجج البينة على اجتراف التيار ما رآهُ الناس منذ اعوام قريبة اذ جرف تيار زيّ التعرّي نسآء هذه البلاد الشرقية نفسها ، بلاد الحجاب والتصون والعفاف والحيآء ، حتى كان اذا لَفَّتْ رَبّاتُ الخدور ، وربائب الحجال والستور

ركبةً على ركبةٍ ، ظهر من عريهنّ بعد لبس الغلائل الموشّاة ، ما كان يجب إحصانه عن عيون الامهات ، ولم تنجُ من هذا التيار الفضّاح الاّ مقطّعات الستين او من عصم ربُّك وقليلٌ ما هُنّ .

ومن بلايا التقليد ان كثيراً من الناس يسترسلون اليه تدريجاً وفي غالب الاحيان عن سلامة صدرٍ لا بغية التقليد بل كانه امر لا بد منه ، وكلما امتد وتشعب عظم تياره حتى يجرف احزم الناس واعقلهم كما ذكرنا ، فكم اديب طوت ذكره التواريخ لغضب الملك او احد الحكام عليه ، وكم نَكِرة عريّ من كل فضل توصل بالخبث او بالسعاية او بغير ذلك من الاسباب الذميمة الى ارضآء امرآء وحكام بلده فذُكر اسمهُ بين الاعيان والاعلام وامتدت شهرته في حياته ثم ظلت بعد موته ، ومنهم مَن عُدّ عالمَ عصره او شاعر مصره ، ثم ظل كذلك بحكم تيار التقليد وهو الوقوف عند قول فلان ، والحكم بما ارتأى الشاعر فلان ، والذين جرفهم هذا التيار من اهل العلم خلق كثير منذ حكاية المفاضلة بين شعرآء الجاهلية والمخضرمين والمولدين الى يومنا هذا ، ويا ليت شعري ما قيمة بدويّ جلف يشهد لجرير على الفرزدق او للاخطل على جرير ؟ وان هي شهادته الا قوله مسبة هذا كانت ابلغ من ذلك وفحش هذا كان دون ذاك ، وهل لمثل هذه الاحكام يخضع شيوخ العلم ومن مثل

هولآء الاجلاف الفقرآء تُعطى مراتب اهل العلم وعنهم يتوارث الشعرآء مراتبهم؟ واذا انت فتشت مئة كتاب من كتب الذين تكلموا في الشعر والشعرآء، لا تجد حكماً ولا اعتراضاً ولا قولاً غير ما قال اولئك الجُفاة من أكلَة الجراد والشيح والقيصوم كأن اقوالهم من الاحكام المنزلة واذواقهم عسَّالة الاذواق المُعلّلة، ولعل احدهم لم يكن يأبى عشر عنزاتٍ او اقل ثمن حكم يسجلهُ بقصيدة سبابٍ وفحش، وانت تعلم كيف كانت شهادة الاعرابي بين سيبويه والكسائي. وكلما امعن الناقد في الوقوف على سير العلوم تبين لهُ شدة تيار التقليد عند جميع الامم، فقد كان منتهى علم الكاتب في علمٍ من العلوم، ان يحرص كل الحرص على نُقول من تقدمه واسناد كل قول الى من نقل عنه كأنه ايات بينات او احاديث مسندة، دون اعتراض على معنى او جملة او لفظ، اللهمَّ الا ما كان متعلقاً بالصناعة اللفظية، ويحسب انهُ اذا اكمل كتابهُ على تلك الصورة فقد ادّى امانة العلم، اما ذوو القرائح المبدِعة فقد كانوا قليلي العدد ولاسيما ذوي الابصار النقادة في كثير من العصور لاسباب كثيرة ذكرنا اهمها في الجزء الاول من كتابنا هذا.

وعلى الجملة فتأثير التيار الجارف اي العام الذي يجرف بعمومه غير مملكة من الممالك، مما لا يماري فيهِ سوى المكابر، اذ

يندر ان ينجو من تأثيره احد من المعاصرين ، وكثيراً ما يعثر الناقد على اغلاط لاكابر العقلاء والعلمآء ، فيحار في تعليلها واذا امعن في البحث عن عادات اهل العصر وكثير من الاوهام التي تفشو فيهم وترسخ رسوخ المذاهب والمعتقدات ، ايقن ان صاحبه ممن جرفهم تيار عصره ، ولم ينجُ من سلطانه وقهره .

الباب الرابع عشر

في الانتفاخ

إنّ بعض العلم ينفخ ، حكمةٌ قديمة تشهد لصدقها حوادثُ القرون مهما تقادم عهد النطق بها ، ولذلك قالوا ان الجاهل المعترف بجهله خير من نصف العالم ، واكثر ما يُرى الانتفاخ في ذوي القرائح العُقّم .

فمن باب الانتفاخ المذكور ، ان بعض عشاق التشاهر ومُغرَمي الاعتلان ، يودّون ان يأتوا بالمبتكر اثنآء مطالعاتهم كتب العلوم الادبية في اللغات الفرنجية ، وعندما ياخذون القلم ليخطّوا ما تتوق اليهِ نفوسهم وما يحسبون ان يكون قلادة في جيد العربية ، او غرة لم تنتج مثلها قريحة شرقية ، تعاصيهم القريحة فلا يرضون ان تعترف ضمائرهم امام محكمة صوابهم بالعجز عن ذلك إبآءً وأنَفَةً

بل كبراً وانتفاخاً ، فيقتسرون قريحتهم على الانتاج ، فتلد لهم بعد اشد الطلق واعسرهِ ، مسوخاً يسمونها ضروباً من الجمَل ، وهي تُقرأ بعناء جزيل ولا تُفهمُ بل هي غاية الغايات في السخف كقول احدهم - ليس للمنشيء رسالة خاصة يؤديها من لدن الحياة ويضيع شفرها اذا لم يقم هو بادآئها - الى كثير من امثال هذا الخلط والتقعير حتى تحسب الكاتب في هذيان حمى شديدة .

والعجب من هذا وامثاله ، انهم اذا لم يحاولوا الابتداع والتعمق ، ولاسيما اذا استحسنوا محاكاة طريقة مسلوكة مألوفة في فن الكتابة ، فانهم لا يبعدون عن متوسط الاجادة وهذا دليل على انهم وان كانوا لم يُرزقوا قريحةً فياضة لكنها ليست غاية في العقم وليتهم اتعظوا بقول الشاعر

جازَ حدودَ اجتهادهِ فاتى   غيرَ اجتهادٍ لامّهِ الهَبَلُ
ابلغُ ما يُطلَبُ النجاحُ بهِ آلـ   طبعُ وعندَ التعمقِ الزللُ

ومنهم من يظن انهُ فَكِهٌ مزّاح - ولِفَنّ التفكيه والمزاح اناس فُطروا عليهما - فمن اقتحم الدخول في هذا الباب ولم يكن ذلك في غريزته ، فاكثر ما يأتي به التافه البارد وقد يرضى عنه بعضهم ، وهولآء يُعدّون عند اهل الذوق من البلداء . وقد يُضحك بعض الصبيان لانهم لا يفهمون شيئاً من كلامهِ ، وهذا غاية ما

يُرى من ثمرات اقلامه .

ومنهم من يأتي بمقدمة كلامه ويقسم الكلام الى انواع ثم لا يأتي بنتيجة ولا بانواع ، فاما ان يكون ذلك عن عجز منه ، او أنهُ يظن في منحهِ الكلام حقه من الايضاح مع انهُ لم يوضح شيئاً ، وهذا غاية في الفهاهة .

وكثير من امثال هولآء ـ وعلى ضروبٍ شتى من الشذوذ ـ قد تولّتهم علّة الانتفاخ ، وسوآء في ذلك طلاّب الانشآء وطلاب النظم في كل عصر وعند جميع الامم ، وقد شكى منهم افاضل ازمانهم والعقلاء ، واما الذي نراه من ذلك في عصرنا هذا ، ولاسيما منذ السنة التاسعة عشرة من هذا القرن العشرين فقد فاق وتجاوز كل حد ، اذ كادت تتساوى اخلاق اهلهِ في الانحطاط والتدني وتتجارى في السقوط والرذائل في كل بقعة من بقاع الارض ولاسيما عند الامم المتمدنة ، ولعل الامة الانكليزية لم تزل الى اليوم متمتعة بتقدمها على جميع الامم تهذيباً ، وانها والحق يقال اقل الشعوب شرّيرينَ واراذل ، ومن المعلوم ان منشأ هذا التقهقر جميعه في ادب النفس ، هو هذه الحرب الضروس المسمّاة بالعامّة ، وهي التي وقعت في منتصف الرابعة عشرة بعد التسعمائة والالف ، ولم تنتهِ الا اواخر الثامنة عشرة ، فانها في مدى هذه السنوات الاربع ، قد فتكت في

الاخلاق فوق ما فتكت في الاجسـام البشرية ، وهي ان كانت قد اهلكت سبعة او ثمانية ملايين من الناس ، وخلّفت وراها نحو خمسة ملايين ايضاً من العمي والصم والبكم والمقطعين والمشوهين ، فقد افسدت اخلاق مئات الوف من الخلق انتشروا بلباس الجند وغيرهم في سائر الممالك لا عمل لهم الا السلب والنهب واللصوصية والجاسوسية والفسق والغدر والغش والاحتيال حتى اقدموا على خطف الناس من بيوتهم والهجوم والغارة على المصارف الـكبيرة في نصف النهار وعلى سلب الخلق في قارعة الطريق وعلى مشهد من المارين وعلى سفك الدمآء والتعذيب كأنّ ارواح البشر دون ارواح الكلاب ، هذا كلهُ واكثر مما وصفنا، تراهُ وتسمع بهِ كل يوم وتقرأ اخباره في الصحف السيارة وهو يقع في ارقى بلاد الارض مدنيةً وعمراناً ولاسيما اميريكا وفرنسـا الجمهوريتين العظيمتين . بخٍ . بخٍ . . عدا ما يأتينا كل يوم عن انتشار الفساد والرشوة في شرطة بعض الدول وحكامها انتشاراً فاحشاً فاضحاً ، وهما الركنان العظيمان لسلامة الاموال والابدان ولله در الشاعر

يا حكمآء الارضِ يا ملح البَلَدْ ما يصلحُ الملحَ اذا الملحُ فسدْ

واضف الى ما ذكر فضائح لا عدّ لها من اختلاس افراد الناس ودوائر الحكم وافلاس الوف من المصارفْ وشركات التأمين

والحكومات وانتشار الظلم وانواع الفساد والفواحش في اكثر طبقات المجتمع البشري المتمدن ، حتى اجمع عقلاء الامم من محبي الفضائل ، على أنَّ هذه المدنية العظيمة التي وصل اليها الانسان بعد مشاق يعجز وصفها الواصف ، قد تنمحي بما انتشر من الفساد والشر تحت عنوان الديمقراطية في امةٍ من ارقى امم الارض ، اذا لم يتدارك عقلاؤها وغيرهم وضع حدّ لهذه الديمقراطية بل فوضى الفساد والخبائث اذ تعمّ عدواها غيرها من الامم ولاسيما جاراتها ، ويومئذٍ تعمّ الفوضى التي لا يُعرف مصيرها ، وفي اخرها يتم انقضاض هذا الصرح الشامخ من حضارة القرن التاسع عشر وبدائع مدنية هذا الثلث الاول من القرن العشرين وغرائبهِ وما يُرجى بلوغه من خفيات عجائب الكون بالوسائل التي ادركها العمران الحالي باجتهاد العلماء ، وذكاء قرائح المخترعين وصبرهم ومخاطراتهم بالنفوس النفائس ، وسواعد العاملين ، وتدبير اهل الرأي ، وعدالة الاحكام ، وسلطان الشرائع السموية والقوانين الدولية وعمر الزمان ، بل ان في عدوى هذا الفساد تقويض مدنية سبعين قرناً او تزيد وهلاك امم لا يحصيها الا الله .

وانّ ما ذكرناهُ من الشر والفساد اللذين انتشرا بين تلك الامم ليومنا هذا ان هو الا لمحةٌ ضئيلة جداً من مطولات المقالات التي

تنشرها كل يوم مجلات اولئك الاقوام وصحف اخبارهم، واسنا في البحث عن خبائث السياسة ولا عن شيء بعينهِ من هذا الباب وان كان غير اجنبي عن موضوعاتنا لانه داخل في بحث ادب النفس وانما ساقنا اليه الكلام في الانتفاخ وانحطاط الاخلاق والجرأة على افحش الجرائم وافظع الاثام.

فلا عجب بعد ان قل الحيآء بين الناس الى هذا الحد المتناهي في فوضى فساد الاداب، بل التباهي والانتفاخ في الاقدام عليها، ان نرى زعانف كل صناعة قد مدت يديها الى ما يعلو اقدارها غير مبالية بفضيحة القصور وعار الفشل، بل برز اكثرهم بثوب استاذ منتفخ يتكلم من علُ، فيزري على العلمآء مناهجهم وعلى الكتاب طريقتهم ولاسيما المتقدمين، ويتوهم ان في استُطاعته ان يجمع بين لهجته العامية ومحصولهِ من الاعجمية وما اقتبس من افاق الارجآء البعيدة والاجوآء الغربية، وان يفتق للناس من هذا الخليط المضحك المستكرَه لغةً عربية تطأطيء لدى فصاحتها رؤوس البلغآء ويفهمها عامة الشعوب العربية، ومَن لا يفهمها فليتعلمها اذا شآء، ولهُ ان يدخل فيها ما يعجبه من اللفظ فتزداد ثروة — وفصاحة — بل ما قيمة الفصاحة عند هذا الفنان — كما يقولون — وامثاله في جنب المعنى مهما كان خسيساً؟.

ومن هذا الباب باب الانتفاخ والحمق تصدّر بعض الاغرار للانتقاد ولا آلة لديهم وانما هم عبيد الشهرة او عبّادها، فان هم لم يتوصلوا اليها بالتافه من قرائحهم المستحجرة، عمدوا الى مدح كاتب او شاعر قرظوهُ، ثم برزوا للطعن على كل من انتقده لمخالفته رأيهم السخيف، فان عجزوا عن الدليل ـ وما اكثر ما يعجزون ـ لم تعجزهم المسبة، وبامثال هذه الوسائل يقصدون الوصول الى الشهرة التي يتهالكون في سبيل نيلها.

ومن جنون الزمن ـ اذ يظهر للباحث ان للازمان جنوناً كما للناس ومثل ذلك للممالك والامصار ولستُ ادري أيعدي البشرَ جنونُ الزمن ام الناسُ يُعدون المكان والزمان؟ ـ اقول ومن جنون الزمن ان علة الانتفاخ هذه قد فشت كثيراً في بعض الامصار حتى كادت تعم احداث السن ولاسيما فتيان المدارس، فهم ان لم يجدوا عملاً او لم يجيدوا قولاً يسيّر ذكرهم على السنة الخلق او في الصحف، توافقوا على ان ينشر احدهم قصيدة او مقالة ثم يعقبه صاحبه بتقريظ تحت عنوان «انتقاد» ليشهروا اسماءهم بين الشعراء والكتاب، وفي ذلك تضليل وتغرير لمن هم دونهم في السن والعلم.

ومن هذا الباب ايضاً بل اشنع منه واشد وقاحةً تعرض بعضهم للتلحين والايقاع والضرب والتخريج، وكله لا يخرجُ عن

غرضهم وهو وضع نغمات جديدة للاغاني السفهية المبتذلة التي ينظمها ابناء الشوارع ، او اختراع موسيقى عربية جديدة ، واحتذوا بذلك على مثال المجددين في اللغة ، أوَ ليس التجديد تياراً كغيره يجرف كل من تعرض لهُ ؟ أوَ ليسَ هذا الفكر من باب الانتفاخ ، حدّث احدهم قال اكثر الناس في مجالسهم ذكر « الفنان » اي المتفنن فلان وانهُ بذّ كل « فنان » بما ادخله على صناعة الالحان العصرية والموسيقى العربية حتى غلبني شوق شديد الى استماعه ، وانا منذ الصبا بي ولع بالصوت الحسن والموسيقى عامةً من عربية وافرنجية ، فذكرت ذلك لاحد اصحابي وكان ممن أوِلع بالموسيقى ايضاً فقال ان شئت اسمعتكهُ الساعةَ ، قلت وكيف ذلك ؟ قال هيا بنا الى منزل اقربائك - وذكر لي اسمهم - فان عندهم مِسمعة (فونوغراف) ولا بدّ من ان يكون بين اصواتها صوت لصاحبنا فلان ، فقلت ذاك اليك فلفّ ذراعه بساعدي وسرنا حتى وصلنا الى منزل النسيب ولم نكد نستقر حتى حكى له صاحبي سبب زيارتنا وطلب المِسمعة ثم نظر في الواح الاصوات وانتقى منها لوحاً وقّعهُ على المسمعة وادار دولابها قال الراوي فاصغيت كلّ الاصغاء ، فاذا بجَلَبةٍ ثم سمعت رنة عودٍ ثم عقبها صوت كمنجةٍ ثم عادت فغلَبَتِ الجلَبة وصاحبي يتفرس فيّ وانا أصغي ولا اسمع الا اصواتاً مختلفة وبينها صوت

منكر ثم عقبه جلبة وتصفيق شديد ، فقلت لصاحبي ومتى يغني صاحبك ؟ قال ألا تسمع ؟ قلت ماذا قال انصت فاذا بالصوت المنكر فقلت ما هذا ماذا يقول ؟ فقال هو يقول قلبي لبعدك ، فقلت ولماذا ينعر هذا النعير ؟ قال ليحاكي النغم الفرنسوي ألا تسمع كيف يصيح قلبي ، قلت لم افهم انهُ كلام عربي حتى ذكرتهُ لي ، فعلى مَ يشخر بقولهِ قلبي وينعر ، كأنه يستهزيء بالافرنج ويسخر ؟ قال لا بل ليحاكيهم في نبراتهم وقراراتهم ، قلت ان هذا التقليد اشبه بالسخرية من غنائهم البديع ولله درّ القائل

يرومون شأوي في الكلام وانما

يحاكي الفتى فيما خلا المنطقَ القردُ

وقد اذكرتني نعرات « فنانكم » هذا قول ابي الطيب ايضاً

واذا اشار محدّثاً فكأنهُ قردٌ يقهقهُ او عجوز تلطمُ

وهب ان المغني اراد محاكاتهم أيحسبُ انهُ بهذا التقليد البربري القبيح يأتي بما يُستحب او يُستحسن او يُطرب ؟ قال لم اسمع من سواك تهجينَ هذا التجديد وذمّه ، قلت وانا لا ارى انساناً ذا اذنٍ صحيحة يطرب للاصوات الحسنة والنغم الرخيم ، بل من لهُ شبه ذوقٍ في الغناء من عربي او افرنجي ، يطيق ان يسمع الى هذه المحاكاة المخزية المعيبة المضحكة المبكية ، وان يطلق عليها اسم موسيقى

او غناء ، وهي في الحقيقة اول ما بدأ بها اصحابها ، لم تكن الا تقليداً من جهّالٍ وسُكّارى لم يذوقوا حياتهم كلها شيئاً من طعم الموسيقى اوغناء الامم الاروبية وصناعتها الساحرة ، وقد راموا التجريس فلم تسعفهم قرائحهم واصواتهم الا بهذه الصورة الممقوتة المخجلة ، ثم حسَّنَ بعضهم الى بعض في الجرأة على الجهر بانه غناء عربي من باب التجديد ، وحاشا للهِ ان يسمى هذا من فن الغناء العربي فهو كفر بمحاسن هذا الفن . قال الراوي ثم قلت لصاحبي والتلحين والايقاع واختراع النغم في الغناء والموسيقى كل هذا بل بعضهُ يستدعي قرائح تحاكي اعجب وابدع قرائح الشعرآء النوابغ وتقتضي معارف واسعة واطلاعات كثيرة ، بل الوصول الى ما ورآء الطبيعة كما عرّفَ الموسيقى شوبين هاوير بقوله ما ورآء الطبيعة بالحسّ او بعبارة اخرى ان الموسيقى هي ما ورآء الطبيعة بالحسّ لا بالنظر ولا بالفكر ، ومن اين « لفنانكم » هذا بمثل شيء من المعارف التي ذُكِرَتْ ؟ أليسَ هو العواد فلان ؟ او الصنّاج فلان ؟ وكلاهما احمق من هبنقة وان دعوهما تارة متفنناً « فناناً » واخرى استاذاً ولو انصفا نفسيهما لما تعرضا لهذا المقام العليّ ، ولكنهُ جنون العصر ، وحب الانتفاخ والجشع على الكسب ، ولو بالنهب ، او اهانة الأكابر والسب ، او بالتمرغ على تراب المذلة

والهوان ، وهذا الروح روح عبادة المال ، عبادة المنفعة ، لا حياة معهُ للعلم ، اذ قِوامُ العلم والتعليم الترفع عن غرض الكسب ، والزهد بالمال والنزاهة عن الانتفاخ ، والعبودية والاسترقاق للعلم ، والاغراق في عوالم التخيلات ، لانتزاع احاسن التصورات(١)

ولما انتهيتُ الى هنا ودعت صاحبي ومن كان هناك وعاهدتُ نفسي الا اسمع غناءً عربياً ما لم اثق بانهُ تلحين قديم .

فقلتُ لمحدثي وانا اعجب بروايته وحسن ذوقه وصدق فِراسته ووضوح برهانه ، إذن انت تظن ان كل هولآء مخادعون ؟ قال لا بل فيهم المخادعون والمنخدعون ، فاما المخادعون فهم عبيد المنفعة

(١) من احاسن الاتفاق اننا عندما اخذنا في تبييض هذا الباب وقع تحت انظارنا عنوان — المسرح المصري قرار وزير المعارف — في جريدة المقطم المشهورة بتأريخ ٦ شباط (فبراير) من هذه السنة ١٩٣٥ فقرأنا ما اثلج صدرنا وحقق عندنا انه لم يزل في بلادنا عدد كريم نقول هذا لتذكرنا قول السموأل

تُعيرنا انّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها ان الكرامَ قليلُ
وما ضرنا انّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجار الاكثرين ذليلُ

وهذه صورة تقرير الوزارة :

« بما ان التمثيل المصري اصبح من سوء الحال بحيث تجب المبادرة الى النظر في شأنهِ واصلاح حالهِ في نطاق واسع يشمل تكوين الفرق واعداد الممثلين والمخرجين وايفاد البعوث ورفع مستوى التأليف والتعريب وترقية الاخراج والموسيقى والغناء المسرحي وغير ذلك مما يتصل بالتمثيل وبما ان الاقتصار على منح اعانات قليلة للفرَق القائمة لم يحقق في كثير ولا قليل ما كان منشوداً من اصلاح التمثيل . وبما ان الحال تقتضي تأليف لجنة للنظر فيما يجب لترقية المسرح المصري لذلك قرر : المادة الاولى — تؤلف لجنة . . . »

من رُذالة الناس ، يتواجدون ويتصايحون ليخدعوا سواهم من البسطآء واما المنخدعون فهم من لا علم لهم بفن الغنآء او الموسيقي - وما اكثرهم - وبعضهم يتخادعون لما يرون من تواجد وتصايح الخبثآء المستأجرين خشية ان يُقال عنهم انهم لا يذوقون طعم الغناء والموسيقى - الجديدين الرفيعين - فيبدون امارة الاستحسان والطرب ، قلت ألا يخامرك ريبٌ في صواب هذا الحكم او الرأي ؟ قال لو كان القضآء في مسئلة ذوقية محضاً او حسية محضاً ، لما ابديت رأياً قاطعاً ولا اعلنتُ قولاً الا بعد المشورة ، فقد يستطيب الناس لوناً من الطعام تعافهُ نفسي لسبب في جوفي او في انفي ، وقد استخشن ما يستنعمه الأكثرون او بالعكس لنعومة في جلد كفي او لخشونة ، واما ان ارتاب في صدق حكمي على فساد غنآء او قبح صوت او شذوذه من اصوات البشر او الموسيقى ، فذلك مما لا يجوز لي ، اذ الامر في ذلك يخضع لقواعد فنية وذوقية ، لا ذوق طعمٍ او لمس ، بل ذوق عقل وعلم واذنٍ قد اعتادت استحسان مليح الاصوات واستنكار قبيحها ، ولذلك فاني ارضى بحكم كل من يذوق صناعة الغنآء العربي ، من سائر النبهآء والاذكياء الذين لا صلة بينهم وبين هذه الزعانف « وفنانيها » من اهل التجديد والانتفاخ .

فاذا نظر العاقل الى ايّ حدّ من تيه الغرور دفع الانتفاخ

امثال هولآء حتى ظهروا بمظهر مسخرة في اعين العقلاء وآلةً بايدي الجهلاء ، يفاخر فريق بالآخر ليوهم السامعين والناظرين ان هناك براعة موسيقية وصناعة تلحين ، فيكذب السامعون على انفسهم خجلاً وتمويهاً ويتظاهرون بالاعجاب .

واذا تأمل اللبيب فيما وصل اليه فن الغناء العربي على ايدي مجدديه اليوم في مصر ، يُطرق خجلاً امام الامم الاروبية ، اذ لا ريب في انهم عند سماعهم هذه الطمطمانية والتقليد المخزي المعيب ، لا ينزلون الامم العربية كلها فوق منزلة الهمج من الزنوج كالزولوس واضرابهم .

الباب الخامس عشر

في العلم والتعليم

حبٌّ العلم غريزيٌّ في كل انسان ، او بلفظ اصح حب المعرفة ، وبينها وبين العلم فروق ، اذ أنَّ الفلاسفة اعتبروا العلم بعد المعرفة ، لقولهم ان المعرفة هي الادراك المسبوق بالعدم ، ونعتوا بها الادراك الثاني اذا تخلل عدمٌ بينهُ وبين الادراك الاول ، والمعرفة هي الادراك الجزءي والادراك البسيط ، اما العلم فهو حصول صورة الشيء عند العقل ، وهو ايضاً الاعتقاد الجازم الذي يطابق الثابت ،

والعلم هو الادراك الكلي والادراك المركب ، وتوسعوا في التعريف الفلسفي الى غير ما اشرنا اليه مما يخرج عن الغرض الذي توخيناه في هذا البحث .

والذي يتحصل من وراء ذلك جميعه ومما نقصد اليه ، هو ان محبة او رغبة العلم غريزة من الغرائز البشرية منشاؤها حبّ وقوف المرء على ما يجهل او عما خفي عنه ، ولما كان منذ صغره يبتديء البحث عن المجهولات والتفتيش عن الخفيات ، اي في حين جهله كل شيء ، فيبتديء علمه ضئيلا جداً ، اي ان حبه المعرفة هو بنسبة طفوليته ، ثم يتدرج بما يعرفهُ يوميا في سبل الاستطلاع الى ان يقارب البلوغ ، فان كان حب تحقيق المعرفة من سجاياه ولم يكن بليداً طلب العلم ولا يزال يتقدم ويتمرن حتى يبلغ منزلة العلماء ، فان جعل صدره قبر علمه ، اي انه سُرّ بما حصل له من المعارف والعلوم واكتفى منها بالمطالعة والمراجعة للذة نفسه فذاك هو الانانيّ بل العالم الاشل بل العاجز ، وهو اشبه شيء بالشره المتأنق في طعامه يسبل الستور دون مائدته .

اما العالم العامل فهو من يعلم ويُعَلّم ، بل هو من يعتقد انه لم يتعلم الا ليعلّم . وللتعليم فنون ، فمنها نشر العلم بالتصنيف والتأليف ومنها التعليم بالخطابة ، ومنها بالمذاكرة ولله در الشاعر

وأطِلْ في العلم مذاكرةً　　فحياةُ العلم مذاكرتُهْ

ومنها بالتلقين وهو تعليم النشأ الصغار .

والتعليم صناعة من اجلّ الصناعات ، لكنها من ادقها علماً واصعبها مطلباً ولا تنقاد الا لمن ذكا طبعه ، واتسع صدره ، وكرم خلقه وقد عرف الشاعر العربي جلالة قدر هذه الصناعة فقال

اقدم استاذي على فضلِ والدي
وإنْ كانَ لي من والدي الفخرُ والشرَفْ
فذاكَ مربي الروحِ والروحُ جوهرٌ
وذاكَ مربي الجسمِ والجسمُ من خزَفْ

ولا تسمح الحكومات بالتعلم في البلاد الغربية ، الا لمن كان في يده اجازة من مدرسة عالية يُتقّن فيها فنُ التعليم ، اذ انها على يقين من ان تلك المدارس لا تمنح اجازة بالتعليم الا لمن خبرت قويم ادبه ومحاسن اخلاقه وفطنته ومقدرته على التعليم .

واول ما يحتاج اليه الاستاذ بعد معرفة التلقين والتعليم هو الفطنة ، وهي تقوم بتمييزهِ مدى ذكاء المتعلم وفهمهِ ، وهو غرَض قصيّ لا نحسَب عندنا اي بين العرب ممن تنبّهَ لهُ الا قليلون من الاساتذة ورؤساء المدارس ، ونحن نعترف مع الاسف اننا لم نذهب الى هذا الزعم الا بعد ان وقع الينا عدد غير قليل من الكتب

التي يُعلَّم بها في المدارس في مصر وسورية ، وقد كنا اطلعنا في الجرائد والمجلات على وافر الثنآء عليها ، ومدح لنا بعضها اناس مشهود لهم بالعلم ، وبعض تلك الكتب لتعليم الصفوف العالية في المدارس طرق الفصاحة والانشآء ، فظهر لنا ان جامعيها لم يُرزقوا حسنَ الاختيار ، وقد تكون عاقبة عملهم التجاري رابحة ، الا انهم لم يسعدهم الحظ بسلامة الذوق في كثير مما اختاروه ، ولعل ذلك كان لرغبتهم في الاختصار حيناً ، وحيناً في تكثير عدد الاسمآء من الشعرآء والكتاب دون غربلةٍ ، حتى ظهر في كثيرٍ مما اختاروه استخفاف بالعناية المقتضاة في مثل هذه الكتب ، وغفلةٌ عن البحث الواجب في مقدار انتفاع طالب العلم منها ، وهي موضوعة في الأكثر ليحتذي الطلاب مثالها وينسجوا على منوالها . واذا نظر الناقد في بعض المقطوعات او الامثلة المجموعة في بعض تلك الكتب تملكهُ الحيرة مما يرى ، فقد تقصّينا في فهم كلام بعضهم طويلاً فما انتفعنا بشيء ، حتى كدنا نتهم نفسنا بنقص الفهم ونقول أتراهُ يكتب بلغة عربية ام هو لفظ عربي في تركيب بين الفرنسوي والانكليزي ، ام لا هذا ولا ذاك بل شيء آخر من احاجي صناعة الكتابة ؟ ولما اعيانا فهم ذلك ، وكان موضوع كلام الكاتب انتقاد كاتب ، عمدنا الى عرضهِ على احد الافاضل من المدرسين

فاطال فيهِ النظر ثم قال اعترف لكم بكل اخلاص انني لم افهم شيئاً ، فان كنا بعد مزاولتنا العلمَ دهراً طويلا ، وممارسة ذلك الاستاذ فن التعليم زمناً لم يُفتح علينا بتفهم تلك الطلاسم ، فماذا يكون امر ذلك الفتى الذي يطلب منهُ استاذه ان ينسج على منوال هذا الكاتب وامثاله ؟ بل لو سأله ان يشرح ما استطاع فهمه من تلك القطعة او التمرين لما نبس بحرف ، واليك ما يقول صاحب القطعة في الفرق بين الكاتب والمنشيء : في عرفي هو ان الكاتب انسان قبل ان يكون حامل قلم . . . ثم بعد ان تقرأ لهُ ثلاث صفحات من امثال هذا السخف تستخلص منهُ انه يرى منقوده غير جدير بان ينعت بالكاتب بل بالمنشيء . ثم يقول والمنشيء قليل المعاني والافكار (كذا بحروفه) ، اما قوله ان الكاتب في عرفه هو انسان قبل ان يكون حامل قلم ، فلا نرى ان نزيد تعريفاً في سخافة هذا التعريف ، وياليت شعري هل يحمل القلم احد من غير النوع البشري ؟ فما معنى هذا التعريف ؟ وماذا يفهم منه ؟ وكيف يكون المنشيء قليل المعاني والافكار ؟.وماذا فهم من لفظ المنشيء ؟ والانشآء في اللغة هو الانشاد وهو الاحداث ايضاً ، لكنه عند علمآء المعاني تعريف لاسمى طبقات الكتابة ، قال صاحب المثل السائر ـ فلما حضر ببغداد (والكلام عن الحريري صاحب المقامات) وَوُقِف على مقاماته

قيل هذا يُستصلح لكتابة الانشاء في ديوان الخلافة ويحسنُ اثرهُ فيه فأُحضِر وكُلِّف كتابة كتاب فأُفحِم ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة ـ فاتضح من قولهِ هذا ان الحريري على جلالة قدره في صناعة الكتابة لم يُرَ صالحاً لديوان الانشآء اي ان يكون بين المنشئين، ثم قال بعد ذلك وكنتُ انشأت تقليداً الخ.. ثم قال بعده فاما التقليد الذي انشأهُ الصابي الخ.. والتقاليد كانت في الدول العربية اوسع بكثير من «الفرمانات» التي نعرفها في الدولة العثمانية، وكانت تتضمن اوامر الخليفة ونواهيه واحساناته وانعامه ولاسيما اذا كانت في تقليد احد وزرآء الدولة او اقارب الخليفة ولايةً من الولايات البعيدة العظيمة، فالتقليد حينئذٍ كان يشتمل على وصف الحرب وانواع الاحكام والخراج والجزية والعطآء والاعشار والصدقات والجوالي ووجوه الجنايات والحسبة الى شيءٍ كثير من مثل النفقة والمظالم والاسواق والمساحة ودور الضرب وغيرها ووصف هذا جميعه بحدوده وتعيين جائزه وممنوعه واصوله وفروعه وواجبه ومفروضه مما يقتضي علماً كثيراً وفهماً ونباهة وطلاقة ذهنٍ قل ان تجتمع لغير افراد من اكابر الكتاب العلمآء، ومثل هولآء كان يُطلق عليهم لقب منشيء او ارباب الانشآء.

فاذا علمت هذا هان لديك تقدير قول صاحبنا المتقدم الذكر

ـ الكاتب في عرفي هو انسان قبل ان يكون حامل قلم ـ ثم قوله اما المنشىء فهو قليل المعاني والافكار ...

وعلى الجملة ان من الاستخفاف بالعلم في جمع مثل هذه الكتب ونشرها، هو الاتكال على غير الخبير، والاسترسال الى ذوق صديق واحد في الاختيار، او الى شهرة بعض الكتاب والشعرآء في الجرائد السيارة التي هي معرض لاقلام عامة الناس وخاصتهم، وكل ذلك بلاء شديد على العلم والمتعلمين، واشدّ منهُ انخراط جماعة من فتيان المدارس وغيرهم في الكتابة دون مرشد او ناصح حتى صرنا نرى امثال ما يأتي، في وصف رجل، فاقرأ وتحمّلْ:

هذه القامة المسهبة المسرفة في النمآء يطل صاحبها من حالق على ما يلابس من اخوان وصحب وما الى الاخوان والصحب من اشتات المنصرفين معه الى ما ينصرف اليه الاحيآء من صوالح. وهذا الوجه المشرق الطويل النحيل الذي تزدحم عليه الوان من التنسيق حتى في صغر عينيه، واستقامة انفه. وحدة ذقنه. وانفراج جبهته. وهذا الرداء الشرقي الذي الفناه دثار المعممين من شيوخ الازهر وقادة الريف. وتلك العمامة التي تسكب على راس صاحبها مزقة منسقة من ناصع الثلج. وتلك النظرات المسددة الى كل شيء. وهذا الصمت الذي لا تصرفه الزوبعة ولا تثلمه الاعاصير هذا

كله لمن يكون ؟؟ (بحروفه) . . . .

ويتبع هذا الوصف مثله او اشد غرابة نحو سبعين سطراً ، وقد يظن القاريء الرزين ان المراد من هذا الكلام هو مزاح او استهزآء باحد الكتّاب المتقعرين او احد طلاب العلم المتفرنسين ، فالامر غير ذلك والرجل يكتب ويظن انهُ يجيد الكتابة العربية بهذه التراكيب الغريبة الاجنبية عن كل ذوق عربي من جاهلي ومخضرمي ومولد ومحدث ومعاصر، ولا اريد اضاعة الوقت بنقد هذه التشبيهات البعيدة الركيكة والاستعارات التي لم يحلم بها كاتب عربي ، اللهمّ الاّ المجددين ، فقد يوجد بينهم من يحسد الكاتب على استعارتهِ ـ الاسهاب والنمآء للقوام ـ وللنظر ـ الاطلال ـ ومن العلو او من علٍ ـ من حالق ـ وعلى ما حوله ـ على ما يلابس من اخوان وصحب وما الى الاخوان والصحب من اشتات المنصرفين معه الى ما ينصرف اليه الاحيآء من صوالح ـ ولعل الشاب الكاتب يظن نفسه قد جاء بما يُعجز الفصحآء لانه كتب هذه الايات من پاريس بل من السربون نفسها (المدرسة) والحقيقة انها ليست كتابة عربية ، بل كتابة تواطأ عليها هو وجماعة من اصحابه ، اذ عجزوا عن الاتيان بما يشبه الفصيح وتوهموا انهم بمثل هذه الطمطمانية يأتون بما يأتي به نبغآء الكتاب الفرنسويين فظنوا انهم باشاعتها

ونشرها على صفحات الجرائد السيارة يسيّرون مع شهرتهم وضعهم هذه اللغة الجديدة ، وكأنهم حسبوا انهم بمثل هـذه الطمطمانية يلبسون البدويات بدائع حلل الباريسيات

افدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفنَ بها
مضغَ الكلام ولا صبغَ الحواجيبِ
ولا برزنَ من الحمّام ماثلةً
اوراكهنّ صقيلاتِ العراقيبِ

او يخلعون على الخرائد الباريسيات مشملات البدويات بامثال هذه المتنافرات

غيدٌ غوانٍ ما ادّعينَ بعفة
كظباء رامةَ صيدُهنّ حلالُ
يُحسبنَ من ادبِ الحديثِ حرائراً
وتسوقهنّ الى الهوى الاميالُ

وفي الجملة ان امثال هولآء المتعلمين او طالبي العلم من اشد اعدآء اللغة العربية ، ومن العوامل القوية في هدم اركان الفصاحة ، بما ينشرونه من مثل هذه اللغة القميئة الخلَيطى هداهم الله وكفى هذه اللغة عدوانهم .

الباب السادس عشر

في تأثير الوصف وتأثير الحقيقة

لا تتأثر النفس من وصف الشيء او وصف صورته مهما بالغ وافصح الواصف، كتأثرها من النظر الى الصورة نفسها ولله درّ القائل

لَئِنْ اصبحتُ مرتحلاً بجسمي ... فقلبي عندكمْ ابداً مقيمُ
ولـكن للعيانِ لطيفُ معنى ... لهُ سألَ المعاينةَ الكليمُ

ومثل ذلك وصف النغم فلن يبلغ الواصف وان غالى بعض ما يبلغه النغم نفسهُ في النفس وان كان دون وصف الواصف، على ان بعض الموصوفات لا يتم سرور النفس بها الا باشتراك حاستين او اكثر، مثال ذلك صوت مغنية او مغنٍ فهو لا يطربنا اذا كان من ورآ حجاب او من آلة كالمسمعة (الفونوغراف)، كما لو كان معنا في المجلس على ان لا يكون قبيح الصورة وان كان غير حسنها، ومثل ذلك كلام الخطيب او الشاعر فانه لا يكون وقعهُ في الاذان ولا تأثيرهُ في النفوس منظوراً ومسموعاً كما لو كان مسموعاً فقط.

وقد يعجز اللفظ عن مسرّة النفس كسرورها بالعيان في

بعض الحالات ، وان اغرق الواصف في وصفه ما شاء، واليك مثالاً من ذلك في وصف جنة ملوكية للسيد قال :

والمجلس يروق كأن الشمس في افقه ، والبدر في مفرقه ، والنورُ عَبِق ، وعلى ما النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب يئن كناقة إثر الحوار ، او كثكلى من حرّ الأُوار ، والجوّ قد غبَّرت انوآؤه ، والروض قد رشته امطاره وانداؤه ، والأُسْدُ قد فغرت افواَهها ، ومجّت امواهها فقال

يا منظراً انْ نظرتُ بهجتَهُ — اذكرني حسنَ جنةِ الخُلْدِ
تربَةُ مِسكٍ وجوُّ عنبرةٍ — وغيمُ نَدٍّ وطشُّ ما وردِ
والماْ كاللازوردِ قد نَظمتْ — فيهِ اللآلئْ فواغرُ الأسدِ
كأنما جائلُ الحُبابِ بهِ — يلعبُ في جانبيهِ بالنردِ
تخالُهُ إنْ بدا بهِ قمراً — تمَّاً بدا في مطالعِ السعدِ
كأنما أُلبِسَتْ حدائقهُ — ما حاز من شيمةٍ ومن مجدِ
كأنما جادها فروّضها — بوابلٍ من يمينهِ رغدِ
لا زالَ في عزةٍ مضاعفةٍ — مُيمَّمَ الرِفدِ واريَ الزندِ

فلا ريب في ان هذا الوصف لتلك الجنة نثراً ونظماً قد بلغ اسمى درجات البلاغة والبراعة وأنّ طالب المزيد هو كمن لا يدري

ما يُريد ، ومع هذا كله فان سرور نفس السامع او القاريء بمشاهدة بركةٍ مبذولة المثال ، في بستان اهلي مألوف ، يتسلسل اليها الماء بشحٍ ، من ساقية وضيعةٍ عتيقة ، وان يرى نفسه مستلقياً بجانبها تحت ظل شجيرةِ حورٍ يألف اليها احياناً بعض العصافير ، مع رفقةٍ من معارفهِ ، لقد يفوق انبساط نفسه وانشراح صدره على سماعه ذلك الوصف البديع لتلك الجنة الملوكية ، والسبب في ذلك ليس لان حسّ العيان فوق حسّ التصور فقط ، بل لان سائر اللذات الحسية اثرها في النفس فوق اللذات المعنوية ، ولا يُفهم من قولنا هذا ان حديثاً تافهاً من احاديث السمر او امثالها ، يفوق لذة استماع شيءٍ من قلائد العقيان او مطالعة ترجمة من يتيمة الدهر او قرآءة مقامةٍ من مقامات الحريري وامثال هذه الكتب ، ولا استماع مغنٍّ من عامة المصوّتين يلذُّ اكثر مما تردّدهُ المسمعة من اغاني الشيخ سلامه واناشيد عبد الواحد واضرابهما ، وانما تُقابل الاشيآء بنظائرها فكل ما هو محسوس لا تشعر النفس في وصفه بما تشعره بحقيقته ، وكل ما هو معنويٌّ تشعر النفس بلذة وصفه كما لو كان محسوساً ، بل قد يصغر عندها بعد المشاهدة عن الوصف ، ومثال الاول فيما لو وصفت لجائعٍ الواناً كثيرة من لذائذ الاطعمة وبالغت في وصف طيبها وفكاهتها وانواع توابلها وخمرها ، للذّ له

لون واحد من ابسط الطعام يسدّ به جوعه ، فوق كل تلك الالوان الموصوفه ، وذلك لان حاجة الجسد الى الطعام في حالة الجوع لا يغني عنها وصف الواصفين ، وبعبارةٍ اخص ان الاحساس بالخلاء لا يسدّهُ غير الاحساس بالامتلاء .

ومثال الثاني اي سرور النفس بوصف المعنويات ، كما لو وصف لك احد البلغاء لطف شمائل ، او ذكاء طبعٍ ، او محاسن وجهٍ ، او فصاحة رجلٍ تقول عند سماع وصفهِ ياليتني عرفت الموصوف ، وكم اتمنى مشاهدة شخص هذه صفته ، ثم قُدّر لك ان تراه بعد حينٍ ، فقد تجده دون الوصف ، وذلك إما لان الواصف وصف ما رآه بعينيهِ لا بعينيك ، وكان وصفه على مقدار ما اوحت اليه الجاذبية التي في الموصوف اليه لا اليك ، وإما لان الوصف قد تجاوز حقيقة الموصوف ، او لانك صورت الموصوف في مِرآة ذهنك تصويراً يتجاوز حقيقته وظننتهُ مطابقاً لما سمعت من الوصف وهو الغالب في مثل ذلك ، ولله درّ ابي الطيب

وما زلتُ حتى قادني الشوقُ نحوَهُ
يسايرُني في كلّ رَكبٍ له ذِكرُ
واستكبرُ الاخبارَ قبلَ لقائهِ
فلما التقينا صغّر الخبرَ الخبرُ

فاذا منحت هذا الكلام حقهُ من التبصر علمت ان ابا الطيب قصد فيه الى اقصى غايات المدح اذ اراد ان يُفهم الممدوح انه لم يمدحه كما يمدح الشعراء كثيراً من الامراء والأكابر ، بل مدحه عن يقين في نفسه لما سمع من كثرة الاخبار عن فضائلهِ وزاد على ذلك في البرهان على صواب مدحه اذ قال انه كان يستكبر ما سمع عنه قبل مشاهدته ، فلما رآهُ صغّر العيان ، ما تردّد على الاذان ، يريد ان يقول انه نادر الوقوع في المعنويات ولاسيما في جمع المحاسن الكثيرة والفضائل الموفورة ، اذ المشهور المعلوم ان تكون الحقيقة دون الوصف في غالب الاحوال كما سبق القول للاسباب التي ذكرناها وسواها مما يشبهها .

وهذه المتلازمات والمتناقضات مما يجبُ ان يتنبه لها الناقد كيلا يفوتهُ تأثير وصف المحسوس عن تأثير وصف المعنوي فلكلٍ شأنٌ كما تقدم القول .

الباب السابع عشر

في تَجرُّد الناقد

من اهم سنن النقد تجرد الناقد ليبلغ الاصابة والافادة في نقده ، والمراد بتجرد الناقد هو ان ينزع عنه هوى النفس لكيلا يقضي

جوراً على خصيم ، ولا يغضي عن خطأ رعايةً لحرمة صديق او ذي مقام مشهور ، بل يجب ان يتوقى كل التوقي في تجرده من استرسال نفسه الى ما تحب ، كأن تميل الى الشدة والصرامة فيرمي المنقود في الرواية بالجبن او بالنذالة ، وقد خُصَّ بالحلم والشفقة ويتعقب المؤلف على ذلك ، او كأن يكون ممسك اليد او يحب الامساك ، فيرى في الجود اسرافاً او بالعكس ، فيرمي مؤلف الرواية بقصورٍ او خطأ هو منه برآء ، الى امثال ذلك من الاسترسال الى هوى النفس ، فليكن شديد الحذر من نفسه ولله در القائل

ووضع الندى في موضع السيفِ بالعُلى

مُضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ومن المستحسن للناقد المنصف ان يقطع في الحكم دون توقف او تلجلج ، وقد استدرك سانتْ بُوِف وهو اشهر ائمة النقد عند الفرنسويين على ديلمِان وهو من مشاهير النقاد — بعد ان وفاهُ حقه من الثنآء الوافر وهو بهِ جدير — لاغضآئهِ عن القطع في الحكم ، او التعقب على بعض من انتقدهم احسن انتقاد ، الا انه تملص من الحكم ، فقال سانت بُوِف ان ديلمِان كان متناهياً في الرقة واللطف ، فكان يعتريه الخجل من تصريح الحكم عند نقدهِ الاحيآء من الكتاب ولاسيما مَن كان من اصحابه فكان يتسلل من نقده بعد ان يتملص

من الحكم.

وكيفما كان فهذا مما لا يجوز للناقد ولا يُغتفَر لهُ ، والاولى به ِ ان ينصرف عن نقد اصحابه ومن يخجل من تعقبهم ، او الاشارة الى ما راى من خطائهم ، لانه في سعة من ذلك ، ولاسيما عند الفرنسويين ، فالكتّاب في الفنون الادبية كثيرون .

وزعم بعض اساتذة النقد ، ان الناقد لدى نقده الكتاب الادبي انما ينظر بعيني نفسه فينتقد معانيه ويحللها كما يفهمها وكما يشعر بها ، اي حسبما تؤثر فيه ، ومن المعلوم ان اختلاف الفهم واختلاف الشعور واختلاف الذوق في عموم الانسان شيء عظيم ، بل العلمآء انفسهم ليسوا بنجوة من ذلك ، فمنهم من تكفيهِ اللمحة البادرة ليتنبه الى النكتة اللطيفة والتلميح البعيد المستعذَب في عروض كلام الكاتب ، ويعدّ ذلك له من قلائد كتابه ويفهمه حسبما اراد به مؤلفه ، ومنهم من يحسبها جملة جرى بها قلم الكاتب عن غير تعمّدٍ ، اذ انه يرى فيها شيئاً يشبه وجهاً محجوباً بستر صفيق ، فلا يدري ما يقول فيه أحسنٌ هو ام قبيح ، بل قد يرى شبه شيء مغطى بجلباب غليظ فلا يستشفّ ما ورآءهُ ليكون له رأي فيه ، ومنهم من يمرّ بالكلام ولو سألته ماذا اراد به كاتبه لعجب من سوألك اذ انه لم يرَ فيه شيئاً استوقف خواطره ، وعلى

حسب ذلك الفهم وذلك الشعور ينتقد ويحلل ، وعلى الجملة فالانتقاد والتحليل يتوقفان على مقدار فهم الناقد وشعوره ، ولله درُّ شاعرنا

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتهُ من الفهم السقيمِ
ولـكن تأخذُ الاذانُ منهُ على قدر القريحة والعلومِ

وبعبارةٍ اوضح ان الناقد لا يحلل بانتقادهِ نفس الكاتب ، بل يحلل ويشرح الذي اثّرهُ في نفسهِ كلام الكاتب ، وحسبما وصل الى فهمهِ وادراكه كما ذكرنا آنفاً ، ولذلك لا يستطيع ان يدعي بالتجرد المرغوب في الناقد ، ولهذا السبب عينهِ لا يكون مُطالع النقد علِى بينةٍ من مراد المؤلف ، وانما هو يتحقق ما فعل الكلام في نفس الناقد فقط .

والاعتراضان الاخيران هما حجة المعترض في زعزعة التجرد ، بل في عدم امكان الوصول اليه في زعمه ، وانت تعلم ان درجات الكتابة متفاوتة ، والبراعة فيها غريبةٌ ، وكل نفيس غريب ، والموضوعات تتعدد وتتجدد وتأخذ الواناً بحسب اختلاف العصور والقرائح والبلاد واجناس الامم ، والناقد البصير يستشف نفس الكاتب من مكتوبه ، واذا كان انشآء اكابر الكتاب يدلّ على شيء من عواطفهم ، ويستطيع ان يشير الى ذلك بعض البصيرين من النقاد ، فيحللون خفيات نفوسهم من جملهم نفسها

حتى يراها المطالع كأنها ظاهرة على مِرآة مجاوِرة ، فليس الامر عاماً في سائر المؤلفين ، فان منهم من يقتسر قريحته على موضوع ونسق انشاء ليس له فيهما يدٌ ، فاذا وقف الناقد امام ما كتب ، يكاد يكذّب فراسة حكمهِ في كلامهِ عن المؤلف في انتقاده له كتاباً سابقاً ، فيقول فيه غير مقالهِ المتقدم ، وعند البحث والتدقيق يظهر كأن الكاتب الاول هو غير الثاني ، لما يبدو للناقد في الانشاء الاخير من القهقرة في التعبير ، والانحطاط في الوصف والتصوير ، فلا عجب اذا وضع الناقد كاتب الكتاب الاخير في غير ما احلّه عند نقده كتابه الاول كأنما هناك كاتبان متباينان ، والسبب في ذلك ان المؤلف اقتسر قريحته كما تقدم القول فاذا بها تعلن وتصيح

اراد شريكاً في المحبة بيننا وايمانُ قلبي لا يميلُ الى الشركِ

ففضحته او انه فضح نفسه بما كلفها

يُراد منها الذي لا تستقيمُ له ولا تُكَلَّف نفسٌ غيرَ ما وسَعَتْ

والحقيقة التي لا ريب فيها انّ غاية ما يُطلب من تجرد الناقد ان يستفرغ مجهوده في موضوع نقده ويُخلي باله من كل شاغل سواه ، فان تعرض لنقد اهوآء المؤلف وعواطفه فليبعد الشخص عن خاطره ما استطاع ليأمن الحيف او غفلة الاسترسال الى التقريظ ، وهذا كلّ ما يُراد من تجرد الناقد ، واما ان يُفهم من ذلك

« خروجه عن ذاتيته » كما يقول برونتيير (١) فهذا غلوٌّ وشططٌ لا سبيل اليهما ، او ان يسير في مجاهل الانتقاد وفلواته لا يتخذ له هادياً غير الشكوك كما ينسب ذلك اناتول فرانس (٢) الى برونتيير المتقدم الذكر ، فهو ما لا يستقيم معه امر الانتقاد ولا يصح عليه الاعتماد ، وفي الوجهين المذكورين قد ناقض العلامة برونتيير نفسه في غير مقام من كلامه . واما أن لا يستنير في دياميس ضمائر المنقودين بنور قانونٍ او قاعدةٍ غير انوار ذوقه وفِراسة نظره ، وان لا يسترشد في طريق تحليل معانيهم وتورياتهم وتفنيد ما يعرض لهم من الخطأ وايضاح المغلق والصواب من كلامهم سوى برشد فطنته ودلالة مداركه كما يزعم اناتول فرانس ، فهذا ما ننكرهُ اشد الانكار ، اذ لما كان الانتقاد فناً ، بل من ارفع الفنون عماداً واوسعها شُعُباً ، واصعبها مِراساً ، واوفرها احتياجاً الى دقة نظر ، وصفاء ذهنٍ وفرط تفهم ، كان لا بدّ له من قواعد كلية يرجع اليها وقوانين يقف عندها ، كغيرهِ من الفنون البديعة ، لا ان يُترَك سدىً واحكامهُ فوضى لكل مَن تحدّثهُ نفسه الانخراط في زمرة الناقدين فيركب رأسه ويأتيك بالعجب العجاب من ضروب الخلط والخبط ، ومنتهى علمهِ في فن الانتقاد تقريظ صاحب التأليف او

(١) Brunetière (٢) Anatole France

الطعن فيه ، اما لصداقة او لعداوة او لمنفعة مادية ، واغراض النقد كما علمت تعلو عن ذلك كله علوّاً عظيما ، ارأيت من تحدثه نفسهُ ان يتهجم على صناعة التصوير دون طلب هذا الفن ولا معرفة العمل بقواعده ؟ وقل مثل هذا عن النقش والهندسة والموسيقى وغيرها ، وما ذلك الا لان لهذه الفنون وسواها من العلوم والصناعات قواعد يجب الرجوع اليها وحدوداً يتعين على طالب العلم ان يقف عندها ، ولو تركت فوضى لما احجم عنها اهل المطامع ومحبو الشهرة والنفخ والتزيد ، بل لما قامت سوق للفنون البديعة ولضاعت هي وسائر العلوم البشرية

لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سَرَاة لهم
ولا سرَاة اذا جُهّالهم سادوا

على ان اناتول فرانس وكان فرد الامة الفرنسوية علماً وادباً وذكآءً واطول كتابها في اول هذا القرن باعاً في سمو الانشآء ولطف الانتقاد ، بل اكتب كتاب الامم الفرنجية في هذا القرن دون منازع ، يقتدر على صواب النقد وان انكر على القائلين بلزوم قوانينه لانهُ تعمقَ في سائر فنون الادب ووقف على كثير من العلوم العصرية ، وله قريحة سميعة حلّقتْ في سمآء كلِّ ما فكّر وحبَّر ، وحافظةٌ مطيعة تقول لهُ لُبَّيك عند كل ندآء ، واما ان

يطلب من سواه ان يحتذي مثاله ويخطو خطاه فهو في هذا عند قول المتنبي

ويطلب عند الناس ما عند نفسهِ   وذلك ما لا تدعيهِ الضراغم

فهو في الحقيقة من محاسن شذوذ البشر والشاذ لا يدفع القاعدة بل هو حجة للقائلين بها وفوق كل ذي علم عليم .

الباب الثامن عشر

في تحلّم المنقود عن الناقد

هذا باب لم يكتب فيه نقاد الفرنسويين حرفاً منذ اوائل القرن التاسع عشر ، وما ذاك الا لاعتبارهم واعتيادهم النقد المجرد المهذب ، وليس تحلّم المنقود عن الناقد عندهم الا دليل اختمار الفنون بينهم وتيقنهم فوائده الوافرة وعلمهم ان باب الرد مفتوح لهم كما أُشرِعَ باب النقد ، فان كان النقد صواباً ربح الكاتب المنقود كلامه ، فوائد لم يتفطن لها واصلحها في طباعة ثانية للكتاب ، او في سواهُ مما يؤلفهُ ، وكلهم يعلم انَّ ليس لعاقلٍ ان يظن العصمة وقفاً على جميع كلامه ولله در القائل

وَمن ذا الذي تُرضي سجاياهُ كلها   كفى المرءَ نُبلاً ان تُعَدَّ معايبُهْ

واما اذا رأى ان الناقد حاف عليه في الحكم او ذهب في تفسير

كلامه الى غير ما اراد ـ ويندر وقوع ذلك ـ اجابه بنفس التجرد الذي تحلى به الناقد، وتحلم عن نقده غاية الحلم.

وهذا التحلم او هذه السعة في الخلق، لم تبلغ بعد الى الناطقين بالعربية وسأبسط الاسباب ثم ادعم ما اقول بالبرهان.

اما السبب الاول فهو طفوليتنا في العلوم الحديثة، والمراد بطفوليتنا هو عدم اشتغالنا بالعلوم الحديثة(١)، اذ كل مَن طالع منا شيئاً من علم الجغرافيا او علم طبقات الارض او النبات او الحيوان او الهيئة او الطب او غير ذلك، فانما درس او طالع ما كتبهُ علمآء اوروبا اما بلغاتهم او معرَّباً عنها، وقل من اشتغل منا بعلم من هذه العلوم حباً بالعلم نفسه، او لافادة قومهِ، بل كان الاشتغال بها اما في المدارس او مطالعةً، حباً بالوقوف على العلم فكأنه حب بحث وتفتيش، وان كان قد وجد عندنا احد الّف شيئاً لم يصل الينا اسمه فهذا نادر والنادر لا حكم لهُ، ومن ذلك يتضح للمطالع، اننا في ذلك جميعه عيال على اوروبا واننا اطفال في هذه العلوم.

واما السبب الثاني فهو جهلنا الشيء الكثير من الصناعات

(١) قلنا حديثة لان كل ما عُرّب منها من اليونانية قديماً قد زيد فيه تصحيحات اوهام وتحقيقات لعلماء اوروبا فانقلبت تلك العلوم كثيراً عما وضعها المعرّب الاول ولهذا لا توجد مدرسة تُقرأ فيها اليوم كتبنا القديمة.

الجميلة كالتصوير والنحت والنقش وتوقيع الالحان والموسيقى المنسوبة الى فيثاغورس ، وكان اليونان الاولون يعدّون من يجهل الموسيقى فقيراً من الادب ، لانهم كانوا يرون رأي فلاسفتهم فيما للموسيقى من التأثير الباهر في تقويم الاخلاق وتغذية الاداب ، ولا عجب في ذلك فان افلاطون كان يعدّ العلوم الرياضية علوم الجسد ، ويعدّ الموسيقى علم النفس ، ومنذ افلاطون الى اليوم بلغت علوم الموسيقى حداً من السمو والاتقان لا يدركه الا من توغل في البحث عن علوم الموسيقى حتى صدق فيها الوصف بانها تأنيس الارواح والنفوس الناطقة الى عالم القدس لمصاحبة النفوس العالية ، ومجاورة العوالم العلوية ، ومذاكرة العقول الروحانية ، والتلذذ بمشاهدة الذخائر النورانية ، باعين الحواس الفكرية ، بل بغيبوبة الاحساس الحيواني عن العوالم السفلية ، واستمتاعها بملاذ نغمات الافلاك السموية ، ومعاينة بل مناجاة اسمى الاشباح الذهنية .

قال الفيلسوف الفرنسوي بَرتلمي انك تستطيع ان تقدر مدى ذوقنا الموسيقي من تعدد استعمالنا لفظ الموسيقى مجازاً ، اذ اننا ننعت كل ترنم بموسيقى ونقول بمثله موسيقى العروض وموسيقى الشعر وموسيقى الرقص وموسيقى الشمائل ـ للحركات اللطيفة ـ وهلم جراً لاكثر العلوم والفنون .

واما السبب الثالث فهو افتقارنا الى المجامع بل الى الاجتماعات الاخوانية ، ومجالس المتأدبين واندية ذوي الفضل التي يستفيد فيها المُجالِسُ ويفيد ، ويستأنس الاديب بالاديب بل الصاحب بالصاحب ويجدد الصديق عهده بالصديق ، ولاسيما الطرب باستماع مساجلة الادبآء والشعرآء ، والتأدب باخلاق اكابر المهذبين من الناس ولا سيما العلمآء ، واستراق رقةِ ادابهم ولطف شمائلهم وتحلّمهم ، شأن البلاد الاروبية بالعموم ، لا قواعد الممالك وكبار المدن فقط ، بل ان البلاد الصغيرة نفسها لا تخلو من المتاحف والاندية والاجتماعات التهذيبية بل ان دكاكين باعة الكتب عندهم هي معاهد لملاقاة الادبآء والعلمآء واجتماعهم وتواعدهم ، ولقد طفت المدن المصرية الكبيرة وفلسطين وسوريا ولم اصادف يوماً اديباً او عالماً جالساً اللهمّ الا ان يكون قصد الدكان لاشترآء كتاب ، وعلى الجملة فان اكبر مدينة عربية تسير ورآء الرقي الى المدنية ، لا تستطيع ان تجاري اصغر مدن اروبا ، لا بعدد الاندية ومجتمعات محبي الاداب والادبآء ، بل بنظامها ورقيها ودرجة معارف اهلها وحرمتهم للعلم والفنون ، وحرية ادابهم العامة ، فان دور التمثيل وهي عندهم لتهذيب الاخلاق وترقية الفنون البديعة والادب ، انقلبت في البلاد العربية التي عمدت الى محاكاتها دور رقصف وسخرية واغراض صبيانية.

فللاسباب المتقدمة وسواها مما يطول شرحه وفيما تقدم منها كفاية، لم تزل اللغة العربية في دور طفوليتها او بداوتها بعيدة عن دور الاختمار وزيادة في البيان نقول :

كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل فهنّأتها بذلك وصنعت الاطعمة واجتمع النسآء يلعبنَ بالمزاهر كما يصنعنَ في الاعراس، وتباشر الرجال والولدان لانهُ حمايةٌ لاعراضهم، وذَبٌّ عن احسابهم، وتخليد لمآثرهم الخ.(١)

وكان اولئك الاعراب اذا تعرض شاعر لشاعرهم فهجاه او انتقدهُ، تركوهما وشأنيهما يتعاتبان او يتهاجيان اقبح الهجآء، هذا كان لعهد الحطيئة ونُصيب اي منذ الف وثلثمائة سنة فما فوقها، اما اليوم ونحن في آخر الثلث الاول من القرن العشرين نرى اصحابنا يفعلون مثل ذلك في اكثر البلاد تقليداً او تبليداً، وهذا يدلّ دلالة واضحة على انهم اقرب الى البداوة منهم الى المدنية، ولم يعد يقنعهم ان يكون شاعر مدينتهم او احد شعرآئها نابغةً فقط، بل رأوا ان يؤمروه ـ على البارد ـ لا على بلد او عسكر، ولا بامر الحاكم او باجماع الشعرآء، بل باستحسان احد الشعرآء المعدمين، وقيل انه قصده في كرمته، وختمها بالتماس احسان فنفحه بثلاثة جنيهات

(١) منهل الوراد الجزء الثاني في الفصل الثالث عشر .

جاوزت اقصى اماله فانقض يقبل يديه ، وفاضت من فرحته دموع عينيه ، وأتاه عقب ذلك بقصيدة عنونها « بامير الشعرآء » ، وقيل بل لقبه بذلك في احدى الجرائد الضائعة ، وقيل بل كانت ممازحة بينه وبين اصحابه على الشراب لبيت شنيع نظمه ، ثم تكرر قولهم له ذلك على سبيل التهكم والمزاح ، يا امير الشعرآء ، حتى بات يُسَرّ بهذا النعت ، فتسابق عشاق بنت كرمته ـ واكثرهم من الوضيعين المداهنين ـ الى مناداته بهذا النعت ـ وقيل أنّ بعضهم من سكان مصيف كان يتردد اليه عندما تموّل ـ حتى غلب عليه ، والعصر عصر انتفاخ ومداهنة ، فلم يعد يروق له ان يُلقَّب بغير ذلك ، وداخلَ الرجل غرور كثير وعجب بنفسه حتى لم يعد في طاقة احدٍ من عشرائه المملقين ان يذكر امامه اسم شاعر ، من المتنبي فنازلاً او فصاعداً ، وكبر عليه ان يُنتَقَدَ بل كبر على كثير من ناشئة بلده ذلك اما لعصبية صبيانية ، او باشارة منه لاصحابهِ خفية واتخذهم جُنّةً له يتقي بهم كلّ نقد اذ صاروا يعدّون من ينتقد شيئاً من منظومه كمن هجا كل اهل بلده بل كل اهل المملكة . وامامنا ونحن نكتب هذا عدد من جريدة السياسة بتأريخ ٢٢ (ديسمبر) ك ١ سنة ٩٣١ يقول فيها احد الافاضل عند انتقاده رواية قمبيز في حياة مؤلفها « وجاءني لفيف من اخواني يشكون اليّ ان ارباب الصحف

لا يأذنون بان يُنشر عنها شيء الا ان يكون مدحاً » .

ولم يقتصر ذلك على المصريين ، بل شاركهم في هذه العصبية كثير من السوريين بمزاعم شالت في موازين الصواب ، اذ لم يكن الدافع اليها حب الانتصار للعلم ، بل لعل حب الشهرة والانتفاخ هو قائدُ تلك العصابة .

ومثل هذا ما نشر في بعض الصحف السورية من غضبة غضبها جماعةٌ من الادبآء لانتقادٍ نُشر عن ركاكة انشآء جبران خليل جبران او اغلاطه او لهجته البالية لهجة انبيآء اليهود ، او كل ذلك ، وحجتهم في غضبهم ان جبران ابن قريتهم او بلدهم وانه مات غريباً كئيباً ، هذه هي الحجج اوما يقرب منها ، ويقول بعض الناس ان اولئك المواطنين الاعزآء يرون ان انتقاد اللغة العربية او قواعدها اولى من التطاول الى انتقاد جبران .

والمطالع المنصف يرى مما تقدم بسطه ، ومثله كثير في هذين القطرين العربيين ، وهما ارقى الاقطار العربية علماً ومدنيةً ، ان سعة الخلق والتحلم عن الناقد لم ينتشر لهما عَلَمٌ في الامصار العربية ، ولم يُتَحْ فيها لهاتين الخَلَّتين حظٌ الى اليوم ، وان اصحابنا لم يسمحوا لانفسهم بالابتعاد عن هذه العصبية التي لم تبتعد عن البداوة وليس فيها شيءٌ من خُمرة العلم والحضارة .

على ان اصحابنا بل اخواننا المعاصرين ، لو تجرّدوا من هذه العصبية ونظروا بعين الحلم والانصاف الى انفسهم ، لوجدوا ان هذه الخطة بعيدة عن الحكمة وليس فيها شيء من حب الحرية التي جعلوها لهم شعاراً ، اذ ان نقد الناقد ينقسم الى قسمين لا ثالث لهما فاما ان يكون نقدهُ صواباً ، او ان يكون اخطأ في انتقاده ، فان كان الاول فقد افاد الكاتب المنقود كلامه ومطالعي ذلك الكتاب اذ ليس بين العقلاء من يستغني عن فوائد العلم او يعتقد ان الصواب جميعه وقف على كلامه كما تقدم قبيل هذا ، وان كان الثاني فهو في بحبوحةٍ من امره ، ان شآء اجاب ، وان سكت لم يكن مغلوباً على مرامه ، فتعرّض المعترضين في الحالين مضرّ بالمنقود الذي ناصروه وعثرة في سبيل الانتقاد النزيه .

واين هذا كله من التحلم الذي نراه لافاضل الغرب منذ عهد بعيد ، فقد يثني الناقد على صاحب الكتاب في ابواب كثيرة ، ويخطئهُ في مثلها وقل ان يعترض المنقود ، ولكنهُ في جميع الاحوال يحسب ثنآء الناقد عليه يستوجب مزيد حمده ، وما ذلك الا لانهم يخدمون العلم حباً بالعلم لا للشهرة والانتفاخ ولا للتكسب ، ومَثَلهم في ذلك مَثل خطيب (او محاضر) يتأنق في انشأ خطبته ساعات ، فاذا القاها في محفل وقوطع (كالعادة) في خلال القائها

بتصفيق استحسان كثير منَ الجمهور ، خرج من المحفل وهو يقول في نفسه عسى ان لا اكون اضعت وقتي وتعبي ، فاذا استوقفه واحد او اثنان من اهل العلم واقبلا عليهِ يهنآنهِ بخطابهِ هذا ويثنيانِ عليه ، سرَّهُ هذا اضعاف اضعاف ما سمع من تصفيق واستحسان ذلك الجمهور الغفير ، والسبب في ذلك ان المادح او المادَحين من اهل العلم قد قدرا اعتناءهُ وتعبه وعرفا مواضع احسانه ، ومواقع براعته وبيانه ، ولا يدرك الفضل الا ذووه ، فكان سروره لا لمدحهما بل لنتيجة مدحهما وهي انهُ احسن بخطابه ونال رضى اهل العلم .

ومما تقدم تتحقق ان الفنون عندنا بعيدة عن الاختمار ، وان اداب النفوس لم يزل اكثرها مَعدّياً من عصبيةٍ جديرة بالهجر والاستنكار .



الموازنة

بين الألعوبة الالهية ورسالة الغفران
وبين ابي العلاء المعرّي ودانتي شاعر الطليان

تمهيد

كنا منذ ثلاثين سنة خلت اول من نبّه ـ فيما نظن ـ على اقتباس دانتي الشاعر المشهور العوبته الالهية، عن رسالة الغفران لابي العلاء المعري، وذلك عندما وقعت الينا هذه الرسالة اي قبل ان تطبع الطبعة الاولى، ثم منذ ذلك الحين لم يزل يحيك في صدرنا ان نوازن بين الرسالة والالعوبة ونمنحهما حقهما من النقد تدقيقاً وتحقيقاً لما لمؤلف الرسالة عند عارفي اللغة العربية من الشهرة البعيدة، ولمؤلف الالعوبة عند الامم الفرنجية من المقام السامي بين شعرآئهم المتقدمين والمتأخرين. وكان يعترضنا من الشؤون ما يحول دون هذه الامنية، لما يستدعي التفرغ لذلك من البحث الدقيق والمطالعات والمراجعات مما يدركه المطلعون على ما بين العربية واللغات اللاتينية من الفروق، عدا بُعد زمن المنقودين عنا وظهورهما في عصرين متناسبين في قهقرة دولتيهما وما يتبع

ذلك من الانحطاط في عموم احوال الامة في مثل تلك الخطوب ، وغموض كثير من شؤون المؤلفين المذكورين .

غير اننا لم نزل نتحيّن الفرص حتى وفّق الله الوصول الى هذه البغية منذ احدى عشرة سنة فرأينا ان نضم الان هذه الموازنة الى هذا الجزء من منهل الوراد لتكون امثولةً في يد المطالع لبعض ما ذكرناه في ابواب النقد الادبي .

* * *

اجمع المؤرخون على ان مولد ابي العلاء المعري كان في السنة الثالثة والستين بعد الثلثمائة للهجرة وكانت وفاته في التاسعة والاربعين بعد الاربعمائة اي نحو سنة ١٠٥٧ مسيحية ، ومنزلته من علوم اللغة والصناعة الشعرية فوق ان تحتاج الى بيان ، ومكانهُ بين امرآء الكلام فوق ان يُعزّز ببرهان ، وكان له وقوف على سائر علوم عصره ولاسيما العلوم الفلسفية والدينية ، اما ذكاؤهُ وحفظهُ فمما يُعَدّ من الخوارق ، ولولا ما لدينا من كتبهِ وشعره مع ثبوت فقده البصر منذ الرابعة من عمره ، لكان ما نُقل الينا من ذلك الى التكذيب اقرب منه الى التصديق ، بيد ان من كان يحفظ ذلك المقدار الجزيل من غريب اللغة وشتيتها ومن الشعر والعلوم ويتكلم بما تكلم بهِ نثراً ونظماً ، ويخوض في موضوعات سائر شؤون عصره وعلومه ، لحقيق بان يُصدّق ما نُقل الينا عنه . فمن

ذلك انه كان قاعداً يوماً في دكان يهوديٍ ببغداد واتفق ان جاءهُ خصم له وتكلما بالعبرانية ، ثم مرت على ذلك ايام تحاكما بعدها الى القاضي فقال للمدعي هل عندك شاهدان على ما تقتالهُ ، فقال عندي رجل يهودي وثانٍ مسلم اعمى ، فاحضرهما القاضي ولما سأل ابي العلاء شهادته ، قال اني اعرف احدهما بصوته ولعلي اعرف الثاني ايضاً بصوته وهما قد تكلما في حضوري بالعبرانية ولم افهم منهما شيئاً ولكني احفظ ما قالاه او ما قاله احدهما واعاد العبارة بالعبرية وهو لا يفهم ما يقول وكان في شهادته ربح الدعوى انقلها باختصار.

ومما اشتهر عنه انه اذ كان في بغداد سنة ٣٩٩ انشده احد الشعرآء قصيدة ـ ولعلَّهُ ابو الخطّاب الجيلي ـ قال ابن الاثير في الكامل في حوادث سنة تسع وثلاثين واربعمائة ، وفيها مات ابو الخطاب الجيلي الشاعر ومضى الى الشام ولقي المعري وعاد ضريراً ومن شعره

ما حكمَ الحبُّ فهوَ مُمتَثَلُ　　وما جناهُ الحبيبُ مُحتَملُ
تهوى وتشكو الضنى وكلُّ هوىً　　لا ينحلُ الجسمَ فهو مُنتَحَلُ

فلما اتى على آخر القصيدة قال له «انت اشعر مَن بالعراق» ثم عاد ابو العلاء الى الشام ولزم بيتهُ في معرة النعمان وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ جاءهُ شاعرٌ فانشدهُ قصيدة ولم يذكر اسمه له ، فلما اتى على آخرها قال ابو العلاء «ومَن بالشام» فعجب الشاعر من

فطنته وحذقه وسُئل ما معنى ما قال لك فذكر للسامعين حكايته معه في بغداد وقوله له انت اشعر مَن بالعراق وانه عرفه الان بنفسه بعد مرور كل هذه السنين فعطف على عبارته تلك بقوله ِ ومَن بالشام.

وامثال هذه الروايات عن ابي العلاء كثيرة ولم ارد بذكر ما اوردته منها اثبات المنقول او نفيه فلذلك مقام آخر ، وانما اوردت ذلك تمهيداً لما سيأتي في هذه الموازنة .

وانت تعلم انه قلما نبغ شاعر في فنون المنظوم ، او جآء عالم برأيٍ جديد في علم من العلوم ، الا وقام له من الخصوم والحساد ، او المساجلين والنقّاد ، قوم تدفعهم غرائزهم للتعريض به والطعن عليه وقد يكون بينهم افراد لا غرض لهم الا تمحيص الحقائق ، وقليل ما هم ، هذا شأن البشر في كل عصر ، ولاسيما في تلك القرون السحيقة ، يوم كانت الاديان في الشرق والغرب ، تجارة يتزلف بها العلمآء وكثير من ذوي الريآء ، الى مستبدي الحكام والامرآء ، بعضهم للتمسك بالرَمق ، وبعضهم للتكسب كيفما اتفق ، وآلة قاطعة في ايدي الملوك والحكام توصلاً لمطامعهم السياسية واهوآئهم النفسانية ، ولهذا لم يكن بدٌّ للفلاسفة والعلمآء من إلباس ما يكتبون في ايّ علم غير علوم الدين ، ثوباً من التدين والورع ليأمنوا غائلة عدوٍّ يقدح او حسود يشي بهم وينمّ .

فاذا علم هذا فلننظر اولاً نظرة ناقد في رسالة الغفران هذه ، ففي بدء ما يُنعى عليها طولها وهي رسالة من صديق الى صديقه ، ويُعتذَر عن ذلك بان رسائلهم لذلك العهد كانت طويلة لعسر وسائل النقل وبعد المسافات ، معما كانت عليه حالة الطرق في تلك العصور من فقد الامن ، ولم تكن البُرُد الا لحاجات الحكومات ، فاذا ما هَمَّ القريب او الصديق بالكتابة لم يكن له بد من البحث عن مسافر امين يودع بين يديه رسالته ، وهذا لم يكن ميسوراً ، ولذلك كانت رسائلهم طويلة ، الا ان المسافة بين حلب ومعرة النعمان ليست الا ساعات على القافلة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على الرسائل التي تقتضي خوض البحار وقطع المسافات الشاسعة في الصحاري والقفار ، ثم ان هذه وان كانت جواباً عن رسالة وردت ابا العلاء من صديقه ابن القارح ، فلم تكن رسالة اخوانية اذ طولها وما فيها من الاغراض التي لا احسب المعري الا قصد لها وتوخاها ، يخرجها عن الاخوانيات وينزلها منزلة مُعجَم لعويص كلام العرب وغريب اشعارهم في ظاهرها ، وانما هي في الحقيقة مفاكهة بين صديقين ، في الاعتقاد متبادلين ، ولا احسب الشيخ ابن القارح الا على مذهب الفلاسفة الزنادقة وسيأتيك الدليل فيما يجيء . اما ابو العلاء فقد كان فيلسوفاً قولاً وفعلاً ، لانه لم يكن بين فلاسفة

العرب كلهم مَن طابق بين قوله وفعله سواه ، فهذا الرئيس ابن سينا على فضله ورسوخ قدمه في العلوم الفلسفية ، كان نهماً شديد الشَبَق ، وكان هو وابوهُ يتقلدان الاعمال للسلطان في الدولة السامانية ، وقيل انه مات في السجن وقال فيه كمال الدين بن يونس

رأيتُ ابن سينا يعادي الرجالَ   وفي الحبس ماتَ اخسَّ المماتِ
فلم يشفَ ما نالهُ بالشفا   ولم ينجُ من موتهِ بالنجاةِ(١)

اما ابن الصائغ وابو بكر بن الطفيل وابو الوليد بن رشد ، فكلهم ممن اشتغل مع العلم بالسياسة ، ولم تصرفه الفلسفة عن الرئاسة ، بل ان اكابر فلاسفة اليونان قبلهم لم يحصلوا على منزلة المعري العالية ، فان ديوجينوس المشهور بالكلبي قد اشتغل في صباه مع ابيه الصراف بالتزوير والتزييف ، ونفي من وطنه بعد التحقير والتعنيف ، ورسطاليس نُسب اليه عقوق استاذه افلاطون ، واشياءُ ان صدق راووها الصقت بهِ العار على مرِ القرون ، بل ان افلاطون نفسه اشتغل بالسياسة وحام حولها ، ونُسبت اليهِ افعال لم يُجزم بصحتها ولم يُقطع بتكذيبها .

واين من هولآء كلهم ابو العلاء فقد اجمع حساده وخصومه على زهدهِ ونسكه ، وعظ بالعفاف ونهى عن الدنس ومات وقد

(١) الشفاء والنجاة من اشهر كتب ابن سينا .

جاوز الثمانين عفيفاً لم يدنس لهُ عرض ، وحرّض على الفضائل ولزمها ، وذمّ الدنيا واعرض عنها ، حرّم ذبح الحيوان قبل الاربعين من عمره فمكث خمساً واربعين سنة لم يذق لحماً ، سمى نفسه رهين المحبسين لفقد بصره ولزومه منزله فمكث اثنتين وخمسين سنة بعد عودته من بغداد في بيته ، وهو لم يكن يعتقد بدين من الاديان ، لا كما تمحل له اصحابه والمتشيعون لفضله ، زعماً منهم ان القول بذلك مما يحط من قدره ، وقد علموا ان اكثر فلاسفة اليونان والرومان وغيرهم من الامم الخالية ، لم يكونوا على دين ، وان منهم من كان على الوثنية والمجوسية ، ومثلهم من الشعرآء النوابغ لم يقدح ذلك في علمهم عند امةٍ من الامم ، بيد ان عصور المتشيعين للمعري لم يكن يباح فيها لعالم ان يعالن بمدح زنديق وان بلغ من العلم والفضيلة ما بلغه المعري ، ولم يكن اولئك المتشيعون بالعدد القليل منذ كان حياً ، فقد بلغ مرتبةً من تجلّة الناس ووقارهم لم يروِها تأريخ من تواريخ الارض كلها عن عالم او فيلسوف او ملك ، فقد روى الحافظ السلفي قال جلس على قبر ابي العلاء المعري عند دفنهِ نحو من مائة وثمانين شاعراً ورثاهُ اربعة وثمانون شاعراً ، منهم فقهآء ومنهم محدّثون ومنهم صوفية وترجمهم باسمآئهم .

فلا بدع بعد ذلك اذا ما رأى اولئك الفضلاء وامثالهم ان

يتمحلوا له صدق الاعتقاد درعاً يتقون بها الوشايات ، ووسيلة يتوسلون بها لنشر مؤلفاته وتناقلها ، ولست القي القول على عواهنه فحسبك من قوله في لزومياته امثال ما يأتي

اذا رجعَ اللبيبُ الى حجاهُ تهاونَ بالمذاهبِ وازدَراها
فخُذْ منها بما ادّاهُ لبٌّ ولا يغمسكَ جهلٌ في صراها
وهَتْ اديانُهم من كلِّ وجهٍ فهل عقلٌ يُشَدُّ بهِ عُراها

وقوله

وجائتنا شرائعُ كُلِّ قومٍ على اثارِ شيءٍ رتَّبوهُ
وغيرَّ بعضُهم اقوالَ بعضٍ وابطلتِ النُهى ما اوجبوهُ

وقوله

هفتِ النصارى والحنيفةُ ما اهتدتْ
ويهودُ حارتْ والمجوس مُضلَّلَهْ
اثنانِ اهلُ الارضِ ذو عقلٍ بلا
دينٍ وآخرُ دَيّنٌ لا عقلَ لَهْ

وكثير مثله في كتبه مما لا يحتمل التأويل .

ولستُ اراهُ اراد برسالة الغفران الا الانتقاد على ما ذكره فيها ، وقد قلت قبيل هذا اني احسب ابن القارح على مذهبه ، لا

لان رسالة الغفران قد كُتبت اليه فقط ، بل لانها جواب على رسالته التي لا اخالها تضرب الا على هذا الوتر - وان لم يكن ذلك صراحةً - لقول المعري في اوائل رسالته : وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور ، ومَن قرأها لا شك مأجور ، اذ كانت تأمر بتقيل الشرع ، وتَعيب مَن ترك اصلاً الى فرع :

ألم يجد ابن القارح من طلاب العلم وغيرهم من محبي العلوم الشرعية في حلب يومئذٍ ، من كان جديراً بتعلم الشرع وحدوده ، سوى ابي العلاء المعري ؟ وهو بحر العلوم الزاخر ، ولاسيما وانْ المفهوم من جواب ابي العلاء انها تتضمن اغراضاً اخرى وان عنونها بغير ذلك كما ذكر في اول رسالة الغفران .

وعلى الجملة فلا شك انهُ لم يقصد برسالته تلك الا مذاكرة المعري في معنى كلاهما عليهِ متفقان واليهِ قاصدان ، وحسبك من ذلك ان رسالة ابن القارح هي في تقيّل الشرع ، فبدلاً من ان يجيبه المعري عليها بما يتعلق بذلك ، او بالاعتراض على شيءٍ منها او يشرح ما يعن له في ذلك كله ، نراهُ يدعو لهُ بالجنة ويحدّثه عما فيها وفي الجحيم من الغرائب ويقول له - ومثلها شفع ونفع ، وقرّب عند الله ورفع ، والفيتُها مُفتتَحةً بتمجيد ، صدر من بليغ مجيد ، وفي قدرة ربنا جلّت عظمته ان يجعل كل حرف منها شبح نور . . . -

الى آخر ما ذكر عن هذه الرسالة مما لا اراهُ فيها الا هازلاً منتقداً، لاجاداً معتقداً، وحسبك قوله «وانما اذكرها لانهُ قد يجوز ان يقرأ هذا الهذيان ناشىءٌ لم يبلغه ذلك».

واما ظاهر ما فيها من الفاظ التقوى فليس بحجة على نفي ما اقول واليك عبارته عن المتنبي : واذا رُجع الى الحقائق فنطقُ اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان لان العالم مجبول على الكذب والنفاق ويُحتمَل ان يظهر الرجل تديّناً، وانما يجعل ذلك تزيّناً . . الى آخر ما ذكر هناك.

ولم يكن ابو العلاء ممن يحسب لفظ الزنديق شتماً او تحقيراً وانما هو وصف يراد بهِ ان الموصوف بهذا اللفظ لا يدين بمذهب من المذاهب، وهو المعبّر عنه في كتب اللغة، وقد وصف بهِ كثيرين ممن ذكرهم في رسالة الغفران لا تحقيراً بل بياناً وتمييزاً.

واما اختيارهُ تسمية هذه الرسالة «برسالة الغفران» فلا أدري اهو اسماها ام ابن القارح ام سواهما، على ان الارجح ان يكون هو المسمّي، ولعلهُ استحب لها اسم الغفران لطلاوة وقعهِ في الاذان وقد يُراد به التفاؤل لصاحبهِ بالغفران اسوةً بمن ذكرهم من الزنادقة والملاحدة والكفار، الذين سيراهم في الجنة راتعين وقد نجوا من عذاب النار، وغفر الله لهم لكلمة خيرٍ قالوها

او بيت فيه وصية صالحة ، يريد ان كتاب ابن القارح « في تقيل الشرع » سيكون سبب الغفران له ودخوله الجنة كامثاله من الزنادقة ، وهو برهان لما ذكرناه من ان ابن القارح ايضاً كان من الزنادقة وان كتابه لا ينبىء عن اعتقاده ، وان ابا العلاء رام ممازحته في مضمون الكلام والثنآء عليه في ظاهره ، ولعل تصدي ابن القارح لتأليف تلك الرسالة في تقيل الشرع اي لزوم حدوده ، معما كان عليه من الزندقة التي كان يبوح بها لأبي العلاء في خلواتهما ، هو الذي وحى الى المعري موضوع رسالة الغفران وابتكاره ، فكان آية في الهزل صورته الجد ، وثوب تقريظ سداه الفضل ولحمته الحمد .

وقد آن لي ان اذكر جملاً منها توضح لك غرضه في الانتقاد ، طيّ ثوب الاعتقاد ، وهزلاً يُضحك الثاكل والمتفجع ، ويشغل عن الراضع المرضع ، وتهويلاً ترتعش له المفاصل ، وترتعد منه الخصائل ، في بيان يعجز المصور عن تصويره بعد دقيق اللحظ ، بابدع وصف وابرع لفظ ، وقائله لم يرَ نوراً ولا تصويراً ، منذ كان طفلاً صغيراً .

١

الطواف في الجنة

قال بعد وصفه خمور الجنة : فاما الانهار الخمرية ، فتلعب فيها سِماكٌ هي على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن منه في العيون النبعية ، ويظفر بضروب النبت المرعية ، الا انه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، المقابلة بالنور الباهر ، فاذا مدّ المؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لو وقعت منه الجرعة في البحر الذي لا يستطيع ماءهُ الشارب ، لجلت منه اسافل وغوارب ... وكأني بهِ ادام الله الجمال ببقآئه اذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من ادبآء الفردوس كأخي ثُمالة واخي دوس ، ويونس بن حبيب الضبي ... وهو أيد الله العلم بحياته معهم كما قال البكري

نازعتهم قضب الريحان مرتفقاً   وقهوة مزَّةً راووقُها خَضِلُ

وابو عبيدة يذكرهم بوقائع العرب ... وتهشّ نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية في انهار الرحيق ...

ثم يرينا الشيخ علي بن منصور وهو ابن القارح نفسه يتنقل في امصار الجنة فيسألُ حُميد بن ثور وهو الذي يقول

ارى بصري قد رابني بعدَ صحةٍ   وحسبك دآءً أنْ تصحَّ وتسلما

كيف بصرُك اليوم فيقول اني لأكون في مغارب الجنة فالمح الصديق من اصدقائي وهو بمشارقها وبيني وبينهُ مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة .... ثم يخطر له حديث شيء يسمى النزهة في الدار الفانية فيركب نجيباً من نجبآء الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سجسج بعُدَ عن الحرّ والقر ... ثم يصنع مأدبة في الجنان يجمع فيها ما امكن من الشعرآء ، ويعدد فيها من ضروب الماعون العسجدية ، والخون الذهبية ، والفواثير(١) من اللجين والصحاف العجيبة والاقداح والكؤوس ذوات التصاوير والاباريق والزجاجات ، والبواطي والطاسات ، من اشكال الجواهر وانواع الاطعمة ، واجناس الطير والحيوان ، وكل ُطهاة حلب منذ عمرت الى ما بعد البعث ، وجميع المغنّين والمغنيات تخدم بين ايديهم جوارٍ من الحور العين وغلمانٌ كانهم اللؤلؤ المكنون ، وينشيء الله بحكمته شجرة جوز تنفض عدداً لا يحصيه الا الله ، تنشق كل جوزة عن اربع جوارٍ يرقصنَ على ابيات الخليل فتهتز ارجآء الجنة .. ثم يرى بين من يخاطبهم من الشعرآء ُعبيداً فيقول السلام عليك يا اخا بني اسد فيقول وعليك السلام ... ثم يساجل الشعرآء ويحضر مهاترتهم وتشاتمهم ويفترق اهل

(١) الفاثور خوانٌ من رخامٍ او فضةٍ وقد يسمون الجفان او البواطي او الجامات او المائدة او البسط كل ذلك باسم الفاثور .

ذلك المجلس بعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة .

ومن هزله فيها : وبينما هو ـ اي الشيخ علي القارح ـ يطوف في رياض الجنة لقيهُ خمسةُ نفرٍ فيقول ما رأيت احسن من عيونكم من اهل الجنان فمن انتم خلد عليكم النعيم ؟ فيقولون نحن عوران قيس . . .

ومن هذا الباب طلب رضوان جوازاً منه ليدخله الجنة ونظمهُ قصيدة الى آخر هذه الحكاية البديعة . . .

وابدع من ذلك واغرب قصصه على لسان ابن القارح كيف حُشر وحوسب الى ان يقول : فلما خلصتُ من تلك الطموش(١) قيل هذا السراط فاعبر عليه ، فوجدته خالياً لا عريب(٢) عنده فبلوتُ(٣) نفسي في العبور فوجدتني لا استمسك فقالت الزهرآء ـ صلى الله عليها ـ لجاريةٍ من جواريها يا فلانةُ اجيزيه ، فجعلت تمارسني(٤) وانا اتساقط عن يمين وشمال فقلتُ يا هذهِ ان اردتِ سلامتي فاستعملي معي قول القائل

سِتِّ ان اعياكِ امري فاحمليني زَقَفُونَهْ

قالت وما زَقَفونَهْ ؟ قلتُ ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ويحملهُ وبطنهُ الى ظهره أما سمعتِ الجلجول من

(١) البلايا والمصاعب . (٢) اي لا احد . (٣) جرّبت . (٤) تلاعبني .

كفر طاب(١) ؟

صلحت حالتي الى الخلف حتى   صرتُ امشي الى الورى زَقَفونَهْ

قالت ما سمعت بزقفونه ولا كفر طاب الا الساعة فتحملني وتجوز كالبرق ، الى آخر ما ذكر هناك ... ومن هذا الباب ايضاً عربدة بني جعدة والاعشى ومنها : ويَثِبُ نابغة بني جعدة على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب فيقول اصلح الله به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاهج(٢) وانك يا ابا ليلى لَمُتَترع(٣) .

ومن بديع مفاكهاته : فيأخذ ـ الشيخ ابن القارح ـ سفرجلةً او رمانة او تفاحة او ما شآء من الثمار فيكسرها فتخرجِ منها جاريةٌ حورآء عينآء تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول مَن انتَ يا عبد الله ؟ فيقول انا فلان ابن فلان من اهل حلب ، فتقول انيّ أُمنَّى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا باربعة الاف سنة ... ويخطر في نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية على حسنها ضاوية(٤) فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورآئها ردف يضاهي كثبان عالج وانقآء الدهنآء ورملة يبرين وبني سعد(٥) فيهالُ من قدرة الله اللطيف

(١) قرية من قرى حلب والجلجول شاعر مشهور منها . (٢) الحمقى اهل الشر . (٣) اي متسرّع الى الشر . (٤) نحيفة . (٥) اسماء تلال من الرمل كالجبال الصغيرة مشهورة عند العرب .

الخبير ، فيقول يا رازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائله مُناها ، والذي فعل ما اعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجهال ، اسألك ان تقصر بوص(١) هذه الحورية على ميل في ميل ، فقد جاز بها قدرُك حدَّ التأميل .

٢

جنَّةُ العفاريت

ثم يطوف ابن القارح في جنة العفاريت ، او يطوف به عليها ابو العلاء واليك ما يقول : فيركب ـ اي الشيخ ابن القارح ـ بعض دواب الجنة ويسير فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشعاني وهي ذات ادحال(٢) وغماليل(٣)... فيقول ما اسمك ايها الشيخ فيقول انا الخيتعور احد بني الشيصبان ولست من ولد ابليس ولكنا من الجن الذين يسكنون الارض قبل ولد آدم (صلعم) فيقول اخبرني عن اشعار الجن فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة ، فيقول ذلك الشيخ انما ذلك هذيان لا يعتمد عليه ، وهل يعرف البشَرُ من النظيم الا كما تعرف البقر من علم مساحة الارض... وان لنا لألآف اوزان ما سمع بها الانس.

فيعجب ، لازال في الغبطة والسرور ، لما سمعهُ من ذلك الجني . .

(١) ردف . (٢) حفرٌ غامضة ضيقة الاعلى واسعة الاسفل شديدة الغم . (٣) جمع غملول الوادي الضيق الكثير النبت الملتف .

فاذا هو باسدٍ يفترس من صيران الجنة وحسيلها(١) فلا تكفيه هُنيدة ولا هند(٢) فيقول في نفسه لقد كان الاسد يفترس الشاة العجفآء(٣) فيقيم عليها الايام لا يطعم سواها شيئاً ، فيلهم الله الاسد ان يتكلم وقد عرف ما في نفسه ، فيقول يا عبد الله أليس احدكم في الجنة تُقدَّم له الصحفة وفيها البط والطريم(٤) مع النهيدة فيأكل منها مثل عمر السموات والارض يلتذّ بما اصاب فلا هو مكتفٍ ولا هي الفانية ، وكذلك انا افترس ما شآء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكن تجد من اللذة ما اجد بلطف ربها العزيز ، أتدري من انا ايها البزيع ، انا اسد القاصرة ... وأدخلتُ الجنة بما فعلت ...

ومن بديع ما يرويهِ عن الجني الخيتعور : فيقول له ما كنيتك لأكرمك بالتكنية ، فيقول ابو هَدْرَش ولقد لقيتُ من بني ادم شراً ولقوا مني كذلك ... فيقول يا ابا هدرش اخبرني وانت الخبير هل كان رجم النجوم في الجاهلية فان بعض الناس يقول انه حدث في الاسلام فيقول هيهات ولكن الرجم زاد في اوان المبعث وان التخرص لكثير في الانس والجن وان الصدق المعوز قليل وهنيئاً في العاقبة للصادقين وفي قصة الرجم اقول :

---

(١) السمكات المملوحة واولاد البقر . (٢) مائة ولا مئاتان . (٣) الهزيلة . (٤) الارز باللبن والسمن ، والطريم = العسل ، والنهيدة = الزبدة .

مكّةُ أقوتْ من بني الدردبيسْ   فما لجنّيٍ بها من حسيسْ

ومنها وكم عروسٍ بات خرّاتُها   لجُرهمٍ في عزها او جديسْ

غُرتْ عليها فتخلّجتُها   بواشكِ الصرعةِ قبلَ المسيسْ

لا انتهي عن غرضي بالرقى   اذا انتهى الضيغمُ دونَ الفريسْ

وادلجُ الظلماءَ في فتيةٍ   مِلجنٍ فوقَ الماحلِ العربسيسْ

ومنها تحملنا في الجنحِ خيلٌ لها   اجنحةٌ ليست نخيلِ الانيسْ

ومنها لا نُسكَ في ايامِنا عندَنا   بل نكسِ الدينُ فما ان نكيسْ

فالاحدُ الاعظمُ والسبتُ كالا   أثنينِ والجمعةُ مثلُ الخميسْ

لا مُجُسٌ نحنُ ولا هُوَّدٌ   ولا نصارى يبتغونَ الكنيسْ

يريد ان ليس جنٌّ في اعتقاد اهل هذه الاديان

نُمزّقُ التوراةَ من هونِها   ونحطمُ الصلبانَ حطمَ اليبيسْ

نحاربُ اللّهَ جنوداً لإبليـ   ـسَ اخي الرأيِ الغبينِ النجيسْ

ونخدعُ القسيسَ في فصحهِ   من بعدِ ما مُلّيَ بالانقليسْ

ثُمّتَ آمنتْ ومَن يُرزَقِ الا   يمانَ يظفر بالخطيرِ النفيسْ

والقصيدة كلها على هذا النسق الانيق .

ثم يقول : فيعجب لا زال في الغبطة والسرور لما سمعه من ذلك الجنيّ ويكره الاطالة عنده فيودعه ويذهب في كل سبيل .

اقصى الجنة

وكأنه المطهر عند النصارى

فاذا هو ببيت في اقصى الجنة كأنهُ حِفْشُ(١) أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكّان الجنة ، وعنده شجرة قميئة(٢) ثمرها ليس بزاكٍ فيقول يا عبد الله لقد رضيتَ بحقير شَقِن(٣) فيقول والله ما وصلت اليه الا بعد هياطٍ ومياط(٤) وعرق من شقآء وشفاعةٍ من قريش وددت انها لم تكن ، فيقول من انت فيقول انا الحطيئة العبسيّ فيقول بما وصلتَ الى الشفاعة ؟ فيقول بالصدق فيقول في أيّ شيء ؟ فيقول في قولي

ابت شفتاي اليوم أن تتكلما ... بهُجرٍ فلا ادري لمن انا قائلُهْ

أرى ليَ وجهاً قبّحَ اللهُ خلقَهُ ... فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبّحَ حاملُهْ

ويمضي ابن القارح فاذا هو بامرأةٍ في اقصى الجنة قريبة من المُطّلَع الى النار ، فيقول من انتِ فتقول انا الخنسآء السُلّمية احببتُ ان انظر الى صخر فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه فقال لي لقد صحّ مزعمكِ فيَّ يعني قولي

وأَنَّ صخراً لَتأتمُّ الهداةُ بهِ ... كأنهُ علمٌ في رأسهِ نارُ

(١) البيت الصغير الحقير . (٢) ذليلة صغيرة . (٣) تافه قليل جداً . (٤) مجيء وذهاب وتعب شديد .

طوافه حول جهنم

فيطلّع فيرى ابليس ـ لعنهُ الله ـ وهو يضطرب في الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من ايدي الزبانية(١) فيقول الحمد لله الذي امكن منك يا عدو الله وعدو اؤليائه لقد اهلكت من بني آدم طوائف لا يعلم عددها الا الله ، فيقول مَن الرجل ، فيقول انا فلان من اهل حلب . . . فيقول ابليس اسألك عن شيء تخبرنيه : ان الخمرَ حرّمت عليكم في الدنيا وأُحلّت لكم في الاخرة ، فهل يفعل اهل الجنة . . . ويقول ابليس ايضاً انَ في الجنة لأَشرِبةٌ كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم كان يفضلني دون الشعرآء وهو القائل

ابليسُ افضلُ من ابيكم آدمٍ — فتبينوا يا معشرَ الاشرارِ
النارُ عنصرهُ وآدمُ طينةٌ — والطينُ لا يسمو سموَّ النارِ

لقد قال الحق ولم يزل قائلهُ من الممقوتين ، فلا يسكت من كلامه الا ورجل في اصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا يرى الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا هو بشار بن برد قد أُعطى عينين بعد الكمه لينظر الى ما نزل به من النكال .

ويسأل عن امريءِ القيسِ بن حجر فيقال ها هو ذا بحيث

(١) الموكول اليهم تعذيب اهل النار .

يسمعك ، فيقول يا أبا هند انّ رُواة البغداديين ينشدون قفانبكِ ... وينظر فاذا عنترة العبسي متلدّد في السعير ... فليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم ؟ فيقال ها هوذا من تحتك إن شئت ان تحاوره فحاوره .. ويرى رجلاً في النار لا يميزه من غيره فيقول من انت ايها الشقي ؟ فيقول انا ابو كبير الهُزلي ... واذا هو برجل يتضور فيقول من هذا فيقال الاخطل التغلبي فيقول له ما زالت صفتك الخمر ، حتى غادرتْك اكلاً للجمر ، فيزفر الاخطل زفرة تعجب لها الزبانية فيقول آه على ايام يزيد ، اسوف عنده عنبرا ، ولا اعدم لديه سيسنبرا(١) وامزح معه مزح خليل ، فيحتملني احتمال جليل .. فيقول جعل الله اوقاته كلها سعيدة عليك البهَلَة قد ذهلتِ الشعراء من اهل الجنة والنار عن المدح والنسيب وما شُدِهتَ عن كفرك ولا اساءتك وابليس يسمع ذلك الخطاب كله .

تلاعُنُ ابليس وابن القارح

فيقول ابليس للزبانية ما رأيت اعجز منكم اخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه ، فلو أنّ فيكم صاحب نحيزة(٢) قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجتذبهُ الى سقر ، فيقولون لم تصنع شيئاً يا ابا زوبعة ، ليس لنا على

(١) ريحان وهو فيما زعموا معرّب . (٢) مروءة .

اهل الجنة سبيل، فاذا سمع ـ اسمعه الله محابَّهُ ما يقول ابليس ـ اخذ في شتمهِ واعنه واظهار الشماتة به، فيقول عليه اللعنةُ الم تُنهوا عن الشمات يا بني آدم ولكنكم بحمد الله ما زُجرتم عن شيء الا وركبتموه فيقول، واصل الله الاحسان اليه، انت بدأت آدم بالشماتة والبادي اظلم.

العودة الى الجنة

ويملّ من خطاب اهل النار فينصرف الى قصرهِ المشيد... ويلقى آدم عليه السلام فيقول يا ابانا صلى الله عليك قد رُوي لنا عنك شعر... فيقول ولكني لم اسمع به حتى الساعة فيقول لعلك يا ابانا قلتهُ ثم نسيت فقد علمت ان النسيان متسرع اليك وحسبك شهيداً الآية المتلوة في قرآن محمد (صلعم) فيقول آدم (صلعم) ابيتم الا عقوقاً واذيةً، انما كنت اتكلم بالعربية وانا في الجنة فلما هبطت الى الارض نُقل لساني الى السريانية فلم انطق بغيرها الى ان هلكت، فلما ردني الله الى الجنة عادت عليَّ العربية فايَّ حين نظمت هذا الشعر... ثم يضرب سائراً في الفردوس...

مرورهُ بجزيرة الرُجَز

ويمرُّ بابيات ليس لها سَوقُ ابيات الجنة فيسأل عنها فيقال هذه جنة الرُجَّز يكون فيها اغلب بني عجلٍ والعجاج ورؤبة وابو

النجم . . . وكلٌّ من غُفرَ له من الرجاز ، فيقول صدق الحديث ان الله يحب معالي الامور ويكرهُ سفاسفها وان الرجز لمن سفاسف القريض ، قصرتم ايها النفرُ فقُصِّر بكم .

ويتكئ على مفرش من السندس ويأمر الحور العين ان يحملنَ ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سُرُر الجنة وانما هو زبرجد او عسجد ، فيكوّن البارئ فيه حَلَقاً من الذهب تطيف به من كل جوانبه حتى يأخذ كل واحد من الغلمان ، وكل واحدة من تلك الجواري المشبهة بالجمان ، واحدةً من تلك الحَلَق فيُحمَل (الشيخ علي ابن القارح) على تلك الحال الى محلهِ المشيد بدار الخلود فكلما مرَّ بشجرةٍ نضحتهُ اغصانها بماء الورد قد خُلط بماء الكافور ، وبمسكٍ ما جُنيَ من دماء الغور ، وتناديه الثمرات من كل اوب وهو مستلقٍ على الظهر « هل لكَ يا ابا الحسن هل لكَ » فاذا اراد عنقوداً من العنب او غيرهِ انقضب من الشجرة بمشيئةِ الله وحملتهُ القدرةُ الى فيهِ واهل الجنة يلقونه باصناف التحية وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين .

ولما انتهى بابن القارح الى قصرهِ في الفردوس واتكأُ على مفرش من رائع الديباج الاسنى فوق سرير من الذهب او الزبرجد بين الحور والغلمان على ما اتى من ذلك الوصف البديع ، حتى تركه

يتمنى ان يُقبض اساءته على شرط ان يضمن له ضامن تحقيق تلك الرواية بل خيال خيالها عاد الى الجواب عن الرسالة فقال :

ونعود الان الى الاجابة عن الرسالة . . . وهنا طفق يُعدّد له جماعةً من المتألهين(١) والزنادقة والملحدين واصحاب البدع من المتقدمين والمتأخرين ويذكر طائفة من اشعارهم واقوالهم ونحلهم واهوآئهم ، ينتقدها انتقاد الصيرفي الدينار ، ويمحصها محص الصائغ الفضة في النار ، وبين ذلك يقول : وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة بليغاً في النظر والحجة فاذا رجع الى الديانة أُلفي كأنهُ عيرٌ(٢) مُقتاد ، وانما يتبع ما اعتاد ، والتألهُ موجود في الغرائز ، يُحسب من الالجاء الحرائز(٣) ، ويُلقنُ الطفل الناشىء ما سمعهُ من الاكابر ، فيلبث معه في الدهر الغابر(٤) ، واذا المجتهد نكّب عن التقليد ، فما ينطق بغير التبليد(٥) ، واذا المعقول جُعل هاديا ، نقع بريّهِ صاديا(٦) ، ولكن اين من يصبر على احكام العقل ، ويصقل فهمهُ ابلغ صقل . . ورُبَّ زارٍ بالجهالة على اهل ملة ، وعلتهُ ادهى علة .

ثم عاد الى ممازحته فقال : وقد تحدّث بعض طلاب الادب ادام الله تزيين المحافل بحضوره ذكر التزويج يريد الخدمة فسرني

---

(١) المتحيرين . (٢) حمار . (٣) الحصون . (٤) الغابر من الاضداد يعني الماضي ويعني الحاضر . (٥) التحير . (٦) روى الظمئان .

ذلك لانه دلّ على اقامة في الوطن ، وفي قربه الفرحة لاهل الفطن ... وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب ، اذا بلغ الرجل الستين فاياهُ والشوابّ(١) ولا خير عند التوابّ(٢) ، ولكن النَصَف ممن يوصف ... الى ان يقول له ولو نشط لهذه المأربة(٣) لتنافست فيه العُجُز(٤) والمكتهلات ، وعلت خِطَبهُ المُتهّبلات(٥).

فانظر ما اضحك هذا الوصف وما الطف هذه الممازحة ، لانهُ كما علمت يخاطب شيخاً جاوز الستين .

ثم يزيد على ذلك فيقول له : فليس باول من طلب نجوزا(٦) فتزوج على السن عجوزا ، وما زالت العرب تحمد الحيزبون(٧) والشهلة(٨) ، ولا تكره مع الشرخ(٩) الكهلة ... الى ان يقول : واما حججهُ الخمس فهو انشآء الله يستغني في المحشر بالاولى منهنّ وينظر في المتأخرين من اهل العلم فلا ريب انه يجد فيهم مَن لم يحج فيتصدق عليهم بالاربع ، وكأني به وعمائم الحجيج ، يرفعون التلبية بالعجيج ، وهو يفكر بتلبيات ...

وفيما اثبتُ من كلامه شاهد مقنع على ما صدرتُ به هذا النقد من الكلام عن مذهبه .

(١) الشابات . (٢) العجائز جمع عجوز . (٣) الحاجة . (٤) جمع عجوز . (٥) اللواتي فقدنَ اعز اولادهن . (٦) حاضراً مهيئاً . (٧) العجوز السيئة الخلق . (٨) التي في سواد عينيها زرقة . (٩) الشباب .

٣

ولما كنت اوضحت اعتقادي في الشيخ ابن القارح ايضاً فلا باس من تعزيزه في هذا المقام.

قال ابو العلاء في تضاعيف جوابه: واما شكواه الي فانني واياه لكما قيل في المثل «والثكلى تعين الثكلى» كلانا بحمد الله مُضِل، فعلى مَن نحمل وعلى من ندل... ثم انه لم يترك اسم ملحد او زنديق في المخضرمين والاسلام الا ذكره له مع ابيات او قصائد هي ابلغ ما قالوه في عقيدة كفرهم وإلحادهم، ثم قال بعد ذلك: ولم يزل الالحاد في بني آدم على مر الدهور... وبعض العلماء يقول ان سادات قريش كانوا زنادقة، وما اجدرهم بذلك وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر

اَلمَتْ بالتحيةِ امُّ بكرٍ   فحيوا امَّ بكرٍ بالسلامِ

الى ان يقول

الا مَن مبلغ الرحمان عني   باني تاركٌ شهرَ الصيامِ
أيوعدنا ابنُ كبشةَ ان سنحيا   وكيف حياةُ اصداءٍ وهامِ
أتتركُ ان تردَّ الموتَ عني   وتُحييني اذا بَليتْ عظامي

ثم يقول: ولما اجلى عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - اهل الذمة

من جزيرة العرب شقّ ذلك على الجالين، فيقال ان رجلاً من يهود خيبر يعرف بسُمَير بن ادكن قال في ذلك

يصول ابو حفصٍ علينا بدرّه[١] رويدَكَ ان المالَ يطفو ويرسبُ
كأنك لم تتبع حمولةَ ماقطٍ[٢] لتشبعَ انَّ الزادَ شيءٌ مُحبَّبُ
فلو كانَ موسى صادقاً ما ظهرتمُ علينا ولكن دولةٌ ثمَّ تذهبُ
ونحن سبقناكمْ الى المينِ فاعرفوا لنا رتبةَ البادي الذي هو اكذبُ
مشيتمْ على اثارنا في طَريقِنا وبغيتكُمْ في أنْ تسودوا وتُرهبوا

وكقوله بعد ذلك: واما غيظهُ على الزنادقة والملحدين فآجرهُ الله عليه كما آجرهُ على الظمأ في طريق مكة، واصطلاء الشمس بعَرفَة، ومبيتهِ بالمزدلفة ... وكثير مثله قبله وبعده.

فاذا نظر الناقد فيما تقدم بعين لا يطرفها الرياء، وحكَّم رأياً لا تتجاذبهُ الاهوآء، يجد لا مندوحة للقول معنا في مذهب الشيخين وقد ورد في الامثال السائرة «من احب شيئاً اكثر من ذكره»، وهذا شأن ابي العلاء في هذه الرسالة وسواها.

ولنرجع الى الكلام عن الرسالة: فان اهم ما ينتقَدُ عليه فيها حشوها بلفظ كثير من غريب اللغة وعويصها حتى ليحتاج العالم معه الى مراجعة المعاجم الكبيرة، وقد يفسر بعض الالفاظ في

[١] الدَرُّ اللبن يريد هنا بكثرة مالهِ اي غنمه. [٢] الجمل الهزيل.

خلال الجملة مما يفقد الكلام كثيراً من فكاهته، على اننا ننتقد الرجل صنعته ونحن في القرن العشرين وبيننا وبينهُ عشرة قرون، وانت لست تجهل ان لكل عصر طريقةً من التعبير وضروباً من الانشآء يألفها اهله، كما اوضحنا ذلك في غير هذا البحث (١)، ثم ان الرسالة أُنشِئَتْ لغرض مخصوص فلا يُنكر على منشئها اغرابهُ فيها وكلها عجيب في عجيب، وكانهُ قصد فيها المشاكلة التامة، اذ لما كانت المخاطبة في اغلبها مع شعرآء الجاهلية فقد لا يخطىء الظن اذا قلنا انه اراد ان لا يكون لفظهُ بعيداً عن الفاظهم، لاننا نرى شعرهُ في سقط الزند بل في نفس اللزوميات، من اكثر شعر ذلك العصر وضوحاً، مع انه مقيد بالوزن والقافية ولزوم ما لا يلزم وحصر المعاني في جُملٍ محدودة، وقد يكون اراد الافادة بذكر الكلم العويص وتفسير اكثرهِ كما فعل، وانت تعلم ان معاجم اللغة (وقد كانت لعهدهِ قليلة جداً) وكتب علومها لم تكن متيسرة لاكثر محبي العلم وطلابه في تلك القرون.

وعلى الجملة فان الرسالة قد جمعت من بدائع الابتكار وبدائه التخيّل ودقائق التصور وغرائب التشخيص ومحاسن التصوير ولطائف الانتقال وروائع المنظوم، واشارات الى كثير من العلوم

(١) الجزء الاول من كتابنا هذا.

والفنون والاستقصآء في شاذ اللغة وغريبها ، والتبحر في عقباتها ورحيبها ، طائفة وافرة وفوائد باهرة ، فلا تكاد تنتهي من حسن حتى يبدو لك ما هو احسن ، ولا تمرّ بفكاهةٍ حتى تقع على ما هو اطيب منها وافكه ، ولا بغريبة حتى تقرأ ما هو منها اغرب ، فلا بدع اذا ما تناقلها الركبان ، وتهاداها اهل كل زمان ، وباتت حَليَ الاذان في كل مكان .

ولا ريب في شيعوعة رسالة الغفران منذ عهد مؤلفها وتداولها بين اهل المغرب ، ولا سيما اهل الاندلس ، وكان يحكمها لذلك العهد ملوك الفضل وبدور السعد بنو عبّاد ، ثم حكمها بعدهم يوسف بن تاشفين ، قال التميمي في تاريخهِ « فانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار » وذكر اسمآء طائفة كبيرة من الاعلام .

ثم حكمها بنو عبد المؤمن قال التميمي ايضاً في كلامه عن ابي يعقوب بن عبد المؤمن « ولم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلمآء وخاصة اهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملكٍ قبله من ملوك المغرب ، وكان ممن صحبه

من العلمآء المتفننين ابو بكر محمد بن طُفيل احد فلاسفة المسلمين قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة منهم ابو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه ... ولم يزل ابو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار ... وهو الذي نبَّهَهُ على ابي الوليد محمد بن رشد ...»

فاذا علمت ذلك وأنَّ مؤلفاته ومؤلفات من سبقه وتأخر عنه من كبار فلاسفة العرب قد ترجمها الى اللاتينية او الى العبرانية ومنها الى اللاتينية علمآء اليهود من العرب في الاندلس، وان الاندلس كانت منذ وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢ مسيحية (٣٥٠ هجرية) منتجع العلوم ومحط رحال العلمآء من كل صقع، وكان لا يظهر كتاب علم او ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب في المشرق الا تهاداهُ اكابر الاندلس وعلمآؤهُ واستنسخوه وتداولوه، واذا علمت ان الامم الافرنجية كانت تأخذ العلوم عن اسلام الاندلس منذ القرن العاشر، اي قبل وفاة ابي العلاء بخمسين سنة، قال في موسوعات العلوم الفرنسوية الكبيرة ما تعريبه:

قد عرف امم اوروبا يومئذٍ (اي عند مخالطتهم عرب الاندلس) انَّ من كانوا يزعمونهم بربراً، هم ارقى كعباً في المعارف من اوروبا المسيحية، وانه يجب الاقرار طوعاً او كرهاً بان العرب كانوا يعرفون فنون السلم كمعرفتهم فنون الحرب، وان مدرسة قرطبة

التي طبّقت شهرتها الافاق ، قد تخطت بغاية السرعة جبال الپيرينه فسار اليها احد الشمامسة من اهالي اوڤير وهو المدعو جيربير ، فاخذ العلوم عن الاسلام ولم يكن ذلك ليصدّهُ عن الارتقاء الى البابوية باسم سيلفستر الثاني ، ثم قامْ بعدهُ بثلاثة قرون باكوْن احد مشاهير العلماء في القرون المتوسطة فنصح مزيد النصح بتعلم اللغة العربية بعد ان درسها هو ، ومن اقواله المأثورة ان الله يهب الحكمة لمن يشاء ولم يرَ ان يهبها للّاتين ، وان الفلسفة لم تكن منذ اقدم العصور الا على دفعات ثلاث ، وذلك عند العبرانيين فاليونان ثم العرب ، وقال ايضاً ثم قام بعده ـ اي بعد البابا سيلفستر ـ ببرهة من الزمن البابا اكليمنضوس الخامس فامر بتدريس العربية في مدارس باريس واوكسفورد وبولونيا وسلامنك ، ومما لا ريب فيه انه كان قد تُرجم كثير من الكتب العربية وانما الضعف اخذ بمخنقها فتعاورتها الاغلاط ، لانها تُرجمت عن اصلها ترجمةً حرفية دون تضلع من العلم او خبرةٍ في النقد ، وذلك بان يضع المترجم الكلمة اللاتينية تحت اللفظ العربي ، وعند ما كان يفوته فهم الاصل العربي كان يدعه دون ترجمة ، وكم من كتاب نُشر باسم استاذ في احدى المدارس يومئذٍ ولم يكن له فيه غير الاسم ، بيد انه وُجدت كتب اخرى كان حظها من ضبط الترجمة اوفر ، وتلك باقلام

بعض متنصرة اليهود . . . وقال بعد ذلك فقد رأيتَ كم كانت انوار المعارف التي انارت شديدة الضياء ، وان ما وصل منها الى عالمنا الغربي لم يكن الا شفقاً من ذلك النور ، اذ انه لم يصل الينا ، الا عند تراجع العرب وانحطاطهم واضمحلال دولهم . (انتهى محصل ما ورد في الموسوعات المذكورة) .

اقول عوداً على ما سبق فاذا علمتَ ذلك كله لن يبقى في نفسك سبيل الى الشك في ترجمة رسالة الغفران في جملة الكتب الى اللاتينية ، وقبل ان نرى في الموازنة بين رسالة الغفران والالعوبة المشهورة بالالعوبة الالهية لدانتي شاعر الطليان ، يجدر بنا ان نلمَّ شيئاً من ترجمته كما فعلنا ببسط شيء من ترجمة المعري للموازنة بينهما .

٤

ولد دانتى (او دانتهِ) اللّيجْييري في مدينة فلوْرِنسا سنة ١٢٦٥ اي بعد وفاة ابي العلاء المعري بمئتين وثمان سنين ومات سنة ١٣٢١ في السادسة والخمسين من عمره ، ولم يكن مرّ على وفاته خمسون سنة حتى تداخلت ترجمته الخرافات ، وتعاورتها السن الجماعات ، ثم لم تزل تتلففُ وتتكاثف ككرة الثلج الساقطة من جبال الثلج على وادٍ حتى اواخر القرن الخامس عشر .

على ان ذلك لم يقف في طريق المحققين ، فقد بحثوا ودققوا

وتوغلوا في الاستقصآء، فاماطوا الاستار عن كثير من احوال الرجل، ومزّقوا براقع الخرافات التي نسبها اليه الرواة، حتى عدّهُ العامة بعد وفاته ببضع سنوات في مصاف الاوليآء، وجعلهُ بعضهم في منزلة الشياطين.

وجملة خبره انه من أسرة لها في وطنها مقام معروف، وانْ لم تكن عريقة في المجد، وقيل انه تجند سنة ١٢٨٨ للدفاع عن وطنه وحارب فيمن حارب من قومه، واهم حوادث شبابه، كان عشقه الذي خلد تذكاره في شعره المعنون بـ «الحياة الجديدة»، وفي سنة ١٢٩٥ تزوج وولد لهُ ولدان وبنتان في سبع سنوات، وعقيب زواجه اشتغل بالسياسة ووجه اليها كل قواه، تابعاً حزب اسلافه، ولم ينل منصباً عالياً كما جاء في الروايات التي تحلت بها ترجمته السائرة.

ووقع في مدينة فلورنسا منذ سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣٠٣ اختلافات سياسية عقبها اضطراب وثورات اهلية، نفي في إثرها دانتى في جملة ستمائة رجل من مواطنيه وُحكم على كثير منهم بالقتل.

وعقب هذه الحادثات كان يتنقل شريداً من مدينة الى أخرى لا يملك نقيراً وهو يترقب العود الى وطنه ترقب الصائم هلال العيد، وقد اتيح له اول ملجأ لجأ اليه عند رجل من كبرآء لمبارديا،

ثم انتقل الى مدينة بادْوَا ووجد له عملاً عند احد امرآئها ، اما رحيله الى پاريس ، فاكثر المنقّبين على انه في نحو تلك المدة اي سنة ١٣١٠ ومنذ ذلك التأريخ نزع عن السياسة كما يرى الناقد في تتبّع أُغنيّاتهِ لذلك العهد ، واقلع عن الطعن في وطنه بعد ان كان يهجو من حكم في نفيهِ عنه ، وصار يحنّ اليهِ اشد الحنين ، والسبب في ذلك انه كان مشتغلاً يومئذٍ بالمطالعة والدرس المتواصلين ، وقد ساعده على التفرغ لهما اكتسابه عطف وصداقة احد العظماء ، ثم حدث في ذلك التأريخ بعض الاحداث السياسية مما انعش فؤاد دانتى وجدّد في نفسه امل العودة الى وطنه ، ولكن لم يكد يهب نسيم ذلك الامل حتى جرت الرياح بما ابدل منه الرجاء بالخيبة وقطع اوصال تلك الامال فاستعاذ باليأس فاوحى اليه قصيدةً هجا بها وطنهُ وسكانه وتوعدهم بنقمة امبراطور المانيا هنري السابع ، وشفعها بثانيةٍ حرّض بها الامبراطور على اكتساح فلورنسا ، واستنزل صواعق غضبه عليها وعلى مَن فيها قتلاً ونفياً وتعذيباً ، غير ان الامبراطور ارتد عنها بالفشل ومات على اثر جراحهِ حزيناً غريباً ، فرشقت حكومة فلورنسا دانتى واولاده بحكم القتل جواباً على قصيدته .

وراح بعد ذلك يتنقل من بلد الى بلد ، وهو يتجلد على

مضض البلاء وهل يدفع البلاءَ تجلّد او جَلَد؟ الى ان دعاهُ احد علماء النحو (اللاتيني) من مدينة بُولُونيا للقدوم اليها سنة ١٣١٨ ليعقد على رأسهِ الأكليل الشعري، ولكنه كان يتمنى ان ينالهُ في وطنه، فلم يُقسَم له ذلك، اذ قضى في الرابع عشر من شهر ايلول للسنة الحادية والعشرين بعد الثلثمائة والالف في بلدة رافين وهو في السادسة والخمسين من العمر.

هذا مجملُ ما وقف عليهِ المؤرخون، وانتخلهُ المحققون والنقادون، من ترجمة هذا الشاعر الكبير، وهي ادنى ان تكون قصة قائد جيش او وزير، طمح ببصره الى الرئاسة، وجنحت به نفسه الى منازع السياسة، بل تاقت الى التشبه بالاولياء، ومحاكاة الفلاسفة والانبياء، وسنورد بعد هذا ما يؤيد قولنا.

على انه وان عُدّ اشعر شعراء الطليان، فلم يكن مبتدعاً بل كان في كل ما كتبه مقلداً من تقدمهُ، طابعاً بمعانيه على غرار من سلفه وانما عُدّ اشعر شعراء الطليان لانهم لم يكونوا ينظمون الشعر العالي الطبقة عندهم الا باللاتينية.

وكان اول ما نظمهُ الاغاني وذلك باللغة الطليانية، وهي لعهده اللغة العامية في توسكانا ولومبارديا وسائر شيشيليا، وكانت الاغاني في القرن الثالث عشر عندهم احب شعر لدى جماعات الاكابر،

وكانوا يعدّونها اسمى انواع الشعر ، وكانت طريقتهم في الغزليات شبيهة بغزل المتصوفة عند العرب ، الا انهم كانوا يصرحون بروحانية المحبوب وقدسيته فكان شعر الصوفيين عندنا في صفة المحبوب وصفاً لبس من ثياب الغرام البشري جلبابا ، واتخذ له من ستور الظنون وبراقع الخيال حجابا ، وهو افعل في النفوس واحب الى القلوب واطرب في المسامع من شعرهم ذاك المصبوغ بصبغة العبادة ، بل هو لحن ديني لا يطرق السمع حتى تحسب نفسك قائماً في احدى الكنائس ، بين الشموع والمباخر والقلانس والبرانس . واليك تعريب بيت لشاعر من معاصري دانتى « ايها الوجه المَلَكي الآتي من السماء لنشر السلام وَمن طَبَعَ عليه آلهُ الحب كلّ فضيلةٍ » .

وكانوا يقسمون العشق الى مراتب ، ويطرقون في وصفهِ ابواب الفلسفة وغيرها من العلوم ، وينحون في تبويبهِ وتقسيمهِ نحو الالفيات النحوية وغيرها من الاراجيز العلمية .

وكانت اغاني دانتى في اول امرهِ غزليةً اي مصبوغة بصبغة العشق البشري ثم نحا تدريجاً نحو التعبد ، وشرح بكتيبٍ تثري اغانيه ، فكان شرحهُ هذا الغازاً ومعمياتٍ مُغلقة ، بيد انه نال بها شهرة لم ينلها بكل اناشيده ، وليس ذلك بالمستغرب بين قومٍ لم

تختمر فيهم ملكة المعارف ، وعدد ادعياء الادب اضعاف العدد الضعيف من الراسخين في العلم ، فكم بيننا من يتفاصح اليوم بامثال امررتُ مخصرتي ، واستنهض القريحة ، وارفض القلب ، وحبذوه وحبذناه ، وغضب الطبيعة الحانقة ، والقامة المسهبة المسرفة في النمآء ، الى مئات من امثال هذا الهذيان والخلط ، وكم بيننا من يقلد هولآء ، ومن يتمنى ان يكتب على هذا المثال المضحك السقيم ، اي ان يكتب ما لا يفهمه هو نفسه ، ولا يستطيع تعبيره اذا سُئل فك معمّاه ، وانما هو عاشق التخييل او الوهم او المجاز مفهوماً او غير مفهوم ، ولكنه يهرب من الوضوح ولا يحب الحقيقة ، او كانهُ يخشاها وهو نفسه لا يدري اسباب ذلك ، وهذا ايضاً سرٌّ من اسرار هؤلاء الكتبة واشياعهم يحار فيه الناقد ، ولعلهُ نتيجة ظلمة قرائحهم ، وزعم بعضهم انه دليل على غرائز تتجنب الصدق ولله في خلقه شؤون . ونرجع الى موضوع كلامنا .

وترتسم الصنعة على شعر داتنى الغزليّ كله ، حتى لُيرى انه يتعمد التلبس بلباس الهائمين كل الهيام ، ولهذا قال كثيرون من ناقدي شعره ، انه كان يحتذي طريقة بعض الشعرآء المشهورين لعهده او مَن تقدمهم ، وانه لم يلج العشق فؤاده ، ولعل هذا الحكم جائر ، ونحن في نقدنا هذا لا نروم ان ننظر في كل ما قالهُ نقادوه ، بل

نريد ان ننظر ونقول في ما لم يقولوه ، اي في احتذآئه اسلوب شاعرنا المعري في رسالة الغفران ، بل سرقة موضوعه وتخلفه عنه في السمو والبيان .

وقد بسطنا قبيل هذا شأن رواج العلوم واستبحار المعارف عند العرب في الشرق والغرب قبل ان يولد دانتى ، وما قاله مؤرخو الافرنج انفسهم عن كثافة سحب الجهل عندهم في تلك القرون ، وان مَن كان يريد التعمق في العلوم عندهم ، كان يتحتم عليه ان يقصد مدرسة قرطبة ، فلا عجب بعد هذه الشهادة اذا ما قصدها دانتى ودرس العربية فيها ، وان كان لم يقل بذلك احدٌ من مترجميه ، اذ جميع الذين ترجموه نقلوا عن بوْكاچّه (١) ، وهذا لم يعلم من امر دانتى شيئاً الا بعد وفاته في هجرته بسنين كثيرة ، اذ كان منتهى بحثه عن احواله في زوايا دور الكتب ، ودكاكين باعة الكتب ، وسؤال من كان حياً من عارفيه بعد وفاته بثلاثين سنة على اقل تقدير ، ومثل هذا البحث في مثل ذلك العصر لا يُعوّل كثيراً عليه عند الناقد النزيه ، اذ يظهر منه دليل واضح على ان الرجل قبل وفاته بعدة سنين ، لم تكن له شهرة كافية لان يُردَّد اسمهُ او شعره في فلورنسا او غيرها من البلاد ، وانهُ بعد موته بثلاثين سنة او

(١) Boccage

اكثر فكّر بوكاچّه في جمع ترجمته ، فقد سافر كثيراً وتنقل بعد نفيه ولا يعلم على التحقيق كم قضى من الزمن في البلاد التي تنقل فيها ولا عُرفت اسمآؤها بلداً بلداً .

وهب انه لم يدرس العربية ـ وهو ما لنا عليه غير ما تقدم من الادلة على سرقة رسالة الغفران ـ أما اوضحنا كيف كانت تُترَجم كتب العلوم وادابها من العربية الى اللاتينية بشهادة مؤرخي تلك القرون ؟ فهل يُعقل ان دانتى لم يقف على كثير من تلك الكتب ومن جملتها هذه الرسالة الشعرية المعاني وهو اشعر شعرآء الطليان ؟

اما الالعوبة فهي الملحمة التي اشتغل بتأليفها كل المدة الاخيرة من حياته ، وقد ابتدأ بنظمها ، فيما ظهر للمحققين ، سنة ١٣١٠ وقد يكون نظم كثيراً منها قبل ذلك التأريخ ، وهو لم يسمها الالعوبة الالهية بل الألعوبة ، وانما نعتُها بالالهية كان بعد موته ـ واظن بعد موته بزمن طويل ـ ولم اعلم مَن هو اول مَن نعتها بالالهية .

واقبل دانتى على دراسة اكثر علوم عصره ولاسيما الفلسفة الا انه جعل فلسفته خاضعةً لعلم اللاهوت او مزيجاً منه ، او هي علم الكلام عند المسلمين ، وكان متشبعاً من قرآءة التوراة وغيره من كتب الدين ، وكان شديد العصبية للغته الطليانية ، شديد التحمس في دينه ، قوي الاعتصام به ، حتى انك قلّ ان تجد قصيدة

من شعره في ألعوبته ليس عليها مسحة من لهجة انبيآء اليهود في اسفار التوراة ، ولهذا قلنا في ما تقدم انه كان يجنح الى محاكاة الانبيآء ، واليك قولهُ في بعضها ، اذ هو في المطهر يخاطب وطنه بلدة فلورنسا - في الاغنية السادسة - :

« كم من مرة - منذ العهد الذي تعلمينه - بدّلتِ شرائعكِ ومذاهبكِ وعاداتكِ ، انكِ تتذكرين ذلك حق الذكرى ولستِ عميآء وستجدين ذاتكِ كتلك المريضة التي لم تكن تجد راحةً الا بآلامها في تقلبها على جراحها » .. ودونك قول السيد المسيح : « اورشليم اورشليم ياقاتلة الانبيآء وراجمة المرسلين اليها ، كم من مرةٍ اردتُ ان اجمع اولادكِ فيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها » ومثل ذلك قول ارميا واشعيا قبله .

ويفتتح اغنيته الاولى من السماء هكذا : « المجد لمحرك الاشيآء كلها ، من يملاء الاكوان وينير بعضها على درجات متفاوتة ، في السماء التي تنال اعظم نصيب من نورهِ كنتُ وعاينتُ اشيآء لا يستطيع ان يكرر ذكرها النازل من الاعالي » أما هذه لهجة انبياء اليهود ؟ ولا عجب في ذلك فان غرض داتى من تأليف الالعوبة - كما صرح هو بذلك - « ان ينتزع الاحياء من شقائهم في هذه الحياة الدنيا وان يقودهم الى الحياة الخالدة » وقد ضمّنها كثيراً

من الارآء العلمية ، والمعتقدات الدينية ، والمذاهب الفلسفية ، والحوادث التأريخية ، واحوال المجتمع لعصره في قطره . مما خلّد اسمهُ في تأريخ الامم الغربية حتى عدّوه اشعر شعرآء الطليان وأحد افراد شعرآء الدنيا ، غير انه لم يسلم من ايدي النقاد ، ولا بدع فالكمال لم يُقسم لاحد من البشر الى يومنا هذا ، ولو شئنا ان نتتمد ما ضرب عنه صفحاً كثير من نقّاديه لطال بنا مجال القول ، ولاسيما اننا لا نتعرض في هذه الموازنة الا لِما بين الالعوبة الالهية وبين رسالة الغفران من القرابة والصلة ، ولما بين صاحبيهما من التفاوت في الاخلاق والحياة العملية ولمكانهما في المجتمع الانساني بل في وطنيهما ، وبين قوميهما لعصريهما .

وحسبك ان تعلم ان دانتى استعان في هبوطهِ الى جهنم وفي معراجهِ على المطهر ، بروح فيرجيل شاعر اللاتين وهو في مذهبهِ من اهل النار لانه كان وثنياً كما تعلم ، بل انه يدعوه بيا أبتِ ويا ابي الحبيب ويامعلمي ويامرشدي الحكيم ، ويسأله ان يلهمه الثبات والصبر والشجاعة ، والعقل والفصاحة ، ولا يخفى ما في ذلك من التناقض ، اذ كيف يجوز له وهو النصراني الكاثوليكي المتحمس الى اقصى غايات التحمس الديني ، ان يصاحب ويستعين ويسترشد بروحٍ ملعونةٍ خبيثةٍ هي روح فيرجيل الوثني التي قُضي عليها في

اعتقاده ان تُخلّد في عذاب النار وان ينادي صاحبها يا ابي ويامرشدي وان تصعد معه في معراجه على المطهر وهو مكان الابرار الصالحين يمكثون فيه برهة من الدهر ريثما يتطهرون فيه من الاوزار ، وكيف وفّق في منطقه بين تلك المقدمة وهذه النتيجة ؟

على ان دانتي لم يكن مبتكراً كما ذكرنا غير مرة وكما اجمع رأي الناقدين البصيرين في كتاباته ، بل كان التقليد سجيةً من سجاياه ، ولذلك نراه يسمي كويدي كونيجيلي المشترع من اهل بولون ابي ايضاً ، وهو سابقهُ في الطريقة التي دُعيت لعصره بالانشآء الحلو الجديد ، ومثل ذلك يدعو فيرجيل اباه يريد بذلك ان يسميه اهل عصره ابن فيرجيل او خَلَف فيرجيل ، لشهرته البعيدة في الشعر اللاتيني ، ولشعره هو في الانشآء الحلو الجديد ، كما كانت تسمى يومئذ اللغة الطليانية .

وقد يُقال انهُ كرّر كثيراً قرآءة سفر الرؤيا المعروف برؤيا يوحنا ورغب في محاكاته ، ولكن ينفي هذا الزعم ما تحقق من صلابته في دينه وذهابه فيه الى اقصى حدود الغلو ، فلا يُعقل انه يتحرى محاكاة سفر من اسفار التوراة او الانجيل .

وزعم بعض شرّاحه ومنتقديه — ولا علم لهم برسالة الغفران ولا باسم ابي العلاء — ان الروايات كانت شائعة في تلك الاقطار

لعهد دانتى عن عروج بعض القديسين في الاعصر الأُول للمسيحية على السماء او اختطافهم اليها وهبوط بعض منهم الى جهنم ، وكلها من الخرافات الموضوعة التي كان يتناولهُا السُذَّجُ والعجائز البله في اول شيوعها للتيمّن والارهاب ، ثم ما فتئت تتجسم منذ القرن الثامن قرناً فقرناً حتى بلغت في القرن الثالث عشر من جسامة الوصف والارهاب والتهويل عن العذابات التي تصيب اهل الجحيم ما لا يحيط به وصف ، وان هذا ما دعا دانتى الى نظم العوبته . وقد يكون في ذلك شيءٌ من الحقيقة ، لما يراه الناقد من اطالته في اوصاف التعذيب في جحيمه وتنويعها وتبويبها ، فالهب دماغهُ باختراع وحوشٍ وافاعٍ وصنوف نيران قاتمة مظلمة سامة محرقة ، واهويةٍ نارية جليدية ، الى ما لم يسبقه اليه سابق ، وقد لا يلحقه فيه لاحق ، الا ان احتذآء اولئك الراوين والمؤلفين يقف به عند هذا الحد من وصف مشاهدة العذاب والغبطة ، اذ ليس فيه سوى روايات واقاصيص عما عاين اولئك المزعوم صلاحهم في السماء او في جهنم ، وليس فيه تخييل شعري ولاسيما في جهنم ، بل ان وصف العذاب والنيران مما تستك من سمعهِ الاذان ، وان ما يتناقله الناس في اي قطر من الاقطار حتى يمسي مبتذلاً ترويه عجائز الحمى ، ليس بالذي يُتهافت على نظمه شعراً ، ولاسيما اذا لم ينطوِ على

حكمة ينظمها الشاعر بلفظ انيق ، او وصف شيء من مظاهر الكون او غيرها مما تنبسط له النفس كالحسن والحب ، واما وصف الفردوس بما لا يخرج عما ذكرته كتب الاديان وبما رُوي عن بولس الرسول او بما ذكره يوحنا في رؤياه وبما روي عن غيرهما على مرّ ثلاثة عشر قرناً الى عصر دانتى ، كل ذلك لم يبقِ وصفاً لواصف على ذلك النحو او زيادة لمستزيد ، فما عسى ان يقول دانتى بعدهم او يجيد ؟

فاذا انعم الناقد النظر فيما بسطناه ، لم يرَ بُداً من القول معنا ان دانتى قرأ رسالة الغفران العربية او ترجمتها ورأى ان يقلدها على سجيته ، ولاسيما ان قرآء العربية بل اللاتينة نفسها لم يكونوا لعهده الا جماعة قليلة العدد ، واقل منهم من كان يقرأ الكتب المترجمة عن العربية او العبرية .

وليس قصدنا في هذه الموازنة الحطّ من قدر دانتى ببيان سرقتهِ الموضوع من شاعرنا المعري الفيلسوف ، فقد سرق شعرآؤنا وغيرهم قبل دانتى وبعدهُ وسيسرقون الى يوم الدين ، وهو نفسهُ لم يكن مبتكراً كما ذكرنا غير مرة ، ولكن لنُعلمَ نفراً يجهلون مدى اداب لغتنا ويكفرون بنوابغنا ، ان انفس ما خلدتهُ عبقرية القرائح من الصناعات البديعة ، وهو الالعوبة الالهية التي يفاخر بها ثمانون

مليوناً من البشر او يزيدون ، بل قل اروبا باسرها واضف اليها اميركا واليابان ولا تخف غلوّاً في هذا القول ، فحسبك ما قالوه يوم اليوبيل العظيم على مرور ستمائة سنة لوفاة مؤلفها دانتي ، واعترافهم بالاجماع انه ثالث شعرآء الدنيا منذ خلق الناس ـ خلا شعرآء العرب ، اذ لم نجد للامم الفرنجية الى اليوم مَن استطاع ان يقدر الشعر العربي حق قدره من جميع المستشرقين ، ولا مَن نظم بيتاً بالعربية ، فهم اذا تكلموا عن الشعر والشعرآء كان كلامهم عن اللغات اليونانية واللاتينية والسكسونية وسائر لغات اروبا ، وان هم قالوا عامة اللغات او عموم الامم ـ نقول ان اعترافهم بتلك العبقرية ، وتفاخرهم بالالعوبة الالهية يعود في الحقيقة الى المبدع المبتكر الحقيقي وهو ابو العلاء المعري صاحب رسالة الغفران واليك الدلائل والبرهانات الآتية :

٥

اولاً ـ ان كل من تقدم دانتي من كتاب الفرنجة وشعرآئها ، لم يروِ عن احدٍ من اولئك الابرار الذين نسبوا اليهم العروج الى السماء او الهبوط الى الجحيم ، انه هو نفسه عرج او هبط ، وهذا اقدمهم بولس الرسول يحكي عن السماء فقط ثم بعده يوحنا لا يتكلم عن سواها واما مَن جاء بعدهما ، فاما ان يحكي عن عروجه

على السماء كالقديس ساتوْ والقديس باربَتوُ والقديسة كاترينا وغيرهم ، او عن المطهر كالقديس باتريس ، او عن جهنم فقط كما رووا عن سواه ، ولم ينفرد عن كل هذه الجماعة الا راهب واحد يدعى البيريك ، ولدى تقصينا البحث عن موقع دير هذا الراهب ، علمنا انه مدينة كاسينو بايطاليا ، ووجدنا فيها دار كتب حوت اربعين الف كتاب بينهما خمسمائة كتاب مخطوط من اندر الكتب ومنها نسخة خطية من الالعوبة الالهية وفي هذه الدار صورة دانتى الاصلية ، فقد يكون الراهب المذكور البيريك ـ وكانت الرهبان في القرون المتوسطة خَزنَة العلوم ، وسدنة المنثور والمنظوم ـ او يكون دانتى نفسه ، او كلاهما طالع رسالة الغفران العربية اوالمترجمة بين تلك الكتب المخطوطة النادرة وهو ما لا يشك فيه الناقد .

ثانياً ـ ان جميع العارجين والهابطين ، قد احتذى متأخرهم على مثال المتقدم ، فكان مجمل كلامهم عن الفردوس لا يتعدى ما عاينوه في زعمهم من الاعاجيب ، ووصف لذاذات الارواح في ذلك النعيم ، وتفصيل انواع التعذيب وضروب الآلام التي يُجزى بها الاشرار في الجحيم ، على اختلاف في اللفظ وطرق الوصف والتعبير ، واتفاق في وحدة الصورة وان اختلفت الوان التصوير ، إذن دانتى لم يذهب الى محاكاة هولآء .

ثالثاً - ان هوميروس اشعر شعرآء اليونان، وفيرجيل اشعر الرومان، قد سلكا في اشعارهما على نقل الحوادث التاريخية ورواياتها، ولم نعثر على كثرة ما بين ايدينا من كتب الافرنج وغيرهم، على الطريقة التي جرى عليها المعري في رفع مخاطَبِهِ الى الفردوس العلوي، وارآءته من اعاليه مشهداً من الجحيم، وتنقيله صاحبه (وهو ابن القارح) في عَرَصات الجنان، ومكالمته مَن بها من الانس والجان، والقآئه على قدماء الشعرآء وغيرهم من الجن اسئلةً اجاب عنها بلسانهم، مفصحاً عن رأيه ومذهبه الى اغراض كثيرة في طي ذلك.

وكأن دانتي لفرط ما اعجبته، ولم يكن لديه صديق كابن القارح يثق به، رأى ان يكون هو نفسه ابن قارح عصره وهو الاشبه بما يرويه، ولكن لما لم يرَ اباعلائنا ولا هو ممن يلائمه اختار فيرجيل دليلاً وهادياً في تلك الهاويات المظلمات، والهابطات العاتمات، وكأني به اخذ كلام ابي العلاء على ظاهره، ففهم ان ذلك عروج تقوى وخشوع، وانّى له ان يتبطن ما ورآء ظاهر اللفظ من المغامز وهو ليس ابن اللغة المتمكن منها، او ان يجسر المترجم الى نقد ما هنالك او الاشارة اليه - ان كان قد زكن شيئاً منه - وهو في بحبوحة القرون المتوسطة وتحت ظل محاكم التفتيش؟

وقد ذكرنا قبل هذا ان دانتى كان صلباً في دينه ، شديداً في مذهبه ويقينه ، فلم يكن ليدور في خلده شكٌّ في جل ما قرأه او وصل اليه من اساطير الاولين ، بل من الخرافات التي كان يتناقلها معاصروه عن معجزات ينكرها اليوم عقلاء المتدينين ، وكان نقد شيء من ذلك بعيداً عنه بعد الارض من الجوزآء ، وان اقصى ما اوحاه اليه خاطره عند نظمه شمل الالعوبة - ان ينتزع الاحيآء من شقآئهم في هذه الدنيا ويقودهم الى السعادة الخالدة - كما روى هو عن نفسه ، ولكنه وان كان صافي السريرة بهذه الدعوى ، فقد كان يطمح ببصره الى المجد وان جعل وسيلته العلويات ، وفي نفسه من الحقد والعداوة وغيرها من خسائس الارضيات ، ما اتخذ لها الهبوط والعروج اسبابا ، ومهد للولوج فيها طرقاً وفتح ابوابا ، فطرح في جهنم من شآء من اعاديه وخصومه ، ثم من خالفه في مذهبه السياسي وارآئه في الدين ، وجعل اسم فيرجيل عوذةً له يدفع بها اعتراض المعارضين في طريقته الشعرية باللغة الطليانية بديل الرومانية ، ليوهم العامة من القرآء انه كان يوحى اليه بشعره هذا من فيرجيل فيُعظِّم اسمه وتذيع شهرته بتكراره يا أبتِ وجواب فيرجيل يا بُني ، وقد صرح في الاغنية الرابعة يعدّ نفسه سادس شعرآء الدنيا ، ومن ذلك تتحقق ان ليس « انتزاع الاحيآء

من شقاوتهم الخ . هو وحده غرضه من العوبته ومعراجه المزعوم بل للفخر ومباهاة شعرآء عصره قسط كبير ، ولعلهُ قد تنبأ عن نفسه اصدق النبؤة بهذه الدعوى فقط ، فان اكثر ارباب العلم في اروبا قد اجمعوا على انه ثالث شعرائهم كما ذكرنا ولعل ذلك كان في القرن الثامن عشر .

على انه لو لم يكن الى تلك الشهرة طموحه ، ولهذا العز الاقعس جنوحه ، ألم يكن الاجدر به ان يطلب من معشوقته بياتريس (وتعريبها الغبطة) اوكما دعاها في بعض شعره (الغبطة الالهية) ان تبعث اليه بملك من الفردوس يكون دليلهُ في تلك الظلمات الحالكات ، او بسادن من سدنة جهنمه عارف من فيها ، من اتخاذه فيرجيل دليلاً وهادياً ؟ ولعله كان يريح القارىء من تكرار لفظ انا لأبي وابي اليَّ يريد قلت لأبي وقال لي ابي واجابني ابي مرات عديدة في كل صفحة من الالعوبة ، وان قيل انه اراد بهذا التكرار ايضاح استعانته بروح فيرجيل ليوحي اليه ما نظمه ، فنجيب عن ذلك انه ان كان يرجو منه ان يوحي اليه بعلم العروض والقوافي ، فالشعر وجد عند الرومان قبل فيرجيل وهو يعلم ذلك وفيرجيل لم يكن واضع هذا العلم ، وان كان اراد ان فيرجيل كان يوحي اليه اللفظ والتركيب ، فهوكان ينظم بغير لغة فيرجيل ، بل

لو علم بها لانكرها عليه كما انكرها بعض مشاهير عصره ، وان كان يريد بفيرجيل سمو المعاني ، فليس في الهبوط الى جهنم ومشاهدة ما ذكره كبير معنى ، وقد الهب دماغه واتعب واسأمَ نقاديه وفيهم كاتب هذه السطور ، وذلك بما ابتدعه في جحيمه من التلال ، والاودية والجبال ، والحصون والاسوار ، والبحيرات والانهار ، والمهاوي والفلوات ، والمضايق والاعوجاجات ، والمخابىء والدهاليز والجسور ، والمنافذ والسوابيط والقبور ، واناس بثلاثة ارؤس على كل كتف رأس ، واناس بثلاثة افواه وكل فم كفم تمساح وظلمات مدلهمات لم يحلم بها حالم ولا يدركها اشدّ العميان عمىً ، وكان يتهاوى في زعمه فيها تارةً وطوراً يسير بطيئاً وحيناً يقف يحادث من يريد في النار من اهل النار ، وهم يتضرمون ويتوجعون ويدورون دورة الرحى بسرعة البرق تنهشهم الافاعي وتلذعهم الحرور الجهنمية او هم يتخبطون على جبال من نار ، او يسبحون في بحار من المآء المدلهم ، او هو بُخار النار ، ولكنها مياهٌ سود قاتمة ذات ريح خبيثة لا تحكيها في فسادها ريح من رياح الارض ، ومنهم من كانت تقذف بهم تلك الامواج الجهنمية على الدوام بين صعود وهبوط ، وهم ارواح لا تُنظَر ولا تلمس كالهوآء ، ومع ذلك فانه كان يشاهد ـ بزعمه ـ كل حركة من حركاتهم ، ويعاين جميع ملامحهم

حتى اظفارهم والقروح التي كانت منتشرةً فوق اجسادهم ووجوههم الهوائية ، وحكهم باظفارهم تلك القروح الى كثير من امثال هذا الوصف الذي تقشعر منه الجلود ، ولم يستك مثله في المسامع . ثم يحكي ركوبه مع ابيه فيرجيل متن فُلْكٍ اسود في بحيرةٍ مأوها اسود في دَركاتٍ مدلهمات وظلمات غامضات ، ويصف ميل الفلك بهما لثقل جسمه المادي وخفة فيرجيل وهو روح ، ثم يتنطس بذكر الخطوط المستقيمة والمنحرفة والزوايا والحنايا والاشكال البيضوية والمحدودبة والمتقوسة ونصف الزاوية والمربعات والمثلثات ودائرة البروج ، كانما هو يملي على ابناء مدرسةٍ كل ما وعاه من اقوال طاليس وفيثاغورس واقليدس ، ولم تفت بصرهُ الالوان المختلفة التي زعم مشاهدتها في جهنم في تلك المهاوي والمنحدرات ، تحت اقصى اسافل الطبقات ، في معترك عمى تلك الظلمات .

كل ذلك وهوَ هوَ بلحمهِ وعظمه وروحه ومادته وكامل ثيابه لم يُصب باذى النار ، وهو يتنقل ويتخطر في ذلك الاخدود الجهنمي ويتنسم تلك الارياح وذلك الأوار ، تصورات متناقضات وطوائف متضادات ، بل هو خلط منظوم ، او هذيان محموم .

رابعاً — ان اكثر تشبيهاته وتصوراته فقيرة محدودة لا تبعد كثيراً عن فيورنسا مسقط رأسه ، او ما حولها من القرى التي لا

تُعرف اسمآؤها اليوم الا من العوبته او عن رافين وهي المدينة التي قضى بها آخر حياته ، وان تجاوزت هذه النواحي فالى رومة وهي مقر العرش البابوي ، واغلب محادثاته مع اهل النار تدور حول حوادث ايامه السياسية في تلك الناحية الصغيرة من ايطاليا ، ولعلها اصبحت اليوم مما يبحث عنها المؤرخ الراغب في التنقيب عن الاحداث المحلية في هاتين المدينتين او ما يليهما في معاجم البلدان ، وانما ذكره ذلك كله في تلك الملحمة الطويلة وقد استحضر لمساعدته فيها روح فيرجيل اشعر شعرآء الرومان وخلطه فيها كثيرين من آلهة اليونان وابطالهم كان على نحو قولهم تمخض الجبل فولد فأرة ، فتراه اذا صور مضيقاً من مضايق جهنمه التي لا يُحدّ اتساعها ، او معبراً ، او جبلاً ، او غير ذلك ورام تشبيههُ بشيء من نوعه على وجه الارض ، فلا يذكر في الاكثر الا ما كان في بلدته او نواحيها ، كما تفعل العجوز التي تروم تلهية الاطفال بحكايات تقرب من اذهانهم فهمها فتقول : كان بيت السلطان في رأس الحارة وكان له بستان اكبر من جنينتي . ولعل جنينتها لا تزيد على بضعة اذرع ، وهذا يدلنا على ان غرض دانتي في كل بيت من العوبته كان الانتقام من خصومه في بلدته او نواحيها ، وكان جلّ قصده ان يقف اولئك الاعدآء على ما يقول فيهم ، وان يردد اصحابه ومن

يقول بقوله اللعن على مَن لعنَهُ ، وأنْ يُقال إنْ هذا الا وِحيٌ يوحى ، وانه اخذ كل فصاحة فيرجيل وحكمته ، وعلى الجملة لينتصروا لرأيهِ فقد كان مملوءاً انانيةً ، كثير التطلع الى المجد ، وهذا لا ينفي ما ثبت من تحمسهِ في دينه .

خامساً – انه جعل جهنمهُ في اسفل الطبقات الارضية حسبما كان يذهب عامة اهل عصره ، وان المطهر اعلى منها طبقاتٍ ، وان فردوسهُ فوق ارفع جبال الارض ، فلم يرتفع عن سمتهم برأيٍ سميّ او مذهب عليّ ، لاسيما وانه شاعر ، ثم قسم جهنم الى طبقات بحسب الآثام وهي عنده سبعة اوهي رؤوس الخطايا ولا نطيل بهذا ، ولكن لا بد لنا من توثيق مدّعانا عليه التشبه بانبياء اليهود ، وانزاله نفسه منزلتهم ، ببينة لا تدحض وذلك من اغنيتهِ التاسعة في الفردوس اذ يصور نفسه في محادثة مع الله ، وان روح الله حلّت بجملته وامتزجت بذاته فتنبأ عن طوفان دم يحدث ببلدة پادو(١) لعصيان اهلها واستنزل النقمة باسقفها – الجاحد – في زعمهِ وانها ستبكي طويلاً جنايتها الفظيعة الخ الخ . وكل ذلك لان الاسقف المذكور لم يكن من حزبهِ او حزب جماعته ، وانه اخبر عنهم او وشى بهم فهلكوا .

(١) Padoue

ابداً - لم يسبق لاحد ممن عرجوا - في زعمهم - على جهنم او على السماء ان رأى احداً من اصحابه او اعاديه ، او انه خاطبهم وخاطبوه وعاتبهم وعاتبوه ، الا ما صوره لنا المعري في تمنياته لابن القارح ، ثم مشى على اثارهِ داتى في العوبته فاحتذى عين مثاله ونسج على منواله .

على ان داتى وان كان قد تصرف في بعض المسروق تصرفاً بعيداً وفي بعضهِ الاخر لم يزد على ان قدم وأخر وابدل الاسماء ، فان الناقد المنصف يعترف معنا بصراحة السرقة ، اذ كل ما خلطه في العوبته من الاشارات الى علوم الهيئة والهندسة والتأريخ واللاهوت وايات من التوراة والانجيل والمعتقدات واساطير اليونان والعادات القومية والامثال العامية ، والاحزاب السياسية المحلية والضغائن القومية وغير ذلك مما تعرض له - في غير محله كما سنبينه بعد هذا - لم يكن ليستر سرقته هذه عن اعين الناقد البصير ولله در القائل

ثوبُ الرياءِ يشفُّ عما تحتهُ فاذا التحفتَ به فانك عارِ

فاول ما فعل انه عاكس ما فعله ابو العلاء فانه نزل الى جهنم اولاً ثم طلع الى المطهر ثم منه الى السماء ، وانت تعلم ان ابا العلاء طاف بابن القارح على الفردوس اولاً ثم على جنة العفاريت ثم المطهر

ثم جهنم كما مر بك .

ثم ان ابن القارح وقف في باب الجنة يستأذن رضوان في الدخول فطلب منه جوازاً ولما لم يكن بيده جواز رشاهُ بقصيدةٍ لم تفعل شيئاً في نفس رضوان . . ثم وقف عند الصراط واستشفع بالزهرآء فامرت احدى جواريها باجازته كما مرت بك القصة .

٦

اما دانتي فقد صب هذه الحكاية في القالب الاتي : قال في اغنيتهِ الاولى من جهنم انه سأل فيرجيل كيف كان حضوره اليه في الغابة المهلكة وفي ذلك المقام المخيف ، فاجابه فيرجيل ان بياتريس - وهو اسم معشوقته كما تعلم - قد استدعته من مقرهِ واستحلفتهُ ان يذهب وينجد محبوبها ويسعف ملتمسه ، وان شفقتها على محبوبها هي عذرها في التماسها هذا منه وانها وعدتهُ بالثناء عليه عند عودتها الى سيدها (ربها) الاغنية الثانية من جهنم .

وفي الاغنية الثالثة يقول : ولما وصلنا - هو وفيرجيل - الى ساحل ذلك البحر الجهنمي ظهر لنا شيخ معمم (عمه الشيب) على سفينة وصاح بنا الويل لكنّ ايتها الانفس الشريرة لا ترجينَ البتة في الرجوع الى رؤية السماء ها انا آتٍ لاحملكنّ الى الشط الاخر في منطقة الظلمات والى وسط النيران المضطرمة والجليد

الأبدي ، وانتَ ايها الانسان الحي مَن هم الذين اتوا بكَ الى هنا ؟ ابعد عن الاموات الخ. حينئذٍ قال له قائدي - اي فيرجل - ياكارون لا تدافع ، هكذا يريدون هناك حيث يقدرون على كل ما يريدون ، فلا تسل شيئاً فوق هذا .

أما هيَ قصة ابن القارح مع رضوان والزهرآء وجاريتها بعينها ؟ هذه حكاها ابو العلاء عنه في الفردوس، وداتي يرويها بلسان فيرجيل عما جرى لهما في جهنم والاسمآء مختلفة فقط ، وكما اجتمع ابن القارح في الفردوس مع جماعة من الشعرآء الزنادقة ، فان داتي يجتمع في جهنم مع اعاظم الشعرآء الوثنيين وهم هوميروس وهوراس واوْفيد ولوُكان او (لوكانس) ، ولـكن لم يجتمع بهم ليسألهم ان ينشدوه اشعارهم للتحقيق عما نقل عنهم في كتب الادب اوالتأريخ ، بل ليعترفوا له بالفخر الذي هو به جدير ، ويعدّوهُ سادسهم (وان كان لم يذكر اسم الخامس فهو لا شك يريد به فيرجيل) وانه مشى معهم حيناً نحو ذلك النور الساطع (في ظلمات جهنم) وانهم قد تحادثوا بما يحسن السكوت عنه في هذا الوقت... وقد وجدنا انفسنا قرب قصر منيف احيط بسبعة اسوار يجري تحته نهر سلسبيل غير عميق قطعناه بسهولةٍ ، ثم دخلنا الى ذلك القصر من سبعة ابواب - حكاية عدد السبعة - حتى وصلنا الى روضةٍ رصعها

نبت نضير رطب . . . ثم يجتمع بطوائف من فلاسفة اليونان والرومان يذكر اسمآءهم واسم الرئيس ابن سينا وابن رشد واسمآء بعض القياصرة وبينهم اسم صلاح الدين الايوبي . (الاغنية الرابعة من جهنم)

بيد ان هذا الاجتماع وان كان قد حصل في جهنم ، فقد كان في قصر فخم منيف تحف به رياضٌ وانهار . . . (ونترك الكلام الان على امثال هذا الخلط الى الخاتمة) .

وكما صوّر المعري تلاعن ابن القارح والشيطان ، وتناشد ابليس الزبانية ان يجذبوا ابن القارح الى اعماق جهنم وجوابهم له ليس لنا يا ابا زوبعة على اهل الجنة سبيل . . . فان دانتى يقول في الاغنية السابعة . . . وصاح بلوتسْ بصوتٍ اجشّ يا ابتِ ابليس يا ابتِ ابليس اجذبهُ ، ولكن قائدي الكريم قال لي لكي يعيد الشجاعة الى نفسي لا تخف شيئاً فانه مهما بلغ سلطانه لن يمنعك عن النزول الى هذه المنطقة ثم التفت نحو هذا الشيطان وصاح به اخرس يا ذئب اللعنة ، وانشق انت نفسك من غيظك فاننا لسنا ندخل دون غرض الى جهنم فانه هكذا يُراد هناك ، حيث ميخائيل جازى الكبريآء القبيحة الخ الخ .

وقد اورد مثل هذا في الاغنية الثانية والعشرين ولعلنا نلمح

اليها في الخاتمة وفي الاغنية الثامنة عشرة يذكر جسراً قديماً (في جهنم) وقف عليه مع مرشده ورأى عدداً عظيماً من اهل النار، يتبعهم الزبانية متسلحين باسواط لامعة وهم يجلدونهم بها جلداً متناهياً في القساوة والغضب وبينهم شيخ عظيم الهيكل لا يظهر عليه اثر للألم...

فكانهُ يعيد ما ذكره المعري عن بشار بن برد، بلفظ مختلف واسماء اعجمية. وفي الاغنية الرابعة والعشرين يذكر وصوله مع قائدهِ الى جسر ساقط متهدم وان قائدهُ رفعه الى قمة صخرةٍ وقال له تمسك بكل قواك بهذه البقية الباقية، ولكن تحققوا اولاً من متانتها الخ الخ.. وهي حكاية السراط في رسالة الغفران، ولكنها مسرودة هنا بصورةٍ فقيرة واسلوب غثيث.

في المطهر

يقول انه يجد عند باب المطهر شيخاً هو بواب المطهر يمنعه الدخول (قصة رضوان المعري) ويكرر فيرجيل حكايتهُ له عن امرأة نزلت من السماء وطلبت اليه ان يأخذ دانتى في ظل حمايته.. ثم يقول له البواب: ان كان ثمت امرأة سموية تحببك وتشجعك فلا حاجة بي الى مجاملتك ومديحك بل يكفيني ان تخاطبني باسم الامرأة التي ارسلتك.

وكأن دانتي اعاد قرآءة رسالة الغفران ووجد انه لم يشر في العوبته الى حكاية قصيدة ابن القارح في مدح رضوان (عند دخول دانتي مع فيرجيل الى جهنم ومخاطبتهما البواب هناك) فاستدرك ذكر ذلك وجعله مع بواب المطهر، وجوابهُ له: لا حاجة بي الى مجاملتك ومديحك الخ. أوَ لا يقول الناقد البصير عند هذا البرهان الناصع وامثاله مما تقدم لنا ذكره ما اشبه الليلة بالبارحة، وقد برح الخفآء بالحجة الواضحة؟

في الفردوس

في الاغنية الخامسة وقد انتقل الى الطبقة الثانية من طبقات الفردوس او السماء، «يرى نفسه مع بياتريس مع نسوةٍ حسان نورانيات يدُرنَ حوله وحول بياتريس راقصات يغنينَهُ حتى تكاد بياتريس تسكر معه من انوارهنّ وغنائهن» وكأنه يعيد بهذا المشهد عودة ابن القارح الى قصره في الجنة وقد حفت الحور بسريره الخ.

وفي الاغنية العاشرة وما بعدها تسأله بياتريس او روح اخرى - وتلك الارواح تظهر له دائماً بصور نسآءٍ حسان نورانيات - أتريد ان تعلم ما هي الازهار التي تزين هذه الهالة التي تراها حول الامرأة النورانية (بياتريس)؟ ثم تبدأ فتسمي له علمآء ورهباناً وقديسين وشهدآء باسمآئهم وتقول له ان هذا استحق

الفردوس بكتابهِ كذا وذاك برسالتهِ كذا والآخر بمؤلفه التأملات كذا كتوما الاكويني واوغسطينوس وكراتيانس ودومينيكوس وغيرهم كثيرين . . . وهو عين ما ذكر في رسالة الغفران باختلاف في الاسمآء عن شعرآء الجاهلية ، وفيما يأتي بعدها من الاغاني الفردوسية يذكر شجرةً تحيا بمائها وتثمر دائماً ولا يسقط ورقها ، اما اثمارها فارواح سعيدة كان لها شهرة على الارض قبل ان ترتفع الى السماء . . . والحقيقة انها هي شجرة ابن القارح في الجنة تنفض من الجوز عدداً لا يحصيه الا الله تنشق كل جوزة عن اربع جوارٍ يرقصن على ابيات الخليل . . . ويزعم انه يخاطب النسر في الفردوس والنسر يجاوبه ، كما هو الشأن مع ابن القارح في مخاطبتهِ الاسد وركوبهِ بعض دواب الجنة الى كثير من امثالهِ ، وآخر ما يسمعنا في فردوسهِ صورة ايمانهِ ، وهي ليست من الشعر في شيء ، ولا من عجائب السماء ، ولا من الحوادث النادرة ، بل لعلهُ نظر فيما ذكر عما رأى في الفردوس ، وخاف عاقبة سرقاتهِ من رسالة الغفران اذ ليس في معتقد النصارى من اهل ملته شيء مما ذكره عن الاشجار والحيوانات والحور والرقص الخ . وكان شديد التمسك بدينهِ كما ذكرنا غير مرة ، فرأى ان يختم اغانيه بصورة ايمانه ، كأن لسان حالهِ يقول : هذا معتقدي لا سواه مما هرفت به .

خاتمة

فاذا نظر الناقد البصير بعين لا تطرفها اذيال العصبية، وروح تجردت من درن الشعوبية، فيما بسطناه في هذه الموازنة من البراهين واجملناه من الادلة الناصعة، قضى معنا قضآء لا مردود له، ان الالعوبة الالهية هي بنت رسالة الغفران، لا يسترها ما القاهُ دانتى عليها من جلاليب الظلمات، وما لحفها بهِ من السحب الكثاف المدلهمات، ولا يواريها عن الاعين البصيرة النقادة كثرة المنخفضات والمنعرجات، ولا الاقواس الهندسية والاشارات الفلكية ولا ما ادمجهُ فيها من كثرة الاسمآء الاعجمية والآلهة اليونانية ولا تبديل العنوان ولا الحلة الشعرية ولله در القائل

مَن رامَ طمسَ الشمسِ عمداً اخطا

ألشمسُ بالتطيينِ لا تُغطَّى

وكان الاجدر به لو انصف ان يسمي ابا العلاء قائدهُ ومرشده لا فيرجيل فهذا لا يد له في هذه الحكاية، وان قيل أنَّ ابا العلاء كان غريباً عنهُ في اللغة والدين، قلنا ان فيرجيل لم يكن فيهما اقرب اليه، ولكن أنّى له ان يشير الى اسم المعري وفي ذكرهِ اسرع تنبيه الى فضيحة الالعوبة، وهي التي كان يرى في نشرها اعلاء شأنه وخلود اسمه، على انه ان كان قد فاته المجد في حياته، فقد نال خلود الاسم

كما توقع بعد وفاته ، ثم ان شهرة فيرجيل وهو ابن امته كانت كما هو معلوم قد طبقت الخافقين ، فرأى ان يستظل باسمهِ وفي ذلك غاية الشرف له وابعد مجال التضليل في اصل الالعوبة ، ومع هذا فلعل داتني كان اكثر انصافاً من كثير من علمآء عصره وقد كانوا ينسبون الى انفسهم كثيراً من كتب علومنا التي ترجمت الى لغتهم اللاتينية كما مرّ قبل هذا .

بقي ان نشير في هذه الخاتمة الى ما يعرض للناقد من الدهشة والحيرة بل من الدُوار عقب مطالعة الالعوبة الالهية والتبصر فيما اشتملت عليه من شتى الاغراض ، وتباعد مناحيها عن الموضوع الذي قصد له المؤلف ، حتى بات كل واحد من هذه الاغراض غريباً في مكانه بعيداً عن بيئته ، وحتى باتت الالعوبة الالهية جديرة بان تسمى كناشية حكايات بيتية ، واخبار بلدية ، او مجموعة من شتى الحوادث ، او كشكولاً حوى معجماً صغيراً من الاسماء المشهورة والمجهولة ، ومن مبادىء بعض العلوم ، فمنازعات قومية ، وارآء سياسية وفلسفية وشرعية ودينية وتأريخية وعلمية وشعرية ولغوية وشيء من علمي النبات والحيوان ومن عجائب المخلوقات بل اوهام وتخيلات وحماسة ، وكله متداخل بعضه في بعض بنظم شعري .

وقد زعم بعض فطيري الرأي انها لم تنل ما نالتهُ من الشهرة البعيدة، ولم يُعدّ مؤلفها ثالث شعرآء الدنيا، الا لما نعدّهُ هنا عيباً، ونحن نقول في الجواب على هذا ان الموازنة تتقاضانا ان نشفع الاعتراض عند ردّه بالبرهان وصواب الانتقاد بالحجة المنطقية واليك البيان.

٧

من المعلوم ان الشعر ليس هو الفاظٌ مجموعة، تُركَّب على اوزان موضوعة، وقواف مصنوعة وكفى، بل هو صناعة كصناعة الاوتار والالحان، لا تنال حظها في الاذان، ما لم تستكمل شروطها من حسن التدرج والتنقل في الابراج بحيث لا يقع بينها تنافر او تناكر، وان يكون النقر على الاوتار او النفخ في المزمار نِسبياً اي موقّعاً ومقطعاً توقيعاً وتقطيعاً يناسبان المقام فليست موسيقى الحرب واثارة الشجاعة في النفوس، كموسيقى الصفو والهنآء بين خلانٍ عكفوا على الراح، وتبادلوا عتيقها بالطاسات والاقداح، في روضة قد فُتّحت ازهارها وترقرق مآء سواقيها وراقت انهارها، كما ان حسن الصوت وحده لا تستلذه الاسماع ما لم يصحبه احسان الصناعة في التلحين، وهذا لا يستجمع شروط الجودة ما لم يستكمل حسن اللفظ وفصاحة الالقآء واختيار الشعر العالي والمعنى البليغ

الذي يناسب مقام الغنآء ومقامات السامعين ، وبعد ذلك كله فاذا تمَّ هذا جميعهُ لمغنٍ، الا أنهُ خلط النهاوند بالسيكاه ، والعراق بالدوكاه ، والحجاز بالعجم ، والنوى بالصبا ، لاستنكرت الاذان اغانيه ولو سُمي ابرهيم ، او اسحق النديم .

فاذا كان هذا هو الشأن في فن الموسيقى او الغنآء وركنهما حسن الصوت ومناسبة الايقاع ، فما القول في الشعر وركنه الاول جمال التخيل والمناسبة في التركيب .

ومما تقدم ايضاحه ومما سيأتي يظهر بديهةً ان الخلط في الالعوبة الالهية ، هو عيب من الخش عيوبها ولا يعدّه حسنة الا من قصر باعهُ في فنون الشعر ، وقل بصره في فن النقد .

واذا تقرر ان جمال التخيل اعظم اركان الشعر ، وان اعذب التخييل ما اجتمع فيه الحسن بانواعه مما تتعشقهُ النواظر والمسامع اذ كان بذلك سرور النفس وملاذّها او تسلّيها وعزآؤها ، فايّ سرور لها في ذكر الوحوش والاحناش ووصف اشكالها القبيحة وشراسة افتراسها ونهشها الاجساد البشرية على ضروب لم تمرّ في خاطر عاقل ؟ وايّ لذةٍ او تسلية في وصف النيران والسموم ولواذع الجليد ونتن الرياح الهوج وتصوير اناس قُطع نصف جسمهم طولاً وباتت امعاؤهم وقلوبهم واكبادهم تسيل منها الدمآء

ـ وهم في النيران ـ وسواهم قد كُسيت اجسادهم ثياباً من القروح يكشطونها باظفار نارية ليلا نهاراً ؟ الخ الخ .

لعمري ان هذا الباب من ابواب الشعر لم يخطر في مخيلة شاعر عربي ولا احسبهُ يدخل في ابواب الشعر الاعجمية ، وحسبنا برهاناً على ذلك ان الالياذة المنسوبة الى هوميروس وهو المعدود باجماعهم شيخ شعرآء الدنيا لم تُعدّ في الطبقة الاولى من الشعر عندهم ، الا لما اشتملت عليه من وصف الوقائع الحربية وآلاتها ومآثر السلف واخبارهم في سلمهم وحروبهم وما يتداخل ذلك من مصارع الغرام ولوعات الفراق ولذائذ اللقآء واكرام الضيف الى غير ذلك من الحالات المألوفة في المجتمع الانساني ولاسيما حقائق احوال الامة اليونانية وما جاورها من الامم في تلك القرون الخالية ، وقل مثل ذلك في شعر فيرجيل وكله شعور لطيف متناهٍ في الرقة قد بلغ غاية التمام من الاحسان حتى لتكاد تشربهُ الاذان ولا تملّ من تكرار قرآءته النفوس .

فاذا عُلم هذا تفرع عنه الترتيب والتبويب فانهما شرطان اساسيان من شروط التأليف وحسن الانشآء ، لا في النثر فقط بل في الشعر ايضاً كما اشرنا الى ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب ولذلك عدّوا ملحمة هوميروس في رأس الشعر عندهم لانها

اشتملت على عموم حادثة تاريخية سرد فيها بترتيب واتقان كل ما يتعلق بتلك الحادثة ، وهي في صناعة الشعر من باب الشعر القصصي تنتقل فيها من واقعة الى واقعة ومن بلد الى بلد فتشهد الحوادث مصورةً باللفظ وليس فيها للشاعر غير الرواية ، اي سبك الجمل واعتبار الالفاظ واجادة النظم وانسجامه اي خلوّه من الغموض والتعقيد ، وتصوير المعاني في قوالب من اللفظ بحيث تتمثل اشخاص القصة للعيان ، وتحل ارواحهم في ذلك البيان ، وتُسيغ النظم في ذهن القاري ، سوغ الماء الزلال في فم الظمآن .

وقل مثل ذلك في شعر فيرجيل فانه لا يتباعد عن موضوعه الا بمقدار ما يلجئه التشبيه او الوصف بحيث لا يتيه ذهن المطالع في صحارى الاشارات والالغاز او يغرق في بحار من قواعد العلوم المختلفة والمسائل المتباينة . كتسمية آله النصارى جوبيتر آله اليونانيين كما فعل دانتى فيضل القارىء والسامع الغرض الاصلي وهو موضوع القصة .

ومن العيوب التي عدّها نقادو الافرنج على الشعر العربي ، ان الشاعر الجاهلي هو بطل روايته فلا يكاد يخرج عن نفسه ، وهو في ذلك على نقيض مما ذكرناه من حسنات ملحمة هوميروس ، ولعلهم في ذلك على هدىً ، فما بالهم تغاضوا عن عدّ هذا العيب

الواضح في العوبة دانتي عليه ؟ فانه جعل نفسه بطل روايته الطويلة المملة واكثر فيها من مدح ذاته والمفاخرة بنظمها ، وهو مما عبناه نحن على شاعرنا المتنبي وقد كان يفاخر مزاحميه عند سيف الدولة ملك حلب من شعرآء عصره ولعل له عذراً في ذلك ، وهو انه كان يحرص على تلك المنزلة الرفيعة وعلى ما كان يناله من صلات الملك المتناهية في الجود ، وعلى اعجاب الملك بشعرهِ وهو من نقدة الشعر ومن اكابر الشعرآء ، ولم يكن دانتي في مثل تلك الحال ولا ما يشبهها عند مباهاتهِ في مواضع كثيرة من الالعوبة .

وقال المتنبي مفاخراً

ما نالَ اهلُ الجاهليةِ كُلُّهمْ شعري ولا سَمِعتْ بسحري بابلُ

وهو في شعرهِ هذا ينطق بلغتهم وقد جاء بالرشيق الفصيح من اللفظ والسهل الممتنع في الغزل والنسيب والمدح والوصف والقصة والحكمة والفخر بما لم يأتِ بمثله شاعر قبله ، اما دانتي فقد جاء بالالعوبة الالهية التي فاخر بها وعدها معجزة المعجزات ، وهي اول ما يُنعى عليها انها لم تكن باللغة اللاتينية الفصحى لغة مَن تقدمه بل كانت يومئذٍ لغةً عامية لغة الاغاني وفيها من العيوب ما نحن في نقده وتعداده ، وما يُفرَض على الناقد المنصف ان لا يغضي عليه ، ولسنا نرى وجهاً لتسامح الشرّاح والنقّادين الافرنج

في تعييبه بما يُعاب عليه سواه .

ومن عيوب الانشآء الفاضحة تكرار الالفاظ والمعاني وقد اجمع على ذلك علمآء الفصاحة والبيان في اللغات الافرنجية كعلمآء اللغة العربية وتشددوا في ذلك على الشعرآء فوق تشددهم على الكتاب لما هو مطلوب في صناعة الشعر من البلاغة والجزالة ولاستقلال بيت الشعر بالمعنى وان تجاوز فالى بيتين والعرب بمحاسن الشعر ابصر الامم بلا مدافع .

فالتكرار في العوبة دانتى مما يبلي بالسأم وهو غير مقصور على الالفاظ ، بل المعنى هو هو في كل اغنية من الاربع والثلاثين اغنية من اغانيه في جهنم ، ومثل ذلك في المطهر والسماء ، لا يختلف الا بوصف السرداب او الدرج او القوس المنحنية او المضّلعة ، او الوحش الناري الغريب الصورة ، او الشيطان ذي الرؤوس او الافواه المتعددة ، او اسم رجل مجهول كان من جيرانه او بعض معارفه ، وكم من ذلك ؟ او حادثة مكانية تافهة ، او قال لي ابي ، وقلت لأبي وابي لي وانا لابي الى غير ذلك من الحقير المُبرِم المُضجِر .

ومن عيوبها الواضحة انها لم تتجرد عن السفليات ، ولم يظهر لنا صاحبها في مظهر من الاخلاص ، وانما هي مشبعة انانيةً ، فالخائن فيها مَن لا يرى رأي دانتى ، او من خالف مذهبهُ ، وعدو

الوطن من قومه ِ من لم يكن من حزبه ، وعدو الدين من لم يقل بقوله السياسي ولو كان اسقفاً بل البابا نفسه ، وساقطو المرؤة اولئك الذين لم يعاونوه على نيل مطامعه ، بل يتجاوز الى الطعن على امة ٍ باجمعها وشتمها ، لان ملكها لم يسعف مطلب اميره ِ او حزبه ، كما شتم الامة الفرنسوية في غير موضع من العوبته ، وهو لا يأبى اغرآء ملك ٍ غريب باكتساح بلاده وانزال اشد العقوبات باهل وطنه .

ومن عيوبها الاثيمة ذهاب صاحبها الى ابعد ما يتصوره الفكر الانساني من الحقد والضغن وحب الانتقام ، فانه لم يكتف ِ باغرآء امبراطور المانيا باكتساح بلاده وصب البلاء على اهل وطنه بل تتبّعهم الى جهنم ، ولم يروِ غليله ُ احتراقهم بتلك النيران التي وصفها وبما كانوا يقاسونه من نهش الافاعي وضرب المقامع النارية على ما وصفها مما ترتعد من ذكره فرائص اعظم الشجعان ، بل كان يتلذذ بمشاهدتهم كما يقول ـ او تصور مشاهدتهم ـ في تلك العذابات ويقول لأبالستهم زيدوهم حرقاً وتعذيباً ، بل يخاطبهم قائلاً ذوقوا لذائذ هذه الجحيم فانكم فيها خالدون .

ومن اشد عمى تعصبه انه يقذف في جهنمه ِ بكل من يمرّ في باله او تحت رأس قلمه ، من مخالفيه في الرأي او في الدين كما ذكرنا

حتى انه يقذف بنبيٍ دعا الوثنيين وهداهم الى عبادة آله داتى نفسه وليست دعواه بالنبؤة دون دعاوي سواه من الانبيآء الوافري العدد .

بقي القول ان داتى اراد ان يحول رسالة الغفران ، من رسالة دعاء كما فهمها من ظاهر لفظها العربي ، او من ترجمتها اللاتينية ، الى افكوهةٍ شعرية ، او العوبةٍ تمثيلية ولذلك دعاها بالالعوبة .

غير ان تسميتها بالالعوبة Comedia لا يعني انه وضعها كما وضع بعده شكسبير وموليير وراصين وغيرهم العوباتهم للتشخيص في دور التمثيل والملاعب ، لان مراده منها ينافي هذا الغرضِ كل المنافاة لاسبابٍ ، منها انها مما لا يمكن تمثيلها في ليلة واحدة بل ولاِ ليلتين ، وطريقة التشخيص المتتابع ليست مألوفة في اروبا الى اليوم ، ومنها وهو الاهم ان كل ما صورهُ في جهنمهِ ومطهرهِ ـ وهو الجزء الاعظم من الالعوبة ـ صورهُ وصفاً في ظلماتٍ مدلهمات ورياح منتنة ومياهٍ نارية سود ، وذلك كله مما يستحيل مشاهدته او تصويره بغير اللفظ ولا يمكن احتمال شمه في مكان .

ومنها وهو من اهم ما يستدعي انتباه الناقد ان داتى لم يكن ليرضى بتمثيل الفردوس وارواح القديسين والقديسات والملائكة بل الله جل جلاله ، على مسرح في ملعب وقد ذكرنا غير مرة فرط تحمسه الديني .

٨

اما تسميتهُ اياها بالالعوبة Comedia فهو مأخوذ من الاشتقاق الاصلي اللاتيني لهذا اللفظ ، ومعناهُ أغنية او اغانٍ باليونانية ، ولعلهم اشتقوا من هذا اللفظ ايضاً لفظ Comique اي مضحك او مضحكات وهذا مشتق من الاصل اليوناني Comus وهو اسم آله الولائم عند اليونان .

ومن هذا الاشتقاق الاصلي يتضح لنا ان غرض دانتى لم يكن نظم العوبةٍ للتفكه او التشخيص بل أغنيات يُتغنى بها في البيوت او الكنائس ايام الآحاد والاعياد على مثال تغنيهم بمزامير داؤد ، وان يُبَجَّل اسم ناظمها ويُعدّ في جماعة القديسين ، لانهُ عرج قبل موته - في دعواه - على جهنم والمطهر والفردوس وخاطب الله ، بل حلّت فيه روح الله القدوس .

ومن اظهر عيوبها بُعدها عن المعقولات اي مخالفتها المنطق ، ولا ينفي ذلك ما قدمناه من ان اعظم اركان الشعر هو التخيل لاننا اذا جردنا التخيل من المعقول لا يبقى ثَمّتْ تخيل ولا شيء يُسمى بشيء ، مثال ذلك ان يتخيل الشاعر فيقول ان جسم محبوبته - او الحسناء التي يصفها - شفّاف تركّب من عنصر الهوآء ، وحاز اشكالاً تعجز عن وصفها السن الشعرآء ، لا يخرج عن المعقول بجملته

وان خرج ببعضها ، اذ اول ما يتبادر الى ذهن السامع من هذا الوصف ، ان جسم هذه الحسناء بضّ لطيف ذو بشَرةٍ تحاكي الشمع الشفّاف او اللؤلؤ المكنون ، وان اعطافها قد لانَت حتى كادت تكون من الاوهام والظنون ، وان محاسن قَسَماتها مما كان شاهدهُ مرةً في بعض الصوَر ، او عاين مثله في بعض الدُمى من العاج او المرمر ، وان الناظر الى جملة محاسنها ينادي حاشا لله ما هذا بشَر ، وينصرف الفكر عن قوله « تركب من عنصر الهوآء » لان القارىء او السامع يستطيع ان يتصور حال سمعهِ هذا الوصف صورةً وجسماً ، وبعكس هذا ما في الالعوبة ، فان كل ما فيها من التخييل يفرّ من المعقول ، اذ ان صاحبها اول ما يصور لنا حكايته يصورها في ظلمة مدلهمّة ومن اين لنا ان نعاين المنظورات في تلك الظلمات ؟ بل أنّى لنا ان نشاهد الموهومات ؟ كقولهِ بحيراتٌ ذوات مياه نارية ، او نيران مائية قاتمة ، ثم يصف لنا اناساً عرفهم وعرفوه واخرين ممن سمعنا باسمآئهم في التواريخ المتغلغلة في القدم ، ولكنه يقول عاينهم ارواحاً لا اجسام لهم وذلك كله في تلك الظلمات الحالكات ، وانت لم تبصر حياتك كلها روحاً في نورٍ او ظلمةٍ ، بل ان الروح التي يُقال لك منذ صغرك انها فيك ، لا تُنظر ولا تُكيّف ولا تُحدَّد ولا تُعرف ، وانما هي لفظ موضوع يُردَّد ولا

يُدرَك ، ثم انه كان يجول في تلك النيران الجهنمية بلحمهِ وعظامهِ وثيابهِ بل يزعم انه كان يقف مخاطباً فلاناً ثم يسير لمحادثة ذاك كانهُ في رائعة النهار في شارع من شوارع بلدته ، ولا نطيل بهذا فالالعوبة كلها على هذا النحو .

واذا نظرنا الى ما بين المعري وداتي في التخييل ، نجد في تخيّل المعري شيئاً من شبه الامكان وآخراً من شبه المعقول ، واما في تخيل داتي او تخييله لنا ما لا نستطيع له تصويراً ولا تخييلاً ، مع انه يكتب منظوماً ولكننا نشعر انه يموّه اكاذيب يلفقها وغرائب ينمّقها ، تنظمها قريحته ويصورها قلمه ليظهر براعة اختراع الموهومات .

وإن قلت ان كليهما يصف او يلفق اوهاماً وخيالات ، قلنا ان من شروط التصنيف ان لا يكون بعيداً عن المعقول كل البعد اي ممتنع الادراك كقولنا زيدٌ حديد البصر شديد العمى ، او انه كان يلتهب جسمه احتراقاً في المآء البارد ، او انه كان يفر من بردهِ في اتون النار ، وهذا او نحوه عين ما ورد في اغلب الالعوبة .

نعم قد جآء في كلام ابي العلاء شيء مما يخالف المعقول كقوله تنشق كل جوزةٍ عن اربع جوار . . . ـ اشارة الى اربع اقسام الجوزة ـ وامثال هذا ، الا انه في ذكرهِ ذلك يردد ما كان شائعاً

او عقيدةً بين بعض معاصريه ، لا أنه يعتقده ويقرره كقاعدةٍ علمية او مسئلة حسابية ، بل بالعكس من ذلك ، فان في معاريض كلامه بل في كل صفحة من رسالته ما يُشعر باستبعاده امكان ما يشير اليه من الغرائب ، بل في كثير من جمله ما لا يترك لدى القارىء البصير سبيلاً للريب في هزله ومازحته .

واين داتي منه ، فان اللغات التي رشق بها خصومه واعدآءه ، حتى بعض الاساقفة بل البابوات ، لم تكن عقيدةً من عقائد امته او عصره ، وان ما عقده في جهنم من الجسور والقناطر مما تنطس بذكره مع الزوايا والمربعات الهندسية في القصور ذوات الابواب السبعة ، لم يكن من معتقدات اهل عصره الى كثير من مثله ، وانه طوّف بجهنم ذلك التطواف وعرّج على الفردوس ذلك التعريج ، ورأى ما ذكره وفصّله لم يكن الا دعوى منه ، بل زعمه ان روح الله حلّت فيه ، كل ذلك يصفه وصفاً دقيقاً ويذكره لا كمتهكمٍ او كمستبعد امكان ذلك ، بل كواصف يروي حقائق لا يخامرها مزحٌ او شك .

وهب ان بعضها او اكثرها من معتقدات اهل عصره - مما نكرر انكاره - فهو يرويها على علاّتها ، متيقناً كل اليقين منها ويزيدها من عنده تفاصيل واختراعات كما تقدم البيان .

وقد سبق لنا بيان شيء مما ذكرناه للدلالة على مخالفته للتخييل الشعري وافضنا هنا في ذكر ما تقدم للبرهان على مخالفته للمعقول ، واليك مقابلة تظهر البون الشاسع بين لطف تصور الاعمى وذكائهِ وبعد مداركهِ ، وبين خشونة تصور البصير ونظره المحدود الضيق مع مخالفته للمنطق السليم .

صوّر ابو العلاء جهنم صورةً لا تتجاوز معقول السامعين ، فجعل ابن القارح ينظر من علٍ الى اسفل جهنم عند تلاعنهِ وابليس كما مر بك وقول الزبانية لابليس حينما امرهم بجذب ابن القارح « لا سبيل الى ذلك يا ابا زوبعة » اي لا نستطيع الصعود الى مقام ابن القارح لانه المقام الاعلى مقام الصالحين في الفردوس ، وهو جوابٌ مقبول معقول عند من يتصور ان جهنم هي في وادٍ او هوّةٍ متناهية في العمق ، وان الجنة فوق ارفع ما تصل اليه الابصار من الافق ، وهو تصور الجمهور .

ثم انه لما صور ابن القارح يتنادم في الجنة مع جماعة من الشعرآء قال بعد وصفهِ خمور الجنة وذكره الانية الذهبية . . وتَهِشُّ نفوسهم لِلَعِبِ فيقذفون تلك الانية في انهار الرحيق . . . ثم انه لما ذكر عربدة النابغة والاعشى قال وَيَثِبُ نابغة بني جعدةَ على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب فيقول ـ الضمير لابن القارح ـ اصلح الله

به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السَفِلة والهِجاج وانك يا ابا ليلى لَمُتترّع .

فاذا نظر الناقد البصير في لطافة هذا الوصف يراه لا يخرج في شيء عن المشهور والمفهوم عند عامة الخلق فضلاً عن خاصتهم فانه لم يجعل شراب اهل الفردوس شراباً موهوماً ، بل خمراً سائلا ورحيقاً مشموماً ، وجعله انهاراً لشغف العرب به ، واجراها في الجنة امام المتنادمين ، وذكر الطاسات والاكواز والاباريق وهي مألوفة عند العرب ولاسيما عند وصف الشراب وصوّرها من الذهب وذلك لا يخرج عن المألوف عند الامرآء والاكابر في الدار العاجلة فلا بدع ان تكون في الجنة كذلك او ابهى واغلى ، ولما ختم الوصف بعربدة النابغة على الشراب كعادته المشهورة في حياته قال فضربهُ بكوز من ذهب .. وكل ذلك معقول يشربهُ الذهن دون تكلف او اجهاد .

اما دانتى فانه لما اغار على هذا الوصف وسرق معانيه ، عمد اول شيء الى التخليط لاخفآء مواضع المسروق ومنابعهِ ، واقصآء نظر الناقد عن مطالعهِ ومشارعهِ ، فصور لعبة بين اناس من اهل لومبارديا وتوسكانا على بحيرةٍ نارية وبينهم مَن يمسك بساعدي احد الشياطين ، ليوقفهُ عن جلد رفيقهِ ثم يهرب من وجوه

الابالسة فيلحقونه ثم يعترضهم آخر ليحول بينهم وبين رفيقه الهارب الى آخر هذه القصة الغثيثة . (من الاغنية الثانية والعشرين)

أيكون في جهنم لعب بين المغضوب عليهم والشياطين ؟ وتكون هناك بحيرة نارية مظلمة ويلعب حولها اهل النار ؟ - وهي تلك الارواح التي تُرى ولا تُرى - واين اللعب من اناس يحترقون ويُعَذَّبون على النحو الشنيع الفظيع الذي يصفه لنا هو نفسه ؟ وكيف يقوى المعذّب المحترق الضعيف المنهوك ، على قوة الشيطان الرجيم سلطان الجحيم فيمسك بساعديه ؟ وكيف يهرب من وجهه والى اين ؟ .

ان في الالعوبة كثيراً من امثال هذه الحكاية التافهة ، مما يخالف المعقول والمفهوم ، فان قيل انها وضعت شعراً لانها للخاصة من الناس ، قلنا كيف تكون للخاصة وهي مما لا يسلك في عقول صغار الاولاد ، وان قيل انها للعامة على ما كان شائعاً بينهم يومئذ ، قلنا انه لم يشع في عصر من عصور الجهل المظلمة امثال هذه الخرافات التي اطال واشبع فيها التدقيق والتفصيل ، وهي كما علمت من الشعر الذي انحنت لديه رؤوس شعراء الامم الفرنجية لما اشتمل عليه من الفصاحة والتنميق ، ومثل هذا لا يكون نظمه للعامة ، على انه اذا تجرد من الفصاحة الشعرية وحسن السبك ، وبعبارة اجلى اذا

حللناهُ الى كلام منثور وجدناه غير معقول وغير مفهوم ، وانما هو خلط موسوس او هذيان محموم .

وان قيل كيف تجتمع البلاغة الشعرية وبراعة الوصف اللتين ملك بهما دانتي ثالث عرش لملوك الشعر عند الامم الفرنجية مع ما اوضحناه هنا من عيوب الالعوبة ؟ نجيب عن ذلك بمثال بل ببرهان يدفع عنا تهمة التعصب لفيلسوف شعرائنا بالحط من منزلة دانتي العالمية فما علوُّ قدره بمنزل ابي العلاء عن مرتبته السامية عند عارفيه، ولا شمس المعري كاسفة انوار دانتي عند اقوامهِ ومريديه ، ومعاذ الله ان نقف غير وقوف الانصاف في الموازنة والنقد ، او ان تكون خدمتنا العلمية غير الحقيقة ورائدنا غير الاخلاص في القصد .

ودونك برهان البلاغة الشعرية وبراعة السبك مع فقدان سواها من المزايا قال الشاعر

وجاوزوا ارسناساً معصمينَ بهِ ... قبل المجوسِ الى ذا اليومِ تضطرمُ

نتاجُ رأيكَ في وقتٍ على عجلٍ ... قد أُفسدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَمَمُ

دُهمٌ فوارسها كُتّابُ ابطِنها ... وسمهريتهُ في وجههِ عَلَمُ

عبرتَ تقدمُهمْ فيهِ وفي بلدٍ ... انَّ الكرامَ باسخاهم يداً خُتِموا

او كقولهِ

والماءُ بينَ عجاجتينِ مخلّصٌ ... عُقْمَ البطونِ حوالكَ الالوان

بحرٌ تعوّدَ ان يَذُمَّ لاهلِهِ   تتفرقانِ بهِ وتلتقيانِ
وحشاهُ عاديةٌ بغيرِ قوادمٍ   تحتَ الحسانِ مرابضُ الغزلانِ
تأتي بما سَبَت الخيولُ كأنها   من دهرِهِ وطوارقِ الحدَثانِ

فهذا الشعر هو من اعلى طبقات النظم، والوصف فيه معجز المباراة، غير انه تنقصه حلقات الاتصال لتأتلف مبانيه وتظهر معانيه، ولكننا اذا حللناه الان الى نثرٍ بدا لنا خلط موسوس او هذيان محموم لما فيه من التخليط.

وعندنا ان دانتي عند نظمه الالعوبة كان قد اعتراه الوسواس اي الصرع، لما توالى عليه من مصائب الدهر واولها خذلان حزبهِ ثم ضيعةُ مطامعهِ ثم خيبة اماله ثم نفيهِ من بلدته والحكم عليه آخر الامر بالقتل، كما تقدم البيان، فخرج من وطنه طريداً شريداً لا يملك فلساً فلا عجب بعد كل هذا الهوان، اذا ما أبتلي بدآء الصرع او الوسواس ولاسيما اذا كان في غريزتهِ لذلك شيء من الاستعداد.

واذا صح ما نزعمه - ولا نراه الا صحيحاً - زال الاشكال في وقوع الخلط الكثير الذي رأيناه في الالعوبة ولاسيما عند الجمل الكثيرة التي لا يُستخرج لها معنى، ثم عند التبصر في اللعنات التي صبها على الاساقفة والباباوات، واقرارهم في جهنم مع ما كان عليه

من الصلابة في دينه ، ثم في استدعائهِ ملكاً غريباً لأكتساح بلاده معما ذكرنا من شدة وطنيته ، ثم فيما يرويه عن مشهوداته في جهنم والمطهر والفردوس ، روايةً صادرةً عن يقينٍ تام برؤية ذلك كله رأيَ العين ، واخيراً تصريحه بان روح الله حلّت فيه .

على ان الظلمات التي ردّد ذكرها كثيراً في الالعوبة ليست الا نتيجةً طبيعية للسوداء التي كانت تصاحبه ، فضلاً عن فعل تيّار عصرهِ المظلم وقد مرَّ بك فعل التيار الجارف باعظم الناس حصافةً ، وما داتي باول موسوس نظم فاعجب سامعيه ، فان الروايات عن موسوسي الشعراء عند العرب كثيرة واشهرهم الموسوس الذي يقول :

حجبوها عنِ الرياحِ لاني ... قلتُ يا ريحُ بلّغيها السلاما
لو رضوا بالحجابِ هانَ ولكنْ ... منعوها لكيدِهمْ أنْ تناما

ثم الملقب بالمجنون مجنون ليلى ، وممن يُقال انه بُلي بالصرع او الوسواس الشيخ عمر الفارضي وقالوا دخل عليه احد اصحابهِ فرآه يدور حول بركة الجامع ويقول وهو يصفق بيديه

ستّي متّي من حقّا ... إي والله حقّاً حقا

وفي بعض ابيات التائية الكبرى من الخلط ما يرجّح هذه الرواية ، ولا نطيل في تعداد الموسوسين او المصابين بالصرع من الشعراء والكتّاب والعلماء فهم عند جميع الامم ، وحسبك ان بسكال

وهو احد افراد الدنيا ذكاءً وعلماً ، قد اعتراه الوسواس كما اثبت ذلك غير واحدٍ من مترجميه ، بل زعم بعض المحققين الناقدين ان بعض الانبياء كان يعتريهم الصرع او الوسواس ، ويسمى الموسوسون بالفرنسوية Les hallucinés .

ومن اعجب العجب ما يبدو للمطالع البصير بل مما يحار له الناقد اذ يرى اكثر الذين قلّبوا الطرف في الالعوبة الالهية من الشرّاح والعلماء والنقاد الالباء ، اجمعوا على انها آية الآيات في ما تضمنته من الفصاحة والفنون وانها معجزة لم يدرك شاؤها من جاءَ بعده من الشعراء .

نعم اشار بعض الشرّاح من الناقدين الى ان دانتي لم يكن من المبتدعين بل من المقلدين غير ان الجماهير وفيهم اكثر شراحه وناقديه من جميع الامم كانوا ينظرون الى الالعوبة الالهية بعيون كليلةٍ عن نقد ما فيها من العيوب ، او كأن رهبتهم مما ذكره في جحيمه ملكت عليهم انفاسهم فلم تجرِ اقلامهم بغير الاطراء والاعجاب ، واكثر اولئك ممن كانوا ينظرون اليها بطرف الخشوع كانها من الكتب السماوية ، لفرط تحمسهم الديني ، وهو كما تعلم ُيعمي وُيصمّ ، حتى انهم كانوا اذا مروا بكلمةٍ او جملة تنافي تعاليم الكنيسة نفسها ، قالوا ان فيها نظراً كانهم يرددون ان من الشعر لحكماً .

ولعل ذلك يرجع الى اسباب منها شدة تعصبهم الديني ، ومنها التيار الجارف تيار العُمّي(١)، وقد مرّ لنا قبل هذا في ترجمة دانتى ما كان من ظهور دُعاةٍ له بعد موته بمدة طويلة وكيف انه كلما بعد زمن وفاته ، كان يزيد الراوون خرافات في اخباره من معجزات الصقوها بهِ وزادت في عدد شيعته ، واكثرهم من العامة الاغمار وهم كثيرون في كل مصر وعصر ولاسيما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ومنها ان الالعوبة وهي أغنيات كانت باللغة العامية يومئذٍ كما علمت ، واين لغة فيرجيل من هؤلآءِ وهم لا يفقهون منها لفظاً ؟

ومنها انها تبتدىء في جهنم وفي التفصيل عن سراديبها ومغاورها وسلاليمها وكهوفها ، واعوجاجاتها ودياميسها ، وابالستها وظلماتها ، ونيرانها القائمة المحرقة ، ووحوشها المرعبة الغريبة ، وعذاباتها التي لم تخطر على قلب عاقل ، الى تهويلٍ بالوصف ينزل الهلع والرهبة على اعظم القلوب شجاعةً ، وينشر الغمّ والكآبة على اوضح الوجوه بشراً ، يوم كانت سيوف محاكم التفتيش مجرّدة فوق الاعناق في هاتيك الاقطار ، ورسل تلك المحاكم الظالمة البربرية تجوس خلال تلك الديار ، لاستراق لفظ يشف عن راحةٍ او هناء ، ومباغتة

(١) نسبة الى العامة .

شفةٍ تبتسم عن رجاء، وويلٌ يومئذٍ للمتهمين اذ لا طهور لهم من تلك الاوزار في شرع تلك المحاكم بغير الزيت والنار .

فهل يُعقل ان يُتغنّى في مثل تلك البلاد الشقية بغير هذه الاغاني ؟ ولاسيما ان الحكّام فيها لم يكن يروق لهم سماع سواها ، وهم وعمّالهم المسيطرون يومئذٍ على اعمال الناس وحركاتهم والناشرون فوق الرؤوس سحب التهويل والكآبة والارهاب ، فلا بدع في انتشار الالعوبة انتشاراً يضمن لها الاثر الخالد بين قوم كانوا لا يرون الحياة في هذه الدنيا سوى النوح وقرع الصدور، لنيل الغفران او النجاة من أئمّةٍ ظَلَمَة تناهوا في الفحشاء والشرور .

ومنها ان هوى الجمهور مع المظلوم في كل حين ، او مع من ادّعى المظلمة وان كان هو البادىء ، فهم ينظرون اليه في حال شقآئه وذلّه ، ويسددون سهام قدحهم نحو خصمه ، وقد مرّ بنا ما نزل بداانتي من البلاء ، فلا بدع ان يكون ذلك من اعظم البواعث على الشفقة عليه ، وعلى بعد شهرته ، وهذا في التأريخ ولاسيما في تأريخ الاداب اشهر من ان نقيم عليه الدليل ، وحسبك ما ذكره اكثر نقاد فيكتور هوغو من ان نفيه بامر الامبراطور ناپوليون الثالث ، كان من اعون الاسباب على زيادة شهرته ، وادّعاء مريديه له بالزعامة الشعرية في عصره ، بل غلوّ بعضهم الى ابعد من ذلك .

ونعود الان الى ذكر الرأي العمّي فهو يجرف الرأي القصريّ(١) كما تجرف الامواج عند اشتدادها كل ما امامها ، وقد وقع في التأريخ وغيره من العلوم اغلاطٌ لجماعةٍ من كبار العلمآء ، كان منشاؤها تيار الرأي العمي ، فمنهم من تنبه الى غلطه فاصلحه بعد حين اي بعد السكون ، ومنهم من سُجّل عليه غلطه اذ عاجلته قبل التنبه عليه المنون ، وتفصيل ما يعرض لامثال هولآء من العقلاء حتى تراهم عند تلاطم التيار ينقادون للرأي العمي بغير انتقاد ، فيضيّع الحازم حزمه والحليم رزانته ، مما تكلم فيه كثير من الفلاسفة ولاسيما فلاسفة علم النفس ، وليس هذا محل الافاضة فيه ، فنقتصر على الاشارة اليه فقط ، للبرهان على ما كان من تهافت كثير من العلمآء والناقدين في رفع دانتى الى المنزلة التي احلّهُ فيها العامة وكان من حتمهم او من حق النقد عليهم ان يكونوا اكثر تثبتاً ، واوفر انتقاداً وتدقيقاً ، واشد اخلاصاً للعلم .

ومن اظهر الاسباب في شيوع الالعوبة الالهية ورفع ناظمها الى العرش الثالث لملوك الشعر عند جميع الامم الفرنجية ، هو موت اللغة اللاتينية وانتشار اللغة العامية بين سائر طبقات الامة الطليانية اذ ان هذه لما بدأت تتنبه من رقادها وتتحرر من قيود الاستبداد

(١) نسبةً الى الخاصة كأنهُ مقصور عليهم .

وتنظر الى نفسها جماعات جماعات ، وتتواثب الى الاتحاد ، شأن الامم في اوائل انتباهها ، تجمعها لغة واحدة ، نظرت الى قديمها في العلوم والاداب فلم تجد لها شاعراً غير دانتى طبع بطابع اللغة الطليانية كثيراً من احداثها ، بل جعل تلك اللغة العامية ذات قواعد مكنته من نظم تلك القصيدة الطويلة الشاملة ، فكان في عيون الامة الطليانية محيي آثارها ، ومؤسس لغتها وركن فخارها ، وقد طالعت ما انتابه من الرزايا وما عاناه في سبيل الرجوع الى وطنه ، فانصرفت الانظار عن جملة ما في الالعوبة من العيوب ، ونظرت الى ناظمها نظر الحليم المسامح بل نظر المحب الى المحبوب ، فقالت مع شاعرنا ومن اين للوجه المليح ذنوب .

وآخر القول اذا كان انشاء المرء مرآة عقله ، واختيار اللبيب دليل ذوقه ، فلا ريب انهما مرآة قلبه وصورة عواطفه ومتجلى اخلاقه وادابه ، واذا رمنا ان نستشف من انتقاد رسالة الغفران والالعوبة الالهية مدى عقلي صاحبيهما ، وجلية عواطفهما واخلاقهما لكي نفي هذه الموازنة حقها من الانصاف ، نرى البون بينهما شاسعاً ، فان رجاحة عقل المعري واضحة على كل صفحة من صفحات الرسالة ، وذلك انه لما كانت رسالة ابن القارح في تقيّل الشرع والتزام حدوده ليست من معتقده وكان تقريظها حتماً عليه ، اذ

انتقاد الشعر وكتب الادب وغيره وتقريظها عادة قديمة في الامم نرى حديثها في تواريخ اليونان والرومان ، واما عندنا نحن العرب فيصعد ذلك على ما وصل الينا ، الى حكاية حوليات زُهير والمعلقات ومساجلات ابي نواس وصريع الغواني وابي العتاهية وابن الجهم وبشار بن برد ، ثم الى ما روي عن قول ابي تمام للبحتري عند ما قرأ عليه شعره « نعيتَ اليَّ نفسي يا فتى » ، ومثل ذلك عند الفرنسويين وغيرهم من الاعاجم الى اليوم ، فانه قل ان يوجد بين ادبائهم بل علمائهم من يؤلف كتاباً دون ان يطلع عليه احد اصحابه من العلماء ، واكثر تلك الكتب تُطبع مصدّرة بمقدمة ـ ممن طالع ذلك التأليف ـ في تقريظ الكتاب .

قلنا ولما كان تقريظ رسالة ابن القارح حتماً على ابي العلاء ، صوَّرهُ في شكل حلمٍ كأنه يقول لابن القارح ولمطالعي رسالته ان جزآء مَن يلتزم هذه الحدود كما قال صاحبي هو هذا الحلم الذهبي ، ثم لم يشأ ان يجعل هذا التقريظ كله مزاحاً او مداعبة وهو الفيلسوف الزاهد المتقشف رهين المحبسين ، فملأهُ فوائد وتحقيقات شعرية كانت محور اداب القوم في عصره ، مع اشارات وتلميحات علمية كقوله « وبيني وبينهُ مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة سيرها في العاجلة » والاشارة بها الى القياس بسرعة النور

في علم الهيئة.

وكقوله «يفترق اهل ذلك المجلس بعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة» فهل من وصف لطول ذلك الوقت وسرعة مروره بالمقايسة مع لفظ الابدية ابدع من هذا الوصف؟

وكقوله «وهل يعرف البشر من علم النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض» الى غير ذلك من اللطائف والمعارف.

اما ركن رسالة الغفران، فهو الحلم والتسامح والحنان، وهي عواطف صاحبها واخلاقه وكلها عقل وفضيلة وفلسفة، فانه لما القى نظر علمهِ على ذلك الفردوس الموعود، فكَّ بل سحق بحكمته تلك الاقفال والقيود، وفتّح ابوابه. وفسّح رحابه، ووسّعَ فيه الاماكن لجميع البشر بل للحيوان ايضاً. اما ثواباً لعمل صالح ولو كان طفيفاً. او للفتاة صدقٍ، فلم يَدَعْ جاحداً مشهوراً الا انزلهُ بذلك النعيم، ولا وثنياً او مجوسياً الا وسلسل في حلقه ذلك التسنيم، وسقاهم كلهم ذلك الشراب الطهور القديم، ومتعهم كلهم بالحور والقصور والشباب المقيم، ولسان حالهِ يقول ما ضرّ ربَّك ان يُسكِن مخلوقاته كلها هذه الجنات، وهل تسعكم وحدكم وتضيق عنهم هذه السموات؟ ياضيقيّ العطَن، وناشري الإحَن،

ومعلميّ افانين العداوات ، ثم غمزهم غمزةً فالقى الاخطل وبشار بن برد لاعينهم في النار ، والاول نصراني والثاني مسلم كما تعلم ليحكم في ذلك العقلاء وبضدها تتميز الاشياء .

على اننا ما خطر ببالنا مرةً ابو العلاء الا وحرنا في امره ، ذلك انه على ما اوضحناه اول هذه الموازنة كان من الفلاسفة الزنادقة الذين يهزأون بمذهب البعث ، الا انه ملأ شعرهُ مواعظ بالزهد في الدنيا والبعد عن مسراتها واجتناب سائر لذاتها حتى الخمر والنساء ونادى بقصر العمر وما يعقبه من الفنآء ، وهذا كله عين ما يقول به اهل الاديان كقوله وهو اقصى ما يقوله المتقشفون منهم

ضحكنا وكانَ الضحكُ منّا سفاهةً ... وحُقَّ لسكّانِ البسيطة ان يبكوا
يُحطِّمُنا ريبُ الزمانِ كأنّنا ... زُجاجٌ ولكن لا يُعادُ لهُ سبكُ

وكقوله

رُويدَكَ قد غُررتَ وانت غرٌّ ... بصاحبِ حيلةٍ يعظُ النسآءَ
يُحرِّمُ فيكمُ الصهبآءَ صبحاً ... ويشربُها على عمدٍ مسآءَ
يقولُ لكم غدوتُ بلا كِسآءٍ ... وفي لَذَّاتها رهنَ الكسآءَ
اذا فعل الفتى ما عنهُ ينهى ... فمن جهتينِ لا جهةٍ اسآءَ

وغير ذلك من امثاله كثيراً جداً وفي مراجعة لزومياتهِ غنىً عن الافاضة فيه .

وكنا كما قلنا في حيرةٍ من امر ابي العلاء ، لما نراهُ من التناقض بين مذهبه ومقاله فهو شديد على النسآء في الحجاب ووجوب الاستقرار بالبيوت ، مع علمهِ بانهنَّ في طبيعتهنَّ الانسانية لا يختلفن عن الرجال بل عن سائر الحيوان من النزاع الى الشمس والهوآء والاستمتاع بكل ما في الكون مما تجيش اليه النفس ، وتستلذّهُ الحواس الخمس .

وهو شديد عليهنَّ في ترك التبرّج ، مع انه يُحسَب عند علمآء الطبائع من غرائز الانثى حتى في بعض الحيوان ، ومع انه لم يرَ امرأة قط ـ سوى امهِ في طفوليته ـ ولم يتزوج ولم يَمسّ انثى لقولهِ وهو القائل الصادق

هـذا جناهُ ابي عليَّ وما جنيتُ على احدْ

وهو شديد على شاربي الخمر مع معرفته انها قديمة جداً في الارض وان البشر احبوها في كل عصر بل عبدها كثير من الناس كاليونان والفينيقيين وغيرهم ولم يحرمها دين من الاديان سوى دين الاسلام وفيلسوفنا كما علمت ليس من الاسلام في شيء .

وهو شديد على اهل اللهو وسائر اللذات الجسدية ، يأمرهم بقهر الجسد ومحاربة اهوآء الجسم الطبيعية ، ويتهددهم بقصر العمر ، وينذرهم بالفنآء مع انه القائل

تعبٌ كُلُّها الحياةُ فما أعْـ جَبُ إِلاّ من راغبٍ في ازديادِ

وانَّ كلَّ حيٍّ مصيرهُ كمصير النبات ، فما ضرهم - ان كان الامر كما يزعم - انتهاب هذه اللذات ، والتمتع بما اباحته لهم الطبيعة من المسرات ؟ وما الذي يجب ان يتوقاهُ اذا هو لم يعتدِ على احدٍ من المخلوقات ؟

ان في نواهي ابي العلاء وتشدّدهِ برهاناً بدا لنا من عهد غير بعيد وحلّ لغزاً طالما امتنع علينا حلّهُ ، وذلك ما اوردناه في باب التيّار الجارف من جرف الرأي العُمّي كل ما امامهُ ، واستدراج اعقل الناس اليه من حيث لا يشعر حتى ليضيّع الحازم حزمه ، والبصير رشده ، وتختلف نتيجة المنطقي عن مقدمته ، وهو التناقض الذي اشرنا اليه .

ولا بأس من بسط ما بدا لنا في ذلك ، وهو ان عصر ابي العلاء كان عصر تشدّد في الدين لما انتاب الدولة العباسية العظيمة من خسارتها كل ما كان بيدها من الملك ، الا اسم الخلافة والدين ، وانت تعلم ان المرء حريص على ما بيده من ملكٍ او جاهٍ او سلطان او مال ، حتى اذا ما فقد شيئاً منها تمسّك بسواه ، واذا اصيب بفقدان جميعها نظر الى ما حوله وفتش عما يستطيع امتلاكه والتباهي بهِ ، ولو كان ذلك الملك شيئاً معنوياً كالدين ، فيقبض عليه بكلتا يديه ،

حاسباً انه القوة التي بها يغلب الاعدآء ويستردّ المسلوب، ويستعيد المجد الذاهب والملك المغصوب، او انه يغني عن كل ذلك، وهذا ما اصاب غيرَ امةٍ كالعبرانيين والبيزنطيين في آخر دوَلهم.

فلا بدعَ والامرُ على ما ذكرنا ان يكون الرأيُ العمي لعهد ابي العلاء محصوراً في الزهد والتقشف والصلاة والحجاب والنهي عن الخمر واللهو وسائر اللذات، وان يجرف تيار هذا الرأي حصافة فيلسوفنا فتناقض نصائحهُ صريح مذهبه وتختلف نتيجته عن مقدمته في بعض اقواله.

وفي الختام فلننظر في مِرآة داتى وهي الالعوبة الالهية، اما من حيث العقل واصابة الرأي، فيصعب جداً على الناقد المنصف ان يرى لهما في هذه المِرآة شكلاً او خيالاً، فالخلط فيها اضاع الاصابة وغشّى على العقل بستر كثيف، حتى ظهر فيها رجلَ اوهامٍ وخرافات كانَ حفظَ في صغرهِ شتى كتب التأريخ والعلوم، ثم اصيب في كبره بحمى شديدة غادرته يردّد في هذَيانه اكثر ما حفظه متداخلاً بعضهُ في بعض حتى جآء بهذا الخلط العجيب، فنحن لا نرى عن رأينا تبديلاً فيما بدا لنا من وسواسه.

اما اهوآؤهُ وعواطفه فقد بدت لنا غريبةً عن مواطن اللطف، بعيدةً عن معادن العفو والشفقة، لا تعرف للتسامح معنىً

ولا تقيم للحنان والاعتذار وزناً ، او هوَ سواد انسان لكنَّهُ قُدَّ من حجر ، ومع انه كان زوجاً واباً فلم نسمع منه حرفاً باسم زوجته او اولاده ، بل لم نسمع منه شكوى فراق ، او صوت اشتياق ، او عبارةً تُشعر بانه فكّر بهم ولو كلمحة البصر ، ونرى حب المجد والأثَرة ظاهراً في كثير من اسطرها الى الغاية القصوى .

اما اخلاقهُ فكلها عبوسٌ وكآبة ، وحقدٌ وشراسة ، وحبُ انتقام وقصر نظرٍ لا يعرف من الحلم ورحابة الصدر الا اسميها ، وعنده ان كل مخلوق عاقل على وجه الارض منذ وجدت حتى آخر الدهر ، يجب ان يُزَجّ في نيران جهنمهِ السود ، او انه محكومَ بها عليه ان لم يؤمن بكل ما آمن هو به ، لا عفوَ ، ولا سماحَ ، ولا شفاعة ، ولا رحمة ، ولا غفران ؛ وانت ترى ما بين دانتى وبين المعرّي من البون الشاسع في التعقل والاخلاق ، وانّ رسالة الغفران التي تنطوي على اقصى مزايا التسامح والرأفة والحلم ، باتت بتحويلها عن موضوعها السامي في فم دانتى ، رسالة لعناتٍ وانتقام وكأنَّ شاعرنا العربي نظر اليهما فقال

تقول هذا مجاج النحل تمدحهُ   وان تذمَّ تقل قيءَ الزنابيرِ

وترينا مِرآة دانتى هذه صفحات كثيرة من علوم عصره وحوادثه مخلوطةً خلطاً عجيباً ، فلاهوت القديس اغوسطينوس

باساطير اليونان ، وهوميروس وفيرجيل وصلاح الدين الايوبي وافلاطون في اجتماع ، واحاديث الصبابة والغرام ، وما يعانيهِ ذاتي من الشوق والهيام ، مع الغبطة الالهية اي الله ذاته . . . وليس في كل ذلك ، اي فيما يعرّض به من العلوم ، رأيٌ لراويها او اعتراض او بيان او شرح فكانها صورة كتابٍ ميت لا صوت لسانٍ حي .

هذا ما وصل اليه بحثنا وتمحيصنا ونرجو ان نكون اصبنا فيه شاكلة الصواب وامطنا به منيع النقاب ، عن مخدّراتٍ نزلت عليها آية الحجاب ، وتوارت وراء مغلغات الاحقاب .



كتاب

مرآة النفوس

تأليف

قسطاكي الحمصي

الحلبي

عفي عنه

فهرست مرآة النفوس

تمهيد

لما بلغنا آخر ما اردنا بسطهُ في هذا الجزء الثالث ، رأينا ان نضم اليه شيئاً من كتابنا ِمرآة النفوس لما فيه من العلاقة الشديدة بالنقد الادبي فذيلناه به راجين به للمطالعين بعض الفائدة والفكاهة .

قسطاكي الحمصي

المرآة الاولى

تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة

لا ريب في ان كثيراً من اقوال الانسان وافعاله هي مِرآة تتجلى فيها عواطف نفسه في يد المراقب العاقل، وكلامنا هنا عن الخاصة من البشر، اي عقلاء الناس واذكيآئهم، وفيهم كثير من خبثآء النفوس والاشرار، لان الفطنة والذكآء لا يكفيان في تربية النفوس وتغذيتها بالاخلاق الفاضلة كما هو معلوم.

اما قولنا كثيراً من اقوال الانسان وافعاله، لانه في احوال كثيرة ايضاً لا يكون ذلك منه عن تروٍّ كاملٍ وعمدِ نيةٍ، واما عامة البشر فهم عكس ما ذكرنا، اذ انهم يقولون ما يقولونه عن بُداهةٍ وسذاجةٍ، وافعالهم وحركاتهم خاضعة في سائر احوالهم لبساطة عقولهم وقناعتهم بالقليل وتقارب اغراضهم، وعلى الجملة لعاداتهم وحالاتهم الطبيعية.

الا ان هذه المِرآة قاصرة على مراقبة افراد من الناس كما ذكرنا، فاذا طمع الناقد في الوصول الى ما هو ابعد من ذلك، كأن يروم

معرفة اخلاق امةٍ من الامم ، كان لا بدَّ له من قانون ينتحيه ِ او ِمرآةٍ يجتليها لترتسم له في احدهما صورة اخلاق تلك الامة .

ولعل نقد مصنوعات الامم هو اجلى ِمرآة لنفوسها . ومرادنا بالمصنوعات ، لا تلك الآلات البسيطة التي احتاجت اليها جميع الامم في سائر حالاتها الاولية فصنعتها من الصوّان والعظام والخشب والحديد وغيره من المعادن ، بل المصنوعات التي اطلق عليها الانسان المتمدن اسم المصنوعات الجميلة او المصنوعات النفيسة وهي وليدات الفنون البديعة ، فالتبصر في هذه المصنوعات يبرز لنا صورةً هي ِمرآة ما بلغته تلك الامة من الحذق والذوق والعلم والحضارة ، بل هي اثر اخلاقها ، وكما ان في صنعها ومبلغه ِ من البراعة دلالة على اخلاقها ، فكثرة الموجود منها في تلك الامة ومراتب اتقانها ، تؤثر في تربية نفوسها فتنبعث عنها اخلاقها .

على اننا لا نروم بهذا البحث ان نأتي على تفصيل ما يكشفهُ الاشتغال به من اسرار المحاسن المتعددة التي تتفرع عن هذا العلم ، فذلك مما يستدعي تحقيقاً وافراً وتدقيقاً بعيد الغور ووقتاً لا نطمع في الحصول عليه ، وعلى الجملة علماً وهمةً فوق هذا العلم القاصر والهمة الضعيفة ، ولكننا نجتهد ان نصور في هذه العجالة رسماً ضئيلاً لما يجول في الخاطر من اثر النفوس في المصنوعات الجميلة ،

لانها ثمار علوم الامة التي صنعتها ، ونِتاجُ اذواقها ، وقُصارى اجتهادها ، وعُصارةُ عقولها ، بل هي معرض الفنون البديعة التي لم تزل تتمخّض بها نوابغ العقول منذ اقدم عصر للعمران الانساني .

ولعل الشعر هو اول تلك الفنون ، لانه من الفنون الفطرية كالصوت الحسن ، وليس هو من الصناعات التحصيلية ، ولذلك نرى ان نتخذه شاهداً اولياً على تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة تقريباً لمسافة البحث وقد نلمّ بغيره من الفنون البديعة .

ولما كان الغرام اول باعثٍ على نظم الشعر عند ذوي القرائح سمعنا الشاعر يقول

رمتني امُّ عيّاشِ   بسهمٍ غيرِ طيّاشِ

هذا بدويٌّ يرعى الماعز مرّت به حسناء من نسآء الحي لها طفل اسمهُ عياش ، فرمته بنظرةٍ وما ادراك ما هيَه ، فتنفّس الصُعدآء وقال   رمتني امُّ عيّاشِ   بسهمٍ غيرِ طَيَّاشِ

فشبَّه فعل نظرتها في فؤاده بسهمٍ لا يطيش ، وهو اعلم الخلق بفعل السهام لملابستهِ لها بدوامهِ حراسة الماعز ، لم يرَ الا المآء والسماء والقوس والسهام والقفر والبدر ، والبيت من الشعر ومثله قول الآخر

صغيرانِ نرعى البُهمَ ياليت أنّنا   الى اليوم لم نكبر ولم تكبرِ البُهْمُ

في بساطة المطلوب والتركيب والتشبيه ما يدل على الصانع اي الناظم ومكانهِ من المجتمع الانساني .

وهذا مثلهُ ايضاً

قرّبا مربطَ النعامةِ مني لا تُباعُ الرجالُ بيعَ النعالِ

النعامةُ اسم فرسه وهو يتحمس لاخذ الثأر وكشف العار ويؤجج نار العداوة والحقد في قلوب قبيلته ، وكلامه يدلنا على ما لحقهم من الهوان ،

ولما هجر هذا الانسان القفار والفلوات وذاق طعم الحضارة ونعيمها ، وتبدلت به الحال من امتطآء الجمال ، الى ركوب الخيل والبغال ، واضطجاع ذوات الغنى في الهوادج والمقاصير ، بعد تعرضهن على متون الاباعر لمشاق السفر ولفحات الهجير ، راح الشابّ المدلّ بجمالهِ وماله ، يتعرض لهنّ في الطرق مغنياً مشبباً ، ويراسلهنَّ باشعارهِ متحبباً ، كشاعر وقته عمر بن ابي ربيعة ويقول

نظرتُ اليها بالمحصّبِ من منىً ولي نظرٌ لولا التحرّجُ عارمُ
فقلتُ أشمسٌ ام مصابيح بيعةٍ بدا لكَ خلفَ السترِ أم انتَ حالمُ
بعيدةُ مهوى القرطِ إمّا لنوفلٍ ابوها وإمّا عبد شمسٍ وهاشمُ
ومدّ عليها السجفَ يومَ لقيتُها على عَجَلٍ تُبّاعُها والخوادمُ

فلم استطعها غيرَ أنْ قد بدا لنا ... عشيّةَ راحت وجهُها والمعاصمُ

ولما ارتقى في سلّم المدنية ، وابتسمت له ثغور الحرية ، ورقّت حواشي العيش ، وشفعت محاسن الشباب في الخفة والطيش ، وألِفَ مجالس الانس ، واختلاط الجنس بالجنس ، قال شاعر عصره ذو الوزارتين ابن زيدون يخاطب ولادة بنت المهدي

لَيَسقِ عهدَكُم عهدُ السرورِ فما ... كنتم لارواحِنا الاّ رياحينا

ياساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ بهِ ... مَن كانَ صرفَ الهوى والودَّ يسقينا

ويانسيمَ الصبا بلّغْ تَحيّتنا ... مَن لو على البعدِ حيّا كانَ يُحيينا

ويانعيماً خضرنا من غضارتهِ ... في وشيِ نعمى سحبنا ذيلَهُ حينا

نأسى عليكِ اذا حُثّتْ مُشَعْشَعةً ... فينا الشَمولُ وغنّانا مغنّينا

لا اكؤسُ الراحِ تُبدي من شمائلنا ... سيما ارتياحٍ ولا الاوتارُ تُلهينا

لسنا نُسمّيكِ اجلالاً وتكرمةً ... وقدرُكِ المعتلي عن ذاكَ يُغنينا

واينَ نحن من ام عياش ؟

ثم لما بلغ اعلى درجة من حضارة القرن العشرين ، ولبست له الدنيا زخرفها حيناً وتعرّت حيناً عن ابدع تكوين ، وعاين ما لم تقع عينُ شاعرٍ على مثلهِ قبل اليوم من مصنوع ومطبوع ، وذاق من معاني العيش ما لم تحلم بمثلهِ قريحةٌ بشرية وانما هو نِتاج المجموع ،

قال كاتب هذه السطور في يوم مهرجان الجمال في باريس ، وهو يحسب نفسه في فردوس الفراديس :

عيدُ القوم في نصف الصوم

يا يوماً اطلعَهُ الدهرُ كُلُّ الايامِ لهُ مَهْرُ
باريسُ جَلَتْ نخلائقُها وشوارِعُها موجٌ بحرُ
يا نِصفَ الصومِ وعيدَ القو مِ أَبَعدَكَ عيدٌ او فِطرُ
باريسُ سَمَتْ فمعانيها وغوانيها سُكرٌ سِحرُ
فَهُنا قَدٌّ يحكي غُصُناً وهُنا وجهٌ بل ذا بَدْرُ
وهُنا قَفزٌ وهُنا لذٌّ وهُنا بوسٌ وهُنا هَصْرُ
وهُنا روضٌ وهنا نهرٌ وهنا حوضٌ وهنا جسرُ
ونجومٌ تُذرى فوق الخ لقِ لها نظمٌ ولها نَثْرُ
وَرَقٌ يحكي الوانَ النو رِ فلا يُخشى منهُ ضَرٌّ
فوجوهٌ منهُ تحمرُّ ووجوهٌ منهُ تَصفرُّ
قد بِتنا منهُ باثوابٍ لم يُبْدِعْها يوماً فِكرُ
عيدٌ للحسنِ تُعيّدُهُ باريسُ فَمن لا يفترُّ
وشوارعُها سالتْ بالنا سِ كبحرٍ يدفعهُ بحرُ

مَلَكَاتُ الحسنِ علتْ فيها سُرُراً لم تشهدْها مِصرُ
جرَّتْها خيلٌ مُسرَجَةٌ بِسُروجٍ طرَّزَها التِبرُ
سارتْ والموكبُ يقدمها لا يحجبُ حسناءَ سِترُ
وبنودٌ تخفقُ حولها والندُّ تضوَّعَ والعطرُ
وطبولٌ ثم مزاميرٌ صدحت فتجاوبها القُمْرُ
لِلّهِ بدائعُ باريسٍ وعجائب ليس لها حَصرُ
من قصرٍ يحملهُ فيلٌ او عرشٍ يحملهُ نَسرُ
او فُلْكٍ سارَ على بكَرٍ تَعلوهُ حسناءٌ بِكْرُ
او حصنٍ جرَّتْهُ خيلٌ قادتها عذرآءٌ غِرٌّ
او من عرشٍ فيهِ صَنَمٌ فيهِ روحٌ فيهِ سِرٌّ
وجرى هِرَمٌ يختالُ فتَحسَبُ في باريسَ بدَتْ مِصْرُ
وهُنا طاووسٌ من نورٍ وهُنا مِن نورٍ صَقْرُ
ومصابيحٌ وقناديلٌ حُمرٌ زُرقٌ صُفرٌ خضْرُ
واهازيجٌ واناشيدٌ وعساكرُ يحدوها النصرُ
وغرائبُ ليسَ لها وصفٌ في الكتبِ وليسَ لها حَصْرُ
والناسُ منَ الحيطانِ وفي الـ طيقانِ تصيحُ لنا البِشْرُ

ونسآءٌ قد لَبِسَتْ أثوا ... بَ رجالٍ وٱلتبسَ الامرُ
وشيوخٌ تلعبُ كالولدا ... نِ وليسَ على احَدٍ نكرُ
وزجاجاتٌ واباريقٌ ... لعِبَتْ بِمُعاطيها الخمرُ
ونهارَ العيدِ بليلته ... وصلوهُ فلم يَحْدُثْ هَجرُ
ما بينَ اللهوِ تقضى ٱللي ... لُ على عَجَلٍ وبدا الفجرُ
فأيادٍ في ايدٍ عُقِدَتْ ... واياد يعقدُها الشَعْرُ
وخصورٌ تحسَبُها وهماً ... ولحاظٌ عاهدها السِحْرُ
كم جيدٍ افتنَ ذا لُبٍّ ... كم غصنٍ يعلوهُ بَدْرْ
رقصوا كغصونٍ قد لَعبتْ ... بحواشيها نَسَمٌ عطرُ
كم خصرٍ طوّقَهُ زَندٌ ... كم جيدٍ قبّلَهُ ثغرُ
كم قلبٍ يخفقُ في صدرٍ ... كم عاجٍ يحملُهُ خَصرُ
صاحوا والصبح يُفرِقُهُمْ ... وعهودُ الحبِّ لَها نَشْرُ
يا عيداً تفديهِ الاعيا ... دُ ويحسدُ بَهجتَهُ الدهرُ
عُذْ وٱلزَمْ عاصمةَ الدنيا ... فسواها من الجسمِ الظَهْرُ
كُلُّ الامصارِ لها عَتَبٌ ... باريسُ من الدنيا الصدرُ

فاذا نظرنا نظر ناقدٍ بصير في كل ما مرَّ بنا نرى اثرَ صناعة

القائل في المقول، وبعبارةٍ اخرى اثر نفسه اي اخلاقه، فانه لما كان على الفطرة البدوية من العيش والتفكر، لم تتجاوز صناعته حكاية ما حوله وما يشعر به بخشونة الفطرة وبساطتها فقال

رمتني أمُّ عيّاشِ بسهمٍ غيرِ طَيّاشِ

او صغيرانِ نرعى البُهمَ ياليتَ أنّنا الى اليوم لِم نكبر ولم تكبرِ البُهْمُ

فلم يكن يتمنى شيئاً كتمنّيهِ العود الى رعي البهم مع تلك الرفيقة الراعية الصغيرة، ولما هجر العيش البدوي بدأ يتعرض للنسآء الحسان في الطرق ويشبّب بهنّ ويوسط من يأتيهِ باخبارهنّ ويوصل رسائله وشعره اليهنّ ويصف ركوبهنّ الهوادج والبغال، ورأيناهُ قد خلع ردآء السذاجة الفطرية والخشونة البدوية وبدا لنا في اخلاقه واحواله تأثير حالات عصره، وهي الحضارة ورغد العيش والتأنق في الملبس والمأكل والتلطف في الرسائل والوسائل من الطيب والغنآء والاوتار والكأس والرقص الى غير ذلك من اسباب الرفاهة والتنعم.

وعلى الجملة فقد رأينا من ما تقدم ان الصانع وهو الشاعر، كان يرتقي في شعرهِ من طورٍ الى طور تباعاً لما يكتنفهُ من شؤون عصره وطرق العيش في قطره، فهو وان كان له التصرف في شعرهِ

كما يشاء الا ان ظروف زمانه ومكانه وكل ما يحيط به من خفض العيش ورفاهيته وجريهِ مع تيار المدنية وانواع زخارفها ونعيمها ، كل ذلك كان له التأثير العظيم في لبهِ وعواطفه والتصرف البالغ في خواطره وتخيلاته ، ومن ذلك تعلم ان الشاعر يخلق الالفاظ او يستلهم لها الحافظة ويستوحي الذاكرة لينظم بذلك صور المشهود والمحسوس ، او ما يجول في خاطره عنهما ، وهو امر لا اختلاف فيه ، فشعراء الجاهلية في كل امة ـ واريد بلفظ الجاهلية حال طفولية الامة ومبدأ امرها قبل ان تؤلف الاوزان والقواعد الشعرية ـ لا تتعدى تشبيهاتهم ما يقع تحت ابصارهم ، ولم يكن لديهم يومئذٍ شيء من المحاسن الصناعية ، فكانت مقصورة على المنظورات الطبيعية من السماء واقمارها والازهار والانهار ، ونسمات الاسحار ونغمات الاطيار ونفور الغزلان ، وتمايل الاغصان وخرير الماء وزمجرة الاسود وقصف الرعود ولمع البروق ، والغروب والشروق وعصف الرياح وتلاطم الامواج الى كثير من امثالها بل قد يتجاوزون ذلك عند التنطس في التشبيه كقوله

فقلتُ لهُ لما تمطّى بصُلبِهِ ❊ واردفَ أعجازاً وناء بكلكلِ

وهو في نهاية السخف والدلالة على خشونة القائل كما ترى ،

وكلُّ ما في شعرهم واغانيهم ، وطبولهم ومزاميرهم وتصاويرهم

على حيطان المغاور المتغلغلة في ظلمات القرون ، وما وجد من صور معبوداتهم بين منحوت ومعجون ، حجة صريحة وبرهان واضح على بساطة اخلاقهم وطفولة تخيلاتهم الجاهلية او البربرية، ولكن في كل اثرٍ من اثارهم المذكورة شاهدٌ مقطع على تأثير اخلاقهم فيها اذ هي صنع ايديهم ومِرآةُ وحي قرائحهم .

واذ قد تبيّنا تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة فلننظر الان في الوجه الثاني من المِرآة .

المِرآة الثانية

تأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق

لما كان التدرج سنّةً من سنن الطبيعة في كل شيء ، لم يتجاوز الشاعر في شعرهِ وصف المشهود والمحسوس ، الا بعد ان قطع العمرانُ البشري شوطاً بعيداً من اشواط المدنية ، ويومئذٍ ارتقى الشعر الى المعنويات ، اذ كثرت حول الشاعر الكماليات ، فقام يخلق من ضروبها صوراً يتخيلها فكرهُ مجتمعة بعد ان توالت معاينتهُ لها متفرقة ، ويصورها اشكالاً متفرقة بعد ان عاينها متجمعة ، وراح ينقّب عن اسرار النفس الانسانية وعلاقتها بسواها من الموجودات ، وعن عواطف الحس ودواعيها وينظم ما توحيه اليه

قريحتهُ من المعاني اللطيفة والخواطر السامية فيصورها بابدع لونٍ من اسلوبه واجمل تركيب ، حتى يبدو المنظوم من صناعة قلمه في نسقٍ من الدقة والبراعة ، تريك المعاني ارواحاً ناطقةً بافصح بيان ، في اجسامٍ من الالفاظ تكادُ تُلَمس بالبنان ، وقد لبست من روائع التعبير حللاً هي احسان الاحسان ، واعربت عن بلاغةٍ تسكنُ اليها الاذان ، سُكنى نفوس الذائقين الى اطرب الالحان ، وذلك بتأثر اخلاقه مما وقع تحت انظاره من التصاوير الجميلة والتماثيل البديعة وهندسة الهياكل الانيقة والقصور الرفيعة ومما توالى على سمعهِ من اشعار البلغآء وخطب الفصحآء وبدائع الالحان ورنات اوتار العيدان والآلات الموسيقية العديدة ومحاكاتها اطرب ما يقع في الاذان من اصوات البلابل والاطيار وتلهفات الشجي ومفاجآت المشتاق وعتاب الاحباب والاخوان الى نَغماتٍ هي منتهى امل الآمِل واقصى يأس المستيئس .

ومما لمس ولبس من ناعم الحرير والكتان ومما تشمم من روائح العطور على اختلاف الانواع وغرائب الابتداع .

ومما ذاق من اطايب الاطعمة ولذائذ الخمور ، ومما يطالع كل يوم من اخبار الأكتشافات والمخترعات ومما يقرأ كل وقت من شتى العلوم والفنون وضروب الفصاحة في المنثور والمنظوم ، ومما

يتجلى له من غرائب المعاني والمجازات التي تعرض لنوابغ الشعرآء عند الامم المختلفة ، اذ ان تقريب المسافات في البر والبحار ، وانتشار المطبوعات هذا الانتشار العظيم واقبال الناس على تعلم مختلف اللغات ، وكثرة تنقل الناس وتسهيل اسباب الاسفار ، ومخالطة الامم ولاسيما الشرقي بالغربي الى اشياء لا يحصيها الكاتب ، كل ذلك فسح لقريحة المتفنن ميداناً تتزاحم فيه سوابق التخيلات وغرائب المعاني ، وتتعدد فيه صور الموضوعات ، وتتلوّن اشكال الموصوفات ، ولطافة التراكيب ، وسهولة التعبير عما في الضمير ، واصطياد اسهل الالفاظ مفهوماً ، واكثرها وضوحاً ، وابعدها عن الوحشيّ والغريب والمنفور منه ، وتعمد موَجز اللفظ وبارعه وبليغه ، كما اشرنا الى ذلك في كتاب آخر ، وبهذه كلها تتأثر اخلاقه فيظهرُ لنا ذلك التأثير في شعره وتصويره ونقشه ونحته وهندسته وتلحينه واصوات موسيقاه وطرق خطابته ، ولا سبيل لبسط الشواهد الكثيرة على ذلك في هذه العجالة ولكن ما لا يمكن كله لا يُهمل كله واليك امثلة من ذلك .

ظل شعرآء العرب دهراً طويلاً يشبّهون النهود بالرمان ، قال ابن الروميّ يصف قياناً مغنيات ينقرن على اعوادهن

مُطفلاتٍ وما حملنَ جنيناً　　مرضعاتٍ ولسنَ ذات لبانِ

ملقمات اطفالهنَّ ثُديّاً ناهدات كاحسن الرمانِ

وقال العباس بن الاحنف

وانا امرؤٌ حلوُ الشمائل همتي في قطف رمان الثديّ النُهَّدِ

وقال كثيرون مثلهما وكلهم درجوا على هذا التقليد ، مع ان الشبه غير سديد ، وكأنهم لم تقع ابصارهم على مشبهٍ الطف او اقرب الى المشبَّه من الرمان وهو من صنع الطبيعة كما هو معلوم حتى جاءَ احدهم ولم تعِ الذاكرة اسمهُ فقال

حقاقٌ منَ العاجِ قد علّقتْ على مثلِ صحن منَ المرمرِ
خشينَ السقوطَ فسمَّرنَها مساميرَ صيغت منَ العنبرِ

فاذا نظرنا في جمال هذا التشبيه وبراعة هذا اللفظ وفخامته مع كمال رقته حتمنا ان القائل ممن عاين التماثيل من العاج ، وشاهد صحون المرمر في الحياض يترقرق عليها الماء الثجّاج ، ودار في القصور ، ورأى ما وراء الستور ، ونظر الندَّ يحرَق في الشموع ، والعنبر من المباخر الذهبية يضوع ، بل شاهد مخجلات البدور ، عاريات الصدور ، يتهادينَ باثوابهنَّ النواعم ، في استقبال الربيع الباسم ، نعم ابصر ولا شك كل ذلك فجادت قريحته بقوله

حِقاقٌ منَ العاجِ قد عُلّقَتْ على مثلِ صحنٍ منَ المرمرِ
خشينَ السقوطَ فسمَّرنَها مساميرَ صيغتْ منَ العنبرِ

ومن هذا وامثاله نعلم تأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق ، اذ من اين يأتي لمن لم يعاين تلك البدائع ، ان يأتي بامثال هذه الروائع ؟

واليك مثالاً آخر

لما رأتْ ليلَ البنفسجِ قد ذوى
من ليلنا وزهتْ رياضُ العصفرِ
والنجمَ غارَ على جوادٍ ادهمٍ
والفجرَ اقبلَ فوقَ صهوةِ اشقرِ

هذانِ البيتانِ من قصيدة للشاعر المرقص المطرب امير شعرآء التشبيه غير مدافَعٍ معتوق بن شهاب الموسوي المشهور « بابن معتوق » والبيت الثاني منهما هو المقصود باستشهادنا هذا ، ولعل كثيرين من مطالعي كتابنا هذا يتذكرون عند سماعهم هذا البيت صورة الفجر L'aurore المشهورة وهي من صُوَرِ قصر روْسپيجْليري في روما للنابغة المشهور المصوّر كُويدُوْ رِيْنّي ، ولها نسخ عديدة في پاريز ولندن وغيرهما من كبيرات المدن في اوروپا واميريكا ، وشاعرنا معتوق وكويدو ريني كلاهما من اهل القرن السادس عشر وقد توفي كويدو قبل معتوق بثلاث وثلاثين سنةً ، وكان غيرَ غريبٍ ان يُدركه لو عرفه ، لان معتوقاً توفي في الثانية والستين من سنيهِ ، فكان عمره حين وفاة ريني تسعاً وعشرين سنة ، ولكنّ

معتوقاً عاش ومات في البصرة. وكويدو من اهل بولونيا في ايطاليا وهي مدينة مشهورة بمدرستها مدرسة التصوير، ولا نظنه تغرب عنها الا الى روما، والصورة المذكورة من صنعه لم تفارق قبة القصر المذكور فلا ريب في ان معتوقاً الموسوي لم تقع عيناه على صورة الفجر. وبين البصرة وبولونيا لذلك العهد ستة اشهر بين برٍّ وبحر، بل لعل شاعرنا لم يسمع بخبر الصورة ولا باسم صاحبها، على ان الناظر اليها ان كان ممن وقف على بيت شاعرنا، يكاد يحتم بان المصور اقتبس موضوعهُ من بيت الشاعر او أنَّ الشاعر نظم ما قال بعد معاينته الصورة، ولكن متى علم ما بين هذين المتفننين من الفروق الجنسية والدينية والاخلاقية والبعد الشاسع بين المدينتين كما تقدم، تزيد دهشتهُ ويعترض على ما تقدم بيانهُ من قولنا أنّى يتأتى لمن لم يعاين تلك البدائع، ان يأتي بهذه الروائع؟

والجواب ان تصوير المصنوعات البديعة لفظاً اي نظماً او وصفها او تصويرها اي رسم هيئتها ومختلف اشكالها لا يمكن ان يخطر في قريحة المتفنن مهما أُلهِمَ ما لم يشهدها او يعاين ما يشبهها، او يقرأ لها وصفاً، فان قائل «حقاقٌ منَ العاجِ» لو لم يكن قد شاهد العاج والعنبر والمرمر لما امكنه ان يأتي بهذا التشبيه كما تقدم، واما قائل

والنجمَ غارَ على جوادٍ ادهمٍ والليلَ اقبلَ فوقَ صهوةِ اشقرِ

فكثيراً ما رأى قدوم الفجر وهرب الليل ورأى طراد الفرسان والخيول السود والشقر ومثلهُ مصور الفجر فقد رأى ذلك كله اذ هو شائع في اكثر اطراف الارض، فنتج من وحدة المنظورات التي عايناها، أنْ توارد الخاطران فهذا رسَم وهذا نظم، ولا تناقض البتة في ما ذكرناه.

وتوارد الخواطر كثير في البشر كما هو معلوم على اختلاف اجناسهم ولغاتهم، ونحن نورد شاهداً واحداً والشواهد على ذلك كثيرة قال الشاعر العربي

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُسآءُ ويومٌ نُسَرّ

وقال الشاعر الفرنسوي

Un jour de fête un jour de deuil
La vie est faite en un coup d'œil

ألا يُرى ان كل واحد من هذين الشاعرين يكاد يقول لقرينهِ انك سرقت شعري وترجمته الى لغتك، والسرّ في ذلك ان المعنى الذي نظماهُ هو حالة تتجدد كل يوم على جميع النوع الانساني في سائر اطراف الارض.

وتأثير الفنون البديعة في الاخلاق لا يولد عند المتفننين فقط التخيلات البديعة والمعاني السامية، ويجمّلهم بالشمائل اللطيفة

والالفاظ العفيفة ، ويحبب اليهم الجمال على اختلاف انواعه ومعانيه، في العاقل وغير العاقل، وفي ما لا روح لهُ من المنظورات، بل ان هذا التأثير يشمل كلَّ من تعاطى مادةً من مواده بل يشمل الامة كلها .

ورد في الامثال السائرة انَّ مَن احب شيئاً اكثر من ذكره، وكلما كثرت الفنون البديعة عند امةٍ ، كان ذلك عنوان حضارتها ومجدها ، وترقيها في سلم المعارف البشرية ، وحيازتها اشرف خلال الانسانية ، اذ الاعتياد على المحاسن اياً كانت من منظور او مسموع ، كأن يكون على التصاوير او التماثيل الانيقة ، او بليغ الاشعار ، او الموسيقى السامية ، او الخطب الراقية في الفصاحة ، او الهياكل العجيبة والقصور الجميلة الرفيعة وامثال ذلك ، من شأنهِ تهذيب الاخلاق وانماء شعور الفضائل وتمرين الطباع على حب الجمال وتلطيف الذوق ، فالمحاسن تتطلب المحاسن ، بل ان هذا الاعتياد مما يلقي دروساً اولية على الاولاد ويطبع في نفوسهم الفتيّة حب الوطن اذ يرون كل تلك البدائع في دور التحف ويسمعون الطف الاصوات الموسيقية وافصح الخطب والاشعار في ساحات المدينة ونواديها وقصورها العامة فيعتقدون ارسخ الاعتقاد ان هذه كلها ملكاً مشاعاً لهم يتمتعون بها في كل حين ، وهم على صواب

فيما يعتقدون ، وعلى الجملة فان هذا الاعتياد يغرس في نفوسهم الشغف بالفنون البديعة فتترقى اذواقهم وتتهذب اخلاقهم وتتسع معارفهم .

ولربَّ معترض يقول ان كانت الفنون البديعة هي صنع الانسان ووضعه ـ وهي لاشك كذلك ـ فكيف يؤثر المصنوع في الصانع والموضوع في الواضع ؟ وكيف يمتدّ تأثير مصنوعه الى اخلاقهِ واهوآئهِ وعلومه ؟ وكيف يحبب اليه الفضيلة وهي نتيجة طباعهِ وتربيته ؟ وكيف يولد فيه الشغف بكل ما هو حسن وهو مطبوع عليه وذلك مما شاهدناه في شعره وسائر صناعاته الجميلة ، وبالاجمال ان الفنون البديعة هي وليدة هذا المخلوق العاقل وما علمنا ولداً يربّي والده .

فالجواب ان كل ما ورد في هذا الاعتراض حقيقة لاريب فيها الا اغفال امرٍ واحدٍ ، ذلك ان كل هذه الفنون البديعة بل المصنوعات الجميلة التي شرحنا اجمالاً تأثيرها في البشر على العموم وفي المتفننين على الخصوص ، لم تظهر كلها في بقعةٍ واحدة من الارض ، ولا في عصر واحد ، ولا خُصَّت بها او ببعضها أمةٌ واحدة ، ولانشأت ثم بلغت كمالها في قرن واحد او قرنين ، ولكنها ذات تأريخ بعيد متغلغل في ظلمات القرون وعمرٍ مجهول اوله ،

ولهذا السبب كان تأثير اخلاق البشر في الصناعات كلها ، ولاسيما الصناعات البديعة تأثيراً بطئاً كبطء الامم القديمة في ايجاد سائر الصناعات ، ومثل ذلك تأثير الفنون البديعة في اخلاقهم ، اذ لما كانت حاجياتهم في اوائل امرهم قليلةً ، اي في حال بساطة عيشهم وقناعتهم ، لم تدفعهم الحال الى غير التقليد ، فكانوا يقتفون اثار من سلفهم ، ولما بدأت بينهم الغزوات ثم الحروب وما يتبع ذلك من النهب والسلب ، ثم من تنقل المتحاربين وامتلاك ارض المغلوبين واختلاط القبائل وامتزاجها أمماً واشتغالها في البناء وتخطيط البلاد ، ثم ارتقائها الى المبادلات في التجارات ، فمن ذلك التأريخ في سير المجتمع الانساني يجب تقدير التحسين الذي هبت رياحهُ على الصناعات عموماً ، والفنون البديعة بالخصوص ، رغبةً في نفاق البضائع والربح ، ثم اعقب تلك الرغبة الميل الغريزي والارشاد العملي الى الاحسن ، ثم توالى التحسين والتفنن وتتابع تزاحمُ الامم ورآء الكسب والفخار والتنافس واختيار البيئة ولها تأثير شديد في سجايا البشر ومصنوعاتهم كما تعلم ، ولعل صناعات التصوير والنحت والحفر والنقش لم تكن لتبلغ هذا المقام المنيف عند الامة اليونانية القديمة ، لولا تلك الجبال المرمرية البديعة التي تكتنف بلادها وذلك الهوآء الصافي والنور المتلألئ ، اذ لم يكن

يومئذٍ ورق على وجه الارض ليُرسَم عليهِ ويُخطَّط ويُصوَّر ويجيءُ التصوير ثم الحفر والنحت والنقش والصقل بمثل ذلك الاحسان والاتقان اللذين تجدهما على المرمر بعد الوف السنين ، فاتحاد كل هذه العوامل وغيرها مما يطول استيفاؤهُ في سبيل الصناعات الجميلة، كان من شأنه ليس ترقي الفنون البديعة في وجوه التحسين فقط بل اعان على توسع المتفننين الاولين في طرق الاختراع بتأثير ما يقع تحت ابصارهم من المحاسن ، ونبّه تخيلاتهم ومهّد سبل التكامل في اخلاقهم بعد فاحش البربرية والخشونة ، بل في اخلاق الامة كلها على درجات متفاوتة تتناسب مع التربية والتهذيب والعلم ، حتى تربي فيهم ملكة حب الجمال فتنطبع في غرائزهم كما سبق القول .

ومما يكاد يكون حقيقةً لا ريب فيها ، انه لم يأتِ على الانسان عصر راجت فيه سوق المصنوعات الجميلة عند عموم الامم المتمدنة كهذا العصر ، فتراهم يؤلفون الجمعيات المتعددة في اكثر الممالك المتمدنة ، فمنها لتبويب الحسان من كل مملكةٍ ، ومنها للمعارض والاسباق في التصوير والحفر والنقش والموسيقى والغناء والشعر والادب والرقص والتأليف والتنسيق والتنزيل والترتيب وغير ذلك مما يجدّ له كل يومٍ عندهم هواةٌ يرون في تنشيط ومساعدة المتفننين وسائر عمال الفنون البديعة ، ويجمعون الاموال الوافرة

لتوزيعها جوائز على السُبّاق منهم مكافأة لهم لخدمتهم الامة بما اجادوا وابتدعوا ، وتنشيطاً لهممهم واستجماماً لاذهانهم وارهافاً لقرائحم ، هذا عدا ما تعنى به حكوماتهم وجماعاتهم من التأنق في هندسة منازلهم وكنائسهم وملاعبهم ومتاحفهم وساحات بلادهم وحدائقهم العامة العديدة وكلها مزخرفة بالتماثيل العجيبة البديعة الصنع ، بل لا يكاد يخطو المرء شارعاً من شوارع مدنهم العظيمة حتى يستوقفه تمثال من المرمر او الصفر - برونز - ولو قصدنا الى وصف ذلك حق وصفه لطال الكلام في هذا الباب مما لا تتسع له الا المجلدات الكثيرة فنكتفي بهذه الاشارة ، ولعل اسبق الامم اليوم في ذلك كلهِ الامة الفرنسوية .

فمما تقدم رأينا كيف ان الفنون البديعة تؤثر في اخلاق البشر احسن تأثير ، اذ تألف ابصارهم النظر الى المحاسن فتنبو عن كل ما هو سمج قبيح ، وتتعشق الموسيقى والالحان والشعر والفصاحة والتصوير والنقش والهندسة ، والامة التي تميل الى هذه الفنون ويكون ديدنها الاشتغال بكل ما له صلة بالمصنوعات الجميلة النفيسة لا يُستكثر ان ينطبع في اخلاقها الشغف بانواع الحسن اياً كان ، ولا عجب اذا ما هذّب هذا الشغف الشريف اخلاقها وحسّن ادابها .

ويُستَنتجُ مما اجملناه ان الامة التي لا حظ لها من الفنون

الجبلة هي في الحقيقة بعيدة عن مجاراة الامم المتمدنة، غريبة عن العمران البشري .

المرآة الثالثة

وجه حسود

يا حزيناً يقضي الحياةَ كئيبا ... وعليلاً اعيا شفاهُ الطبيبا
خيَّم اليأسُ فوقَ وجهكَ حتى ... غادرَ البشرَ نائحاً مرعوبا
اعينٌ ترسلُ الغمومَ كسهمٍ ... حيثُ وجّهتَهُ اراعَ القلوبا
ابدَ الدهرِ انتَ حلفَ همومٍ ... فيكَ تزدادُ ما رأيتَ طَروبا
واذا ما نظرتَ وجهاً جميلاً ... رحتَ من حسنهِ غَضوباً قَطوبا
واذا ما سمعتَ صوتاً رخيماً ... او فصيحاً في مجلسٍ او خطيبا
او ثناءً على امرىءٍ بتَّ من ذا ... لكَ شهراً مُسهَّداً مكروبا
واذا قيلَ في البلادِ غنيٌّ ... اضرمَ القولُ في حشاكَ لهيبا
كلُّ هذا وانتَ من نِعَمِ الرحـ ... ـمانِ قد نلتَ اسهماً ونصيبا
ما الذي كانَ منكَ يظهرُ للعا ... لمِ لو كنتَ مُعدِماً منكوبا ؟

المرآة الرابعة

خرجت ذات يوم بعد اكباب طويل على القرآءة اريد النزهة فقابلني صديق اريب قال لي اول ما وقعت عيناه عليّ ، احمد الله الذي منّ عليّ بلقائك قلت عسى خيراً فما ورآء ذلك ؟ قال زارني شخص منذ ثلاث ساعات فلم ارَ فُرجةً مما نالني منه ، الا بان اشكو بثي الى صديق عملاً بقول الشاعر

ولا بدّ من شكوى الى ذي مرؤة
يؤاسيكَ او يسليكَ او يتوجعُ

وقد بعثك الله اليّ ، قلتُ فمن كان زائرك ؟ قال فلان ، قلت وكيف حاله ؟ قال انه لم يزل كما تعهدونه على انانيته ، واسرافه في مدح ذاتيته ، شكوى الكساد او ما ينطق بهِ عند زيارته ونحسَ الزمن وشؤم الوقت ، وهو يُعالن بسعة نِعم الله عليه وكثرة ارزاقه ، يحب القليل من الناس بل لا يحب احداً ، وقليل محبوه بل لا محب له ، فلا ادري أيتعمد ما يجنيه على نفسه من كراهته الناس ام الناس كلهم له اعدآء كما يشير الى ذلك في طيات احاديثه ، وقد يعرض له اثنآء المعاشرة كلام يدل على ان اصحابه كثيرو العدد ، وانهم كلهم يرددون عليه الثنآء بكرةَ وعشياً ، ويتلون لديه ايات الاخلاص

والتكريم ، ثم لا يلبث ان ينقلب الى ذم الزمان واهله في نفس ذلك المجلس ولا يستثني احداً من الخلق لانه ضنين بالمدح ، لم تسمع له يوماً كلمة خير في احد من البشر ، حتى ليكاد يبخل بكلمة عافاك الله على من ينتشله من خطر الهلاك ، بل لو استطاع ان يقبض يده عن اشارة التسليم ، وان لا يحرك شفتيه بالفاظ التحية لفعل ، وهو ينفر من الاجتماع باكثر من واحد او اثنين من الاصحاب وهما اذا غابا عن ذلك المجلس لا يضن عليهما بشيء من نخز لسانه اللاسع على سبيل المزح في التقريظ ، يقول عارفوه انه حسود ، وهو يزعم ان الناس كلهم له حاسدون ، وهو على عِلاّته ذكيٌّ خفيف الروح حلو المطايبة ، لا تكاد تنطق بنادرة او مُلحة حتى يستحسنها ويبادرك بقص شيء من ذلك الباب ، ولو كان من تلفيق ساعته ، فيكثر الاشارات بيديه وكفيه وعينيه ويحرك رأسهُ الى كل ناحية من نواحي الجلاّس ويخفض صوته حتى لا تكاد تسمعه وبين ذلك كله يحكّ ما ورآء أذنيه وحاجبيه بكلتا يديه ويلتفت يميناً وشمالاً نحو سامعيه كانه يشعر بانهم في شكٍ مما يقول حتى يريب بذلك غير المستريب ، وحتى تحسبه من تصويب نظراته انه يؤلف ويختلق وبعد ذلك كلهِ فلا تنسَ انه نبيهٌ وانه صاحبنا ولله في خلقه ايات .

والرئيس اعزهُ الله يعلم ان مَن طلب الصيد كله فاتهُ كل الصيد ، ومن لم يحرص على الصديق الوفي حرصهُ على كنزٍ ثمين فهو غبين ، وان كسب رضى الناس كلهم غرضٌ سحيق ومطلب ممتنع التحقيق .

المِرآة السابعة

الأَنانِيّةُ والمُعجَبيّةُ

على النسبة الى الانانيين والى المعجبين (بضم الميم وفتح الجيم) وذلك قياساً على الكنتية نسبةً الى الكنتيين ، قال في لسان العرب في مادة كَ ن َ . . فقلتُ ما الكنتيون فقال الشيوخ الذين يقولون كنا كذا وكان كذا وكنت كذا فكانهُ منسوبٌ الى كنتُ .

فالانانيون إذنْ هم الذين يقولون انا فعلتُ وانا احبُّ كذا وانا ارى كذا وانا . . وانا . .

والانانية هي منقصةٌ ورذيلةٌ تتطلب كل مزية وخير لصاحبها وان عرّضت سواهُ بتطلبها هذا للاذى وشديد الضرر ، او هيَ طَمَعٌ وجشَعٌ بصاحبها الى كل نافع ومستحسن بغير مبالاة بسواهُ من سائر البشر ، ويعرّفها بعضهم بحب الذات او هو الافراط في محبة الذات ، ولعل تعريفنا اعلاه اوضح واشمل .

وهذه الرذيلة يتفرع عنها بل يتولد معها ويلازمها الحسد ،

فلا يطيق الاناني ان يسمع مدح احدٍ من الناس، او الثناء بالجميل على ذي فضل.

واما المعجبون فهو مبني للمجهول هكذا ورد عن العرب يُقال رجل مُعجبٌ بنفسه او برأيهِ، قال في لسان العرب معجب مَزهوٌّ بما يكون منهُ حسناً او قبيحاً، قلنا ان بناء هذا التعريف ينقضهُ المنطق، لان الانسان لا يزدهي ويفاخر الا بالحسن من افعاله، حتى ان الاشرار انفسهم يكتمون قبائحهم، واذا جرى ذكر القبيح في مجلس فانهم يكونون اول الذامين له، والمشنّعين على اصحابه، فكيف يرضون المباهاة به؟ ولعل الاولى ان يُقال في تعريف الاعجاب بالنفس انه خلل او ضعف في احدى القوى العقلية يوهم صاحبه انه حائزٌ ما تستحسنهُ نفسه.

والمعجبون ليسوا كلهم في مرتبة واحدة، بل هم على درجات، فمنهم من يوقن انه يملك الحسن كله، وهو في الحقيقة قبيح الصورة او مشوّه الخلقة، ومنهم من لا يرتاب في انه حبيب الى كل القلوب، وهذا في الغالب مشارك في شيء من البلاهة، ومنهم من يحسب انه حائز غايات الذكاء والنباهة وهو في الحقيقة من البلداء، ومنهم من يظن انه شاعر وهو اميّ فيقول هذراً ولا يشعر بهزء الناس به، ومنهم من لا يشك في جمعه الحسن والفهم والجود والحلم،

وقد عرفنا رجلاً من هذه الطائفة وكان آيةً من ايات الله في الصفات المتناقضة ، فقد كان حسن الخلقة في الاجمال ، حلوَ العشرة ، على قسطٍ وافرٍ من العلم والفهم والتحقيق والذكآء وقوة الحافظة . وكان سديد النقد بصيراً بمعاني الالفاظ ودقائق التركيب ، حسن المحادثة مستيقناً من نفسهِ بذلك كلهِ وفوق ذلك ، الا انه كان ذا قريحة مستحجرة بل لا قريحة له البتة ، يكتب التافه ومعناهُ مسروق ، وقد ينظم الشعر من باب الكلام الموزون كما ذكرنا في احد ابواب هذا الكتاب والمعاني لسواه ، ويتيهُ بذلك على كل تياه ، وان ساقك نحس الطالع الى ان تنبههُ على لفظ ورد له في غير موضعه او ان تشير الى معنى مسبوق اتى به ، فحينئذٍ تعلم كيف تنحط جلاميد التقريع على الرؤوس وكيف تنهمر سيول التوبيخ والتفنيد والتعنيف ، وهو يزعم ان كل جملة من كلامهِ توازن رسالة جليلة ، وكان طيب السريرة سليم الصدر امين المغيّب ، غير انه كان يتطلع الى الرياسة وتنزع اليها نفسه نزوع الوالدة الى ولدها المفقود ، وكان حب العظمة قد ملك عليه مشاعره ، حتى اذا رام ممازح او خصم ان يثير غضبه ورآه قد كاد ينشق من الغيظ ، فما عليه الا ان يقول له او لمن في المجلس ، ان الرياسة لن تكون الا له او لا تليق الا له ويشير اليه ، فتسكن فجأةً سورته ويتهلل وجهه وتبرق

اساريره ، وقد يقلّب ناظريه في الحاضرين فيرى الابتسام على شفاههم بل قد يرى بعضهم لا يملك نفسه من شدة الضحك ، فلا يبالي بشيء من ذلك كلهِ كانه لم ينظر ما يريبهُ او كانه متحقق ان ضحك الضاحكين ليس لشيء الا لمشاركتهِ في سروره .

وقد يسألهُ احد الاصحاب في ذلك المجلس ان يرتجل خطاباً في موضوع يذكره له وهو لا يروم من وراء سؤاله سوى المزاح ، فلا يلبث ان يغير هيئة جلوسه ، ويسوّي ثوبه وجبته ، وقد يقف على قدميه خطيباً يحسب نفسه بين الوف من الخلق فيتنقل من جملة الى اخرى في كلام يعيده في كل خطاب ، ولا يكاد ينطق بجملتين او ثلاث حتى يصعد الى آدم ثم يحكي شيئاً من قصة نوح ويسقط منها على الكليم صلوات الله عليهم ، ولو تبصرت في حركاته وملامحه واحسنت الاصغاء الى نبراته وهمساته وجواباته وقراراته ، لتبينت انه يظن الكليم تقمص فيه وانه امام الطور او على الطور ، ثم يروي كما لو انه تدلى من الطور الى الارض وشاهد بعض مَن يُعظّمهم من اهلهِ الى حكاية او حلمٍ يُلخص به كيف انقادت اليه الرياسة لما لم تجد لها كفؤاً سواه ، وقد يظل ساعةً او تزيد على هذا النحو ، وهو في ذلك كلهِ مُعجَب بما يُلقي ، يحدج السامعين بابصاره ويجيل فيهم واحداً واحداً نظراته وهم مستغرقون في الضحك لما يشاهدون

من حركاته واحواله ويسمعون من صرخاته وخلط اقواله ، وقد يقطع خطابه بجملة يوجهها الى احد الضاحكين ، كأنْ يقول له انك حاسد لي على مقامي هذا ، او انك تتمنى ان تقول ما اقول ، ويضحك هو نفسه ثم يعود الى خطابه كأنْ لم يكن شيء ، وكانهُ لا يرى في وجوه السامعين وضحكهم الا الاستحسان والاعجاب ، ولا يخطر له ان يقول انكم تهزأون بي مع ان سخريتهم منه ظاهرة ، ولكن شدة اعجابه بنفسه وثقته بمزاياه وعلمه تسدل بينه وبين اوضح الحقائق حجاباً كثيفاً ، مع انه لو بدا له من سواه عشرُ معشار ما يبديه ، لانتقده اشد انتقاد ، ولِما فاته من مضحكات تلك الحالة خفيّ او دقيق ، وليس ما صورته لك مما مرّ امامي وامام سواي مرةً او مرتين ، بل مما تواتر وقوعه امامنا كثيراً ، وهذا من غرائب الطباع البشرية وعجائب القوى العقلية ، فالرجلُ ذكيٌّ القلب ، متوقد الفهم ، سريع الفطنة ، دقيق الحسّ ، حسنُ النقد ، الا فيما يكون منه ويصدر عنه ، وفي ذلك مجال للناقد البصير في افعال القوى العقلية وانواعها وتأثير التربية والعادة في ذلك كلهِ .

ولله در القائل

وعينُ الرضى عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ

كما أنّ عينَ السخط تبدي المساويا

المرآة الثامنة

ابو العلآء المعرّي

ما قامَ فوقَ الارضِ اعمى قبلَهُ يهديْ الى رَشَدٍ ذوي الأبصارِ
بالعينِ يُبصِرُ كلُّ من فوق الثرى ما حولَهُ ويضلُّ في الانوارِ
اما الضريرُ ابو العلا فبروحهِ قد كانَ يبصرُ ابعدَ الاقمارِ
وبدت لسامي فهمهِ وعلومهِ اسمى الحقائقِ مثلَ جسمٍ عارِ
فأتى بما لم يأتهِ من قبلهِ بَشَرٌ وادركَ مُغلَقَ الأسرارِ

المرآة التاسعة

عُقابٌ وتمساحٌ

كان لي صديق على جانب من العلم كثير المطالعة شديد الذكآء فارس النظر ، وكان يزعم ان لكل وجهٍ من وجوه البشر شبهاً بحيوان ، من طائر في الهوآء ، او سابحٍ في المآء ، او دبّابٍ على وجه الغبرآء ، وان تلك المشابهة تدله على طباع صاحبها وهي عين طباع الحيوان المشبه به .

ووقفتُ يوماً على ورّاقٍ (كتبي) كنت معتاداً على الجلوس

عنده ، وكان يصاحبني صديقي هذا واذا بداخل يقول السلام عليكم فما اتجه نظري اليه حتى عرفته . فتقدم نحوي وصافحني وقال رأيتكم من بعيد وانا مشتاق اليكم فتتبعتكم حتى ادركتكم فقلت وانا اليكم مشوق فكيف انتم ؟ وما عندكم ؟ فاخذ في حديث عن آخر سفرة له واكثرها يتعلق بتجارته ومصالح نفسه ، وصديقي يقلّب ناظريه في وجهه وحركات يديه وسائر جثته وكان الرجل بادناً ، ولما انتهى من حديثه صافحني مودّعاً وذهب ، ولم يطل جلوسنا بعد ذلك عند الكتبي فودعتُ ونهضت راجعاً والصديق يسير بجانبي ، فقلت له رأيتكم تحققون الرجل بابصاركم وتجيلونها فيه من قمة رأسه الى عقبي قدميه فماذا رأيتم ؟ قال رأيت عقاباً ، قلت ما ذا تقولون قال عقاباً نسرياً ولا اخطىء ، قلت ومن اين بدا لكم وجه الشبَه ؟ قال أما تبصرتم في ذلك الانف المُعَكَّف الاقنى وارنبتهُ الدقيقة وتلكما العينين الصغيرتين الغائرتين اللامعتين تحت حاجبين كثّين فوق خدين بارزين ؟ ثم أما لاحظتم كفيه الصغيرتين وبعد النسبة بينهما وبين جثته الكبيرة واصابعه المتقوسة واظفاره المستطيلة الثخينة الصفر كأنها مخالب نسر تتطلب القبض والاقتناص والافتراس ؟ وصاحبكم شَرِهٌ ، طمّاع جبان ، اي انه جامع سائر طباع العقبان . وكنت اتبصر فيما يقول واتعجب منه فانه صور لي

اخلاق الرجل تصوير مَن عاشره دهراً واختبرهُ خبراً، وهو لم يعرفه قبل اليوم، فقلت له أتبنون حكمكم هذا على قواعد علمية من علم الفراسة ام هو سرّ من الاسرار المضنون بها على غير اهلها؟ فتبسّم تبسم الاريب اللبيب ثم قال ان علم الفراسة كما تعلمون قد تكلم به كثيرون من اقدم تواريخ البشر، الا انه الى اليوم لم تتقرر له قواعد عامة يُرجع فيه اليها، وانما انا ارى باختباري ان طريقتي - وهي لا شك طريقة من سبقني من القدمآء - هي اضمن للحقيقة من سواها، وكنا وصلنا الى مفترق طريقنا، واذا بصديق لي قديم يصحبهُ رجل اعرفهُ وقد تنحى عنه قليلاً عند ما تقدم صديقي لمصافحتي ومصافحة صاحبي وكان يعرفه، وظلّ ساعةً يحادثنا، ومن ذلك انه صادف احد اصحابي عند قفوله من اوروبا على ظهر الباخرة فحكى لي عنه ما سرني، وبين ذلك كلهِ كنتُ الحظ صديقي غير منصتٍ الى الحديث وان كان يحاول ايهامنا من ذلك، وفي الحقيقة قد توجّه بكل خواطره الى رفيق صاحبنا المتنحي عنا، وكان يصعّد فيه نظره ويصوّبه، حتى اذا ما همَّ الصاحب بوداعنا تقدّم الى رفيقهِ معتذراً ثم سارا، وما كادا يبتعدان قليلاً حتى بادرني صديقي بقولهِ أتعرفون هذا الرجل رفيق صاحبنا فقلت نعم اعرفه وقد رأيتكم تتفرسون فيه غاية التفرس فهل بدا لكم من ملامحهِ ما

اباحكم اسرار نفسه ؟ فقال بل قل اسرار نفسه الخبيثة . قلتُ وقد ملكني منه العجب ومن اين لكم ذلك ، قال لو تفرستم فيه ومنحتموه شيئاً من انتباهكم بقاعدتي وهي المقايسة والتشبيه في ذاكرتكم بين صورته وصورة حيوان او وحشٍ لبرز لكم في الحال تمساحاً في زي انسان ، فعيناهُ عينا تمساح في البلاهة والبلادة والخبث والمكر لونهما ترابيّ يضرب الى اصفرار ، وهو ينظر من شقيهما كانه في ذهول او متنبهٌ من نوم ثقيل ، اضف الى ذلك فماً يتصل شدقاهُ باذنيه ، واذناهُ كانهما سُمّرتا في اقصى رأسهِ المستطيل ، اما فكّاه ولا سيما الفك السفلي ، فما اشد عرضهما وتبسطهما القبيح ، واذا تأملت وقاك الله في شفته الفوقانية وانقلابها قليلاً الى فوق ، وفي التحتانية وانقلابها الى اسفل حتى تبدو لك اسنانه الصفر كانها نابتة على شفته السفلى ، وفي فمهِ المشقوق على الدوام كانهُ مستعد للنهش والعض ، واذا تبصرت في الشعر الاصفر النابت غب الحلاقة او القص على شفتهِ الفوقانية كرؤوس الحسك ، وفي خديهِ العريضين المنبطحين الى اسفل على لون اخضرٍ قذر ، فلا تلبث ان ترى امامك تمساحاً ذا انفٍ قصيرٍ افطس منفوخ المنخرين ، وجبين اخضر قذر جداً كانه ظهر تمساح مع قحة ظاهرة وعدم احساس وحشي .

كل هذا وسواه يبدو لك لدى التفرس فيه فلا يخامرك ريب في ان السريرة سريرة تمساح متعطش الى نهش اعراض الناس وافتراس لحومهم واقتناص مالهم .

فقلتُ له ان كانت كل فراستك بل بعضها على هذا النحو الذي بدا لي منك هذا اليوم ، فانا اشهد انك افرس علمآء الفراسة ، فصافحني باسما شاكراً وودعني بعد ان وعدني ألا ينقطع عن زيارتي طويلاً .

المرآة العاشرة

﴿ الطاعة مع الكذب خير عندي من الصدق مع العصيان ﴾

جمعتني الاقدار ، في ليلة ذات امطار ، بجوّاب افاق ، حَسنْ السرد والسياق ، فحكى في ما حكى قال رست بنا السفينة في احد الاسفار امام مدينة . . ولا اسمي ، فتذكرت صديقاً يقطن بها فسألت الربان أطويلٌ مُقامنا في ذلك الميناء ام قصير ، فقال لا اقل من خمس ساعات ، وكان الفصل شتآء فقلت في نفسي لا اقضي حق الوفآء ان لم ازر صديقي وقد اسعف الدهر بذلك ، وكانت القوارب حول الباخرة فناديت من على ظهرها احد الملاحين فلم يكد يسمع ندائي حتى شقّ بقاربه الماء وصار بجانب السلم ،

فمسكت بيده وقد مدها اليّ وقفزت الى القارب ، فسار كالسهم ولم يكن الا كلا ولا ، حتى كنت على المرفأ ، فاشرت الى الملاح ان يعود بعد اربع ساعات ، ثم ركبت سيارةً وقلت لحاميها اقصد شارع كذا رقم كذا فسار بها كالبرق ثم وقف بي امام المنزل الذي عينتهُ له فنزلتُ وسألت البواب عن صاحبي فاجاب انه لم يبرح منزله ففتحت حامي السيارة بمقاطعته (باجرته) ودخلت على الصديق ، فحدّث عن سروره بمفاجأتهِ هذه ولا حرج ولما انتهينا من التأهيل والترحيب ومبادلة احاديث الشوق قلتُ له أتحب ان نطوف ساعة في المدينة لمشاهدة ما جدّ فيها بعد طول العهد ؟ فقال ذلك اليك ثم نهضنا وخرجنا ونحن نتذاكر اطايب الذكرى حتى انتهينا الى زقاقٍ قديم فاستوقفني وقال اتعرفونِ فلاناً قلت لا قال انه كثير الذكر لاسمكم وهو لم يترك شيئاً من كلامكم نثراً ونظماً الا وطالعه وهو اديب كامل وطالما شكى اليّ فرط شوقه الى مشاهدتكم فهل ترون ان نزوره الان وداره قريبة منا ، قلت لا مانع يمنعني سوى ضيق الوقت ، قال ومتى مجرى الباخرة فنظرت في ساعتي ثم اجبته بعد ثلاث ساعات ، قال اذن لدينا كل الوقت فهيا بنا ، ولم نسر الا بضع خطوات حتى وقف بنا على باب دار هندستها قديمة فطرق الباب وسأل الخادم عن سيد البيت ثم قال له قل

لمولاك ان في الباب فلاناً وصديقاً آخر فدخل وعاد الينا بسرعة البرق وقال على الرحب والسعة يقول مولاي ، فدخلنا داراً رحبةً ولم تقع عين صاحبها علينا الا واقبل علينا بوجه باشّ مرحباً مؤهلاً ولا تسل عن سروره عندما ذكر له صاحبي اسمي ثم اخذنا في الحديث من شأن الى شأن ومرت بنا ساعتان لم نشعر بهما ، وفيما نحن كذلك نادى الخادم وقال له مَن هذه التي جآءت ؟ فقال هي الكوّآة (اي الكاوية) فقال أدعُها لي فخرج وناداها فدخلت علينا وحيّت ثم قالت لصاحبنا يا سيدي متى ترغبون ان احضر قمصانكم ؟ فقال لها غداً صباحاً ، فقالت هذا لا يمكن يا سيدي ، قال اذن لا تأخذي شيئاً ، فقالت لكم الامر وحبذا لو استطعت تنفيذ امركم ولكن الوقت شتآء والمطر متواصل فكيف اتمكن من غسلها وتنشيفها وكيّها بهذا الوقت القصير ؟ قال لها كان يمكنكِ ان تجاوبيني بنعم ثم تحضرينها بعد يومين ، قالت أما اكون كذبتُ عليكم ؟ قال اطاعتكِ مع الكذب ، اهونُ عليَّ من صدقكِ مع العصيان ، اعني ان تكذبي عليّ بقولكِ نعم احب اليَّ من صدقكِ مع مخالفة امري بجوابكِ لا اقدر او لا يمكن ، وعندئذٍ ناداها الخادم فتبعتهُ ، والتفتَ الرجل اليّ - وكنتُ سارقتُ صاحبي نظر التعجب مما سمعتهُ - فقال لعلكم تتعجبون يا سيدي مما سمعتموهُ

مني ، ولكن اذا ظهر السبب بطل العجب فانني ربيتُ في بلادٍ حكمها استبداديّ منذ مِئات من السنين ، ودين اهلها التسليم والطاعة ، فلا اعتراض على حكم ، ولا تعجب من شيءٍ غير طبيعي ، ولا تعليل لما هو غامضٌ ، اذ الاعتراض على الحكم هو التظلم او ادعآء الجور والباعث على ذلك ثورةٌ عقلية دوآؤها استئصال الرأس عن الجسد كيلا تستفحل وتسري عدواها والعياذ بالله ، هذي هي قوانينا واما التعجب من اي شيء كان فهو نقص يقين بالله لان الله قادر على كل شيء ، واما تعليل ما غمض عنا او ما نجهلهُ فهو حمق منا وتطاول لادراك حكمة الله ومقاصدهِ فالله تعالى وتقدس اسمهُ اعلم بما صنع وسوّى ، ومحاذرة تعليل المجهولات واجتناب الخوض في اسرار الكائنات ، راحة للجسم والعقل لا يأباهما الا المتطفل ، وهما خيرٌ من التوغل في مباحث تدعي طائفة من العلمآء والفلاسفة انهم كشفوا اسرارها وما هم بصادقين وفي كل عصر يهدم متأخرهم ما بناهُ المتقدمون منهم .

وعصارة القول ان ابائي واجدادي على هذا نشأوا ومضوا وانا اتبع خطواتهم مستريح الجسم والبال ، وقد سمعت من يقول عنا اننا قوم نحبّ الكذب ونحب ان يُكذب علينا ابد الدهر ، فهب ان بعض ذلك حقيقيٌ ألا ترون أنَّ مَن يشتري راحة البال

والبدن بمثل هذا الثمن غير غبين ؟ قلت يا سيدي هذا بحث يقتضي وقتاً اطول من وقتي هذا اذ الباخرة ستجري بعد نصف ساعة او نحوها ولعلي لا ادركها الا بحسن دعائكم فاستودعكم الله الان وارجو ان تجمعنا الايام فصلونا بحسن الذكر فنهض الرجل وخرج خارج الدار وطلب الينا مواصلته باخبارنا وودع اخلص وداع ، ثم قصدت السفينة بعد ان ودعت صديقي على امل اللقآء والاجتماع .

المِرآة الحادية عشرة

نفثة

أَمَا في الحِمى ضَوءٌ لمن جنَّهُ الليلُ — أَمَا هضبةٌ تُرقى لِمن دَهمَ السَيلُ
الى كم يظَلُّ الظلمُ للعدلِ ماحياً — وكم يستمرُّ الجورُ في الناسِ والويلُ
اذا قالَ ربُّ الفضلِ أُنكِرَ قولُهُ — وإنْ نطقَ المهذارُ قيلَ هوَ القيلُ
أُقلّبُ طرفي في الديارِ فلا ارى — سِوى مُدَّعٍ فضلاً وليسَ لهُ ذَيلُ
اذا قلتُ قُمْ للامرِ قامَ مُعدِّداً — معاذيرَهُ لا حولَ فيهِ ولا حَيلُ
تحكّمتِ الاذنابُ فالامرُ اعوجُ — متى كانَ للاذنابِ عن عَوَجٍ مَيلُ
أجهلاً وبغياً واستطالةَ فاجرٍ — وعصرَ جيوبِ القومِ، قد طفحَ الكيلُ

أَمَا فيكُمُ للبثّ صَيحةُ مُشتَكٍ ... اذا لم يكنْ مالٌ لديكمْ ولا خَيلُ ؟
كفى القومَ عاراً انْ يُقالَ غبيُّهُمْ ... اخو سؤْدَدٍ فيهمْ لهُ المنعُ والنيلُ

المِرآة الثانية عشرة

من احبَّ شيئاً اكثرَ من ذِكره

كان لنا في كل اسبوعٍ مجلس يضمّ طائفةً من خاصة اهل الادب وعصابةً من اعيان الفضل وفيهم كلُّ ظريفٍ ولبيب ، يديرون من الاداب كؤوسا ، ويطلعون من آفاق الذكآء شموسا ، ولما انتظم عقد المجلس في يوم من ميعاده ، ادار احد الفضلاء فيه ابصاره ثم قال اني لا ارى بيننا فلاناً وهو كما تعلمون من بدور الكمال في هذا البلد الخصيب فعلى مَ ينتحي عنا مكاناً قصيّاً ؟ فقال صاحب المنزل قد وعدني مِراراً فلا ادري ما الذي كان يعتاقهُ في كل مرةٍ ، فقال آخر لِمَ لا نرسل اليهِ ألوكةً تقيمهُ من بيته وتقعده بيننا ؟ فاستحسن الحُضَّر هذا الرأي وطلبوا الى رب البيت ان يكتب اليه فاخذ قلماً وقرطاساً وكتب :

يا ايُّها الخلُّ الحبيـ ... ـبُ وايُّها المولى الاجلّْ
علّلتني بزيارةٍ ... وتركتني رهنَ العِلَلْ

فظللتُ ارقصُ اولاً ثِقةً بتحقيقِ الأملْ
يأتي الصباحْ وينقضي فاقولُ عوّقهُ عمَلْ
واذا المسآءُ اتى اقو لُ عساهُ أنْ يأتي وعَلْ
حتى اذا ما الشهرُ غا دَ اقولْ سوف اذا استهلّ
تأتي الشهورُ وتنقضي ولبرِّ وعدِكَ لم أزلْ
مترقّباً متعطّشاً فامننْ بهِ قبلَ الأجلْ
ولربَّ اخوانٍ لنا بلقآئهم اقصى الجَذَلْ
في مجلسٍ عندي بهِ من جَنّةِ المأوى بَدَلْ
تُجلَى علينا قرقفُ ما الاندرينُ وما العسَلْ
هيَ ذَوبُ الباب بِها نخرُ الاواخرِ والأُوَلْ
وَلأنتَ ادرى ذائقٍ منها واكرمُ مَن نَهَلْ
فانهضْ الينا غيرَ مأ مورٍ لِبرجِكَ يا بَطَلْ
فاذا حلَلتَ بهِ أرَيـ ـتَ البدرَ في برجِ الحَمَلْ

فلما قرأها قوبلت بمنتهى الاستحسان ثم نادى احد الغلمان وقال خذ هذا المكتوب وطِرْ به الى دار السيد فلان وضعهُ بين يديه ، وعاد الاخوان الى احاديثهم ومفاكهاتهم الى ان قال احدهم

لمخاطبه ِ اراكَ من دُعاة الاشتراكية قال وما برهانك على ذلك ؟ قال تكرار ذكرها وذكر جماعتها ، قال أهذه كل حجتك ؟ قال وما تريد بعدها وفي الامثال المأثورة « من احبَّ شيئاً اكثر من ذكره » قال وقد يكون الامر على عكس ذلك ، والامثال لا تصدق في كل حين ، ولكل قاعدة شاذّ بل شذوذ ، قال صاحبه اني لا اوافقك على ما تقول ، وبينا هما في ذلك والقوم مصغون الى حديثهما اذ دخل الصديق المُستدعى ونسميه سعيداً ، ومكانهُ من الفضل ورجاحة العقل مشهور بين الناس ، فقال احد المتناظرين اترضى بالمولى سعيد حكماً بيني وبينك ؟ فاجاب مناظره أتسألني وانت تعلم انقيادي لرزانة ارآئه ؟ ثم قصّ عليه كل منهما ما قال . فلما فرغا من الكلام انصت كل من في المجلس لما يكون حكم المولى سعيد فقال لا ريب في ان الامثال حكمة الامم ولكن ما يشذ عن احكامها كثير ايضاً ، بل منها ما يكون امره كامر الاضداد في كثير من الفاظ اللغة مثل قولنا تلحلحَ فلانٌ فهو يعني ثبت في مكانه ويعني ايضاً انه ذهب وكقولنا امرٌ جَلَلٍ فهو يعني انه عظيم ويعني ايضاً انه يسير .

فقد يكون الأكثار من ذكر الشيء حباً به كما في المثل وقد يكون خداعاً ومكراً بالسامع على حد قول الشاعر

وقد يتزيا بالهوى غيرُ اهلهِ ويستصحبُ الانسانُ مَن لا يلائمهْ

او على حد قول المعري

رويدَكَ قد غُرِرْتَ وانتَ غرٌّ   بصاحبِ حيلةٍ يَعِظُ النسآءَ
يُحرّمُ فيكمُ الصهبآءَ صبحاً   ويشربُها على عمدٍ مسآءَ

وكم من شريرٍ يكرر ذكر الموت حتى يُحسب من عباد الله الناسكين وهو في الخلوة شيطان مريد! وقد عرفتُ فيما مضى من الدهر صعلوكاً تزدريهِ العين بل مسخ قردٍ كان في اول امرهِ يخدم في مهنةٍ ساقطة، ثم خدع احد المستورين من البسطآء اذ استأمنهُ على تفهٍ من المال يبيعهُ لحسابهِ في السوق ولما طالبهُ بقيمته انكرها عليه، فحاكمه الى الحكام ولكنه كان اتلف الثمن فظل يحاول ويماطل ويماكر ابان المحاكمة ثم التجأ الى بعض اصدقآء صاحب المال ملتمساً ان يستأجلهُ في دفع قيمة المال ريثما يتمكن من ايجاد خدمة يحصّل منها وفآء ذمته، فرضي المستور المغبون اذ كان قد ملّ خداعه ومماطلته، غير انه بعد ذلك ايضا لم يحل منه بطائل.

هذا ما حكاه لي عنه من عرفهُ يومئذٍ ولا ارتاب في صدق كلامه، ولم تزل تتقاذف به ايدي المصادفات حتى عدّ نفسه في عداد المحامين، بين عمى الدهر وظلامه، يومَ لم يكن للمحاماة قانون مشروع، ولا جائز ولا ممنوع، وكان يُطاق عليه وعلى امثاله اسم

« ابوكات » ويسميه بعض الناس ابا احتيالات ووكيل رشوات ، وكان اتخذ له اعوانَ خبثٍ ومكر ، وسماسرةَ خداعٍ وغدر ، وشهود زورٍ وهتر ، يصطادون له من المدينة والارياف سليمي الصدور من جماعات المتخاصمين ليحكّموه بينهم وظل دهراً على ذلك وطريقته الاثيمة ، الغدر باحد الخصمين ، او المكر بالاثنين ، للوصول الى اقتناص الدينار العين ، حتى جمع من السحت شرّ مجموع ، ولم يكن يُسمع منه الا الفاظ الشريعة والقانون والنظام والعدل والحق والانصاف والاستقامة والامانة والشرف والناموس وامثالها ، فهل باكثاره من ذكر هذه الالفاظ كان محباً لها حقاً او واقفاً عند نواهيها وقد سمعتم مجمل خبرهِ ، وشيئاً من عجره وبجره ، ولله در القائل

تعصى الالهَ وانتَ تُظهِرُ حبَّهُ   هذا لعمري في الفِعالِ بديعُ
لوكانَ حبُّكَ صادقاً لاطعتَهُ   انَّ المحبَّ لمن يُحبُّ مطيعُ

فلم يكد ينتهي من كلامه حتى قال احدُ اعيان ذلك المجلس وانا احبُّ ان اعزّزَ رأيَ الاخ السعيد بما اتفق لي من هذا الباب فهل تحبون ان ارويه ؟ فاجاب الجمع نعم وحُبَّةً وكرامة ، فقال كان احد خلاني الاعزآء يحذّرني على الدوام مِمن يكررون ذكر الصدق

والصلاح والصوم والصلاة ويسميهم اصحاب الصادات ولكنه في الحقيقة كان يتحذر كلَّ من يتعمد في حديثه تكرار ذكر فضيلة وكنت اعجب من ذلك اذ كان على جانب من طهر النفس وحب الفضائل ولا سبيل لخبيرٍ بمحاسن اخلاقه ان ينسب ذلك الى سوء ظنه بالناس ، فقلتُ له يوماً اني اراك شديداً على اصحاب الصادات فقال معاذ الله ان يكون ذلك مني عن سوء ظنٍ باحدٍ معين من الخلق ولكني اكره للمرءِ ان يتبجح ويتمجح بما ليس فيه ويلبس غير ثوبه لخداع الاغرار ، ألا ترى فلاناً وتكريره لفظ الاخلاق والوطنية والحرية والمرؤة والشرف وامثالها من الفضائل كانها من اظهر خصاله وقد قيل لي انه كان خليقاً به ان لا يكررها كثيراً في شعره وقال اخرون انها شباكٌ يصطاد بها فتيان المدارس في هذه الناحية وغيرهم ممن يحسبون انهم يفقهون وسواهم ممن يظنون انهم باماديحهم له يتاجرون او يعتزون الى غير ذلك من الاقوال، والرجل شاعر لا ريب في قريحته الا انه نادر الجيّد فقير الابتكار كثير الاغارة على معاني المتقدمين من الشعرآء ، على انه لو لم يلبسها من تركيبهِ ثياب الركاكة ومبتذل اللفظ ، لما فضح امره العارفون ولا اغترّ بها ضعفآء العلم وعادمي الذوق ، ومهما يكن من ذلك فقد بلغني انه منذ تجاوز الخمسين قد تمادى في شرب العقار وخلع

في اجتماعاته وخلواته اثواب الوقار حتى تغامز عليه الصغار، من ضاربي الصنوج والاوتار، ورموه بينهم بالعار والشنار، وتهامس بعضهم على ان في طباعه دناءة يتخذ لها من تكريره الفاظ المرؤة والحرية وغيرهما من الفضائل، خفاء اي ثوباً يظن انه يستتر به عن اعين الرقباء ويخدع بظاهره البسطاء وانا لا اقطع فيما ذكرته لك من المنقول فراقبه ان احببت وافدني ما يتحصل لديك من المنخول، فراقبته مدةً ووكلت من اثق به ايضاً في مراقبته فكانت الحقيقة عندي وعند صديقي فيما قيل، وان اجتهد في طمسها اصحابه وقانا الله واياكم كل خزيٍ واحسن ختامنا وختامكم.

المرآة الثالثة عشرة

اداب المعاشرة

يا خيرَ منصوحٍ واكرمَ نازحٍ — اسمعْ فديتُكَ نصحَ اخلصِ ناصحِ
كنْ عن حسودِكَ معرضاً ولئِن بدا — لكَ ودُّهُ فالحقدُ ليسَ ببارحِ
واهجرْ معاشرةَ الكذوبِ ولا تثِقْ — بمداهنٍ بذّالِ مدحٍ نافحِ
شرُّ الخصالِ تقامرٌ وتعاقرٌ — فاحذرهما تأمنْ قبيحَ طوائحِ
واحذرْ معاشرةَ اللئيمِ فأنهُ — مترصدٌ لكَ كلَّ شرٍّ سانحِ

ان البشاشةَ للضيوفِ منَ القرى فَابرُزْ بوجهٍ بالبشاشةِ طافحِ
واذا جلستَ بمجلسٍ فاظهرْ لمن فيهِ ظهورَ معاشرٍ متسامحِ
واذا نطقتَ فزنْ مقالكَ واجتنبْ لفظَ اغتيابٍ كاجتنابِ الكاشحِ
واذا سمعتَ فخذْ بسمعكَ عن لسا نِ نميمةٍ تأمنْ مذمةَ قادحِ
وتجنَّبِ الدعوى فخجلةُ مُدَّعٍ ما ليسَ فيهِ منَ المعابِ الفاضحِ
نزِّهْ كلامكَ عن قبيحِ تصنُّعٍ واذا مزحتَ فكن اخفَّ ممازحِ
لا تقتسر ضحكاً فتلكَ بضاعةٌ مبذولةٌ بل ذاتُ زورٍ واضحِ
واذا ضحكتَ فكنْ بطبعكَ ضاحكاً ما جازَ طبعَ المرءِ ليسَ بصالحِ
واذا رأيتَ السامعينَ اليكَ قد اصغَوا فلا تذهبْ لفرطِ تفاصحِ
خيرُ الكلامِ بليغُهُ فارغب لهُ ليسَ المطيلُ منَ المقالِ برابحِ
واعلمْ بأنَّ سواكَ ممن ضمَّهُ ذاكَ النديُّ يرومُ فرصةَ طامحِ
فافسحْ لهُ وقتاً لبسطِ حديثهِ لا تحتكرْ لكَ كلَّ سمعٍ سانحِ
واحذرْ اشاراتِ اليدينِ ولا تكن متلفتاً مثلَ الخطيبِ النابحِ
لا تحسبنَّ اللفظَ منكَ مواهباً او انعماً منهلّةً من مانحِ
إيّاكَ قولَ انا فعلتُ واتني اهوى كذا وكذا اسوسُ مصالحي
لا تجعلنَّ امورَ نفسكَ محوراً يبدو حديثكَ حولهُ بفواتحِ

كُلٌّ لهُ من امرِهِ شُغُلٌ فلا ... تحسَبْ امورَكَ ذاتَ قَدرٍ راجحِ
وآختَرْ مواضيعَ الحديثِ جميعها ... إلاّ حديثَكَ عنكَ غيرُ مُسامَحِ
وانصِتْ لقولِ محدّثٍ ولو انّهُ ... القى اليكَ بحامضٍ وبمالحِ
ما كُلُّ ذي صوتٍ يغرّدُ منشداً ... والاذنُ تأذنُ للصدى والصادحِ
انَّ الجِراحَ امضُّها في كِلمةٍ ... فاكففْ لسانَكَ عن كلامٍ جارحِ
لا تُثنينَّ على امرىءٍ بحضورهِ ... فبغيبةِ الممدوحِ صدقُ المادحِ
ليسَ التصدّرُ في المجالسِ رافعاً ... قدْراً فكمْ صدرٍ لقدرٍ فاضحِ
لا تقطعنَّ حديثَ غيركَ انّهُ ... عارٌ يعينُ عليكَ قدحَ القادحِ
واذا اعترضتَ لهُ عقيبَ كلامهِ ... فاحلمْ فانَّ الحلمَ سِرُّ الرابحِ
واذا اجادَ محدّثٌ في مجلسٍ ... فبضلهِ حدّثْ هناكَ وصارحِ
انَّ المُجيدَ لهُ علينا شكرهُ ... فالصمتُ من صفةِ الحسودِ الجامحِ
ودَعِ الحُليَّ معَ الحريرِ لعاطلٍ ... من كلِّ علمٍ فارغٍ من صالحِ
والبسْ حُليَّ ذوي العقولِ فانها ... دُرَرُ المعارفِ والكمالِ النافحِ
فالمالُ مثلُ الغيثِ يسقطُ تارةً ... فوقَ الصخورِ وتارةً في راشحِ
والفضلُ ليسَ يُنالُ يوماً بالمُنى ... وتصادفٍ او حكمِ بختٍ رابحِ
واخو المعارفِ ليسَ يبرحُ باسماً ... امواله كالبحرِ ليسَ بنازحِ

والعلمُ ليسَ يُخافُ من إنفاقهِ ... وبحفظهِ عزُّ الاديبِ الناصحِ

فاذا قصدتَ الى المعارفِ رتبةً ... فاركبْ الى الجوزآءِ ظهرَ الرامحِ

لا تقنعنْ بالدونِ فهي نقيصةٌ ... وارغبْ عن العُميّ(١) رغبةَ جامحِ

كُلٌّ لهُ من طبعهِ ميلٌ الى ... بعضِ الفنونِ وذاكَ سرُّ الناجحِ

فاذا عصتكَ من الفنونِ جماعةٌ ... فانظرْ الى ميلٍ بطبعكَ راجحِ

واقصدْ هناكَ تُطعكَ كلُّ عصيّةٍ ... من غيرِ تكلفةٍ وكدحٍ فادحِ

مَن رامَ جمعَ محاسنِ الدنيا فقد ... يُبلى بفقدانِ القليلِ الصالحِ

أنَّ التشبّهَ بالكرامِ فضيلةٌ ... لا باختلاسِ ظواهرٍ وملامحِ

فالقردُ يَحكي كلَّ ما نُبديهِ من ... حركاتنا ويكونُ هُزْأةَ مازحِ

لو كان زيٌّ ساتراً عيباً لما ... اهدتَ بينَ الخلقِ جيشَ مقابحِ

ليس الفتى بثيابهِ او لفظهِ ... لكن بعرفانٍ وقلبٍ ناصحِ

كم ذي ثيابٍ رثةٍ من تحتها ... نَفْسٌ عزوفٌ عن اذىً وفضائحِ

ولكم فتىً ذي بِزّةٍ محمودةٍ ... من خلفها نفسُ الوفُ قبائحِ

لا تعجبنَّ برأيِ نفسكَ او بما ... صَنعتْ يمينُكَ من صنيعٍ ناجحِ

او بالذي اوحاهُ قلبُكَ وانتظرْ ... كيما يكونُ سواكَ شخصُ المادحِ

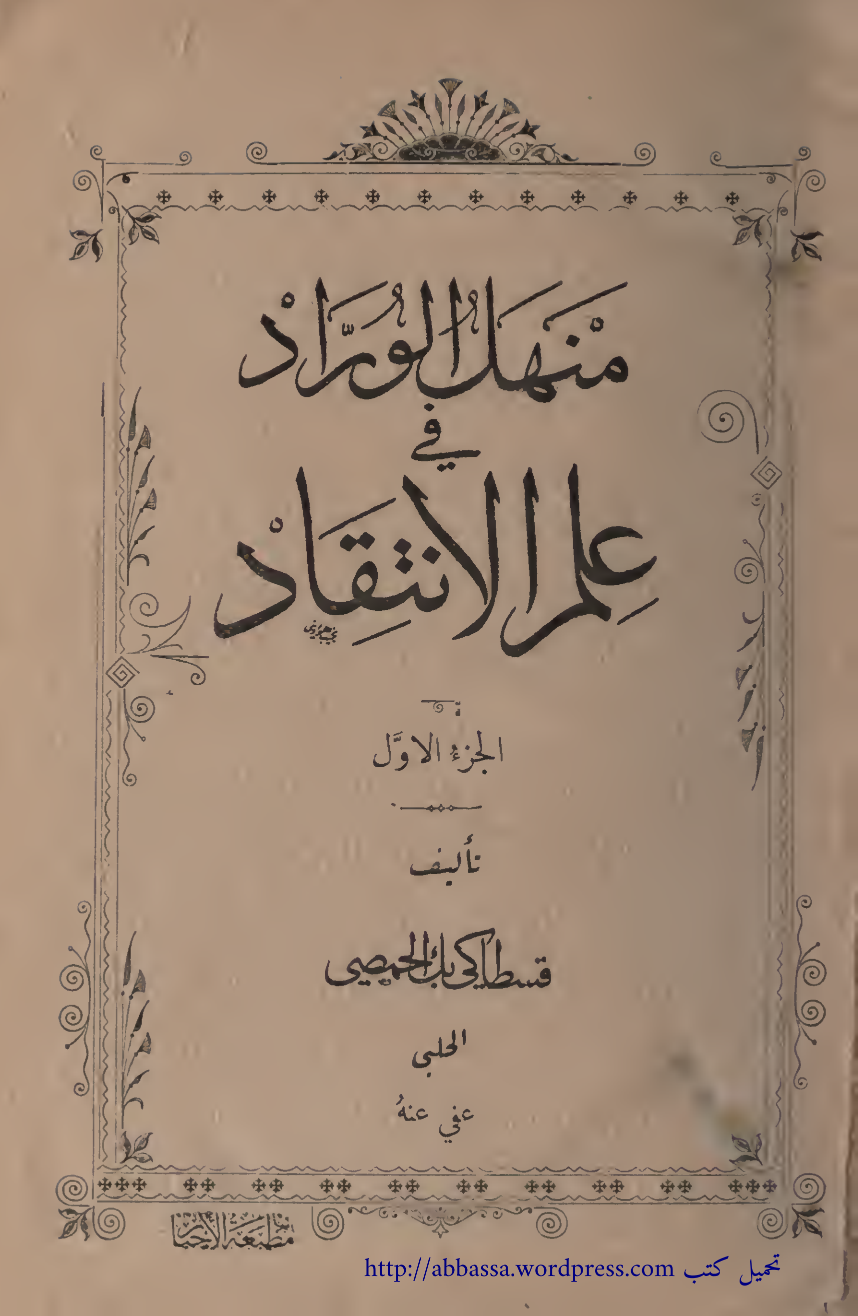
---

(١) العامي

صفحة	خطأ	صواب
١٦٥	لجلت	لحلت
١٦٩	السائله	السائلة
١٩٦	الحمى	الحي
١٩٧	رُوي	رُوي
٢١٤	لا يدله	لا يدَ لهُ
٢١٥	كناشية	كنّاشة
٢٢٧	اللغات	اللعنات
٢٣٨	طالعتْ	طالَعَتْ
٢٤١	كثيراً	كثيرٌ

مرآة النفوس

صفحة		صفحة		صفحة
	خطأ	٢٥١	صواب	٥
	»	٢٥٢	»	٦
	»	٢٥٣	»	٧
	»	٢٥٤	»	٨
	»	٢٥٥	»	٩
	»	٢٥٦	»	١٠
٣٨	»	فودعتُ	»	فودعتهُ



منهل الوراد في علم الانتقاد

الجزء الاول

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عفي عنه

مطبعة الأخبار